أخبار اليوم
قطاع الثقافة

مكتبة إحسان عبد القدوس الكاملة

إحسان عبد القدوس

لا تطفئ الشمس

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

الجزء الأول

مطبوعات
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

إحسان عبد القدوس

لا تطفئ الشمس

الجزء الأول

الإخـــراج الـفـــنى :

أحمـــــد الســـعيد

الغـلاف بريشـة الفنان :

عـمـــــرو فـهـــمـى

الحيـاة مبـادىء .. ابحث عن
مبادئك .. تجــد حيــاتك ..

إحســان

http://arabicivilization2.blogspot.com

Amly

إهــداء ..

إلي السـيدة التي عـبرت مـعى ظـلام الـحيـرة ، والـحب فى قلبـينا.. حتـى وصلنا معـا إلى شـاطىء الشمس.

إلى الـهـدوء الـذى صـان لى ثورتى.. والصـبـر الذى رطب لهفتى.. والعقل الذى أضاء فنى.. والصفح الذى غسل أخطائى..

إلى حلم صـبـاى.. وذخـيـرة شبابى.. وراحة شيخوختى..

إلى زوجتى..

والحب فى قلبينا..

إحسان عبد القدوس

٢ مارس ١٩٥٩

١

● أحمــد ●

إدارة المعاشات بوزارة المالية.

وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرا عندما قفز أحمد واقفا من وراء مكتبه، وحمل فى يده كتابا ضخما باللغة الانجليزية عنوانه «أعمال برنارد شو» ثم رفع يده الأخرى يحيى زملاءه :

- السلامو عليكو بأه يا جماعة.

ورفع زملاؤه رؤوسهم إليه، ونطقوا فى صوت واحد :

- وعليكم السلام، ورحمة الله.

ثم انفرد صوت من بينهم يقطر حسدا وحقدا، وقال من خلال ابتسامة صفراء :

- مع السلامة يا أحمد بيه.

وخرج أحمد يسير فى الممر الطويل الرطب، وعلى وجهه أمارات وقار مفتعل، وشفتاه مضمومتان كأنه يحبس خلفهما ضحكة كبيرة.. ثم نزل السلم، وخرج إلى فناء الوزارة.

وتقدم منه أحد السعاة وهو ينحنى بين يديه قائلا :

- تاكسى يا أحمد بيه ؟!

ورد أحمد فى صوت وقور، وفى عينيه نظرات جادة كأنه فى طريقه إلى مهمة خطيرة :

- أيوه.. بسرعة !

وهرول الساعى إلى الشارع يستدعى سيارة أجرة.

ووقف أحمد على سلم الوزارة وقد شد قامته الطويلة ونفخ صدره

العريض، والنظرات الجادة لا تزال تملأ وجهه الأسمر القوي، ويده فى جيب بنطلونه.. كأنه أحد كبار الموظفين.. كأنه أكبر من سنه.. رغم أنه موظف فى الدرجة السادسة، وسنه لا يتجاوز الخامسة والعشرين.. وكل ما يميزه عن موظفى الدرجة السادسة، وما يميزه عن سن الخامسة والعشرين، أنه معفى من التوقيع على ساعة الوزارة.. إنه يستطيع أن يذهب إلى مكتبه فى الساعة العاشرة صباحاً، ويخرج منه فى الساعة الثانية عشرة، دون أن يوجه إليه لفت نظر، أو يوقع عليه خصم من مرتبه..

وهو لم يعف من التوقيع على الساعة والارتباط بمواعيد العمل، بقرار من الوزير، أو لطبيعة العمل الذى يقوم به.. أبدا.. لقد كان من أحرص الموظفين على مواعيد العمل عند بدء تعيينه منذ عام واحد.. ومضت شهور طويلة، وهو يذهب إلى مكتبه فى الساعة الثامنة صباحا، ولا يغادره إلا فى الساعة الثانية بعد الظهر.. ثم فجأة اكتشف أنه لا يعمل شيئا.. والأعمال التافهة القليلة التى تعرض عليه لا تستغرق من الوقت الذى يقضيه فى المكتب أكثر من نصف ساعة. باقى وقته يقضيه فى قراءة الصحف وفى تبادل أحاديث تافهة مع زملائه، وفى انتظار أن يستدعيه رئيسه.. ثم لم تعد الصحف تكفيه لقتل الوقت، وضاق بأحاديث زملائه، ورئيسه لا يستدعيه إلا نادرا.. فبدأ يحمل معه كل يوم كتابا من الكتب التى يهوى قراءتها.. كتب الأدب والتاريخ.. ويقضى وقته فى قراءتها.

ثم تطور أكثر من ذلك.. لقد أحس أنه منافق كبير إذ يذهب إلى مكتبه بإدارة المعاشات ليقرأ كتابا فى الأدب.. وصحيح أنه يستفيد من قراءة هذا الكتاب أكثر من استفادته من قضاء وقته فى الحديث مع زملائه وانتظار أن يستدعيه رئيسه.. وصحيح أيضا أن الحكومة إذا كانت قد عجزت عن أن تستفيد من جهده نظير المرتب الذى تدفعه له، فأجدى عليه وعلى الحكومة أن يستغل هذا المرتب فى تثقيف نفسه بالأدب والتاريخ.. ولكن.. رغم كل هذا، فمكاتب إدارة المعاشات لم تخصص لقراءة الأدب والتاريخ.. وهو منافق إذ يجلس إلى مكتبه فى إدارة المعاشات ويقرأ كتابا لألدوس هكسلى أو عبد الرحمن الرافعى.. إنه أكثر من منافق.. إنه جبان، يستسلم للفوضى الحكومية لقاء حرصه على تقاضى مرتبه.. مرتب لا يستحقه، ولا

يستحق مثله كثير من زملائه موظفى الحكومة.

وعندما وصل إلى هذا الحد من تفكيره، ثار على نفسه.. وقفز - يومها - من وراء مكتبه فجأة كأن ثورته أشعلت النار فى ثيابه، ونظر إلى زملائه وقد احتقن وجهه، وقال كأنه يتحداهم جميعاً:

السلام عليكو.

ونظر إليه زملاؤه - يومها - فى دهشة ثم علت شفاههم ابتسامات ساخرة، وقالوا فى أصوات متتالية كأن كلا منها صدى للآخر :

- وعليكم السلام.. ورحمة الله وبركاته.

ثم نكسوا عيونهم وعادوا إلى ما كانوا فيه.. دون أن يعبر أحد عن دهشته بكلمة.

وقضى أحمد ذلك اليوم والليل الذى أعقبه، وهو يرتب الكلمات التى سيواجه بها رئيسه فى الصباح التالى، عندما يسأله عن سبب انصرافه قبل موعد انصراف الموظفين.. سيقول له : إنه لا يستطيع أن يقضى وقته فوق مكتبه دون أن يعمل شيئا.. وأنه لا يعتبر مقصرا فى عمله بخروجه قبل موعد الانصراف، لأن ليس لديه عمل يقصر فيه.. و.. و.. وسيصر على رأيه.. أما أن يعهد إليه بعمل.. أو يبيح لنفسه حق الخروج والدخول وقتما يشاء.. وإلا.. فهو يقدم استقالته !

وذهب إلى مكتبه فى إدارة المعاشات فى اليوم التالي، ووجهه لا يزال محتقنا، كأنه يختزن ثورة تحت جلده.

ومضت ساعة وساعتان.. وبلغت الساعة الثانية دون أن يستدعيه رئيسه، بل دون أن يعلق أحد من زملائه على انصرافه المفاجى فى اليوم السابق.

ثم تذكر.

تذكر شيئا لم يكن يحسب حسابه.

تذكر أن خاله هو وكيل الوزارة.

وهو لم يكن قد نسى هذه الحقيقة، ولكنه كان يتجاهلها.. كان يعتقد أن هذه الحقيقة لا يمكن أن يكون لها أثر على تصرفاته داخل الوزارة، أو على معاملة رئيسه له، أو على شعور زملائه نحوه.. ولكن يبدو أن هذه الحقيقة

ـ حقيقة أن خاله هو وكيل الوزارة ـ هى كل شىء بالنسبة لشخصيته فى الوزارة.. وأنه إذا كان قد استطاع أن يتجاهل هذه الحقيقة، فإن كل من حوله لم يستطع أن يتجاهلها.

إن رئيسه لا يعهد إليه بعمل حرصا على راحته.. راحة ابن أخت وكيل الوزارة.. وفى المرات القليلة التى يستدعيه فيها، يقف له ويخرج من وراء مكتبه، ويتقدم إليه وبين شفتيه ابتسامة كبيرة، ثم يصافحه فى حرارة مفتعلة «ازيك يا أحمد.. بيه.. على الله تكون مرتاح فى الشغل».. ثم يجلسه بجانبه ويأخذ فى التحدث إليه عن متاعبه، وعن العبء الكبير الملقى عليه، وعن الخدمات الكثيرة التى يؤديها للدولة.. ثم.. ثم عن تأخر ترقيته، كأنه يبلغه رسالة لينقلها إلى خاله وكيل الوزارة.. وهذا هو كل شىء.. لم يحادثه مرة فى عمل جدى من أعمال إدارة المعاشات، ولم يعهد إليه أبدا بعمل يمكن أن يؤديه.

وكذلك زملاؤه.. لا يستطيعون أن ينسوا أنه ابن أخت وكيل الوزارة.. إنهم يعاملونه بأدب مفتعل لا يعاملون به بعضهم بعضا، ويسدلون بينهم وبينه ستارا من النفاق، ولا يشركونه فى أسرارهم.. إنهم يعاملونه كأنه جاسوس عليهم.. كأنه هو شخصيا وكيل الوزارة.

والسعاة.. إنهم يجرون بين يديه، وينحنون أمامه، انحناءة أكبر من انحناءاتهم أمام رئيسه.. وقد كان يعتقد أن هذا الاحترام ليس إلا طمعا فى البقشيش الذى يفيض به عليهم.. ولكنه ليس البقشيش وحده.. إن خاله هو وكيل الوزارة.

وقد بذل كثيرا من الجهد منذ أول تعيينه فى وظيفته حتى ينسى من حوله هذه الحقيقة، وحتى ينساها هو نفسه.. كان يبدى لرئيسه احتراما شديدا.. وكان يتبسط مع زملائه ويحاول أن يندمج فيهم.. كان يخفى أربطة عنقه الأنيقة وقمصانه الحريرية ولا يذهب إلى الوزارة إلا وفوق صدره رباط عنق عادى، وقميص من القطن.. وكان يشاركهم فى طلب ساندويتش الفول كل صباح، رغم أن الفول يربك أمعاءه.. كان يحاول أن يصل إليهم ويكون واحدا منهم.

ولكن جهوده كلها، إذا كانت قد انتهت بأن أمالت قلوب. زملائه إليه،

وشهدوا له بدماثة الخلق، فهى لم تقنعهم بأنه واحد منهم، ولا أنستهم أنه ابن أخت وكيل الوزارة.. بل إن بينهم من لا يخفى حقده عليه.. حقد جبان مستتر.. كحقد زميله الأستاذ فرحات عبد الله عبدالخالق.

وإزاء هذا الإصرار، بدأ أحمد يستسلم لهذه الحقيقة.. حقيقة أنه ابن أخت وكيل الوزارة.. وبدأ يتقبل الامتيازات التى يسبغها عليه النفاق والجبن الاجتماعى، دون اكتراث.. لم يعد يخجل من تمييز نفسه على زملائه.. بل كان يحس بأنه - وهو يتمادى فى منح نفسه امتيازات ليست من حقه - كأنه يعاقب زملاءه.. يعاقبهم على نفاقهم وجبنهم وعلى رفضهم اعتباره واحدا منهم.. واحد يتساوى معهم فى الحقوق والواجبات، رغم أن خاله وكيل الوزارة.

وكان أول الامتيازات، أن أعفى نفسه من التوقيع على الساعة.. لم يعد يتقيد بمواعيد الحضور والانصراف.. كان يذهب إلى مكتبه فى العاشرة، ويخرج فى الثانية عشرة.

ولم يكن سعيدا بهذه الامتيازات.

كان يحس بتفاهته.. كان يحس بأنه لا شيء.

ومنذ أن تفتح وعيه وهو يتمنى أن يكون شيئا.. ولكنه لم يكن يدرى أى شيء يمكن أن يكونه.. إنه لا يستطيع أن يكون أى شىء، لا يريد أن يقوم بعمل يستطيع أى رجل آخر أن يقوم به.. هناك شيء يريده.. شيء خاص به.. شىء لا يستطيع أن يقوم به إلا هو، دون كل الناس.. ولم يكن يبحث عن هذا الشيء حوله.. بل كان يبحث عنه فى داخله.. فى أعماقه.. وقد التحق بكلية الحقوق وهو يعلم أنه لا يريد أن يكون محاميا.. إنه لا يستطيع أن يكون محاميا.. وخلال سنوات الجامعة قرأ كثيرا من الكتب التى يهوى قراءتها.. كتب الأدب والتاريخ والفلسفة والمذاهب السياسية.. وكان وهو يقرأ لا يكتفى باستيعاب المعانى، بل كان كأنه يحاول أن يجد نفسه بين السطور.. يحاول أن يكتشف ماذا يريد أن يكون؟ هل يريد أن يكون نابليون.. سقراط.. روبسبير.. غاندى؟ هل يريد أن يكون أحد المناضلين الاشتراكيين.. أم يريد أن يجاهد جهاد روتشلد وروكفلر.. أم يريد أن يكون أحد شهداء ثورة وطنية؟ إنه لا يدرى.. إنه لا يعرف ما يريد.. ونفسه القلقة

الحائرة لا تستقر على أرض، بل تتنقل كل ساعة فى خيال جديد.. ورغم ذلك ففى هذه النفس القلقة شىء مستقر.. ولكنه شىء بعيد لا يستطيع أن يصل إليه، لا يستطيع أن يمسك به بين يديه، ويعرف كنهه.. شىء له بريق كبريق الماس.. ولكن قطعة الماس فى منجم عميق، وعليه أن يحفر الأرض كلها حتى يصل إليها.. يحفر نفسه..

وبعد أن تخرج فى كلية الحقوق، لم يحاول أن يبحث عن عمل.. فلم يكن يعرف ماذا يريد وماذا يستطيع أن يعمل؟ جلس فى بيته واستطرد فى قراءاته.. ثم لم يعد يكتفى بالقراءة، فأخذ يتردد على مجتمعات كثيرة مختلفة متناقضة.. كان يذهب ويجلس فى المقاهى البلدية فى حى الحسين والسيدة زينب.. ويظل شهرا أو شهرين يتردد على هذه المقاهى بانتظام حتى يعرفه روادها ويعرفهم.. ثم فجأة ينتقل إلى مقاهى شارع فؤاد وشارع سليمان باشا وميدان الأوبرا، ويعيش فيها بين طبقة الموظفين كبارهم وصغارهم، وطبقة الأعيان.. ثم التحق بالنادى الأهلى.. ثم استطاع أن يلتحق بنادى الجزيرة.. ولم يكن يستطيع أن يندمج فى كل هذه المجتمعات.. كان يقف منها موقف المتفرج الدارس.. وكان يبحث فيها عن نفسه أيضا.. عن الشىء الذى يريده.. كان ينظر إلى بائع «لحمة الرأس» وهو جالس فى مقهى الفيشاوى بحى الحسين، ويسائل نفسه: «هل أستطيع أن أكون بائع لحمة رأس.. وهل أريد؟».. ثم ينظر إلى أحد كبار الموظفين، وهو جالس فى ملهى «ماتتيا» أو فى النادى الأهلى، ويسائل نفسه: «هل أريد أن أكون من كبار الموظفين.. وهل أستطيع؟».. و.. و.. كانت جولاته الاجتماعية بمثابة رحلة فى عالم البشر يبحث خلالها عن نفسه.. رحلة يستعرض فيها أنواع الناس، ليحدد النوع الذى ينتمى إليه هو.

ومر عام على تخرجه فى الجامعة، وهو لم يجد بعد نفسه، ولم يعرف ماذا يريد أن يكون، سواء من خلال قراءاته الكثيرة أو من خلال رحلاته بين الناس.

ولم يكن مضطرا من الناحية المادية إلى أن يعمل أى عمل يرتزق منه.. إن والدته تمتلك عمارة فى وسط القاهرة تدر دخلا شهريا قدره ثمانون جنيها، وتمتلك البيت الكبير الذى يقيمون فيه ومعاش والده يصل إلى خمسين جنيها فى الشهر.. وكل ذلك يكون إيرادا يكفى لتعيش العائلة فى مستوى لائق.

ولم يكن ينوى أن يعتمد على دخل العائلة طوال حياته.. إنه ليس متعطلا، وليس خاملا.. ولكنه يقوم بعمل شاق.. إنه يبحث عن نفسه.. يبحث عن قيمته الحقيقية فى الحياة.. يبحث عما يستطيع أن يؤديه لنفسه وللناس.. وهى مهمة شاقة يتعذب ويشقى بها.. يتعذب بالحيرة، والقلق، واللهفة على معرفة مواهبه.. وهو ليس متباطئا.. إنه متسرع .. إنه يقضى نهاره وليله كالمجنون، يقرأ ويستعرض، باحثا عن نفسه.. وهو يعلم أن كل من حوله ينظرون إليه فى انتظار أن يبدأ فى العمل.. أن يبدأ فى الارتزاق.. وهو يستطيع أن يقرأ الأسئلة الكثيرة التى تنطق بها عينا أمه، وعيون إخوته.. بل إن أمه بدأت تلمح فى حديثها إليه كأنها تنبهه إلى واجبه ومستقبله.. ثم أصبح تلميحها تصريحا، وبدأت تحثه على أن يعمل.. ولم يكن يهمها ماذا يعمل ؟ فقط تريد أن تراه يعمل.. أى عمل.. وخاله وكيل الوزارة، إنه لم يعفه أبدا من نصائحه .. وكل ذلك كان يضغط على صدره.. ويؤرقه.. ويعصر أعصابه.. ويشعره بالنقص.. يشعره كأنه لص يسرق رزق أمه وإخوته.. لماذا لا يتركوننى أبحث عن نفسى.. لماذا يلاحقوننى بعيونهم وإلحاحهم.. ماذا يعود عليهم إذا قبلت أى عمل تافه من الأعمال التى تعرض على خريجى كلية الحقوق.. وكان هذا الصراخ لا يتجاوز صدره، إنه يكتمه فى أعصابه ويتجاهل إلحاح العائلة عليه بأن يجد لنفسه عملا.. أى عمل.. فهو لن يقبل أى عمل.

ثم..

ثم جاء خاله عزت «بيه» راجى.. لزيارتهم، فى أحد الأيام.. وكانت زيارة خاله لهم لها واقع كبير بين أفراد العائلة. إنه عميدهم بعد أن توفى الأب.. وهو إنسان جاد.. جاد حتى وهو يضحك.. ولم يكن من عادته أن يأمر أبناء أخته، أو يقسو عليهم.. ولكنه يسيطر عليهم بمظهره الجاد المحترم، وبالتقاليد الصارمة التى يضعها بينه وبينهم، بثقة الأم فيه وحاجتها إليه.. وكان أحمد يحترمه.. ويحبه.. وكان يضعه دائما موضع دراسته.. كان يحاول أن يدرس طباعه وعقليته، وكان يسأل نفسه دائما : «هل يستطيع أن يكون كخاله؟» وكان يعتقد أن خاله إنسان سعيد.. كان يخيل إليه أن هذا الكرش الضخم، وهذا اللغد الذى يتدلى من تحت رقبته، إنما يخفيان كنزا

من السعادة.. ولم يكن يعتقد أن خاله سعيد لأنه وكيل وزارة، بل لأنه راض عن نفسه منذ كان شابا موظفا فى الدرجة السادسة.. وأحمد لا يريد إلا أن يكون راضيا عن نفسه، كرضاء خاله عن نفسه.. وهو لن يرضى عن نفسه إلا إذا وجدها أولا.. إلا إذا عرف ماذا يريد أن يصنع بنفسه؟

وجلس الخال مع أفراد العائلة برهة ثم قام واقفا وأشار إلى أحمد قائلا:

– تعال يا أحمد.. عايزك فى كلمتين.

ثم دخل إلى غرفة المكتب.. التى كانت غرفة مكتب الأب المتوفى.. وجلس على مقعد عريض من الجلد، ومد ساقيه أمامه ليريح فوقهما كرشه، ثم قال فى صوت جاد وبين شفتيه ابتسامة خفيفة:

– قررت إيه يا أحمد؟

وقال أحمد وهو يجلس فى أدب على حافة المقعد المقابل:

– فى إيه يا خالى؟!

وقال عزت «بيه» وهو لا يزال محتفظا بابتسامته الصغيرة:

– فى مستقبلك.. حاتشتغل محامى ولا حاتتوظف، ولا حاتعمل إيه؟!

وارتعشت رموش أحمد فوق عينيه، وقال وهو لاينظر إلى خاله:

– والله أنا باشوف إنى أستنى شويه.. أنا لسه محتاج إنى أثقف نفسى.. وحضرتك عارف إنى ما بالعبش، إنما باقضى وقتى كله فى القراءة.

ونظر عزت «بيه» إلى بوز حذائه، وقال:

– عارف.. عارف إنك بتقرأ كتير.. إنما الثقافة مالهاش نهاية.. الواحد يفضل يقرأ لغاية مايموت، ولسه ماقراش كل اللى لازم يقرأه.. إنما مادام خدت الليسانس، يبقى لازم تشتغل.. وتفضل تقرأ برضه.

وقال أحمد كأنه يهم بالبكاء:

– بس حاشتغل إيه؟!

ونظر إليه خاله فى عينيه وقال:

– مادام مش ناوى تشتغل محامى.. يبقى مافيش إلا أنك تتوظف!

وعاد أحمد يقول وقد بدا ضيق صدره فى صوته:

- حاتوظف فين.. أنا ناجح بدرجة مقبول، يعنى لا أقدر أتوظف فى الجامعة، ولا فى النيابة.. و..

وقاطعه خاله:

- أنا حاخدك عندى.

وقال أحمد فى دهشة:

- فى وزارة المالية.. ده أنا متخرج من الحقوق!

وقال عزت «بيه» فى هدوء:

- يعنى هيه المالية مافيهاش قانون، ولا إيه؟!

وقال أحمد كأنه يدافع عن نفسه:

- يا خالى الوظيفة اللى حاأخدها، يمكن يكون غيرى أحق بيها منى.. أنا مش محتاج للمرتب.. ويمكن بعد شوية أقدر ألاقى حاجة أكبر أعملها.. أألف، ولا أفتح شركه.. ولا أى حاجه.

وقال عزت «بيه» فى حزم، وقد أغلظ صوته، وطغت على لهجته آثار رنة تركية قديمة:

- ماتنساش يا أحمد إنك أكبر إخواتك.. وأنت المثل بتاعهم.. لازم تكون راجل مسئول.. أنت خلاص بقيت راجل.. والراجل لازم يشتغل.

وسكت أحمد برهة ، ثم قال بصوت خافت:

- زى ماتشوف يا خالى.

وقال عزت «بيه» وهو يحمل كرشه بمشقة ويقوم به من على مقعده:

- فوت علىّ بكره الساعة حداشر فى الوزارة.

وقال أحمد كأنه يتنهد:

- حاضر..

وخرج عزت «بيه» راجى من الغرفة، وترك أحمد فيها، لا يزال جالسا على حافة المقعد، وعيناه تائهتان.. ولم يكن يفكر فى الوظيفة التى أعدها له خاله، بل كان يفكر فى إخوته.. إنه كبيرهم.. إنه بمثابة رب العائلة.. ومنذ سنين وهو يحاول أن يبدو بينهم كرب العائلة.. ويحاول أن يقنعهم بأنه يحمل مسئوليتهم.. ولكنه لم يسع أبدا إلى تحمل هذه المسئولية، ولم يتعمد أن يكون ربا للأسرة.. لقد حدث كل ذلك بالصدفة.. وجد نفسه فجأة ربا صغيرا يحمل مسئولية عائلة.

●●●

كان ذلك وهو فى الخامسة عشرة من عمره.. وتوفى والده.. ولم يحدث شىء عقب الوفاة.. لم يتغير نظام العائلة. ولم تحدث مشاكل.. ولم يحس أحمد بأنه أصبح مسئولا مسئولية جديدة.. لقد حملت أمه العبء كله.. وقد كانت تحمله حتى قبل وفاة والده.. وكانت أما حازمة، عاقلة، طيبة، استطاعت أن تربط العائلة كلها برباط من الحب والتآلف رغم التباين الكبير بين طباع أفرادها، وكانت مثقفة ثقافة بنات الأسر الكبيرة، ولكنها كانت تعتمد على ذكائها وشخصيتها أكثر من اعتمادها على ثقافتها.. وكانت أما متطورة تمنح بناتها الثلاث قدرا كبيرا من الحرية وتشجعهن على الاستمرار فى العلم، وتعدهن بإدخالهن الجامعة، ولكن كل ذلك فى حدود تقاليد صارمة.. تقاليد الأسر العريقة.. فليس من بناتها من تهوى الرقص، أو من تشترك فى ناد، أو من تلبس البنطلون.. كما كانت تربى ولديها على استكمال شخصيتهما.. كانت تعاملهما كرجلين حتى فى حياة والدهما.

ومرت أربعة أعوام بعد وفاة الأب، وأحمد لا يحس بأنه أكثر من واحد من إخوته.. كل ما يتميز به هو أنه أكثرهم هدوءا، وأكثرهم حبا وتعلقا بأمه. حب صامت صلب، ليس له مظهر إلا الاحترام الشديد والطاعة العاجلة.. ولم يكن له أبدا مطالب يثقل بها على أمه، خصوصا المطالب الخاصة بالنقود.. كان يقبل منها أى شىء.. وفى أحيان كثيرة كان يرفض بعض ما تعطيه عندما لا يكون فى حاجة إليه.. كانت تعطيه جنيها فيعيد لها خمسين قرشا.. وعندما تعترض أمه، يقول وبين شفتيه ابتسامة حبه:

– خليهم عندك لغاية ما أكبر، وأحتاج لهم.

ولم يكن يعنى أن يحتفظ بالنقود لنفسه لدى أمه.. إنما كان حبه يدفعه بلا تعمد منه إلى رد النقود إليها، كمظهر من مظاهر تخفيف العبء عنها.

وكان فى كل ذلك بعكس أخيه ممدوح.. كان ممدوح أصغر منه بخمس سنوات.. كان شيئا آخر.. كان يملأ البيت صخبا وصراخا وضحكا.. وكان يقبل على الحياة بعنف.. وكان عمليا فى تصرفاته.. جريئا.. أصر وهو صغير على أن تكون له دراجة.. ثم لما كبر أصر على أن يشترى «موتوسيكل».. ثم بدأ يفكر فى أن يشترى سيارة.. وكان يصر على رغباته ويدافع عنها ويتحايل للوصول إليها، وأحيانا يتحدى أمه.. ويصرخ فيها..

ولا يوقفه شيء إلا أن تطرده أمه من أمامها وتغلق على نفسها الباب دونه.

وكان ممدوح محبوبا من أفراد العائلة.. ولكن أحمد كان يحس نحوه بأكثر من حب.. كان معجبا به.. كان معجبا بالحياة العنيفة الثائرة التى يحياها.. كان معجبا بجرأته فى ركوب الدراجة ثم ركوب الموتوسيكل.. معجباً بإصراره على مطالبه وإقباله على الحياة.. بلا خوف وبلا تردد..

ورغم أن ممدوح لم يكن يطلع أحمد على حياته الخاصة وجولاته مع أصدقائه.. فقد كان أحمد يستطيع أن يتخيل هذه الحياة.. حياة مليئة بالضحكات.. والصراخ.. صراخ الجسد وصراخ العقل.. إن ممدوح على الأقل يعرف ما يريد.. يعرف أنه يريد دراجة.. ويريد موتوسيكل.. ويريد نقودا.. ويريد أن يذهب إلى السينما.. ولكن أحمد لا يعرف ما يريد.. إنه فى الواقع لم يرد شيئا أبدا طوال حياته.

إلى أن كان يوم.. وكان أحمد جالسا يقرأ كعادته فى غرفة المكتب.. التى كانت غرفة مكتب والده.. ثم سمع مناقشة حادة بين ممدوح ووالدته.. وانتظر أن تنتهى المناقشة كما انتهت غيرها من المناقشات.. ولكن المناقشة تشتد ولا تنتهى.. وصوت ممدوح يعلو على صوت والدته، ثم سمعه يقول لها صارخا:

- انتى بتودى الفلوس فين.. أنا عايز أعرف الفلوس بتروح فين.

سمع أحمد هذه الكلمات، ووجد نفسه بلا وعى منه، ينتفض واقفا.. ويذهب إلى غرفة أمه، ثم يرفع كفه ويهوى بها على صدغ أخيه ممدوح.

وأفاق أحمد على صوت الصفعة.. وانتظر أن يرد عليه ممدوح بصفعة مماثلة أو على الأقل يصرخ فيه.

ولكن ممدوح سكت.

وضع كفه على موضع الصفعة وسكت.. ثم أرخى عينيه، وخرج من الغرفة.

وسكتت أمه أيضا.

وسكت أخواته البنات.

ولم يكن هذا السكوت يحمل معنى الاعتراض أو الاحتجاج عليه.. لقد كان سكوتا يشع بالاحترام العميق، والتقدير.. وعيونهن ملتفة حوله كأنها

تهنئه على صفعته لأخيه.. كأنها تهنئه على تولى سلطاته الشرعية.

وأحس أحمد بالحرج والارتباك أمام هذا الصمت.. لقد كان مستعدا أن يعتذر لأخيه.. كان مستعدا أن يجرى وراءه ويتوسل إليه أن يرد له الصفعة، أو أن يسبه، أو يفعل أى شىء يبدد هذا الصمت الذى يحس بثقله فوق كتفيه.

وساعتها.. ساعتها فقط.. أحس أحمد بمكانته بين أفراد العائلة.. إنه أكبر الأخوة.. إذن.. فهو رب العائلة.

ومن يومها وأحمد يحمل مسئولية العائلة.. ولكنها ظلت دائما مسئولية نظرية.. مسئولية فى نطاق إحساسه الداخلى.. أما المسئولية الفعلية فتحملها أمه.. وصحيح أن أمه كانت تعرض عليه دائما ما يجد من شئون العائلة.. وصحيح أن أخوته البنات كن يحملن إليه مشاكلهن الصغيرة.. وأخوه ممدوح بدأ - بعد الصفعة - يحاول أن يحتفظ برضائه، ويتودد إليه، تودد الأخ الصغير المعترف بمكانة الأخ الكبير.. ولكن كل ذلك لم ينف أن مسئوليته تجاه العائلة، ظلت مسئولية نظرية.. وأمه هى التى تتولى كل شىء.. هى التى تمسك بإيراد العائلة، وهى التى تتولى كل شىء.. هى التى تمسك من الحكومة، وهى التى تراقب الأخوة فى دراستهم، وتتولى حل مشاكلهم.. فإذا جد شىء يعجزها استعانت عليه بأخيها وكيل الوزارة.

وهذه المسئولية النظرية تركت أثرا كبيرا فى تصرفات أحمد.. وفى مظهره.. لقد أصبح يحرص دائما على أن يبدو جادا وقورا فى حديثه، وفى مشيته، حتى وهو لم يصل بعد إلى العشرين من عمره.. وأصبح يتجنب الحياة التى يحياها مثله من الشبان.. كان لا يسهر خارج البيت.. ولا يتردد على الملاهى التى يتردد عليها زملاؤه.. ولا يركب دراجة.. ولا يجاهر بالغناء أمام أحد من أخوته.. ولا يحاول أن يغازل فتاة، أو يتعرف إلى فتاة.. إنه إلى الآن - وهو فى الخامسة والعشرين - لم يقرب فتاة.. ولا امرأة.

دائما جاد وقور.. كخاله، فقد كان يقلد خاله فعلا، لم يكن هذا الوقار يعبر عن شخصيته، ولكنه كان يستعيره من شخصية أخرى.. شخصية خاله.. وقد ساعدته قامته الطويلة، وصدره العريض، ووجهه الأسمر القوى،

على الاحتفاظ بمظهر الوقار.. مظهر يخفى تحته نفسه القلقة الحائرة، وشخصيته التائهة التى لم يستطع أن يحددها ويرسم خطوطها بعد.. وكان فى أحيان كثيرة يضيق بهذا الوقار الذى يكسو به وجهه.. كان يحس برغبة جامحة فى أن يصرخ، أو يرقص، أو يتزحلق على حاجز السلم كما كان يفعل وهو صغير.. وكانت هذه الرغبة تستبد به أحيانا، فيقف أمام المرآة فى غرفته ويلعب حاجبيه، ويخرج لسانه، ويشكل وجهه فى أشكال غريبة مضحكة.. أو كان ينطلق فى الغناء، ويختار أغنيه خليعة وأكثر الأغانى التى سمعها خلاعة.. ثم يفيق إلى نفسه فجأة فيبتعد عن المرآة، أو يكف عن الغناء، ويعود يكسو وجهه بالوقار، حرصا على مظهره كرب العائلة.

وقد ترك هذا الوقار المفتعل أثرا أعمق فى نفسه.. إنه لم يعد يشكو متاعبه لأحد.. لم يعد يشكو لأمه ولا لأحد من إخوته.. لم يعد يشكو قلقه وحيرته وضياع نفسه.. وتراكمت طبقات الكبت فى نفسه حتى أصبح يحس بأنه محروم من الحنان.. جائع للحنان.. إنه يحس أحيانا بأنه يريد أن يضع رأسه على صدر أمه ويبكى، ولكنه لا يستطيع، يحس إنه يريد أن يجلس إلى أخته ويحكى لها آلام نفسه.. ولكنه لايستطيع.. لقد ضحى بحاجته إلى الحنان فى سبيل مظهره كرب عائلة.

وفى سبيل العائلة.. وتحت ضغط مسئوليته النظرية كرب أسرة.. خضع لإلحاح خاله، وذهب إليه ليعينه فى وزارة المالية.

وقد كان أحمد يعتقد أن خاله سيعينه فى مصلحة الضرائب، أو سكرتيرا له، أو فى مركز محترم يستطيع أن يشغله خريج كلية الحقوق.. ولكن خاله عينه فى إحدى الإدارات البعيدة عن المراكز الرئيسية فى الوزارة.. فى إدارة لايمكن أن يكون فيها مجال للتقدم ولا لإظهار المواهب.. إدارة قاصرة على الصرافين وكتبة الحسابات.. وربما كان خاله قد جبن عن أن يعينه فى إحدى الإدارات الرئيسية، حتى لا يتهم باستغلال نفوذه.. كأنه وهو يعينه، يدارى فضيحته، يدارى جريمة، يمكن أن يحاسب عليها.. ورغم ذلك فقد قبل أحمد وظيفته فى إدارة المعاشات، دون اعتراض قبلها كتجربة جديدة.. ومن يدرى.. لعله يجد نفسه فى هذه الوزارة، لعله يكتشف مواهبه، لعله يستريح من القلق والحيرة.

ولكن..

كل ما وجده أحمد فى إدارة المعاشات، إنه ابن أخت وكيل الوزارة.

•••

وعاد الساعى متعلقا بسيارة من سيارات الأجرة.. ثم قفز منها قبل أن تقف تماما ، وفتح بابها، وقال وبين شفتيه ابتسامة كبيرة :

– اتفضل يا أحمد بيه..

وتقدم أحمد فى خطى بطيئة، ويده لا تزال فى جيب بنطلونه.. ثم أخرجها ودس فى يد الساعى ورقة من ذات القروش الخمسة.. وانحنى ليدخل قامته الطويلة فى السيارة.. وقال فى صوت وقور :

– نادى الجزيرة يا أسطى..

واستدار الساعى وعاد إلى داخل مبنى الوزارة، دون أن ينظر مرة ثانية إلى أحمد، كأن قيمة أحمد فى نظره لا تساوى إلا هذه القروش الخمسة التى دسها فى يده.

وخرجت السيارة إلى ميدان لاظوغلى، واستدارت إلى شارع قصر العينى.. ثم اتجهت إلى كوبرى قصر النيل.. وبدأ أحمد يدندن فى صوت خفيض أغنية : مال الهوى يا أمه مال.. ثم تنبه إلى نفسه بعد فترة، فسكت عن الغناء.. ونظر إلى قفا السائق ، كأنه يخشى أن يكون ملتفتاً ليتتبع غناءه.. ثم عاد يتطلع من نافذة السيارة إلى المارة، دون أن يراهم ..مجرد أشباح تتحرك أمام عينيه التائهتين !

ووصل إلى نادى الجزيرة، ونزل من السيارة ونقد السائق أجره.. ثم استدار فالتقى بعينى ملاحظ النادى تنظران إليه.. وتردد : هل يرفع يده يحييه؟ ولكنه لم يرفع يده بالتحية. ثم أعتقد أن الوقت قد فات لتحيته.. فمر من أمامه وقد ضغط على حاجبيه حتى يبدو أكثر وقارا.. واتجه نحو ملاعب النادى.. وأخذ يسير على الأرض المزروعة بالحشيش.. إنه يحب السير على الحشائش.. يحس كأنه يسير على وسائد من الحرير.. يحس بأنه يسير فى طريق صنعه الله.. يحس بآدميته أكثر مما يحس بها وهو يسير على طريق من الأسفلت .

وكان يسير نحو لا شىء.. ولعله كان يبحث عن شىء.. إنه طول حياته

يبحث عن شيء.. وفي عقله مناقشات لا تنتهي، وأسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها، وأحاسيس لا يستطيع أن يفسرها.. وهو لا يتتبع دائما كل ما يدور في عقله.. إنه أحيانا يترك عقله يعمل وحده.. أحيانا يسير وهو يحمل على كتفيه رأسا يتكلم، دون أن يأبه بسماع هذا الكلام، ربما لأنه مله، أو ربما لأنه أحيانا ييأس من أن ينتهي من مناقشاته العقلية إلى لا شيء.

والتفت إلى بعض الأولاد يلعبون الكرة.. ثم عاد وأدار عينيه عنهم، وأخذ يسير فوق الحشيش.. ولكنه بعد فترة يلتفت إلى الأولاد الذين يلعبون الكرة.. ثم وقف مرة واحدة كأنه اتخذ قرارا.. وقف ليرقب الأولاد الذين يلعبون الكرة.. إنه يتمنى أن يلعب الكرة.. يتمنى أن ينطلق كما ينطلق هؤلاء الأولاد.. يجري ويصرخ ويشوط الكرة.. وأحس أن قدمه تهم فعلا بأن تتحرك وتشوط الكرة.. أو تشوط أي شيء.. وأحس كأنه يجري.. وكأنه يلهث.. ولكنه لا يزال واقفا في مكانه.

وانطلقت الكرة من بين أرجل الأولاد، واتجهت إلى مكان قريب منه.. وتمنى أن يجري وراءها ويشوطها.. ولكنه ظل واقفا مكانه.. والوقار لا يزال يكسو وجهه، وقامته الطويلة ممدودة في اتساق، وصدره العريض منفوخ.. كأنه تمثال جميل من الشمع في نافذة أحد المحال التجارية.

وخرجت الكرة من بين أرجل الأولاد مرة ثانية، وتدحرجت حتى وصلت إليه.. بين قدميه.. ونظر إلى الكرة.. ثم نظر إلى الأولاد كأنه يسألهم ماذا يصنع بها.. وسمع الأولاد يصيحون فيه «شوط.. احدف.. الكورة من فضلك».. وعاد ينظر إلى الكرة كأنه أمام مشكلة عويصة.. ثم حرك قدمه وضرب بها الكرة ضربة ضعيفة في اتجاه الأولاد.. ولم تصل إليهم الكرة، وأحس كأن الأولاد ينظرون إليه بامتعاض.. ربما كان احتقارا.. ثم رأى واحدا منهم يجري ويأخذ الكرة.

واستدار وعاد يسير فوق الحشيش.. فوق وسائد الحرير.. وهو يسائل نفسه: «لماذا لم يضرب الكرة بقدمه ضربة قوية.. لماذا.. لماذا؟ ربما لأنه لم يعد طفلا، ولا يحب أن يبدو كالأطفال.. ولكن، أليس من حق الرجال أيضا أن يلعبوا بالكرة؟ و.. وأحس كأن في داخل نفسه طفلاً صغيرا يسخر منه.. ورفع قدمه وضرب حجرا صغيرا على الأرض ضربة قوية

رفعته فى الهواء إلى مسافة بعيدة.. كأنه كان يتحدى الأولاد الصغار.. ثم التفت حوله بسرعة كأنه كان يخشى أن يراه أحد وهو يشوط قطعة الطوب.. ثم عاد يشد قامته وينفخ صدره، ومد أصابعه إلى أطراف سترته ليفردها فوق جسده، ثم سار متجها نحو المقاعد الطويلة المنتثرة تحت أشجار الصفصاف.

إنه مكان هادىء من النادى، يلجأ إليه أعضاء النادى الكبار فى السن.. ليقرأوا، أو ليتركوا أمعاءهم تهضم طعام الغداء فى هدوء، أو ليناموا.

وسار أحمد بين العجائز المممددين على المقاعد الطويلة، يبحث لنفسه عن مقعد.. وهو يشعر بالضيق.. يشعر كأنه يحمل نفسه أكثر مما تطيق.. ثم فاض به الضيق فتوقف عن سيره فجأة.. إنه يعلم لماذا جاء إلى النادى؟ إنه لم يجىء ليمدد جسده فوق مقعد بين هؤلاء العجائز.. ولا جاء ليقرأ كتابا.. لقد جاء ليبحث عن فتاة.. فتاة بالذات.. إنه يعلم هذا .. يعلمه جيدا.. فلماذا يخدع نفسه؟ لماذا يهرب من نفسه؟س لماذا يقضى حياته كلها يهرب مما يجده ويبحث عما لا يجده.. وهذه الفتاة قد وجدها.. وجدها فى نفسه.. وجد - على الأقل - أنه يجب أن يراها، أن يكون فى المكان الذى تكون فيه.. والفتاة لا توجد فى هذا المكان، إنها ليست بين هؤلاء العواجيز.

واستدار فجأة، وسار فى خطى مسرعة قوية نحو شرفة النادى التى تطل على حمام السباحة.. ودخل إليها.. ولم يستطع أن ينظر حوله.. إنما التقط بعينيه أقرب مائدة خالية، وجلس إليها ووضع كتابه فوقها.

ومضت فترة وهو ينظر أمامه كأنه يستجمع أنفاسه بعد هذه الخطوة الحاسمة الجريئة التى اتخذها.. ثم أمسك بالكتاب وفتحه، ونظر فيه.. ولكن لم يقرأ شيئا.. لم يستطع أن يقرأ شيئا.. إنه يحس أن الفتاة بجانبه.. ويحس أنها تنظر إليه.. وهو لا يعرف بعد أين تجلس؟ ولكنه يحس بعينيها تطلان عليه من كل اتجاه.. من يمينه، ومن يساره، ومن خلفه، ومن فوقه.. ومد أصابعه وهرش فوق خده هرشة خفيفة، كأن إحدى نظرات الفتاة قد لسعته.. ثم تذكر أنه لم يطلب شيئا من الجرسون فالتفت باحثا عنه.. ولم يكن يريد شيئا من الجرسون.. فقط كان يبحث لنفسه عن حجة يتلفت بها حوله.

والتفت إلى يمينه، ورأى أحد الجرسونات.. ولكنه لم ير الفتاة.. ثم

التفت إلى يساره ورأى جرسونا آخر ولكنه لم ير الفتاة أيضا.. لم يبق أمامه إلا الالتفات إلى الخلف، والالتفاتة إلى الخلف تتطلب مجهودا أكبر.. عاد ينظر فى كتابه ريثما يستجمع شجاعته ليلتفت إلى الخلف.. ثم فجأة التفت.. التفت كأن قوة خارجة عن إرادته لوت عنقه رغما عنه.

ورآها..

كانت تجلس مع إحدى صديقاتها على المائدة التى بجوار مائدته تماما، حتى خيل إليه أن وجهه قد اصطدم بوجهها.. وكانت تنظر إليه.. التقت عيناه بعينيها.. وخيل إليه أنها تبتسم.

ولم تدم التفاتته إلا ومضة.. ثم أعاد رأسه بسرعة، ودفن عينيه فى كتابه، بينما امتدت أصابعه لتهرش خده.

وجلس وظهره لها وهو لا يكاد يتحرك.. بل لايكاد يتنفس.. كأنه كان يخشى أن تعد عليه أنفاسه.

وكان يرى صورتها فى الكتاب.

صورة الرأس الصغير كأنه رأس تمثال دقيق.. والشعر الأسود القصير الذى يتدلى حتى يصل إلى أعلى عنقها.. والأنف الدقيق المرفوع، والشفتين المليئتين، والعينين المشروطتين المكحلتين.. إنها لا تضع من الأصباغ إلا هذا الكحل الذى يحدد عينيها، كأنه ظلال تلقيها ليزداد وضوح النور.. ولون عينيها.. ربما كان عسليا.. وربما كان أسود.. وربما كان مجموعة من الألوان اختلطت ببعضها. إنه لا يدرى، فهو لم يتزود منها أبدا بنظرة قريبة كافية ليعرف لون عينيها.. وعمرها.. ربما كانت فى السابعة عشرة أو فى الثامنة عشرة، كما يدل قوامها النشيط الدقيق.. وربما كانت أكبر من ذلك، فهى تبدو أكثر اتزانا وأقوى شخصية من عمر السابعة عشرة.. لم يرها تقفز، أو تلعب، أو تتحدث وتضحك بصوت عال، أو تنتقل بين الموائد لتعرض ثوبها ورشاقتها.. كان يراها دائما جالسة إلى مائدة وحولها صديقاتها، وهى بينهن كأنها الرئيسة.. كأنها تسيطر عليهن بشخصيتها.. سيطرة ليس فيها املاء، ولا فرض.. ولكنها سيطرة الجاذبية.

وقد قضى أياما طويلة يرقبها.. مضى أكثر من شهر ونصف.. منذ رآها لأول مرة.. وارتاحت عيناه لها.. وبدأ يذهب إلى النادى كل يوم ليرقبها من

بعيد.. كان يحس بالهدوء، وبالجمال، وباستقرار روحه، كلما ألقى عينيه فوقها.. ويبدأ يرسم لها فى خياله دنيا تعيش فيها.. وكان أحيانا يرسم لها دنيا قريبة من الدنيا التى تعيش فيها إخوته البنات.. دنيا عائلية مستقرة محافظة.. وكان يسائل نفسه: لماذا لا يصحب إخواته البنات إلى النادى مادامت هى تأتى إليه؟ وكان يحس عندما يخطر على باله هذا السؤال، بقطعة من عقله تتمرد عليه.. لا .. إن إخواته البنات لا يمكن أن يترددن على النادى.. لا يمكن أن يكن مثل هذه الفتاة.. لا يمكن أن يجلسن مثل هذه الجلسة بين الرجال وكأنهن فى مقهى عام.. إن أخواته متحررات.. وقد التحقت كبراهن بكلية العلوم، والتحقت الثانية بكلية الآداب، والثالثة تدرس الموسيقى، ولكن تحررهن لا يسمح لهن بالالتحاق بنادى الجزيرة، وقضاء يومهن فى خمول يعرضن أنفسهن متعة لنظرات الرجال أمثاله.

ولم يكن وهو يقارن بين شقيقاته وفتاة النادى يحس بثورة.. لا بثورة على شقيقاته ولا بثورة على الفتاة.. كل ما هنالك إنه يقول رأيه فى هذه الحياة أو تلك.. وقد أقنعته قراءاته الكثيرة بأن الحياة فيها أنواع كثيرة من المجتمعات، وأنواع كثيرة من التقاليد.. وليس هناك مجتمع خير ومجتمع شر.. بل الخير والشر فى كل مجتمع.. سواء فى المجتمع المحافظ أو فى المجتمع المتحرر.. وليس هناك تقاليد صحيحة وتقاليد خاطىء، ولكن الصحيح والخطأ فى كل تقليد.. إن الرقص فيه الصحيح والخطأ.. وعدم الرقص فيه الصحيح والخطأ أيضا.. وإذا كانت أمه لا تؤمن بأن من حق بناتها أن يذهبن إلى النادي، فإن هناك أمهات أخريات لا يؤمن بأن من حق البنات أن يلتحقن بالجامعة.. وأمهات لا يؤمن بأن من حق البنات النظر من الشباك.

كل ما كان يحس به أن أمه وأخواته البنات يعشن فى عالم آخر، غير العالم الذى تعيش فيه بنات نادى الجزيرة.. وكان عندما يخرج من بيته إلى النادى يحس كأنه مسافر من بلد إلى بلد.. من مصر إلى إيطاليا.. وكان يحب السفر إلى إيطاليا، ولكنه يفضل أن يعيش فى مصر.

ولم يكن يطمع فى شيء أكثر من أن يظل يذهب إلى النادى، ويرقب الفتاة من بعيد.. وكان يرقبها بحرص.. يرقبها وهى بين صديقاتها، ثم وهى

تقوم وتدخل إلى بهو السيدات.. ثم تعود.. ثم تنتقل من الشمس إلى الظل.. ويرقبها عندما يأتى بعض الشبان ويجلسون إلى مائدتها.. ماذا يقول لها هؤلاء الشبان؟.. عم يتحدثون؟.. وكان يحاول أن يستمع، فلا يسمع شيئا.. ولكنه كان دائما مقتنعا بأن هذه المائدة التى تجلس إليها هذه الفتاة حتى بمن حولها من الشبان، أكثر اتزانا واحتراما من باقى الموائد التى تجلس إليها باقى البنات.

وكانت الفتاة تنتهى من جلستها فى النادي، ثم تخرج منه، فيقوم هو الآخر ويعود إلى بيته سعيدا، وكأنه تزود بطاقة نفسية تعينه على الحياة.. ولم يكن يفكر فيها أكثر من ذلك.. كانت صورتها تخطر على باله، وتراوده أحيانا وهو فى بيته أو وهو فى مكتبه بإدارة المعاشات.. ولكنها كانت صورة أقرب إلى صورة فيلم سينمائى شاهده وانتهى منه، ثم يعود فى اليوم التالى إلى النادى ليشاهدها أيضا، وكأنه يشاهد فيلما جديدا.

إلى أن كان يوم..

والتقت عيناه بعينيها.. وأحس فى نظرتها شيئا أحرجه.. أحس كأنها كانت تعرف أنه يتتبعها بعينيه منذ أيام طويلة.. منذ أكثر من شهر.. وربما منذ أطلق عليها نظرته الأولى.

وانزعج.. أحس كأنه ارتكب إثما كبيرا.. كأنه ضبط متلبسا بجريمة تمس شرفه واحترامه لنفسه.. جريمة مسحت شخصيته كشاب جاد وقور، يعتبر نفسه ربا صغيرا لعائلة كاملة، مسئولا عن أخوات بنات.

وانقطع بعدها ثلاثة أيام عن الذهاب إلى النادى.. وفى خلال هذه الأيام الثلاثة أخذ يفكر فى الفتاة تفكيرا لم يتعوده من قبل.. إنها أول فتاة فى حياته تصبح موضع تفكيره.. إن صورتها تملأ خياله طوال النهار، وتملأ عينيه طوال الليل.. وهو يحس كأنه لم يعد له طريق ولا هدف.. ليس له طريق إلا الطريق إلى نادى الجزيرة، وليس له هدف إلا أن يراها.

هل هذا هو الحب؟

ولكنه لا يعرفها.. لا يعرف أى شىء عنها.. لا يعرف حتى لون عينيها.. فكيف يحبها؟

وأحس بحاجته إلى أن يسأل الناس فى مشكلته.. يسأل أمه وأخوته..

إنه يريد أكثر من السؤال.. يريد أن يشكو.. يريد أن يلقى رأسه على صدر أمه ويسكب حيرته دموعا.. ولكنه لا يستطيع أن يسأل ولا أن يشكو.. أن أحدا من أفراد عائلته لا يعطيه حق السؤال ولا الشكوى ولا حق الحديث فى الحب.. إنه كبيرهم.. إنه رب العائلة الجاد الوقور.

وقد بذل جهدا كبيرا فى هذه الأيام الثلاثة ليظل محتفظا بمظهر جده ووقاره.. بقامته المفرودة، وصدره المنفوخ، وحاجبيه المعقدين فوق عينين واسعتين لو حققت فيهما لاعتقدت من فرط براءتهما وصفائهما أنهما عينا طفل.

وفى اليوم الرابع وجد نفسه يذهب إلى نادى الجزيرة، ويجلس فى الشرفة المطلة على حمام السباحة.. ولم يلتفت باحثا عنها بعينيه.. ظل ناظرا أمامه كأنه تلميذ خائف عاقبه مدرسه فأمره أن يضع وجهه ملتصقا بالحائط.. ولكنه لم يطق هذا العقاب طويلا.. فبدأ يتسلل بعينين مترددتين خجلتين باحثا عنها.. والتقى بعينيها.. كانت هى الأخرى تنظر إليه.

وأدار عينيه بسرعة قبل أن يعرف ما فى عينيها.

وفى يوم تال التقى بعينيها مرة أخرى فى نظرة مختلسة.. ثم نظرة مختلسة ثم ثالثة.. ورابعة.. و..

ولم يعد لديه شك فى أنها تبادله النظر.. وربما لمح ظل ابتسامة فوق شفتيها.. وربما لاحظ أنها تختار أقرب مائدة إليه لتجلس عليها.

ولكن ماذا بعد؟

كيف يلتقيان؟

إنه لا يعرف شيئا جديدا عنها إلا اسمها.. سمعه وإحدى.. صديقاتها تناديها: «شهيرة».. وسمعه مرة أخرى وصديقة تناديها «شوشت».. وخيل إليه أنه أجمل اسم سمعه فى حياته.. اسم لا يطلق على بنات الأرض.. ربما بنات الجنة، أو بنات القمر.

وماذا ، بعد أن عرف اسمها؟.

إنه لا يدرى..

فكر أن يكتب نمرة تليفونه على بطاقة من البطاقات التى تحمل اسمه، ثم يدسها فى يدها. ولكنه لا يستطيع.. إنه لا يستطيع حتى أن يقترب

منها.. ثم فكر أن يذهب إلى أكشاك التليفون فى النادى، ويدخل فى أحدها ويرفع سماعة التليفون، ويطلب نمرة النادى نفسه.. فتليفون النادى له عدة خطوط.. ثم يطلب من العاملة أن تستدعى له الآنسة شهيرة.. وستأتى شهيرة، وتدخل فى كشك آخر، وترد عليه.. سيتحادثان فى التليفون ولا يفصل بينهما أكثر من نصف متر.. و.. ولكنه تذكر أنه لا يعرف اسمها كاملا، حتى يطلب من عاملة التليفون استدعاءها.. وهى أيضا لا تعرف اسمه.. وربما ألقت السماعة فى وجهه فيتعذب بكرامته المجروحة.. وحتى لو لم تلق السماعة فى وجهه، فإنه لا يدرى ماذا يقول لها؟ إنه لا يعرف ماذا يقول لبنت عند أول لقاء؟ إنه شاب تنقصه تجارب الشبان.. إنه جبان.. إنه عذراء..ولو كان أخوه ممدوح مكانه لعرف كيف يتقدم للفتاة ويربط نفسه بها.. إن أخاه جرىء يفيض بالحياة ويعرف كيف يأخذ ما يريد؟ وتمنى من فرط يأسه أن يأتى ممدوح، ويرى الفتاة، ويحبها، ويربط نفسه بها.. إنه إن لم يستطع أن يحقق أحلامه لنفسه، فليحققها فى أخيه.

●●●

واستطرد أحمد وهو فى جلسته فى النادى يستعرض مظاهر حيرته، وعيناه فى الكتاب، وظهره لشهيرة.. ثم خطر له خاطر.. لماذا لا يبتسم لها؟ إنه لم يبتسم لها إلى الآن.. مضى شهر ونصف منذ رآها لأول مرة، ولم يبتسم لها بعد.

وطوى الكتاب فى حركة قوية كأنه يطوى بين صفحاته حيرته، وتردده.. ثم علق بين شفتيه ابتسامة كبيرة.. ثم مسح ابتسامته. وجذب نفسا عميقا من صدره.. وعاد يعلق فوق شفتيه ابتسامة أصغر من الأولى.. ثم قام فجأة من على مقعده وكتابه فى يده.. والتفت إلى شهيرة ووضع وجهه قبالة وجهها وقذف بابتسامته.. ابتسامة بدت كأنه يخرج لها لسانه.. ثم لم ينتظر حتى يرى وقع ابتسامته عليها.. بل إنه لم ير وجهها.. كانت عيناه من فرط اهتزازه وتحامله على نفسه، زائغتين لا تريان شيئا.

ثم سار فى خطوات مرتبكة، وخرج من شرفة النادى.. ووقف يلتقط أنفاسه من الهواء.. ثم مد أصبعه وضغط على الجرس المعلق فى الجدار، والخاص باستدعاء سيارات الأجرة.

ووقف ينتظر وعقله مشلول.. لا يستطيع أن يفكر فيما صنعه.. ولا أن يراجع نفسه.. كل ما كان يحس به أنه يريد أن يهرب.. يريد أن يفر من هذا العالم الذى تعيش فيه شهيرة، وتعيش فيه أحاسيسه وحيرته.. العالم الذى يشعره بمزيد من العجز، ويفتح أمامه متاهات جديدة تزداد فيها نفسه قلقا وتخبطا.

ولم يستطع الانتظار إلى أن تأتى السيارة الأجرة، فسار على قدميه، حتى موقف السيارات ووضع نفسه فى إحداها، وقال للسائق كأنه يتنهد:

- الروضة يا أسطى..

وجرت به السيارة.. ورطب الهواء رأسه الملتهب، وبدأت نفسه تهدأ.. وبدأ يحاول أن يقنع نفسه بأنه لم يرتكب إثما عندما ابتسم لشهيرة، وأن أحدا فى النادى لم يلحظ هذه الابتسامة، وربما هى نفسها لم تلحظها.. وأن أحدا لم يسخر منه عندما قام من على مقعده بهذه الحركة المفاجئة.. إنه لا يزال جادا وقورا.. وكل ما يشعر به من الحرج هو مجرد أحاسيس داخلية تصورها له أوهامه. وليس لها ظل على الناس.. لا أحد يرى أحاسيسه.. لا أحد يرى منه إلا صورة الشاب الجاد الوقور.

وهدأت نفسه أكثر عندما أصبحت السيارة تجرى فى شارع عبدالعزيز آل سعود المحاذى لشاطىء النيل.. إنه يقترب من بيته.. يقترب من عالمه.. يقترب من أمه.. يقترب من الهدوء والسكينة والاستقرار.

وأطل من نافذة السيارة وألقى عينيه على صفحة النيل.. وارتاحت قسمات وجهه أكثر.. وعلت شفتيه ابتسامة ساخرة.. وكأنه يسخر من نفسه ومن أحاسيسه.

وفجأة اتسعت عيناه فى ذعر.

إنها هى..

أخته نبيلة..

وفى يدها كراسة المحاضرات، ويدها الأخرى فى يد شاب لا يعرفه.. يسيران على الرصيف المحاذى لشاطىء النيل، فى خطى بطيئة متلكئة.

وأبعد أحمد وجهه عن نافذة السيارة، وجمع نفسه فى ركن السيارة، مختبئا، كأنه يحتمى من وحش هجم عليه. وحش انطلق فى نفسه!

إنه لا يريدها أن تراه.
وكان يتمنى ألا يراها.
ولكنه رآها.
وليس متأكدا أنها لم تره.
وأحس بصدره يضيق، وأعصابه تتلوى، ودموعه تكاد تنبثق من عينيه.. دموع غيظ وحنق.. دموع رب العائلة الصغير.. الحائر.

وخرجت السيارة من شارع عبد العزيز آل سعود، ودارت حول الميدان، ثم دخلت في شارع الأخشيد.. وأحمد لا يزال مختبئا في ركن منها، مبتعدا برأسه عن النافذة.. حتى عندما اضطر أن يخاطب السائق ليدله على الطريق، خاطبه وهو ملتصق بركن السيارة.. وكان اختباؤه بحركة تلقائية.. كان يعلم أنه لم يعد في الشارع ما يختبىء منه.. ولكنه كان يختبىء من نفسه.. يختبىء من مسئولية جديدة ألقيت على عاتقه.

٢

• نبيـلة •

ووقفت السيارة أمام بيت كبير على الطراز القديم مكون من طابقين، ونزل أحمد، ودون أن يلتفت إلى السائق، مد يده فى جيبه ثم ناوله ورقة من ذات الخمسين قرشا، واستدار ليدخل إلى البيت، فصاح السائق وراءه:

- الباقى يا أستاذ.

ودون أن تتغير ملامح وجه أحمد، ودون أن يرفع رأسه، عاد إلى السائق ومد له يده، وأخذ منه باقى النقود، ودسها فى جيبه دون أن ينظر فيها، وقال فى صوت أجش:

- متشكر ..

ونظر إليه السائق فى دهشة، وقال فى صوت هادئ كأنه يشفق عليه:

- مع السلامه يا أستاذ..

واستدار أحمد، وخطا نحو البيت، ودفع الباب الحديدى الكبير بيده، وهرع عبدالله البواب من داخل فناء البيت ليستقبله، ولكن أحمد لم يلتفت إليه.. لم يحس به.. وأخذ يصعد السلم الرخامى العريض، ورأسه ملقى على صدره، وأمام عينيه أطياف من خياله، لا يستطيع أن يتبين منها إلا صورة أخته نبيلة وهى تسير على شاطئ النيل ويدها فى يد شاب لا يعرفه.

ودفع الباب الخشبى المطرز بألواح الزجاج وأسياخ الحديد والذى يؤدى إلى داخل البيت.. إن الأبواب لا تغلق فى هذا البيت أثناء النهار.. وليس بين أفراد العائلة من يحمل مفتاحا فى جيبه، إنما تغلق الأبواب بالليل فقط، والمفتاح فى جيب عبدالله البواب، وهو الذى يفتح للقادمين

خلال الليل، سواء باب الحديقة، أم باب البيت.

ودخل أحمد.. واستقبله البهو الكبير الخافت الضوء، وقد غطيت أرضه بقطع من السجاد الكبير القديم.. وانتثرت فيه قطع من الأثاث قاتمة اللون، كلها من الطراز القديم. إن كل شيء في البيت قديم.. عريق.. أثر من آثار ماض يزخر بالثراء.. وليس فيه جديد إلا ثلاجة كهربائية موضوعة في غرفة المائدة، وجانب منها يبدو في البهو الخارجي.

وامتلأت أذنا أحمد بصوت نقرات على البيانو تنبعث من حجرة الصالون.. لقد تعود على هذه النقرات.. إن أخته الصغرى تقضي وقتها كله جالسة إلى البيانو تراجع دروس الموسيقى.. ولم يكن لهذه النقرات صدى في رأسه أكثر من صدى أصوات السيارات وعجلات الترام التي تملأ أذنيه وهو جالس في مكتبه بإدارة المعاشات.. أصوات تملأ أذنيه دون أن يسمعها.. ولكنه الآن يحس بهذه النقرات التي تدقها أخته على أصابع البيانو، كأنها مسامير تدقها في رأسه.. مسامير تفتح جروحا في رأسه، تسيل منها حيرته وتردده.. إنه يريد هدوءا.. يريد أن يخلو بهذه الخيوط المرتبكة المتداخلة التي تملأ صدره، لعله يستطيع أن يصل من بينها إلى طرف الخيط.. إلى قرار يتخذه ويصمم عليه.

وأسرع الخطى نحو غرفته.. ثم توقف قبل أن يصل إليها، كأنه تذكر شيئا.. واستدار عائدا إلى غرفة الصالون مارا بالبهو.. وفتح بابها فجأة، كأنه يتعمد أن يضبط أخته متلبسة.. يضبطها ومعها رجل.

وتوقفت النقرات على البيانو، والتفتت أخته، على صوت الباب الذي فتح فجأة، ثم علت شفتيها ابتسامة كبيرة، وصاحت في مرح:

– خضتني يا أبيه..

ثم استطردت في كلمات سريعة ضاحكة كأنها لن تنتهي أبدا من كلامها:

– النهاردة الأستاذ اداني سوناتا لبيتهوفن.. ووعدني أن يخليني ألعبها في حفلة آخر السنة.. دي صعبه قوي.. إنما على مين.. اسمع..

واستدارت نحو أصابع البيانو، وبدأت تنقر عليها.. ونظر إليها أحمد نظرة فيها كثير من الحياء، كأنه يعتذر لها عن الخاطر الذي راوده.. ثم

اقترب منها، ووضع كفه على كتفها، وقال وهو يحاول أن يغتصب ابتسامة من بين شفتيه:

– خللى صوت البيانو واطى يا ليلى، أحسن بيتهوفن يسمعك، يزعل منك..

وقالت ليلى وهى مستمرة فى العزف:

ما تخافش .. ده كان أطرش..

وظل أحمد واقفا خلفها برهة.. ينظر إلى شعرها الأصفر المشوب بالاحمرار، وقد تدلى فى ضفيرة طويلة كأنها شعاع من الشمس ساعة الأصيل وإلى بشرتها البيضاء المشربة بلون الحناء وأصابعها الطرية التى تقفز كالعصافير الصغيرة فوق البيانو.. وعادت خواطره تراوده.. هل يمكن أن يكون لها هى الأخرى شاب تحبه؟ شاب تسير معه على شاطىء النيل ويدها فى يده، كما تفعل أختها نبيلة.. لا.. إنها صغيرة.. إنها لا تزال فى السابعة عشرة.. أصغر من الحب.. وأبرأ من الحياة.

ووجد نفسه ينحنى فوق رأسها، ويقبلها قبلة سريعة خاطفة كهزة رمش.. وتوقفت ليلى عن العزف مرة ثانية، ورفعت إليه وجهها وفى عينيها دهشة.. إنه لم يتعود تقبيلها، ولم تتعود منه كل هذا الحنان.

ولم يتوقف أحمد ليرد على دهشتها.. استدار لها وهم بالخروج من الغرفة.. فقامت ليلى من على مقعد البيانو، وجرت وراءه، صائحة:

– آبيه أحمد..

ووقف أحمد.. ونظرت إليه ليلى فى جزع، كأنها تبحث فى وجهه عن شىء يقلقها، ثم ارتمت فوق صدره، واحتضنته، ثم ابتعدت عنه بسرعة، وقالت وهى تحاول أن تعود إلى مرحها لتخفى جزعها:

– انت النهارده فيه حاجه مزعلاك..

وقال أحمد كأنه يدافع عن نفسه بإخفاء سره:

– أبدا .. هو أنا لما أبوسك يبقى لازم أكون زعلان..

وقالت ليلى، وهى تشب فى وقفتها على أطراف أصابعها:

– تحب أضرب لك الجندول؟

وقال أحمد وهو يبتسم:

- بعدين.. بعد الأكل، علشان أهضم..

وخرج من غرفة الصالون، وسار فى الممر الذى يؤدى إلى غرفته.. ولم يحاول أن يبحث عن أمه.. إن من عادته أن يذهب إليها كلما عاد إلى البيت ويقبل يدها.. ولكنه لم يستطع أن يواجهها.. كان يخاف أن تقرأ على وجهه ما يدور فى رأسه.. فدخل إلى غرفته مباشرة، وأغلق الباب وراءه، ثم ألقى نفسه على سريره وهو بكامل ملابسه، ووضع ذراعيه تحت رأسه، وراح يفكر.

وحاول أن يكون تفكيره منطقيا.. حاول أن يسلسل أفكاره فى شريط واحد حتى لا يتوه فيها أو يتوه عنها.. وبدأ من أول الشريط.

لقد رأى أخته نبيلة تسير على شاطىء النيل مع شاب لا يعرفه.. ولا يمكن أن يكون سيرها معه مجرد زمالة.. لقد كانا يسيران فى منطقة بعيدة عن الجامعة، وكانت يدها فى يده، وكانت خطواتهما بطيئة متأرجحة، كأنهما لا يتحركان، كأنهما فى زورق يتنهد مع نسيم هادىء فوق صفحة الماء.

ثم ماذا؟

إنه مندهش.. لا.. إنه ليس مندهشا فحسب، إنه مجروح، كأن أحدا سلب منه حقا، كأن أحدا أهانه، واعتدى على كرامته.

ولكن لماذا هو مجروح؟

إنها فتاة وكانت تسير مع فتى.. وهو يستطيع أن يتصور كل الفتيات والفتيان فى حب.. كل منهن تسير مع فتى على شاطىء النيل ويدها فى يده.. وقد تصور نفسه هو أيضا يسير مع شهيرة على شاطىء النيل، وفى ملاعب نادى الجزيرة، بل تصور نفسه يقبلها.. فلماذا لا يعتبر أخته واحدة من البنات؟ لماذا لم يدر بخلده أبدا أن واحدة من أخواته البنات يمكن أن تحب، ويمكن أن تختلس مع حبيبها فرصا يسيران فيها على شاطىء النيل.. لماذا يصر كل أخ على تجاهل هذه الحقيقة؟ لماذا يصر على أن ما يأخذه من شقيقات الناس، لا يمكن أن يأخذه أحد من شقيقاته؟ لماذا يمنح كل البنات حق الحب، وحق الشباب، وحق الجنس، ويحرم أخواته من هذا الحق ؟

الواقع أن أخته واحدة كبقية البنات.. ولكنه عاش طوال حياته يتجاهل هذا الواقع.. كل الأخوة يتجاهلونه.. يتجاهلونه ويخفونه تحت ركام التقاليد الموروثة، والكرامة الشرقية الكاذبة.

ولكنه الآن لا يستطيع تجاهل هذا الواقع.. لقد قفز الواقع فوق الركام وفوق التقاليد الوهمية التى يلف فيها كل أخ أخته.. لا ليحمى أخته، بل ليحمى نفسه، ليحمى أحاسيسه الشرقية البدائية من أن تجرح.

إنه لا يستطيع الآن تجاهل الواقع، لأنه رآه.. رآه بعينيه.. وقد كان يفضل ألا يراه، حتى لا يحمل مسئوليته، وحتى يظل محتفظا بهدوء نفسه.. يفضل ألا يراه حتى لو عاش طوال عمره فى الأسطورة التى يعيش فيها كل أخ.. أسطورة أن أخوته البنات لسن ككل البنات!

ورفع عينيه إلى سقف الغرفة.. وعاد خياله يجرى وراء صورة أخته وهى تسير على شاطىء النيل ويدها فى يد هذا الشاب.. ثم هز رأسه كأنه يتعجب.. أن أخته نبيلة هى أهدأ أخوته البنات الثلاث، وأكثرهن اتزانا، وأقواهن شخصية.. رغم أنها ليست كبراهن.. وقد كان دائماً معجبا بشخصيتها.. كان يضعها بعد أمه مباشرة.. وكان يحس فيها بقوة تجعله يتمنى أن يكاشفها بحيرته.. وكان يستريح لوجهها الهادىء والطريقة المحترمة التى تصفف بها شعرها، وتجعلها تبدو أكبر من سنها، وابتسامتها المتزنة التى تعطى معانى كبيرة فى مساحة ضيقة، كأنها ابتسامة فيلسوف يضع الأفكار الدسمة فى كلمات قليلة.. وكان معجبا بإقبالها على الدراسة واستزادتها منها.. و.. إنها آخر واحدة بين شقيقاته، كان ينتظر أن يراها مع شاب فى مغامرة عاطفية.

المهم .. ماذا يفعل؟

هل يسكت.. ولكنه لا يستطيع أن يواجه أخته بالسكوت.. إنه لن يستطيع أن يرفع عينيه إليها، وهو ساكت.. ثم أن السكوت قد يكون محتملا إذا كان قد رآها دون أن تراه، ولكنه ليس متأكدا أنها لم تره. لقد لمح عينيها تصطدمان بوجهه وهو يطل عليها من نافذة السيارة الأجرة.. لاشك أنها رأته.. ولاشك أنها تنتظر منه أن يبدأها بالحديث.. أن يحاسبها.. أن يقول لها رأيه فيها..

ماذا يقول لها؟
ماذا كان يمكن أن يقول لها أبوه لو كان حيا ورآها مع هذا الشاب؟
ووجد أحمد نفسه يحاول أن يتقمص شخصية أبيه.. إنه يعرف أباه جيدا.. كان أبوه هو أول شخصية وضعها تحت ملاحظته لدراستها.. وهو يعرف كيف كان يمكن أن يتصرف فى مثل هذا الموقف.. كان يملأ البيت صراخا.. وكان يضرب نبيلة، ويخرجها من الجامعة، ويحبسها فى البيت، ثم يخاصم زوجته، وتنقضى الشهور وهو يثير الموضوع بين آن وآخر، ويوجه لومه وتقريعه إلى الأم، ويتهمها بالتقصير فى تربية بناتها.
وقد كان أحمد يحب أباه، ولكنه لم يكن معجبا به.. كان أبوه من أسرة ريفية متوسطة الحال، نزح إلى القاهرة، والتحق بمدرسة الألسن، ثم عين فى وزارة العدل وسار فى سلك النيابة، حتى أصبح قاضيا.. واستطاع خلال ذلك أن يتصل بالأسر المصرية الكبيرة، وأن يربط نفسه بمجتمعها.. وعن هذا الطريق استطاع أن يتزوج واحدة من بنات هذه الأسر.. من أسرة راجي باشا.. وكانت أيامها من أغنى الأسر المنحدرة من الأصل التركي، وبين أفرادها وزراء وموظفون كبار.. وكانت زوجته طيبة أصيلة، تربت لتكون للزوج الذى يختاره لها أهلها.. وكان يمكن أن يسعد بها، لولا أنه ظل طوال حياته يعانى من عقدة نقص تجاهها.. كان يشعر بأنها أعلى مستوى منه وأعرق أصلا وأغنى ثروة.. ورغم تماديها فى طاعته وفى محاولة ارضائه، كان احساسه بالنقص يشقيه دائما ويشقيها معه.. وقد ارتقى فى مناصب القضاء حتى أصبح مستشارا.. ولكنه رغم ذلك لم يتخلص من احساسه بالنقص، فبدأ يتصل برجال السياسة، ويدخل نفسه فى مجتمعاتهم، ويقيم لهم ولائم سخية فى بيته ويبدد ثروته وثروة زوجته عليهم.. ثم انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين ، بعد أن طاف بكل الأحزاب، ليعرف أيها يستطيع أن يحمله إلى الوزارة.. وكان مقدرا أن يصبح وزيرا فعلا فى أول وزارة يتولاها الأحرار الدستوريون بعد أن انضم إليهم لولا أن اراحه الموت من احساسه بالنقص..
ويذكر أحمد أن والده لم يكف أبدا عن التشهير بأسرة زوجته، والسخرية من أصلها التركى، حتى أمام أولاده.. وكان ينسب كل أخطاء

زوجته ـ وكلها أخطاء صغيرة، أو أخطاء وهمية ـ إلى أصلها التركي.. ومن كثرة ما سمع أحمد من هذا التشهير وهذه السخرية، نشأ وهو يتخذ دائما جانب أمه.. لم يكن يفهم تماما سر المشاحنات التى تدور بينها وبين أبيه، ولكنه كان يحس أنها الجانب المعتدى عليه.. وكان معجبا بهدوئها واحترامها لنفسها، وعدم الرد على أبيه بمثل تشهيره وسخريته.. وكان اعجابه ينقلب إلى دهشة عندما تجلس إليه أمه، وتحاول أن تقنعه بأن أباه رجل عظيم، وتحاول أن تزرع فى قلبه بذور حبه لأبيه، واحترامه له..

وقد استطاعت أمه أن تجعله يحب أباه.. أحبه لأنها ارادت له أن يحبه.. ولكن أمه لم تستطع أن تجعله يحترم أباه أو يعجب به.. حتى بعد أن توفى لم يستطع أحمد أن يكون معجبا بأبيه.. وكان كلما كبر، وازداد وعيا، وتعمق فى دراسة شخصية أبيه، اكتشف فيها الانتهازية، والقسوة وعقدة النقص.

واستطرد أحمد يحاول أن يجمع فى خياله ذكرى الأيام التى سبقت وفاة والده.. لقد كانوا يقيمون أيامها فى البيت كله.. كان الدور الأول مخصصا لاستقبال الضيوف من الوزراء والباشوات ورجال القضاء.. وكانت العائلة تقيم فى الدور العلوي.. وكان أحمد لا يدخل الدور الأول أبدا، وكلما مر به شعر برهبة، تكاد تكون خوفا.. كان يخيل إليه أن غرف هذا الدور مليئة بأشباح لرجال عجائز، ذوى شوارب ولحى بيضاء.. وطرابيش طويلة.. طويلة جدا.. وعيون قاسية.. وأصوات محشرجة كأصوات العفاريت.. وضحكات مجنونة صارخة.. وكان كلما مر بهذا الدور وهو فى طريقه إلى الدور العلوي، أخذ يجرى فوق السلالم ويقفزها قفزا هربا من أشباح العجائز.. وحتى بعد أن كبر وازداد وعيا ظلت فيه عادة الجرى فوق السلالم وقفزها.. ثم توفى والده واكتشفت أمه أنه ترك وراءه ديونا ضخمة، فتولت سدادها حفظا لسمعة العائلة ، واضطرت أن تبيع الأرض التى ورثتها من عائلتها، ولم يبق لها إلا العمارة.. وهذا البيت الذى يقيمون فيه. وزيادة فى الاقتصاد انتقلت مع أولادها إلى الدور الأول، وأجرت الدور العلوى بايجار لم يزد على اثنى عشر جنيها فى الشهر.. وقد ظل أحمد بعد أن انتقلوا إلى الدور الأول، يعانى الرهبة والخوف.. كان ينام

خائفا، ويستيقظ فى الليل مذعورا على أشباح العجائز ذوى الشوارب واللحى القاسية.. وقد صاحبته هذه الرهبة وهذا الخوف سنوات طويلة، حتى غطست فى عقله الباطن..

وتململ أحمد وهو راقد على السرير كأنه يحاول أن يطرد من رأسه ذكرى أبيه، وأيام أبيه.

ثم بدأ يحاول أن يتقمص شخصية أخري.. شخصية خاله.

لو كان خاله فى مثل موقفه، ماذا كان يفعل بنبيلة؟

إنه يعرف ماذا يفعل خاله فى مثل هذا الموقف.. سيواجهه جادا هادئا.. وسيختلى بنبيلة فى غرفة المكتب، ويحادثها طويلا، دون أن يثيرها، ودون أن يترك لها فرصة الرد، ثم سيتركها ويتفق مع الأم على تزويجها بسرعة.. ولأول رجل يطرق الباب.. تماما كما حل مشكلته هو عندما كان يحاول أن يجد عملا يعمله بعد أن انتهى من دراسته الجامعية.. لقد عينه فى أقرب وظيفة إليه.. فى إدارة المعاشات.

وقفز أحمد من فوق السرير، وأخذ يروح ويغدو فى حجرته.. وهو يدق الأرض بقدميه دقات قوية، كأنه يحاول أن يقتل شيئا يسعى بين قدميه.. إنه لا يستطيع أن يكون كأبيه، ولا يستطيع أن يكون كخاله.. إن فى عقله جانبا متمردا.. جانب يؤمن بأن أخته كبقية البنات، ومن حقها أن تحب، ومن حقها أن تختار من تحبه، وأن تسير معه على شاطىء النيل ويدها فى يده.. ورغم ذلك فعقلية أبيه، وعقلية خاله، تختلطان بهذا الجانب من عقله.. كأن فى رأسه ثلاثة عقول، لا يدرى أيها يستعين به فى اتخاذ قراره.. كأن فى نفسه ثلاث شخصيات لا يدرى أيها يتركها تتصرف.

●●●

وسمع نقراً على الباب.

ثم فتح الباب قبل أن يجيب، وأطل منه وجه أخيه ممدوح.. وجه باسم نحيل.. حاجبان كثيفان يلتقيان فوق عينين جريئتين ينطلق منهما بريق نشط وأنف مستقيم.. وشفتان رفيعتان، وخصلة من شعره فى لون قشرة أبو فروة، تتدلى فوق جبينه.

وابتسم أحمد.. إنه لا يتمالك نفسه عن الابتسام كلما رأى أخاه.. إن

وجهه وشخصيته المرحة تجتذب ابتسامتك رغما عنك.

ودخل ممدوح بقامته الطويلة الرفيعة، مرتديا بنطلونا وقميصا أبيض فوق بلوفر من الصوف ذى أكمام طويلة، وتحت إبطه حافظة كبيرة من الورق مما يحمله باعة الصحف.. وقال وهو يبتسم لأخيه كأنه يلقى عليه شباكا من شخصيته الجذابة المرحة.

- ازيك يا أخويا.

ونظر أحمد إلى حافظة باعة الصحف فى دهشة، وقال كأنه ينهر أخاه :

- إيه اللى إنت شايله ده؟

وقال ممدوح وهو يفرد ابتسامته فوق شفتيه :

- جرايد ومجلات..

ثم جذب احدى الصحف من داخل الحافظة، ورفعها فى الهواء، وأخذ يدور داخل الغرفة وهو يصيح مقلدا باعة الصحف :

- أهرام .. أخبار.. روزا.

وبذل أحمد مجهودا ليخفى ابتسامته، ويكسو وجهه بقناع من الوقار، وقال فى صوت حاد مرتفع يعلو على صياح أخيه :

- إنت اشتغلت بياع جرايد ولا إيه؟

وتوقف ممدوح عن الصياح، وقال وهو يعيد الصحيفة داخل الحافظة :

- تقريبا.

وقال أحمد وهو ينظر إلى أخيه فى تمعن :

- أظن لو قريت الجرايد دى تكسب أكتر!

وقال ممدوح وهو لا يزال يبتسم :

- بالعكس.. أنا قرأتهم ما كسبتش حاجة.. ولما فكرت أبيعهم ابتديت أكسب كتير.. تعرف أقدر اكسب كام فى اليوم من بيع الجرايد؟

ولم يرد أحمد، ظل ينظر إلى أخيه كأنه يتهمه بالجنون.. واستطرد ممدوح وصوته يفيض حماسا، كأنه يتحدث عن مشروع وطنى كبير :

- أقدر أكسب جنيه فى اليوم.. جنيه بحاله.. الجرنال باخده من المتعهد بسبعة مليم وأبيعه بعشرة والمجلة أخدها بخمسة وعشرين مليم، وأبيعها بتلاتين، وقصة لا أنام، المتعهد يبيعها بخمسة وتلاتين قرش. وأنا أبيعها

بخمسين.. ولو وصلت لغاية شركة التوزيع أقدر اشترى ارخص واكسب أكثر.. أقدر أكسب جنيه فى اليوم.. يعنى تلاتين جنيه فى الشهر.. يعنى ماهية موظف فى الدرجة الخامسة.. وقال أحمد وهو لا يزال ينظر إلى أخيه كأنه يتهمه بالجنون :

- إيه الكلام اللى بتقوله ده..

وقال ممدوح وهو لا يزال مستطردا فى حماسه :

- ده كلام جد.. امبارح كنت قاعد فى بوفيه الجامعة، وباقول للطلبة إن الواحد لو اشتغل بياع جرايد يكسب أكثر من المحامى اللى تحت التمرين.. قعدوا يتريقوا علىّ، ويقولوا إن ما فيش طالب جامعة يرضى يشتغل بياع جرايد.. فتحديتهم.. وخرجت من الجامعة وقعدت أدور لغاية ما عرفت المعلم اللى بيبيع الجرايد فى الجيزة.. وعرفت الأسعار والنهاردة الصبح بدرى رحت اشتريت من المعلم شوية جرايد ومجلات بخمسين قرش.. ودخلت الجامعة ووقفت على سلم كلية الحقوق.. وابتديت أقول فى صوت واطي، وفى منتهى الجد.. أهرام، أخبار، روزا، ومافتش نصف ساعة إلا وبعت كل اللى معايا.. ما فضلش معايا إلا نسخة واحدة.. ولولا أن أصحابى اتلموا علىّ وقعدوا يناقشونى كنت بعت النسخة دى كمان.. وتعرف الخمسين قرش بقوا كام. بقوا اتنين وستين قرش.. يعنى.

وصاح أحمد يقاطعه غاضبا :

- إنت بتهزأ نفسك.. إنت مسخرة الجامعة.. الطلبة ما كانوش بيشتروا منك كانوا بيدفعوا لك القرش علشان يتفرجوا عليك.. يتفرجوا على السيرك الجديد.. على الاراجوز.

وسكت أحمد.. وأخذ يبحث فى أعماقه عن غضبه فلم يجد له أثرا.. إنه فى الواقع ليس غاضبا من أخيه.. إنه كان يتتبع مشروعه بشغف واعجاب، ورغم ذلك فقد ظل محتفظا بمظهر الغضب.

وقال ممدوح وفى عينيه دهشة كأنه لا يصدق غضب أخيه :

- باهزأ نفسى ليه.. هو بيع الجرايد عيب.. حرام.. سرقة؟!

وقال أحمد :

- الجرايد لها ناس مخصوص تبيعها.. ناس مابيدخلوش الجامعة!

وقال ممدوح وهو يلقى بحافظة الصحف فوق سرير أخيه :

- أنت بتتكلم زى الطلبة اللى كانوا بيناقشونى امبارح.. إنما أنا مش مقتنع أن بيع الجرايد عيب.. ومش مقتنع إن اللى يبيع الجرايد لازم يلبس جلابية.. دى شغلة شريفة وبتجيب فلوس.. يبقى خلاص.

ونظر أحمد فى وجه أخيه كأنه يبحث عن حجة أخرى يواجهه بها، ثم قال :

- لو كان الكلام اللى بتقوله صحيح، كانت الناس كلها باعت جرايد..

وقال ممدوح ساخرا :

- ما هى الناس كلها زيك كده.. اللى يطلع من الجامعة لازم يلبس بدلة وكرافتة ويقعد على مكتب.

وعاد أحمد ينظر فى وجه شقيقه، ثم أرخى عينيه، وأدار له ظهره، وقال وهو يتعمد أن يبدو كأنه لا يبالى :

- خليك إنت تلعب لغاية ما تسقط.

وخطا ممدوح حتى وقف فى مواجهة أخيه، وقال فى لهجة تبدو منها رنة تودد :

- ما تخافش.

ثم رفع يده اليمنى فى الهواء، وقال بلهجة ضاحكة :

- أقسم بالله العظيم أن أنجح فى امتحان السنة الثانية بكلية الحقوق.

ثم خفض يده، وقال :

- المهم.. أنا محتاج لك.

ورفع أحمد عينيه.. إنه يعرف هذه الرنة التى تبدو فى لهجة ممدوح.. إنها رنة لا تبدو إلا كلما أراد منه شيئا. وهو عادة لا يريد إلا نقودا.. وقال فى برود :

- خير.

وقال ممدوح وابتسامته الحلوة تكاد تنزع قناع الوقار الذى يحتفظ به أخوه :

- المشروع محتاج لرأسمال.. اتنين جنيه بس.. حارجعهم لك بعد يومين.

وقال أحمد فى حزم مفتعل :

- ماعنديش.

وقال ممدوح :

- جيب أخويا أحمد عمره ما يخلا.. زى جيب السبع.

وقال أحمد فى حدة :

قلت لك ما عنديش.

وقال ممدوح :

- دور كده فى جيب الجاكتة اللى على الشمال، يمكن تلاقى وقال أحمد وهو يتحاشى النظر إلى أخيه، ليقاوم ضعفه أمام إلحاحه :

- مافيش.. تسمح تقول لى أنت بتودى مصروفك فين.. احنا لسة عشرة فى الشهر.

وقال ممدوح ضاحكا :

- تعيش أنت.. أمال أنا عايز أبيع جرايد ليه، علشان مكسبها باليوم، مش بالشهر.. يعنى عمر الواحد مايفلس.

ومد أحمد يده فى جيب سترته الشمال، وأخرج محفظته، ثم نزع من المحفظة ورقة من ذات الجنيه، وأعطاها لممدوح قائلا :

- مافيش إلا ده.

وأطل ممدوح داخل المحفظة بعينين ضاحكتين، وقال :

- كمان واحد..

وطوى أحمد المحفظة، وقال وهو يعيدها إلى جيبه :

- ولا مليم.

وقال ممدوح فى عتاب :

- يا سلام يا أحمد.. يعنى حتضطرنى أروح أدوش ماما، علشان جنيه.. خللى ماما للحاجات الكبيرة.

وقال أحمد فى حزم، كأنه فى عمر خاله :

- أعرف شغلك.. وأحب أقول لك إنى مش موافق على حكاية الجرايد دى.. حتى لو كانت لعب.. إنت خلاص بقيت راجل.

وقال ممدوح ضاحكا وهو يسحب حافظة الجرايد ويضعها تحت إبطه، ويهم بالخروج من الغرفة :

- يعنى مش أحسن من السلف.

وخرج ممدوح.

ونظر أحمد وراءه بعينين ملؤهما الحب والاعجاب، والدهشة.. إنه ليس غاضبا منه.. وربما كان فى أعماقه موافقا على مشروعه.. مشروع الاشتغال ببيع الصحف.. حتى لو كان ممدوح غير جاد فى هذا المشروع، فهو مشروع معقول من ناحية المنطق المجرد.. إن مهنة بيع الجرايد مهنة شريفة مربحة.. وقد يزيد ربحها على مرتبه الذى يتقاضاه من إدارة المعاشات.. ولكن هل يصل هذا الربح إلى ثلاثين جنيها فى الشهر؟!

وبدأ أحمد يخلع سترته، وهو يحسب فى خياله أرباح بائع الصحف.. إنه ليس مضطرا إلى ارتداء جلباب كى يبيع الصحف، سيبيعها وهو مرتد بنطلونا وقميصا.. ثم بدأ يتصور نفسه وهو يقفز على سلم الترام ينادى الصحف.. ثم وهو يجوب الشوارع.. ثم رأى نفسه بعين خياله يبيع الصحف فى شارع عبدالعزيز آل سعود المحاذى لشاطيء النيل.. وفجأة رأى - فى خياله - أخته نبيلة تسير ويدها فى يد هذا الشاب الذى لا يعرفه.

وتجهم وجهه. وارتمى على المقعد العريض الموضوع بجانب سريره، دون أن يتم خلع ثيابه.. وفوق قميصه بلوفر مضموم من الأمام بصف من الازرار، لا يرتديه إلى الرجال الكبار.. أكبر من عمره.. وعاد يناقش نفسه.. إنه لم يتخذ بعد قرارا.. لم يحدد بعد كيف يواجه اخته، وماذا يقول لها؟

ودهمته سحب الحيرة من جديد.. واستبدت به حيرته حتى لم يعد يتمنى شيئا إلا أن يفر.. يفر من مواجهة أخته، ويفر من هذا البيت، ومن هذا البلد.. وقام من على مقعده فجأة، كأنه يهم فعلا بالفرار.. ووقف أمام المرآة ينظر إلى وجهه وفى عينيه نظرات استخفاف.. ثم رفع قبضته وضرب المرآة ضربة خفيفة، كأنه يضرب وجهه.. يضربه وهو يشفق عليه.

والتفت على صوت نقرات أخرى على الباب.. وبرزت له أمه.. سيدة فى الثانية والأربعين، تبدو أصغر من سنها.. بشرتها البيضاء مشدودة فوق صفحة وجهها، ثم تتكسر قليلا فى تجاعيد خفيفة تحت عينيها.. عينين فاتحتين يختلط فيهما اللون الأخضر باللون الاصفر.. وشعرها الاصفر عقصته خلف رأسها وقد بدأ لونه يغمق.. وقامتها مفرودة.. ممتلئة ولكنها

ليست سمينة.. وقد ارتدت ثوبا أنيقا فى لون البنفسج، ينعكس على لون بشرتها البيضاء فتبدو أكثر بياضا.. وحذاء أسود ذا كعب عال. وفى معصمها ساعة ذهبية غالية.. إنها سيدة يبدو أنها تتعمد الحرص على الاحتفاظ بنفسها.. الاحتفاظ بصحتها، وجمالها، ورشاقتها، واحترامها.

وقالت وبين شفتيها ابتسامة حنان، وفى لهجتها آثار رنة تركية :

- إنت جيت يا أحمد.. يعنى مافتش علىّ؟

واتجه أحمد إليها فى لهفة، وانحنى على يدها يقبلها ويرفعها إلى جبينه، ثم قال ونظرته ترتعش بين عينيه :

- أصل كان معايا شوية كتب، دخلت أحطهم.

ونظرت إليه كأنها لا تصدقه، وقالت وفى عينيها لمسة جزع :

- مالك ؟

وتردد أحمد قليلا ثم قال :

- أبدا.. بس تعبان شوية.

ووضحت لمسة الجزع فى عينى الأم، ومدت يدها وجذبت رأس أحمد إليها ثم لمست جبينه بشفتيها.. وعادت تقول :

- أنت مش سخن. ماعندكش حرارة.. يمكن تعبان من الشغل.

وابتسم أحمد ابتسامة ساخرة فيها كثير من المرارة.. إن أمه لا تعلم أنه لا يعمل شيئا.. لا تعلم أنه عاطل اتخذ مكتبا له فى إدارة المعاشات بوزارة المالية.

وعادت الأم تقول :

- مش نتغدى بأه.. ممدوح وفيفى جم.. مش فاضل إلا نبيلة، زمانها جاية، ولا يمكن عندها دروس وحاتتغدى فى الجامعة..

وحول أحمد عينيه عن عينى أمه، حتى لا تعلم منها ما يعلمه.. حتى لا تعلم أن نبيلة.. ليست فى الجامعة، ولا هى تتلقى العلم.. إنها الآن تسير على شاطئ النيل، ويدها فى يد شاب.

هل يقول لأمه ؟

هل يقول لها كل شيء لينزع العبء عن كتفه ويلقيه على كتفيها.. عبء مواجهة نبيلة، واتخاذ قرار بشأنها.

ونظر أحمد إلى أمه نظرة سريعة.. ولم يقل شيئا.. إنه لا يستطيع أن يقسو عليها إلى هذا الحد.

●●●

وبدأت العائلة تلتف حول المائدة.

جلست الأم فى الصدر على مقعد بمسندين.. وجلس أحمد فى المقعد الذى يواجهها.. مقعد آخر بمسندين.. وقد كان هذا المقعد مخصصا للأب، ثم لما توفى ظل مكانه شاغرا أعواما طويلة، كان أحمد خلالها يجلس على يمين أمه كما تعود منذ صغره.. إلى أن طلبت منه أمه يوما أن يجلس فى مكان والده.. المكان الشاغر.. وقد تضايق يومها.. أحس بأنه خرج من جنة الحنان.. أحس بأنه كبر.. كبر جدا حتى أصبح فى عمر والده.. وأحس أنه لم يعد من حقه أن يضحك، ولا أن يلهو، ولا أن يلقى بنفسه فى أحضان أمه.

وجاءت ليلى وجلست على يسار أمها.

ودخل ممدوح وطاف حول المائدة، وشد ضفيرة اخته المدلاة خلف ظهرها، فنظرت إليه ، وقالت فى حدة تضيع فى ابتسامتها :

- بايخ.. سخيف.

ولم يرد عليها ممدوح.. مر بوالدته وقبلها فوق رأسها ثم جلس على يمينها.

وجاءت فيفى.. أكبر البنات.. إنها أقل من أمها وأختها اعتناء بثيابها، ومظهرها.. وأقل منها جمالا.. لقد أخذت من أبيها كل شيء.. أخذت لونه الأسمر، وعينيه الضيقتين، وشعره الأسود الذى يميل إلى الخشونة، وأسنانه البارزة بروزا خفيفا، وأنفا أصغر مما يتناسب مع مساحة وجهها.. إنها ليست قبيحة، ولكنها ليست جميلة.. هذا النوع من الوجوه الذى لا يهم الناس أن يطيلوا النظر إليه، ولكنهم لو نظروا إليه لما نفروا منه.

وجلست فيفى على يمين أحمد.. وأخذت تقلب فى أدوات المائدة، ثم رفعت الشوكة أمام عينيها، ودققت فيها النظر، ثم صاحت تنادى السفرجى:

ـ محمد.. محمد.. خد غيّر لى الشوكة دي.. ايه ده، إنتم ما بتغسلوش الشوك والسكاكين!

ولم يلتفت إليه أحد من أفراد العائلة.. كأنهم جميعا قد تعودوا على هذه الصيحة منها.. وجاء محمد السفرجي وأخذ الشوكة من يدها ووضع غيرها على المائدة، دون أن يتكلم، ودون أن ينظر فى الشوكة التى أعادتها إليه فيفى.

وبدأت أطباق الطعام تطوف عليهم..

ونظرت الأم إلى أحمد نظرة سريعة، ثم خفضت عينيها، وقالت بعد تردد:

– خالك جاى الليلة يا أحمد.. أنت خارج؟

ورفع أحمد عينيه إليها، ثم عاد ونكسها فى طبقه، وقال:

– مش عارف لسة!

وصاحت فيفى:

– مين اللى قال للطباخ يعمل خرشوف.. أنا مابحبش الخرشوف.. وميت مرة قلت ماتعملوش خرشوف.. هوه ماحدش بيسأل فيه فى البيت ده..

ولم يلتفت إليها أحد من أخوتها، وقالت الأم دون أن يبدو عليها اهتمام:

– معلهش يا حبيبتى.. فيه بسلة جنب اللحمة؟

وسكتت الأم قليلا، ثم عادت تنظر إلى أحمد، وقالتِ وفى صوتها رعشة خفيفة:

– يظهر إن عبد السلام بيه حاييجى مع خالك..

ورفع أحمد وجهه مرة ثانية، وقد قلب شفتيه امتعاضا، وقال بسرعة كأنه يردد قرارا حاسما اتخذه بينه وبين نفسه:

– أنا خارج.. عندى ميعاد مع جماعة أصحابى..

وقالت الأم وهى ترفع الطعام بالشوكة إلى فمها، دون أن تنظر إليه:

– حاول تيجى بدرى.. علشان تقعد مع خالك شويه..

وقال أحمد دون أن ينظر إليها:

– حاضر..

واستمرت العائلة فى تناول الطعام وعندما وضعت سلة الفاكهة فوق المائدة، سمعوا صوت باب البيت يفتح.. وصاحت ليلى فى فرح:

- نبيلة جت..

وارتعشت رموش أحمد.. ورفع وجهه ونظر إلى نبيلة وهى داخلة إليهم، ثم أبعد عينيه عنها قبل أن تلتقى بعينيها.

ونظرت إليه نبيلة، نظرة حائرة، كأنها تحاول أن تقرأ سطورا على وجهه.. ثم جلست على يساره، وألقت كراسة المحاضرات تحت قدميها..

وقالت الأم ، وصوتها ليس فيه اتهام، ولا محاسبة:

- اتأخرت ليه يا بلبل؟

وتلعثمت نبيلة قليلا، والتفتت إلى أحمد لفتة سريعة، ثم عادت تنظر إلى أمها، وقالت:

- كان عندنا محاضرة بعد الظهر..

وقالت فيفى:

- وهية كلية الآداب فيها محاضرات، ولا فيها شغل.. دى كلية لعب!

وقال ممدوح:

- إزاى الكلام ده..دى كلية الآداب أتعب كلية.. الواحد لما بيطلب فنجال قهوة فى البوفيه بتاعها، بيقعد ساعة على بال ما يجيله..

وضحكت فيفى وليلى والأم.. وابتسمت نبيلة ابتسامة مهزوزة لم تستقر على شفتيها.. وكان أحمد قد بدأ يقشر بأصابعه برتقالة، فتركها.. ونظر إلى أخوته، ثم قام من على مقعده، وهو يبذل جهدا كبيرا حتى يبدو طبيعيا.

وقالت الأم وهى تلاحقه بعينيها:

- مش تستنى لما تخلص البرتقاله بتاعتك..

وقالت ليلى:

- تحب أقشرها لك..

وقال أحمد وهو يستدير لهم:

- لأ .. مرسيه.. ماليش نفس.

وخرج أحمد من حجرة الطعام، وعينا نبيلة تتبعانه فى جزع.. ودخل إلى غرفة المكتب، وألقى نفسه فوق مقعد عريض من الجلد، وجذب كتابا،

وفتحه، وحاول أن يقرأ فيه، ولكن السطور ارتبكت أمام عينيه.. إنه لا يستطيع أن يقرأ.. وهو يعلم أنه لن يستطيع أن يقرأ.. ولكنه ظل مركزا عينيه فوق الصفحات.. وفى رأسه دوى، وصدره ضيق، وأعصابه مشدودة.. وهو يحاول أن يهدأ.. إن كل ما يحتاج إليه الآن هو الهدوء.. أو على الأقل أن يبدو هادئا.

ومرت دقائق، ورفع رأسه من فوق الكتاب ليرى نبيلة واقفة أمامه.. ونظر إليها نظرة صامتة، اختلط فيها الألم بالغيظ بالحيرة.. ولم يتكلم.. عاد ونكس رأسه فوق الكتاب.

ولكنها ظلت واقفة أمامه، لا تتحرك.. وظل ينظر إلى قدميها من تحت أهدابه ورأسه منكسة.. ثم عاد ورفع رأسه إليها، وقال وهو يحاول أن يسيطر على أوتار صوته حتى لا يصرخ:

– عايزه إيه؟

وقالت فى هدوء، وبين شفتيها ابتسامة خجلة:

- أنا شفتك النهارده..

وضغط على أعصابه حتى بهت وجهه وارتعشت شفتاه، وقال كأنه يعطيها فرصة للكذب عليه:

– شفتينى فين؟

قالت وهى تتودد إليه بابتسامتها الخجلة:

– شفتك وأنت راكب التاكسى وراجع البيت.. وكنت أنا ماشية مع محمود.

وقالت الجملة الأخيرة بسرعة كأنها تتخلص من فائض أنفاسها.

وسكت أحمد، وقد اكتست عيناه بالألم والحيرة، ثم قال بعد برهة فى صوت محشرج كأنه صوت ذبيح، ودون أن ينظر إليها:

– محمود مين؟

قالت فى صوت خافت:

– زميلى فى الكلية.. محمود عبدالفتاح..

واقتربت من المكتب واستندت إليه بيدها كأنها تخاف أن تقع على الأرض.. ثم أخذت تمر بأصبعها على حافة المكتب، وقد أدارت وجهها عن

أخيها.. ثم فجأة التفتت إليه وقالت فى حدة كأنها تصرخ:
- وبيحبنى..
واتسعت عينا أحمد كأنه تلقى سكينا فى قلبه.. وظل ساكتا وأنفاسه تتهدج:
واستطردت نبيلة فى صوت خافت كأنها تحادث نفسها:
- وأنا بأحبه.. وحانتجوز بعد ما يتخرج السنة دى؟
وزحفت سحب الضباب فوق عينى أحمد حتى لم يعد يرى شيئا.. هل يقوم ويصفعها؟ هل يصرخ فيها؟ هل يتصرف كما كان يمكن أن يتصرف والده فى مثل هذا الموقف، أو كما يمكن أن يتصرف خاله؟ إنه لا يدرى.. إن الحيرة قد أشلته حتى لم يعد يستطيع أن يتحرك.. بل لا يستطيع أن يحدد أين يضع ذراعه؟ فوق مسند المقعد، أم فوق ركبتيه، أم يسند بها ذقنه.
ووجد نفسه بعد فترة يقول فى صوت متهدج كأنه يستعطف أخته:
- وبتقوليلى الكلام ده ليه دلوقت..
وقالت وهى تنظر إليه ووجهها لا يزال محتقنا:
- علشان كان لازم تعرف بعد ماشفتنا.. ولأنى عارفه إنك تقدر تفهمنى، وإنك بتثق فىّ.. ولأنى ماعملتش حاجه تزعلك علشان أخبيها عليك..
وسكت أحمد، وقد تكرمش وجهه كأنه يمضغ آلامه، ثم قال فى صوت عميق كأنه صدى لمناقشة تدور فى نفسه:
- إذا كان بيحبك فأنا ما أقدرش أحكم على الحب ده.. الحب إحساس مايقدرش يقدره ويعرف حقيقته إلا اللى بيحس بيه.. وكمان ماأقدرش أحكم على حبك، يمكن تكونى بتحبيه صحيح، ويمكن حبك يكون مجرد إعجاب.. ولا نزوة.. ولا انفعال.. يمكن إنتم الاتنين تكونوا مخدوعين فى عواطفكم، ويمكن تكونوا صادقين.. المهم إنى أنا ما أقدرش أحكم على عواطفكم.. وما أقدرش أعرف إذا كان حيتجوزك صحيح، ولا بيضحك عليكى.
ثم انتفض واقفا على قدميه، وقال وقد ارتفع صوته:
- أنا مش ممكن اعترف بالحب ده.. مش ممكن اعترف بحاجه ما أقدرش أتأكد منها.. وبصفتى أخوكى، مش ممكن اعترف بالشاب ده إلا

لما ييجى ويطلب يتجوزك.. ومش عايز أسمع السيرة دى تانى.. مش عايز أشوفك معاه تانى.. مش عايز أشوفك خالص.

وصاحب نبيلة كأنها تهم بالدفاع عن حبيبها:

- ده أنا بأعرفه بقالى سنتين يا آبيه.. و..

ولم يستمع أحمد إلى بقية كلامها، وخرج من الغرفة وهو يدق الأرض بقدميه كالطفل العنيد.. ونبيلة تتبعه بعينين ملؤهما الاشفاق.. ودموع فوق خديها كأنها تحاول أن تغسل بها الجرح الذى فتحته فى قلبه.

ودخل أحمد غرفته وهو يعلم أنه لم يفعل شيئا إلا الهرب.. لقد هرب من المشكلة.. تخلى عن أخته.. لم يبد لها رأيا.. لم يمد لها يدا.. لم يعنها.. ولم ينقذها.. فقط هرب.. لأنه لا يستطيع إلا الهروب.

●●●

وكانت الساعة الرابعة والنصف عندما خرج أحمد من غرفته ودخل الحمام، وخلع ثيابه ووقف تحت «الدش».. لقد تعود أن يستحم بالماء البارد صيفا وشتاء.. كان الماء البارد ينعشه وينبه أعصابه.. ولكن الماء فى هذه المرة كان ينزلق فوق جسده دون أن يحس به، كأنه خيوط المطر تنزلق فوق سقف من الصفيح.

وخرج من الحمام، ودخل إلى غرفته وبدأ يلبس ثيابه من جديد.. إنه سيغادر البيت.. لا يدرى إلى أين؟ ربما إلى السينما، وربما ذهب إلى مقهى، وربما سافر.. كل ما يدريه أنه يجب أن يغادر البيت.

وعندما وصل إلى البهو الخارجى لمح أمه تشرف على ترتيب حجرة «الصالون» استعدادا لاستقبال خاله، وعبدالسلام.. وعندما تذكر عبدالسلام، وسع من خطاه كأنه يفر.

وقبل أن يفتح الباب، لمح أخته ليلى آتية وراءه، وقد حملت مجموعة من النوت الموسيقية فى يدها.. وارتدت ثوبا فى لون الورد، وصدرها يبرز من تحته فى تطلع، كأنه يشب نحو السماء.. وقد عقصت شعرها بحيث تركت خصلة منه تتدلى فوق جبينها فى إهمال مثير.. وفوق شفتيها طبقة باهتة من «الروج».

ونظر إليها فى جزع.. إنها جميلة.. إنها أكثر من جميلة، إنها مثيرة..

ولم يكن يدرى أنها يمكن أن تكون جميلة ومثيرة إلى هذا الحد.. لقد كانت طفلة منذ عهد قريب.

وانتظرها إلى أن اقتربت منه، وقال كأنه يخاف عليها من فتنتها:

- رايحة فين؟

وقالت ليلى فى براءة:

- رايحه أتمرن عند طنط عواطف..

ونظر أحمد إليها مليا، كأنه يفكر فى أن يمنعها من الخروج ثم قال:

- ما تتأخريش..

وخرج من البيت..

وتلكأت ليلى قليلا حتى تأكدت من أن أخاها قد وصل إلى الشارع، ثم أطلت فى المرآة الموضوعة بجانب الباب، وساوت خصلة الشعر المدلاة فوق جبينها، وكشفت عن أسنانها، كأنها تجرى تجربة لأرشق وأحلى ابتساماتها.. ثم خرجت وراء أخيها.

٣

• ليـــلى •

.. ووقفت ليلى أمام باب البيت تبحث بعينيها عن أخيها أحمد، ولما تأكدت أنها لا تراه.. سارت في امتداد شارع الأخشيد تحت الأشجار الكبيرة التي نزع الشتاء أوراقها وتركها أخشابا جافة كأنها أعمدة من التراب..ثم عادت والتفتت خلفها كأنها لا تزال تخشى أن يراها أخوها أو أن تراه.. ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، كأنها اكتشفت أن ليس هناك ما تخشاه، حتى لو رآها أخوها.. لقد قالت له إنها ذاهبة إلى «طنط» عواطف.. وهى ذاهبة إليها فعلا، ويستطيع كل أفراد عائلتها أن يصحبوها حتى الباب.

وأسرعت فى مشيتها، وجسدها يهتز مرحا مع خطواتها، وينشر حوله عطر الصبا.. ثم وقفت أمام باب بيت صغير يقع فى نفس الشارع.. بيت كبيتهم، مكون من دورين أيضا، أولهما فوق الأرض مباشرة، وهو أصغر مساحة من بيتهم.. وأقل فخامة..وترددت وهى واقفة أمام الباب، وسقطت ابتسامتها خلف شفتيها، وضرب قلبها بعنف، وأحست ببرودة تسرى فى قدميها.. ثم فردت قامتها ودفعت الباب الخشبى الصغير، وسارت فى الحديقة الصغيرة بخطوات واسعة وهى تحاول أن تتجاهل ضربات قلبها والبرودة التى تسرى فى أطرافها.. ثم صعدت السلم.. وضغطت على الجرس المعلق بجانب الباب.. وهى لا تزال تحاول ألا تحس بشىء، وألا تفكر فى شىء.

وفتح الباب رجل، يرتدى القميص والبنطلون وفوقهما بلوفر من الصوف طويل، أسمر. نحيل الوجه.. وعيناه واسعتان يشع منهما بريق حاد قلق، لا تدرى أهو بريق سوادهما، أم بريق بياضهما.. ونظرة

لا تستقر.. وشفتان مكتنزتان غامقتان.. وقد سقط شعره عن مقدمة رأسه فبدا كأنه قضى عمره فى تفكير عميق أتعب رأسه حتى خلع جذور شعره.

وعلت شفتى الرجل ابتسامة كبيرة.. ابتسامة أقرب إلى نهدة الارتياح.. ثم خطا خطوة واحدة بعيدا عن الباب لتدخل ليلى.. ثم ظل واقفا قبالتها وصدره يكاد يلامس صدرها.

ونظرت ليلى إلى داخل البيت نظرة سريعة، ثم عادت ترفع إليه عينيها فى تساؤل.

وقال فى صوت هامس يجيب عن نظرتها :

ـ مافيش حد..

وأرخت ليلى عينيها، وقد تضرج وجهها.. ثم شبت على قدميها وقبلته قبلة سريعة فوق خده.

ومد ذراعيه واحتضنها إلى صدره.. إنها أقصر منه قامة، ورأسها فوق كتفه.. وأغمض الاثنان عيونهما.. لم تعد ترى إلا ما فى قلبه، ولم يعد يرى إلا ما فى قلبها.. وارتفعت كفه فوق رأسها واستراحت فوق شعرها.. ثم مال برأسه ووضع خده عى خدها.. وعيونهما لا تزال مغمضة.. كأن أحدهما انتهى فى الآخر.

وانفلتت ليلى من بين ذراعيه فى رفق، وأنفاسها مبهورة.. ونظرت إليه كأنها تبحث عن نفسها فى عينيه.. ثم ابتسمت ابتسامة واسعة كأنها الزغرودة، وقالت وهى ترفع النوتة الموسيقية أمام عينيه :

ـ بيتهوفن!

وخطت تجتاز الصالة نحو غرفة داخلية، كأنها تسير فى بيتها.. وخطا وراءها قائلا وهو يبتسم :

ـ حرام عليكى.. شوبان يقدر يفهمنا أكتر !!

وكانت الغرفة صغيرة، احتل صندوق البيانو حائطا كاملا منها، ثم لم تتسع الغرفة بعد ذلك لأكثر من مقعدين، ومائدة عليها راديو «وبيك أب» وأمام البيانو مقعد طويل.. و«ريكوردر» على الأرض.. ومجموعة من الاسطوانات، والأشرطة، والمجلات، متناثرة فوق المقعدين، وفوق البيانو، وفوق الراديو، وعلى الأرض.

وفتحت ليلى صندوق البيانو، وجلست أمامه، وفردت النوتة الموسيقية وبدأت تحرك أصابعها فوق مفاتيح الأنغام.. وجلس بجانبها ونظر فى النوتة الموسيقية باهتمام، وقال :

- ياه.. سوناتا فردى لونا.. دى عايزة سنة لوحدها..

وقالت ليلى وهى تبتسم :

- وماله.. احنا ورانا ايه..

وعاد ينظر إلى النوتة الموسيقية باهتمام، ثم ضغط اصابعه بعضها ببعض كأنه يحاول أن يتخلص من عظامها.. ثم نظر إلى صف مفاتيح البيانو، وقد اشتدت نظرات الاهتمام فى عينيه.. ثم بدأ يعزف.. يحرك أصابعه، وكأنه لم يعد فيه إلا أصابع.. وليلى بجانبه تحاول أن تشاركه العزف على الناحية الأخرى من البيانو.

وفجأة خبط بقوة على مفاتيح البيانو بأصابعه العشرة، فصدر عنها صوت كصوت ترام خرج عن الشريط، وقال وهو يستدير لها بوجهه :

- مش ممكن ألعب بيتهوفن وأنتى جنبى.. ده راجل بتاع عواصف وبرق ورعد.. ده فنان عمره ما عرف الحب.

وتوقفت ليلى عن العزف، ونظرت إليه بعينين مبتسمتين :

- من فضلك ما تشتمش فيه.. ده صاحبى !

ونظر إليها كأنه لم يسمع كلامها، ثم مد يديه وأمسك بذراعيها، وقال وهو ينظر إليها بكل عينيه :

- أنا مش مصدق يا ليلى.

ونظرت إليه فى دهشة، وقالت بصوت يرتعش مع رموش عينيها :

- مش مصدق ايه ؟

قال :

- مش مصدق كل حاجة.. مش مصدق أنك بتحبينى، ومش مصدق أنى باحبك !

قالت فى عتاب :

ـ اخص عليك يا فتحى، لسة مش عارف إذا كانت بتحبنى ولا لأ!

قال وهو يطلق ذراعيها من بين كفيه، ويدير عنها عينيه وينظر إلى الأرض :

ـ عارف.. عارف إنى باحبك، إنما مش مصدق.. فيه حاجات كتير بابقى عارفها إنما مش مصدقها.. لما باعمل لحن وينجح. بابقى عارف أنه ناجح، إنما مش مصدق.. يبقى متهيألى إن الناس بتكذب علىّ، وإنى باكدب على نفسى.. وأنا عارف أنى مشهور إنما مش مصدق، ولما بييجى واحد من الصحفيين ياخد منى حديث، وإلا لما باشوف صورتى فى الجرايد باندهش، وابقى مش مصدق، مع إنى عارف أنى مشهور.. وأكتر من كدة، أنا مش مصدق إنى ملحن ولا موسيقار.. وأفضل أبص لصوابعى وهى بتلعب على البيانو، وأسأل نفسى، يا ترى دى صوابعى أنا.. يتهيألى إنها صوابع واحد تانى.. وأقول لنفسى : بأه أنا زى عبدالوهاب ولا زى شوبان.. مش معقول.. مش ممكن.. مع أنى عارف إنى ملحن وإنى موسيقار.. ويوم ما عرفت إنى باحبك برضه ما صدقتش.. بقيت أقف قدام المرايا وأبص لنفسى وأقول : بأه أنت يا عجوز يا اللى عندك تمانية وتلاتين سنة تحب واحدة عندها سبعتاشر سنة.. عارفة الصاروخ الروسى، مش الواحد بيقرأ عنه وبيشوف صورته إنما مش قادر يصدقه، أهو حبى لك زى الصاروخ الروسى.. بأقرأ عنه فى قلبى، وباشوف صورته فى خيالى وفى تصرفاتى.. وبرضه مش مصدق.

ونظرت إليه ليلى فى حنان، وقالت وهى تمد يدها وتضعها فوق يده :

ـ إنما أنا مصدقة.

قال وهو ينظر إليها والشعاع القلق ينطلق من عينيه وينسكب على وجهها :

مصدقه إيه ؟

قالت فى صوت كالنغم :

ـ مصدقه أنك بتحبنى.

قال فى حدة :

- وأنا أصدق ازاى.. وإذا صدقت حبى، حاصدق حبك ازاى !
قالت فى عتاب رقيق :
- بعد ده كله مش مصدق يا فتحى.
قال وهو يقوم من جانبها وينتصب فى وسط الغرفة :
- بصى لى.. بصى لى كويس.. بتحبى فىّ ايه.. بتحبينى على إيه؟!
قالت كأنها تدافع عن نفسها :
- أنا ما حبتكش علشان شفتك.. أنا حبيتك علشان عرفتك.

ونظر إليها من تحت حاجبين معقدين، كأنه يحل فيها مشكلة عويصة.. ثم القى نفسه على مقعد بعيد، وألقى رأسه فوق كفه، والقى نظراته فوق حذائه، كأنه يعترف بحيرته معها ومع نفسه.

وقامت ووقفت أمامه، وهى لا تزال تنظر إليه بعينين ينطلق منهما الحنان، وقالت بصوت خافت :
- فتحى.

ورفع رأسه إليها وفى عينيه نظرات حائرة غائمة.. ثم بدأت نظراته تستريح فوق وجهها.. كأن الطفل الذى يعربد فى عينيه قد استراح على صدر أمه.. ثم مد يده وجذبها إليه فى رفق.. وأجلسها فوق ركبتيه.. وابتسمت ابتسامة كبيرة انسابت من بين شفتيه، كأنه شعاع من الشمس انساب من بين الضباب.

وابتسمت لابتسامته، وألقت صدرها على صدره، وهى جالسة على ركبتيه.. ومدت يدها واحتضنت أصابعه بأصابعها.. ودفنت رأسها فى طيات عنقه كأنها تختبىء من الشمس.

وامتدت أصابعه تعبث بضفيرتها.. بالشعاع الذى ينسدل فوق ظهرها.. ثم جذب الضفيرة جذبة خفيفة، فارتفع وجهها إليه. وعيناها مغمضتان.. وأغمض عينيه هو الآخر.. وبحثا عن الشفاه فى الظلام، على ضوء قلبيهما.

وطالت القبلة.

وأبعدت رأسها عنه وأنفاسها مبهورة.. وبريق عينيها لا يزال يعانق بريق عينيه.. ثم قامت من فوق ركبتيه، وقالت فى مرح :

- نسينا بيتهوفن.

واستدارت له متجهة إلى البيانو.. ورفع ذراعه وبدأ يمسح آثار قبلتها من فوق شفتيه بظهر يده.. والتفتت إليه فجأة لتقول شيئا، ورأت يده وهو لا يزال يمسح بها آثار القبلة.. فلم تقل شيئا.. لم تتكلم.. أعادت رأسها إلى الأمام بسرعة، وتطوحت ضفيرتها فى الهواء تعلن الاحتجاج.. ثم اسقطت عينيها فوق أصابع البيانو، وقد احتقن وجهها، وبدأت تعزف بعنف وقسوة، كأنها لا تستطيع أن تضربه، فبدأت تضرب بيتهوفن.

وقام من على مقعده ولحق بها.. وجلس بجانبها، وبدأ ينظر فى النوتة الموسيقية ويعزف على الجانب الآخر من البيانو.

وأخذا يعزفان مدة، دون أن يتكلما، ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، والأنغام ترتبك تحت أصابعهما.. ثم قال كأنه يحادث نفسه وهو لا يزال ينظر فى النوتة الموسيقية :

- بيتهوفن أطرش، ما كانش يقدر يسمع الأنين والشكوى، وحيرة القلب.. كان بيسمع بعينيه.. وكانت عينيه ما بتشوفش إلا الطبيعة.. والبرق والرعد والشجر.. ماكانش يقدر يشوف النفس الإنسانية.

وقالت ترد عليه كأنها تلقى بقية لحن فى أوبرا ضخمة تعلمتها فى المدرسة :

- بيتهوفن عميق.. زى الغطاسين، لازم الواحد يغطس معاه علشان يشوف العالم اللى بيشوفه.. عالم بعيد، تحت البحر.. وبيتهوفن كان فناناً فاضلاً، كان بيعبر عن أخلاق عالية.

وخبط فتحى على البيانو بأصابعه العشرة، ثم توقف عن العزف، وقال وقد ارتفع صوته واشتد بريق القلق فى عينيه :

- فاضل !! يعنى ايه فاضل !! الموسيقار الفاضل ده يبقى شكله ايه.. تعرفى الفضيلة معناها ايه.. معناها الاستقرار.. استقرار القلب والروح.. معناها أن الواحد يبقى عارف سكنه فين.. يبقى شايف الطريق اللى ماشى فيه.. الفضيلة مش معناها إن الإنسان يبقى طيب وصادق، إنما معناها إن الإنسان يستقر.. يهدأ.. ومافيش فنان مستقر.. مافيش فنان عارف هو

رايح فـين ولا جاى منين.. ولا عـارف يحب ايه ويكره ايه.. ولا عـارف ايه الصح وايه الغلط.. ولا عارف يواجـه الدنيا ازاى.. المستقر ده يبـقى مقاول بياض، ولا كـاتب حسابات.. وأنا نفـسـى استـقر.. نفسى أبقى مـقاول ولا موظف فى بنك.. علشان استريح وأهدأ.

وسكت، ونظر إلى السقف بعينيه الواسعتـين وهو يتنهد، كأنه يستغيث بالله.

ومرت بأصبعها مرورا سريعا على مـفاتيح البيانو، فصدر صوت كأنه صوت مجموعة من الصحـون الصينى تقع على الأرض، ثم التفتت إليه بكل رأسها وجسمها، وقالت فى هدوء :

– تعرف أنا نفسى فى ايه ؟

ورفع حاجبيه متسائلا.

واستطردت من خلال ابتسامة ضعيفة مسكينة :

– نفسى أبوسك مرة، ولا تمسحش بوستى !

وبهت. ازدادت عـيناه اتساعـا.. وانطلقت الدمـاء تحت وجنتيـه، فبـدت بشرته فى لون النحاس المصهور.. وقال فى تلعثم :

– إنتى عارفة إنى.

وقاطعته فى حدة كأنها على وشك البكاء :

– أنا مش عارفة.. ومش عايزة أعـرف.. كل اللى عايزاه أنك ما تمسـحش شـفايفك قـدامى.. أنت مش قـادر تقدر حـالتى بتـبقى ازاى وأنا باشـوفك بتـمســح الروج.. ومش قادر تقـدر أن كل أملى فى الدنيـا هو إنى أشـوف بوستى على خدك.. وماشى بيهـا قدام الناس.. وكل مرة وأنا جاية لك أقرر إنى ماحطش روج على شفايفى علشان ماترجعش تمسحه.. إنما ما قدرش.. وأقـول لنفـسـى، يمكـن الدور ده يصـهـين.. يمكن ينسـى.. أمـلى هو اللى بيخلينى أحط الروج.. أنا مابحطش روج وأنا رايحـة أى حتة، إلا وأنا جاية عندك.

ونظر إلى الأرض وقال وهو يعصر إحدى كفيه بالأخرى :

– أنا عارف السبب.. السبب إنى متجوز، ولو ماكنتش متجوز ما كنتيش

تعمدتى أنك تحطى روج على شفايفك، وما كانش همك إنى أمسحه.
وقالت تقاطعه وقد بدأت سحابة من الدموع تغطى عينيها :
- ماتجبش السيرة دى.. أنا عارفة أنك متجوز، وراضية بيك وأنت متجوز..
وقال دون أن ينظر إليها، وكأنه لم يسمعها :
- ولو ما كنتش متجوز ماكنتش مسحت الروج.. الروج بتاعك على أعصابى.. كل أعصابى ملغمطة روج.. إنما مااقدرش أسيبه على وشى.. مش لأنى خايف من مراتى، ولكنى لأنى خايف على احساسها.
قالت وهى تنظر إليه بكل عينيها :
- واحساسى أنا ؟
قال :
- هى مالهاش ذنب.. الذنب كله علينا احنا، ولازم احنا اللى نستحمل.
قالت وهى تدير رأسها ناحية البيانو، وشفتاها ترتعشان :
- أنا عارفة إنى مجرمة.
والتفت إليها ووضع يده على يدها وقال فى حنان :
- انتى مش مجرمة، ولا أنا مجرم.. أنا يوم ما اتجوزت ماكنتش عارف أنى حاقابلك، وانتى يوم ما شفتينى ما كنتيش عارفة إنك حاتحبينى.. احنا الاتنين ضحية.. ضحية الظروف.. وضحية عواطفنا.. ضحية ضعفنا.
ولم ترد.. ظلت صامتة، ودمعة لم تطق صمتها، فسقطت من عينيها.
وضغط على يدها، وعيناه تفيضان باللوعة، وقال كأنه يستنجد بها :
- مش انتى لوحدك بتتعذبى يا ليلى.. أنا باتعذب أكثر منك.
والتفتت إليه فى عصبية، وقالت فى حدة :
- تسمح تقول لى بتتعذب ازاى.. ايه اللى معذبك.
وابتسم ابتسامة ساخرة، وقال كأنه يحادث نفسه :
- اللى معذبنى إنى عايش فى بيت ما أقدرش أرفع فيه رأسى، وعايش مع واحدة ما أقدرش أفتح عينى فى وشها.. واللى معذبنى إنى عارف أنك حاتسيبينى.. بعد شهر.. بعد سنة.. إنما حاييجى يوم ما تقدريش

تستحملينى فيه.. حاييجى يوم لازم تتجوزى فيه.. وينفتح قدامك مستقبل جديد.. وأنا.. أنا مش حايفضل لى إلا الماضى.. ماضى أندم عليه وأتعذب بيه.. أنا مستنى اليوم ده فى كل لحظة، وفى كل ساعة.. لما بتضربى تليفون وتقفلى السكة بابقى خايف ماتضربيش تانى.. لما بتيجى تشوفينى وتسيبينى، بابقى خايف إنك ماتجيش تانى، وأبقى حاسس إنى مش حاشوفك بعد كدة.. خوف.. خوف.. دايما خايف.. خايف منك وخايف عليك.. وخايف من مراتى وخايف عليها.. وخايف من نفسى، وخايف على نفسى.. أنا عايش فى خوف، ومتعذب بالخوف.

وانطفأت عيناه تحت جفونه كأنهما ذابتا فى عذابه، وألقى رأسه بين كفيه كأنه لم يعد يستطيع أن يحملها فوق عنقه.

ونظرت إليه وسحب الدمع تتجمع فى عينيها.. ثم ابتسمت ابتسامة حزينة.. ابتسامة أم تواسى طفلها المريض.. ثم قامت من جانبه، ووقفت قباله ومدت يدها تمسح بها على رأسه، ويدها الأخرى فوق خده، تحاول أن ترفع بها وجهه إليها.. وقالت فى صوت يقطر حنانا.

- فتحى.. بص لى.

ورفع إليها عينيه بكل ما فيهما من عذاب وخوف.

وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بابتسامتها :

- أنا مش حاتجوز.. عمرى ما حاتجوز.. حافضل طول عمرى لك.. فيه حاجة واحدة مش عايزاك تخاف منها ولا تخاف عليها.. حبى.

وبرقت عيناه بريقا طرد عنهما الخوف والعذاب، ومد ذراعيه واحتضن خصرها المنتصب أمامه، أسند رأسه المتعب فوق صدرها.. وعاد يغمض عينيه.

وضمت رأسه إلى صدرها، كأنها تسمعه دقات قلبها، ليزداد اقتناعا.. ثم أبعدت رأسه عنها برفق.. ومرت كفها تمسح آثار الدمعة التى سقطت على خدها، ثم قالت وهى تحاول أن تنفض اللوعة عن صوتها :

- تحب ألعب لك «أول لقاء».

ونظر إليها كأنه يشكرها لأنها تخلت عن بيتهوفن..

وجلست إلى البيانو، وقفزت أصابعها كالعصافير الصغيرة البيضاء، فوق مفاتيح الانغام.. وكأن لحنا يبدأ بطيئا ملولا.. كأنه تنهدات إنسان يعيش فى فراغ.. ثم ينشط كأنه بدأ ينتشى بالأمل.. ثم يمرح كأنه وجد الحياة.. وجد الدنيا.. وجد الحب.

واستدار ناحية البيانو، وأخذ يشاركها فى العزف، وقال وكتفه يلتصق بكتفها، وقد استرد كل ابتسامته :

- فاكرة..

قالت وهى تبتسم:

- فاكرة.. زى ما يكون النهاردة..

قال :

- أنا يوم ما عملت اللحن ده، اتهيألى إنى ماعملتش حاجة قبله، ولا حاعمل حاجة بعده.. كنت بالحن كأنى بأكلمك.. كأنى باحكيلك على كل حاجة.. و...

وسمع صوت باب البيت يفتح.. وبحركة عنيفة، ابتعدت عنه.. وابتعد عنها.. ثم مدت يدها تساوى شعرها دون أن تدرى ماذا تساوى منه.. واستمرت فى العزف، واستمر يعزف معها.. وقد ازداد ابتعادا عنها، حتى أصبح يجلس على المقعد الطويل بساق واحدة.

ودخلت سيدة على شفتيها ابتسامة حلوة هادئة..

فى الثلاثين من عمرها.. سمراء.. تشد شعرها الأسود فوق رأسها، وتعقصه إلى الخلف كأنها تحمل تاجا توجها به الليل من فرط احترامه لها.. تميل قليلا إلى القصر.. نحيفة.. كأنها تعانى هزالا تقاومه.. ووجهها مريح.. ليس جميلا.. ولكنه مريح، تحب أن تنظر إليه، ولا تشبع من النظر إليه.. وتشع حولها شخصية قوية.. وذكاء طيب.. وحب هادىء.

وتوقفت ليلى عن العزف بمجرد دخولها، ثم قامت واقفة، وهى تحاول أن تستر ارتباكها بابتسامتها.. وقالت وصوتها يهتز فوق شفتيها :

- ازيك يا طنط.

ومدت عواطف يدها إليها، وقالت وقد اتسعت ابتسامتها الحلوة بين شفتيها العريضتين :

- ازيك يا حبيبتى.. وازى ماما.. انتم لسة بتتمرنوا.

وقال فتحى، وهو يضع يده فى جيب بنطلونه وينظر إلى بوز حذائه، ويغتصب من بين شفتيه ابتسامة :

- بطلنا تمرين خلاص.. حضرتها جاية وجايبة معاها بيتهوفن.

ونقلت عواطف عينيها بين زوجها وليلى، دون أن تفتر ابتسامتها، ثم قالت كأنها تخاطب طفلين :

- طيب خليكو قاعدين مع بيتهوفن، لغاية ما أعمل الشاى.

وقالت ليلى بسرعة :

- بلاش يا طنط.. أنا لازم أروح دلوقت.

وقالت الزوجة، بلا إلحاح :

- مش تخليكى لما تشربى معانا الشاى.

وقالت ليلى، وهى تنظر فى الساعة الصغيرة المعلقة فى معصمها :

- ياه.. دى الساعة بقت ستة ونص.. ما أقدرش والنبى يا طنط.

وابتسمت الزوجة فى طيبة، وقالت :

- طيب يا حبيبتى.. سلمى على ماما.. وقولى لها إنى حافوت عليها قريب.

وقالت ليلى وهو تمد يدها إلى فتحى دون أن تنظر إلى وجهه :

- بونسوار يا أستاذ.. أنا حاقول للبروفسير تيجرمان أنك مابتحبش بيتهوفن، علشان يعرف شغله معاك.

وقال فتحى وهو ينظر إليها كأنه يهنئها على قوة أعصابها :

- مع السلامة.

ثم بحث فوق صندوق البيانو عن علبة سجائره، وأخرج سيجارة وبدأ يشعلها كأنه لا يريد أن يرى ليلى وهى تبتعد عنه.

ولفت الزوجة ذراعها حول خصر ليلى وسارت معها حتى الباب، وهى تقول لها :

- انتى احلويتى قوى يا ليلى.. يالا اتشطرى وهاتى لنا عريس كويس.

وقالت ليلى وهى تفتعل ضحكة صغيرة :

- مش لما آخد الدبلوم الأول.

وقالت الزوجة فى مرح :

- ماتبقيش عبيطة.. تعملى بالدبلوم ايه..

●●●

وخرجت ليلى.

ونزلت السلم، وقامتها مفرودة، وأنفاسها كلها محتبسة فى صدرها.. ثم سارت فى الحديقة الصغيرة وهى تبذل مجهودا كبيرا حتى توازن خطواتها.. كانت تشعر بأن عينى عواطف لا تزالان تتبعانها، وتثقبان ظهرها.. وكانت تريد أن تبدو طبيعية فى خطواتها.. وقد أدى المجهود العصبى - الذى تبذله لتبدو طبيعية - إلى تصلب قامتها، واحتباس أنفاسها واحتقان وجهها، وارتباك خطواتها.. ثم ما كادت تخرج إلى الشارع وتبتعد عن البيت بضع خطوات، حتى اطلقت أنفاسها كلها وأراحت قامتها، واستندت بيدها على جذع شجرة، كأنها تستريح بعد أن اجتازت منطقة الخطر.. ثم عادت تسير وفى رأسها دوى.. قطع موسيقية عنيفة تملأ رأسها وتملأ أذنيها، دون أن تستطيع أن تميزها.. ومنذ كانت صغيرة وكل احاسيسها تتجاوب فى نفسها أنغاما موسيقية.. فرحتها موسيقى حزنها موسيقى.. واحساسها بالصداع أو المرض له موسيقى.. أحيانا موسيقى بشعة مؤلمة تطن فوق عظامها وتكاد تنخرها.

وهى لا تدرى متى بدأت هوايتها للموسيقى.. فقد تفتح وعيها وهى جالسة أمام البيانو، وأفراد عائلتها ملتفون حولها ينظرون إليها باعجاب وحب، ويعرضونها لضيوفهم كأنها معجزة.. وكانت مدللة.. وكانت الوحيدة بين أخوتها التى لم ينهرها أبوها أبدا.. ولا خافت منه أبدا.. كان كل أخوتها يخافون منه ويتهربون من مجلسه، ما عداها هى.. كانت لا تخافه، ولا ترهبه.. كانت تجلس على ركبتيه وتشد شاربه وتخلع طربوشه من على رأسه وتلقيه على الأرض.. فيضحك.. وينهال عليها تقبيلا.. وهى وحدها التى كان يقبلها.. لم تره أبدا يقبل أحدا من أخواتها البنات أو الصبيان.. وكانت أحيانا تتساءل لماذا لا يقبلهم كما يقبلها؟ ولماذا لا يضحك لهم كما

يضحك لها؟ وكانت تدهش لماذا لا يمسك أخوها أحمد بطربوش أبيه ويلقيه على الأرض كما تفعل هى.. ولم يستطع عقلها الصغير أن يفسر كل هذا.. لم يستطع أن يتبين أنها صغرى أخوتها، وإن أباها رزق بها على كبر، فضعف أمامها وانقاد لحنانه وعواطفه.. وأعطاها كل ما حرمه على نفسه وحرمه على عائلته من مظاهر التدليل والحب.. لم تستطع أن تفسر كل ذلك، ولكن ثبت فى عقلها الصغير أن أبها هو أبوها وحدها هو ملك خاص لها دون أخوتها..

وحتى بعد أن شبت وأصبحت فى التاسعة من عمرها.. ظل هذا الاحساس مختبئا فى أعماق نفسها.. إحساسها بأن أباها هو أبوها وحدها دون أخوتها.. وقد أحبته.. لم تحب شيئا آخر، سوى الموسيقى.. لم يكن لها لعب ولا صديقات.. فقط أبوها والموسيقى.. وقد وصل حبها لأبيها إلى حد أن كانت تغار عليه.. وكانت تبكى إذا سمعت أحدا من أخواتها يشكو منه، أو يثور على قسوته.. وظل أبوها يدللها،إلى حد الانهيار أمامها.. ثم كانت هوايتها للموسيقى دافعا آخر لتدليلها.. فهى لا تلعب كما تلعب البنات حتى تخطىء وتستحق العقاب.. كل لعبها على أصابع البيانو.. وهو ليست مطالبة باستذكار دروسها، لأنها دائما تذاكر دروس الموسيقى.

لقد كانت عروس البيت.. كانت ملكة البيت.

ثم مات والدها وهى فى التاسعة من عمرها.

وأحست أنها فقدت عرشها.

أحست أن أحدا فى البيت لم يفقد أباه، إلا هى.

وقد شعر كل من فى البيت بأثر الصدمة عليها، فحاول كل منهم أن يعوضها عن أبيها بحنانه وتدليله.. نالت مزيدا من الدلال.. ومزيدا من الحنان.. ومزيدا من الحب.. ولكن بقى فى نفسها جانب حزين، لم يستطع أحد أن ينزعه منها.. وكانت تحمل حزنها وتجس أمام البيانو.. وتعزف ساعات طوالا.. وحدها.. إنها لا تريد شيئا إلا أن تبقى وحدها أمام البيانو.. ظلت بلا صديقات، وبلا شىء تهتم به.. فقط، البيانو.. وكانت تحب

أمها وتحب أخوتها، وكانت تحس بحبهم لها.. ولكنها فى قرارة نفسها كانت بعيدة عنهم.. كانت لها دنيا خاصة تقيمها من الألحان فوق أصابع البيانو.

ومع الأيام، بدأت ذكرى أبيها تبتعد، ويحل محلها مزيد من الاقبال على البيانو ومزيد من الاحساس بالموسيقى.. ثم تجسدت هوايتها للموسيقى فى أشخاص الموسيقيين.. أصبح فرسان خيالها، هم شوبان وبيتهوفن، وموزارت، وتوسكانينى.. كانت تعلق صورهم فى ضلفة دولابها، كما تعلق البنات صور نجوم السينما.. وكانت تقرأ قصص حبهم.. وتتمنى أن تعيش فى عصر كل منهم، وأن تحبه ويحبها.. ويتزوجها.

وعندما التحقت بمعهد الاستاذ «تيجرمان» للموسيقى.. أصبح الاستاذ نفسه بطلا من أبطال خيالها.. ثم أخذ خيالها يستبد بها حتى أصبح نوعا من الحب.. نوعا غريبا من الحب.. إن الاستاذ رجل عجوز، مصاب بالربو، عصبى المزاج.. وهى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها.. ورغم ذلك خيل إليها أنها تحبه.. كانت تحبه فعلا.. هذا النوع الغريب من الحب.. وكانت تتمنى فى قرارة نفسها أن تصاب بالربو مثله.. وبدأت تقلده فى عصبيته.. وفى جلسته أمام البيانو، وفى طريقته التى يقرأ بها النوتة الموسيقية.. وبدأت تغار عليه من باقى التليمذات، وتثور إذا سمعت واحدة منهن تنتقده.. وكان الأستاذ بدوره يحبها، ويدللها.. كما كان يفعل أبوها.. كان يحبها لأنها أبرع تلميذاته وأكثرهن احساسا بالموسيقى.. كان يفخر ويباهى بها، ويقدمها فى كل الحفلات الموسيقية.

وكانت تعرف فتحى.. تعرفه من بعيد.. كان يسكن فى نفس الشارع، كانت زوجته تأتى لزيارتهم فى فترات متباعدة.. وكان هو يأتى لزيارتهم فى فترات أكثر تباعدا.. فى المناسبات.. وكانت تعرف أنه موسيقى.. وأنه ملحن.. ولكنه كان بالنسبة لها يعيش فى عالم آخر.. إنها تعشق الموسيقى الغربية، وهو يلحن الموسيقى العربية.. وبينها وبين نفسها كانت تستخف به، كما تستخف بالموسيقى العربية كلها.. إنها موسيقى تهز الخصر، وهى لا تعترف إلا بالموسيقى التى تهز الروح.

وبلغت السابعة عشرة.

وجاء فتحى ليزورهم يوما مع زوجته فى مناسبة العيد.. إن كل العائلات القديمة التى تسكن الحى تأتى لزيارتهم فى العيد.. وقد كان فتحى من العائلات الكبيرة.. كان أبوه من كبار الموظفين، وكان صديقا لوالدها.. ومات قبل والدها.. فظل فتحى رغم شذوذه المعروف عنه فى الحى كله، يتبع سنة أبيه فى تبادل التهنئة بالعيد.

وجلس فتحى وزوجته فى البهو الخارجى مع أمها وأخوتها، بينما كانت جالسة أمام البيانو فى غرفة الصالون تعزف مقطوعة لشوبان.

وفجأة سمعت صوتا من خلفها :

ـ غلط.

والتفتت فى دهشة، فرأته واقفا عند الباب يحرك أصابعه فى الهواء، كأنه يعزف على بيانو منتصب فى خياله، ويردد النوتة الموسيقية للحن شوبان :

ـ دو.. دو.. سى بيمول.

واتسعت عيناها لتحمل مزيدا من الدهشة، وقالت :

ـ إنت حافظ شوبان ؟!

ولم يرد عليها وفرد أصابعه فوق مفاتيح الأنغام، وبدأ يعزف فى خفة ورقة، كأن أصابعه لا تلمس المفاتيح، إنما تمر فوقها فتحركها بقوة السحر.

ونظرت إلى أصابعه السمراء.. وأطالت النظر إليها.. وأحست فى هذه اللحظة أنها قضت عمرها تبحث عن هذه الأصابع.. إنها لا ترى فى الناس إلا أصابعهم.. لا ترى فى أستاذها إلا أصابعه وهى تتحرك فوق البيانو.. ولا ترى فى زميلاتها فى معهد الموسيقى سوى أصابعهن.. ولا ترى من أمها وأخواتها إلا الأصابع، بل لا ترى فى نفسها إلا أصابعها، فتقضى ساعات طويلة تنظر إليها، وتعجب بها، وتحركها أمام عينيها.. إن الناس فى عالمها، أصابع.. مجرد أصابع.. أصابع جاهلة، وأصابع مثقفة.. وأصابع قاسية، وأصابع جنونه.. وأصابع مهذبة كريمة، وأصابع سافلة

بشعة.. إنها تحكم على أخلاق الناس من أصابعهم وتحبهم وتكرههم بأصابعهم.. وهذه الأصابع التى تقفز أمام عينيها الآن.. أصابع فتحى.. إن فيها شيئا آخر لم تعرفه من قبل.

وأحست بأن يدها تهم بأن ترتفع لتلمس يده.. لتحضن أصابعه بأصابعها.. لتتحسس نوع القماش الذى صنعت منه هذه الأصابع السمراء الطويلة الرفيعة.. وسمعته يقول وهو لا يزال مستمرا فى العزف :

ـ شوبأن كان دايما منفعل بالحب.. حبه لبلده وحبه لحبيبته.. ولما تلعبى ألحانه لازم تنفعلى معاه.. لازم تحسى بحبه، وحيرته، ومرضه.. مش كفاية أنك تبصى فى النوتة.. المزيكة مش كلام ولا أرقام.. المزيكة احساس لازم تحسى بيه.

وقالت كأنها مبهوتة :

ـ ماكنتش فاكرة أنك درست المزيكة الكلاسيك.

وتوقف عن العزف، ونظر إليها وبين شفتيه ابتسامة صغيرة، كأنه يقدم نفسه لها، وقال :

ـ مافيش ملحن يقدر يلحن مودرن، إلا إذا درس الكلاسيك.. المودرن مش معناه حاجة جديدة، إنما امتداد للقديم.. وتركها وعاد إلى البهو.

وبدأت تعرف شوبان من جديد.. كما لم تعرفه من قبل.. انفتح أمامها بحر زاخر بالعواطف والأحاسيس.. بحر من الأنغام.

ومن يومها بدأت تراجع دروسها معه.. كانت تذهب إليه غالبا، وكان يأتى إليها أحيانا.. ولم يعترض أحد على صداقتهما ولا أثارت هذه الصداقة شكوك أحد.. إنها صداقة فن.. أنه استاذ يساعد تلميذه.

ولكن جلساتهما الطويلة لم تعد تقتصر على مراجعة دروس المعهد.. لقد أخذ الاثنان يطوفان بعالم واسع من الالحان.. ألحان لا تنتهى، وأحاسيس لا تنتهى. ثم بدأت تهتم بألحانه.. بالألحان التى يصنعها هو.. وأصبحت تجيد عزفها.. لم تعد ترى فى الموسيقى العربية مجرد موسيقى تهز الوسط.. إنها معنى.. إنها شخصية.. إنها احساس بالشعب.. إنها صورة متطورة.. صورة الشرق.

وبدأت تجلس معه وهو يلحن.. ترقبه فى صمت وهو يعصر نفسه ويلف فى الحجرة كالمجنون باحثا عن كلمة موسيقية... وتشجعه عندما ييأس.. وتعزف له اللحن الناقص عشرات المرات حتى يجد بقيته.. وتنفض له منفضة السجائر كلما امتلأت.. وتساعد زوجته فى اعداد الشاى له.. إنه لا يكف عن شرب الشاى وهو يعمل.

وبدأت صور الموسيقيين العالميين الذين ازدحموا فى خيالها منذ صغرها، تضيع وتترك مكانها لفتحى.. وأصبح فتحى هو كل خيالها.. والموسيقيون العالميون أمواتا.. وأستاذها فى المعهد رجل عجوز فوق الستين.. ولكن فتحى رجل.. شاب.. إنه ليس مجرد لحن موسيقى.. إنه لحم ودم.. وأصابعه حلوة رقيقة قوية.. وهى لا تزال تقاوم حتى لا تحتضن هذه الأصابع بأصابعها وترفعها إلى شفتيها وتقبلها.. قاومت كثيرا.. وقاوم معها.. قاوم أكثر منها.. كانت الأيام تدفعها أحدهما إلى الآخر.. وكان كل منهما يستطيع أن يقرأ ما فى عينى الآخر، وما فى قلبه.. ولكنهما قاوما.

وكان جالسا بجانبها على مقعد البيانو فى بيته وكتفها ملتصق بكتفه.. وكفا عن العزف ليستريحا، ونظر إليها بعينيه الواسعتين وفى كل منهما ابتسامة، وقال :

- تعرفى.. من يوم ما ابتدينا نشتغل مع بعض، اشتغلت قد اللى اشتغلته طول عمرى.. أنا كان معروف عنى الكسل.. كان المطربون والاذاعة وأصحاب الأفلام، يهربون مِنى لكسلى.. النهاردة بقيت حاجة تانية.. مين كان يصدق إنى أقدر أعمل لحنين فى ثلاثة أشهر.

واتسعت ابتسامة عينيه، وأمسك بيدها، واستطرد قائلا :

- إنتى اللى عملتى اللحنين دول.. مش أنا.

وبلا تعمد وجدت نفسها تضغط على يده، وتضم أصابعه بين أصابعها.. ثم ترفع هذه الاصابع إلى شفتيها، وتقبلها.. قبلة طويلة كأنها تمتص الحب من أصابعه.. ثم فتحت راحة يده ووضعت خدها فيها.

وظل ينظر إليها.. إلى شعرها الأصفر المنسكب بين يديه.. وإلى

ضفيرة الذهب الراقدة فوق ظهرها.. وتهدجت أنفاسه.. وتصاعدت الدماء إلى وجهه كأنها تتزاحم لتتجمع فى شفتيه.. وفجأة.. سحب يده من بين يديها.. وقام واقفا، وابتعد عنها، وقال فى صوت مبحوح وهو يدير ظهره لها :

- يا ليلى.. انتى مش عارفة انتى بتعملى ايه.. انتى بتلعبى بالنار.. انتى بتعذبى نفسك.. وبتعذبينى معاك.

وقامت وراءه.. ووقفت قبالته.. ورفعت إليه عينيها الملونتين، وقالت فى صوت خافت، وهى تبحث بيدها عن يده، كأنها طفلة تبحث عن لعبتها :

- قصدك ايه.. مش فاهمة.. مش فاهمة يا فتحى..

وركز عينيه فوق وجهها.. وأغرق عينيه فى عينيها البريئتين.. وظل صامتا كأنه يبحث فيها عن مكان يهرب منه.. ثم لم يعد يطيق.. لم يعد يحتمل.. غلبه ضعفه.. ومد ذراعيه، واحتضنها إلى صدره فى عنف.. وعيناه حزينتان.. كأنه استسلم للعذاب.

لم يعد يقاوم.

ولم تعد تقاوم.

ووضع فتحى ليلتها لحن «أول لقاء»!

ومرت الشهور الأولى وقلبها يرفرف بالحب.. الدنيا كلها حب.. حب فى عينيها وفى شفتيها. وفى أصابعها.. فى موسيقاها، وفى ضحكتها. وفى مشيتها.. أين العذاب؟ أين النار؟ إنها تعرف أن فتحى متزوج.. ولكن هذه الحقيقة لم تكن متجسدة أمامها.. لم تكن تعيها.. كانت ترى الزوجة كأنها قطعة من أثاث البيت الذى تلتقى فيه بفتحى.. كهذا المقعد.. كهذه المائدة.. تراها كأنها شىء ليس له شأن بها ولا بفتحى.. ولا يمكن أن يقف بينهما.. وكانت الفترات القليلة الخاطفة التى تختلى فيها بفتحى تكفيها.. تكفيها لمسة يده.. وتكفيها قبلته التى تمر على شفتيها كنفحة من العطر.. والباقى تشغله الموسيقى.. بل أن لمسة يده وقبلته لم تكن سوى تكملة للموسيقى التى تملأ قلبها وقلبه.

ولكن الموسيقى بدأت تجف وتحتاج إلى مزيد من القبلات واللمسات..

وبدأت تضيق بوجود الزوجة معهما فى غرفة واحدة.. الغرفة الصغيرة.. إنها غرفتها هى وفتحى وليس من حق أحد أن يدخلها، حتى زوجته.. وبدأت تلاحظ عينى فتحى وهو يتلفت حوله قبل أن يقبلها، ليطمئن إلى أن الزوجة لا تراهما.. وبدأت ترتاح عندما تذهب إليه وتجد زوجته قد خرجت من البيت، ثم ذهبت إليه مرة وشفتاها مصبوغتان بأحمر الشفاه.. ولا تدرى لماذا صبغتهما يومها؟ ربما لأنها أرادت أن تبدو كبيرة فى السن.. قريبة من عمره.. أرادت أن تبدو كسيدة.. كزوجته.. إنها لا تدرى لماذا صبغت شفتيها؟ ولكنها أحست يومها بتلهفها على تقبيله.. كأن أحمر الشفاة قد أشعل شفتيها.. كأن شفاه البنات لا تصبغ إلا استعدادا لتلقى القبلات.. وقد قبلها يومها.. قبلها كثيرا.. وزوجته ليست فى البيت..ثم فوجئت، عندما ضبطته يحاول أن يمسح أثر قبلاتها من فوق شفتيه.. وينظر فى قميصه باحثا عن آثار أحمر الشفاه، ويرتاع عندما يجد البقعة الحمراء التى تركتها شفتاها.

وكانت تريده أن يحتفظ بهذه البقعة فوق قميصه إلى الأبد.. أو أن يقصها ويحفظها بين طيات نوتة موسيقية، كما كانت تفعل هى عندما تحتفظ بوردة حمراء أهداها لها استاذها، بين ضفتى كتاب.. ولكنه لم يفعل شيئا من هذا.. لقد ظهر على وجهه الضيق والغيظ، وهرع إلى الحمام، وخلع قميصه وأخذ يغسل البقعة الحمراء من عليه.. يغسل من عليه قبلتها.. كأن قبلتها شىء ليس نظيفا، تتسخ به قمصان الرجال.

وسكتت يومها.. لم تستطع إلا السكوت.. ولكنها لم تعد تستطيع أن تتجاهل الزوجة.. لم تعد تستطيع أن تتناسى أن فتحى متزوج.. ورغم ذلك فهى لا تستطيع أن تكره زوجته.. ولا تستطيع أن تحبها.. لا تستطيع أن تغار منها.. ولا تستطيع أن تسلم بوجودها.. إنما أصبحت تهابها.. تنظر إليها كما ينظر اللص إلى رجل البوليس.. كما ينظر التلميذ المقصر إلى أستاذه.. وبدأت تحس أن حبها جرم.. أن فى زوايا قلبها احساسا لا يكف عن لومها، واتهامها.. إن حبها ليس بريئا طاهرا رقيقا، كما أرادته، وكما تصورته.. أنه حب يحمل جريمة.. رغم ذلك فهى لا تستطيع أن تكيف هذه

الجريمة.. أو تعترف بها.. لا تستطيع أن تعى لماذا لا يكون من حقها أن تحب فتحى؟ وأن تلهمه الحانه.. وأن تعطيه أكثر وأكثر مما يمكن أن تعطيه له أية امرأة أخرى.

وكانت تتمنى أحيانا أن تثور على هذه الزوجة.. هذه التى تضع فى حبها معنى الجريمة.. ولكن كيف تثور عليها؟ إنها زوجة تنطفىء من حولها الثورات دائماً عاقلة.. دائما صابرة.. لا.. إنها لا تستطيع أن تثور عليها.. كل ما استطاعته أن حرصت على أن تصبغ شفتيها كلما ذهبت إلى فتحى.. لا تحديا للزوجة.. ولكن أملا فى أن ينسى مرة، ولا يمسح قبلاتها، فيرد لها خيالها النظيف.. خيالها فى أنه لها، وأنهما ليسا مجرمين يسرقان القبلات، ثم يضطران إلى اخفائها.

وهكذا سارت فى طريق حبها.

سارت بلا هدف.. لا تدرى إلى أين.. ولا تدرى المصير.

هل تريده أن يطلق زوجته؟

لا.. قطعا لا.. لا تدرى لماذا؟ ربما لأنها أحبته هكذا.. أحبته متزوجا!

هل تريد أن تتزوجه ؟

لا أيضا.. إنها لا تتصور نفسها زوجة له..

كل ما تريده هو أن تحبه.. وأن يخلصها من هذا الاحساس بالجريمة الذى يشوب حبها.

●●●

وسارت ليلى فى خطوات بطيئة ضعيفة، وذكرياتها تختلط باحاسيسها فى موسيقى عنيفة صاخبة لا تستطيع أن تفسر ألحانها.

ودخلت البيت.. ومرت بالبهو.. وسمعت صوت خالها مختلطا بصوت أمها، منبعثا من حجرة الصالون.. وقبل أن تعبر البهو، سمعت أمها تناديها:

- ليلى.. تعالى سلمى.

ودخلت إلى الصالون وبين شفتيها ابتسامة متعبة.. وسلمت على خالها.. ثم اصطدمت عيناها بعين عبدالسلام، فاتجهت إليه وصافحته فى

فتور، ثم اتجهت إلى أمها وقبلتها فى خدها.. وابتعدت عنها قليلا.. ورمقتها رمقة سريعة.. إنها فى كامل زينتها.. وقد تحلت بأغلى مجوهراتها.. وعقد اللؤلؤ.. واهتمت أكثر من عادتها بوضع الطلاء فوق وجهها.

وابتسمت ليلى كأنها تهنىء أمها على جمالها.. ثم سمعت عبدالسلام يقول لها، فى لهجة أبوية مفتعلة تقطر حنانا ثقيلا كأنه يقوم بدور ليس أهلا له :

- عاملة ايه فى دروس البيانو يا ليلى؟

وقالت بلا حماس :

- كويسة يا عمى.

قال وهو يبتسم ابتسامة تملأ شفتيه الغليظتين، وتكاد تسقط فوق صدره :

- شدى حيلك.. أنا باسعى لك أنك تروحى بعثة لألمانيا.

وقالت دون أن تفرح :

- مرسيه يا عمى!

وقال خالها :

- بعثة ايه يا شيخ.. يعنى حاتعمل ايه بالمزيكة

وقالت أمها :

- اقعدى يا حبيبتى.

قالت وهى تتجه ناحية الباب :

- معلهش يا ماما.. أصلى تعبانة.. بقالى ساعتين وأنا باتمرن.

وخرجت وأمها تقول لعبدالسلام :

- الواحدة ما بقتش تشوف ولادها أبدا.. يا نايمين.. يا فى المدرسة.. يا بيذاكروا.

٤

● شهيرة ●

خرج أحمد من البيت في الساعة الثامنة والنصف صباحا كعادته كل يوم، وسار في الشارع المحاذي للنيل في طريقه إلى الوزارة، وتحت إبطه كتاب، وقد تعود أن يذهب إلى الوزارة كل صباح سائرا على قدميه.. وهو مشوار طويل يستغرق أكثر من نصف ساعة.. ولكنه يحب المشي على قدميه ويكره ركوب الترام أو الأوتوبيس، ربما لأن ركوبهما يضطره إلا الاحتكاك بالناس.. وهو يهرب دائما من الناس، ومن الاحتكاك بهم.. إن وجود الناس حوله يحرجه، ويتطلب منه مجهودا كبيرا حتى يبدو بينهم طبيعيا هادئ الأعصاب.. والناس في الترام أو الأتوبيس ليسوا ناسا.. ليسوا أفرادا.. أنهم كتلة من اللحم معبأة في صندوق واحد صغير، كعلبة البولبيف.. كتلة تختلط فيها الصدور، والاذرع، والسيقان.. فيخيل إليه وهو في الاتوبيس أن رأسه فوق كتفي واحد آخر.. وأن اليد التي في جيبه ليست يده، ولكنها يد الرجل الواقف بجانبه ملتصقا به، في حين أن ذراعه، هي هذه الذراع الموضوعة في فتحة جلباب هذا الرجل الواقف في مواجهته وصدره محتك به، وأنفاسه الكريهة تهب على وجهه.. إن الناس في الاتوبيس تضيع فرديتهم.. يضيع احساسهم بكيانهم كأفراد.. إنهم مجرد أوزان ومساحات مشحونة إلى المحطة التالية.

ولهذا أضرب أحمد عن ركوب الترام والأتوبيس، فإذا اضطر أن يذهب في مشوار بعيد لا يستطيع أن يقطعه على قدميه ركب سيارة أجرة، فإذا لم يكن معه ما يكفي ليدفع أجرة السيارة استغنى عن المشوار.

وكان أحمد يسير بخطوات واسعة.. وقامته مفرودة، وصدره منفوخ،

كأنه يؤدى تمرينا رياضيا.. وهواء الصباح البارد، يهب على وجهه، فيستسلم له ويستزيد منه بأن يدير عنقه ناحية النيل بين كل خطوة وأخرى، كأنه يمرغ وجهه على وسادة من الثلج..

ولم يكن أحمد يفكر فى موضوع أخته نبيلة، ولكنه كان يحاول أن ينساه.. كان يوجه عقله إلى التفكير فى شقيقه ممدوح.. وقبل أن يشت عقله ويتمرد على إرادته ليعود ويفكر فى مشكلة نبيلة، ينقله إلى موضوع القرار الذى يجب أن يتخذه بالنسبة لوظيفته.. ثم يعود يحاول أن يردد أغنية، أو يصفر بشفتيه.. إن كل ما يحاوله هو أن يهرب.. يهرب من مشاكله.. وهو يوسع من خطاه - دون تعمد منه - كأنه يسرع فى الهروب.

ووصل إلى ميدان سليمان باشا واشترى صحيفة الأهرام، ودخل محل جروبى، وجلس على مائدة، وطلب فنجانا من الشاى وقطعة من الكعك.. وجلس يرشف الشاى ويأكل الكعك.. وعيناه تدوران حوله وتطوفان بوجوه الناس دون أن يستقرا على شىء.. ثم يخطفهما ليقرأ كلمة أو كلمتين فى الجريدة.. ثم يرفعهما ليعود ويطوف بهما فى وجوه الناس، ثم يرشف رشفة من فنجان الشاى، ويقضم بأسنانه قطعة من الكعك.

ثم نادى الجرسون ودفع له حسابه، دون أن ينتهى من فنجان الشاى ومن قطعة الكعك، وحمل الجريدة والكتاب وخرج متجها إلى الوزارة سائرا على قدميه.

ودخل على زملائه، وألقى عليهم تحية الصباح دون أن ينظر إليهم.. إنه يستطيع أن يراهم دون أن ينظر إليهم.. يستطيع أن يرى الاستاذ بسيونى عبدالفتاح وقد وضع الجريدة فوق ركبتيه بحيث يخفيها وراء المكتب، وأخذ يقرأ فيها.. ويستطيع أن يرى فريد أفندى ابراهيم وهو منكب فوق دوسيه، يردد الأرقام بين شفتيه، ثم يفتح درج مكتبه فى حرص، ويخرج قطعة من الحلوى يخفيها فى فمه بسرعة قبل أن يلمحه أحد من زملائه.. ويستطيع أن يرى الاستاذ فرحات عبدالله عبد الخالق بوجهه الاصفر وشفتيه الممتعضتين، وعينيه اللتين تقطران حقدا وسخطا، وهو يتلفت حوله كأنه يبحث عن خناقة يثيرها أو يشترك فيها.

إنه من طول ما لاحظهم ودرس حركاتهم وشخصياتهم أصبح يراهم بخياله.

والقى أحمد بالجريدة والكتاب فوق مكتبه، ورفع زملاؤه رؤوسهم إليه متطلعين كأنهم ينتظرون منه فى كل يوم شيئا جديدا.. بدلة جديدة، رباط عنق جديد.. حركة جديدة.. خبرا جديدا.. وظلوا ينظرون إليه بعد أن ردوا تحيته، وفى عيونهم لهفة ساذجة، ثم عندما لم يجدوا فيه شيئا جديدا، نكسوا رؤوسهم، وعادوا إلى حالهم..

وفتح أحمد الجريدة أمام عينيه، ونشرها أمامه.. ووضع عينيه فوق سطورها محاولا أن يركز عقله فيما يقرأه، ثم عندما لم يستطع، عاد يطوى الجريدة.. وفتح الكتاب.. وحاول أن يقرأ فيه.. ولكنه لم يستطع أيضاً.. كان يحس بثقل وجوده فى هذا المكتب، وفى هذه الوظيفة أكثر من أى يوم آخر أنه يستطيع أن ينسى وظيفته وهو فى بيته أو وهو فى ناد، ولكنه لا يستطيع أن يتناساها أو يتجاهلها وهو فى الوزارة، جالس على هذا المكتب الحقير، وأمامه هؤلاء الزملاء الذين يسترون حقدهم عليه وراء سياج من النفاق والجبن.

وأخذ يناقش نفسه كما يناقشها كلما جلس إلى مكتبه فى إدارة المعاشات.. إنه جالس على هذا المكتب بناء على رغبة خاله وكيل الوزارة.. وخاله قد اختار له هذا المكتب، أو هذه الوظيفة، لأنه خاف أن يعينه فى احدى الإدارات الرئيسية فيتهم باستغلال نفوذه، ويقدم إلى لجنة التطهير.. لقد عينه خاله فى إدارة المعاشات حتى يخفيه عن أعين الناس.. كأنه يخفى جريمة، يخشى أن يعاقب عليها.. وقد استسلم لرغبة خالة.. ولكن إلى متى يظل مستسلما.. إلى متى يظل معتبرا نفسه جريمة مخبأة فى إدارة المعاشات..

وتجهم وجه أحمد ، واحتدت النظرات فى عينيه.. إنه سيستقيل.. ليس أمامه سوى الاستقالة، إذا أراد أن ينقذ كرامته، ونفسيته المنهارة.

وفتح درج مكتبه فى عنف.. فرفع زملاؤه رؤوسهم إليه متطلعين، وظلوا متطلعين إليه حتى أخرج من الدرج ورقة بيضاء، وضعها أمامه، وأخرج من جيب سترته القلم الحبر.. ثم وضع طرف القلم فوق الورقة وبدأ يفكر..

وتلفت زملاؤه كل منهم إلى الآخر، وبين شفاههم ابتسامات ساخرة صامتة.. لابد أنه سيكتب خطابا غراميا.

وكتب أحمد:

«السيد المحترم مدير عام إدارة المعاشات.

«بعد التحية، نظرا لأنى لا أقوم بعمل ما فى وظيفتى، ونظرا لأنى لا أجد فى نفسى ما أستطيع أن أقدمه للدولة نظير المرتب الذى تدفعه لى، وبما أنى أشعر أن تعيينى فى وظيفتى لم يكن إلا مجاملة لخالى السيد / عزت راجى وكيل الوزارة.. فأرجو قبول استقالتى و..»

وتوقف عن الكتابة.. وعقد ما بين حاجبيه، واضطربت عيناه بأفكاره، وسن القلم لا يزال فوق الورقة..

ثم ألقى القلم من بين أصابعه كأنه يتخلص من شىء يلسعه.. ووضع رأسه فوق كفه، واستطرد فى أفكاره.. لماذا يتهم نفسه فى استقالة يقدمها للحكومة؟ لماذا يتهم خاله؟ لماذا يكتب اعترافا بخيبته؟ يجب أن يضبط أعصابه.. وأن يبدو فى استقالته عاقلا وقورا.

ورفع رأسه، وعاد يقرأ سطور الاستقالة التى كتبها، وهو يهرش بأصابعه فوق خده.. ثم قرأها مرة ثانية.. وثالثة.. وكلما قرأها ازداد اقتناعا بها.. إنها بمثابة صفعة لرئيسه، ولخاله، وللحكومة كلها.. وهو يريد أن يصفع كل هؤلاء.. إنه يحس بالراحة وهو يصفعهم.. يحس كأنه يطلق دخانا حبيسا فى صدره.

وعاد يمسك بالقلم ويهم بأن يكمل سطور الاستقالة ويوقعها.. ثم فجأة، وقبل أن يكتب حرفا واحدا، ألقى بالقلم، وأمسك بالورقة، وأخذ يمزقها قطعا صغيرة.. ثم لم يكتف.. وعاد يمزقها قطعا أصغر.. ثم جمع القصاصات الممزقة فى كف يده، واحتار أين يلقى بها؟ ورفع عينيه إلى زملائه كأنه يخشى أن يكون أحد منهم يرقبه.. فاصطدمت عيناه بعيونهم جميعا وهم يتطلعون إليه.. فارتبك، وابتسم ابتسامة بلهاء يحاول أن يغطى بها ارتباكه.. وغض زملاؤه أبصارهم عنه، وعادوا يفتعلون الاهتمام بأعمالهم.. وأسقط أحمد يده التى تحمل القصاصات الممزقة إلى جانبه،

كأنه يخفيها عن زملائه وراء مكتبه.. ثم، بسرعة، دس القصاصات فى جيب سترته.

وأراح ظهره على مسند مقعده، وتنهد فى ارتياح.. ولكن راحته لم تدم.. عاد يفكر فى صيغة جديدة يكتب بها استقالته وفكر طويلا، وشرد ذهنه أثناء تفكيره إلى أخته نبيلة.. وجرى خياله إلى نادى الجزيرة.. وقفزت أمامه صورة شقيقة ممدوح.. و.. وبدأ يبذل جهدا كبيرا ليحصر تفكيره فى موضوع الاستقالة.. وفتح درج مكتبه وأخرج فرخ ورق آخر.. وأمسك بالقلم، وانحنى فوق مكتبه كأنه يلقى بثقله كله فوق القلم.. وبدأ يكتب :

«السيد المحترم مدير عام إدارة المعاشات.

«بعد التحية، أرجو قبول استقالتى ، وتفضلوا بـ.....»

وتوقف قلمه فوق الورقة.. واضطربت عيناه بأفكاره.. لماذا يستقيل الآن؟ وماذا يفعل بعد أن يستقيل؟ إنه لن يفعل شيئا.. سيدور يبحث عن نفسه كما كان يفعل قبل أن يعين فى وظيفته.. وسيتعرض لنظرات أمه المتسائلة الملتاعة.. وسيقول له خاله مرة ثانية « يا أحمد أنت بقيت راجل، والراجل لازم يشتغل».. وستعيش العائلة كلها فى انتظار أن يجد عملا.. سيلاحقونه بعيونهم، وهمساتهم، وتلميحاتهم.. وسيتعذب.. عذاباً أكبر من عذابه بوظيفته فى إدارة المعاشات.. ومن الخير له أن يبقى فى وظيفته إلى أن يجد عملا آخر.. إلى أن يكتشف نفسه.. إلى أن يكتشف سر هذا البريق الذى يلمح فى داخل نفسه، كأنه بريق قطعة من الماس. فى منجم عميق.

وفى حركة فجائية، كأنه يغافل نفسه. ألقى القلم من بين أصابعه، وجذب الورقة من فوق المكتب، وأخذ يمزقها قطعا صغيرة.. وبلا تردد، جمع القصاصات فى كفه ودسها فى جيب سترته.. ثم انتفض واقفا، وحمل كتابه بيده، ورفع يده الأخرى يحيى زملاءه :

– السلامو عليكو بأه يا جماعة.

وصاح الزملاء فى صوت يكسوه البرود، وهم ينظرون إليه فى حقد مستسلم :

– وعليكم السلام ورحمة الله.

وخطا نحو الباب، وقبل أن يصل إليه، سمع صوت زميله فرحات عبدالله عبد الخالق، يقول فى سخط ساخر :

– مع السلامة يا سعادة البيه.. حلال عليك.. اللهم اجعلنا من بركاتك!

ووقف أحمد.. وأحس أن دماءه كلها قد تدفقت إلى رأسه وكادت تنسكب من عينيه، واستدار إلى زميله فرحات، والغضب يلهب نظرته، ثم مشى إليه ووقف أمام مكتبه وقال فى حدة وهو يرتعش :

– اسمع.. أنا بانزل قبل الميعاد وأنا عارف انى باخالف اللوائح.. ويمكن أترفد من وظيفتى.. تقدر حضرتك تقوم تنزل معايا ونترفد أحنا الاتنين سوا.. وإذا كنت غيور قوى على مصالح الحكومة تقدر تقدم فىّ شكوى للمدير ولا للوزير.. وإذا كنت مش قادر تنزل معايا ولا تقدم شكوى، تبقى جبان.. وتبقى لازم تقفل بقك وتسكت.. فاهم.

وأشتد اصفرار وجه فرحات، وتراجع فى مقعده، وقال له وشفتاه ترتعشان وكلماته تتمزق فوق لسانه :

– مش قصدى.. أصل.. إن.. كان.. كنت باهزر.. وقام الزملاء من وراء مكاتبهم، وأحاطوا باحمد واخذوا يربتون على ظهره، ويشدونه بعيدا عن مكتب فرحات.. وقال فريد افندى ابراهيم :

– مالكش حق تزعل يا أحمد بيه.

وقال الاستاذ بسيونى عبدالفتاح :

– ده احنا كلنا زملاء يا استاذ احمد.. كان بيهزر يا سيدى.

وقال الاستاذ عبدالعظيم فهمى :

– خلاص بأه يا سيد أحمد، حقك علينا.

وظل الزملاء واضعين اكفهم فوق كتفى أحمد، كأنهم وجدوا مناسبة ليتبركوا به، ويتحسسوا قماش بدلته الغالى.

ونظر أحمد إلى فرحات فى احتقار، ثم نزع نفسه من بين أكف زملائه، وخرج من الغرفة دون أن يتكلم ، والغضب لا يزال يتدفق من عينيه..

ونزل إلى فناء الوزارة وهو لا يزال تائها فى غضبه.. وجرى الساعى ليستدعى له سيارة أجرة.. وعاد لينحنى أمامه ويلتقط البقشيش.. ووضع

أحمد نفسه فى السيارة، وصاح فى السائق :

- نادى الجزيرة يا أسطى.

وسارت السيارة.. وبدأ أحمد يحس أن الغضب بدأ يزايله.. إنه لا يستطيع أن يحتمل غضبه طويلا.. ولا فرحته.. إن غضبه وفرحته كوهج البرق، يختفى سريعا، وما يبقى فى نفسه هو تردده، وحيرته، وبحثه الذى لا ينتهى عن حقيقة ما يريده.

ووصلت السيارة إلى كوبرى قصر النيل، وأصبح أحمد لا يستطيع أن يتمسك بغضبه.. ولا فرحته إن غضبه وفرحته كوهج البرق، يختفى سريعا، وما يبقى فى نفسه هو تردده، وحيرته، وبحثه الذى لا ينتهى عن حقيقة ما يريد.

ووصلت السيارة إلى كوبرى قصر النيل، وأصبح أحمد لا يستطيع أن يتمسك بغضبه.. لم يعد مقتنعا بأن هناك سببا يدعوه إلى الغضب، بل إنه بدأ يصفح عن زميله فرحات.. إن فرحات له العذر إذا حقد عليه، وإذا حاول أن يعبر عن حقده بهذه الكلمات التى تقطر سما.. ففرحات لا يستطيع أن يعفى نفسه من التوقيع على الساعة، ولا أن يغادر مكتبه قبل موعد انصراف الموظفين كما يفعل هو.. لأن فرحات ليس ابن أخت وكيل الوزارة، ولأن فرحات فى حاجة إلى مرتبه ليعيش.

وأحس أحمد بالندم لأنه ثار فى وجه فرحات، وتمنى أن يعود ليعتذر له.

ولكنه لم يفعل شيئا ليعود.. وظلت السيارة متجهة به إلى نادى الجزيرة.

واقتربت السيارة من النادى، وشعر أحمد بأن قسمات وجهه قد ارتاحت.. وانبسطت، وأنه يكاد يبتسم.. ولكنه يريد أن يتمسك بمظهر الغضب.. يريد أن يدخل النادى ووجهه مكفهر غاضب. حاجباه معقدان، وعيناه تطلقان النار.. فربما يثير هذا المظهر اهتمام شهيرة، وربما التاع قلبها، وربما جاءت إليه لتسألة عن سر غضبه.. وربما.

وحادث أحمد نفسه قائلا : «ما هذه الأفكار الصبيانية.. كن طبيعيا.. لا تفتعل مثل هذه الحركات الهزيلة».

ورغم ذلك فإنه وهو يقول لنفسه هذا الكلام، كان قد بدأ يكسو وجهه بمظاهر الغضب.

ودخل النادى وهو مزموم الشفتين، معقد الحاجبين، حاد النظرات، صارم الوجه.. كأنه جاء لتوه من معركة. أو من تشييع جنازة عزيز لديه.

ودون أن يدير عينيه حوله، جلس على أقرب مائدة صادفته، ونظر أمامه برهة، ثم فتح كتابه ونظر فيه دون أن يحاول تتبع السطور.

هل رأته شهيرة، وهل رأت غضبه، وهل التاع قلبها؟

لابد أنها تحادث صديقاتها عنه الآن.. ربما تتساءل معهن عن سر غضبه، وفى عينيها لهفة..

أين تجلس يا ترى.. على يمينه.. على يساره.. خلفه؟

وظل جالسا ورأسه متصلبة فوق كتفيه لا يجرؤ على أن يديرها بحثا عن شهيرة.. وخياله يصور له أنها لابد ستأتى إليه، وتميل عليه فى حنان لتسأله عن سر غضبه.

ومرت الدقائق.. دقائق أطول من عددها.. وبدأ خياله ينقشع عن رأسه.. إنها لن تأتى.. وهو يعلم أنها لن تأتى.. إنه يعلم منذ البداية أنه انقاد لخيال صبيانى.. خيال انسان عاجز، لا يستطيع أن يصعد الجبل، فيجلس فى انتظار أن ينزل إليه الجبل.

وأراح وجهه من قناع الغضب، وبدأ يتسلل بعينيه فى تردد باحثا عن شهيرة.. ولم يرها.. فازداد جرأة، وأدار كل رأسه يمينا ويسارا بحثا عنها.. ولم يرها.. إنها ليست هنا..

وارتاح.

شعر بارتياح نفسى عجيب عندما تأكد أنها ليست فى النادى.. ارتياح التلميذ عندما يكتشف أن موعد الامتحان قد تأجل.

ومد ساقيه أمامه، وأزاح ظهره فوق مسند المقعد، وأحس بدفء الشمس وهى تنسكب فوق جسده، وطى الكتاب بين يديه، وأخذ يدير عينيه بحرية فوق الوجوه التى تحيط به، ويمارس هوايته.. هواية دراسة الشخصيات، وقراءة الوجوه.

وابتسم فى صدره وهو ينظر خلسة إلى سوسو.. إنها سيدة صغيرة جميلة، ربما كان اسمها سعاد، أو سميرة، أو سنية.. إنه لا يعرف إلا أن اسمها «سوسو» وهى تأتى إلى النادى كل يوم فى الساعة الثانية عشرة، وتجلس وحيدة لتمارس هواية عجيبة.. هواية الابتسام فى وجوه الرجال والشبان.. ويحيط بها دائما حلقة من الموائد يحتلها رجال وشبان يتلقون ابتساماتها.. ولكنها لا تعطيهم أكثر من الابتسام، وعندما ييأسون منها، ينفضون من حولها، ويأتى غيرهم.. زبائن جدد لابتساماتها.. وييأس هؤلاء أيضا.. ويأتى غيرهم.. وقد بدأت وفود الزبائن تقل، بعد أن عرفوا عنها هوايتها.. وبدأت هى تقلل من ترددها على النادى، ربما لأنها فتحت سوقا آخر لابتساماتها فى ناد آخر.

وتعجب أحمد وهو لا يزال يختلس إليها النظر.. إن ابتساماتها لا تفتر أبدا.. ليس بينها ابتسامة أقل اتساعا من الأخرى، ولا أقل اغراء وحرارة.. وقد خدع هو مرة فى واحدة من هذه الابتسامات.. ابتسامة أشعلت النار فى رأسه وجسده وأطلقت خياله، ولم يقو عليها فغض عنها بصره.. وبدأ يتردد كلما هم أن ينظر إليها مرة أخرى.. إلى أن اكتشف هوايتها، فأخذ يحاول أن يحلل نفسيتها.. ربما كانت مريضة تتلذذ بتعذيب الرجال، ربما كانت زوجة لرجل لا يطرى جمالها ولا يحس به، فأخذت تحاول أن ترى تأثير جمالها على الآخرين.

ونقل أحمد بصره إلى مائدة أخرى.. واتسعت ابتسامته.. إنهما زوج وزوجة.. الزوج فى الخامسة والخمسين – على الأقل – والزوجة لا تزيد على الثلاثين.. جميلة.. جميلة جدا.. وهى تحس بجمالها، وتغالى فى الاعتناء به. إنها دائما مشدودة بدبابيس.. ثوبها يضم جسدها فى عنف، وخطواتها ضيقة، وابتساماتها مرسومة بحرص.. ومنذ أن التحق أحمد بالنادى وهو يراهما دائما معا.. الزوج والزوجة.. لم يحدث أن كان معهما ثالث، لا رجل ولا امرأة.. بل لم يحدث أن تبادلا التحية مع أحد.. ولا حدث أن رأى أحدهما وحده.. هل بلغت بهما السعادة إلى حد أن استغنيا عن الناس كلهم.

وركز أحمد عينيه فى وجه الزوج.. ورأى شفتيه الرقيقتين كأنهما خط مقوس يرسم الامتعاض فوق رقعة خضراء من ذقن ثقيلة رغم أنها حليقة.. وعينين ضيقتين قاسيتين خلف نظارة ذات اطار ذهبى.. و.. لا.. لا يمكن أن يكون هذا الزواج سعيدا، ولا يمكنه أن يسعد زوجة جميلة.. إنه زوج غيور معذب بجمال زوجته.. وبلغ عذابه إلى حد أن أطلقه عليها.. فحرمها من الدنيا.. حرمها من الناس.. وحاول أن يعوضها بهذه الثياب الغالية، وهى المجوهرات التى تتزين بها حتى خلال النهار.. ومن يدرى ماذا تفعل الزوجة؟ من يدرى.

والتفت أحمد إلى مائدة أخرى.. إنها الأميرة السابقة وسط شلتها.. إنها لا تزال تحاول أن تبدو كأميرة.. رأسها مرفوع ، وأنفها أرستقراطى.. ولكن لا أمل.. إنها لن تستطيع أبدا أن تعيد الأمس.. إن الفرق كبير.. لقد كانت الشلة بالأمس تسير فى ركابها وهى الآن تسير فى ركاب الشلة.. إنها مضطرة.. إنهم ينفقون عليها.. وفى عينيها نظرة منكسرة، وفوق شفتيها ابتسامة مصنوعة.. وزوجها بجانبها مهمته أن يسلى الشلة، ويروى لهم النكات، ويعد لهم الحفلات.. وعلى يسار الأميرة يجلس «مودى».. إنه لا يعرف اسمه كاملا، كل ما يعرفه اسمه «مودى».. إنه رجل فى الأربعين من عمره، مندوف الحاجبين، يصبغ شفتيه بطبقة باهتة من الطلاء، ويترك خصلة من شعره الأصفر تتدلى فوق جبينه.. ويرتدى قميصا أحمر، وبنطلونا محزقا، وفى معصمه سلسلة فضية.. و.. وعلى رأس المائدة رجل قمىء، منفر الوجه.. شفتاه غليظتان، وأنفه كبير.. لقد كان قبل الثورة سكرتيرا لأحد الأمراء سكرتيرا لعم هذه الأميرة بالذات، وهو الآن من كبار رجال الأعمال، ويتولى الانفاق على الأميرة وزوجها.. ويتولى الانتقام منهما.. الانتقام من الأيام التى كانت الأميرة تبخل فيها عليه بلمس أصابعها: ولا ترى منه إلا قفاه وهو منحن أمامها، ولا تناديه إلا «سليم افندى» من طرف أنفها، كأنها تنفخ فى صفارة تنادى به كلبها.. إن اسمه الآن «سليم» و «شيرى» ووجهه مرفوع أمامها لترش عليه ابتساماتها، كما يرش الحلاق عليه ماء الكولونيا.. إنه الآن سيدها.. وسيد زوجها.. إنه الآن

القوة التى تمدها بالحياة.. إنه الله.. إنه الفلوس.
وسمع أحمد صوت مودى وهو يقول فى أنوثة مائعة :
- أوه.. أخص عليك يا سليم بيه.. لا.. أنا ماحبش كده.
وقلّب أحمد شفتيه امتعاضا.. ثم مسح الامتعاض بابتسامة كبيرة عندما التفت إلى مائدة تجلس عليها شلة من المطلقات الصغيرات.. إنه يحس أن للمطلقات دنيا خاصة بهن، بل يخيل إليه أنهن يتحدثن لغة خاصة لا تفهمها المتزوجات ولا البنات.
وبجانب حوض السباحة تقف شقيقتان جميلتان صغيرتان القد، لا يزيد عمر أكبرهما على السابعة عشرة.. إنهما كريمتا المليونير محمد شديد.. مليونير عريق أخذت منه الثورة آلاف الأفدنة ولا يزال مليونيرا، ولكل من الشقيقتين عشيق من أبناء السلك السياسى الأجنبى.. وهما جريئتان، إن كلا منهما تميل على شقيقها، وتتعلق بعنقه وتكاد تقبله أمام الناس.. وهو يغتاظ كلما رآهما، لا لأنهما جريئتان، ولا لأنهما بنتا مليونير، بل لأنهما يختاران دائما عشاقهما من أولاد الأجانب.. من الخواجات.. إنه يحس كأن الأجانب يحتلون قطعة من وطنه.. قطعة جميلة مثيرة
وأطلق أحمد عينيه إلى الناحية الأخرى من حمام السباحة، ورأى «جرمين».. إن هذه الفتاة تثير فيه شيئا، يختلف عما تثيره فيه شهيرة.. إنها لا تثير عواطفه، ولا تثير احترامه... ولكنه يحس كلما رآها كأنه يريد أن يأكلها.. إنها فتاة صغيرة الحجم حتى يخيل إليه أنه يستطيع أن يضعها فى جيبه.. وكل شىء فيها متناسق جميل مثير.. خصرها الرقيق، وصدرها الناهد، وشفتاها اللذيذتان، وابتسامتها التى تملأ وجهها كله كأنها تمثال دقيق الصنع صنعه فنان صبور عبقرى.. وهو لا يعرف جنسيتها.. ربما كانت ايطالية، أو فرنسية، أو يونانية.. وقد قدر أنها لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها.. ولكنه عندما رآها تسير، كأنها عارضة أزياء.. كل قطعة منها تهتز بحساب.. رفع عمرها إلى السادسة عشرة.. ثم ذعر، عندما رآها تدخن سيجارة وتشرب كأسا من الويسكى.. لا يمكن أن تصل فتاة إلى هذا الحد وهى لا تزال فى هذه السن.. لا يمكن..

ورغم ذلك فهو لا يزال يحس بأنه يريد أن يأكلها.. لن يكفيه شيء منها إلا أن يأكلها!!

وضغط أحمد على أسنانه كأنه يمضغ قطعة من اللحم.. ثم اراح اسنانه عندما مر من أمامه سرب من البنات يرتدين بنطلونات قصيرة تكشف عن سيقانهن وقمصان بيضاء تطلق نهودهن، وفي يد كل منهن مضرب «للاسكواش راكت».. إنه يعرفهن.. يعرف أسماءهن.. شريفة، ومنى، ونادية، وسهيلة.. ويعرف مشكلتهن الوحيدة.. إنها مشكلة ملء الفراغ.. ملء الفراغ بالتنس، والهوكى، والاسكواش، والجامعة، والكتب، والاسطوانات، والشبان.. وكلها أدوات ملء الفراغ.. فقط ملء الفراغ.. ليس هناك هدف، ولا حيرة.. وجوههن النضرة الشابة لم تعرف الدموع بعد.. ولا الألم.. ولا الندم.. إن حياتهن مسطحة، سهلة، يمرحن فيها كما يمرحن في ملعب الهوكى.. ليس فيها منحنيات، ولا شوارع مسدودة، ولا ضباب يحجب الشمس.. إنهن سعيدات، وسعادتهن تفيض على كل من يقترب منهن، ومن ينظر إليهن، وأحس أحمد أنه يريد أن ينضم إليهن أن ينطلق معهن فوق الأرض المسطحة أن يطير معهن على أجنحة من الضحكات البريئة الخالصة، أن يتحرر من مسئولياته، ومن عمره.. أن يكون له أب وأم يحملان عنه الهموم، ويتركانه للسعادة.

واختفى سرب البنات من أمام عيني أحمد، وأحس بأنهن تركنه وحيدا، ضائعا، بائسا.. ثم حاول أن يستطرد في قراءة الوجوه من حوله.. إنها الهواية التي تستطيع أن تشغله عن نفسه.. وهي هواية يضع فيها كل ذكائه وكل خياله إذ يحاول أن يؤلف قصة لكل وجه يمر به.. ويفتح أذنيه دائما ليلتقط اسماً أو خبرا عن أحد هذه الوجوه، حتى يعينه على وضع خط آخر في الصورة التي يرسمها له.

ولكنه لم يعد يستطيع أن يستطرد في هوايته، إن نفسه بدأت تغلبه، وبدأت تطلق عليه مشاكله.

ولمح صديقه مدحت خيرى داخلا من الباب.. شاب أميل إلى القصر، عيناه نشيطتان، ووجهه باسم، يبدو في الثلاثين، وإن كان في الخامسة

والثلاثين، وفى يده حقيبة جلدية منتفخة بالأوراق.. وتتبعه أحمد بعينيه حتى جلس إلى احدى الموائد ووضع حقيبته فوقها، ثم تلفت يحيى كل من حوله فى حرارة، وكل من حوله يبتسم له.. إن أحمد معجب بمدحت.. إنه فى نظره مثال النجاح، والذكاء، والصفاء النفسى.. وقد عرفه فى النادى عندما كان يلعب مرة الشطرنج، فتحداه دون تباه ولا غرور.. وغلبه أحمد فى الشطرنج.. أنتصر عليه.. وأرضى هذا الانتصار نفسه، تركه يحس أنه ومدحت فى مستوى واحد من الذكاء والنجاح.. فأحبه وأقبل على صداقته.

وقام أحمد من على مقعده متجها إلى مدحت.. لعله يستطيع أن يجد فى صداقته ومرحه ما يلهيه عن نفسه.. ولكنه قبل أن يصل إليه عدل عن رأيه، وسار خارجا من الشرفة المطلة على حمام السباحة، متجها إلى ملاعب النادى.. وخطا بقدميه فوق الحشيش.. فوق وسائد الحرير الأخضر.. ويداه فى جيبى بنطلونه.. ورأسه ملقاة فوق صدره.. وعيناه فوق بوز حذائه.. وبدأ مع نفسه حديثا لا ينتهى.. حديثا ليس له أول ولا آخر.. وليس له خيط واحد يربطه، إنما يقفز من موضوع إلى موضوع، كالجرادة.. كالضفدعة.. واستسلم أحمد لهذا الحديث كأنه حديث لا شأن له به.. حديث يدور بين اثنين لا يعرفهما..

وفجأة لمح من خلال عينيه المنكستين، ساقين منتصبتين أمامه، ويكاد يصطدم بهما.. ساقين أنيقتين دقيقتين، كأنهما شعاعان من نور ملفوفين فى جورب من حرير.. ساقين لا تتحركان.. ورفع رأسه..

ورآها..

شهيرة..

واقفة أمامه.. وجهها يكاد يلتصق بوجهه.. وأنفاسها ترف حوله كالفراشات المعطرة.. وعيناها تبتسمان.. وشفتاها تبتسمان، وتهتز الابتسامة بينهما، فترتعشان..

وارتبك.. وأحس بارتباكه.. أحس بدمائه تتصاعد إلى وجهه وتلهب أذنيه.. وعرف أن لون وجهه الآن قد أصبح أحمر كالجزرة، وأذنيه أيضا.. وكان يعرف أنه يجب أن يقاوم ارتباكه.. وأن يضبط دماءه فى عروقه حتى

لا تطل فوق وجهه وتفضحه.. إنه يعرف أن شهيرة تعطيه فرصة ليحادثها.. فرصة يجب أن ينتهزها.. لقد خطت نحوه الخطوة الأولى، ويجب أن يخطو إليها الثانية.. يجب أن يبتسم ابتسامة أكبر من ابتسامتها، وأن يقول شيئا.. يتكلم.

ولكن من يدري، ربما كان اصطدامه بها مجرد صدفة.. ربما كانت ابتسامتها مجرد ابتسامة اعتذار لوقوفها فى طريقه.. ربما لو أبدى لهفة على محادثتها، احتقرته، واعتبرته متعطلا، وظنته واحدا من شبان النادى الرقعاء الذين يجرون خلف البنات.

واشتد ارتباكه..

ووجهه لا يزال أحمر كالجزرة.. وأذناه أيضا..

وضاقت ابتسامة شهيرة، ورفعت إليه عينيها فى تساؤل.. وعندما لم تسمع منه جوابا.. ملأ اليأس عينيها.. وانحرفت عنه، وسارت مبتعدة عنه.

واستدار خلفها، وفى حلقه صيحة مكتومة.. شهيرة.. ولكن صيحته لم تنطلق من بين شفتيه.

وسارت شهيرة بضع خطوات، ثم فجأة استدارت له بوجهها، وقالت فى حدة وبينها وبينه مسافة صغيرة:

- عايز إيه..

وطافت فوق شفتيه ابتسامة بلهاء، وقال وهو يشير بأصبعه إلى نفسه، ويبدو كالعبيط:

- أنا ؟!

وقالت شهيرة وقد ازدادت حدتها:

- أيوه أنت.. ما هو مش معقول إنك تقعد تبص لى شهرين، وبعدين لما نتقابل ما تتكلمش ولا كلمة..

واستطردت ابتسامة أحمد فوق شفتيه، واستطاع أن ينقل قدميه ليقترب منها خطوة وقال دون أن يفكر، كأنه يقذف بأول كلمة خطرت له على باله:

- اسمحى لى أقدم لك نفسي، أنا أحمد.. و ..

وقاطعته وقد بدأت ابتسامتها تغلف حدتها:

- عارفه .. اسمك أحمد زهدى..
قال وابتسامته تستقر فوق شفتيه:
- وأنا كمان عارف..
قالت وعيناها ترتعشان فوق وجهه، وصوتها ينساب فى يسر:
- عارف إيه؟
قال :
- عارف إن اسمك شهيرة..
قالت فى دلال متزن:
- شهيرة بس..
قال وقد بدأت الدماء فوق وجهه يخف ازدحامها:
- بس ..
قالت ضاحكة:
- كفايه عليك..
قال كأنه يتباهى بمعلوماته:
- وأعرف كمان أن اسمك: شوشت..
وضحكت قائلة:
- ياه.. ده انت تعرف عنى كل حاجة..
وسكت مكتفيا بابتسامته..
وسكتت متطلعة إليه، كأنها تسأله متى يبدأ حديثه..
وقال بعد فترة وقد عاد يلقى عينيه فوق بوز حذائه.. قال فى صوت خفيض كأنه يتجاهل وجودها حتى لا يرتبك:
- أنا من يوم ماشفتك وأنا بافكر حنتقابل ازاى، ولما حاقابلك حاقول لك ايه.. ودلوقت اتقابلنا، إنما لسه مش عارف أقول لك ايه..
ونظرت إليه فى حنان كأنها أكبر منه، كأنها أم تشفق على ابنها وقالت:
- أنا لما شفتك ماكنتش فاكراك كده.. خفت منك.. خفت من قعدتك لوحدك، ومن شكلك الجد.. إنما..
وسكتت برهة وهى لا تزال تنظر إليه، ثم قالت كأنها قررت أن تؤجل

بقية حديثها:

– الدور الجاى لما نتقابل، لازم تكون فكرت حاتقول لى إيه.. أوريفوار..

ورفع عينيه إليها كأنه يتشبث بها، ثم قال فى صوت هامس:

– أوريفوار.

وتعلقت عيناها بعينيه برهة ، ثم استدارت، وسارت مبتعدة عنه.. وهو يتبعها صامتا، وقلبه فى عينيه..

●●●

وخرج أحمد من النادى، وكل خلجة فيه تزغرد فرحا.. كأن يدا رقيقة تدغدغ جسمه.. فينتفض ضاحكا.. كان فرحا إلى حد أنه لا يدرى ماذا يفعل بفرحته؟ إنه يستطيع أن يرقص، ويستطيع أن يغنى بأعلى صوته، ويستطيع أن يجرى فى الطريق صارخا كالمجانين.. إن شيئا هاما قد حدث له، وهو لا يدرى بالضبط ما هو هذا الشىء الهام؟ إنه شىء يحدث له لأول مرة.

وركب سيارة أجرة.. وبدأت فرحته تنقلب إلى نوع من الإحساس بالقوة.. إنه يحس الآن أنه يستطيع أن يحل جميع مشاكله.. يستطيع أن يستقيل من وظيفته.. وأن يجادل خاله ويشخط فيه، يستطيع أن يسيطر على أخوته البنات وعلى عائلته كلها.. و.. وبدأ يترنم بأغنية «مال الهوى يا أمه مال».. وهو ينظر إلى قفا السائق نظرات قوية كأنه يحاول أن يفرض شخصيته عليه..

واقتربت السيارة من شارع عبد العزيز آل سعود المحاذى لشاطىء النيل.. وتذكر أخته نبيلة.. لقد رآها تسير فى هذا الشارع ويدها فى يد شاب لا يعرفه.. هل يراها مرة أخرى.. إنه لو رآها فسينزل من السيارة، ويمسك بخناق هذا الشاب، ويلكمه لكمة قوية، يوقعه بها على الأرض، ثم يسحب أخته من يدها بالقوة ويركبها معه فى السيارة ويذهب بها إلى البيت ويسجنها فى غرفتها.. هكذا كان يفعل أبوه لو كان حيا.. وهكذا يفعل الرجال الأقوياء.. واحتدت نظرات عينيه، كأنه يتقمص شخصية الرجل القوى.. القاسى .. واستعد ليرقب شاطىء النيل باحثا عن أخته

نبيلة، عندما تدخل السيارة فى شارع عبد العزيز آل سعود.. ولكن خياله طواه، فاستطرد فيه.. ثم وجد خياله ينتقل فجأة إلى نادى الجزيرة.. إلى شهيرة.. ويستعيد كل كلمة قالتها، وكل لفتة من لفتاتها.. ويستعيد وقفته أمامها.. لقد كان مرتبكا.. كان ضعيفا.. كان يجدر به أن يكون أقوى منها.. ولكنها كانت الأقوى.. هى التى تحملت عبء الموقف، وهى التى بدأته بالحديث.. و.. ونسى خلال تخيلاته أن ينظر إلى شاطىء النيل ليبحث عن أخته.. ولم يكتشف أنه نسى إلا بعد أن تعدت السيارة شارع عبدالعزيز آل سعود، ودخلت فى شارع الأخشيد.

ونزل من السيارة أمام البيت، وترك للسائق قرشين صاغ بقشيشا.. وصعد السلم العريض، وقد هدأت فرحته.. أصبحت فرحة دفينة مستقرة فى صدره، ومغلفة بطيات من اللهفة والحيرة والتردد.. إنه لا يدرى ما يمكن أن يحدث بينه وبين شهيرة عندما يقابلها مرة ثانية.. لا يدرى كيف يتقدم لها؟

ودخل إلى غرفته، وصوت نقرات البيانو يلاحقه من تحت أصابع أخته ليلى.. وألقى الكتاب الذى فى يده، ونظر إلى المرآة، ودقق فى وجهه طويلا، ثم رفع يده إلى جبينه، وقال يحيى نفسه:

- ازيك .. شد حيلك..

ثم ابتسم كأنه يتعجب من هذا الشخص الذى رآه أمامه فى المرآة..

وهم أن يخلع سترته، فوضع يده فى جيوبها ليفرغ ما فيها، فخرجت يده بقصاصات الورق الذى كتب عليه استقالته، ثم مزقه.. وحمل القصاصات فى كف يده، ونظر إليها، كأنه طفل ينظر إلى حطام لعبة عزيزة عليه، ثم ابتسم ابتسامة فيها نوع من الرثاء، وفتح باب الغرفة، وصاح ينادى على السفرجى .

- محمد .. يا محمد!

وجاء السفرجى، فناوله القصاصات قائلا:

- خد.. ارمى الورق ده فى الزبالة..

وخرج من غرفته متجها إلى غرفة أمه.. وكانت جالسة على مقعد

عريض بجانب النافذة، وقد وضعت ساقا على ساق، وأمسكت فى يدها قطعة من القماش تطرزها وأشعة الشمس تكسوها.

وألقت قطعة القماش من يدها بمجرد أن رأته، وابتسمت ابتسامة كبيرة، وقالت وهى تقوم واقفة فى رشاقة وقوة:

- انت جيت يا أحمد..

وتركت له يدها يقبلها، ثم جذبته فى رقة وقبلته فوق جبينه وقالت:

- ياللا يا حبيبى.. الغدا جاهز.. وأخواتك كلهم جم..

ونظر إليها أحمد فى إعجاب.. إنه ليس معجبا بها كأم فقط.. إنه معجب بها كسيدة جميلة.. إنها أجمل سيدة خطرت أمام عينيه.. ومعجب بها كسيدة محترمة قوية.. إنه يحس أمامها بالأمن والسلام.. يحس أن الدنيا كلها بخير.. وأن مشاكله مهما تعقدت، فهى دائما تستطيع أن تحملها عنه.. هل يستطيع أن يحدثها عن شهيرة.. هل يستطيع أن يحدثها عن حبه وحيرته.. أنه يتمنى أن يضع رأسه على صدرها، ويتكلم.. يتكلم طويلا.. لا ينتهى أبدا من الكلام.

وسار مع أمه خارجين من الغرفة، ولكنها توقفت قبل أن يصلا إلى الباب، ونظرت إليه برهة كأنها تحاول أن تستقر برأيها على شيء، ثم قالت:

- اسمع يا أحمد.. أختك فيفى بتقول: إن فيه واحد حايطلب إنه يقابلك.. وعايزاك ترفض مقابلته..

ورفع أحمد حاجبيه دهشة، وقال كأنه لم يفهم شيئا:

- واحد مين؟

وقالت الأم وهى تتنهد كأنها ضاقت بمشاكل ابنتها فيفى:

- يظهر إنه معيد فى الكلية بتاعتها.

وقال أحمد وقد ازداد دهشة:

- وعايز يقابلنى ليه؟

وقالت الأم كأنها تلوم ابنها على دهشته:

- يظهر عايز يطلبها منك..

وسكت أحمد كأنه صعق.. أخته فيفى يطلبها أحد للزواج؟! ومعيد فى

الجامعة!! وترفضه!! إنه لا يصدق. بل إنه لم يفكر يوما فى أن أخته فيفى يمكن أن تتزوج.. لقد تصورها دكتورة.. تصورها أستاذة.. ولكنه لم يتصورها أبدا زوجة.. ولم يتصورها أبدا ورجل يتمناها لنفسه.. إنه ينسى دائما إن أخواته البنات، بنات.. وإن حتى فيفى بنت.. رغم خلقها القاسى وشراستها، ورغم أنها صورة من أبيه.

وقال وهو ينظر فى وجه أمه كأنه يبحث فيه عن الحل:

– وعايزانى ما قبلوش ليه؟

وقالت الأم:

– لأنها يا سيدى مش عايزه تتجوز.. على كل حال سيب المسألة دى علىّ.. لو حد اتصل بيك ابقى قول لى.

ونظرت إليه مبتسمة كأنها تطيب خاطره واستطردت:

– وبلاش تكلم فيفى فى الموضوع ده..

وهز أحمد رأسه موافقا، وهو لا يزال تائها فى دهشته..

وخرجا من الغرفة متجهين إلى غرفة الطعام، وصاحت الأم فى محمد السفرجى:

– قول للستات يتفضلوا الغدا..

وخرج ممدوح من غرفته، ونظر إلى أحمد بوجهه الضاحك المتضرج بنشاط الشباب، وقال:

– إزيك ياخويا..

وقال أحمد وهو يبتسم له:

– بعت بكام النهارده؟

وقال ممدوح وهو يهز كتفيه:

– ولا بمليم.. المعلم بتاع الجرايد مارضيش يبيع لى ولا نسخة.. قال لى : إن بيع الجرايد له ناس مخصوصين، وما يصحش طلبة الجامعة ينافسوهم فيه..

وقال أحمد فى حماس، كأنه انتصر:

– له حق..

وقال ممدوح بلا مبالاه:

- يمكن..

وقال أحمد:

- وعملت إيه بالجنيه اللى لطشته منى امبارح؟

وقال ممدوح ضاحكا:

- ما تخافش المشاريع كتير..

ودخلا إلى غرفة الطعام.. ولمح أحمد أخته نبيلة جالسة فى مقعدها. ولمحها تنظر إليه فى تساؤل أقرب إلى الابتهال، وتبتسم ابتسامة ضعيفة مترددة.. فأشاح بوجهه عنها.. إنه لن يحادثها.. ولن ينظر إليها.. إنه يخاصمها.. وسيظل مصرا على مخاصمتها.. وهذا هو كل ما يستطيعه لحل مشكلتها.

وأخته فيفى بجانبه على الناحية الأخرى.. واجمة، وقد كفت عن تعليقاتها الساخطة.. ورأسها منكب فوق طبقها.. وأخته ليلى بجانب أمها كأنها قطعة منها.. جميلة.. طيبة.. رقيقة.. وحزن هادىء يطل من عينيها الملونتين.. وممدوح يلقى بالطعام فى فمه بسرعة، كأنه سيلتهم المائدة كلها.. ولا يكف بين اللقمات عن الكلام والضحك.. وأمه..

وأحس أحمد وهو يدير عينيه بين أفراد عائلته.. أن كلا منهم بعيد عن الآخر.. بعيد جدا.. كل منهم يعيش فى دنيا خاصة، لا يدخلها الآخر، ولا يعرفها.. وأحس أنه لا يعرف أخوته.. إنه لا يعرف ما فى رؤوسهم ولا ما فى قلوبهم: إنه لا يعرف فيفى ولا نبيلة، ولا ممدوح ولا ليلى، بل أحيانا يخيل إليه أنه لا يعرف أمه.. كيف تتكون العائلات من أفراد لا يعرفون بعضهم بعضا.. أفراد لكل منه عقل وقلب يتحركان فى دنيا خاصة.. كيف أستطيع أن أكون أخا لشخص أجهل ما فى قلبه وعقله وأجهل دنياه؟ وكيف أستطيع أن أتحمل مسئولية أخى إذا كنت أجهل مشكلته، وأجهل عواطفه.

وخيل إليه أن عائلته مجموعة من البالونات.. كل منها له لون خاص.. وكل منها يتدلى منه خيط رفيع، والخيوط كلها تقبض عليها يد واحدة.. قد

تكون يده، أو يد أمه، أو يد خاله.. ما هى حقيقة هذه الخيوط التى تتدلى من البالونات.. ما هى مسئولية اليد التى تقبض عليها وتصور نفسه بائع بالونات، كل مهمته أن يقبض على الخيوط بشدة حتى لا تطير بالونة منها.. إلى أن يبيعها.. يبيع أخوته البنات كلا منهن لرجل، ويبيع أخاه ممدوح لمستقبله.. ولكن ماذا إذا كانت يده ضعيفة لا تستطيع أن تقبض على هذه الخيوط الدقيقة.. وماذا إذا كان لا يريد أن يبيع البالونات.. إذا أراد أن يحتفظ بها لنفسه.. و..

وأفاق من مناقشته لنفسه على صوت أمه، وهى تقول:

– إيه رأيكم لو أجرنا شقة فى إسكندرية بالسنة.. عبدالسلام بيه بيقول إن فيه شقة على البحر بعشرة جنيه بس .

وامتعض أحمد.. إنه يحس كلما سمع أمه تنطق اسم عبدالسلام، كأن ذبابة سقطت على وجه أمه، ومن واجبه أن يهشها .

وقالت ليلى:

– ويا ترى حانحط فيها بيانو..

وقالت أمها ضاحكة:

– طبعا لأ ..

وقالت ليلى:

– يبقى بلاش..

وقالت نبيلة وهى تنظر إلى أحمد كأنها ترجوه أن يحادثها:

– احنا بنقعد شهر واحد فى اسكندرية.. ومش عايزين نقعد أكثر من كده..

وقال ممدوح:

– أنا السنة دى حاعمل رحلة على «الفسبا» لغاية البحر الأحمر..

وقامت فيفى واقفة فجأة، وقالت دون أن تنظر إلى أحد:

– أنا شبعت..

ثم لم تنتظر لتسمع تعليقا من أحد.. خرجت فى خطوات عصبية، ووجهها متجهم.. وسمعوا باب غرفتها يقفل بعنف وراءها .

٥

• فيـــفى •

وظلت فيفى منطوية على نفسها.. قضت بقية النهار جالسة فى غرفتها، فوق سريرها وظهرها مسند إلى الحائط، ووجهها متجهم وبين يديها كتاب تحاول أن تدارى فيه تجهمها.. إنها غرفة كبيرة، عالية السقف، ولها شرفة تطل على الشارع، وتشاركها فيها اختاها.. لكل منهن سرير صغير من الحديد.. ودولابان.. دولاب كبير تشترك فيه هى وأختها ليلى.. ودولاب صغير تنفرد به أختها نبيلة.

ولم تحاول واحدة من أختيها أن تخرجها عن انطوائها.. كانت كل منهن تدخل الغرفة، وتنظر إليها من بعيد، ثم تهم بالكلام.. ولكنها تعدل، وتتركها وتخرج.. إنهما يخافانها.. يخافان شراستها، ولسانها السليط، وأعصابها الحادة.. ولكنه خوف مبعثه الحب والاشفاق.. يشفقن عليها من أعصابها، ومن حدتها.

وعندما أتى المساء، دخلت إليها أمها، وقالت لها فى حنان :

- مش تقومى يا فيفى تغسلى وشك، وتغيرى الفستان اللى انتى لابساه من الصبح ده.

وأجابت فيفى فى استسلام أثار دهشة الأم :

- حاضر.

ثم ألقت الكتاب، وقامت من فوق السرير، واتجهت إلى الحمام، وغسلت أسنانها وهى تنظر إلى المرآة المعلقة فوق الحوض وعيناها شاردتان لا تريان وجهها، ثم اغترفت الماء بيديها وقذفته فوق وجهها كأنها تلطم خديها، ثم عادت إلى غرفتها والمنشفة لا تزال بين يديها.. ثم قذفت المنشفة فوق السرير، ووقفت أمام المرآة المثبتة فى الدولاب، تمشط

شعرها الخشن، كأنها تحاول أن تنزع أفكارها من رأسها بأسنان المشط.. ثم القت المشط داخل الدولاب، وحملت كتبها، وخرجت من الغرفة دون أن تبدل ثوبها، وذهبت إلى غرفة المكتب، التى كانت غرفة مكتب أبيها.

وجلست وراء المكتب الكبير، وفتحت كتابا وأطلت فيه. وأختها ليلى فى غرفة الصالون تعزف على البيانو أنغاما صاخبة عنيفة.. وأختها نبيلة تسير جيئة وذهابا فى البهو الخارجى وأمام عينيها كتاب تذاكر فيه.. والأم فى غرفتها وأحمد وممدوح خرجا من البيت.

وأخذت فيفى تلتقط السطور بعينيها، ولا تستطيع أن تصل بها إلى ذهنها.. كأن ذهنها لا يزال يستعيد كل ما جرى لها هذا الصباح.. يستعيده مرة أخرى.. يستعيد كل كلمة وكل لفتة، ويحللها، ويفسرها، ويحاول أن يجعل منها عملية كيميائية.. يضعها فى مخبار كيمائى، ليصل إلى نتائجها.

لقد كانت واقفة عند باب مدرج قسم الحشرات، عندما تقدم لها الأستاذ أمين عبدالسيد، وقال فى أدب مفتعل :

– صباح الخير يا آنسة مفيدة.

قالها وهو يبتسم ابتسامة لزجة، ويعدل وضع ذراعى نظارته خلف أذنيه، ويقرب وجهه من وجهها حتى تملأ أنفاسه خياشيمها، ويطل عليها بعينيه الجاحظتين المهتزتين خلف زجاج النظارة السميك، كأنه يفحص احدى الحشرات.

وأبعدت وجهها عن وجهه.. إنها تعلم أنه يقرب وجهه من وجهها بحكم عادة فيه، ربما كان سببها ضعف نظره.. وهو يقرب وجهه من وجه كل من يحادثهم من الطلبة والطالبات وزملائه الأساتذة.. وكلهم يتضايقون من هذه العادة فيه، وكلهم ينفرون من رائحة أنفاسه، ويشهرون به.. وهى أكثرهم تضايقا، وأكثرهم نفورا.

وأبعدت وجهها عن وجهه وقالت فى صوت جاف :

– صباح الخير.

وعاد الأستاذ أمين عبدالسيد، يقول فى صوته المهذب :

– والله ممكن يا آنسة، أعرف عنوان البيت ؟

وقالت فى دهشة تحمل معنى التأنيب على وقاحته :

- بيت أيه ؟
قال وهو يعود ويقرب وجهه من وجهها :
- بيتكم؟
قالت وهى تخطو خطوة إلى الوراء لتبتعد عن أنفاسه، وقد تجهم وجهها واحتدت النظرات فى عينيها :
- أقدر أعرف السبب ؟
قال فى هدوء سمج وهو يرخى عينيه خلف زجاج نظارته :
- بعدين حاتعرفى السبب.
قالت فى غضب وهى تحاول أن تسيطر على نبرات صوتها حتى لا يعلو:
- مادام ما أعرفش السبب.. يبقى مافيش داعى.. عن اذنك !
واستدارت لتبتعد عنه، وسمعته يقول :
- على كل حال، أنا حاتكلم فى التليفون النهاردة.
ولم ترد عليه.. وابتعدت.
وكانت تعرف السبب الذى يدعوه إلى أن يسألها عن عنوان بيتها.
إنها تعرف أمين عبدالسيد منذ أن التحقت بكلية العلوم.. كانت هى فى السنة الأولى، وهى فى السنة الثالثة.. وكانت تراه بين زملائه، ولم يكن يميزه عنهم شىء إلا ثقل دمه، وتقربه ونفاقه لأساتذته، وأنه كان دائما أول دفعته.. وكان الطلبة والطالبات ينفرون منه لعادته فى تقريب وجهه إلى وجه كل من يحادثه، ولكنهم كانوا يحسدونه على ذكائه، وعلى اجتهاده، وعلى أنه دائما أول دفعته.. وكان الكثيرون منهم يلجأون إليه ليساعدهم فى فهم المواد التى يدرسونها، أو ليقترضوا منه المذكرات التى يعدها لنفسه.. وكان أمين يبدو مغرورا.. غرور العلماء.. لم يكن يختلط بالطلبة فى لهوهم، ولم يكن يجلس معهم فى البوفيه.. ولكنه كان يبدو دائما متباهيا عليهم بتفوقه، ويعاملهم كلما لجأوا إليه كأنه استاذ عليهم.
وقد عرفت عنه كل ذلك من بعيد.. لم يكن بينه وبينها صداقه، ولا حتى ما يمكن أن يسمى معرفة.. لم يكن بينهما سوى نظرات عابرة يتبادلانها بلا تعمد بحكم وجودهما فى كلية واحدة.
ومر عام وعامان، وتخرج أمين وأصبح معيدا فى الكلية، دون أن يزيد

ما بينهما عن هذه النظرات العابرة.. لم يخطر على بال فيفى فى أية لحظة أن أمين يمكن أن يكون معجبا بها.. أو يمكن أن يحبها.. إنها منذ وعت وشبابها وهى لا تنتظر من أى شاب حبا أو اعجابا، حتى لو كان هذا الشاب هو أمين عبدالسيد.

لقد اكتشفت منذ صباها أنها أقل من أختيها جمالا.. وكانت وهى صبية تقف أمام المرآة، وتنظر إلى وجهها طويلا.. إلى شعرها الأسود الذى يميل إلى الخشونة، وإلى عينيها الضيقتين، وإلى اسنانها البارزة بروزا خفيفا، وإلى أنفها الصغير الذى لا يتناسب مع مساحة وجهها.. ثم تقارن كل ذلك بجمال أختيها.. أختها ليلى بشعرها الأصفر، وبشرتها البيضاء المشربة بلون الورد، وعينيها الملونتين.. وأختها نبيلة بلونها الأسمر الفاتح، والخطين اللذين يرسمان وجنتيها، وابتسامتها الحلوة، وشعرها الأسود الناعم.. إن أختها ليلى أخذت جمال أمها التركى بنفحة الريف الذى جاء منه أبوها.. أما هى فأخذت وجه أبيها كله.. لم تأخذ شيئا من أمها.. وقد كادت تكره أباها وهى ترى وجهها كلما نظرت فى المرآة، ثم كادت تكرهه أكثر لأنه صمم على أن يسميها على اسم أمه «مفيدة!».. وقد حاولت أمها أن تخفف من ثقل هذا الاسم فدللتها باسم «فيفى»، وكان هذا هو الاسم الذى عرفت به بين افراد العائلة، حتى نسى الجميع اسمها الأصلى، ولكنها خارج محيط العائلة كانت تواجه باسم «مفيدة».. وكانت نفسها تتمزق كلما سألها أحد متظرفا :

– واسمك ايه بأه يا فيفى؟

وتضطر أن تقول فى صوت خافت كأنها تكشف عن فضيحة :

– مفيدة!

وأصبحت فيفى فتاة معقدة.. رسبت العقد فى قرارة نفسها، وانعكست على تصرفاتها.. أصبحت دائما شرسة نافرة، سليطة اللسان، لا يعجبها شىء ولا ترضى بشىء.. وأصبحت تبتعد عن مرآتها، وتختار لنفسها ثيابا جادة متزمتة، تهمل فى ارتدائها، وتهمل فى الاعتناء بها.. أصبحت كأنها تحاول أن تتخلص من أنوثتها.. أن تبدو كرجل.. كأبيها.. ودفعتها عقدها إلى محاولة التفوق على أختيها فى شىء آخر غير الجمال.. فتفوقت فى دراستها..لم ترسب ابدا فى امتحان.. وكان أبوها يطرى نجاحها وذكاءها،

وكل من حولها يعترفون لها بتفوقها ويهنئونها عليه.. ولكنها لم تكن تفرح بهذا الاطراء، كانت تتقبله كتعزية.. وفى خلال ذلك اغلقت حياتها عن الشبان.. عودت نفسها على ألا تحس بهم.. لا تحس بالجنس الآخر.. وكانت لا تعترف بالحب.. ولا تذكر منه إلا قصص الحب الفاشل.. وكانت تردد دائما قصة طالبة البكالوريوس فى كلية العلوم التى انتحرت من أجل طالب فى كلية الطب.. وقصة الطالبة الأخرى التى هجرها زميلها وأحب فتاة فى كلية الآداب.. كانت تردد هذه القصص فى شماتة كأنها تنتقم بها لنفسها.

ورغم ذلك فلو لم تكن فيفى بين أختيها لما تعقدت شخصيتها إلى هذا الحد.. لعرفت أنها وإن لم تكن جميلة كأختيها إلا أنها ليست قبيحة.. إن جمالها قد لا يلفت العين، ولكن العين لا تنفر منه.. ومع ذلك فإن عقدها لم تتغلب على طيبة قلبها.. أنها تحب أختيها، وأخويها وأمها وتحب أختها ليلى على الأخص.. ولكنه حب يختفى تحت لسانها السليط، ووجهها المتجهم، ونظراتها الساخطة..

وبدأت فيفى تلحظ اهتمام الاستاذ أمين عبدالسيد بها كان يساعدها فى تشريح الحشرات، ويحادثها طويلا فى مواد الدراسة، ويعد لها مذكرات خاصة، ويستدعيها بين حين وآخر إلى غرفة مكتبه الخاصة فى الكلية ليعطيها رسوم الحشرات التى يرسمها بنفسه.. وأعتقدت فيفى إن كل هذا الاهتمام يرجع إلى تفوقها على زملائها، وإلى اجتهادها.. إنها تنسى دائما إنها فتاة.. تنسى دائما أنوثتها.. ولكن أمين تمادى فى اهتمامه به، وفى ملاحقتها.. وبدأت تحتار فى تفسير هذا الاهتمام وتحاول أن تكذب نفسها عن دوافعه الحقيقية.. إلى أن كان يوم، وكانت جالسة فى متحف قسم الحشرات، تطل من خلال الميكروسكوب على تفاصيل حشرة، عندما أحست به يقف خلفها.. ثم أحست به ملتصقا بها.. بجسدها.. وارتعشت وهى لا تزال تطل فى الميكروسكوب.. ولكنها لم تعد ترى شيئا تحت العدسة.. لم تكن ترى سوى سحب من انفعالاتها لا تستطيع أن تفسرها.. ثم أحست به يميل بوجهه إليها، وخده يكاد يصطدم بخدها، وقال فى صوت هامس مبحوح :

– الميكروسكوب كويس ؟! وريني كده ! ورفعت رأسها عن

الميكروسكوب، وقامت واقفة، وابتعدت عنه وهى تنظر إليه وعيناها متهدجتان، كأن ضربات قلبها تطل من عينيها.. وانحنى أمين فوق الميكروسكوب، وأخذ يعبث فى مفتاح العدسة، واستطرد :

- ما كانش مضبوط قوى.. دلوقتى بأه كويس..

ثم رفع رأسه وقرب وجهه من وجهها كعادته، واستطرد وهو يحاول أن يحتفظ بصوته طبيعيا :

- فوتى على فى المكتب بعد المعمل.. فيه حاجات عايز أقولها لك.

وقالت فى تردد :

- حاضر.

لقد أحست ساعتها أن ما يريد أن يقوله لها، ليس متعلقا بالحشرات، ولا بالعلم.. ولكنها رغم ذلك كذبت نفسها.. إنها لا تريد أن تصدق أنها فتاة، وأن هناك شابا يمكن أن يعجب بها.. وأن يحبها.. وأن يحادثها فى شىء آخر غير العلم..

وذهبت إليه فى مكتبه، وهى لا تزال مترددة بين تصديق أحاسيسها، وبين تكذيبها.. وجلست وبينه وبينها مكتبه.. ثم مد لها يده بمجموعة من الأوراق قائلا :

- دى مذكرات فى التشريح تساعدك قوى.. انقليها، ورجعيها لى تانى.

وقالت فى صوت جاد دون أن تبتسم :

- متشكرة.

وقال وهو يميل بظهره إلى الوراء كأنه يستعد لحديث طويل :

- تعرفى أنى مسافر بعثة لأمريكا السنة الجاية ؟

قالت وهى لا تزال محتفظة بمظهرها الصارم :

- مبروك.

قال وهو ينظر إليها بعينيه الجاحظتين الغائمتين خلف زجاج نظارته :

- مانفسكيش تروحى أمريكا.

قالت :

- طبعا كل واحدة تحب إنها تروح بعثة لأمريكا أو روسيا أو أى بلد.

قال وابتسامة كبيرة تنسكب من بين شفتيه :

- أنا أعتقد أن الواحد ما يصحش يروح بعثة إلا إذا كان متجوز..

علشان يقدر ينظم حياته هناك، ويتفرغ لدراسته.. مش تفتكرى كده برضه!
وانتفضت واقفة، وقالت فى حدة :
- السؤال ده ما أقدرش أجاوب عليه.. وما فكرتش فيه.. عن اذنك بأه!
وقام واقفا، وخرج من وراء مكتبه واقترب منها، وقال وهو يقرب وجهه من وجهها :
- حاولى تجاوبى على السؤال ده.
ونظرت إليه نظرة غاضبة، وقالت وهى تكتم حدتها حتى لا تصرخ فى وجهه :
- أنا متشكرة على المذكرات.. عن اذنك!
وخرجت من الغرفة.
إنها تعرف الآن ماذا يريد؟
يريد أن يتزوجها.
أول شاب يبدى رغبته فى الزواج بها.
إنها بنت.. وهى ليست جميلة.. واسمها مفيدة.. ولأنها بنت وليست جميلة، واسمها مفيدة، فلا يمكن أن يتقدم للزواج بها إلا شاب كأمين عبد السيد.. قبيح الوجه، ثقيل الظل، تنفر منه كل الطالبات ويشهرن به.. لو كان شابا جميلا محبوبا لتقدم للزواج من أختها ليلى أو من أختها نبيلة !
ولكنه شاب ناجح فى الجامعة، ومرشح لبعثة إلى أمريكا.. إن مستقبلا كبيرا فى انتظاره.. مستقبل علمى.. ربما يصبح عميدا لكلية العلوم، أو عالما من علماء مصر.. فلماذا لا تتزوجه ؟
لماذا ؟!
لا.. لن تتزوجه.. إنها لن تقبل زوجا أقل من الأزواج الذين تتمناهم البنات.. زوجا يحسدها عليه كل البنات.. زوجا جميلا، يحبها وتحبه، هل لأنها ليست جميلة كأختها، تقبل أول من يتقدم إليها ؟
ثم إنها لا تحبه.. فلماذا تتزوجه ؟
وهو.. هل يحبها.. لا تدرى ولكنها تحس أن دوافعه ليست الحب.. ليست الحب وحده.. قد تكون هناك دوافع أخرى لا تعرفها، أو على الأصح لا تريد أن تصارح نفسها بها.
وظلت فيفى متخبطة فى حيرتها.. وانطلقت كل عقدها النفسية الراسبة

فى عقلها الباطن إلى السطح.. أصبحت تحس بأنوثتها.. وأصبحت تحس بأنها ليست جميلة كأختها.. وبدأت تتصرف تصرفات غريبة جديدة عليها.. أضبحت تقف أمام مرآتها أحيانا، وتهتم بتسريح شعرها، وقد تقترض من أختها مشبكا أنيقا تشبكه فيه، أو تقترض من أمها علبة الكريم لتدهن وجهها به قبل أن تنام.. ثم فجأة تعود إلى اهمال مرآتها، واهمال شعرها، واهمال وجهها.. ثم بعد أيام تعود ثانية إلى المرآة، وفى يدها ملقاط وتبدأ فى تجميل حاجبيها.. وقد تقرر أن تصنع لنفسها ثوبا حريريا غاليا، كالثياب التى ترتديها أمها وأختها ليلى، وتشترى القماش فعلا، ثم تعود وتعدل عن صنع الثوب وتهمل القماش الذى اشترته.

أصبحت حائرة بين شخصيتها كفتاة تضج بالأنوثة، وشخصيتها كفتاة أهملت أنوثتها وتفرغت للعلم، ودراسة الحشرات.

وفى خلال ذلك ازدادت أعصابها توترا، واشتد سخطها عن كل ما حولها، واشتدت سلاطة لسانها.. وبدأت تصد عنها الاستاذ أمين عبدالسيد.. استغنت عن المساعدات العلمية التى كان يقدمها لها، وتعمدت التهرب منه.. ولكنه كان يلاحقها، ويصر على ملاحقتها.. إنه يستوقفها كلما مر بها، ويتعمد التقرب إليها فى المعمل، ويضع عينه فى الميكروسكوب الذى تطل منه على الحشرات، ويحادثها فى فناء الكلية أمام زملائها وزميلاتها.. وكانت تتجهم فى وجهه، وتلسعه بلسانها السليط.. ثم يوما بعد يوم، أصبحت تجد لذة فى ملاحقته لها، وفى صدها له.. أصبح أمين يرضى غرورها كفتاة.. الغرور الذى حرمت منه زمنا طويلا.. وعندما بدأ الطلبة والطالبات يتحدثون عنها وعنه، شعرت بلذة أكبر.. لقد قضت سنتين فى الكلية دون أن يتحدث عنها أحد.. كان لكل طالبة حديث.. وقصة حب.. ما عدا هى.. هى وحدها التى لم يحاول أحد من الزملاء أن ينسب لها قصة حب أو يروى لها مغامرة.. إلى أن اقتحم الاستاذ أمين عبدالسيد حياتها.. وبدأت جدران الكلية تتندر بحبه وملاحقته لها.. وشعرت بلذة.. لم تكن تعلم أن حديث الناس عنها يمكن أن يثير فيها مثل هذا الشعور اللذيذ الخبيث.. الشعور الذى يرضى الغرور.. وقد حاولت أن تنكر على نفسها هذا الشعور.. هذه اللذة.. حاولت أن تثور على زملائها وزميلاتها الذين يتحدثون عنها.. ولكنها كانت فى قرارة نفسها راضية، تختال زهوا

بالهمسات التى تدور حولها، وبالمعيد الشاب الذى يلاحقها.. بل أصبحت ملاحقة أمين لها بعض غذائها.. رغم أنها تعلم أنها لا تحبه، ورغم أنها تنفر منه ومن سماجته وثقل ظله.. كانت تذهب إلى الكلية كل صباح وهى فى انتظار أن يقبل عليها أمين ويقرب وجهه من وجهها، ويطل عليها بعينيه الجاحظتين من خلف نظارته السميكة وينفث انفاثه الكريهة حولها.. بل إنها أحيانا كانت تتعمد أن تبحث عنه، وتمر فى طريقه حتى يستوقفها، فتتجهم فى وجهه، وتصده بلسعات لسانها.

إلى أن كان هذا الصباح، وأعلنها أمين أنه سيأتى لزيارة أهلها، ليطلبها للزواج.

هل تتزوجه؟

لا.. قطعا، لا.

إنها لا تحبه.. إنها تنفر منه.. وإذا كان قد أرضى غرورها بملاحقته، فهذا لا يكفى لتقبل الزواج منه.

وخبطت فيفى بيدها فوق الكتاب المفتوح أمامها، بحركة لا إرادية، وهمست لنفسها : لا.. لا.

وأختها ليلى لا تزال فى حجرة الصالون تعزف على البيانو أنغاما صاخبة عنيفة تملأ البيت كله.. ونبيلة لا تزال تروح وتغدو فى البهو الخارجى وهى تقرأ بصوت عال أبياتا من الشعر الانجليزى.

وفجأة توقفت ليلى عن العزف.

ولم تحس فيفى بأن اختها توقفت عن العزف، وأن الضجة سكتت من حولها، كانت لا تزال هائمة وراء أفكارها.. ثم تنبهت عندما دخلت إليها ليلى. وارتكزت بيديها على حافة المكتب، وقالت فى غضب مفتعل، وبين شفتيها نصف ابتسامة :

– تسمحى تتخانقى.

ونظرت فيفى فى وجه أختها، وقالت فى دهشة :

– ليه ؟

وقالت ليلى وهى لا تزال تدعى الغضب :

– بقالى ساعة باضرب على البيانو وأخبط عليه بصوابعى العشرة علشان أسمعك تتخانقى زى عوايدك، وحضرتك ولا أنتى هنا.

وقالت فيفى وهى تبتسم ابتسامة ضعيفة باهتة :

- ماليش نفس اتخانق النهاردة.

وصرخت ليلى :

- ماهو أنا كمان ما أقدرش أعيش من غير ما تتخانقى معايا.. يا تتخانقى، يا أموت نفسى.

وقالت فيفى وهى تخفى عينيها عن أختها حتى لا تقرأ فيهما حيرتها :

- والنبى تسيبينى يا ليلى.. أنا عايزة أذاكر!

ونظرت ليلى إلى أختها فى اشفاق، ثم انحنت فوق المكتب حتى أصبح وجهها قريبا من وجه اختها، وقالت فى صوت يسرى كغدير من الحنان :

- مش حاتحكيلى ؟

وقالت فيفى وهى ترفع عينيها إلى أختها، ثم تعود وتخفضهما :

- أحكيلك على ايه ؟

قالت ليلى :

- على اللى بتفكرى فيه.. على اللى مضايقك.. ده أنا عمرى ماشفتك زى النهارده.

وقالت فيفى :

- أبدا.. مافيش حاجة.. بس زهقانة من نفسى.

وسكتت ليلى، وهى لا تزال تنظر إلى أختها كأنها تبحث عن طريق تصل منه إلى قلبها وعقلها.

وسمعا رنين جرس التليفون.

والتفتت فيفى ناحية الرنين، لفتة مباغتة أثارت انتباه ليلى؛ فنظرت إليها أختها فى دهشة إن فيفى لم تهتم أبداً برنين جرس التليفون.. بل أن أحدا لا يتصل بها بالتليفون إلا نادرا.. نادرا جدا.. حتى صديقاتها لم يتعودن الاتصال بها.

وخرجت ليلى إلى البهو لترد على التليفون، ولكنها وجدت نبيلة قد سبقتها إليه، وسمعتها تقول للمتحدث :

- نقول لها مين يا أفندى.

ثم رفعت نبيلة سماعة التليفون عن أذنها، ووضعت كفها على فوهته، وهمست لليلى وفى عينيها دهشة :

- واحد عايز فيفى.. اسمه أمين عبدالسيد !
وقالت ليلى وهى ترد دهشة أختها، بدهشة أكبر منها :
- فيفى !!
وقالت نبيلة :
- أيوه.. فيفى !!
ثم رفعت سماعة التليفون إلى أذنها وقالت فى صوت مهذب :
- دقيقة واحدة من فضلك..
وجرت ليلى إلى غرفة المكتب، وقالت وعلى وجهها فرحة كأنها تزف لأختها بشرى :
- التليفون يا فيفى.
وصرخت فيفى وقد احتدت نظراتها وبدت كأنها تنشب أظافرها وأسنانها فى الهواء :
- قولى له مش موجودة.. نامت.. ماتت.
وقالت ليلى وقد فوجئت بصرخة أختها :
- ده واحد اسمه أمين عبدالسيد.
وقالت فيفى وهى لا تزال تصرخ :
- عارفة.. مش عايزة أكلمه.
وقالت ليلى كأنها تستعطفها :
طيب مش تشوفيه عايز ايه !
وعادت فيفى تصرخ :
- قلت لك إنى مش عايزة أكلمه.. اقفلى السكة فى وشه..
وقالت ليلى وهى تنظر إلى أختها فى اشفاق :
- متزعقيش كدة، أحسن ماما تسمعك !
واشتد صراخ فيفى قائلة :
- أنا مش خايفة من ماما أنا مابعملش حاجة أخاف منها من حد.. روحى اقفلى السكة فى وشه، وإلا ورحمة باب أقوم اكسر التليفون.
وترددت ليلى قليلا ثم تركت أختها، وخرجت إلى البهو واستقبلتها نبيلة هامسة وسماعة التليفون لا تزال فى يدها :
- مالها ؟!

وهمست ليلى :

- مش عايزة تتكلم.. هاتى.

وأخذت سماعة التليفون من يد أختها.

- يا أستاذ أمين.. فيفى تعبانة شوية، تسمح تتكلم بعد ساعة.. ولا أقول لك .. اتكلم بكرة.

وسمعت صوت أمين يقول لها :

- مالها، بعد الشر.

وصدمت وهى تسمع صوته.. خيل إليها أنه رجل عجوز فى الثمانين من عمره.. وقالت فى صوتها الرقيق :

- مافيش حاجة.. شوية صداع.. اتكلم بكرة.. بونسوار !

ووضعت سماعة التليفون، ثم التفتت إلى أختها نبيلة قائلة فى همس، كأنها تحادثها عن سر خطير :

- انتى تعرفى حاجة ؟

وأجابت نبيلة وهى تهز كتفيها :

- أبدا.

وقالت ليلى :

- يظهر إنها حكاية كبيرة.. دى فيفى على آخرها !

ثم تركتها وعادت إلى فيفى، وأطلت عليها بعينين متسائلتين وقبل أن تتكلم، صاحت فيها فيفى :

- مش حاأقول لك حاجة.. ومن فضلك تسيبينى لوحدى.. عايزة أذاكر.. هيه الواحدة ماتعرفش تذاكر فى البيت ده.. ولا عايزانى أسقط.

وابتسمت ليلى فى حنان، ونظرت إلى أختها كأنها تربت عليها برموش عينيها، وقالت فى هدوء :

- حاضر.. بس ماتزعليش نفسك !

وانسحبت ليلى ، واتجهت إلى غرفتها - «أودة البنات» كما تسميها أمها - وابتسامتها لا تزال بين شفتيها.. لقد كانت تتمنى أن تجد اختها فيفى شابا تحبه ويحبها.. أو على الأقل تحادثه ويحادثها فى التليفون.. كانت تعتقد أن أختها لا ينقصها إلا الحب، وأن العلاج الوحيد لتوتر أعصابها وسخطها هو الحب.. وقد وجدت فيفى الحب أخيرا.. ولابد أنها

ستحدثها عنه قريبا.. كما حدثتها نبيلة عن حبها لمحمود. لقد عودتها اختها على أن يطلعها على كل أسرارها.. ولكن هل تستطيع هى أن تقول لهما أنها تحب فتحى، تحب رجلا متزوجا يكبرها بعشرين عاما.

ووقفت ليلى أمام مرآتها، تخلع ثيابها وترتدى قميص النوم، وفتحى يملأ قلبها وعقلها.

إنها لا تحس أن حبها جريمة.. إنها تتمنى أن تعلنه للناس كلهم.. لأختيها.. لأمها.. لأخويها أحمد وممدوح.. ولخالها أيضا.. إنها تفخر بحبها.. تتباهى به.. إنه حب يملأ حياتها بالنور.. وماذا لو أحبت رجلا متزوجا.. ماذنبها وما ذنبه إذا كان متزوجا.. وما الفرق بين حب رجل أعزب ورجل متزوج.. إنه الحب دائما.. وإذا كان الله يبارك الحب، وإذا كان الناس يعترفون بالحب، فالله يبارك حبها، والناس يجب أن تعترف بحبها.

ورغم ذلك فهى لا تستطيع أن تبوح بحبها. لا تدرى لماذا؟ إن الناس يفرضون عليها ألا تبوح به حتى لو اعترفوا به.. والناس ليسوا حولها، ولكنهم فى داخلها.. فى داخل نفسها.. إنها تحس بهم فى صدرها يشيرون إليها، ويهمسون فى صوت كالفحيح : «هس.. اسكتى.. لا تبوحى بحبك.. إننا لا نسمح لك بالبوح به».. الناس كلهم بما فيهم أختاها.

ورقدت ليلى فى فراشها، ولم تنم.. عيناها مفتوحتان كنافذة تطل منهما على فتحى.

وفى الساعة الثانية عشرة جاءت نبيلة.. وتظاهرت ليلى بالنوم، حتى لا تحادثها.

ورقدت نبيلة فى فراشها، ولم تنم أيضا.. عيناها مفتوحتان تطل منهما على محمود.

ثم جاءت فيفى.. وأختاها تتظاهران بالنوم.. ورقدت فى فراشها هى الأخرى، لم تنم.. عيناها تطلان على أمين.

ثلاث بنات عيونهن مفتحة فى الظلام.

● ● ●

وكانت الساعة السابعة والنصف صباحا عندما فتحت فيفى عينين مكدودتين تحملان بصمات الأرق.. وقامت من فراشها ووجهها متجهم كأنه ليس فى حياتها صباح.. وفتحت «شيش» الشرفة فانسكب سيل من النور

داخل الغرفة.

ولسع الضوء عينى نبيلة ففتحتهما، ثم عادت وأغمضتهما سريعا وهى تتقلب على جنبها الآخر، وقالت من بين شفتيها النائمتين.

- أقفلى الشيش يا فيفى.. حرام عليكى.

وقالت فيفى وهى تتجه خارج الغرفة :

- الساعة بقت تمانية.. قومى بأه بلاش كسل.

وقالت نبيلة وهى تحكم إسدال جفنيها فوق عينيها، كأنها تسجن خلفهما النوم حتى لا يهرب منها :

- مش قايمة.. مش حاحضر المحاضرة الأولى.

وقالت فيفى فى سخط وقد وصلت إلى الباب :

- ولا الأولى.. ولا التانية.. ولا التالتة.. كلية الآداب مافيهاش محاضرات.. فيها بوفية !

ولم ترد نبيلة .

وفتحت ليلى عينيها، ثم جذبت الغطاء فوق وجهها، وعادت تحاول النوم، دون أن تتكلم.

وذهبت فيفى إلى الحمام، وهى تسير فى قميص نوم من قماش «الفيللا»، لونه أزرق، طويل الأكمام، مقفول عند الرقبة واسع، بسيط.. تبدو فيه كصبى فى مقهى بلدى.

وعادت من الحمام، وهى سارحة، تعد فى رأسها كلاما ستقوله للأستاذ أمين عبدالسيد.. ستقول له إنه ليس من حقه أن يحادثها فى التليفون.. وأن ملاحقته لها قد أساءت إلى سمعتها .. وستهدده بأن تشكوه إلى العميد.. ستقول له كلاما كثيرا.. ستنتقم فيه من حيرتها ومن أرقها، ومن شرودها.

وارتدت ثيابها على عجل كأنها تجرى نحو الأستاذ أمين لتصب ثورتها فوق رأسه.. ثم حملت كتبها ومعطفها الأبيض الذى ترتديه فى معامل الكلية.. ومرت على حجرة الطعام، وصبت لنفسها فنجاناً من الشاى رشفت منه رشفتين، ثم التقطت قطعة صغيرة من الخبز حشتها بالجبن، وأكلتها، ثم خرجت.

وسارت على قدميها، وعبرت كوبرى عباس، ثم اتجهت إلى شارع

الجيزة، ثم إلى الجامعة.. دون أن تحس ببرودة الصباح.

ووصلت إلى كلية العلوم، خلف مبنى قاعة الاحتفالات.. واتجهت إلى مبنى قسم البنات.. واستوقفها عند الباب طالب أسمر قصير، وقال وبين شفتيه ابتسامة مهذبة :

- صباح الخير يا آنسة مفيدة.

وقالت فى صوت جاد :

- صباح الخير.

وقال الشاب فى رجاء :

- أقدر استلف منك محاضرات الكيميا.. ساعة واحدة بس، أنقلها، وأرجعها لك.

وقالت دون أن تبتسم :

- آسفة.. مش معايا.. سبت كراسة المحاضرات فى البيت.

وسحب الشاب ابتسامته، وابتعد قائلا وهو يلوى شفتيه :

- متشكر.

ووقفت برهة دون أن تتلفت حولها.. ثم سارت إلى قاعة المحاضرات.. إنها تنتظر فى كل لحظة أن يفاجئها أمين بخلقته، ونظارته السميكة، وابتسامته اللزجة .

ولكن أمين لم يفاجئها.

ودخلت إلى قاعة المحاضرات، ولجست فى مكانها الذى تعودت أن تجلس فيه.. وجاءت زميلتها فاطمة، وجلست جانبها، وقالت لها هامسة وهى تميل نحوها برأسها :

- ايه أخبارك ؟

وقالت فيفى وهى تنظر إليها، فى ريبة :

- ولا حاجة كويسة !

وقالت فاطمة وهى تبتسم ابتسامة كبيرة :

- إخص عليكى .. بتخبى علىّ !

وقالت فيفى وهى تدير عينيها عنها :

- ابدا.. مافيش حاجة أخبيها.

وقالت فاطمة وهى تنظر إليه فى خبث :

- سمعت أن المسألة وصلت للجواز.. و...

والتفتت إليها فى حدة، وقاطعتها فى صوت هامس تحشرجه ثورتها :

- مافيش مسألة.. ومافيش جواز.. كل اللى بتسمعيه كذب.. تشنيع.. وانتى عارفة إنى مش بتاعة حاجات زى دى.

وأبعدت فاطمة رأسها عنها، وقالت وابتسامتها الخبيثة بين شفتيها :

- طيب ماتزعليش.. خلاص.. آسفة !

ولم تسمع فيفى شيئا من المحاضرة.. كانت ثورتها تملأ قلبها وأذنيها.. وخرجت بعد المحاضرة تسير فى فناء الجامعة، وكل قطعة منها متحفزة للقاء الاستاذ أمين عبدالسيد، لتنطلق فى وجهه.. لتصفعه.. ولكن الأستاذ أمين لم يظهر.

ودخلت فيفى المحاضرة الثانية.. والثالثة.. والرابعة.. وهى تخرج من كل محاضرة، وتجوب فى فناء الكلية، وفى ممراتها، لعلها تلتقى بأمين.. وتحرص دائما على أن تكون وحيدة، حتى إذا التقت به، استطاعت أن تطلق كل ثورتها فى وجهه، دون أن تراعى وجود أحد معهما.

ولم تلتق به.

وبدأت تتعب من ثورتها، ومن تحفزها، ومن توتر أعصابها.. أحست أنها تريد أن تلقى بجسدها على الأرض، وتبكى.. ثم تنام.

وذهبت إلى بوفيه الكلية، وألقت نفسها فوق مقعد، كأنها تلقى ثورتها عن كتفيها.. وطلبت زجاجة كوكاكولا.. وعلى المائدة المجاورة تجلس اثنتان من زميلاتها.. وقالت احداهما بصوت عال كأنها تتعمد أن تخرق به أذنى فيفى :

- وبيقولوا أنهم حايتجوزوا قريب.

وقالت الزميلة الثانية فى تهكم :

- طبعا يا ستى.. ما هو خالها يبقى وكيل وزارة.

وعادت الأولى تقول :

- ومش بس كده. ده عندها عمارة فى شارع سليمان باشا.

وقالت الثانية :

- على كل حال هى الخسرانة.. ده كفاية نظارته وتقل دمه.

وسمعت فيفى كل هذا الكلام.. وارتعشت زجاجة الكوكولا فى يدها،

كأنها أصيبت فجأة بالحمى.

ماذا تفعل ؟

هل تصرخ فى زميلتيها، وتقذفهما بزجاجة الكوكاكولا، وتطلق فضيحة فى الكلية ؟!

لا.

وضغطت على شفتها السفلى بأسنانها البارزة بروزا خفيفا، حتى أحست بالألم على ضبط أعصابها.. ثم وضعت زجاجة الكوكاكولا فوق المائدة بعنف كأنها تحطمها فوق رأس زميلتيها ثم قامت دون أن تنظر إليهما وسارت فى خطى سريعة مهتزة، واتجهت نحو الغرفة المخصصة للأستاذ أمين عبدالسيد فى الكلية، ورموشها تهتز فوق عينيها كأنها تطرد من فوقها غمامة سوداء، لا تستطيع أن ترى طريقها من خلالها.

ونقرت على باب الغرفة نقرات عصبية سريعة، ثم لم تنتظر أن تسمع صوتا يسمح لها بالدخول.

دخلت.

وكان جالسا خلف مكتبه، مرتديا معطفه الأبيض.. معطف المعمل.. وأمامه ميكروسكوب يطل فيه من خلال نظارته السميكة وفى يده قلم يدون به ملاحظاته.

ورفع رأسه، ونظر إليها، وبين شفتيه ابتسامة هزتها المفاجأة، وقال كأنه يلتقط أنفاسه :

– أهلا.

وصرخت فيه وقد احتقن وجهها :

– ازاى حضرتك تسمح لنفسك أنك تضرب لى تليفون امبارح.. أنا ماسمحلكش. احنا بنيجى الجامعة علشان نتعلم، مش علشان الاساتذة يضربوا لنا تليفونات.

وهم بأن يقوم من على مقعده، ثم عاد وجلس، كأنه يتحصن وراء مكتبه من ثورتها، وقال فى ارتباك :

– أنا ضربت لك تليفون علشان استأذنك فى انى أزوركم فى البيت.. وانتى عارفة أن قصدى نبيل، و..

وعادت تصرخ :

- ما يهمنيش إذا كان قصدك نبيل ولا مش نبيل.. يهمنى أنك تبعد عنى.. الطلبة كلهم بقوا بيتكلموا عنى، والكلية اتملت اشاعات.. أنا عمرى ما حصلى كدة.. وأنت عارف إنى مش زى بقية البنات.. يعنى عايزنى أعمل ايه.. أروح اشتكى للعميد، ولا أبطل آجى الجامعة.

وكانت الكلمات تخرج من بين شفتيها فى سرعة وحدة، كأنها طلقات مدفع رشاش أهوج، أقوى من اليد التى تمسك به.. وازداد وجهها احتقانا.. ويداها ترتعشان.. ثم لم تعد تحتمل ثورتها، فانبثقت الدموع من عينيها.. وحاولت أن تقاوم دموعها، ولم تستطع، فأجهشت بالبكاء.. وسقطت جالسة فوق مقعد بجوار المكتب، وأخرجت منديلها الصغير تحاول أن تصد به نهر الدموع، وتكتم به نشيجها.

وخرج أمين من وراء مكتبه، وتقدم منها وهو مرتبك، وارتباكه يشوبه ذهول.. ثم هم أن يمد يده ليربت على كتفها ولكنه عاد وسحب يده، ووقف قبالتها يحاول أن يتكلم، وارتباكه يخنق كلماته.. ثم قال فى صوت محشرج:

- أنا آسف.. آسف جدا.. ماكنتش فاكر أنى باضيقك للدرجة دى.

وسكت قليلا، وهو ينظر إليها بعينين ترتعشان خلف زجاج نظارته، ثم عاد يقول وفى صوته رنة اخلاص :

- ارجوكى.. كفاية عياط.. أنا مش عارف أعمل ايه علشان اعتذر لك.. كل اللى اقدر أعمله أنى أعدك بأنى مش حاضيقك بعد كدة.

وجففت دمعها بمنديلها الصغير، وقامت واقفة، وهى تقول وقد هدأ صوتها قليلا :

- أنا ما بعيطش.. أنا بس عصبية النهاردة.

وابتسم ابتسامة مسكينة، وقال وهو ينظر إلى بقايا دموعها

- ارجوكى ماتزعليش منى.

وقالت وهى تبتعد عنه خطوة :

- إنت خلاص وعدتنى.. وأنا حاصدق وعدك..

واحنى رأسه كأنه يندم على وعده، ثم رفع رأسه وقال فى كلمات بطيئة كأنه يشرح نظرية عويصة :

- أنا باعتقد أن العلاقات بين الناس زى تجارب الكيميا.. كل اتنين

يعرفوا بعض بيعملوا تجارب على بعض.. ويمكن تكون نتيجة التجربة صداقة، أو حب، أو عداوة.. إنما النتيجة دى مابتبانش من أول تجربة.. لازم الواحد يعمل تجارب كتير لغاية ما يحدد علاقته بالتانى.. ما فيش حاجة اكتشفوها إلا بعد مئات التجارب.

قالت وقد هدأت :

– قصدك ايه.. مش فاهمة.

قال وهو ينظر إلى بوز حذائه :

– قصدى أن لسه عندى أمل.. لسة قدامنا محاولات وتجارب كتير.

ورفعت إليه عينين غاضبتين، فاستطرد دون أن يترك لها فرصة الكلام:

– أرجوكى.. ماتزعليش منى.. أنا وعدتك إنى مش حاضايقك.. مش حاطلب منك حاجة.. مش حاضربلك تليفون، ولا حزوركم فى البيت.. إنما ما أقدرش إنى حافقد الأمل.. ومش من حقك أنك تطلبى منى أنى أفقد الأمل.. الأمل ده من حق كل واحد.

قالت وهى تتعجب لرنة صوته، كأنها تسمعها لأول مرة :

– أؤكد لك إن ما فيش أمل.. ماتتعبش نفسك.

قال وهو يبتسم :

– إذا كان انتى ما عندكيش أمل، أنا لسة عندى أمل.

وسكتت برهة، ثم قالت دون أن تنظر إليه :

– على كل حال.. كفاية أنك ما تضايقنيش، وأنك تخاف على سمعتى فى الكلية.

قال وهو يسير وراءها حتى الباب :

– أنا باخاف عليكى أكتر ما بخاف على نفسى.

وخرجت، وهو ينظر خلفها، وفى عينيه الجاحظتين قطرات من اللوعة.

ولم تحاول فيفى أن تبقى فى الكلية بعد ذلك.. سارت بخطوات سريعة دون أن تلتفت إلى أحد من زملائها أو زميلاتها، كأنها لا تريد أن ترى وجوههم حتى لا تنشب أظافرها فيها.. وفى عقلها ضجيج.. وفى صدرها بقايا زوبعة.. وفى أذنيها صوت زميلتيها اللتين كانتا تتحدثان عنها فى البوفيه.. ورن صوت إحداهما وهى تقول :

« ده خالها وكيل وزارة.. » ورن صوت الأخرى وهى تقول «دول عندهم

عمارة فى شارع سليمان».. إن زميلاتها يبخلن عليها بالحب.. حتى لو كان حب إنسان كالاستاذ أمين عبدالسيد.. لا أحد يمكن أن يحبها، لأنها ليست جميلة، ولأنها شرسة، ولأن اسمها مفيدة.. والذى يتقدم إليها بالزواج لا يريدها لنفسها، ولكن لأن خالها وكيل وزارة، ولأن أمها تملك عمارة.. وهى تعرف هذه الحقيقة.. وكانت تعرفها دائما.. ولكنها كانت تتجاهلها.. كانت تكذب نفسها عنها، حتى تحتفظ بغرورها وكبريائها.

وأحست بصدى صوت زميلتيها يتساقط فى رأسها كقطع الحجارة.. كأن زميلاتها كلهن قد اجتمعن وأخذن ينظرن إليها ساخرات، ويرجمنها بالطوب.

وبدأت تحس بكرامتها تنزف فى صدرها.. ولكن صوت أمين ارتفع فى مخيلتها.. كما سمعته أخيرا.. لقد كانت فى صوته رنة اخلاص.. وحب وكان مرتبكا أمامها كأنه طفل، رغم أنه يحرص دائما على أن يحتفظ بمظهر الأستاذ، وغرور الاستاذ.. لماذا لا تصدق حبه؟ وحتى لو كانت لا تحبه، فلماذا لا ترضى غرورها بتهافته عليها.. إنه - رغم كل عيوبه - معيد فى الجامعة.. وشاب ناجح.. وكل زميلاتها يتمنينه زوجا.. قد لا تحبه واحدة منهن، ولكن ليس بينهن واحدة ترفض الزواج به.. فلماذا لا تتباهى عليهن بأنها الوحيدة التى طلبها للزواج.. وحتى لو كان يريد أن يتزوجها لأن خالها وكيل وزارة، ولأن أمها تملك عمارة، فهو ليس أقل منها.. أنه معيد، ومرشح للسفر إلى أمريكا، وهى مرشحة للسفر معه.

واتسعت خطواتها، وهى تحاول أن تطرد مشكلتها من رأسها.. لماذا تشغل نفسها بها إلى هذا الحد؟ إنها لا تحب أمين.. ولن تتزوجه.. لماذا لا تأخذ المسائل ببساطة؟ لماذا تعذب نفسها كل هذا العذاب؟ ربما لأن أمين هو أول شاب فى حياتها يتجرأ على مغازلتها.. ويعاملها كبنت.. ويلمح لها بالزواج.

وانحرفت فى سيرها ناحية كلية الآداب، وقد قررت أن تبحث عن أختها نبيلة، لعلها تعود معها إلى البيت ، وتشغلها عن أفكارها.

واقتربت من كليه الآداب، ولمحت فتى وفتاة جالسين على الأرض تحت شجرة، وبينهما كتاب.. وفتاة تسير كمارلين مونرو وقد ارتدت ثوبا واسعا ارتفع ذيله فوق أربع «جيبونات» وشدت حول خصرها حزاما فضيا ضيقا

كأنه دبلة الخطوبة.. وفتاة أخرى صبغت وجهها بالاصباغ.. فوق شفتيها أحمر غامق.. وحول عينيها خط من الكحل كأنه بطاقة الليل و «حسنة» صغيرة رسمتها فوق خدها.. وفتاة رابعة واقفة تتمايل فوق اطراف أصابع قدميها، كأنها ترقص المامبو، وحولها أربعة من الشبان يضاحكونها كأنهم يعزفون لها لحنا ترقص على أنغامه.

إن عينيها لا تلتقط اليوم إلا البنات السعيدات.. وهى لا تحس بالسخط كعادتها.. تحس بحسد هادىء كأنها تغبط هؤلاء الفتيات على حظهن من الحياة.. وتتصور نفسها مكان كل فتاة منهن.. تتصور نفسها جالسة على الأرض مع شاب تحت ظل شجرة.. وتتصور نفسها مرتدية هذا الثوب الواسع وحول خصرها هذا الحزام الضيق.. وتتصور نفسها وقد صبغت شفتيها، وكحلت عينيها، ورسمت حسنة فوق خدها.

وتتصور نفسها تتمايل على أطراف قدميها وحولها باقة من الشبان.

وتنهدت فيفى وبدأت تطوف بأنحاء كلية الآداب بحثا عن نبيلة.. مرت بين موائد البوفيه المنتشرة فى الفناء.. ثم دخلت إلى البوفيه الآخر الذى يقع فى بدروم الكلية، وطافت عيناها وسط الضجيج والمناقشات الحادة.. ثم أخذت تجوب فى ممرات الكلية، وسألت فتاة، وفتاة أخرى من صديقات نبيلة.. وأخيرا لمحتها واقفة فوق السلالم العريضة التى تؤدى إلى الباب الخارجى، وهى تتلفت حولها فى حيرة :

واقتربت منها، وقالت فى هدوء كأنه استعطاف :

– مش مروحة يا نبيلة ؟!

وفوجئت بها نبيلة، وقالت بسرعة كأنها تطردها عنها :

– لأ.. أنا لسة عندى محاضرة.

وقالت فيفى فى ضعف ومسكنة :

– طيب.. أنا مروحة.

وابتعدت.

وتركت نبيلة واقفة على السلم تتلفت حولها فى حيرة.

٦

• محمود •

كانت نبيلة واقفة على سلم كلية الآداب تتلفت حولها فى لهفة، وتبحث بعينيها عن محمود.. لقد كذبت على أختها عندما قالت لها: إنها فى انتظار حضور المحاضرة.. إنها لن تحضر المحاضرة.. بل ليس هناك محاضرة لتحضرها.. وهى لا تدرى لماذ كذبت على أختها؟ لقد كانت تستطيع أن تقول لها إنها فى انتظار محمود، دون أن تخشى شيئا.. فأختها تعلم علاقتها بمحمود.. تعلم أنها تحبه، وأنه يحبها، وقد انقضى على حبهما أكثر من عام.. ولكن يبدو أن الحب يختبىء دائما وراء الكذب.. لا.. ليس هذا كذبا.. إنه نوع من الخفر.. نوع من الحياء الجميل.. إن الحب يدارى نفسه دائما.. خلف جذع شجرة، أو فى الأماكن الخالية، حتى لا تخدش رقته عيون الناس.. إن الحب يكتفى بنفسه، لا يريد شيئا إلا أن يخلو القلبان أحدهما بالآخر.. فيهرب بهما بعيدا.. وقد يضطر إلى الكذب، ليختبىء.. وربما كان هذا الكذب نوعا من الخوف.. إن الحب كالطفل الصغير يرتبك ويرتعش عندما يواجه زحام الحياة.. أو هو نوع من الاعتزاز.. إن الإنسان يخفى نقوده داخل محفظة، ويخبىء المحفظة داخل جيبه، لا لأن النقود عورة لا يجب أن يراها الناس، بل لأنها غالية ثمينة، فيضن بها على أن يعرضها للناس، ولا يسمح لأحد بأن يسأله: «كم معك؟».. وكذلك الحب.. إنه شىء غال ثمين، يخفيه صاحبه عن العيون، حتى لا يصيبه حسد أو يفسده تدخل غريب..

ولكن نبيلة لم تكذب على أختها فحسب، فقد سبق لهاأن كذبت على أخيها أحمد بعد أن رآها تسير على شاطىء النيل ويدها فى يد محمود.. كذبت كذبة أكبر.. كذبة متعمدة.. كذبة ليست بيضاء.. لقد قالت له: إنها

ومحمود قد قررا الزواج.. وهما لم يقررا شيئا.. وفى خلال العام الذى مضى على حبهما لم يفاتحها محمود فى الزواج.. ورغم ذلك فهى تحس أن حبها لابد أن ينتهى إلى الزواج.. ليس له طريق إلا الطريق إلى المأذون.. ومنذ أن عرفت أنها تحب محمود، وهى تعتبر نفسها زوجة له.. وتكاد ترى فى خيالها صورة بيتهما، وصورة أولادهما.

لقد جاء حبها طبيعيا.. كتفتح الزهر.. كشروق الشمس.. كشهور الربيع.. لا تعمد فيه، ولا افتعال.. لم يحدث أن غازلها محمود قبل أن يحبها، ولم يحدث أن شاغلته بنفسها قبل أن تحبه.. كانت تراه بين زملائه.. فتى يميل إلى القصر، بشرته فى لون مياه النيل فى موسم الفيضان.. وعيناه واسعتان عميقتان يلمع سوادهما وسط بياضهما، كقطرة من الليل سكبت على صفحة النهار.. وحاجباه كثيفان يلتقيان فوق أعلى أنفه.. وشفتاه رفيعتان.. ووجهه قوى جاد.. ولم يكن يميزه عن زملائه إلا أنه جاد.. وأنه نشط.. ومحبوب بينهم كأنه زعيم.. وقد قدرت منذ أن رأته أنه من طلبة الأرياف.. إن ثيابه الرخيصة لها طابع طلبة الأرياف.. وحذاءه الأصفر الفاقع لا يلبسه إلا طلبة الأرياف.. وحديثه يطن بلهجة أهل الريف.

وكانت زميلاتها معجبات به.. معجبات برجولته.. فحولته.. واللهجة الريفية التى تتدفق من حديثه كأنها صدى لأنين ساقية تدور بعيدا.. هناك، فى الريف.. وربما كان سر إعجابهم به أنه لا يغازلهن، ولا يحاول صحبتهن.. إنه يعامل البنات كلهن كأنهن خاطئات.. كأنهن دخيلات على الجامعة.. إن البنت مكانها فى البيت.. بجانب الفرن.. تعجن وتخبز وتربى الأولاد.. كأمه.

ثم وجدت نبيلة نفسها زميلة له فى جمعية الأدب الإنجليزى.. ولم تحاول أن تهتم به أكثر من اهتمامها بباقى الطلبة.. وكان من طبيعتها أنها جادة.. حريصة على كرامتها معتزة بشخصيتها.. لا تبتسم بلا سبب.. ولا تقبل على شاب إلا بقدر ما تتطلبه الزمالة.. وقد وجدت نفسها تقبل على محمود ليقرآ سويا كتابا.. أو ليشتركا فى نقد قصة.. أو ليتلوا سويا أبياتا من الشعر.. وجمعهما الأدب الإنجليزى فى صداقة.. ثم اتسعت صداقتهما

حتى شملت آفاقا أبعد من الأدب الإنجليزى.. أصبح ينتظرها وتنتظره.. وأصبحا يخرجان سويا من الجامعة، ويسير معها حتى قرب بيتها.. وحديثهما دائما جاد، رزين.. لا يخفى شيئا تحته.. ثم بدأ يحدثها عن نفسه.. عن قريته الصغيرة.. وعن بيتهم المبنى من الطين ويطل على البركة التى تتوسط القرية، ويسبح فيها الأوز.. وعن أبيه الفلاح الذى يمتلك خمسة أفدنة، ويؤجر بجانبها عشرين فدانا أخرى.. وأمه فى ثوبها الأسود.. ثوب الفلاحة.. وهى تطوف بأنحاء الدوار منذ شروق الشمس حتى غروبها.. وكان كل ما يقوله لها عن نفسه يرسم فى خيالها صورا جميلة.. كأنه يصف لها الجنة.. وأخذت هى بدورها تحدثه عن نفسها.. عن أبيها، وعن أمها، وعن أخوتها، وعن تاريخ العائلة.. وقد قال لها مرة، بعد أن ألح عليها ليعرف تفاصيل أكثر عن عائلتها:

– يعنى لو كنتم فى بلدنا، كنتم بقيتم أسياد البلد، وكنت كرهتكم..

وقالت فى دهشة:

– ليه ؟

قال ونظرات صارمة تطل من عينيه:

– أنا طول عمرى باكره أسياد بلدنا.. كنت باكره صاحب العزبة لما يفوت قدامى بعربيته، والتراب يطير من تحت العجل وينزل على وشى، ويملا عنيه.. وكنت أكرهه لما أروح عنده مع أبويا، وأشوف أبويا يقعد على أرافيصه فى انتظار سعادة البيه.. ولما يشرف سعادة البيه يقوم أبويا ويوطى على إيده يبوسها.. كنت باكرهه.. وباكره عيلته.. وباكره الأرض بتاعته اللى أبويا بيزرعها.

وقالت وهى تبتسم كأنها تشفق عليه من ثورته:

– اطمئن.. احنا بعنا العزبة من زمان..

والتفت إليها فى حدة، وأمسك بيدها وأخذ يضغط عليها بقوة كأنه يحاول أن يعصرها فى يده، وقال والنار فى عينيه:

– انتى مش ممكن تفهمينى.. انتى أتولدت وعشتى فى دنيا تانيه.. ماشفتيش اللى أنا شفته.. ماحستيش باللى أنا حسيت بيه.. ماشفتيش

أبوكى بيقطع من لحمه علشان يدفع الإيجار لصاحب العزبة.. ماكتبتيش نوبة طلب مجانية علشان تدخلى المدرسة وتتعلمى.

وقالت وهى تترك يدها فى يده كأنها تعينه على التنفس عن ثورته:

- أنا فاهماك كويس يا محمود.. وحاسه بكل كلمة بتقولها.. أنا حبيت بلدكم من غير ما أشوفها.. وباحترم والدك من غير ما أعرفه.. ونفسى أن مامتى تبقى زى مامتك.. و..

وقاطعها، ويدها لا تزال فى يده، وحاجباه الكثيفان المقرونان يظللان النار المنطلقة من عينيه.. وقال فى حدة كأنه يقود مظاهرة:

- انتى بتتكلمى زى السواح اللى بيعجبهم منظر الفلاحين، ولا منظر الست اللى لابسة الملاية اللف.. لازم تعرفى إنى مابحبش بلدنا، أنا ثائر على بلدنا، وعلى اللى فيها.. والبركة اللى فى وسط البلد ماهياش بحيرة زى بحيرة لوزان، علشان يعجبك منظرها.. دى مستنقع.. مستنقع مليان ناموس وحشرات.. والناموس بيقرص عيال البلد ويجيب لهم الملاريا.. وأنا نفسى عييت بالملاريا والبلهارسيا.. وإذا كنتى بتحبى بلدنا، لازم كمان تحبى الناموس، وتحبى الملاريا والبلهارسيا.. وانتى بتقولى إنك بتحترمى أبويا.. وأنا باحترمه برضه إنما بيصعب علىّ، كنت أتمنى أنه يكون أقوى من كده.. إنه ما يوطيش يبوس ايد صاحب العزبة.. إنه يثور، ويضرب صاحب العزبة.. و..

وأحس قبل أن يتم كلامه أن يدها لا تزال فى يده، فرفع إليها عينين مضطربتين وقابل عينيها أكثر اضطرابا.. ثم ترك يدها بسرعة، كأنه اكتشف أنه خرج عن حده.. وسكت.. سكت طويلا.. ثم قال كأنه يعتذر:

- أنا آسف.. ما كانش لازم أقولك كل الكلام ده..

وقالت وسخونة يده لا تزال فى يدها:

- بالعكس.. أنت لازم تقول لى كل لحاجة.. إنما أنا مش موافقك على الكلام اللى بتقوله عن والدك.. إذا كان والدك ماقدرش يثور على صاحب العزبة، فو قدر يربيك ويعلمك علشان تثور انت بداله.. وتضرب صاحب العزبة إذا كان يستحق الضرب.

ونظر إليها وبين شفتيه ابتسامة ساخرة، وقال في مرارة:

- أضربه بإيه.. بالليسانس اللي حاأخده.. ولا بديوان الشاعر شللي؟!

قالت كأنها تحاول أن تنشله من يأسه:

- كفايه إنك تنجح في حياتك علشان تحس أنك أحسن منه. .علشان تتحرر من ظلمه.

وسكت..

كأنه اقتنع..

وأحست يومها أنها اقتربت منه أكثر.. اكتشفت في شخصيته آفاقا جديدة.. إن حياته ليست سهلة.. ليست ناعمة.. إنها حياة ينحتها في الصخر.. حياة طريقها مزروع بالشوك.. وقارنت بين حياته وحياتها.. إن حياتها ناعمة.. حياة ليس لها هدف.. ليس لها دافع يدفعها إلى الإمام.. ليس فيها ناموس تقاومه حتى لا يلدغها ويصيبها بالملاريا.. وليس فيها صاحب مزرعة يظلمها وتثور عليه لتتحرر من ظلمه.. حياتها ليس فيها معركة، وليس فيها خوف، وليس فيها انتظار، وليس فيها انتصار.. لا فضل لها في حياتها.. إنها تأكل وتشرب وتنام، دون أن تدفع ثمن أكلها وشربها ونومها. وتذهب إلى الجامعة، لا لأنها في حاجة إلى شهادة جامعية، ولكن لمجرد أنها لا تطيق أن تجلس في البيت.. ولأن الالتحاق بالجامعة أصبح «موضة» بين البنات.

وأغرتها حياته.. وأحست أنها تندفع لتشاركه فيها.. أحست كأنها أصبحت صاحبة رسالة.. رسالة تحرير محمود وعائلته من الفقر، ومن الظلم، ومن الجهل.. رسالة تحملها مع محمود، ويجاهدان سويا في سبيل تحقيقها.

وعرفت كل تفاصيل هذه الحياة.. عرفت أن والده يرسل له كل شهر خمسة جنيهات.. وأنه يسكن في شقة صغيرة بحارة الشوربجي بالجيزة، مع أربعة من زملائه، اثنان منهم في كلية التجارة وواحد في كلية الطب، والرابع في كلية الحقوق.. وأنهم يطهون طعامهم ويغسلون ثيابهم بأيديهم.. وأنهم قد قسموا العمل بينهم.. في كل يوم يتولى واحد منهم طهو الطعام..

ودور محمود يأتى كل يوم اثنين، وكل يوم خميس.. وهو لا يجيد إلا طهو البطاطس.. والأرز.

وكانت تعيش هذه الحياة بخيالها.. كانت تعيش مع أمه وأبيه فى الدوار.. وتتصور نفسها جالسة أمام الفرن بجانب أمه تعجن وتخبز.. ثم تتصور نفسها تعيش معه فى القاهرة.. فى الشقة الصغيرة، تطهو له الطعام وتغسل له ثيابه.. وتنتظر اليوم الذى ينتصران فيه على الفقر، ويشقان بكفاحهما الطريق إلى النجاح.

لقد نزلت إليه.. إلى حياته.. ولم تعد ترى فيه شيئا ناقصا.. لم تعد ترى حلته الوحيدة المكرمشة، ولا حذاءه الأصفر الفاقع، ولا رباط عنقه الملتوى كفتلة الدوبارة.. كانت كل ما تراه فيه رجولته.. ووجهه القوى الوسيم.. وصوته الذى يطن بلهجة أهل الريف.. وترفعه عن شقاوة الطلبة، وعن مغازلة البنات.. وتصميمه الجاد على أن ينجح، وعلى أن يجعل من حياته معركة دائمة الاشتعال.

ورغم ذلك فقد انقضت شهور طويلة، قبل أن يصارح أحدهما الآخر بالحب.. كان كل منهما قد عرف الحب، ولكنهما حرصا على أن يخفياه تحت ستار الصداقة والزمالة.. وكان هو احرص منها على إخفاء حبه.. وقد جاء يو م فاض بها الحب حتى تمنت أن تصارحه به وأن يصارحها به.. ولكنه كان دائما ضنينا بعواطفه.. كأنه يتعمد الهرب من الحب.. كأن هناك شيئا يقف بينها وبينه.

إلى أن كان يوم.. وخرجا ساعة الغروب من الكلية.. وسارا على أقدامهما فى اتجاه بيتها، ثم انحرفا فى الشارع المحاذى لشاطىء النيل، ثم جلسا على سور الكورنيش.. والسماء مخضبة بلون الغروب، كأنها فى خفر وهى تزف إلى الليل.. وقال وهو يرفع إليها وجهه الوسيم:

– تعرفى .. أنا كل يوم باكتشف فيك حاجة جديدة..

قالت وهى تبتسم وقلبها يلتقط الكلمات من بين شفتيه:

– واكتشفت إيه النهارده؟

قال فى حرارة:

- اكتشفت إنك حاجة تانية غير كل البنات.. أنا ساعات باتمنى أنى أخنق كل بنات كلية الآداب. بأحس إنى حامسك الواحدة منهم وانزل فيها ضرب لغاية ما تحترم نفسها، وتحترم الجامعة.. إنما انتى.. انتى حاجة تانية.. ساعات باشوف فيكى حاجات من أمى.. بيتهيألى أن لو كانت أمى دخلت كلية الاداب، كانت بقت زيك كده.. بس..

وسكت كأن الكلام قد وقف فى زوره، وأدار عنها وجهه.. وقالت فى لهفة:

- بس إيه؟

قال دون أن ينظر إليها:

- بس ساعات بأحس إنك بعيدة عنى.. بأحس إنك فى دنيا تانية غير دنيتى. بيتهيألى إنك بنت صاحب العزبة اللى فى بلدنا.. ومش ممكن حاجة تجمع بيننا..

واقتربت منه، ووضعت يدها فى يده، وقربت وجهها من وجهه، وقالت فى صوت خافت:

- أنا عمرى ما كنت بعيدة عنك ومن يوم ماشفتك وأنا عايشة فى دنيتك.

والتفت إليها وحاجباه الكثيفتان يظللان عينيه، وهم أن يتكلم.. ولكن وجهها كان قريبا جدا من وجهه.. من شفتيه.. وأنفاسها المتهدجة ترف حوله كأنها تجذبه إليها.. وأغمض عينيه.. ومال إليها.. وأسند خده على خدها.. وعلى خده نار، وعلى خدها نار.. وجمعتهما نار واحدة.. نار من عواطفهما التى طال كبتها.. ثم سحب شفتيه.. فوق خدها فى قبلة سريعة، كاللمسة.. ثم ابتعد عنها فجأة، وقام واقفا كأنه خاف عليها من ناره.. وقامت واقفة.. وسارا صامتين لا يتكلمان.. وجبينه معقد، وحاجباه الكثيفان قد اقتربا من عينيه كأنهما يجففان دمعا يأبى أن ينهمر.. وهي.. صدرها يتهدج.. والنار مشتعلة فوق وجنتيها.

ووقفا ليفترقا عند أول شارع الاخشيد - كعادتهما - وقال فى صوت محشرج دون أن ينظر إليها:

- أنا آسف ..

ونظرت إليه فى غضب رقيق، كأنها ضاقت بتردده، وبضنه بحبه، وقالت فى جرأة:

- أنا مش آسفه!

ورفع إليها وجهه وفى عينيه دهشة، ثم كبت دهشته، وقال وهو يبتسم ابتسامة حزينة، دون أن يمد يده لمصافحتها:

- أشوفك بكره.. تصبحى على خير..

وتركها وابتعد..

والتفتت تتبعه بعينيها فى حنق وغيظ.. لماذا يحيط حبهما بكل هذه العقد؟ لماذا يتردد؟ لماذا لا يكون بسيطا سهلا؟ لماذا لا يدعوها لتشاركه حياته؟

ولم يكن يستطيع أن ينكر حبه بعد هذا اليوم.. لقد أعلنه لها.. وظللت الأشجار قبلات كثيرة تبادلاها.. واستمعت أرصفة الشوارع إلى أحاديث طويلة ناعمة، وآمال حلوة تجمعهما.. وعرف طلبة كلية الآداب حبهما.. وحاولوا أن يشهروا بهما.. وأن يلاحقوهما.. ولكنهم كانوا يحترمون محمود، ويحترمون نبيلة فانتهوا إلى احترام حبهما.. أصبح حبهما نغما حلوا يتردد فى الكلية.. وصورة نظيفة عاقلة معلقة فوق جدرانها.

ولكن رغم كل هذا الحب، فقد ظل هناك شىء يقف بينهما.. شىء تحس به نبيلة، ولا يفصح عنه محمود.. شىء كان يتمكن منه أحيانا فيتعمد أن يقاطعها.. أن يهرب منها.. أن يبرد أمامها.. وكان يدفعه أحيانا إلى أن يسخر منها، ويتعمد أن يثيرها ويغيظها حتى يرى الدموع فى عينيها.

ثم كان يوم عيد ميلاده. وأرادت أن تحتفل به معه.. فاتفقا على أن يقضيا اليوم عند سفح الأهرام.. والتقيا فى الصباح، وركبا الترام، فى الدرجة الثانية، فقد كان لا يركب الترام أو الأتوبيس إلا فى الدرجة الثانية.. وهناك عند سفح الأهرام، قضيا أسعد أيام حياتهما.. وكانت قد أعدت له «تورتة» صغيرة غرزت فيها ثلاثا وعشرين شمعة.. بعدد سنى حياته.. فأشعلا الشموع.. وأطفآها سويا، وهما مختبئان خلف حجر كبير من

أحجار الهرم.. وتبادلا قبلة.. قبلات كثيرة كأن كلا منهما يطرق فوق شفتى الآخر باب الجنة.. ولكنهما كانا يكتفيان دائما بالوقوف عند الباب.

وقبل أن يعودا، فتحت حقيبتها، وأخرجت ساعة يد صغيرة اشترتها هدية له.. ساعة مطلاة بالفضة، لا يزيد ثمنها على خمسة جنيهات.. وأخفت الساعة فى يدها، وقالت له وضحكتها تزغرد فوق وجنتيها:

- غمض عينيك..

وقال مبتسما:

- ما أقدرش .. مش ممكن أضيع لحظة من عمرى أقدر أشوفك فيها..

قالت وهى لا تزال تضحك:

- معلهش . غمض لحظة واحدة، وحا أعوضك عنها بيومين!

وأغمض عينيه.. وأمسكت بيده، ولفت الساعة حول معصمه.. وقالت وهى لا تزال تضحك:

- دلوقت تقدر تفتح..

وفتح عينيه وقد تجهم وجهه قبل أن يفتحهما، ونظر إلى الساعة نظرة جادة كأنه واجه مشكلة عويصه..

ونظرت إليه لترى فرحته بهديتها، فرأت وجهه متجهما، فسقطت ضحكتها من بين شفتيها.. لقد أخطأت.. ولكنها لا تدرى فيم أخطأت؟

ونزع الساعة من فوق معصمه ، وابتسم ابتسامة مُرة ساخرة، وقال متهكما:

- ايه ده كله.. ده مافيش حد فى بلدنا عنده ساعه زى دي.. يا ترى تسوى كام؟

وقالت وهى تفتعل ابتسامة:

- ما يصحش تسأل عن ثمن هدية؟

وسحب ابتسامته الساخرة، وقال فى صوت جاف وهو يمد لها يده بالساعة:

- آسف .. ما أقدرش أقبلها منك.. متشكر على كل حال وقالت وهى تنظر إليه فى حيرة كأنه استعصى على فهمها:

- ما تقدرش تقبلها منى ليه؟
قال فى هدوء:
- علشان ما أقدرش أجيب لك زيها
قالت وهى تبتسم كأنها تطيب خاطره:
- بكره تجيب لى زيها، وأحسن منها كمان..
قال وهو يحاول أن يحتفظ بهدوئه:
- لما أبقى أقدر أجيب زيها أبقى أقبلها منك..
قالت وهى تكاد تبكى:
- ما تزعلنيش يا محمود..
قال صارخاً وقد فقد هدوءه:
- انتى عايزه زملائى يقولوا علىّ أنى باعرفك علشان تجيبى لى ساعات.. علشان تصرفى علىّ.. ما هو ده اللى أنا خايف منه..
وصرخت ترد على صرخته بأعلى منها:
- إذا كنت فاكر إنى غنية.. فأنا مش غنية.. الساعه دى اشتريتها من مصروفى اللى باحوشه.. وإذا كان أهلى بيدونى مصروف ده مش ذنبى.
وقال متهكما:
- وإذا كان أهلى فقرا وما بيدونيش مصروف علشان أجيب لك بيه ساعه.. برضه مش ذنبى..
وقالت فى تحد وهى تنظر إليه بعينين مغتاظتين، وتدق الأرض بقدمها:
- أنت حتاخد الساعة ولا لأ..
وقال وهو يرد تحديها:
- لأ ..
وقالت وهى تفتح حقيبتها، وتضع الساعة فيها:
- بلاش .. وفرت!
ثم سارت متجهة إلى محطة الترام وهو يتبعها منكس الرأس تائها فى أفكاره.. وركبا تراما واحدا.. كل منهما فى مكان وعرفت يومها ماذا يقف بينها وبينه؟ إنه إحساسه بفقره.. إحساسه بأنه من طبقة غير طبقتها..

وعادت إلى بيتها.. وتلفتت حولها وأحست بأنها تكره كل ما تراه.. تكره الأثاث.. الأبيسون القديم.. وتكره الفريجدير.. وتكره البيانو.. وتكره الثوب الأنيق الذى ترتديه أمها.. إن هذا البيت الذى يقف بينها وبين حبيبها.. وتمنت أن تهدمه، وتحيله إلى بيت من الطين كبيت محمود.. وتمنت أن ترى أمها ترتدى الثوب الأسود الطويل، وتجلس أمام الفرن تعجن وتخبز كأم محمود.

ولم يدم خصامها مع محمود طويلا.. إنهما دائماً يعودان كلما هما بالافتراق.. إن حبهما أقوى دائماً من الحائل الذى يقف بينهما.. ولكنها أصبحت أكثر حرصا حتى لا تخدش إحساس محمود بفقره.. كانت تتعمد ألا تتزين بأساورها الذهبية، أو بالمشبك الأنيق الذى أهدته لها أمها.. وتتعمد أن تبتعد بأحاديثها عن طبقتها.. كانت تريد أن تقنعه أنها قريبة منه.. إنها تعيش حياته.

ومرت الأيام والحب يجمعهما، ويفرقهما، كأنه يلعب بهما.. ولم تكن نبيلة تفكر فى الزواج.. كان الزواج بالنسبة لها أمرا مفروغا منه، لا يستحق التفكير.. إن محمود سيتخرج فى نهاية العام ويتزوجها.. ولاشك فى هذا الزواج.. ليس هناك طريق آخر.

إلى أن رآها شقيقها أحمد، وهى تسير مع محمود ويدها فى يده، واضطرت أن تكذب عليه وتقول له إنهما اتفقا على الزواج.

وأحست بأنها تكذب.. وعندما أحست بأنها تكذب، بدأت تشك فى زواجها من محمود.. لماذا تفترض أنه سيتزوجها؟ إنه لم يلمح أبدا إلى الزواج.. ربما قرر أن يبقى أعزب.. ربما قرر أن يتزوج فتاة ريفية من بلدهم.. إن كثيرين من الشبان يفرقون بين الحب والزواج.. يأبون الزواج من الفتاة التى صارحتهم بالحب، ورضيت أن تماشيهم بلا زواج.. فلماذا لا يكون محمود واحدا منهم؟

وكان خصام أخيها لها، ورفضه مبادلتها الحديث.. يلح عليها كى تبحث عما يؤكد لها أن محمود سيتزوجها.. إنها تحس أنها جرحت إحساس أخيها.. إنها فقدت ثقته.. وفقدت احترامه لها.. وهى تحبه.. تحب

أخاها أحمد، ولا تريد أن تجرح إحساسه، ولا أن تفقد ثقته واحترامه.. وليس أمامها من وسيلة لترضيه بها إلا أن يتزوجها محمود.. أو على الأقل أن تتأكد من أن محمود سيتزوجها.. لو تأكدت هى على الأقل لاستطاعت أن تحتمل خصام أخيها لها.

ولكن كيف تفاتح محمود فى موضوع الزواج؟

إنها لا تستطيع أن تذهب إليه وتقول له: تزوجنى.. وهى تخجل من أن تلجأ إلى الحيل التى يلجأ إليها البنات ليثرن شهامة الرجال فيتقدموا للزواج.. إنها تخجل من أن تدعى أمامه أن هناك من تقدم إليها خاطبا.. وتخجل من أن تدعى أمامه أنها معذبة فى حياتها، وعليه أن ينقذها.. إنها لا تستطيع أن تكذب عليه.. إنها ليست من هذا النوع من البنات.. وحبها أرق وأطهر من أن يحتمل هذا النوع من الشباك الذى ينصب لاصطياد الأزواج.

لماذا لا تصارحه بالحقيقة؟

لماذا لا تقول له كل شىء؟

لقد قالت له إن أخاها قد رآهما يسيران سويا على شاطىء النيل.. وإنه غضب منها.. ولكنها لم تستطع أن تقول له أكثر من ذلك.. حاولت ولم تستطع.. وهى لا تزال تحاول.

●●●

وظلت نبيلة واقفة على سلم كلية الآداب، تتلفت حولها وتتفحص وجوه الطلبة.. إلى أن رأته قادما نحوها.. وحلته المكرمشة تتهدل فوق جسده، ورباط عنقه الملتوى كفتلة الدوبارة، وحذاؤه الأصفر الفاقع.. ووجهه الوسيم القوى كأنه جمع فيه رجولة مائة رجل.

ووقف قبالتها وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة:

– أسف اتأخرت عليكي، أصلى كنت باكلم الأستاذ فهمى.. تصورى إنه بيقول على النقد اللى كتبته، إنه عاطفى زيادة عن اللزوم.. بأه أنا عاطفى؟

ولم ترد عليه.. وأخذت تنزل الدرج وهو بجانبها، ثم قال وهو ينظر فى وجهها:

- مالك؟

قالت دون أن تنظر إليه:

- ولا حاجة..

قال :

- انتى حاتروحى دلوقت؟

قالت :

- لأ ..

وسارا نحو الحديقة التى تقع خلف بناء الكلية.. وهما صامتان.. ثم اتجهت نبيلة إلى شجرة صغيرة ألقت تحتها حقيبتها الكبيرة، ثم جلست فوقها، وجلس محمود بجانبها على الأرض، وقال وقد عاد ينظر إلى وجهها، ويبتسم لها كأنه يرشوها بابتسامته:

- مش عايزة تقوليلى مالك!

قالت وهى تدير وجهها عنه، وتنزع بيدها بعض الحشائش من الأرض، كأنها تحاول أن تنزع حيرتها من نفسها:

- النهارده أخويا أحمد شافنى الصبح، ولا قاليش صباح الخير.. من ساعتها وأنا متضايقة.

وسحب محمود ابتسامته وقال فى صوت جاد:

- له حق .. وانتى لك حق إنك تتضايقى!

قالت فى حدة:

- له حق ليه.. أنا ماعملتش حاجه!

قال فى هدوء:

- عملتى.. ولو كان لى أخت وشفتها ماشيه مع واحد، كان زمانى قتلتها..

قالت فى دهشة:

- حتى لو كانت بتحبه وبيحبها.

قال :

- حتى لو كانت بتحبه وبيحبها.

قالت فى غضب:

- وأنا مش زى أختك.. ما تقوم تقتلني!

قال :

- لأ .. انتى مش زى أختى.. لو كان لى أخت ما كانتش راحت الجامعة.. كان زمانها قاعدة جنب أمى قدام الفرن.

قالت :

- ولو أختك حبت واحد، والواحد ده حبها.. تعمل إيه؟

قال :

- اللى يحبها ييجى يتجوزها.. إنما ما يمشيش معاها فى الشوارع.. و..

وسكت عن كلامه قبل أن يتمه، كأنه تنبه إلى أنه تورط فى الحديث.. فتح موضوعا كان يحرص على ألا يفتحه.

وسكتت نبيلة.. ومدت يدها تنزع مزيدا من الحشائش من الأرض.. ووجهها بعيد عنه.. رموشها تهتز فوق عينيها كأنها تهش بهاالدموع.

وظل محمود ساكتا، ثم قال فى صوت خافت، كأنه يحادث نفسه، وسحابة داكنة تلف وجهه، وحاجباه الكثيفان يقتربان من عينيه:

- احنا مش ممكن نتجوز!

والتفتت إليه نبيلة فى حدة، وقالت كأنها تدفع شرا يلم بها:

- ليه؟

قال دون أن ينظر إليها:

- لأنى ما أقدرش أتجوز.. ماأقدرش أتجوزك انتى بالذات

ثم التفت إليها وقال كأنه يدافع عن نفسه:

- أتجوزك إزاي.. أتجوزك بايه.. بالخمسة جنيه اللى بيبعتهم لى أبويا.. ولا بالخمستاشر جنيه اللى حاخدهم من الوظيفة بعد ما اتخرج.

وقالت وهى لا تزال غاضبة:

- ومين قالك إنى ما أقدرش أعيش بخمستاشر جنيه.. إذا كنت أنت تقدر تعيش بيهم، أنا أقدر كمان..

قال وهو لا يزال محتدا:

- ولا بخمستاشر .. ولا بعشرين ولا بتلاتين.. ولا باربعين.. انتى ماتعرفيش الناس الفقرا بيعيشوا ازاى.. انتى عايشة فى رواية بتأليفها من مخك.. متهيألك اننا مادام بنحب بعض يبقى نقدر ناكل ونشرب ونودى ولادنا مدارس.. من غير فلوس..

قالت وكأنها تهم بالبكاء:

- انت ما بتحبنيش..

قال فى صوت ضعيف وهو ينظر إليها بعينين ملؤهما الحب:

- أنا باحبك لدرجة إنى مش حاتجوزك.. وكنت أتمنى إنك تكونى فلاحة فى بلدنا علشان يوم ما أحبك أتجوزك، وأحطك فى الدوار، وأبقى فى نظرك أغني واحد فى الدنيا مادام لابس أفندى وباروح الديوان وأرجع من الديوان.. إنما انتى.. انتى مش كدة.. انتى من عيلة غنية.. انتى عارفة إنك بتحبى واحد فقير.. ومهما حبتينى حاتفضلى طول عمرك حاسة بالفقر.. حاسة بالفرق بين بيتكم، والبيت اللى حاعيشك فيه.

قالت وهى تكاد تصرخ:

- أنا مش غنية.. ومش حاسة إنك فقير.. وإذا كنت فاكر إنى حابوس ايدك علشان تتجوزنى.. لأ.. أنا ماجبتلكش سيرة الجواز.. انت اللى فتحت السيرة دى.

وأخرجت منديلها كأنها تستعد للبكاء.

وسكت محمود فترة طويلة.. ثم استند على جذع الشجرة ونظر أمامه كأنه يحاول أن يرى ما وراء الأفق، ثم قال فى صوت هادئ، كأنه يروى لنفسه حكاية:

- أنا حبيت نوبة قبل كدة.. حبيت بنت صاحب العزبة.. كنا بنلعب مع بعض واحنا صغيرين.. وكنت بتشعلق على شجرة التوت وأقطف له التوت.. وكنا بنركب النورج سوا.. ونركب حمار واحد.. ماكنتش أيامها حاسس انى ماشى حافى وهية لابسة جزمة.. وان جلبيتى وسخة، وهى فستانها نضيف.. وانى ابن فلاح مؤاجر غلبان، وهيه بنت صاحب العزبة.. وكبرنا سوا.. وكبر حبنا معانا.. بأه عندها تلاتاشر سنة، وأنا عندى ستاشر..

وكنا بنطلع نتمشى على الترعه سوا، ونصطاد سمك.. ونقعد فى الجرن كتفنا فى كتف بعض. وكنت بابوسها. وكنا بنتكلم على الجواز.. وكنت مصدق ان حاييجى يوم أتجوزها.. لغاية ما أبوها شافنا يوم فى الجرن.. رفع عصايته، ونزل علىّ ضرب.. وأنا مندهش.. مش عارف ليه بيضربنى.. وفضل يضرب فىّ لغاية الدم ماخر من جسمى.. وماعيطتش، ولا صرخت.. كنت مش عايز أعيط ولا أصرخ قدام البنت اللى باحبها.. لكن عيطت كتير بعد مارجعت البيت.. قعدت أيام وليالى أعيط.. وصاحب العزبة نده أبويا وهدده بالطرد إذا حاولت أقرب من بنته تانى.. وجه أبويا وضربنى هو كمان قلمين.. وقال لى: هى العين تعلا على الحاجب.. ومن يومها ماشفتهاش.. وعرفت الحقيقة اللى ماكنتش حاسس بيها.. عرفت إنى فقير، وهى غنية.. ومايصحش ان الفقير يحب واحده غنيه ويتجوزها.. ومن يومها حلفت إنى لا زم أبقى غنى.. أغنى من صاحب العزبة.. وحلفت إنى ما تجوزش إلا واحدة أنا أغنى منها.

وسكت محمود.. وعيناه لا تزال شاردتين تنظران فى ماضيه.

وأحست نبيلة كأنه كشف لها عن جرح فى قلبه.. جرح قديم لا يزال ينزف فى صدره.. ويعذبه.. وأحست كأنها تهم أن تضمد جرح قلبه بشفتيها.. تريد أن تقبله.. وتقبله.. حتى ينسى جرحه.. وقالت وهى تتلمس يده، وتضغط عليها بيدها:

– أنا مش بنت صاحب العزبة.. أنا نبيلة.. بص لى!

ونظر إليها كأنه ينزع عينيه من مرآة ذكرياته، وقال وبين شفتيه ابتسامة مسكينة:

– أنا متهيألى لو رحت أطلبك من أخوكى، حايرفع عصاية وينزل فىّ ضرب زى ماعمل صاحب العزبة.

قالت وهى تحاول أن تجعله يضحك:

– ما تخافش أخويا ماعندوش عصاية.. وعمره ما ضرب حد.

وقامت واقفة، ثم جذبته من يده، فقام واقفا أمامها.. وقالت وهى لا تزال تحاول أن تبدو ضاحكة:

- ياللا بينا نروح..

وسار بجانبها.. واختفت ضحكتها من بين شفتيها.. وشردت عيناها.. إنها الآن تعرف ان محمود أكثر تعقيدا مما اعتقدت.. ليس عليها أن تنتصر على حاضره فحسب، بل يجب أن تنتصر على ماضيه أيضا.. والتفتت إليه فجأة وقالت:

- محمود .. أوعدنى انك ماتجبش سيرة الجواز تانى، إلا لو كلمتك فيها أنا.

وقال دهشا:

- ليه !

قالت فى إصرار:

- اوعدنى..

وقال فى استسلام وهو لا يفهم:

- حاضر أوعدك..

وسارا إلى فناء الجامعة صامتين.. وهى لا تدرى لماذا طلبت منه ألا يفاتحها فى موضوع الزواج مرة ثانية؟ ربما لأنها خافت أن تدفعه نفسيته المعقدة إلى الهرب منها.. ربما لأنها أشفقت عليه من أن تلح على جرحه .. لا تدرى.. إنها فى حاجة إلى أن تفكر طويلا.. تفكر طويلا فى هدوء.. ووصلا فى سيرهما إلى الباب الكبير.

فإذا بأخيها ممدوح يمر بجانبهما، وهو يركب «الفسبا».

ولوح لهما ممدوح بيده، وبين شفتيه ابتسامة كبيرة..

وهز محمود له يده هزة خجلة مرتبكة، وابتسمت له نبيلة ابتسامة كبيرة.. وقال محمود بعد أن ابتعد عنهما ممدوح:

- وممدوح بيقول لك إيه؟

قالت وهى تبتسم فى حنان كأنها تضم ممدوح بابتسامتها:

- ولا حاجة .. عارف.. وما بيقولش حاجة.. ممدوح اسبور وفاهمنى كويس.

ولم يلبث ممدوح أن عاد إليهما فوق «الفسبا» ووقف بجانب أخته، قائلا:

- تحبى تركبى ورايا وأوصلك البيت؟

وقالت وهى تضحك:

- يا خبر .. انت عايز الطلبة يجرسونى..

وقال ممدوح وابتسامته لا تخفت:

- يا شيخة تعالى.. ولا يهمك.

وقالت نبيلة:

- لأ .. بلاش اعمل معروف..

وقال ممدوح:

- يا خوافة.. خايفة من شوية الطلبه دول..

ثم التفت إلى محمود واستطرد قائلا:

- ازيك يا محمود..

وقبل أن يرد محمود، أدار ممدوح عجلة الفسبا، وانطلق بآخر سرعتها فى شارع الجامعة.

●●●

وقاد ممدوح « الفسبا » كأنه يراقص فتاة يحبها.. فتاة يعرف أخلاقها ويعرف كل أسرارها.. وكان يميل بها ناحية اليمين، ثم ناحية اليسار، ويقودها بيد واحدة، ويلف بها حول سرب من بنات الجامعة يسرن فى خفر كأن كلا منهن تعرض نفسها فى سوق العرسان.

واقتحم ممدوح بالفسبا صفا من زملائه طلبة كلية الحقوق، فتفرقوا من حوله، صارخين، ووقف بينهم فالتفوا حوله مبتسمين.. إنه محبوب من زملائه.. كلهم يحبونه، لشخصيته المرحة.. ولشهامته.. وانطلاقه.. وجرأته.. ومشروعاته التى لا تنتهى، والتى يحدثهم عنها دائما.. إنه يأتى إليهم كل صباح وفى رأسه مشروع جديد.. مشروع لافتتاح محل لبيع الفول والطعمية.. ومشروع لافتتاح مكتبة.. ومشروع لاستئجار بيت وتخصيصه للطلبة.. و.. و.. عشرات المشاريع، و كلها مشاريع يأخذها مأخذ الجد، ويراعى فيها أن تدر ربحا، وأن تكون عملا ثابتا له.. ثم يحاول تنفيذها فعلا، إلى أن يعجز عنها، فيبدأ فى البحث عن مشروع آخر.. وكان ممدوح

أمنية كل طالبات الجامعة.. كان يخلع قلوبهن بشبابه الذى لا يهدأ.. وضحكته الصافية الحلوة.. وجرأته فى التحدث إليهن دون أن يجرح حياءهن.. ووجهه الذى يشبه وجه نجوم السينما.. وشعره المنكوش دائما فوق رأسه.. ولكن إعجاب الطالبات به لم يثر عليه حقد زملائه، فهو لا يتباهى بهذا الإعجاب.. ولا يعتدى على حق زميل له.. والبنات لا يأخذن من تفكيره إلا بقدر ما يلتقى بالواحدة منهن.

وقال له زميله عبدالمنعم وهو يضغط بيده على «كلاكس» الفسبا:

– حاتيجى محاضرة بعد الضهر؟

وأجاب ضاحكا:

– يعنى شفتنى باحضر محاضرات الصبح، لما حاحضر محاضرات بعد الضهر.. أنا عارف أنتم بتحضروا المحاضرات دى ليه.. الأستاذ بيقعد ويفتح الكتاب قدامه ويقرأ فيه.. طيب مابلاش.. وكفايه إننا نشترى الكتاب ونقراه فى بيوتنا!

وقال زميله حسن:

– أنا مضطر أحضر كل المحاضرات.. علشان البت بتاعتى.. لما باغيب محاضرة واحدة بتفتكر إنى رحت كلية الآداب.. وتبوز فى وشى جمعتين..

وعاد ممدوح يقول فى لهجته السريعة المرحة:

– أنتم قريتوا البيان اللى أصدرته نقابة المحامين؟

وأجاب الزملاء:

– لأ .. بيان عن إيه؟

وقال ممدوح:

– النقابة بتقول إن المحامين مش لاقيين شغل، وعايزة تمنع المتخرجين الجدد من الاشتغال بالمحاماه.

وعرف الزملاء إن ممدوح يمهد لمشروع جديد من مشروعاته، فقال عبدالمنعم من خلال ابتسامة كبيرة:

– وناوى تعمل إيه؟

وقال ممدوح فى حماس وهو جالس على مقعد الفسبا:

– عندى مشروع جديد.. فيه ناس كتير عندهم عربيات وماعندهمش سواقين.. ما يقدروش يدفعوا ماهية سواق.. والراجل بياخد العربية ويروح بيها مكتبه.. وتفضل العربية مركونة قدام الباب، فى الوقت اللى مراته ولا ولاده محتاجين لها علشان يقضوا مشاويرهم.. فايه رأيكم لو جمعنا بعضنا واشتغلنا سواقين بالساعة.. اللى محتاج لسواق لمدة ساعة ولا ساعتين، يتصل بينا، ويروح له واحد منا.. والساعة بريال.. بعشرين قرش.. يعنى لو الواحد منا اشتغل أربع ساعات فى اليوم يطلع بتمانين قرش.. والمشروع ما يكلفش حاجه، غير أجرة إعلان فى الجرايد.. وأنا كتبت صيغة الاعلان

ووضع ممدوح يده فى جيب بنطلونه، وأخرج ورقة صغيرة أخذ يقرأ فيها

– « إذا احتجت إلى سائق لسيارتك لمدة ساعة أو ساعتين، اتصل بتليفون رقم ٢٥٩٨٢ .. أجر السائق فى الساعة عشرون قرشا فقط.. لا تترك سيارتك معطلة فى الوقت الذى تعمل فيه.. »

وانتهى ممدوح من قراءة الاعلان، وطوى الورقة وهو ينظر إلى زملائه وعيناه تبرقان بالحماس، وقال:

– ايه رأيكم ؟

وقال زميله عباس:

– أنا ماشتغلش إلا سواق للسيدات

وقال ممدوح فى حدة:

– أناباتكلم جد.. إيه رأيكم؟

وقال حسن:

– افرض ان واحد طلبنا واحنا بنذاكر، ولا بنمتحن ولا عندنا محاضرات..

وقال ممدح فى عصبية:

– المشروع ده أهم من المذاكره وأهم من الليسانس اللى حتاخدوه..

يوم ماحتتوظف بالليسانس مش حتاخد أكتر من خمستاشر جنيه.. ده مشروع يجيب لك تلاتين جنيه فى الشهر.. يعنى أكتر من ماهية أستاذك.

وقال عبد المنعم :

- أنا عاجبانى الفكرة.. بس لازم نطلع رخصة سواقين.

وقال ممدوح:

- بسيطة.. وعلى كل حال، فكروا لغاية بكرة.. وبكرة نتكلم!

وضغط على بنزين الفسبا عدة مرات فصدر عنها صوت مزعج، كأنه يعلن للعالم استعداده للانطلاق، ثم انطلق بها بأقصى سرعتها.. وكان يقودها وعقله تائه وراء مستقبله.. إنه يبحث دائما عن مستقبل يستطيع أن يحقق له آماله.. يبحث عن الطريق الذى يستطيع أن يسير فيه.. وهو واثق أنه لا يريد أن يكون محاميا.. إنه يكره دراسة القانون، ولم يلتحق بكلية الحقوق إلا لأن مجموع درجاته لم يكن يتيح له الالتحاق بكلية الهندسة.. وهو يعتبر أن بقاءه فى كلية الحقوق مضيعة لعمره.. ويعتبر دراسة القانون إهانة لذكائه.. إن هذه السنوات التى يقضيها فى الجامعة يستطيع أن يستغلها فى مشاريع يكسب منها.. يستطيع أن يكون إنسانا منتجا..

لماذا التحق بالجامعة؟

لا لسبب.. إلا لأن أولاد الناس يجب أن يلتحقوا بالجامعة ويجب أن يحملوا شهادة جامعية؟

ولكن لماذا يقلد أولاد الناس؟ لماذا ينضم إلى القطيع؟ قطيع الشبان الذين يضيعون عمرهم فى الجامعة دون أن يكون لهم هدف إلا وظيفة صغيرة، أو مهنة لا تدر ربحا.. لماذا يخضع للتقاليد؟ لماذا لا يسير فى الطريق الذى يؤمن به؟

ولكن أمه، وأخاه أحمد، وخاله، وأخوته البنات.. كل هؤلاء يريدونه أن يظل فى الجامعة، وأن يتخرج فيها حاملا شهادة الليسانس، ولقب «أستاذ» أو «متر»!

ماذا فعل أخوه بالليسانس.. إنه موظف صغير منزو فى ركن من أركان إدارات المعاشات.

فلماذا يريدون له نفس مصير أخيه؟
لماذا يبقى فى الجامعة؟
لماذا لا يخرج منها، ويجرب مشروعا من مشروعاته العديدة؟
وكأنما ضاق ممدوح بأفكاره.. فانتبه منها إلى الطريق الذى يسير فيه، وبدأ يتراقص بالفسبا ذات اليمين وذات اليسار، ويفتعل المرح حتى يتخلص من ضيقه، ثم لمح زميلته أمينة تسير مع إحدى زميلاتها، فاندفع نحوها بالفسبا، كأنه يهم بأن يدهمها، ثم وقف مرة واحدة وعجلة الفسبا الامامية تكاد تلامس ثوبها.
وصرخت أمينة.. وقفزت إلى الرصيف، وهى تصيح:
- يا مجنون .. ايه ده!
وقال ممدوح وابتسامته تملأ وجهه:
- تروحى السينما من تلاتة لستة؟
وقالت والغضب يملأ وجهها:
- أروح مع واحد مجنون زيك.. من فضلك ابعد عنى.. ما تكلمنيش. انت مالك ومالى يا اخى..
قال كأنه لم يسمعها:
- طيب بلاش.. تحبى تركبى ورايا أوصلك؟
وقالت أمينة، وهى لا تزال غاضبة:
- باقول لك ابعد عنى..
قال وهو يضغط على مفتاح البنزين:
- حافوت عليكى الساعة ستة..
وقالت أمينة:
- لأ .. مش حاتلاقينى.. حاهرب من البيت!
قال :
- استنينى علشان نهرب سوا..
وانطلق بالفسبا.. وأمينة تنظر وراءه، وقد أطلت من بين شفتيها ابتسامة كلها إعجاب.. إنها لا تستطيع أن تغضب منه.. لا أحد يستطيع أن يغضب منه!

ووصل ممدوح إلى كوبرى عباس، وصدر من الفسبا صوت كأنه الحشرجة.. كأنها لم تعد تحتمل جرأته وجنونه.. ثم انقلبت الحشرجة إلى أنين.. ثم همدت.. لم تعد تتحرك..

ونزل ممدوح من فوقها، وهو يقول مخاطبا الفسبا:

– وبعدين معاكى.. يعنى ماتعمليهاش إلا فوق الكوبرى.. كده تكسفينا قدام الناس.

وانحنى بجانبها، ومد أصابعه الرفيعة داخل الموتور.. إنه يعرف كل قطعة فيها.. يعرف كل أسرارها.. إنها بالنسبة له أكثر من مجرد أداة ركوب.. إنها صديقة، يقضى معها من وقته أكثر مما يقضيه مع أى صديق آخر.

وبعد دقائق، أعاد ممدوح الحياة إلى الفسبا، كأنما كان يكفى أن يلمس قلبها بأصابعه لتعود لهاالحياة..

وانطلق إلى بيتهم..

ووضع الفسبا فى الحديقة الصغيرة، ثم قفز درجات السلم، ودخل إلى البهو، فرأى أخاه أحمد جالسا، ويده تحت ذقنه، ووجهه معقد، تائها فى أفكاره، إلى حد أنه لم يحس بدخول ممدوح..

ووقف ممدوح أمامه، وقال مبتسما:

– مالك. خير إنشاالله..

ورفع أحمد وجهه إليه، وقال وهو يغتصب ابتسامة ليضعها فوق شفتيه:

– مافيش .. أنت ازيك!

وقال ممدوح كأنه يحاول أن يرفه عن أخيه:

– اسمع يا سيدى آخر مشروعاتى..

وأخذ ممدوح يروى مشروع الاشتغال بسواقة السيارات بالساعة..

ولم يسمع أحمد شيئا مما يقوله أخوه.. عاد وجهه معقدا، وعيناه شاردتين.. لقد ذهب إلى نادى الجزيرة هذا الصباح.. ولم يجد شهيرة.. وانتظر طويلا ولم تأت.. لماذا لم تأت؟ لابد أنها لا تهتم به.. وإذا كانت قد حادثته بالأمس فلمجرد أنه عضو معها فى النادى.. أو ربما أرادت بحديثها

معه أن تخجله، وترده إلى صوابه بعد أن لاحظت تعمده النظر إليها.. إن خياله كذب عليه.. لقد كان يخدع نفسه عندما توهم أن شهيرة مهتمة به.. وكانت فرحته التى عاش فيها مجرد سراب اتسم على صفحة حياته الجرداء.. حياته التى يتخبط فيها بلا إرادة، وبلا شخصية.. إنه يحس أنه أهان نفسه، أنه طعن كرامته بوهمه.. يحس أنه أذل نفسه إذ تصور أن شهيرة مهتمة به.. كان يجب أن يتعالى عليها - بينه وبين نفسه - وأن يقنع نفسه بأنها لا شىء بالنسبة له.

وأفاق أحمد على صوت أخيه، وهو يكاد يصرخ فى وجهه:

- أنت سامعنى يا أحمد:

وقال أحمد فى فتور:

- سامعك..

وقال ممدوح:

- والله ما انت سامع حاجة.. ده أنا باكلمك عن مشروع يجيب دهب.. و..

وقال أحمد مقاطعا:

- بلاش دلوقت.. خليه لوقت تانى.. أحسن أنا زهقان وسكت ممدوح وهو ينظر إلى أخيه فى لهفة، كأنه يخاف عليه من أفكاره.

ودخلت ليلى، وهى ترتدى ثوبا أنيقا للخروج.. «تايير» رمادى، و«بلوز» فى لون الورد الأصفر، وضفيرة الذهب تهتز خلف ظهرها.. وفى يدها مجموعة من النوت الموسيقية.. وقالت:

- احنا مش حانتغدى بأه.. أنا عندى درس الساعة تلاتة ونص.. يظهر أن نبيلة حتتأخر.

●●●

واجتمعت العائلة حول مائدة الغداء..

وقالت الأم وهى تطوف بعينيها فى وجوه أولادها:

- عبد السلام بيه بعت لنا تذاكر فى حفلة جمعية أصدقاء الشعب.. تلات تذاكر.. مين فيكم يحب يروح؟

ورفع أحمد عينيه إلى أمه، ثم خفضهما دون أن يقول شيئا.
وقالت ليلى وهى تلتهم طعامها بسرعة:
- أنا أروح معاكى يا ماما..
وقال ممدوح:
- لو لقيت حد من أصحابى رايح.. أروح..
وقالت الأم فى صوت ضعيف كأنه توسل:
- وأنت يا أحمد.. مش عايز تروح؟
ولوى أحمد شفتيه فى قرف، وقال دون أن يرفع وجهه عن طبق الطعام، كأنه لا يستطيع مواجهة أمه:
- لأ ..
وقالت فيفى ساخطة:
- بتروحوا تعملو ايه فى الحفلات دى..
وأتمت ليلى طعامها قبل أن ينتهى منه الباقون، ثم جمعت النوت الموسيقية من تحت مقعدها، وقامت منتفضة:
وحملت النوت الموسيقية فى يدها، وصاحت:
- باى . باى.. بأه..
وانطلقت ..

٧

• فتحى •

وخرجت ليلى إلى الشارع، والتفتت لفتة سريعة ناحية بيت فتحى، كأنها تقبله بعينيها قبلة فى الهواء.. ثم سارت ناحية الشارع العمومى، ووقفت عند محطة الأتوبيس.. وهى تدندن فى صدرها لحن «الدانوب الأزرق» الذى وضعه جوهان ستراوس.. لقد كان ستراوس متزوجا كفتحى.. ثم أحب فتاة غير زوجته.. فتاة أحبته وألهمته ألحانه، ودفعته إلى طريق الخلود.. كما أحبها فتحى وأحبته.. ولكن الفتاة التى أحبت ستراوس هجرته من أجل زوجته.. تركته لها.. هل ستهجر هى الأخرى فتحى. يوما ما، وتتركه لزوجته.

وسكت لحن الدانوب الأزرق فى صدرها فجأة.. كأنه اختنق.. كأن الأوتار التى تعزفه تقطعت.. وبدأت زوبعة من أفكارها تلف رأسها.. إنها لا تدرى مصير حبها لفتحى.. ولا تريد أن تدرى.. إن سر عذابها أن حبها ليس له غد.. إنه حب يعيش يوماً بيوم، وساعة بساعة.. حب ليس من حقه أن يفتح عينيه ليرى طريقه، ومصيره.. حب يعيش كما يعيش الإنسان الذى يتعاطى المخدرات، لا يريد أن يفكر فى الساعة التى يفيق فيها.. ولا يريد أن يتمعن فيما يفعله المخدر بجسده وبقواه.. إنها تخاف الغد.. لا تريده.. أكثر من يومها مادام حبها معها.. إنها لا تريد الأمل.. إنها تهرب من الأمل.. لا تريد إلا اللحظة التى تعيش فيها.

وجاء الأتوبيس.. وقفزت إلى مقاعد الدرجة الأولى، وهى تضغط على شفتها السفلى بأسنانها، كأنها تستجمع إرادتها لتهرب من التفكير فى غدها.. لتقتل الأمل الذى يحاول أن يقتحم رأسها.. لتنسى أنها قدر عليها أن تعيش بلا أمل.

وجلست.. ووضعت النوتة الموسيقية فوق ساقيها، وأخذت تنقر عليها بأصابعها نقرات عصبية، كأنها تعزف على البيانو لحنا سريعا صاخبا.. إنها تريد البيانو.. تريده حالا.. إنها تنسى أفكارها إذا جلست إلى البيانو، أو جلست مع فتحى.. كلاهما ينسيها نفسها.. ينسيها الغد.. يخدرها وأطلت من نافذة الأتوبيس، تتعجل محطة الوصول.. ثم قامت ونزلت فى محطة ميدان التحرير، وسارت فى شارع سليمان باشا فى خطوات سريعة، والنوت الموسيقية فى يدها كأنها مسرعة إلى عيادة طبيب لتستدعيه إلى حالة خطرة.. ثم انحرفت فى شارع الانتكخانة.. وصعدت عمارة قديمة من عمارات الشارع.. ثم دفعت باب إحدى الشقق، ودخلت.

وتنهدت فى ارتياح بمجرد دخولها.. وارتفعت فوق شفتيها ابتسامة هادئة.. إنها تشعر بالحرية وهى فى معهد الموسيقى.. تحس كأنها فى دنياها.. دنيا ناسها ألحان، وأرضها نغم.

وسارت ليلى بين قطع الأثاث المنتشرة فى البهو، وكلها من الطراز العربى القديم، وتحف عربية كثيرة مرصوصة فوق الأرفف والموائد، فأحست كأنها تخوض فى ألحان أوبرا شهرزاد التى كتبها كورساكوف.وأنغام حلوة تنبعث من خلف الأبواب المغلقة.. الانغام التى يعزفها الطلبة وهم يؤدون دروسهم.. لاشىء هنا إلا الموسيقى.. والناس هنا ليسوا إلا أصابع رفيعة طويلة رقيقة، ترمز إلى نفوس راقية حساسة.. أصابع لا تكون إلا فى يد فنان.

ولم تكد ليلى تخطو بضع خطوات حتى التقت بزميلتها عيشة.. إنها فتاة جميلة، وجهها هادىء خلو من المساحيق، وقوامها يميل إلى القصر، يحيطها ضعف وهزال.. كأنها نسمة رقيقة تمر فى هدوء بين أغصان الحياة.. وفوق عينيها دائما نظارة سوداء لأنها عمياء.

وصافحتها ليلى فى حرارة، وقالت فى حماس

– عملتى ايه يا شوشو..

وقالت عيشة فى فرح :

– حالعب فى حفلة الجمعة الجاية. ادعى لى يا ليلى.

ولم تكن ليلى فى حاجة لأن تقول اسمها لعيشة حتى تعرفها. إن عيشة

تعرف كل الناس مـن أصواتهم.. يكفى أن تسمع صـوتا مرة واحـدة حتى تعرف صاحبه مدى الحياة.

وقفزت ليلى فى وقفتها، وقالت فى فرح وهى تهز يد زميلتها :

– مبروك يا شوشو.. أنا حتمرن من دلوقتى على التصفيق.. الناس كلها حاتصفق لك.

وقالت عيشة، وقد احمرت وجنتاها :

– ده أنا بقالى يومـين مش قادرة أنام.. ويظهر أنى مش حـاأنام إلا بعد الحفلة !

واقـتربت سـيدة كـبيـرة ترتدى معطفـا أسود فـوق ثوبها الرخـيص، ووضعت يدها تحت ذراع عيشة وقالت فى أدب :

– حانروح بأه يا ست شوشو ؟

وقالت عيشة، وهى تنظر إلى أمها، لا تلتفت إلى السيدة الممسكة بذراعها ولا إلى ليلى :

– أيوه.. بونسوار ياليلى.. ماتنسيش تدعى لى !

وخطت السيدة نحو الباب وهى تسحب معها عيشة.. ووقفت ليلى تنظر إليها، وابتسامتها لا تزال بين شفتيـها.. إنها تنسى أحيانا أن عيشة عمياء.. بل إنها تحس عندمـا تسمعها تعـزف على البيانو، بأنها ترى مـن الموسيقى أكثـر مما يراه الطلبة المبـصرون فى النوت الموسيـقيـة.. وأحيانا تتـذكر أن زميلتـها عـمياء، فـترثى لها، ويشـتد بهـا شعور الرثاء حـتى تهم بالبكاء، وتتمنى لو أعطتهـا عينا من عينيهـا.. ماذا لو أعطتها عينا من عـينيها ؟.. إن كلا منهـما تستطيع بذلك أن تبـصر، وهى لن تخسر شـيئا.. فعـين واحدة تكفيها.. وكانت هذه الفكرة تستـبد بها إلى حد أن تقف أمام المرآة، وتغمض احدى عـينيها، لتـرى نفسهـا عندما تصبح بعـين واحدة.. وأحيـانا أخرى، عندما يستبـد بها عذاب حبها، كـانت تحسـد عيشة لأنها عـمياء.. لو كانت عمـياء مـثلهـا لما رأت فتـحى، ولما أحبـته.. لعـاشت فى دنيا لا تنيـرها إلا الألحان.. ولا ترى فـيها إلا الحانا.. إنهـا تحـس بأن عيشة تعـيش فى أمان من الدنيا.. وفى أمـان من الـعـذاب، لأنها لا ترى الدنيا فـلا تتعـذب بهـا.. إنهـا ترى فـقط ببـصيـرتهـا.. بإحـسـاسـها.. إحـسـاس كـامل لا تعكره

ولا تربكه المرئيات من يدرى،.. لعل عيشة تحب هى الأخرى.. تحب شابا لا تراه بعينيها، وتراه بإحساسها.

واستدارت ليلى، وهى تحاول أن تطرد من خيالها أمنيتها بأن تصبح عمياء كزميلتها.. وسارت فى الممر الطويل الذى تقع على جانبيه غرف التدريس.. ومن وراء باب كل غرفة ينبعث لحن، يزفها إلى باب الغرف التالية.

وفتح باب إحدى الحجرات، وبرز منه شاب، يرتدى قميصا مفتوحا يكشف عن لحم صدره، رغم الشتاء، ويحمل تحت إبطه علبة «كمان» وقال لها فى صوت هامس :

– إنتى عندك درس مع البروفيسور ؟

قالت وهى تبتسم له :

– أيوه.. وبتوطى صوتك ليه ؟

قال :

– أصل البروفيسور عصبى النهاردة قوى.. خدى بالك !

قالت وهى تهم بأن تتركه :

– ما تخافش.. ربنا يستر !

وقال يستوقفها :

– ليلى.. استناكى، وأعزمك على واحد شيكولاتة سخنة فى البن البرازيلى ؟

وقالت ليلى وهى لا تزال تبتسم :

– لأ .. مرسيه يا مصطفى.. أنا حاروح على طول !

وتعدت باب غرفتين، ثم وقفت أمام باب الغرفة الثالثة، وساوت النوتة الموسيقية فى يدها، واعتدلت فى وقفتها، ثم عادت تنظر إلى مصطفى كأنها تستمد منه بعض الشجاعة.. ثم رفعت يدها، ونقرت على الباب نقرة خفيفة، وسمعت صوتا حادا يصيح من خلف الباب باللغة الفرنسية :

– أنتريه.

وفتحت الباب ودخلت، ثم أغلقته وراءها.

وكان الأستاذ جالسا على مقعد خشبى ذى مسندين، ورأسه الأشيب

الصعير، يعلو ظهرا مقوسا.. وأصابعه الرفيعة المرتعشة تمتد من يد صفراء معروقة، وينقر بها نقرات عصبية فوق مسندى المقعد.

وقالت ليلى فى صوت خافت :

بونسوار .

ولم يلتفت إليها، ولم يرد على تحيتها. ظل فى جلسته لا يتحرك، وقال بصوته الحاد : ابتدى.. وابتسمت ليلى ابتسامة صغيرة.. إنها تحب أستاذها.. تحبه منذ رأت أصابعه الهزيلة تتحرك فوق البيانو، فتقذف بالأنغام فى قوة وسلاسة، كأن هزالها ينقلب إلى قوة كلما سرى فيها لحن، فتقبض عليه وتسوقه فى قدرة عجيبة، حتى تنتهى منه، ثم تعود إلى هزالها .

وكان حبها يرسم لأستاذها أسطورة فى خيالها.. إنه بولونى الأصل هاجر من بولونيا منذ ثلاثين عاما، هربا من الشيوعيين، واستقر فى مصر، وأحبها.. أحب أهل مصر .. ولغة مصر، وفن مصر ولأنه بولونى فلابد أنه من سلالة الموسيقار شوبان.. حفيد شوبان.. أو ابن عم شوبان.. بل إن ليلى كانت أحيانا تتخيله شوبان نفسه.. وتتخيله وهو يشترك فى ثورة بلده، ويضع الألحان للثائرين.. ثم تتخيله يطوف بأنحاء العالم يعزف على البيانو ويجمع النقود لاعانة الثورة.. كانت رأسه البيضاء تنقلب أمام عينيها إلى شاشة سينما ترى فوقها فيلما يصوره خيالها.. فيلما مليئا بمشاهد الحب، والمغامرات، والموسيقى .

وكانت تعرف عنه عصبيته، وربما كان سر عصبيته أنه مريض بالربو، ولكنها كانت تنسبها إلى عبقريته.. وكانت تتحمل حدته، فهى تعلم أنه يحبها.. بل إنه يدللها بالنسبة لباقى طلبة المعهد.. حتى أنه كثيرا ما وسطها الطلبة لديه كلما كان لهم مطلب عنده.. وهى تعلم أيضا أنه لا يتولى اعطاء الدروس بنفسه إلا للطلبة المتازين.. وهى فخورة بأنه يدرس لها بنفسه.. فخورة لأنها طالبة ممتازة .

وجلست ليلى إلى البيانو، وفتحت أمامها النوتة الموسيقية.. والأستاذ لا ينظر إليها.. لا يزال جالسا ينظر أمامه، وأصابعه الطويلة تنقر على مسندى المقعد .

وبدأت ليلى تعزف ..

عزفت طويلا.. والاستاذ صامت، ثم صرخ فجأة :

- بس.. تاني.. من الأول.

والتفتت إليه لفتة سريعة.. ثم عادت تنظر إلى البيانو، وهى تحرك أصابعها فى الهواء، ثم تضغط بعضها ببعض، حتى تريحها..

وعاد الاستاذ يصرخ :

- تانى.

ووضعت أصابعها فوق مفاتيح الانغام بسرعة، كأن هذه الأصابع فرقة عسكرية تلقت أمرا من قائدها.

وعزفت طويلا..

والاستاذ صامت، وفى عينيه نظرات من السخط أقرب إلى الاشمئزاز.. ثم صرخ فجأة :

- بس..

ثم ضرب مسندى المقعد بكفيه، وقام واقفا، وظهره المقوس يدفع رأسه إلى الأمام، فيبدو كرأس الدجاجة، وقال وهو يخبط بكفه على كتفها :

- إنتى عقلك فين.. بتفكرى فى إيه ؟!

ثم أشار إلى النوتة الموسيقية، واستطرد :

- عقلك مش هنا.. انتى بتبصى بعنيكى، وعقلك بعيد.

قالت وصدرها يتهدج، ووجهها محتقن من شدة المجهود الذى بذلته فى العزف :

- أبدا.. مابفكرش فى حاجة.

وقال الأستاذ وهو يهز يده الهزيلة أمام عينيها :

- مش ممكن.. انتى عقلك مش هنا.. فيه غلط كتير.. كتير..

ثم شد نفسا عميقا من صدره، كأنه يستجلب به الصبر.

واستطرد وهو يحاول أن يخفف من حدته :

- العبى تانى.. من الأول.. وخللى عقلك فى صوابعك.

وقالت ليلى فى استسلام حزين، كأنها تهم بالبكاء :

- حاضر.

وبدأت ليلى تعزف.. ولكنها لم تكد تعزف قليلا، حتى سمعت نقرا على

الباب.. ولم تتوقف عن العزف، ونظر الاستاذ ناحية الباب فى دهشة.. ثم كذب اذنيه.. ولكن النقر استمر على الباب فى إلحاح.. وعاد الاستاذ ينظر فى دهشة دون أن يأذن للطارق بالدخول، وليلى مستمرة فى العزف.

ثم فتح الباب فجأة، وأطل منه فتحى.. وبين شفتيه ابتسامة مصطنعة، وعيناه الواسعتان القلقتان تبرقان بريقا خاطفا، لا تدرى أهو بريق سوادهما أم بريق بياضهما؟

وصرخ الأستاذ فى وجهه :

- عايز ايه.. مين سمح لك بالدخول.. دى مدرسة مش قهوة !

وكفت ليلى عن العزف، والتفتت إلى فتحى، وفى عينيها دهشة، تبددها فرحة.

ولم يغضب فتحى من صرخة الاستاذ.. إنه يعرفه من زمن طويل، ويعرف حدته، ويعرف قلبه الطيب.. وقال وابتسامته لا تزال بين شفتيه، وهو ينظر إلى ليلى نظرات مختلسة سريعة :

- بونسوار بروفسير.

وصرخ الأستاذ :

- أنا مش فاضى.. استنى برة.

وقال فتحى :

- أنا بس عايز آخد ميعاد، علشان أسمعك لحن جديد.

وقال الأستاذ.. وعينا ليلى معلقة بفتحى :

- بكرة.. بكرة.. أقفل الباب من فضلك.. اقفله من برة.

وأدار الأستاذ ظهره لفتحى.. فأسرع فتحى وأشار لليلى اشارة تفهم منها أنه ينتظرها فى الشارع.. عند باب العمارة.. ثم عاد يقول للأستاذ :

- بكرة الساعة كام ؟!

واستدار الأستاذ له، ونظر إليه وبين شفتيه ابتسامة ساخرة، وقال كأنه يئس منه :

- بلاش بكرة.. بعد بكرة.. الساعة عشرة الصبح.

وقالت ليلى، وهى تبتسم لفتحى :

- أشتكيك بأه للبروفسور.

ثم استدارت إلى الأستاذ قائلة :
- ده ما بيحبش بيتهوفن.
وقال الأستاذ، والابتسامة الساخرة لا تزال بين شفتيه :
- مافيش واحد بيحب بيتهوفن وواحد ما بيحبهوش.. إنما فيه واحد بيفهم بيتهوفن، وواحد ما يفهموش.. فتحى ماعندوش صبر علشان يفهم بيتهوفن.
ثم نظر إلى فتحى، واستطرد :
- أنا سمعت اللحن بتاعك الأخير.. أحسن، إنما لسة بدرى وقال فتحى، وهو ينسحب من الباب :
- اللحن الجديد حايعجبك.. أوريفوار.. بكرة الساعة عشرة..
وخرج فتحى، بينما الأستاذ يهز كتفيه، كأنه يستخف بفتحى، ويستخف بنفسه، ويستخف بنصيبه فى الحياة.
واعتدلت ليلى ناحية البيانو، وعقلها سارح.
لماذا جاء فتحى؟
إنها المرة الأولى التى يقتحم عليها غرفة الدرس بهذه الجرأة؟
إنه لا يريد أن يقابل الأستاذ.. ولا يريد أن يسمعه لحنا جديدا.. إنه يريدها هى.. إنها واثقة من ذلك.. ولكن لماذا.. ماذا حدث ؟
ولم تعد ترى أصابعها وهى تقفز فوق البيانو.. ولم تعد تسمع اللحن الذى تعزفه.. لم تعد ترى إلا أفكارها.. ولم تعد تسمع إلا أفكارها.. كانت تعزف أفكارها.
واقترب منها الأستاذ فى صمت، ثم أمسك بغطاء البيانو وهم بأن يغلقه، فوقعت النوتة الموسيقية من فوق مسندها.. وقال فى هدوء ساخر :
- خلاص.
وسحبت أصابعها بسرعة قبل أن ينطبق عليها الغطاء، وقالت فى دهشة كأنها أفاقت من حلم :
- خلاص ايه ؟
قال وهو لا يزال هادئا :
- خلاص الدرس.

قالت وهى تحس بتأنيب الأستاذ :

- انا لسة ماخلصتش.

قال :

- معلهش.. بكرة.

واحتقن وجه ليلى خجلا وارتباكا، كأنها طفلة ضبطتها أمها واقفة فى الشباك تعاكس ابن الجيران.. أحست أن الأستاذ ينفذ بعينيه الضيقتين إلى قلبها.. وإلى أفكارها. وجمعت النوتة الموسيقية التى سقطت فوق مفاتيح الانغام، وقامت واقفة، وقالت كأنها تعترف :

- أنا آسفة.. أصلى تعبانة النهاردة شوية.

وأمسك الأستاذ بيدها وأخذ يربت عليها، وقال كأنه يصف لها الدواء:

- المزيكة.. المزيكة بس.. خسارة تضيعى نفسك..

وفتحت فمها كأنها تهم بالكلام، ثم عادت، وسكتت، وقالت فى صوت ضعيف :

- بونسوار.

وخرجت والأستاذ ينظر إليها فى اشفاق، كأنه يرثيها.

وسارت ليلى فى الممر الذى يفصل بين الحجرات، ووجهها لا يزال محتقنا، والانغام التى تنبعث من خلف الأبواب المغلقة، تختلط فى أذنيها، وتتجمع فى ضجيج قاس.. ضجيج يملأ نفسها.. أنها تحس بأنها خائنة.. وخانت نفسها، وخانت استاذها، وخانت فنها.. ووسط الضجيج الذى يملأ نفسها، يتصاعد صوت الأستاذ وهو يقول لها : «المزيكة.. المزيكة بس.. خسارة تضيعى نفسك».. لقد فهمت ما يعنيه.. لقد أحس أستاذها بأنها خانت الموسيقى عندما جلست أمام البيانو وعقلها مع فتحى.. وهو يريدها أن تضحى بفتحى من أجل الموسيقى.. ولكنه لا يدرى.. لا يدرى أن الموسيقى وفتحى قد أصبحا شيئا واحدا.. إنها تعزف الموسيقى فيمتلىء خيالها بفتحى.. وتجلس مع فتحى فيمتلىء خيالها بالموسيقى.

ولم تلتفت ليلى إلى أحد من زملائها وزميلاتها المتجمعين فى البهو.. ونظروا إليها فى دهشة، وهى تسير فى خطوات عصبية، وضفيرتها ترتعش خلف ظهرها، ووجهها لا يزال محتقنا.. وصاح مصطفى خلفها :

- ليلى.
والتفتت إليه لفتة سريعة وقالت فى صوت جاف :
- آسفة.. أصلى مستعجلة يا مصطفى.
وخرجت من باب المعهد، وهى تسمع مصطفى يقول لزملائه.
- مش قلت لكم أن الاستاذ عصبى النهاردة.. آهو ما كملش الدرس مع ليلى !
ونزلت ليلى السلم، وهى تستند بيدها على الحائط كأنها تخشى أن تقع.. وخرجت من باب العمارة.. ورأت فتحى واقفا وظهره لها، ويداه فى جيبى بنطلونه.. فلفت حوله ووقفت أمامه، وقالت وأنفاسها تتمزق بين شفتيها :
- عملت كده ليه يا فتحى ؟
وأخرج فتحى يديه من جيبى بنطلونه، وقال وهو ينظر إليها بعينيه القلقتين :
- كنت مضطر.. خفت تتأخرى قوى.. فضلت مستنى نص ساعة، لغاية ما زهقت، فطلعت أدور عليكى.
قالت وهى تبحث بعينيها فى وجهه :
- ده الاستاذ زعل قوى.. مارضيش يكمل الدرس معايا قال وهو يلمس ذراعها بيده.
- ماتخافيش.. بكرة حايصبح ناسى.. أنا عايزك فى حاجة مهمة.. مهمة خالص.
قالت وفى عينيها شهقة :
- ايه.. حصل ايه ؟
قال وهو يحاول أن يخفف شهقتها بابتسامته :
- تعالى معايا.
قالت :
- فين ؟
قال كأنه يتوسل :
- ماتسألنيش.. علشان خاطرى.

ثم جذبها جذبة خفيفة من ذراعها، وسار وهى تسير معه فى خطوات مترددة.. وقالت :

- حانمشى مع بعض فى الشارع يا فتحى ؟! بعدين حد من إخواتى يشوفنا !

وقال وهو يوسع فى خطاه :

- دى حتة قريبة.

وأسرعت فى خطاها لتلحق به، وقد ألهتها الحيرة عن غضب أستاذها عليها.. نسيت استاذها ونسيت معهد الموسيقى كله.. وقالت وهى ترفع رأسها إليه لتتسلق بعينيها قامته الطويلة :

- مش تقول لى رايحين فين ؟

قال وهو لا ينظر إليها :

- دلوقت حاتعرفى.

وسارت بجانبه، وخطواتها مرتبكة، وأنفاسها مرتبكة، وعقلها مرتبك.. وكانت المرة الأولى التى تسير فيها مع فتحى فى شارع عام.. وخيل إليها أن الناس كلهم يقفون وينظرون إليهما.. كلهم يعرفون قصتها معه.. وكلهم يعرفون أنه متزوج؟ وكلهم يلومونها.. إنها تحس كأنها تسير وقطعة منها عارية.. لا تدرى أية قطعة منها، ولكنها تريد الاختباء. الاختباء من الناس.

ولكن إلى أين يأخذها فتحى؟ إنها لا تدرى.. إنها لا تستطيع حتى مجرد التخمين.

وانحرف فتحى فى شارع شامبليون، ثم عبر الشارع، واتجه إلى العمارة البيضاء الحديثة التى تقع على اليسار.. وهم بالدخول.. وهنا وقفت ليلى فى عناد، كأنها ضغطت بقوة على فرامل ساقيها، وقالت وأنفاسها المرتبكة تتلاحق، ونظرة تصميم فى عينيها :

- لازم أعرف أنت واخدنى فين ؟

ووقف امامها، ودماؤه قد تجمعت تحت وجنتيه، وأطل عليها بعينيه اللتين يختلط فيهما بريق بياضهما ببريق سوادهما، وقال فى صوت يرتعش فوق شفتيه.. وهو ليس أقل منها ارتباكا :

- وحياتى عندك ماتسألنيش.. دى مفاجأة.

قالت فى إصرار :

- لغاية هنا، ولازم أعرف المفاجأة.

قال وكأنه يلومها :

- يعنى مش واثقة فيّ ؟

ونظرت إليه فى حيرة.. إنها تثق فيه.. نعم، تثق فيه.. ورغم هذا فهى لا تريد أن تنقاد.. لا تريد أن تستسلم.. شىء فيها يرتعش فى خوف.. إنها تريد أن تطمئن.

وقالت وقد بدأ اصرارها يذوب :

- لازم أعرف.. مش عايز تقول لى ليه ؟

قال فى صوت جاد، وهو ينظر خلفها :

- ليلى.. البواب بيبص لنا.. ما تعمليش كدة، قدام الناس.

ولم تلتفت إلى البواب.. نظرت إلى فتحى، وتنهدت كأنها يئست.. ثم استدارت بسرعة كأنها خشيت أن تعدل عن قرار اتخذته، وتقدمته.. ودخلت من باب العمارة.

واتجها إلى المصعد.. ودخلا فيه.. وليلى تراقب فتحى بعينين يقظتين.. تراقب كل حركة يأتى بها. ورأته وهو يضغط على الزر المخصص للصعود إلى الدور السادس.. ثم ارتكنت بظهرها على جدار المصعد، وعيناها لا تزالان ترقبانه.. وهو لا ينظر إليها.

ووقف المصعد.

وخرجا منه.

وسارت وراءه.. واتجه إلى أحد أبواب الشقق المغلقة.. ورفعت عينيها إلى رقم الشقة.. إنها الشقة رقم «٦١».. ثم رأته يخرج من جيبه مفتاحا.. وفتح الباب.. وهم بالدخول.. ولم تتحرك من مكانها.. اتسعت عيناها.. وشفتاها منفرجتان نصف انفراجة.. كأنها صعقت.

وأمسك بيدها، وجذبها معه.. وقال بصوت رقيق وابتسامة ترتعش فوق شفتيه :

- تعال.

ولم تقاوم.. أحست بقواها تخور.. كل شىء فيها يتداعى ويتخلى عنها..

إنها لا تستطيع أن تعود، ولا تستطيع أن تقدم، ولا تستطيع أن تفكر ولا أن تقرر.. فاستسلمت كأنها تضع نفسها بين يدى الله.

دخلت معه.

وأغلق الباب.

وأدارت عينيها المشدوهتين حولها.. إنها شقة خالية.. ليس فيها شيء من الأثاث.. وليس هناك شيء على الجدران.. لا مقعد، ولا أريكة، ولا مائدة، ولا صورة.. لاشيء.. لاشيء سوى بيانو.. بيانو كبير.. أسود .. ملتصق بأحد الجدران.

وهو واقف بجانبها، يرقبها بعينين ملهوفتين، كأنه ينتظر حكمها.. حكم يقرر مصيره.

وقالت فى صوت مخنوق كأنها تتكلم فى حلم :

– دى شقة مين دى.

قال وهو يرخى عينيه عنها :

– ده بيتنا.

وقالت لنفسها فى همس وهى لا تزال مشدوهة :

– بيتنا !!

وسارت فى أنحاء الغرفة فى خطوات بطيئة.. وهى تنظر إلى الجدران، وإلى السقف وإلى الأرض، كأنها تبحث عن نفسها فى بيتها.. ثم اقتربت من البيانو، ورفعت غطاءه، وضغطت بأصبعها على أحد مفاتيح الأنغام، فصدر عنه نغم رفيع كأنه أنة جريح.. ثم عادت وأغلقت الغطاء.. وسارت نحو باب مغلق، وفتحته.. إنها غرفة أخرى خالية.. عارية.. ليس فيها شيء.. ودخلت فى الغرفة، ولم يدخل وراءها، ظل واقفا مكانه صامتا، يرقبها من بعيد.. ثم خرجت من الغرفة، ودخلت فى ممر صغير، على أحد جانبيه باب، فتحته.. إنه الحمام.. وباب آخر أنه المطبخ.

وعادت إلى الصالة الخارجية.. وهى تسير بخطواتها البطيئة، كأنها تخوض فى سحاب.. كأنها تسير فى حلم.. وكان فتحى واقفا مستندا بذراعه على حافة البيانو.. وقال وهو ينظر إليها، وابتسامة مترددة فوق شفتيه، وابتسامة أخرى أكثر ترددا فى عينيه :

- عجبك بيتنا.

ولاحظت أنه يضغط على كلمة «بيتنا» ويكررها.. كأنه يريد أن يخرق بها أذنيها، كأنه يريد أن يحشرها حشرا فى عقلها.

ولم ترد عليه.

جلست على مقعد البيانو.. وأسقطت يديها فى حجرها.. وأسقطت رأسها فوق صدرها.. وضباب حزين يتكاثف فى داخلها، ويطل من عينيها.. إنها حزينة.. ولا تدرى لماذا لا تفرح؟ إنها مع فتحى.. معه فى مكان لا تشغله زوجته.. فلماذا لا تفرح.. لماذا.. لماذا تريد أن تبكى؟

ووضع فتحى كفه فوق رأسها، ومسح على شعرها فى حنان، وقال فى صوت خافت، كأنه يناديها من عالم بعيد :

- ليلى.

ورفعت رأسها إليه وفوق شفتيها ابتسامة مسكينة، ونظرة تتنهد فى عينيها، وقالت :

- عملت كده ليه ؟

ولم يرد.. رفع كفه من فوق رأسها، واعتدل فى وقفته، وأخرج من جيبه علبة سجائره، وأشعل سيجارة، ثم ألقى بعود الكبريت على الأرض، وعاد يستند بذراعه فوق حافة البيانو.. ثم نفخ الدخان من شفتيه بقوة، كأنه ينفث عن صدره كل أسراره، ثم قال وهو لا ينظر إلى ليلى، وفى عينيه نظرة حادة:

- عايزة تعرفى عملت كده ليه.. علشان مراتى.

وارتعشت رموشها فوق عينيها عندما سمعت كلمة «مراتى»، كأنها رأتها أمامها.. وقالت فى سرعة :

- مراتك.. ليه؟ هيه عرفت حاجة؟

قال كأنه يبدأ فى مرافعة طويلة يدافع بها عن نفسه :

- لازم تكون عرفت.. وإذا ماكنتش عرفت، تبقى حست.. دى عايشة معايا بقى لها اتناشر سنة.. مابقاش فى حاجة منى تستخبى عليها.. بتقرأ اللى فى مخى، وبتشوف اللى فى قلبى.. ويوم ما كنتى بتيجى عندنا فى البيت وتخرجى.. أبقى مش عارف أكلمها.. بابقى حاسس إنها عارفة كل

اللى بينا.. وشايفة بوستك على شفايفى، وشمة ريحتك فى هدومى.. انتى متعرفيش أنا باتعذب قد ايه.. باتعذب بيها.. بمراتى.. وما كانش ممكن أستحمل العذاب طول عمرى.. ماكانش ممكن نفضل نتقابل فى بيتنا على طول.. نتكلم واحنا خايفين.. ونبوس بعض واحنا خايفين.. زى ما نكون حرامية.. ونكدب.. ونكدب.. والكدب باين فى عنينا.. كان لازم نتقابل فى حتة لوحدنا.. فى حتة بتاعتنا.. فى بيتنا.. بيت ما نخافش فيه.. وما نكدبش فيه.. بيت ما يدخلوش إلا حبنا.. بيتك، وبيتى، احنا الاتنين بس بيت أزعق فيه زى ما أنا عايز.. وأشد شعرك، وأفك ضفيرتك.

وخفت صوته وقال كأنه يرثى حاله :

– انتى عمرك ما سمعتى صوتى وأنا بازعق.. وأنا عمرى ما شفت شعرك سايب من غير ضفيرة.

وقالت وهى ترفع رأسها له، وتبتسم ابتسامة صغيرة كأنها تواسيه بها:

– يعنى انت خدت الشقة دى علشان تتخانق فيها معايا ؟

ولم يرد عليها.. ولم ير ابتسامتها.. وقال وهو لا ينظر إليها :

– انا بقى لى تلات أشهر وأكتر، وأنا بافكر إننا نأجر شقة.. لكن كنت خايف.. كنت خايف أنك ماتفهمنيش.. وبعدين ما أقدرتش استنى.

وصمتت برهة كأنها تستعيد كلامه، كلمة كلمة، ثم كأنها اقتنعت به، ووضعت يديها فوق صدره، وقالت فى صوت ناعم حنون :

– أنا فاهمة، وموافقة.. إنما..

وسكتت.. لم تتم كلامها.

ونظرت إليه.. التقت عيناه بعينيها.. لقاء هادئا، كأن كلا منهما يستريح فى عينى الآخر، بعد أن بحثا عن بعض طويلا.

ثم مد ذراعيه، وضمها إلى صدره.. ضما رقيقا، بلا قسوة.. وقلبه يتبادل الخفقات مع قلبها..ووضع خده على خدها.. ثم طاف فوقه بشفتيه، حتى التقط شفتيها.

وناما فى قبلة طويلة.

ثم استيقظا من قبلتهما.. ونظرت إليه، وفوق وجنتيها لون الحب.. نظرت إليه طويلا، وهى تبتسم.. وهو لا يفهم معنى نظرتها ولا ابتسامتها.. ثم

اقتربت منه بشفتيها فجأة وأخذت تقبله فى كل مكان من وجهه.. عشرات القبل.

ثم ابتعدت عنه، وقالت وصوتها يزغرد :

– تعرف أنا بابوسك ليه ؟

قال فى دهشة حلوة :

– ليه ؟

قالت :

– علشان مامسحتش بوستى زى عوايدك.. دى أول مرة تبوسنى ولا تمسحش البوسة.

قال وهو يمد ذراعيه إليها، ويعيدها إلى صدره :

– علشان تعرفى أنه كان لى حق.. دلوقت ما احناش خايفين من حد..

ثم صرخ صرخة خافتة، واستطرد :

– السيجارة حاتحرق صوابعى.

والقى السيجارة على الأرض، وداسها بقدمه.. ثم عاد يضمها إلى صدره.. وانحنى بشفتيه على شفتيها.

إن القبلة لها طعم آخر.. غير القبلات التى كانا يتبادلانها فى بيته.. إنها قبلة بلا خوف.. بلا تردد.. قبلة ليست مسروقة.. قبلة منطلقة.. وهو يضغطها إلى صدره أكثر وأكثر مما تعودته منه.. ويشد ضفيرتها بقسوة.. لم تكن تعتقد أنه يستطيع أن يكون قاسيا إلى هذا الحد.. وأنفاسه تتهدج.. إنها لم تشعر بأنفاسه هكذا أبدا.. و..

وفجأة اطلقها من بين ذراعيه وابتعد عنها.. وأدار لها ظهره، كأنه لا يريدها أن ترى وجهه.. أن ترى عينيه.

ثم استدار لها بعد برهة، وهو يبتسم ابتسامة يحاول أن يخفى تحتها انفعاله.. ونظرت إليه فى حيرة، كأنها تسأله ماذا جرى له؟

وقال وهو ينزع صوته من حلقه فى صعوبة :

– أنا لازم انزل دلوقت.. عندى ميعاد فى محطة الإذاعة.

قالت وهى دهشة منه :

– وأنا ؟

قال وهو يبتسم :

- ابقي انزلى على مهلك.

ثم وضع يده فى جيبه، وأخرج مفتاحا وأمسك بيدها، ووضع فيها المفتاح، وقال وهو يقبلها بعينيه :

- ده مفتاح بيتك.

وابتسمت فى ارتباك وقالت :

- طيب خليه معاك.

قال وهو يتجه نحو الباب :

- مفتاح معاكى، ومفتاح معايا.

وفتح الباب، ولحقت به، وقالت فى خفر وهى مستندة إلى حافة الباب، كأنها تودع زوجها :

- ما تتأخرش !

وابتسمت ابتسامة كبيرة.. وعاد برأسه إليها، وقبلها فوق خدها.. وخرج.. وظلت واقفة تنظر إليه، حتى صعد المصعد إليه، واختفى فيه.

وأغلقت الباب فى هدوء.. ارتكنت عليه بظهرها.. وابتسامتها الكبيرة لا تزال بين شفتيها، ثم نظرت إلى المفتاح فى يدها.. نظرت إليه طويلاً، ثم ضمت راحتها عليه، كأنها تضمه إلى قلبها.. ثم اخرجت من جيب ثوبها، كيس نقودها الصغير، ووضعت المفتاح فيه.. وعادت تطوف بعينيها فى الشقة الخالية.. إنه بيتها.. إنها تحس أنها تملك كل شىء هنا.. تملك الجدران، والسقف، والأرض، والهواء.. وخطت بضع خطوات، وانحنت على الأرض تلتقط عود الكبريت الذى قذف به فتحى.. ثم اعتدلت، وخطت خطوة أخرى وانحنت تلتقط عقب السيجارة.. ثم بللت أصبعها بشفتيه، وأخذت تمسح به آثار اطفاء السيجارة.. من على الخشب الباركيه.. ولم تكتف.. جلست على ركبتيها وأخرجت منديلها الصغير، وبللته بشفتيها، وأخذت تمسح به الأرض مكان اطفاء السيجارة، وهى تهز رأسها كأنها تلوم فتحى، وقالت كأنها تحادثه :

- تعرف تانى مرة ترمى سيجارة على الأرض.. حاتعرف شغلك !!

ثم قامت واقفة. واحتارت أين تلقى بعود الكبريت وعقب السيجارة..

فذهبت إلى المطبخ، وفتحت الباب المؤدى إلى سلم الخدم، والقتهما هناك.. ثم عادت تطوف بأنحاء الشقة.. فتحت الشبابيك وعادت وأغلقتها.. ودخلت الحمام، وفتحت صنبور المياه.. وخيل إليها أن صوت المياه وهو ينسكب من الحنفية لم تسمع مثله من قبل.. إنه صوت كصوت الغدير.. والمياه صافية.. أصفى من المياه التى فى بيتهم.. وأغلقت الصنبور.. ودخلت المطبخ.. وجربت ازرار النور.. ليس فى الشقة إلا مصباح واحد.. فى الصالة.

وتنهدت كأنها ملكت الدنيا كلها.

دنيا لها وحدها.

دنيا لا تريد أن تخرج منها.

ولكنها يجب أن تخرج.

وهزت رأسها فى أسف، ثم حملت النوتة الموسيقية، وخرجت.. وأغلقت الباب وراءها.. وعادت تنظر إليه بعد أن أغلقته.

وعندما سارت فى الشارع، أحست أنها كبرت.. أصبحت فتاة كبيرة.. وأنها تملك شيئا عزيزا ثمينا.. لا تملكه إلا السيدات المحترمات..

اصبحت تملك مفتاحا.

مفتاح البيت.

ودخلت بيت العائلة وهى تخطو ساهمة.. وموسيقى هادئة كتراتيل الملائكة ترن حولها، وتملأ قلبها وخيالها وأذنيها.. ومرت بأختها نبيلة وهى جالسة فى البهو.. وسمعتها تقول لها :

- بونسوار.

وخيل إليها أن صوت أختها يأتى من بعيد.. من عالم غير عالمها.. فتمتمت فى همس كأنها ترد على شبح :

- بونسوار.

وسارت فى خطواتها البطيئة إلى غرفتها، وعينا أختها تتبعانها فى دهشة.. وأغلقت الباب وراءها.. والقت بالنوتة الموسيقية فوق السرير.. ووقفت امام المرآة تبدل ثيابها، وهى لا تزال ساهمة.. لا ترى نفسها فى المرآة.. وارتدت جلباب النوم، وفوقه « الروب دى شامبر»، ثم فتحت كيس

نقودها الصغير، وأخرجت المفتاح وأخذت تنظر إليه، وتبتسم له، ثم أعادته إلى الكيس، ووضعت الكيس فى الدولاب.. ثم خطت نحو السرير وجلست فوقه وظهرها مسند إلى الحائط، واحتضنت ركبتيها بين ذراعيها.. وراحت عيناها تطوفان بأرجاء الشقة المرتسمة فى خيالها.

وبدأت تؤثث الشقة بخيالها.

ستضع فى الصالة مقعدين صغيرين «ستيل مودرن»، ومقعدا عريضا ليستريح عليه فتحى.. ومائدة كبيرة تضع فوقها النوت الموسيقية.. ودولابا لحفظ الاسطوانات.. وراديو.. لا.. إنها تستطيع أن تستغنى عن الراديو.. يكفى أن تشترى «بيك آب».. ومائدة أخرى صغيرة.. و..

وانتهت من تأثيث الصالة وبدأت تفكر فى تأثيث الغرفة الوحيدة.. كيف تؤثثها؟ واحتارت.. وراودتها فكرة، احمرت لها وجنتاها، وخفضت عينيها فى خفر.. وحاولت أن تطرد هذه الفكرة.. إنها ليست فى حاجة إلى هذه الغرفة.. يكفيها هى وفتحى الصالة الخارجية.. وقفزت بخيالها إلى المطبخ.. إنها فى حاجة إلى بوتاجاز صغير.. أو سخان كهربائى.. سخان كهربائى، أحسن.. وإلى غلاية شاى.. وإلى عدد من الكوبات الزجاجية.. إن فتحى يشرب كثيرا من الشاى، ويشربه دائما فى كوب زجاجى.. ثم بعض الأطباق.. و..

وعاد خيالها يقفز مرة ثانية إلى الغرفة الوحيدة.. كيف تؤثثها؟ ومدت أصابعها بلا وعى منها وبدأت تفك ضفيرتها، كأنها تتشاغل بها عن أفكارها.

ولا تدرى كم من الوقت مضى وهى فى جلستها، فوق السرير.. ولكن خيّل إليها أن الباب فتح.. وأنها تسمع صوت أختها فيفى.. ولم تلتفت.. أعتقدت أنها واهمة.. ولكن الصوت يرتفع وأختها فيفى تكاد تصرخ :

– ليلى.. مالك.. سرحانة فى ايه ؟

والتفتت ليلى إليها، وقالت وهى تغتصب من خيالها ابتسامة :

– أبدا.. كنت بافكر فى الحفلة بتاعة الشهر ده.. أصل عيشة حاتلعب فيها..

وقالت فيفى وهى تنظر إلى اختها كأنها لا تصدقها :

- يعنى مادوشتناش النهاردة، بالبيانو بتاعك.
وقالت ليلى وهى تقوم من فوق السرير، وتقف أمام المرآة :
- أصلى دوشت المعهد كله تلات ساعات.
وقالت فيفى وهى لا تزال واقفة بجانب الباب :
- مش حاتتعشى.
وقالت ليلى :
- حاضر.. بس لما أربط شعرى.
وخرجت فيفى من الغرفة.. ووقفت ليلى تساوى شعرها، وتجمعه تحت وشاح أخضر اللون.. ثم وضعت قدميها فى شبشب بلا كعب، وشدت حزام الروب حول خصرها، وخرجت من الغرفة.. ومرت أمام آلة التليفون، موضوعة فوق مائدة صغيرة فى الممر الذى يفصل بين الحجرات.. ووقفت تنظر إليها فى تردد.. وحاولت أن تبتعد عنها.. ولكنها عادت ورفعت السماعة، وأدارت رقما.
وسمعت صوت فتحى يقول فى إلحاح :
- آلو.. آلو.. آلو.
وانتظرت قليلا كأنها تشرب بأذنيها من صوته.. ثم قالت :
- مرسيه يا فتحى.. أنا بس حبيت أقول لك.. مرسيه.. وقفز صوته فرحا، وقال :
- انتى فين ؟
قالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :
- فى البيت.
قال :
- مش ممكن.. أنا سايبك على أنك نازلة من البيت.. يمكن قصدك إنك فى البانسيون.
وضحكت ضحكة خافتة، وقالت :
- أيوه.. أنا فى البنسيون.. وأنت فين ؟
قال وهو يتنهد :
- أنا فى البنسيون التانى.

وقالت :

- طيب أوريفوار بأه، أحسن اخواتى مستنينى على العشا.

قال:

- أوريفوار.. تصبحى على خير !

قالت هامسة :

- تصبح على حب.

وأعادت سماعة التليفون إلى مكانها فى رفق كأنها تخشى أن تصدمه بها.. وسارت فى موكب خيالها نحو حجرة الطعام.. لم يعد لها بيت إلا بيتهما.. بيتها هى وفتحى.. وتلفتت حولها، وخيل إليها أنها غريبة.. غريبة وسط أهلها.. ليس هذا بيتها.. إنه بنسيون..مجرد بنسيون.

ولم تكن من عادة العائلة أن تجتمع على مائدة العشاء.. إنهم يجتمعون فقط ساعة الغداء.. أما العشاء فلا نظام له.. كل منهم يتعشى عندما يريد.. وكان أحمد وممدوح فى الخارج، والأم لا تتناول طعام العشاء لأنها تتبع نظاما خاصا للمحافظة على وزنها.

وجلست البنات الثلاث حول المائدة.. وليلى تلقى بالطعام فى فمها دون أن تحس به.. ولأنها لا تحس به فقد أكلت كثيرا، أكثر من عادتها.. وهى لا تحس بشبع ولا بجوع.. وأختاها تتحدثان دون أن تلقى بالا لحديثهما، ثم قالت فيفى فى صوت مرتفع :

- ليلى.. انتى مش عاجبانى.. ايه الحكاية ؟

وقالت ليلى دون أن تنظر إليها :

- أبدا مافيش.. انتم بتتكلموا عن الجامعة، وأنا ماليش دعوة بالجامعة؟

ومدت نبيلة يدها، وأمسكت بذقن ليلى، وأدارت وجهها إلى ناحيتها، ثم قالت :

- ورينى كدة..

ونظرت فى عينيها وهى تفتعل الجد، ثم قالت ضاحكة :

- لسه الحالة مش خطرة.. احكيلنا بأه يا ستى.

وقالت ليلى :

- أحكى على ايه.. مافيش حاجة !

وقالت فيفى :

– طيب بطلى أكل.. أحسن بتأكلى وانتى سرحانه.

وألقت ليلى الشوكة من يدها مرة واحدة، كأنها تنبهت فعلا إلى أنها أكلت كثيرا.. وأزاحت مقعدها، وقامت واقفة، وقالت :

–أما أقوم أنام بأه.. أنتم يظهر بالكم رايق النهاردة..

وعادت إلى غرفتها، وخلعت الروب، وألقت نفسها فى فراشها.. إنها لا تريد أن تنام.. خسارة أن تضيع سعادتها فى النوم.. إنها تريد أن تسعد بكل دقيقة، وكل ثانية من عمرها.. تسعد بخيالها.. بالدنيا التى وجدتها.. الدنيا التى قدمها لها فتحى.

ولكن النوم يلح عليها.

وجفونها تتراخى فوق عينيها.

وحاولت أن تقاوم.. حاولت أن تحتفظ بعينيها مفتوحتين لترى بهما خيالها.. ولكن النوم يغلبها.. وأعصابها تتراخى.

ونامت.. على وسائد من خيالها.. من سعادتها.

●●●

واستيقظت ليلى من النوم فى الصباح التالى، واستيقظ معها خيالها.. ومرت بها لحظة ارتاعت فيها.. خشيت أن يكون ما مر بها بالأمس مجرد حلم.

وخرج كل اخوتها..

وبدأت ترتدى ثيابها لتذهب إلى معهد الموسيقى.. أن درسها يبدأ فى الساعة الحادية عشرة.

وحملت نوتتها الموسيقية، وخرجت.. وركبت الأتوبيس، وهى لا تفكر فى معهد الموسيقى.. ولا فى أستاذها.. ولا فى بيتهوفن.. أنها تفكر فى بيتها.. بيتها هى وفتحى.

وعادت تفتح كيس نقودها الصغير، وأخرجت مفتاح الشقة وأخذت تتأمله.. إنه جميل.. إنه أجمل مفتاح فى الدنيا.. ولم تكن تدرى أن المفاتيح يمكن أن تكون بهذا الجمال.. لم تكن تدرى أن المفاتيح يمكن أن يكون لها مثل هذا الاعزاز الذى تحس به نحو مفتاحها.. ولم تكن تعلم أن هذا الشىء

الصغير يمكن أن يفتح هذا العالم الواسع الذى انطلق فى خيالها.

ونزلت من الأتوبيس.. وسارت فى شارع سليمان باشا، ووقفت تتفرج على معرض موبيليات.. ثم وقفت مرة ثانية أمام معرض آخر.. ثم وصلت إلى باب معهد الموسيقى.. وهمت بالدخول.. ولكنها فجأة توقفت.. واستدارت، وعادت تسير نحو ميدان سليمان باشا.

إنها لن تذهب إلى المعهد.

وصوت متمرد يصرخ فى صدرها.. «يا مجنونة.. الموسيقى.. استأذنك.. فنك».. وهى تحاول أن تستجيب لهذا الصوت.. تحاول أن تعود إلى المعهد.. ولكن خطاها مندفعة إلى الامام.. إنها ستكذب.. ستكذب على المعهد.. وعلى استاذها.. وعلى زملائها.. وعلى نفسها.. ستقول إنها كانت مريضة.. أنها ستكذب.

ووصلت إلى ميدان سليمان باشا.. ثم سارت فى شارع قصر النيل.. ثم دخلت أحد المحال الانيقة وأخذت تنتقى منفضة السجائر.. ضيعت وقتا طويلا فى اختيارها.. كأنها تختار قطعة من الماس.. ثم حسبت النقود التى معها، واشترتها.

واتجهت إلى شارع شامبليون.. واختارت طريقا لا يمر من أمام معهد الموسيقى.. ودخلت إلى العمارة، وحاولت أن تنظر إلى البواب.. ولكنها لم تستطع.. دخلت كأنها تتسلل.. ووضعت نفسها فى المصعد.. وصعدت.. وقلبها يصعد إلى حلقها.

ووقفت أمام باب الشقة، وهى ترتعش.. كل ما فى داخلها يرتعش.. وأخرجت المفتاح بيد مرتعشة.. ووضعته فى القفل.. ومرت بها لحظة خيل إليها أنها أخطر لحظات حياتها.. لماذا يخفق قلبها إلى هذا الحد، لمجرد أنها تفتح الباب؟

ودخلت إلى الشقة وهى واجفة، تزحف بقدميها، كأنها داخلة إلى المعبد. وأغلقت الباب وراءها.

ووقفت قليلا لتسترد أنفاسها.. ثم اخذت تدير عينيها فى معبدها.. كأنها تقبل الجدران، والسقف، والأرض.. ثم القت نوتتها الموسيقية.. وأخرجت المنفضة التى اشترتها من لفافتها.. ووضعتها فوق الجانب

الأيمن من البيانو.. ثم تراجعت خطوة ونظرت إليها.. ثم عادت ووضعتها فى منتصف البيانو.. ثم عادت ونقلتها إلى اليسار.

وجمعت الورقة التى كانت المنفضة ملفوفة بها، وذهبت إلى المطبخ وألقتها من باب سلم الخدم.

ثم دخلت الحمام.. إن الحوض تعلوه الأتربة.. وفتحت الصنبور، وأخذت تمسح الاتربة عن الحوض بيديها.

هل ستكون فى حاجة إلى خادم.. لا.. إنها ستقوم بكل شىء بنفسها.. وهى فى حاجة إلى مكنسة.. ومنفضة من الريش.. وصابون.. وورنيش لتنظيف الباركيه.

وتعجبت من نفسها.. إنها لم تفكر يوما فى أن تكنس أو تمسح أو تغسل.. لم يكن أحد فى بيتها يجرؤ على أن يطلب منها شيئا، حتى صنع فنجان قهوة.. ولكنها الآن - فى بيتها - تريد أن تصنع كل شىء بنفسها، بيديها كأنها تغار على البيت من أن تمسه يد غريب، كأنها تضن به على الخدم.

وانتهت من غسيل الحوض، ونشفت يديها فى منديلها الصغير.. ثم أخذت تطوف بالشقة كأنها تطوف بممرات حديقة.. ثم فتحت نافذة، أطلت منها على بيوت الجيران، كأنها تقدم نفسها اليهم.. ولمحت فى النافذة المقابلة سيدة يبدو أنها أجنبية.. هل ستزورها بحكم الجيرة ؟

واتجهت إلى البيانو، وفتحته، وجلست إليه، وأخذت تعزف الحانا هادئة.. ثم عزفت مقطوعة لموزارت.. إن الموسيقى هنا لها رنين آخر.. لها صدى.. كأن عشرات الملائكة يعزفون معها.

ثم.

إنها تريد فتحى.. ليس بينها وبينه موعد.. ولكنها تريده الآن.. تريده أن يأتى.. وتحركت أصابعها فوق البيانو بلحن «أول لقاء».. اللحن الذى وضعه فتحى يوم أعلنها بحبه.. وأعادت عزف اللحن مرة ثانية.. ومرة ثالثة.. كأنها تناديه به.. إنها تحس أنه يسمعها.. وأنه سيأتى.

ثم توقفت عن العزف فجأة، وهى تبتسم، كأنما خطر لها خاطر جميل.. وجذبت ضفيرتها من خلف ظهرها، وأخذت تفكها.. إنه يريد أن يراها

وضفيرتها مفكوكة. وانسكب الذهب فوق كتفيها.. وأخرجت مرآتها الصغيرة، وأخذت تساوى خصلات الذهب.. ثم وضعت المرآة فوق البيانو.. وعادت تعزف لحن أول لقاء.. وعزفته مرة ثانية فى اصرار.. إنه سيسمعها.. وسيأتى.

وسمعت رنين جرس الباب، فجأة.. وسكتت عن العزف.. وقلبها يضطرب.. واتسعت عيناها فى ارتياع.. وأحست أنها لا تستطيع أن تقوم من مكانها.. من يكون القادم؟ لا يمكن أن يكون فتحى.. ربما كان البواب.. ربما كان انسانا غريبا.. كيف تستقبله؟ ماذا تقول له؟ وخافت.. أصبحت قطعة من الخوف.. وقالت فى صوت هامس لا يسمع :

– مين ؟

وسمعت صوت مفتاح يدور فى القفل.. وبرز فتحى من الباب.

ونظرت إليه، وتنهدت فى ارتياح كأنها تطرد أبخرة الخوف من صدرها.. ويدها تضغط على قلبها، حتى تهدىء اضطرابه ووقف فتحى ينظر إليها من بعيد بعينين ملؤهما الحب.. ينظر إلى شعرها.. إلى الذهب المنسكب فوق كتفيها.. ثم اقترب منها.. ووقف خلفها، ثم انحنى، واغترف خصلات شعرها بين يديه، ودفن وجهه فيها كأنه يشرب منها.. يشرب من غدير الذهب.

وأخذ يمسح وجهه بخصلات شعرها، ويقبله.. عشرات القبلات.. كأنه يحاول أن يقبل كل شعرة منه على حدة.

وقالت هامسة.

– أنا اتخضيت، لما سمعت جرس الباب.. كنت حاموت من الخوف.

وقال كأنه لم يسمعها :

– أنا كنت حاسس أنى حلاقيكى.

قالت، وعيناها تقبلان وجهه :

– وأنا بقى لى ساعة مستنياك.

وأخذها بين ذراعيه، وهدأ فى قبلة.

وابتعد فتحى عنها، وبحث عن علبة سجائره، وأشعل سيجارة، ثم سقطت عيناه على المنفضة التى اشترتها، فابتسم ابتسامة كبيرة، ولقى

فيها عود الكبريت، ثم انحنى يقبلها فى جبينها.. وهو يقول :

- مبروك..عقبال ما نكمل فرش البيت.

وقالت فى خفر تحاول أن تقاومه :

- علشان تانى مرة ما ترميش الكبريت على الأرض..

وقال، والفرحة تملأ وجهه :

- حاضر..

ثم تلفت حوله.. وجلس على الأرض بجوار البيانو، وأسند ظهره إلى الحائط، وقال وقد اشتد بريق عينيه :

- أنا عمرى ما كنت سعيد أد دلوقت.. مش عايز حاجة من الدنيا أكتر من كدة.. أكتر من أنى أفضل قاعد على الأرض وأبص لك.. مش عايز الباب ده ينفتح علينا.. أنا دلوقت حاسس بالاستقرار.. زى ما أكون لقيت نفسى.

وقالت وهى تنظر إليه فى حب :

- وأنا لقيت بيتى !

وقام واقفا، ثم جلس بجانبها على مقعد البيانو.. وأخذ يعزف لحنا مرحا راقصا، وأصابعه السمراء تقفز فوق الانغام كأنها سكرى بسعادته.. وشاركته العزف على الناحية الأخرى من البيانو.. وهما ساكتان.. تلتقى عيونهما فى قبلات سريعة.. ثم عزفا لحنا آخر.. ثم بدا الاهتمام فجأة على وجهه وعقد حاجبيه، وقال بسرعة وفى لهجة آمرة عنيفة :

- استنى.

ورفعت أصابعها عن البيانو بسرعة.. ثم أخذ يدق على مفاتيح الانغام باصبع واحد، ويتمتم «دو.. سى.. فا».. ثم بحث فى جيوبه بيدين ملهوفتين، وأخرج قلم رصاص، وأخرج علبة سجائره، وأفرغها من السجائر، وفرد لفافة الورق التى فى داخل العلبة.. ثم أخذ يكتب عليها بعض حروف موسيقية.

إنه يلحن.

هبط عليه الوحى.

وصمتت صمتا مقدسا، كأنها فى حضرة آلة الموسيقى.

والتفت إليها بعد مدة، وقال :
- ايه رأيك.
وعزفت بأصبعها اللحن الذى كان ينبعث من تحت أصابعه.
وقالت :
- جنان.
قال :
- ده لو قدرت أكمله حايبقى أحسن لحن عملته.. وحاسميه بيتى!!
وشبت بشفتيها تقبله فوق خده.
وقال، وهو يقوم من جانبها، ويقف مستندا بذراعه على حافة البيانو :
- قوليلى، حانفرش الشقة ازاى ؟
قالت وهى تنظر إليه مرتبكة :
- أنا عارفة.
قال :
- أوعى تكونى فاكرة أنى أنا اللى حافرشها.. ده أنا ماعرفش فى الحاجات دى أبدا.. لا أعرف أشترى ولا أبيع.
ووضع يده فى جيبه، وأخرج بضعة أوراق مالية.. وعدها.. ووجدها ثلاثين جنيها.. ثم مد لها يده بالنقود، قائلا :
- اتفضلى دول اللى معايا.
قالت وهى تتراجع، دون أن تمد يدها إليه :
- إيه دول..
قال :
- دول اللى حانفرش بيهم الشقة.. كل ما ألاقى فى جيبى شوية فلوس، حاديهم لك، وتشترى اللى انتى عايزاه.
قالت :
- لأ.. مش ممكن..
قال وقد علا صوته كأنه ضاق بترددها:
- امال حانفرش ازاى..
قالت :

- أبقى أنا أنزل أدور على الحاجة، وآجى أقول لك عليها، وانت تروح تشتريها..

قال فى صوت حزين:

- أنا عارف.. عارف ليه مش عايزه تاخدى منى الفلوس.. لسة معتبرانى راجل غريب.. مش قادرة تعتبرينى إنى الراجل بتاعك، وان الشقة دى شقتك، وإنك بتفرشى بيتك.

قالت :

- ما تقولش كده يا فتحى.. بس..

قال يقاطعها. والنقود لا تزال فى يده:

- اشمعنى مراتى ما بتنكسفش تحط ايديها فى جيبى، وتاخد اللى هيه عايزاه..

قالت :

- بس هيه.. و..

وعاد يقاطعها :

- عارف حاتقولى ايه.. بلاش.. ما تقوليش!

ثم وضع النقود على سطح البيانو، وقال وهو يتجه إلى الباب:

- أنا نازل بأه..

قالت :

- أنت زعلت منى يا فتحى!

ووقف وهو يبتسم، ثم ضمها إلى صدره، ودفن وجهه فى شعرها وقال وصوته ينبض بخفقات قلبه:

- أنا عمرى ما أزعل منك..

وأطلقها.. واقترب من الباب.. وقالت وهى تلحق به:

- مش تستنى أما أنزل معاك..

قال :

- لأ.. أنا عايز دايما أنزل وانتى فى البيت، وآجى بعدك علشان ألاقيكى فى البيت.. مش عايز أحس إنك بتسيبى بيتنا أبدا..

وابتسمت فى خفر..

وأغلق الباب وراءه..

وانطلقت من عينيها نظرة ساهمة.. إن الدنيا الجديدة أوسع بكثير مما تصورتها.. ولكن.. إن فى الدنيا الواسعة بابا مغلقا.. بابا لا تجرؤ على اقتحامه بعينيها ولا بخيالها.. باب تخاف ما وراءه.. إن وراءه ظلام.. ظلام.. إنه باب الغد.. إنها دنيا بلا غد.

وأحست بقلبها يغرق فى الظلام.. ينقبض..

وسحب من الحزن تلفها..

حزن مسكين.. ذليل..

ونكست رأسها..

وجمعت شعرها بين يديها وبدأت تضفره.. ثم اقتربت من البيانو، وأسندت المرآة إلى الحائط، وأخذت تحاول أن ترى فيها نفسها وهى تضفر شعرها.. وعيناها لاتزالان ساهمتين..

ثم..

وقبل أن تتم صنع ضفيرتها، التفتت إلى النقود الموضوعة فوق سطح البيانو.. ومدت يدها بسرعة، كأنها تخشى أن تعود إلى الظلام، والتقطتها.. ثم فتحت الكيس الصغير، وحشرت فيه أوراق النقود.

ثم عادت تتم صنع ضفيرتها، وتحاول أن تنظر إلى المرآة..

وخرجت..

وفى طريقها إلى البيت، مرت بإحدى المكتبات، واشترت كتالوجا لقطع الأثاث.

٨

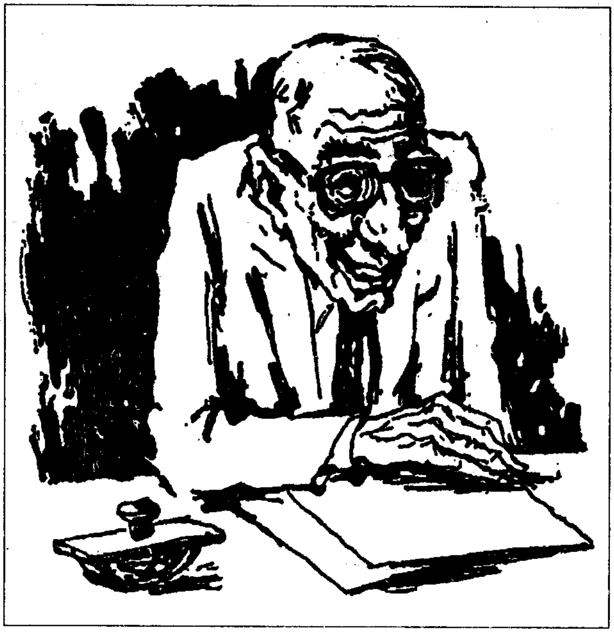

خرج أحمد من البيت فى الساعة الثامنة والنصف صباحا وهو متجهم الوجه.. عيناه مكدودتان تحيط بهما بقع سوداء.. وشفتاه مقلوبتان.. وإحساس ثقيل يجثم على صدره، ويكاد يكتم أنفاسه. احساس بالفشل.. إنه إنسان فاشل.. وقد قضى الليل كله يحاول أن يهرب من هذا الاحساس.. لم يحاول أن ينكره، ولكنه فقط حاول أن يهرب منه.. ولم يستطع.. كان يخيل إليه أن الليل بحر من الفشل وهو غارق فيه.

وكان يحاول أن يبحث عن اسباب فشله.. لماذا هو فاشل؟ إنه إنسان مثقف.. ويحمل ليسانس الحقوق.. وهو ذكى.. إنه لا يستطيع أن يتهم نفسه بالغباء، فهو يعرف أنه ذكى.. ثم هو ميسور الحال.. فلماذا يفشل ؟

وأجاب نفسه كما أجابها من قبل عشرات المرات.. إن سر فشله أنه لم يجد بعد نفسه.. لم يعرف ماذا يريد وماذا يستطيع؟ إن الإنسان الناجح هو الإنسان الذى يعرف ما يريد، وما يستطيع.. لا يكفى أن يريد، بل يجب أيضا أن يستطيع.. النجار الناجح يصبح إنسانا فاشلا، لو أراد أن يكون سمكريا، لأنه لا يستطيع أن يكون سمكريا.. والزعيم الناجح يصبح إنسانا فاشلا لو اضطرته الظروف أن يصبح مديرا لبنك مصر، لأنه لا يريد أن يكون مديرا لبنك.

والذكاء، والثقافة، والشهادة، والفلوس، ليست هى النجاح.. ليست هدفا، إنها وسيلة.. إنها كلها أدوات لاعداد النفس للنجاح.. إنها الآلة التى تسن عليها السكين، ولكنها ليست السكين نفسها.. السكين هى النفس.. فيجب أن يجد السكين، ثم يجب أن يعرف فيما يريد أن يستعمل هذا

السكين، وكيف يستعملها.. ولكنه لم يجد السكين.. وهو يحس أنه يلقى ثقافته، وشهادته، وذكاءه، فى دولاب.. نعم، إنه مجرد دولاب.. هذا الرأس الكبير، وهذا الصدر العريض، وهذه القامة الطويلة، كل هذا ليس سوى دولاب يختزن فيه ثقافته، وذكاءه، وأحاسيسه، وأفكاره، وفى ركن مهمل منه، يقبع ليسانس الحقوق.. متى يصبح هذا الدولاب آلة متحركة.. آلة منتجة.. آلة لها صوت.. لها دوى؟

واستعرض أحمد طوال الليل فشله.

لقد فشل كأخ كبير، ورب عائلة صغير. فشل لأنه لا يدرى ماذا يريد من اخوته، ولا ماذا يستطيع أن يقدمه لهم؟ لا يدرى ما هى المبادىء التى يبنى عليها كيان عائلته.. بل هناك ما هو أبعد من هذا.. فهو لا يدرى ما هو بالضبط معنى العائلة؟ فلا يكفى أن يعيش مجموعة من الأفراد فى بيت واحد، ويأكلون على مائدة واحدة، ليصبحوا عائلة واحدة، وإلا كان نزلاء الفنادق، أو نزلاء السجون، أو نزلاء المستشفيات عائلة واحدة.. ولا يكفى أن يولد عدد من الأفراد من أم وأب ليكونوا عائلة.. إن عملية الولادة نفسها عملية زائلة، لا يمكن أن يترتب عليها معنى العائلة إنما معنى العائلة يبدأ فى الظهور عقب الولادة.. ويتضح بالتدريج، يوما بعد يوم. اذن، ما هى العائلة؟ ما هو هذا الرباط الذى يربطه باخوته وبأمه وأبيه.. ربما كان هذا الرباط هو ما يسمى «العشرة».. أو «العيشة».. ولكن «العشرة» أيضا لا يمكن أن تكون مجرد الاقامة فى بيت واحد، والأكل على مائدة واحدة.. هناك عنصر أبعد وأعمق.. ربما كان الاشتراك فى مواجهة الحياة.. ربما كان تبادل المسئوليات.. إنه لا يدرى.. ولكنه احيانا يحس أنه غريب عن اخوته، لا يربطه بهم شىء، ويحس أنه ليس مسئولا عنهم، وليس من حقه أن يتدخل فى شئونهم، أو يحمل همهم ، ويحملهم همه.. وأحيانا أخرى يحس أنه قريب منهم جدا، ويحس بعبئهم فوق كتفيه، ويحس باقبال على تحمل مسئوليتهم، ويتعذب بعذابهم، ويفرح بفرحتهم.. وهو دائما لا يدرى.. وربما لو كان يدرى، لنجح فى القيام بدوره كأخ كبير ورب عائلة صغير.

وهو فاشل أيضا كموظف فى إدارة المعاشات.. لأنه لا يريد أن يكون موظفا فى إدارة المعاشات، حتى لو كان يستطيع.

ولكن، إذا كان لا يريد أن يكون موظفا فى إدارة المعاشات، فهو لا يدرى ماذا يريد أن يكون.. فكيف يكتشف العمل الذى يريده ؟.

إن العمل الذى يريده هو العمل الذى يؤمن به، لو وجد العمل الذى يؤمن به لأصبح إنسانا ناجحا.. فهو لن يؤمن بشىء إلا إذا فهمه، وإذا فهم شيئا أجاده ونجح فيه.. ومعظم موظفى الدولة أفراد فاشلون، لأنهم لا يؤمنون بالعمل الذى يقومون به، فلا يحاولون فهمه، وبالتالى لا يجيدونه، ولا يحاولون الابتكار فيه، والتقدم به. إن موظف الارشيف فى وزارة التعليم، لا يؤمن بعمله، ولأنه لا يؤمن به فهو لا يحاول أن يفهمه.. ولا يحاول أن يعرف قيمة الارشيف بالنسبة لجهاز وزارة التعليم، ولا قيمة جهاز وزارة التعليم بالنسبة لجهاز الدولة كله، ثم قيمة الدولة بالنسبة للمجتمع.. بالنسبة له، و لأولاده، وجيرانه، والناس التى تسير فى الشارع.. ولو عرف قيمة كل ذلك، لعرف قيمة العمل الذى يؤديه.. لعرف أن الأرشيف هو خلية نشطة فى جسم الدولة، تمدها بالغذاء، والتجارب، وتقيها العثرات.. ولعرف بالتالى قيمة نفسه.. لعرف أنه ليس مجرد مسمار مدقوق فى جدار خرابة، ولكنه مسمار فى آلة ضخمة تدور وتنتج.. وأنه مسمار له عقل، يجب أن ينتج ويبتكر ويتقدم.

بعض موظفى الدولة لا يؤمنون بعملهم، ولذلك هم فاشلون.. وهو واحد منهم.. فاشل مثلهم.. والفرق بينه وبينهم أنهم فى حاجة إلى المرتب الذى يتقاضونه، فهم على الأقل لهم العذر فى استسلامهم للفشل.. أما هو فليس فى حاجة إلى مرتبه.. إنه فاشل بلا عذر.

وهو فاشل فى حبه.. حبه لشهيرة.. إن النجاح فى الحب أيضا، يقتضى أن يعلم الإنسان ما يريد وما يستطيع.. وهو لا يعلم ماذا يريد من شهيرة، ولا ماذا يستطيع أن يقدمه لها؟ هل يريد أن يتزوجها؟ هل يريد أن يقبلها؟ هل يريد أن يراقصها؟ هل يريد أن يحدثها عن متاعبه؟ أم سيخفى عنها هذه المتاعب.. إنه لا يدرى.. أفكار كثيرة تمر بخياله دون أن تستقر واحدة منها.. وأمنيات كثيرة يخفق بها قلبه دون أن يجرؤ على تحقيق واحدة منها.. أحيانا يتخيل أنه تزوجها.. وأنهما فى بيتهما.. وهى بجانبه، رأسها على كتفه.. وهو يحكى لها حكاية طويلة.. حكاية حيرته.. وحكاية

قلقه.. وحكاية نفسه التائهة.. ويستطرد فى خياله، كأنه مستغرق فى مشاهدة فيلم سينمائى جميل.. ثم فجأة ينتهى الفيلم، ويخرج من خياله دون أن يتخذ قرارا.. دون أن يصمم على شىء.. يخرج كما دخل.. وهو لا يدرى.. بل أنه لا يدرى أيضا أية شخصية يتقدم بها إلى شهيرة، ليطلب حبها.. أية شخصية من الشخصيات المتعددة التى يحاول أن يتقمصها، ويبدو بها ويفكر فى حدودها.. هل يتقدم لها بشخصية الشاب الجاد الوقور، التى يبدو بها أمام زملائه الموظفين؟ أم يتقدم لها بشخصية الشاب الحائر المتردد التى يحس بها عندما يحاسب نفسه؟ أم يتقدم لها بشخصية أبيه.. أم بشخصية خاله.. أم بشخصية الفتى المنطلق الذى يردد أغنيه «مال الهوى يا أمه مال» التى تراوده أحيانا.. إنه لا يدرى.. لا يدرى أين نفسه.. لا يدرى أى نفس يقدمها لشهيرة لتحبها.. فكيف ينجح فى الحب.. كيف ؟!

وسار أحمد فى طريقه يخوض فى أفكاره، ووجهه لا يزال متجهما.. وشفتاه مقلوبتان.. وأخذ يتلفت حوله كأنه يحاول أن يلهى نفسه عن هذا الاحساس الثقيل الذى يجثم على صدره.. أن حوله جدرانا.. جدران عالية.. إن كل جماعة من الناس يسكنون عمارة يختفون فيها، خلف جدار.. وكل عائلة فى هذه الجماعة تختفى عن العائلات الأخرى، خلف جدار.. وكل فرد فى كل عائلة يختفى عن بقية الأفراد خلف جدار.. جدران.. جدران.. والجدران ليست فقط حولنا.. إنها فى داخلنا.. كل فرد يقيم جدارا حول عقله، حتى لا يرى الناس ما يفكر فيه.. وكل فرد يقيم جدارا حول قلبه حتى لا يدرى الناس ما يحس به.. وهذه الوجوه التى تمر فى الشارع إنها جدران.. إن وجوه الناس جدران.. كل وجه ليس سوى جدار، يختفى وراءه إنسان لا تراه، ولا يمكن أن تراه.. والعيون فى وجوه الناس أشبه بالشبابيك الخشبية.. الشيش.. يرون من خلفها، ولا يستطيع أحد أن يراهم من خلالها..

كيف يتكون المجتمع، وكل هذه الجدران تفصل بين أفراده.. كيف يقوم شىء اسمه «الإنسانية» وكل إنسان يخاف من أخيه الإنسان ويختبىء منه خلف جدار.

إنه يريد أن يحطم كل هذه الجدران.. ويريد أن يبدأ بتحطيم الجدران التى فى داخل نفسه.. يريد أن يكشف عقله وقلبه للناس.. يريد أن يقف وسط الشارع ويصرخ بكل أفكاره، وكل أحاسيسه.. ويطلب من الناس أن يضموه إليهم.. ألا يتركوه وحيدا.. أن يأخذوه معهم فى الطريق.. ولكنه لن يستطيع.. لن يستطيع أن يحطم الجدران.. وهو يعلم أنه لن يستطيع.. إن هذه الجدران قائمة فى نفسه، وقائمة من حوله منذ فتح عينيه على الحياة، كأنه ورثها عن أبيه.. كأنها قائمة فى مكانها من نفس الإنسان، وفى مكانها حول الإنسان منذ بدء الخليقة.

وابتسم ابتسامة ساخرة مرة، كأنه يسخر من نفسه، ويسكب مرارتها على نفسه.. ونكس رأسه وهو يسير، كأنه تعب من حمل هذه الآراء المشوشة فوق كتفيه.. وأخذ يتابع بعينيه المكدودتين أقدام الناس الذين يسيرون معه.. إنه يستطيع أن يرى فى أصحاب هذه الأقدام الناجح منهم، ويرى الفاشل.. من خطوته.. والمقياس ليس هو سرعة الخطو، فإن هناك خطوات سريعة أصحابها فاشلون، وخطوات بطيئة أصحابها ناجحون.. والمقياس أيضا ليس هو نوع الحذاء.. فهناك أقدام حافية أصحابها أكثر نجاحا من أصحاب أقدام تخطو فى أحذية غالية.. إنما المقياس هو فى نوع الخطوات نفسها.. إن خطوة الناجح فيها ثقة.. ليس ثقة.. فحسب، بل وحرصا أيضا.. إن الناجح يعرف طريقه جيدا، ورغم ذلك فلا يهمل فيه بل يحرص فى كل خطوة يخطوها.. إنه يخطو على كعب حذائه أولا، كأنه يتمكن من الأرض التى يقف عليها، ثم يضع بوز الحذاء برفق واحتراس كأنه يتأكد أين يضعها؟ وهكذا فى كل خطوة.. أما الفاشل فهو يزحف بقدميه.. لا فرق عنده بين أن يبدأ خطوته بكعب الحذاء، أو ببوز الحذاء.. وقدماه لا تسير فى خط مستقيم، إنما تترنح، كأنها لا تعرف الطريق.. وهو مهمل لا يهمه أين يضع قدمه، لأنه بلغ من فشله حد اليأس، فلم يعد يهمه أن يسقط فى حفرة، أو تدهمه سيارة، أو يدوس على قدم إنسان، أو يدوس إنسان على قدمه.

ورفع أحمد رأسه، وشد قامته، وبدأ يحاول أن يقلد فى مشيته خطوات الناجحين كما يتصورها.. وازدادت ابتسامته سخرية ومرارة.. إنه يعلم أنه

يمثل.. إنه ليس ناجحاً ولكنه يقلد الناجحين فى مشيتهم.

ووصل فى سيره إلى ميدان سليمان، واشترى جريدة الأهرام ودخل محل جروبى.. وطلب فنجان شاى، وقطعة من الكعك، كعادته كل يوم.. إنه لا يغير عاداته إلا نادرا، وتحت ضغط قوة كبيرة تنطلق من نفسه، وتدفعه دفعا إلى تغيير عادة فيه.. ثم يستقر التغيير الذى أقدم عليه، حتى يصبح عادة جديدة، ثم يصبح بمرور الزمن عادة قديمة.. فهو لا يفكر فى أن يتناول أفطاره فى محل غير جروبى.. لأن دخول محل آخر لأول مرة، هو بمثابة امتحان جديد له.. امتحان فى معاملة جرسون لم يتعامل معه من قبل، وامتحان فى احتكاكه بناس لم يجلس بينهم من قبل.. وهو يعرف الجرسون فى محل جروبى جيدا.. واستقر على وضع خاص فى معاملته.. يعرف كيف يطلب منه ما يريد، وكيف يبتسم له، وكيف يدفع حسابه؟ وانتهى من تحديد قيمة البقشيش الذى منحه له.. والجرسون أصبح يعرفه.. وأصبح يعرف مزاجه وتصرفاته.. بل أنه أحيانا يأتى له بفنجان الشاى وقطعة الكعك، قبل أن يطلبهما منه..

وفرد جريدة الأهرام أمام وجهه، وأخذ يقرأ أخبار الصفحة الأولى.. وكان الخبر الرئيسى عن توزيع أراضى الاصلاح الزراعى على الفلاحين.. وهو يتتبع كل يوم أخبار الحكومة.. أخبار الثورة.. يتبعها منذ قامت.. ولكنه يتتبعها كأنه يتتبع شيئا لا يخصه.. كأنه يطل على عالم آخر.. كأنه يقرأ قصة مثيرة، لا يهمه إذا كانت حوادثها وقعت فى بلده، أم فى بلد آخر.. ولا يهمه إذا كانت قد وقعت اليوم أم منذ عشر سنوات أو منذ مائة سنة.. إن الثورة ليس لها علاقة به.. وليس لها أثر فى حياته.. وهو ليس ساخطا ولا نادما لذلك، فهو لم يفكر فى أن الثورة قامت لتحل مشاكله الخاصة.. ولم يخطر علىَ باله أن يحمل جمال عبدالناصر عبء نفسه، وأن يطلب منه أن يحل له مشاكله، وأن يسأله كيف يجد نفسه، وكيف يكتشف العمل الذى ينجح فيه، وكيف يحل مشكلة أخته نبيلة، وكيف يعامل أخاه ممدوح.. إن الثورات لم تقم لمثل هذا.. إن الثورات لا تقوم لأفراد.. ولا لمشاكل فردية.. إنه يعلم ذلك.. وكل ما يحسه وهو يتتبع أنباء الثورة أنه يسير فى شارع جديد، قد يفرح به، وقد ينتقده، ولكن الشارع لن يغير من حياته شيئا.

وقلب صفحات الجريدة، وأخذ يقرأ البرقيات الخارجية، ثم فجأة اتخذ قرارا. قرارا حاسما.. قرارا ليس له أى علاقة بما يقرأه : إنه لن يذهب إلى الوزارة اليوم.

إن الحكومة لم تحاسبه عندما امتنع من تلقاء نفسه عن التوقيع على الساعة.. ولم تحاسبه عندما اصبح لا يجلس إلى مكتبه أكثر من ساعة أو ساعتين فى اليوم.. فلير إن كانت ستحاسبه إذا امتنع عن الذهاب إلى مكتبه.. لقد تحدته الحكومة عندما أهملته، وأهملت معه قوانينها ولوائحها، وهو سيتحدى الحكومة.. وليرى إلى أين ينتهى هذا التحدى؟ وإذا كان رؤساؤه يتسترون عليه من أجل خاله وكيل الوزارة.. فلير مدى ما يمكن أن يتسع له هذا النفوذ.

والقى جريدة الأهرام بجانبه، ومد ساقيه أمامه، كأنه يتحدى الجالسين أمامه كما يتحدى الحكومة.. وأخذ يرشف الشاى رشفات بطيئة، ويحاول أن يقنع نفسه بأن هذا الشاى الذ وأطيب من الشاى الذى يرشفه كل يوم، وأكل قطعة الكعك كلها.. ثم عاد يفتح الجريدة ويطل فيها.

ومضى وقت خيل إليه أنه وقت طويل، فقام من على مقعده، وترك قيمة الحساب وقيمة البقشيش للجرسون على المائدة.. وخرج من جروبى، وأخذ يتلكأ أمام حوانيت شارع قصر النيل.. ثم بدأ يحس بملل وفراغ.. ونظر إلى ساعة البنك الأهلى.. إنها لا تزال الحادية عشرة والنصف.. وعاد يناقش نفسه كأنه يلومها : لو أنه اتخذ قراره بعدم الذهاب إلى الوزارة، قبل أن يخرج من البيت، لاستطاع أن يعد برنامجا ليومه.. كان يستطيع أن يبقى فى البيت ويقرأ كتابا.. كان يستطيع أن يدخل السينما فى حفلة صباحية.. كان يستطيع أن يأخذ كتابه ويذهب إلى مينا هاوس.. و.. إنه يتخذ قراراته دائما فى وقت متأخر.. فى وقت غير مناسب.

ووجد نفسه خلال المناقشات التى تدور فى رأسه، يتجه نحو الوزارة.. يسير فى نفس الطريق الذى يسير فيه كل يوم.. إنه ذاهب إلى الوزارة.. وهو يعلم أنه ذاهب إلى الوزارة.. لا لأنه اتخذ قراره متأخرا، بل لأنه غير راض عن هذا القرار.. لقد امتنع عن التوقيع على الساعة وهو مقتنع.. ولكنه ليس مقتنعا الآن بالامتناع عن الذهاب إلى الوزارة.. ضميره قلق،

وكأنه خجل من نفسه.. واحساسه بالملل والفراغ ليس احساس حقيقيا إنه مجرد عذر اختلقه ليبرر نكوصه عن قراره.. ولكن.. إذا كان غير مقتنع بالقرار الذى اتخذه، فلماذا اتخذه.. إنه لا يدرى.

ودخل على زملائه وحياهم تحية حارة وابتسامة كبيرة تملأ فمه، كأنه يعتذر لهم، عن تفكيره فى أن يغيب عنهم يوما.. وجلس إلى مكتبه، ونادى عامل البوفيه وطلب منه فنجان قهوة.. مضبوط.. ثم التفت إلى زميله الأستاذ عبدالله عبدالخالق وقال متوددا :

- تاخد ايه يا أستاذ فرحات ؟

وقال فرحات وهو يبتسم ابتسامة صفراء يحاول أن يخفى تحتها حقده:

- متشكر يا أحمد بيه.. لسه شارب القهوة دلوقت.

وقال أحمد وهو يزداد توددا :

- خذ كازوزة.

وتردد فرحات قليلا ثم التفت إلى عامل البوفيه، وقال :

- خليها قرفة.

والتفت أحمد إلى زميله فريد أفندى ابراهيم :

- وأنت يا فريد أفندى ؟!

ورنت فى أذن أحمد لفظ «أفندى» وهو يقولها.. وتعجب لها.. لماذا يحتفظ الناس بلقب «أفندى» لبعض الأفراد.. ويحتفظون لأفراد آخرين بلقب «بيه».. ولآخرين بلقب «أستاذ».. لماذا ينادى زميله فريد بلقب «أفندى» فى حين ينادى زميله فرحات بلقب «أستاذ» مع أن كليهما فى مستوى واحد، وكلاهما يحمل مؤهلات واحدة.. ربما لأن هذه الألقاب ليست مجرد ألقاب، إنها صور.. صور فى أذهان الناس،، هذا صورته «افندى».. وهذا صورته «بيه» وهذا صورته «باشا».. وهذا صورته «استاذ».. وقد ألغت الثورة الألقاب.. ألغتها من على الورق، ولكنها لم تستطع بعد أن تلغى الصور من أذهان الناس.. وستظل هذه الصور قائمة فى الأذهان، إلى أن يتلاشى الجيل الذى عاش قبل الثورة.. و..

وأفاق أحمد من تأملاته على صوت فريد أفندى ينطلق من أنفه قائلا :

- ايه الكرم ده كله يا أحمد بيه.. ينسون يا جدع!

وابتسم أحمد، والتفت إلى زميله الأستاذ بسيونى، وقال :
- والأستاذ بسيونى.
وقال بسيونى :
- دى بقت حفلة.. قهوة على الريحة.
وشاع جو من المرح بين الزملاء.. كان يكفى أن يبدو أحمد بينهم مرحاً حتى ينعكس مرحه عليهم.. فإن أحمد هو ابن أخت وكيل الوزارة.. فإذا كان مرحا فلابد أن وكيل الوزارة مرح.. وإذا كان وكيل الوزارة مرحا، فلابد أن الوزير أيضا مرح.. وإذا كان الوزير مرحا، فلابد أن الحكومة كلها فى سعادة ومرح.. لابد أن هناك أنباء سارة.. درجات جديدة.. علاوات.. مشروعات.. هكذا كان تداعى المعانى فى أذهانهم.
وأخذ كل منهم يحكى حكاية، وروى لهم أحمد قصة فيلم سينمائى شاهده ليلة أمس.. ولم يكن يجيد رواية القصص بالكلام، ولكنهم كانوا يستمعون إليه بشغف، وكان هو من جانبه يبذل مجهودا كبيرا ليستمر فى الرواية، رغبة منه فى محاولة اكتساب زملائه، والاندماج فيهم.. ولو استطاع أن يندمج فيهم.. أن يكون واحدا منهم.. فربما أصبح أسعد حالا.. ربما استقرت نفسه القلقة الحائرة.. ولكنه لن يستطيع.. وهو يعلم أنه لا يستطيع.. إن فيه شيئا يختلف عنهم.. ليس مستواه الطبقى أو العائلى.. ولكن شيئا آخر.. شيئا يحس به فى داخل نفسه، ولا يراه.. لا يدريه!
وجاء الساعى يستدعى أحمد لمقابلة رئيس القلم.. رئيسه المباشر.
ودهش أحمد.. إن رئيسه لم يستدعه منذ فترة طويلة.. وتلفت الزملاء بعضهم لبعض ثم اتجهت عيونهم كلها إلى أحمد.. وقال فريد أفندى :
- خير إنشا الله.
وقال الأستاذ فرحات وهو يحاول أن يخفى تهكمه :
- طبعا خير.
وقام أحمد، وضم أطراف سترته، واتجه إلى غرفة رئيسه لماذا يريده؟ ربما يريد أن يعهد إليه بعمل هام يشعره بقيمته.. يشعره بأنه إنسان يستطيع أن ينتج.. وأن يذوب فى انتاجه إلى حد أن ينسى هذه المناقشات التى لا تنتهى بينه وبين نفسه.. إلى حد أن يجد شخصيته، ويحددها،

ويحدد مكانها من الحياة.

ودخل إلى رئيسه وهو متفائل.. وفوق شفتيه ابتسامة مهذبة.. ونهض رئيسه واقفا بمجرد أن رآه، وخرج من وراء مكتبه، وتقدم نحوه مهللا وهو يمد يده إليه.. وصافحه فى حرارة، قائلا :

- ازيك يا أستاذ أحمد.. اتفضل.. اتفضل.

وقدم له مقعدا بجوار المكتب.. وانتظر أحمد فى أدب، إلى أن جلس رئيسه، ثم جلس بعده.. والتقط رئيس القلم علبة سجائره، وفتحها أمام وجه أحمد، قائلا فى مرح مفتعل :

- اتفضل.. ولو أنه صنف مش قد المقام.

وقال أحمد وهو حريص على لهجته المهذبة :

- متشكر.. مابدخنش.

وأعاد رئيس القلم علبة سجائره إلى مكانها، ثم مد يده إلى الجرس الموضوع أمامه، وهم أن يضغط عليه قائلا :

- قهوة.

وقال أحمد :

- متشكر.. لسة شارب !

وسحب رئيس القلم يده من فوق الجرس، واعتدل فى جلسته، مواجها أحمد بصدره، وقال بعد أن تنحنح :

- وإزى عزت بيه راجى.

وقال أحمد وقد بدأ يرتاب فى المهمة التى استدعى من أجلها

- كويس.. الحمد لله.

وقال رئيسه :

- أنت تعرف أن خالك كان زميلى فى الدراسة، وكان صديقى الروح بالروح ؟

وسكت أحمد برهة.. لقد سبق أن سمع هذه الجملة بالذات من رئيسه عشرات المرات.. وأحنى رأسه، وقال فى برود :

- عارف.. سيادتك قلت لى قبل كده.

وقال رئيسه :

- ياترى بتشوفه ؟
وقال أحمد :
- أيوه.
وقال رئيسه فى إلحاح وهو يحاول أن يبدو متظرفا :
- آخر مرة شفته كانت إمتى ؟!
وقال أحمد وهو يزفر كلماته :
- كان عندنا أول امبارح.
وقال رئيسه وهو يتنهد فى حسرة، كأنه يحسد أحمد لأن وكيل الوزارة يزوره فى بيته :
- الواقع إنى بقى لى كتير ما شفتوش.. أنا عارف أنه راجل مشغول، وحمله تقيل، الله يكون فى عونه.. وأصل عزت بيه يحب يشوف كل حاجة بنفسه.. أنا عارفة، واشتغلت معاه.. إنما الحقيقة، أنا محتاج له اليومين دول.. ومش عايز أزوره بنفسى، علشان ما يتقلش عليه..
وسكت رئيس القلم فترة، ثم قرب وجهه من وجه أحمد، وقال فى صوت خطير هامس :
- أصل فيه حركة ترقيات اليومين دول.. وأنا لى حكاية طويلة مع قلم المستخدمين.. شوف ياسيدى.. أنا أتعينت فى سنة ١٩٣٥، وكنت أيامها و..
وذابت أحلام أحمد.
إن رئيسه لم يعهد إليه بعمل هام.. إنه لا يستحق أن يقوم بعمل هام.. إن كل قيمته هو أنه ابن أخت وكيل الوزارة.. وكل ما يصلح له هو أن يقوم بدور ساعى البريد بين رئيس القلم ووكيل الوزارة.
ولم يعد أحمد يسمع ما يقوله رئيسه.. إن القصة سمعها من قبل.. وشرد عقله بعيدا.. كأنه سقط فى حلم.. حلم مزعج عاش فيه طوال حياته.. ثم تنبه أخيرا على صوت رئيسه، وهو يقول :
- أنا كتبت الكلام ده كله فى مذكرة. إنما مش عايز أبعتها لعزت بيه عن الطريق الرسمى.. فى الحقيقة هى مش مذكرة، إنما أقرب ما تكون إلى خطاب شخصى.. وكل اللى أرجوه منك أنك توصلها له.. تسلمها له يدا

بيد. وسحب رئيس القلم من درج مكتبه ظرفا مغلقا، ومد يده به إلى أحمد.. بالظرف :

- حاضر.

وقال الرئيس ويده لا تزال ممسكة بطرف الظرف بحرص كأنه يمسك بطرف حياته.

- ولو قدرت تعرف رأيه فى الموضوع، تبقى عملت فىّ معروف كبير.. معروف مش حا انساه لك ابدا.

وقال أحمد فى برود :

- إن شاء الله.

وترك رئيسه الظرف من يده، وأخذه أحمد، وهم أن يضعه فى جيب سترته الخارجى، فقال رئيسه فى إشفاق :

- حطه فى الجيب الجوانى، أحسن يقع منك !

وقال أحمد :

- حاضر .

ووضع الظرف فى جيب سترته الداخلى.. ومد يده مصافحا.. وقال رئيسه وهو يشد على يده، وفى صوته استجداء :

- أنا مستنى منك خبر بكرة.

وقال أحمد :

- بإذن الله.

وهم أن يغادر الغرفة، فإذا بصوت رئيسه يلحقه :

- على فكرة، أنا كتبت مذكرة بمنحك الدرجة الخامسة.. الحقيقة أنك تستحقها.. كفاية أخلاقك الحلوة.. وبإذن الله تأخذها.. تبقى أنت فى الخامسة، وأنا فى التالتة.

وابتسم رئيس القلم ابتسامة واسعة.

وتردد أحمد قليلا، ثم قال وحاجباه معقدان :

متشكر.

وخرج من الغرفة وهو ساخط، يدق الأرض بقدميه.، كأنه حصان مقيد يرفص.. وعاد إلى زملائه، واستقبلوه بعيون متسائلة.. وجلس إلى مكتبه

صامتا، ولم يطق فريد أفندى صمته فقال بصوته الرفيع الذى خرج من أنفه :

- خير يا أستاذ أحمد !!

وقال أحمد فى قرف :

- خير.. كان عايزنى فى مسألة خاصة.

وصمت.. ووجهه متجهم قاس، واحترم زملاؤه صمته.. احترام يغلب عليه الخوف.. الخوف من ابن أخت وكيل الوزارة.

وفجأة، انتفض أحمد واقفا، وصاح فى زملائه كأنه يلعنهم :

- السلام عليكم.

ثم خرج من الباب بسرعة قبل أن يسمع رد زملائه على تحيته.. وسار فى الممر الطويل الرطب الخافت الضوء، بخطوات سريعة.. كأنه يهرب.. يهرب من نفسه.. ونزل الدرج كالزوبعة، ثم وقف فى فناء الوزارة، وأرسل فى استدعاء سيارة أجرة.. وهو لا يرى من حوله إلا صورة رئيسه المنطبعة فى رأسه.. هذا الرجل المعروق المطبق الصدر، كعود القصب بعد عصره.. ووجهه الأسمر الكالح، وأنفه الكبير، وشفتاه الرفيعتان، وعيناه المتآكلتان وفوقهما نظرات اطارها من ذهب.. إنه حشرة.. إنه أشبه بالفأر.. لماذا تستخدم الحكومة الفئران فى وظائفها.. لماذا لا تحارب الفئران وتقضى عليها.

ووضع أحمد نفسه داخل السيارة.. وترك السائق يتحرك بها دون أن يقول له وجهته.. وصورة رئيسه لا تزال أمام عينيه، وشفتاه مقلوبتان، كأنه يبصق عليها.. إن صدره ملىء بالحقد.. بالغل.. بالثورة.. إن هذا الفأر سيطلب له الدرجة الخامسة.. لماذا؟ لأن أخلاقه حلوة.. لقد سقط فى جميع المواد إلا فى مادة الأخلاق الحلوة.. إنه لا يستحق الدرجة لكفاءته.. ولا لثقافته.. ولا لنشاطه.. فقد لأن أخلاقه حلوة.. هذا الفأر.. هذا اللص.. إنه يسرق لنفسه الحكومة، ويريد منه أن يشاركه فى الغنيمة.. يسرق لنفسه الدرجة الثالثة، ويسرق له الدرجة الخامسة..

وبحركة عصبية مد يده فى جيبه الداخلى، وأخرج الظرف، يمزقه.. مزقه عشرات المرات.. حتى لم يعد منه إلا قصاصات صغيرة.. صغيرة جدا..

كأنه كان يمزق غله عن نفسه.

ثم أخذ يلقى القصاصات من نافذة السيارة.. وقبل أن يلقى بالقصاصات الأخيرة، أفاق إلى ما فعله.

لماذا فعل هذا ؟

ونظر إلى القصاصة الأخيرة فى يده كأنه يسألها الجواب.. ثم لما لم يجد فيها الجواب، القاها إلى الطريق.

وانكمش فى ركن السيارة، وصدره يتهدج، كأنه يهم بالبكاء.

والتفت إليه السائق :

– على فين يا بيه ؟

وأجاب أحمد فى صوت خفيض دون أن يفكر :

– نادى الجزيرة !

ثم أحس بحقد يزايله، وشعور حائر يائس مغرق فى اليأس يزحف عليه.. وعاد يسائل نفسه : لماذا مزق الظرف ؟

لينتقم من رئيسه.. لينفس عن حقده.. وفشله.. ولكن ما ذنب رئيسه؟ إنه رجل محتاج يستجدى مستقبله.. وكل الموظفين يسعون مسعاه، ويلجئون إلى نفس الطرق.. ولو كان هو مؤمنا بوظيفته فى الحكومة.. لو كان له روح موظف الحكومة وخلقه، لسعى هو الآخر سعى رئيسه.. لفرح بالدرجة الخامسة.. وسعى إلى الرابعة عن طريق نفوذ اصدقائه وأقاربه.. إن رئيسه لم يخطىء فى حقه.. إنما هو الذى أخطأ فى حق نفسه قبل وظيفته.. عندما دخل فى عالم لا يستطيع أن يعيش فيه، ولا أن يتطبع به.. وإذا كان هناك خطأ فهو ليس خطأ رئيسه إنه خطأ الأداة الحكومية كلها.. خطأ أخلاق الحكومة.. فلماذا مزق الظرف.. لماذا يمزق مستقبل رئيسه؟

وأحس بالندم..

وأحس أنه لن يستطيع أن يصحح خطأه فى حق رئيسه، فهو يعلم أنه لا يستطيع أن يحادث خاله فى شأن الدرجات.. لا يستطيع، ولم يتعود.

ودخلت السيارة نادى الجزيرة.

لماذا جاء إلى النادى ؟

إن فى انتظاره فشلا آخر.. فشله مع شهيرة..

ولكن.. أين يذهب ؟

فشل فى الوظيفة.. وفشل فى النادى.. وفشل فى البيت.. وفشل فى داخل نفسه.. فأين يذهب.. أين يهرب من الفشل ؟

لا مكان.. الفشل فى كل مكان.

ونزل من السيارة محنى الظهر كأنه يحمل هموم الدنيا كلها.. ودفع للسائق أجره، صعد الدرجات القليلة التى تؤدى إلى الشرفة.

ثم رفع رأسه.

ووقف مشدوها، ورعشة عارمة تسرى فى أعصابه، وعيناه حائرتان لا يدرى أين يستقر بهما، ورموشه تهتز كأجنحة فراشات ترف حول نار متصاعدة من جوفه.

إن شهيرة جالسة على مائدة بقرب الباب، ومعها صديقه مدحت خيرى.. إنها أول مرة يراها جالسة معه.. وحدهما.. وهما يتضاحكان.. ضحكة كبيرة بين شفتى شهيرة..

أول إحساس اجتاحه، هو أن يهرب.. أن يهرب إلى بعيد.. ولكن شهيرة لمحته، وسكتت ضحكتها، وابتسمت له ابتسامة شائقة كأنها كانت فى انتظاره، وكأنها تدعوه إليها..

وحوّل عينيه عنها متجاهلا ابتسامتها.

من يدرى.. ربما كانت تبتسم لشخص يقف خلفه.. ربما كانت ابتسامتها مجرد سراب خدع فيه.. ثم إنها جالسة مع مدحت.

وهم أن يخطو مبتعدا.

ولكن مدحت لمح ابتسامة شهيرة، وتتبع اتجاهها، فرأى أحمد، وصاح يناديه :

– أحمد.

والتفت إليه أحمد، فقام مدحت من على مقعده ليصافحه، وقال كأنه يشجعه على أن يتقدم :

– ما تيجى !

وخطا أحمد خطوتين، ومد يده يلتقط يد مدحت، وصافحه وهو لا يستطيع أن يهز يده.. وقال فى صوت مخنوق النبرات :

- ازيك يا مدحت.

وشهيرة جالسة تتطلع إليه فى اعزاز.. وابتسامتها الشائقة لا تزال بين شفتيها كأنها كانت فى انتظاره، وكأنها تدعوه إليها.

والتفت إليها أحمد وهز رأسه يحييها، كأنه لا يعرفها، إنما يهز رأسه من باب اللياقة.

وانكمشت ابتسامة شهيرة.. وأطلت من عينيها دهشة.

وجلس مدحت على مقعده، وهو يقول :

- تعالى أقعد معانا.

ثم أشار إلى شهيرة، قائلا، يعرفه بها :

- شهيرة.

واستطرد يعرفها به :

- أحمد.

وقالت شهيرة :

- اتعرفنا قبل كده.. مش كده ؟

وقال أحمد ونبرات صوته لا تزال مختنقة، وعيناه حائرتان :

- أيوه..

وعاد مدحت يقول وهو يجذب مقعدا بجانبه :

- أقعد..

وقال أحمد :

- معلهش حاتمشى شوية.. عن اذنكم !

وقال مدحت بلهجته المرحة الجريئة :

- أقعد يا راجل.. وبعدين ابقى قوم اتمشى.

وقال أحمد فى ارتباك كأنه طفل يهرب من مجالسة الكبار :

- معلهش أصل عايز اتمشى.

وقال مدحت :

- طيب اتمشى وتعالى.

واختفت ابتسامة شهيرة.. ونظرت إلى أحمد فى امعان، كأنها ترى أمامها مريضا تحاول أن تستشف مرضه.

ونقل أحمد عينيه بين مدحت وشهيرة.. عينان مضطربتان يطل منهما الغباء.. ثم بدأ يبتعد فى خطوات مرتعشة.

وقال مدحت وهو يميل برأسه نحو شهيرة :

– ده جدع مهذب جدا.. ومؤدب.. وغلبنى فى الشطرنج ؟

وقالت شهيرة :

– باين عليه مهذب ومؤدب.. إنما مش باين عليه بيلعب شطرنج !

ثم التفتت تتبع أحمد بعينيها وهو يبتعد نحو ملاعب النادى، وتنهدت فى حسرة.. حسرة على المريض.

●●●

وسار أحمد إلى آخر الشرفة المطلة على حمام السباحة، ثم التفت لفتة سريعة خاطفة نحو مدحت وشهيرة، ورآه ورأسه بجانب رأسها، فانكمشت تقاطيع وجهه كأنه شعر بمغص مفاجىء.. وهم أن يعاود السير فاشتبكت قدماه احداهما بالأخرى، وكاد ينكفىء على وجهه، لولا أن استند بيده على حاجز الشرفة.

وسار فى ملاعب النادى ووجهه محتقن كأنه يسير بين الناس عاريا.. كأن كل الناس يرون ما فى نفسه من ضعف، وغيرة، ويأس، وقلق.. ولم يشعر وهو يسير على الحشيش أنه يسير على وسائد من حرير، كان يشعر أنه يسير على صخور مدببة.. على أشواك حادة.. إن قدميه تؤلمانه.. وكل عضلة فى جسده تؤلمه.. ألم يلسعه كأنه آثار حروق.. وفى رأسه مناقشات حادة.. وصراخ له دوى يملأ صدره ويتجاوب مع أنفاسه.. وصورة مدحت وهو يميل برأسه على رأس شهيرة، تملأ عينيه.. إنه لم يكن يتصور هذا.. مدحت وشهيرة.. هذا آخر ما كان يخطر بباله.. وقد قضى أياما طويلة يخدعه خياله، ويصور له أن شهيرة مهتمة به.. لقد كان مخدوعا فى نفسه.. كان واهما.. لماذا تهتم به شهيرة.. لماذا تهتم به أية فتاة فى الدنيا.. لماذا تهتم أية فتاة فى الدنيا بشاب فاشل تائه مضطرب النفس.. ولكن شهيرة كانت دائما تنظر إليه.. قضت شهورا طويلة وهى تشجعه بعينيها.. ثم خطت نحوه الخطوة الأولى، وبدأته بالحديث.. لماذا لماذا؟ ربما لأنه أثار عطفها.. مجرد شفقة.. مجرد حب استطلاع.. ولكنه لم يكن حبا.. إن فتاة

مثل شهيرة لا يمكن أن تحبه، إنما تحب شابا مثل مدحت.. كل فتيات الدنيا يحببن مدحت.. شاب ناجح، مرح، مستقر النفس، وسيم.. شاب تتجمع فيه كل الأحلام.

ماذا يفعل الآن، هل يدخل فى معركة مع مدحت من أجل شهيرة ؟

وابتسم ابتسامة هزيلة، يسخر بها من نفسه.. إنه لم يدخل أبدا أية معركة.. منذ أن ولد حتى اليوم وهو لم يدخل معركة مع أحد.. كل معاركه مع نفسه، وهى معارك لا تنتهى، ولا ينتصر فيها.. إنه لم يشعر أبدا بالنصر.

لا، إنه لن يدخل معركة مع مدحت.. إنه سيدخل معركة أخرى مع نفسه.. معركة يحاول أن ينسى فيها شهيرة، ويحاول أن يقاوم حقده على مدحت.. لا يجب أن يحقد عليه.. لماذا يحقد عليه؟ لا يكفى أن يتخيل أنه يحب فتاة، ثم يحقد على كل شاب تحبه هذه الفتاة.. إن مدحت لم يعتد على حق له حتى يحقد عليه.. حق له !! إنه إنسان بلا حقوق.. ليس له أى حق يدافع عنه، ويتمسك به.. ربما كان سر عذابه أنه إنسان بلا حقوق.

ولم يسر طويلا فى ملاعب النادى.. واتجه فى خطواته المرتعشة إلى خارج النادى.. وسار حتى موقف سيارات الأجرة، ووضع نفسه فى واحدة منها، وقال للسائق فى صوت يائس :

- الروضة يا أسطى.

ثم عاد يستسلم للصراخ والمناقشات التى تدور فى رأسه ويملأ صداها صدره.

إنه إنسان بلا حقوق.. ليس له حقوق فى اختيار طريقه فى الحياة.. وليس له حقوق فى توجيه عائلته.. وليس له حقوق على أى مخلوق.. كيف يعيش إنسان بلا حقوق؟ إن الحياة ليست سوى حقوق وواجبات.. وهو يعرف واجباته ويقيد نفسه بها، ولكنه لا يعرف حقوقه.. كل ما يعرفه أنه ليس له حقوق.. فلماذا يعيش.. لماذا يخوض فى دنيا ليس له فيها شىء؟

ونظر من نافذة السيارة إلى مياه النهر الكبير.. نظر إليها طويلا، كأنه يبحث لنفسه عن مكان فيها.

ثم نزع عينيه من مياه النهر، وانكمش فى ركن السيارة، وأخذ ينظر إلى

عروق رسغيه.. ماذا لو قطع هذه العروق.. ماذا سيحدث؟ لن يحدث شيء مهم.. سيظل كما هو في جلسته، ودماؤه تسيل.. ساخنة، هادئة.. كالغدير الأحمر.. ثم.. ثم ينتهي كل شيء.. ينتهي قلقه.. وينتهي اضطرابه.. وتنتهي معركته مع نفسه.. ويستريح!

ولكن.. إنه ليس إنسانا بلا حقوق.. إن له حقوقا، ولكنه أضعف من أن يواجهها.. وأضعف من أن يغامر في سبيلها.. إنه أضعف من المعركة.. أضعف من الحياة.. وما ذنبه إذا كان أضعف من الحياة.. لماذا يحتملها.. لماذا يستسلم لها؟ إنه يريد أن يستريح.. يستريح.

وعاد ينظر إلى عروق رسغيه.

ووصلت به السيارة إلى البيت.. ونزل منها ووجهه جاد وقور.. وصدره منفوخ.. وقامته الطويلة مفرودة على آخرها

●●●

واجتمع كل أفراد العائلة حول مائدة الغداء.

الأم تدير عينيها بين أبنائها كأنها تخشى في كل لحظة أن ينقصوا واحدا.. وأحمد واضع عينيه في طبق الطعام مستطردا في أفكاره السوداء.. وفيفى على يمينه وفي عينيها نظرات ساخطة وشفتاها مقلوبتان كأنها تأكل المر.. ونبيلة على يساره تنظر إليه بين الحين والحين كأنها تتوسل إليه أن يرحم نفسه ويصفح عنها ويصالحها.. وممدوح على يمين أمه يقذف الطعام في فمه بسرعة ويحاول أن يجعل كل من حوله يضحك.. وليلى تائهة في نظراتها الحزينة، وضفيرتها كشعاع الشمس راقدة خلف ظهرها.

وقالت الأم كأنها تقدم لهم تقريرا عن حوادث اليوم :

- التليفون النهاردة اتجنن.. كل شوية الجرس يرن، ويطلع واحد يقول لي : من فضلكم احنا عايزين سواق.

والقى ممدوح الشوكة من يده، وصرخ فجأة :

- بيقول ايه.

والتفت إليه اخوته في دهشة، وقالت الأم :

- بيقولوا إنهم عايزين سواق.

وصاح ممدوح فى مرح :
- المشروع نجح.. المشروع نجح.
وقالت الأم وهى تنظر إلى ممدوح كأنها تهم بأن تضربه علقة :
- مشروع ايه ؟
وقال ممدوح :
- قوليلى الأول.. كام تليفون ضرب ؟
وقالت فيفى :
- ما تتكلم.. أنت حاتجننا ليه ؟
وقالت نبيلة :
- تكونش اشتغلت سواق !
وقالت ليلى :
- أهو يدويك ينفع سواق.. وبنت صاحب العربية تحبه، وتهرب معاه.. زى الحواديت !
ورفع ممدوح يديه فى الهواء :
- هس. اسمعوا.. أنا من النهاردة ابتديت حياتى.
ورفع أحمد عينيه إلى أخيه متحفزا.
واستطرد ممدوح قائلا :
- بأه أنا عملت شركة لتشغيل السواقين بالساعة.. فيه ناس كتير عندهم عربيات، وما يقدروش يدفعوا ماهية سواق.. بيسوقوا بأيديهم.. ويروحوا مكاتبهم الصبح، وتفضل العربية ملطوعة قدام الباب من غير شغل.. يبقى اللى عاوز منهم سواق علشان يروح مشوار مع العيلة، ولا يقضى شغله بالعربية، يتصل بينا، ونبعت له سواق ياخد أجرته بالساعة.. الساعة بريال.. والنهاردة عملت إعلان صغير فى الجرنال.. ماكنتش فاكر إن المشروع حاينجح بالسرعة دى.. و..
ونظر إليه أحمد كأنه يهم بأن يصفعه، وقال يقاطعه :
- وحطيت فى الإعلان نمرة تليفون البيت.. مش كده ؟!
وقال ممدوح وقد بدأ صوته يخفت :
- أيوه.. بس.

وصاحت فيفى تقاطعه :
- عال.. يعنى بيتنا بقى جراج.
وصاحت الأم وهى تحاول أن تهدئ من حدة الموقف :
- دى عملة تعملها يا ممدوح ؟
وصرخ أحمد بكل صوته.. كأنه وجد معركته :
- أنت مجنون.. جرالك حاجة فى عقلك.. لازم تعرف أن البيت ده فيه بنات.. والبنات دول يبقوا اخواتك.. يعنى لازم تحترمهم وتخاف عليهم.. ولما تنشر نمرة التليفون فى الجرنال، يبقى زى ما تكون فتحت باب البيت علشان كل واحد عايز يخش، يخش.. كأنك عملت من البيت دكان.. دكان فيه بنات.. فيه أمك وأخواتك.
وقال ممدوح يحاول أن يقاطعه بكلمات مرتجة :
- أمال كنت حاعمل ايه.
وعاد أحمد يصرخ مقاطعا :
- اسمع.. إذا ماكنتش حاتشوف لك طريقة. أنا حاقطع التليفون من بكرة. فاهم.. مشروعاتك دى تعملها برة البيت.. لازم يكون عندك دم، وتخاف على اخواتك البنات.
ودق جرس التليفون.
وساد صمت ثقيل فوق رؤوس العائلة.
وهم ممدوح أن يقوم من مكانه، ثم عاد وجلس، وهو يزفر، ووضع رأسه فوق كفه، كأنه يلعن الدنيا.
وجرس التليفون لا يزال يدق.
وقامت نبيلة، لترد.
والأم تنظر إلى أحمد، كأنها ترجوه أن يكف عن ثورته، ثم تنظر إلى ممدوح كأنها تعاتبه.. وممدوح لا ينظر إلى أخيه، ولا إلى أحد.. وفيفى وليلى قد كفا عن الأكل كأنهما فى انتظار معركة، وفى عيونهما اشفاق.
وعاد أحمد يقول :
- أنا عايز أفهم أنت بتعمل كدة ليه.. إنت نسيت أن لك أخوات بنات و..
وعادت نبيلة، وقالت تقاطعه :

- تليفون يا آبية احمد.
ونظر إليها أحمد وفى عينيه دهشة، وبين شفتيه بقايا ثورته :
- تليفون لى!! مين ؟
وقالت نبيلة فى تردد وبين شفتيها ابتسامة لا تستطيع أن تخفيها :
- ناس عايزينك.
وقال أحمد فى حدة :
- مين.. مين الناس دول ؟
وطافت نبيلة بوجوه أفراد العائلة، ثم عادت تنظر إلى أحمد كأنها تلقى قنبلة فى البيت :
- واحدة بتقول إن اسمها شهيرة.
وسكت أحمد كأنه صعق.
وسكت كل أفراد العائلة، ونظراتهم كلها منسكبة فوق أخيهم الكبير..
وتسلل أحمد بعينيه يطوف بوجوههم.. إن أمه تبتسم له ابتسامة كبيرة كأنها تحمد الله لأن ابنها وجد أخيرا الحب.. وليلى تنظر إليه فى فرحة هادئة كأنها تهنئه.. وفيفى تحاول أن تبدو ساخطة ولكن ابتسامتها تفضحها، وممدوح يبدو فى دهشة وكأنه نسى مشروعه.
وقام أحمد من على مقعده فى بطء، وهو يحاول أن يبدو هادئا.. وعندما قام وقعت السكين التى كان يأكل بها من فوق حافة المائدة، فانحنى يلتقطها، وانحنت معه نبيلة فى نفس الوقت، والتقت وجوههما تحت حافة المائدة.. وابتسمت له نبيلة، كأنها تسأله : هل عرف الحب أخيرا.. وهل يعذرها.. وهل يصفح عنها ؟
ولم يرد أحمد على ابتسامة أخته، ظل متجهما فى وجهها، ربما لأنه كان أضعف من أن يبتسم، وترك لها السكين لتلتقطها. وسار فى خطوات بطيئة إلى البهو الخارجى حيث كانت آلة التليفون وأمسك بالسماعة ويده ترتعش، وقال فى صوت خفيض أكثر ارتعاشا من يده، وهو يتعمد ألا يسمعه أحد من أفراد العائلة :
- آلو..
وسمع صوت شهيرة ينساب رقيقا متزنا، كقطرات من الحنان :

– أحمد.. انت رحت فين.. قمت أدور عليك فى النادى لقيتك مشيت !
وفوجىء أحمد بالاهتمام الذى يبدو فى صوتها، وقال وهو يتنحنح، كأنه يطرد اضطرابه من حلقه :
– أصلى.. أصلى.. كنت مشغول.. كان عندى شغل.
وقالت شهيرة فى رفق :
– لأ.. إنت ما كنتش مشغول.. إنت كنت متضايق.. مالك يا أحمد.. شغلتنى عليك.
وقال أحمد وهو لا يفهم سر هذا الاهتمام :
– أبدا.. ماكنتش متضايق.. كان..
وقاطعته شهيرة :
– أنت بتتغدى ؟
وقال أحمد كأنها أنقذته :
– أيوة.
قالت :
– أنا آسفة اللى قومتك من على الغدا.. إنما خفت أضرب لك بعد كده تكون خرجت.. إنت حاتروح النادى بكره ؟
وقال بلا وعى :
– أيوة.
قالت :
– الساعة كام ؟
قال :
– الساعة اتناشر.
قالت :
– بس ما تتأخرش.. أنا حاستناك تحت البرجولة اللى فى الجنينة.. باى.
وقال أحمد وهو ساهم :
– أوريفوار.
وظل ممسكا بسماعة التليفون، حتى سمع صوت سماعة شهيرة وهى

تعود إلى مكانها.. ثم وضع سماعته من يده فى رفق كأنه يخشى أن يسقط منها صوت شهيرة.. وعاد إلى غرفة الطعام فى خطى بطيئة متسللة كأنها خطوات الفجر.. ونظر إلى أفراد عائلته وهو كالعبيط.. إنهم لا يزالون يبتسمون له، كأنهم يزفونه إلى الحب.. إلى الدنيا.. إلى شهيرة.

وجلس على مقعده، وقال وهو يرفع الشوكة ويهم بأن يلتقط بها الطعام:

– دى واحدة من النادى عايزة منى كتاب.

وسكت.

ولم يعلق أحد من أفراد العائلة.. ظلوا ساكتين.. وابتسامتهم فوق شفاههم.. إن كلاً منهم يعرف أن أحمد عاش طوال حياته بعيدا عن البنات.. لم تكن له أبدا بنت.. ولم يكن له أبدا حب.. وكانوا يشفقون عليه من هذا الجفاف، وكانوا أحيانا يتصورونه إنسانا غير عادى.. شاب ينقصه شىء ليكون كبقية الشبان.. وكانت الأم أكثرهم جزعا عليه.. كانت تتمنى فى كل يوم، أن تسمع أن ابنها أصبحت له فتاة.. أى نوع من الفتيات.. وكانت تتمنى أن تسمع التليفون يحمل صوتا نسائيا يسأل عنه.. حتى تطمئن إلى أن ليس فيه نقص.. وتطمئن على أنه سعيد.. إن الرجل لا يمكن أن يستكمل سعادته إلا إذا وجد امرأة.. وقد وصل ابنها إلى سن الخامسة والعشرين وهو لم يجد بعد امرأة.. ورغم ذلك فإن الاحترام المتبادل بينهما كان يمنعها أن تفاتحه.. كانت أحيانا تقول له «أنا نفسى أشوفك متجوز يا أحمد»، وكانت أحيانا تقول له : «أنا عايزاك تتجوز وتجيب بنت تسميها عنايات.. على اسمى».. ولكن انطواءه، وخجله، وهذه الشخصية الوقورة التى يبدو بها كانت تقطع عليها محاولتها.. وكانت بناتها أقل جرأة منها فى مفاتحته بمثل هذه المواضيع.. حتى ممدوح كان لا يستطيع أن يتبادل موضوع البنات مع أخيه إلا فى بضع نكات عابرة.

ولكنهم الآن يعلمون أن أحمد له فتاة.. وأن اسمها شهيرة.. وابتساماتهم تزغرد فوق وجوههم.

وأحس أحمد بثقل ابتسامتهم.. إنها كقطع الحديد تسقط فوق كتفيه.. فادعى أنه انتهى من طعامه، وقام، وقبل أن يخرج من الغرفة، التفت إلى أخيه ممدوح، وقال فجأة وهو يبذل جهدا ليبدو وجهه وقورا جادا :

– أنا لسه مصمم على اللى قلته.. يا تشوف لك طريقة، يا اما حاأقطع التليفون من بكرة !

ولم يرد عليه ممدوح.

واتجه إلى غرفته. وقد أراح وجهه من قناع الوقار بمجرد أن أدار ظهره للعائلة.. وعاد يخطو فى سحب الحيرة.. إنه لا يدرى لماذا حادثته شهيرة.. لماذا تحادثه وعندها مدحت.. شاب أنجح منه وأقرب إلى قلوب البنات.

وهو لا يدرى أيضا ما إذا كان على حق فى موقفه من مشروع ممدوح أم لا.. لقد تصرف مع أخيه بعقلية أبيه.. وبعقلية خاله.. وبعقلية الجيل القديم.. ولكن.. ربما كان الجيل الجديد على حق.. ربما كان ممدوح لم يخطىء.. ماذا لو نشر نمرة تليفون البيت فى الإعلان عن المشروع.. حتى لو كان فى البيت بنات.. إن اخواته البنات يذهبن إلى الجامعة.. وكل الناس يرونهن.. ويعرفونهن بأسمائهن.. ونمرة التليفون منشورة فى الدفتر، يستطيع أى إنسان أن يستعملها.. فلماذا لا يقر ممدوحا على مشروعه؟ بل لماذا لا يطلب من أخواته البنات أن يساعدن أخاهن فى هذا المشروع، ويتولين الرد على التليفون، كما تفعل السكرتيرات.. ربما اشتغلت واحدة منهن سكرتيرة بعد أن تتخرج، وتكون مهمتها الرد على التليفون، فلماذا لا تكون سكرتيرة لأخيها ؟!

إنه لا يدرى.

إن سر شقائه، أنه لا يدرى.

ودخل غرفته.

وأغلق الباب وراءه.

٩

• ممدوح •

وانتهت العائلة من تناول طعام الغداء.. وتفرق أفرادها بين الحجرات.. وتسلل ممدوح، وجلس فى البهو، وعيناه مثبتتان فوق آلة التليفون.. ولم يكن يفكر فى تهديدات أخيه أحمد له، ولا فى رأيه الذى أبداه فى مشروعه.. لقد تعود أن يستمع إلى هذه التهديدات والآراء، دون أن يغضب منها، أو يلقى إليها بالا.. وأحيانا كان يشفق على أخيه من هذه الآراء.. كان يخيل إليه أن أخاه يدفن نفسه فى تراب عقليات بالية، ويكفن نفسه بها.

كان تفكير ممدوح كله محصورا فى نجاح مشروعه.. لقد فوجيء بهذا النجاح، وفرحته به يشوبها بعض الارتباك، فهو لم يعد نفسه لاستقبال هذا النجاح السريع.. وكل ما حدث أنه كان يناقش زملاءه فى المشروع، فأثاروا فى وجهه كثيرا من الاعتراضات، وأراد أن يقطع عليهم ترددهم، ومناقشاتهم، فخرج من الجامعة وذهب إلى جريدة الأهرام، وطلب نشر إعلان صغير عن المشروع، حتى يواجه به زملاءه.. وقد واجههم بالإعلان هذا الصباح، فاتهموه بالتسرع، وأكد معظمهم أن الإعلان لن يأتى بنتيجة، ولن يجتذب زبونا واحدا.. وهو نفسه كان يشك فى نتيجة الإعلان.. ولكن .. لقد نجحت الفكرة.. وانهالت طلبات أصحاب السيارات الذين يطلبون سواقين يدفعون أجرهم بالساعة.. وهو الآن يحس أنه قد تسرع فعلا.. إنه لم ينته بعد من دراسة المشروع، وتنظيمه.. ورغم هذا فليس أمامه إلا أن يواجه النجاح، ويستقبله بجرأة.

وظلت عيناه مثبتتين فوق آله التليفون.

ودخلت نبيلة إلى البهو، ونظرت إلى التليفون، ثم نظرت إلى ممدوح.. ثم

عادت إلى غرفتها.

وبعد قليل دخلت ليلى.. ونظرت إلى التليفون، وإلى ممدوح، ثم قالت له :

– أنت مش حاتقوم تخرج ؟

وقال ممدوح دون أن يرفع عينيه عن التليفون :

– لأ.. وماتفكريش أنك تضرب تليفون.. مش حاسمح لحد يمسك التليفون طول ما أنا هنا..

قالت وهى تخرج :

– شاطر.. علشان أبيه أحمد يقطعه بكرة.

وخرجت.

وظل ممدوح جالسا فى مكانه لا يتحرك.

ودق جرس التليفون.

واندفعت نبيلة من الداخل لتلتقط السماعة، فكان ممدوح أسرع منها إليها، ووضع يده على السماعة، وهو يصيح فيها :

– استني.. انا اللى حارد.

ثم وضع السماعة على اذنه، وقال فى لهجة جادة أشبه بلهجة عاملات التليفون :

– آلو.. هنا شركة الخدمات العامة.

وقال صوت نسائى :

– مش دى نمرة ٢٥٩٨٢.

وقال ممدوح :

– أيوة يا أفندم.

وقال الصوت النسائى :

– مش منزل عنايات هانم.

وقال ممدوح وقد تغيرت لهجته وبدت بين عينيه خيبة الأمل :

– أيوة.

وقالت صاحبة الصوت :

– أقدر أكلم الست.

وقال ممدوح :

- حاضر.

والتفت إلى نبيلة، وقال :

- واحدة عايزة ماما.

وحملته فى يدها.. وضعت السماعة على أذنها، وقالت وهى تسير نحو غرفة أمها، وتجر وراءها سلك التليفون الطويل :

- نقول لها مين يا أفندم.

ثم اختفت بالتليفون.

وظل ممدوح جالسا فى البهو فترة.. ثم قام وذهب إلى غرفة أمه وأطل عليها فوجدها لا تزال تتحادث فى التليفون.. وسار فى الممر الذى يفصل بين الحجرات جيئة وذهابا، ثم دخل غرفة أخوته البنات، ثم خرج، ودخل غرفته، ثم عاد يطل على أمه، فوجدها لا تزال تتحدث فى التليفون.. وخيل إليه أنه اكتشف لأول مرة أن أمه ثرثارة كبيرة.. فيم تتحدث أمه كل هذا الحديث؟.. فيم تتحدث كل النساء.. وأحس أنه يريد أن يهجم على أمه ويخطف التليفون من يدها، ثم يصرخ فى صديقتها : «بلاش كلام فاضى».. ثم يلقى بالسماعة فى وجهها.

وظل ممدوح يروح ويجيء أمام غرفة أمه، إلى أن سمعها تضع السماعة مكانها، فدخل إليها فى صوت حاول أن يبدو هادئا ، وبين شفتيه ابتسامة مفتعلة :

- أقدر آخد التليفون يا ماما.

وقالت أمه بلهجة غاضبة يخففها حنانها :

- إيه الفضايح اللى انت عاملها دى يا ممدوح.. ازاى تقول لتحية هانم، إن هنا شركة خدمات.. أنت اتجننت!!

وقال ممدوح فى ارتباك :

- أبدا يا ماما.. ده أنا افتكرتها غلطانة فى النمرة.

وقالت الأم وهى لا تصدقه :

- إعمل معروف يا ممدوح.. خللى اللعب بتاعك ده برة البيت إعمل معروف أعقل، وخليك كويس.

وقال ممدوح كأنه لا يحس بكلامها :

- حاضر.. أقدر آخد التليفون.
وقالت الأم فى حدة :
- وبعدين معاك.
وقال ممدوح وقد بدأ يفقد أعصابة :
- حاكلم واحد صاحبي.. هو التليفون كمان بقى بحساب.. يعنى أنزل أتكلم من عند البقال.
وقالت الأم وهى تتنهد :
- اتفضل.. التليفون قدامك.
وحمل ممدوح التليفون وعاد به إلى غرفته، وهو يجر وراءه السلك الطويل.. ثم وضعه فوق الدولاب الصغير بجوار فراشه، وجلس فوق الفراش.. وأخذ ينظر إليه.. إلى التليفون..
ومضت فترة طويلة.. وجرس التليفون لا يدق.. وبدأ اليأس يتسرب إلى قلب ممدوح.. يظهر أن أصحاب السيارات لا يحتاجون إلى سائقين إلا فى الصباح.. يظهر أن مشروعه لم ينجح إلى الحد الذى تخيله.. و..
ودق جرس التليفون.
والتقط ممدوح السماعة بلهفة، وقال بنفس لهجة عاملات التليفون :
- آلو.. شركة الخدمات العامة.
وقال صوت غليظ :
- انتم اللى نشرتم الإعلان النهاردة ؟
وقال ممدوح فى صوت مهذب :
- أيوة يا أفندم.
- من فضلكم احنا عايزين سواق.
وقال ممدوح فى فرح :
- دقيقة واحدة من فضلك لما ناخد البيانات.. الاسم لو سمحت..
وقال الصوت :
- أنا الأستاذ عبدالبارى السعيد، خبير معمارى.
وردد ممدوح الاسم وهو يتظاهر بالكتابة، ويحرك يده فى الهواء كأنه ممسك بالقلم، ثم قال :

- العنوان.
وقال الأستاذ عبدالبارى :
- شارع النباتات نمرة ١٢، جاردن سيتى، الدور الثالث.
وقال ممدوح :
- عايزين السواق كام ساعة؟
وقال الأستاذ عبدالبارى :
- ساعتين.. تلاتة.. لغاية ما يخلص المشاوير.
وقال ممدوح :
- ابتداء من الساعة كام ؟
وقال الاستاذ عبدالبارى :
- الساعة أربعة.. بس من فضلكم، ما تتأخروش.
قال ممدوح :
- مش ممكن.. أعمال الشركة بتاعتنا بتمشى زى الساعة.. بعد ربع ساعة بالضبط، حايكون السواق عند سيادتك.
ووضع ممدوح سماعة التليفون، ثم انتفض واقفا، واندفع نحو الباب.. ولكنه عاد ووقف فجأة.. ونظر إلى نفسه.. إنه مرتد بنطلونا وقميصا ومن فوقه بلوفر.. إنه زى لا يليق بسائقى السيارات.. وعاد إلى غرفته، وخلع ثيابه على عجل.. وأخرج من دولابه أرشق حلله وأكثرهم اناقه.. بدلة غامقة اللون واختار قميصا جديدا.. ورباط عنق راعى فيه ألا يكون فاقع اللون.. وأخذ يرتدى ثيابه أمام المرآة وعلى وجهه فرحة كأنه مقبل على ليلة زفافه.. ثم مشط شعره.. وخرج من الغرفة على عجل، وهو ينظر إلى ساعته.
وقابلته ليلى فى البهو، وصاحت وهى تنظر إليه فى دهشة :
- ايه ده كله.. على فين كده.
ونظر إليها وهو يسرع نحو الباب.. وقال ضاحكا :
-حاتجوز.
ثم خرج إلى الحديقة، وأمسك «بالفسبا» بين يديه، وأدار الموتور، وهو يقول كأنه يخاطبها :
- ياللا يا حلوة.. المشروع نجح !

وركب الفسبا، وخرج بها إلى الشارع، وأخذ يرقص بها فى طريقه إلى حلمه الكبير، ثم وقف أمام باب العمارة رقم «١٢» بشارع النباتات، ونزل من فوق « الفسبا » وتركها بجوار الرصيف، ثم وقف برهة ينظر إلى صف السيارات الواقفة فى انتظار أصحابها .. ويتساءل : أى منها سيارة الأستاذ عبد البارى السعيد .. هل هى السيارة البويك .. أم الشفروليه .. أم الأوستن.. أم الأوبل .. إنه يعرف كل ماركات السيارات، كما يعرف أسماء أصدقائه، ويعرف كيف يقودها جميعا .. وأخذ يستعيد فى ذهنه مكان «الفتيس»، ومفتاح النور، ومفتاح الموتور، فى كل سيارة منها .. ثم صعد إلى الدور الثالث من العمارة، ووقف أمام باب علقت على جانبه لوحة نحاسية، تحمل اسم «عبد البارى السعيد ـ خبير معمارى»، وأصلح رباط عنقه، وشد قامته، وجذب نفسا عميقا من صدره ثم مد يدا يهزها الانفعال، وضغط على جرس الباب ضغطة قصيرة سريعة .. وانتظر قليلا .. ثم عاد يضغط على الجرس ضغطة أقوى من الأولى .

وفتح الباب .

فتحته فتاة .

شفتاها مكتنزتان، وعيناها ضيقتان ضاحكتان، يقفز فيهما مرح جرىء، وشعرها قصير مكوم فوق رأسها فى إهمال .

ونظرت إليه فى دهشة وتساؤل .. وعلقت عينيها فوق وجه ممدوح الضاحك كوجه نجوم السينما .. ثم ابتسمت ابتسامة كبيرة، كأنها وجدت فتى أحلامها .. وظلت ساكنة، وعيناها متسائلتان .

وقال وهو يبذل مجهودا كبيرا حتى لايرد على ابتسامتها، وحتى لا ينسى نفسه ويعاملها كما يعامل زميلا فى الجامعة :

– أنا السواق .

وقالت فى صوت ناعم كأنها تكذب أذنيها :

– مين يا أفندم ؟

قال وهو يتنحنح :

– أنا السواق اللى طلبتوه من شركة الخدمات العامة .

وغرق وجهها فى دهشة كبيرة، ونظرت إليه كأنها لا تصدقه، ثم قالت:

- دقيقة واحدة من فضلك.

وتركت البـاب مـفـتـوحـا، وخطت خـطوتين، ثم أدارت رأسـهـا إليـه وابتسامـتها الكبيرة لا تزال بين شـفتيها، ثم جـرت إلى داخل الشقة وهى تقفز فى خطواتها، وتصيح !

- بابا.. بابا.. السواق جه.

والتقت بأختها، فقالت لها فى صوت خفيض :

- أما حتة سواق يا بنتى.. إنما لذيذ موت.. تعالى اتفرجى.

ووقفت الأخـتان تطلان من بعـيد على ممدوح، وهو واقف مـرتبك عند الباب الخارجى.

وخرج الأستاذ عبد البارى من غرفته.. طويل، سمين، أصلع الرأس، كل شىء فيه ضخم.. عيناه وأنفه، وشفتاه.. ويرتدى جلبابا، ويسير كأنه مقبل على حلقة مـلاكمة.. وما كاد يرى ممدوح، حـتى انفرجت شفتـاه الغليظتان من الدهشة، وقال وهو يفحصه بعينيه الجاحظتين :

- حضرتك السواق ؟

وقال ممدوح فى أدب يغلب عليه الارتبارك :

- أيوه يا أفندم.. أنا السواق.

وصمت الأستاذ عبد البارى برهة، ثم قال :

- مش باين عليك أنك سواق.. باين عليك ابن ناس طيبين.

وقال ممدوح وهو يبتسم ابتسامة مهذبة :

- ما هو السواقين برضه ولاد ناس طيبين.

وسكت عبد البارى، كأن الحيرة تستبد به، ثم قال :

- اتفضل.

وخطا ممدوح داخل الشقـة، وأغلق الأستاذ عبد الـبارى الباب وراءه، ثم جلس على مقعد عـريض موضوع فى الصالة، وهم ممدوح بأن يجلس على مقـعد آخر، ثم تنـبه إلى أن هذا ليس من حقـه، فظل واقفـا كأنه فى طابور عسكرى وقد بدأ يشعر بالضيق.. أحس بأن ياقة قميصه تضيق حول عنقه، وبنطلونه يضيق حـول خصره، وحذاءه يضـيق حول قدميـه.. وهو يسمع همـسات الأخـتيـن الواقفـتيـن خلف الباب الذى يفـصل الصـالة عن باقى

الحجرات، فيزداد ضيقا، ويحس كأن هذه الهمسات طنين فى رأسه.

وقال الأستاذ عبد البارى :

– الحقيقة أنا عجبتنى الفكرة اللى أعلنتم عنها.. فكرة السواقين اللى بالساعة.. دى فكرة تخدم ناس كتير.. يعنى أنا مثلا.. ماعنديش سواق، والليلة لازم أقعد فى البيت علشان أكتب تقريراً، والست والأولاد لازم يروحوا يزوروا جماعة قرايبهم ودايما يتخانقوا معايا علشان أقوم أوصلهم بالعربية.. و..

وسكت الأستاذ عبد البارى فجأة، وعاد يفحص ممدوح بعينيه الجاحظتين، ثم قال :

– إنما أنت باين عليك صغير قوى.

وقال ممدوح وهو يحاول أن يبتسم :

– أنا شكلى أصغر من سنى.

وقال الأستاذ عبد البارى :

– يعنى عندك كام سنة ؟

وأضاف ممدوح عاما على عمره، وقال :

– عشرين.

وكأنه وجد أن عشرين عاما لا تكفى، فاستطرد :

– عشرين سنة ونص.

ودخلت الفتاة التى فتحت الباب، وجلست على مقعد بجانب والدها، وعيناها تأكلان وجه ممدوح.. ونظر عبد البارى إلى ابنته فى سخط، ثم أدار وجهه إلى ممدوح، وقال :

– واتعلمت السواقة من أمتى ؟

وقال ممدوح :

– أنا طول عمرى باسوق.. متهيأ لى أنى اتعلمت السواقة من يوم ما اتعلمت المشى.

ودخلت الأخت الثانية وجلست بجانب الأولى، وعيناها هى الأخرى تأكلان وجه ممدوح.

وقال الأستاذ عبد البارى :

– واشتغلت سواق من امتى ؟.

وقال ممدوح وهو يتنهد فى ضيق، وقد قرر أن يكون صريحا :

– من النهاردة.

واشتدت دهشة الأستاذ عبد البارى، وقال :

– وقبل كده كنت بتشتغل فى إيه ؟

وقال ممدوح، وهو يشعر بثقل عيون البنتين وهما تنظران إليه، ويتمنى أن يستدير لهما، ويصفع كل واحدة منهما قلما :

– ما اشتغلتش فى حاجة.

ودخل ولد صغير، ووقف مستندا على ساق أبيه، وأخذ يتطلع بعينيه إلى ممدوح.. وبدأ ممدوح يحس بأنه بهلوان فى سيرك والناس تتجمع للتفرج عليه.

وقال الأستاذ عبد البارى وهو يربت على ظهر ابنه :

– يعنى دى أول شغلانة.

وقال ممدوح وهو يحاول أن يضبط أعصابه حتى لا يحتد :

– أنا طالب فى الجامعة.. فى كلية الحقوق.. والفكرة اللى عجبت سيادتك، فكر فيها طلبة من الجامعة.

ومالت إحدى البنتين تهمس فى أذن الأخرى، وقال الأستاذ عبدالبارى، وهو يبتسم كأنه يهنىء نفسه على ذكائه.

– أنا كمان قلت إنك مش ممكن تكون سواق.

ثم أشار إلى مقعد خال، واستطرد :

– اتفضل يا ابنى.. اتفضل !

وقال ممدوح وهو لا يزال واقفا :

– متشكر.

وعاد الأستاذ عبد البارى، يلح :

– اتفضل.. أقعد.. أنا نسيت اسألك عن اسمك.

وجلس ممدوح، وهو يقول :

– ممدوح.. ممدوح زهدى.

وقال الأستاذ عبد البارى :

- ياترى تقرب للأستاذ محمد زهدى ؟
وقال ممدوح وهو يتعمد ألا ينظر إلى البنتين :
- لأ.
وعاد الأستاذ عبدالبارى يلح :
- أما والدك يبقى مين !
وقال ممدوح،وهو يكاد يفقد أعصابه :
- عبدالعزيز زهدى.
وصاح الأستاذ عبدالبارى كأنه فوجىء :
- عبد العزيز زهدى المستشار .. الله يرحمه.. ده كان راجل عظيم.
وسكت ممدوح، وهو يبتلع ريقه كأنه يطفىء به نارا بدأت تندلع فى أعصابه.. واستطرد الأستاذ عبدالبارى :
- أظن أن عزت بيه راجى وكيل وزارة المالية يقرب لك..
وقال ممدوح فى اقتضاب :
- أيوه.. يبقى خالي.
وعادت البنتان تتهامسان، ونظر إليه الأستاذ عبدالبارى فى تقدير واعجاب، كأنه يرى فيه شخصا جديدا، ثم التفت إلى ابنته قائلا :
- قومى قدمى كوكاكولا يا زيزى.
ثم التفت إلى ممدوح وقال :
- ولا تحب تشرب قهوة !
وقام ممدوح واقفا فى عصبية، وقال :
- متشكر.. حضرتك قلت إنك عايز السواق الساعة اربعة، ونص.. وده وقت محسوب علىّ فى الشركة.
وقال الأستاذ عبدالبارى فى أدب :
- صحيح.. إنما قول لى.. يا ترى خالك أخد خبر.. بالمشروع ده.
وقال ممدوح فى حدة :
- لأ.. خالى مالوش دعوة بالشركة.
وقال الأستاذ عبدالبارى :
- مش كان يصح برضه تاخد رأيه.. يمكن يكون من رأيه انك تتفرغ

لدراستك، لغاية ما تاخد الشهادة وتبقى مستشار عظيم زى والدك.

وقال ممدوح فى اقتضاب :

- المشروع ده ما يعطلنيش عن دراستي.. تسمح سيادتك أطلع العربية.

ونظر إليه الأستاذ عبدالبارى فى عجب، وفكر قليلا، ثم قال كأنه يستسلم لعبث صبيان :

- ياترى معاك رخصة سواقة ؟

وارتبك ممدوح، ثم قال :

- عندى رخصة سواقة موتوسيكل.. إنما أنا طول عمرى باسوق عربيات.. ومعايا كارنيه الجامعة إذا حبيت تتأكد من شخصيتي.. و..

وقام الأستاذ عبدالبارى واقفا، وقال وهو يحاول أن يكون رقيقا :

- أنا متأكد من شخصيتك.. أولاد الناس الطيبين اللى زيك، سيماهم على وجوههم.. إنما أرجوك تفهمني.. الواحد لما بيسلم عيلته لسواق، لازم يبقى مطمئن.. وأقل ضمان هو أن السواق يبقى عنده رخصة.. أنا آسف يا ابنى.. وأنا معجب بالفكرة بتاعتكم جدا.. إنما كان لازم تبعتوا لى سواق معاه رخصة.. أنا آسف.

وأحنى ممدروح رأسه، وقال فى همس :

- لك حق.

وقالت زيزى :

- وماله يا بابا.. مادام بيعرف يسوق.. خلاص.

والتفت إليها ممدوح وبين شفتيه ابتسامة صغيرة كأنه يتوسل بها إليها.. وقال الأستاذ عبدالبارى وهو يلتفت إلى ابنته فى حدة :

- اسكتى انتى.

وقالت زيزى كأنها تتحدى أباها :

- يعنى لو كان أخويا محمد كبير شوية، مش كان ساق لنا العربية، من غير ما يكون معاه رخصة.

ولم يلتفت إليها الأستاذ عبدالبارى، وعاد يقول لممدوح :

- أنا آسف يا بنى..

وقال ممدوح وهو يستدير ناحية الباب، دون أن ينظر إلى زيزى:
- عن أذنك.
وخطا وراءه الأستاذ عبد البارى وفتح له البـاب، وقال وهو يضع يده على كتفه ويبتسم فى وجهه :
- مع السلامة يا أستاذ ممدوح.. وتأكد إنى معجب بالفكرة خالص، ولو كان حد من زملائك يقدر يطلع رخصة، ابعته لى.
وقال ممدوح فى صوت يائس.
- حاضر.
ونزل السلم وهو يجر ساقيه كأنهما مقيدتان بفشله، وسمع صوت البـاب يغلق وراءه فأحس كأنه طرد من الجنة.. جنة أحلامه.. ونزل إلى الشـارع، ونظر إلى رصيف السيارات الواقفة فى انتظار أصحابها، فى حسرة.. لم يعد له نصيب فيها.. إنه لن يقود إحداها،، إنه محروم.. محروم من أن يكون سائق سيارة.. محروم من تنفيذ كل فكرة تخطر على باله.
وركب « الفسبا» وهو متجهم الوجه، حزين.. وقادها فى بطء كأنه يسير معها فى جنازة.. جنازة حلم آخر من أحلامه التى لا تنتهى.. وكان يفكر فى أسباب فشله.. لقد فشل لأنه تسرع فى تنفيذ فكرته.. إن الفكرة وحدها لا تكفى، إنما يجب دائما دراسة وسائل تنفيذها والظروف المحيطة بها.. ولو أنه تمهل فى دراسة تنفيذ فكرته، لعرف أنه يجب أن يحصل على رخصة بالاشتغال كسائق سيارة، قبل أن يقدم عليها.. وقد نبهه أحد زملائه إلى ضرورة الحصول على رخصة ولكنه استهان بصديقه، واستهان بالرخصة، واستهان بالقانون.. وأقدم على فكرته فى جرأة.. إن الجرأة لا تعفيه من ضرورة الحرص على الاجراءات المتبعة ولو أنه حصل على رخصة لما استطاع الأستاذ عبد البارى أن يستغنى عن خدماته.. رغم صغر سنه، ورغم أنه طالب فى الجامعة، ورغم أنه ابن أخت وكيل وزارة كان يستطيع بهذه الرخصة أن ينتصر على كل ذلك، وينتصر على عقلية الأستاذ عبد البارى، التى لا تستطيع أن تتصور طالبا فى الجامعة بيشتغل كسائق سيارة.
وقاد «الفسبا» إلى شارع السلطان حسين بحى عابدين، ثم وقف أمام

دكان صغير، اتخذه صاحبه ورشة لاصلاح السيارات، ونزل من فوق «الفسبا» ودخل الدكان وقال واليأس لا يزال ينضح من صوته :

- مساء الخير يا أسطى عفيفي.

واخرج شاب فى الثلاثين من عمره، رأسه من داخل موتور السيارة التى يقوم باصلاحها، ونظر إلى ممدوح، ثم قال وهو يرحب به بابتسامة كبيرة :

- أهلاً .. مسا النور يا سى ممدوح.. ازيك.

ثم اعتدل واقفا واخذ يمسح يديه الملوثتين بالزيت فى خرقة سوداء، وقال وهو يدقق، فى وجه ممدوح :

- مالك.. قرفان ليه ؟

وقال ممدوح وهو ينظر داخل موتور السيارة :

- زهقان يا أسطى عفيفي.. الواحد كل ما ييجى يعمل شغلة تنسد الدنيا فى وشه.

وقال عفيفى وهو يبتسم ابتسامة تعبر عن صداقته لممدوح ومعرفته به جيدا :

- كنت عايز تشتغل ايه ؟

وقال ممدوح :

- سواق.. فكرت أجمع زملائى ونشتغل سواقين بالساعة للناس اللى عندهم عربيات وماعندهمش سواقين.. وجت لنا طلبات كتير.. رحت استلم أول زبون. يقوم يقول لى فين الرخصة.. تقولش إن الرخصة هى اللى حاتسوق.

وقال الأسطى عفيفى:

- له حق برضه.. حاكم الواحد لازم يمشى بالاصول.. انما الفكرة كويسة.. دى ماخطرتش على بال حد أبدا.. براوة عليك.

وقال ممدوح فى فرح كأن رأى عفيفى شهادة يعتز بها:

- طيب ايه رأيك تشترك فى الفكره دى معايا؟..

وانحنى عفيفى ووضع رأسه ويديه داخل مقدمة السيارة، ثم أخرج نفسه بعد قليل، وفى يده قطعة من الموتور، وقال:

- لأ .. أصل أنا ما أحبش اشتغل سواق..

وقال ممدوح فى دهشة:

- ليه..

وقال عفيفي:

- دى شغلة ماتكبرش.. أصل فيه شغلانات تبقى لا مؤاخذه زى الست اللى ما تخلفش.. ما تجبش عيال.. يعنى لو اشتغلت سواق، حافضل طول عمرى سواق.. يمكن ماهيتى تزيد، يمكن اشتغل سواق فى سفارة بعد ما أكون باشتغل عند واحد أفندى على قده.. انما برضه حافضل سواق.. ما أعملش حاجة إلا انى أسوق.. وده شغل ما يعجبنيش.. أنا أحب الشغل اللى يكبر.. ويفضل يكبر إلى ماشاء الله.. يعنى الورشة الصغيرة اللى أنت واقف فيها دى ممكن تبقى ورشه كبيرة.. وورشة أكبر.. وبعدين تبقى مصنع.. والمصنع يكبر، ويفضل يكبر لما يبقى زى مصانع فورد.. كل ماتحط فى الورشة دى كل ما تكبر.. والرك على المجهود، والصبر، ورضا المولى.

ونظر ممدوح إلى الأسطى عفيفى فى إعجاب، كأنه أضاء له نورا، وكشف له عن الطريق..

وقد كان ممدوح معجبا دائما بالاسطى عفيفى، وكان إعجابه يصل أحيانا إلى حد أن يحسده على حظه من الحياة.. على حريته.. على إنه شاب يعمل بيديه، وينتج، ويكسب.. وقد عرفه منذ أكثر من عامين عندما كان يذهب إليه مع أصدقائه أصحاب السيارات لاصلاح سياراتهم.. ثم أصبح يذهب إليه وحده، ويجلس معه فى الورشة، ويتبادل معه الأفكار والمشاريع، ويشترك معه أحيانا فى إصلاح السيارات.. يفك المسامير أو يربطها، وينام تحت السيارة العاطلة، ويخرج من تحتها ويداه متسختان بالزيت، ووجهه ملغمط بالبقع الخضراء.. فيفرح، كأن هذه البقع أوسمة يحلى بها وجهه ويديه.. كأنها علم خفاق فوق كيانه كإنسان منتج وقد عرف خلال هذه الأيام كل شيء عن الأسطى عفيفى.. عرف أنه بدأ منذ كان فى السابعة من عمره، عاملا فى الورشة الكبيرة.. ورشة الخواجه كوستى.. لم يكن عاملا، ولكن أقرب إلى الخادم، يكنس الورشه ويغسل قطع الغيار

بالجاز، ويتحمل صفعات كل الأسطوات.. وأجره لا يزيد على ثلاثة قروش في اليوم.. ثم بدأ يلتقط أسرار الصنعة بسرعة.. وكان صبورا، نشطا.. فبدأ يبرز بين العمال.. أصبح أجره خمسة قروش.. ثم عشرة.. ثم عشرين.. ثم سبعين.. وأصبح أسطى.. واستطاع أن يوطد صلاته بزبائن الخواجة كوستي، ويكسب ثقتهم.. واستطاع أن يدخر بعض أجره.. ثم فجأة خرج من ورشة الخواجه كوستي، واتخذ من هذا الدكان الصغير، ورشة خاصة به، ولحق به زبائن كوستي.. إنهم لا يطمئنون على سياراتهم إلا بين يديه.. وعرف ممدوح أكثر من ذلك.. عرف أن الأسطى عفيفي يكسب في الشهر ما لا يقل عن خمسين جنيها..

ولم تكن صداقة ممدوح للأسطى عفيفي قاصرة على اجتماعهما في الورشة.. كانت صداقة شخصية.. كان ينتظره في بعض الأمسيات حتى يغلق الورشة في الساعة التاسعة مساء، ويذهبان سويا ليجلسا على مقهى «على حصان» بباب الشعرية أو يذهبان إلى دار السينما لمشاهدة أحد الأفلام العربية.. ومرتين دعا الأسطى عفيفي ممدوح لتناول طعام الغداء في بيته.. في حي باب الشعرية.. بيت نظيف.. كل ما فيه نظيف مرتب.. قلل الماء تفوح منها رائحة البخور، والماء معطر بالمورد.. وأثاث على الطراز الحديث، وإن كان من خشب رخيص.. ولم ير ممدوح زوجة الأسطى عفيفي، ولكنه رأى ابنه فتوح.. في السابعة من عمره.. وابنته جمالات في الرابعة.. ولم يتساءل ممدوح بينه وبين نفسه، عن سر التقاليد التي تمنع زوجة الأسطى عفيفي من مشاركتهما الطعام.. ولكنه كان يتساءل دائما.. لماذا يصر الأسطى عفيفي على السكن في حي باب الشعرية.. لماذا لا يسكن في جاردن سيتي مثلا.. أو في مصر الجديدة.. إن معظم سكان جاردن سيتي ومصر الجديدة، لا يزيد دخلهم عن دخل الأسطى عفيفي.. على خمسين جنيها في الشهر.. وقد سأله مرة قائلا:

– حقك تعزل يا أسطى عفيفي.. وتسكن في حتة تانية.. في العباسية، ولا في جاردن سيتي..

وأجاب عفيفي ضاحكا:

– لا يا عم.. دي حتة فيها البركة.. أنا اتولدت هنا.. وكبرت هنا..

وحاموت هنا.. دى حتتي.. وحتة أبويا.. وبرضه عيب إن الواحد يستكبر على ولاد حتته أول ما ربنا يفتح عليه، ويجيله قرشين.

ولم يقتنع ممدوح بكلام الأسطى عفيفى، وقرر بينه وبين نفسه، إنه إذا أصبح عاملا فلن يقيم فى حى باب الشعرية

ولكن كان هناك شيء آخر يقف بين ممدوح والأسطى عفيفى.. شيء احتار ممدوح فى فهمه.. فقد كان الأسطى عفيفى يتباهى دائما بصداقته لممدوح.. ويبالغ فى هذه المباهاه.. وكان يجلس معه فى المقهى، أو يسير معه فى الشارع، كأنه - أى الأسطى عفيفى - يعرض ممدوح على أصدقائه.. وكان يتعمد فى كل مناسبة، وأحيانا بلا مناسبة، أن يذكر لأصدقائه أن ممدوح طالب فى الجامعة.. وكان لا يستطيع أن يذكر اسم ممدوح إلا مصحوبا بلقب.. «سى ممدوح» أو «ممدوح بيه» أو «الأستاذ ممدوح».. وكان ممدوح يحتار.. لماذا يتباهى عامل ناجح واسع الرزق مثل الأسطى عفيفى، بصداقة طالب مثله، كل هذه المباهاه.. ويضع بينهما هذه الفواصل، كأن كلا منهما يعيش فى عالم، ولا يمكن أن يعيشا فى عالم واحد، ولا فى مجتمع واحد؟

ولكن ممدوح لم يكن يفكر كثيرا فى مثل هذه المواضيع.. إنه لا يشغل نفسه بتفسير أحاسيسه، ولا يهمه التعمق فى نفوس الناس الذين يعرفهم.. كان مكتفيا بصداقة الأسطى عفيفى، معتزا به. دون أن يفكر فى الفواصل التى تفصل بينهما.

وركز ممدوح عينيه فوق قطعة الموتور.. التى يمسك بها الأسطى عفيفى وقال:

- يعنى تفتكر أسيب المشروع ده؟

وقال عفيفى وهو يعبث بأصابعه فى قطعة الموتور:

- مش قصدي.. إنما يعنى لازمته ايه تشتغل سواق تقدر تلم شوية سواقين من اللى مش لاقيين شغل، وتفتح مكتب صغير يتلقى الطلبات.. والطلب اللى ييجى تبعت له سواق وتاخد انت عمولة عشرة فى المية.

وقال ممدوح وقد بدأ أمله يخيب فى مشروعه:

- يعنى أبقى مخدم سواقين..

وقال الأسطى عفيفى:

- وماله .. ما هو المخدم، زى السواق.. المخدم بيكسب أكتر..

وقال ممدوح فى يأس:

- أنا عاوز اشتغل باديه.. عايز أحس إنى بأعمل حاجه.. مش عايز أضيع وقتى فى مذاكرة كتب، وبعدين أدور على شغلة مالقيش..

وقال عفيفى:

- الشغل كتير ياسى ممدوح.. والصبر طيب..

وقال ممدوح وهو يزفر:

- انت بتقول كده علشان عندك ورشتك.. و..

وقال عفيفى:

- أبدا وحياتك ياسى ممدوح.. الورشة دى ماتساويش حاجة.. ومش مستحملها إلا على أمل واحد.. وربنا كريم.

وقال ممدوح فى لهفة:

- أمل إيه؟

وقال عفيفى وعيناه تبرقان:

- مخرطة .. مخرطة بالكهربا.. تعرف يوم مأقدر اشترى مخرطة، الدنيا كلها تتفتح قدامى.. شايف قطع الغيار دى اللى بتيجى من بره، وماحدش لاقيها.. لو كان عندى مخرطة أعملها كلها على ايدى.. أعملها أحسن ما بيعملها فورد ولا دودج.. والشنبر اللى بيتباع اليومين دول بعشرة جنيه، أبيعه أنا باتنين جنيه بس.. وأبقى كسبان النص ده فيه ورشة فى القبيسى صاحبها عنده مخرطتين، والشغل مابيبطلش من عنده.. طلبات من الحكومة، وطلبات من الشركات.. وشىء ماينتهيش.. المخرطة دايرة ليل مع نهار.. أربعه وعشرين ساعة من غير توقف. والراجل فى سنتين بنى عمارة..

وقال ممدوح وهو يتتبع شفتى الأسطى عفيفى فى لهفة كأنه يشرب كلامه:

- والمخرطة دى بكام..

وقال الأسطى عفيفى وهو يتنهد كأنه عاشق يعجزه مهر حبيبته:

– تلات آلاف جنيه.. معايا منهم ميتين.. إنما يوم ما اتلم على ألف جنيه واحد، أقدر أتصرف..

وانتقل البريق الذى ينطلق من عينى الأسطى عفيفى، إلى عينى ممدوح.. ورأى فى خياله دنيا كلها مخارط.. مخارط فى السماء، ومخارط فى الأرض، ومخارط بين السماء والأرض.. مخارط تدور، وتخرط الحديد، وتحيله إلى عدد وآلات.. والذهب يتساقط عليه وهو والأسطى عفيفى.. كأن السماء تمطر ذهبا.. وانطلق فى رأسه فجأة مشروع جديد.. وهم أن يعلنه.. ولكنه عدل.. يجب أن يفكر.. أن يتمهل.. أن يصبر.. وكتم الفكرة التى انطلقت فى رأسه، وقال للأسطى عفيفى وهو ينظر إلى ما بين يديه :

– بكره تجيب ألف وألفين يا أسطى.. إيه اللى فى ايدك ده ؟

وقال الأسطى عفيفى :

– ده بستم العربية.. بستم متآكل.. أهو لو كان عندى مخرطة، كنت عملت بستم غيره، هوا..

وقال ممدوح :

– هات أفكه لك..

وقال عفيفى :

– بلاش توسخ ايدك ياسى ممدوح.. أنت لابس بدلة باين عليها جديدة

وتنبه ممدوح إلى أنه يرتدى بدلته كاملة.. فخلع سترته وعلقها على مسمار مدقوق فى الجدار، وشمر أكمامه حتى أعلى مرفقيه، والتقط قطعة الموتور من يد الأسطى عفيفى قائلا :

– هات يا أسطى.. شوف لك حاجه تانية تعملها..

وناوله الأسطى عفيفى قطعة الموتور، وهو يبتسم له ابتسامة صداقة ورجولة.. وبدأ ممدوح يفك البستم، فى خبرة ومهارة كأنه قضى عمره كله عاملا فى ورشة..

●●●

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء، عندما ودع ممدوح الأسطى عفيفى، وركب «الفسبا» وقادها فى اتجاه البيت..وعقله سارح فى مشروعه الجديد.. إنه يقود «الفسبا» دون أن يحتاج إلى عقله.. يقودها تلقائيا كأنه

يسير على قدميه.. وكان عقله كله فى المشروع الجديد.. نسى المشروع القديم.. إنه كما قال الأسطى عفيفى، مشروع عاقر، لا ينتج، ولا يكبر.. ولكن المشروع الجديد لن يكون مشروعا عاقرا.. إنه سيشارك الأسطى عفيفى فى شراء المخرطة.. ويشاركه الورشة كلها.. ولكن يجب أن يدرس هذا المشروع جيدا حتى لا يتسرع كما تسرع فى المشروعات السابقة، وكان تسرعه سبب فشلها.. يجب أن يدرس أنواع المخارط، وامكانياتها، وطريقة تشغيلها.. ثم يجب أن يدرس السوق ومدى احتماله لاستيراد مخارط جديدة، ثم يجب أن يدرس الأسطى عفيفى من جديد.. يدرسه كشريك.. وكل ذلك يحتاج إلى وقت طويل.. وسيحرص فى هذا الوقت على أن يتردد على الأسطى عفيفى كثيرا.. كل يوم.. ويعمل معه.. ويحدثه عن المخرطة..

وقبل أن يصل ممدوح إلى شارع الأخشيد لمح أخته تنزل من الأتوبيس وفى يدها نوتتها الموسيقية.. فاتجه إليها، ووقف قبالتها مبتسما ابتسامة كبيرة كأنه فى شوق إليها، وقال :

– اركبى ورايا أوصلك..

وقالت ليلى وهى تجلس على المقعد الخلفى للفسبا :

– بس امشى كويس.. ماتترقصش..

ولفت ذراعيها حول خصر أخيها، وأسندت رأسها على ظهره كأنها تحبه..

وقاد ممدوح الفسبا، وقال :

– كنتى فين لغاية دلوقت..

قالت فى بساطة :

– كنت فى المعهد..

وقال ممدوح ساخرا :

– كان عندكم حفلة سواريه ؟

قالت ضاحكة :

– أمال زى عندكم فى الجامعة.. لا سواريه، ولا ماتينيه !

ومال ممدوح بالفسبا ميلا شديدا نحو اليمين، ثم مال بها ميلا شديدا

نحو اليسار، وصرخت ليلى بأعلى صوتها :

- ايه ده.. بلاش جنان اعمل معروف !

وقال ممدوح دون أن يلتفت إليها :

- عشان تحرمى تكدبى علىّ..

ووصلا إلى البيت.. ونزلت ليلى من فوق الفسبا، وهى تقول :

- دى اللى تركب معاك مرة تانية تبقى مغفلة..

وقال ممدوح وابتسامته المرحة بين شفتيه :

- واللى ماتركبش معايا، تبقى مغفلة برضه..

وصعدا السلم وهما يضحكان، وما كادا يدخلان البيت، ويخطوان فى الصالة الخارجية حتى هبت فيفى فى وجه أختها ليلى كالزوبعة :

- كنتى فين لغاية دلوقت.. كنتى فين.. ماتتكلمى !

وصمتت ليلى برهة كأنها تجمع كل قواها حتى تبدو هادئة.. حتى لا ترتعش رموشها.. حتى لا يبدو عليها الكذب..

وقالت فى هدوء مفتعل :

- كنت فى المعهد، بتمرن للحفلة بتاعة الشهر ده..

وصرخت فيفى :

- كنتى فى المعهد لغاية نص الليل.. انتى طول عمرك بتروحى المعهد، وعمرك ما اتأخرتى بالشكل ده..

وقالت ليلى وهى لا تزال هادئة :

- إحنا مش فى نص الليل.. الساعة لسه ماجاتش تمانية ونص..

ودخلت نبيلة، وعلى وجهها لهفة، وقالت ليلى فى حنان :

- كنتى فين ياليلى.. خضتينا..

وقالت ليلى فى برود لا يخلو من تحد :

- كنت فى المعهد..

ودق جرس التليفون، ورفع ممدوح السماعة، وسمع صوتا ناعما نائما كأن صاحبته تتثاءب :

- آلو.. شركة الخدمات العامة ؟

وقال ممدوح فى حدة :

- لا.. الشركة خلاص، فلست..

وعاد الصوت الناعم يقول :

- طيب من فضلك، أقدر أكلم الأستاذ ممدوح..

واستمع ممدوح إلى الصوت، يحاول أن يعرف صاحبته.. ثم خيل إليه أنه صوت زيزى ابنة الأستاذ عبد البارى السعيد.

فقال بصوت أكثر احتدادا..

- ممدوح مش هنا.. خرج من الشركة.. طردناه.. مع السلامة.

وألقى سماعة التليفون، وعاد يلتفت إلى أخواته البنات، وبين شفتيه ابتسامته المرحة، كأنه يتفرج على مسرحية مسلية تبعث على الابتسام..

وصاحت فيفى فى وجه ليلى :

- انتى ما كنتيش فى المعهد.. انتى كدابة..

وقالت ليلى وقد بدأ صوتها يرتعش :

- من فضلك ما تقوليش علىّ كدابة.. ومالكيش دعوة بيه..

وقالت فيفى وهى أكثر احتدادا :

- طيب أنا حاضرب تليفون للمعهد، علشان أوريكى إنك كدابة..

وهمت فيفى أن تلتقط سماعة التليفون.. فصرخت ليلى، وهى تعصر عينيها حتى تستدر منها الدموع :

- أنتم مالكم ومالى.. اشمعنى أنا اللى بتحققوا معايا كل ما أخرج وأدخل.. وأنا عملتلكم إيه ياربى.. أنا ذنبى إيه.

ثم ألقت نفسها فوق مقعد، ووضعت رأسها بين يديها، وأجهشت بالبكاء وأخذت تنهنه قائلة :

- يا حبيبى يا بابا.. يا حبيبى يا بابا..

وكانت تبكى وهى تعلم أنها كاذبة وإحساسها بالكذب يعينها على الاستمرار فى البكاء.. إنها لم تكن فى المعهد.. كانت فى الشقة مع فتحى.. كانت فى بيتها.. وأحست وهى تبكى بأنه ليس بيتها.. لا يمكن أن يكون بيتها، ما دامت مضطرة إلى الكذب كلما ذهبت إليه.

ورفعت فيفى يدها من على التليفون، قبل أن ترفع السماعة.. واقتربت من أختها،وهى تنظر إليها فى حيرة.. كأنها لا تستطيع أن تصدق دموع

أختها، ولا تستطيع أن تكذبها.. ثم قالت وقد بدأت حدتها تخف:

- ما هو لازم نعرف كنتي فين.. ولما واحدة فينا تتأخر للساعة تمانية لازم تقول كانت فين..

ورفعت ليلى وجهها والدموع تنزلق فوق وجنتيها، وقالت وهي تزداد حدة على أختها:

- اتفضلى اسألى فى التليفون.. ما تسألى!

ووقفت فيفى لا تتحرك..

وجلست نبيلة بجانب ليلى، وأخذت تربت على ظهرها، وتقول لفيفى:

- خلاص بأه يا فيفى.. ما قالت لك إنها كانت فى المعهد.

وقالت فيفى وهى تتنهد:

- نفسى أصدقها..

ودخلت الأم. قائلة:

- مالكم يا بنات..

ثم التفتت إلى ليلى قائلة فى حزم:

- كنتى فين؟

وقالت ليلى وهى تنشج وتستدر من عينيها مزيدا من الدموع:

- أنا ما أسمحش لحد يقول إنى كدابة.. باقول لفيفى إنى كنت فى المعهد.. تقوم تقولى إنى كدابة.. خلاص إذا كنتم مش عايزينى أتعلم، بلاش..

ثم التفتت إلى فيفى وعادت تصرخ:

- ما تضربى تليفون تسألى.. قولى لهم إن أختك كدابة، وإنك مش مصدقاها.

ولم تتحرك فيفى..

ونظرت الأم إلى ليلى فى إمعان كأنها تحاول أن تصل بعينيها إلى قلبها ثم قالت فى هدوء:

- لما عرفتى إنك حاتتأخرى مش كنتى تضربى تليفون علشان مانتشغلش عليكى.

وقالت ليلى وهى تنظر فى عينى أمها، كأنها تقول الصدق.

– ما أقدرتش يا ماما، أنا لسة قايمة من على البيانو دلوقت.
وقالت الأم:
– طيب قومى اغسلى وشك.. وتانى مرة لما تتأخرى لازم تضربى تليفون..
وقامت ليلى ، واتجهت إلى غرفتها، وسار خلفها ممدوح، وقال لها:
– يا خسارة .. كان نفسى تنضربى علقة.. إنما أصل ماما ست طيبة، وعلى نياتها..
وقالت ليلى وقد كفت عن البكاء:
– سخيف .. بايخ..
وقال ممدوح من خلال ابتسامته:
– مش حاتقولى لى هو مين؟
قالت فى حدة:
– ابعد عنى باقول لك.. يا ماما.. حوشى عنى ممدوح..
ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب وراءها.
ودخل ممدوح إلى غرفته، ونظر إلى كتب القانون المبعثرة على مكتبه الصغير.. ثم رفع كتاب القانون المدنى.. ونقله بين يديه كأنه يختبر وزنه.. ثم ألقى به فوق المكتب، وهو يتساءل: لماذا لا يعطونه مخرطة، بدل هذه الكتب السخيفة.

١٠

لم يستطع أحمد أن يهدأ بعد أن حادثته شهيرة فى التليفون وحددت له موعد لقاء فى نادى الجزيرة.. نسى كل مشاكله، ولم يعد فى قلبه، ولا فى عقله سوى شهيرة.. وكان لا يزال يسائل نفسه: لماذا حادثته فى التليفون، ولماذا حددت له موعدا..وإذا كانت تحب مدحت، كما يعتقد، فماذا تريد منه؟ ماهو مكانه من قلبها ومن عقلها؟ ربما كانت تنظر إليه كمجرد صديق.. إن فتاة مثل شهيرة يمكن أن تقوم بينها وبين شاب صداقة.. مجرد صداقة.. وربما لم يكن بينها وبين مدحت أيضا سوى صداقة.. ولكن مستحيل.. إن مدحت شاب ناجح كامل الشخصية تتمناه كل فتاة، ولا يمكن أن تكتفى منه بمجرد الصداقة.

وحمل حيرته وهواجسه، ودخل إلى الحمام، وخلع ثيابه ووقف تحت الدش، وترك الماء البارد ينسكب فوق جسده، وهو لا يحس به.. إن كل حواسه متجمعة فى خياله المنطلق وراء شهيرة.. وأخذ يتصور نفسه عندما يقابلها.. هل سيجلسان تحت «البرجولا» أم سيسيران فى ملاعب النادى؟ ثم أخذ يعد الكلمات التى سيقولها لها.. كلمة كلمة..

ثم فجأة تختفى الكلمات من خياله، كأن يدا امتدت ومسحَتها من فوق سبورة منتصبة فى داخل رأسه، ويعود يرى بعينى خياله شهيرة ومدحت جالسين، ورأساهما متقاربان.

وتنبه إلى أنه وقف طويلا تحت الماء.. فأدار الصنبور، وخرج من تحت الدش ووقف أمام المرآة المعلقة فى الحمام يجفف نفسه.. ثم توقف عن عملية التجفيف، وقرب وجهه من المرآة، وأخذ يحدق فيها كأنه يرى نفسه

لأول مرة.. هل يمكن أن تعجب شهيرة بهذا الوجه؟ وابتسم ابتسامة كبيرة، ورأى نفسه وهو يبتسم هذه الابتسامة الكبيرة.. ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.. ثم تجهم وعقد ما بين حاجبيه.. ثم خطا خطوة إلى الوراء، ونفش صدره، وأخذ ينظر إلى عضلاته المنعكسة فى المرآة.. إنه وسيم.. وهو قوى.. لماذا لا تعجب به شهيرة؟ لابد أنها معجبة به جدا.. وعاد يقرب وجهه من المرآة، وأخرج لسانه، كأنه يسخر من نفسه، ومن هذا التفكير الصبيانى الذى يراوده، وهذه الحركات المضحكة التى يقوم بها أمام المرآة.

وخرج من الحمام، وجلس فى غرفته، يحاول أن يقرأ.. ولكنه لم يستطع.. اختار أجمل حلله، وقضى وقتا طويلا يختار رباط عنقه، واعتنى بتصفيف شعره، وسكب كثيرا من ماء الكولونيا فوق وجهه ويديه.. كأنه ذاهب لتوه لمقابلة شهيرة وخرج من البيت دون أن يكلف نفسه أن يمر على والدته كعادته قبل أن يخرج.. وفكر فى أن يذهب إلى نادى الجزيرة وأحس برعدة لمجرد الفكرة.. خيل إليه أنه لو ذهب إلى النادى فسيرى هناك شهيرة جالسة مع مدحت، ورأسها بجانب رأسه.. ثم بدأ يتمادى فى هذا الخيال.. تخيل أن شهيرة جالسة بجانب مدحت فى سيارته.. وتصورهما وقد وقفت السيارة تحت شجرة فى شارع الهرم، ومال مدحت عليها يقبلها وتقبله.. ثم تصورهما يرقصان فى حفلة خاصة من هذه الحفلات الكثيرة التى يقيمها الأصدقاء.. و.. وعاد يحس بشخصيته تتضاءل أمام شخصية مدحت.. أحس بمدحت عملاقا.. وكره مدحت.. واشتد إحساسه بكراهيته.. إنه يريد أن يقتله حتى يزيحه من طريقه.

وضم قبضة يده بلا تعمد منه كأنه يهم بأن يلكم مدحت فى وجهه.

ولكنه فى الوقت نفسه لا يزال يفكر فى الذهاب إلى النادي.. إنه يريد أن يدرس مكان لقائه فى الغد مع شهيرة.. كالقائد الذى يدرس ميدان المعركة قبل أن يقدم عليها.

ولكنه لم يذهب إلى النادى.. ظل سائرا يجرى وراء خياله.. حتى وجد نفسه فى شارع سليمان.. ودخل فى محل البرازيلى، ووقف يرشف كوبا من الشيكولاتة الساخنة.

ونظر إلى ساعته.. إنها السادسة إلا الربع.. واحتار ماذا يصنع بنفسه.. ووقته؟ إن مشكلته هى أنه يريد أن يهرب من يومه ليلحق بغده.. يريد أن يهرب من الزمن.

ووقف فى الطابور الطويل أمام شباك تذاكر سينما مترو، دون أن يرفع رأسه ليقرأ اسم الفيلم الذى يعرض.. وظل ينظر فى قفا الرجل الذى يقف أمامه.. إنه قفا عجيب، رفيع معروق، لابد أن صاحبه موظف، ولابد أن له زوجة سمينة مترهلة تسومه العذاب، ولابد أن له ستة أولاد، ولابد أنه يضرب أولاده، ليفرج عن كربه فيهم.. و..

وظل يقرأ قفا الرجل الواقف أمامه كأنه يقرأ فى كتاب مثير، إلى أن وجد نفسه فى مواجهة شباك التذاكر، فانحنى واختار مقعدا.. اختار أبعد المقاعد عن زحام الناس.. وقطع التذكرة ودخل السينما..

وبذل مجهودا حتى يتابع الفيلم المعروض.. ولكن صورة البطلة كانت تختفى أحيانا وتحل محلها صورة شهيرة.. وصورة البطل تختفى وتحل محلها صورته هو.. وصورة الشرير تحل محلها صورة مدحت.. وأحيانا كان يرى مدحت فى صورة البطل، ويرى نفسه فى صورة الشرير..

وخرج من دار السينما، دون أن يعلق شىء من الفيلم فى رأسه.. وعاد يحتار أين يذهب؟ إنه لا يستطيع أن يعود إلى البيت.. لا يزال بينه وبين الغد عمر طويل.. عمر لا يستطيع أن يقضيه وحيدا.. هل يدخل سينما أخرى.. هل يذهب إلى كباريه.. هل يذهب إلى حانة؟ إنه لا يحب أن يشرب الخمر.. لقد سبق له أن شرب الويسكى، ولكنه لم يحبه ولم يقبل عليه.. ولكنه فى هذه الليلة مستعد أن يفعل أى شىء ينسيه الزمن الذى يفصل بينه وبين شهيرة..

ودخل إلى مطعم وبار «الاكسلسيور» بجانب دار السينما.. وجلس إلى مائدة، وطلب ثلاث قطع من السندويتش، وجلس يفكر أين يذهب؟

وشعر بيد ثقيلة توضع على كتفه، وصوت عريض يصيح فيه:

- إزيك يا أستاذ أحمد.. أنت فين من زمان ياراجل..

والتفت، ورأى الأستاذ لطفى السقا المحامى.. إن لطفى كان زميله فى الجامعة، وهو لا يعرف عنه إلا أنه كثير الكلام.. وإنه منذ كان طالبا فى كلية

الحقوق وهو يتكلم دائما كأنه يلقى مرافعة أمام المحكمة.

وفرح أحمد بلقاء لطفى.. إن لطفى قد يستطيع بكلامه الكثير أن ينسيه الزمن.. وألح عليه أن يجلس معه.. وجلس لطفى، وهو يقول فى صوته المنطلق:

- انت فين دلوقت يا أستاذ أحمد؟

وقال أحمد وهو يبتسم:

- فى وزارة المالية.. تاخد ايه؟

وطلب لطفى أربع قطع من الساندويتش، وكأساً من البيرة.. وانطلق يتكلم.. تكلم فى السياسة.. وفى الاقتصاد.. وفى القانون.. وفى الإشاعات.. وأحمد يعلق بكلمات مبتورة.. فإذا هم أن يقول رأيا، قاطعه لطفى، واستطرد فى كلامه الذى لا ينتهى.

وبلغت الساعة الثانية عشرة، وأحس أحمد أن رأسه قد امتلأت بالضجيج الذى يخرج من بين شفتى لطفى، حتى لم يعد يحتمل المزيد، فقام مستأذنا، واتجه إلى بيته سائرا على قدميه.

ومرت الساعات..

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل..

الساعة الثانية بعد منتصف الليل..

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل..

وأحمد لا يزال راقدا فى فراشه، مفتح العينين.. يغمضهما حينا، ثم يعود ويفتحهما.. ولا يزال يعد الكلمات التى سيقولها لشهيرة، وكلما أعد موضوعا يحدثها فيه، عدل عنه وبدأ يفكر فى موضوع آخر.. ولا يزال يتصور نفسه معها.. جالسين.. سائرين.. ضاحكين.. متناقشين.. ثم نام من التعب.. لا، لم ينم.. لقد كان فى داخله شخصان.. شخص نام، وشخص لا يزال مستيقظا يرقب النائم، ويحس بنومه.. إن أبشع أنواع النوم، عندما يحس الإنسان بأنه نائم..

وقام من فراشه فى الساعة السادسة صباحا.. مكدودا، تعبا.. وغسل وجهه، وترك المياه تتدفق من الصنبور فوق رأسه، مدة طويلة، لعله يستعيد نشاطه.. ثم نظر إلى وجهه فى المرآة، فرأى بقعاً سوداء تحيط بوجهه كأنها

بصمات ليل أرق.. فاغتم.. وشعر بمزيد من التعب.. شعر كأنه قرفان من الحياة.. وبدأ يفكر ألا يذهب لملاقاة شهيرة.. لماذا يذهب إلى لقائها لمجرد أنها أرادت أن تلقاه.. لماذا يخضع لإرادتها.. لماذا ينقاد لنزواتها.. لماذا لا يوفر على نفسه كل هذه الأحاسيس التى تؤرقه؟ ويهرب.. يهرب من شهيرة.. ولكن.. إن شهيرة فى داخل نفسه، هل يستطيع أن يهرب من نفسه..

وبدأ يرتدى ثيابه..

ووقف طويلا يحاول أن ينتقى البدلة التى سيرتديها، ورباط العنق، والجورب، ثم فجأة.. ثار على نفسه.. لماذا يعطى لموعده مع شهيرة كل هذه الأهمية.. لماذا يحمل نفسه كل هذا الهم؟

ومد يده داخل الدولاب، وانتقى أول بدلة صادفته.. لعلها أقدم حلله وأسوأها.. ثم انتقى رباط عنقه بإهمال، وساوى شعره بسرعة، ولم يقف أمام المرآة طويلا.. فر من أمام المرآة كأنه لا يريد هذا الشخص القلق، الضعيف، الذى يلتقى به كلما وقف أمامها.

ونزل من البيت بعد أن ألقى تحيات مقتضبة إلى أمه وأخوته.. وسار فى خطوات سريعة إلى أن وصل إلى جروبى.. وتناول فنجان الشاى وقطعة الكعك بسرعة.. ثم عاد يسير بخطوات سريعة، إلى مكتبه بوزارة المالية..

ودخل إلى زملائه، ورفعوا إليه رؤوسهم فى دهشة، فهم لم يتعودوا أن يروه بينهم فى مثل هذا الوقت المبكر..

ولم يرد أحمد على دهشة زملائه.. وجلس إلى مكتبه، وفتح أمام عينيه جريدة الأهرام.. وأخذ يقرأ فيها، ويحاول أن يحصر ذهنه فيما يقرأه.. ثم ألقى الجريدة جانبا ورفع رأسه إلى زميله فريد أفندى قائلا:

– هات الدوسيه اللى فى إيدك ده يا فريد أفندى أخلصه لك.

والتفت إليه كل زملائه كأنهم سمعوا شيئا غريبا لم يتوقعوه وأدار فريد أفندى عينيه فى وجوه زملائه كأنه يسألهم عما جرى لأحمد هذا الصباح، ثم قال فى صوته الذى ينطلق من أنفه:

– العفو يا أحمد بيه.. ودى تيجى!

وقال أحمد فى صوت لا يخلو من رجاء:

- هات بس.. ما أنت قدامك دوسيهات كتير..
وابتسم فريد أفندى ابتسامة صغيرة كأنه فهم حالة أحمد، وقال:
- اتفضل يا سيدى.. اتسلى شوية!
وتناول أحمد الدوسيه فى امتنان، قائلا:
- متشكر..
إنه فعلا لا يريد إلا التسلية.. يريد أن يجد شيئا يلهيه عن رجفة قلبه، واهتزاز أعصابه، وترقبه لموعده مع شهيرة.
وأخذ يحاول أن يحصر ذهنه فى الدوسيه، ويحل رموزه، إلى أن دخل الساعى يستدعيه لمقابلة رئيسه.
ووجم..
تذكر الخطاب الذى أعطاه له رئيسه ليسلمه لخاله، ومزقه فى لحظة من لحظات أزماته النفسية.
وقام من على مكتبه فى بطء، كأنه يتمهل الوقت حتى يبحث عن كلام يقوله لرئيسه.. ثم دخل عليه، ورفع يده قائلا فى أدب جم:
- صباح الخير ياأفندم..
وقال رئيسه وهو يخرج من مكتبه ليصافحه:
- صباح النور يا أحمد بيه..
ثم استطرد هامسا :
- الأخبار ايه.. اديت الجواب لعزت بيه؟
وقال أحمد وهو يبتلع ريقه:
- والله رحت له امبارح لقيته خرج..
وقفزت خيبة الأمل على وجه رئيسه، وقال فى مرارة:
- طيب مش كان حقك تفوت عليه النهارده الصبح، قبل ما يخرج.
وقال أحمد:
- بس خفت أتأخر.. وخالى يعرف إنى اتأخرت.. وأنت عارف إنه شديد قوى فى المسائل دى..
وقال رئيسه والمرارة تقطر من شفتيه:
- لك حق . يا ترى الجواب معاك؟

وقال أحمد وأعصابه ترتعش من وقع الكذب :

– سيبته فى البيت.. خفت لا يتمرمط فى جيبى..

وقال رئيسه :

– طيب ما تنساش تديه له النهاردة.. روح اتغدى معاه.

وقال أحمد وهو يبتلع ريقه مرة ثانية ليمسح به كذبه :

– حاضر.. حاخرج من هنا على بيت خالى على طول..

وقال رئيسه :

– تحب أضرب لك التليفون بعد الضهر.. بس علشان أطمئن..

وقال أحمد :

– أنا حاتصل بسيادتك أول ما أجيب خبر..

ونظر رئيس القلم إلى أحمد نظرة صامتة كلها ابتهال وتوسل ثم مد يده إليه يصافحه، وهو يقول فى صوت يقطر رجاء !

– ما تنساش يا أستاذ أحمد.. أنا معتمد عليك !

وقال أحمد وهو لا يستطيع أن ينظر فى وجه رئيسه :

– حاضر..

ثم خرج وقطرات من العرق البارد تتفصد من جبينه.. لقد كان مضطرا أن يكذب على رئيسه.. ولم يكن أمامه حل آخر.. وسيكذب عليه مرة أخرى .. سيقول له إنه أعطى الخطاب لخاله، وأن خاله قد وعده خيرا.. إن الحياة لا تتم إلا بالكذب.. مادام فى الحياة وساطات، وتحايل على القانون، واستغلال نفوذ، فلابد أن يكون فيها كذب.. إن الكذب لا يكون دائما سلاحا لمقاومة الفضيلة، بل هو أيضا سلاح لمقاومة الشر.

وعاد إلى مكتبه، وجلس وهو ينظر فى ساعته..

إن الساعة الحادية عشرة..

بقى على موعده مع شهيرة ساعة كاملة.

وقفزت إلى رأسه مشكلة جديدة : هل يذهب بعد الموعد، أم قبل الموعد؟!

إنه لو تأخر عن الموعد قليلا، فسيبدو أمام شهيرة كأنه ليس متلهفاً على لقائها، ويستطيع أن يستغل تأخره فى ادعاء أنه محمل بأعباء كثيرة

فى عمله تضطره إلى الاخلال بمواعيده.. ولكنه فى هذه الحالة - إذا ذهب متأخرا - فسيضطر أن يكون هو البادئ بالتقدم إليها.. وقد يجدها جالسة مع بعض صديقاتها، فيرتبك، ويتردد، ويتعرض لأزمة من أزمات حيرته.. أما إذا ذهب قبل الموعد فستكون هى البادئه.. هى التى تبحث عنه، وهى التى تتقدم إليه وتبدأه بالابتسام والحديث.. ويستطيع فى الوقت نفسه أن يتشاغل عنها بقراءة كتابه، إلى أن تجده، فيرتفع رأسه إليها كأنه فوجئ، وكأنه كان مستغرقا فى قراءة الكتاب.

وقرر أن يذهب قبل الموعد.

وقفز من فوق مقعده، ومد يده بالدوسيه إلى زميله فريد أفندى قائلا:

- اتفضل يا فريد أفندى.. متشكر جدا..

وتناول فريد أفندى الدوسيه وهو ينظر إليه فاغرا فاه، كأنه لا يفهم شيئا.. والتفت باقى الزملاء ينظرون إلى أحمد كأنهم احتاروا فى تفسير تصرفاته.. ولم يرد أحمد على نظراتهم وخرج من الغرفة وهو يحييهم دون أن ينظر إليهم.

- السلام عليكم..

ثم أسرع إلى فناء الوزارة، وركب سيارة أجرة، واستغرق فى وضع تفاصيل خطته.. خطة أول موعد له مع فتاة.. سيجلس فى ملاعب النادى قريبا من «البروجولا».. وسيختار الجانب الأيسر.. إنه أبعد الجوانب عن عيون الأعضاء.. وسيجلس على مقعد ذى مسندين، من هذه المقاعد القش المنتشرة فى هذا الجزء من النادى.. وسيضع ساقا فوق ساق، ويفتح كتابه ويقرأ فيه.. و.. و.. وأخذ يستعرض فى خياله أدق التفاصيل، حتى التعابير التى سيضعها على وجهه.. وشكل ابتسامته.. ونوع الصوت الذى سيتحدث به.. صوت هادئ خفيض يعبر عن شخصية قوية.. و.. وفجأة تنبه إلى أنه ليس معه كتاب.. إن الكتاب عنصر أساسى فى خطته.. وانتفض من جلسته فى ركن السيارة، ولمس كتف السائق لمسة خفيفة، قائلا:

- ارجع على شارع قصر النيل يا أسطى..

وعاد السائق إلى شارع قصر النيل، وأمره أحمد بالوقوف أمام إحدى

المكتبات ونزل، واشترى كتابا.. لم يهتم كثيرا باختياره، فهو يعلم أنه ليس في حاجة إلى قراءته، ولكنه في حاجة إليه ليتظاهر بالقراءة.

وعاد إلى السيارة..

ووصل إلى نادي الجزيرة..

ولم يدخل من الباب المؤدي إلى الشرفة المطلة على حمام السباحة.. خاف أن تكون شهيرة جالسة هناك في انتظار موعده فيبدأها باللقاء قبل أن تبدأه.. ونزل من السيارة بحذاء ملاعب النادي وسار إلى المكان المحدد.. واختار مقعدا من القش ذي مسندين، وجلس عليه.. ووضع ساقا على ساق.. ونظر في ساعته نظرة مختلسة كأنه يغافلها، ويغافل نفسه.. إنها الساعة الثانية عشرة إلا الربع.

بقي ربع ساعة على الموعد..

وفتح الكتاب وأخذ ينظر فيه..

واختلس نظرة أخرى إلى ساعته.. إنها الثانية عشرة إلا عشر دقائق.. كل هذا ولم يمر سوى خمس دقائق.. وتنازل عن الوضع الذي اتخذه في جلسته.. خفض ساقه عن الأخرى، وأراح ظهره المنتصب.

ومرت خمس دقائق أخرى.. ثم دقيقة.. ودقيقتان.. واعتدل في جلسته واتخذ الوضع الذي قرره بينه وبين نفسه، حسب الخطة الموضوعة.. وقلبه يضرب بشدة داخل صدره.. وعيناه منكستان فوق الكتاب..

ومرت فترة طويلة..

لابد أن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة..

وشهيرة لم تأت..

ونظر إلى الساعة.. إنها الثانية عشرة وثلاث دقائق.. لقد تأخرت عن موعدها.. لا، إنه لا يستطيع أن يعتبر هذا تأخرا.. وظل محافظا على الوضع الذي اتخذه في جلسته..

ومضت الدقائق:

الثانية عشرة وعشر دقائق..

إنها لن تأتي..

واندلعت فجأة ثورة في أعصابه.. لقد كانت تسخر منه.. إنها تستهين

به.. لقد كان ضعيفا مغفلا إذ انقاد لكل هذا القلق، واللهفة، والترقب الذى أثاره فى نفسه موعده معها..

وأغلق الكتاب.. وخفض ساقه عن الأخرى.. ورفع رأسه وأخذ ينظر حوله وأمامه نظرات ساخطة شرسة كأنه يبحث عن شىء يفترسه.. شىء يصب عليه سخطه وشراسته.

وفجأة التقت عيناه بها وهى قادمة من بعيد، تنظر إليه، وتبتسم له.. وانطفأت ثورته مرة واحدة.وحل محلها ارتباك.. ماذا يصنع الآن.. هل يفتح الكتاب ويعود ينظر فيه، ويضع ساقا على ساق؟ لا.. مستحيل.. لقد رأته وهو ينظر إليها.. هل يظل ينظر إليها ويبتسم إلى أن تصل إليه، أم يتشاغل عنها بالتلفت حواليه؟

وأحس أنه يعرق.. ولم يكن يعرق.. ولكنه فقط أحس كأن قطرات من العرق تنزلق على جسده تحت ثيابه.. وظل واجما، إلى أن وصلت إليه.. فقفز واقفا، ومد لها يدا حائرة، وسمعها تقول وهى تلتقط يده:

– أنا اتأخرت عليك!

وقال وهو يسحب يده قبل أن تسحب يدها..

– لا .. أبدا..

وظلت تنظر فى وجهه وابتسامتها الحلوة بين شفتيها.. ابتسامة مستقرة واثقة.. وتلفت حواليه، كأنه يريح عينيه من عينيها، وقال وهو يشير إلى مقعد بجانبه:

– اتفضلى..

قالت :

– لأ .. أنا عايزه امشى فى أرض الجولف.. وأنا عارفاك تحب المشى..

قال وهو يبتسم:

– أنا فعلا أحب المشى.. إيه عرفك؟

قالت وابتسامتها تكاد تصبح ضحكة:

– باشوفك كل يوم تمشى فى النادى.. زى العواجيز.. كل الشبان يا بتلعب سبور يا بتقعد.. مافيش حد بيمشى إلا أنت والعواجيز..

وقال أحمد وهو يسير بجانبها فى اتجاه ملعب الجولف:

- ما أنا عجوز..

ونظرت إليه شهيرة كأنها تبحث عن شيء في وجهه، وقالت وابتسامتها تضيق:

- باين عليك..

واحتار أحمد وهو سائر بجانبها، أين يضع يديه، هل يضعها في جيب سرواله، أم يضع يدا واحدة في جيب سترته.. أم يضع ذراعيه ويديه خلف ظهره.. وقال دون أن ينظر إليها، كأنه يحادث نفسه:

- أنا طول عمري حاسس إني عجوز.. من يوم مامات والدي حسيت إني عجزت..

قالت كأنها تعزيه في وفاة والده:

- كان عندك كام سنة؟

قال وهو ينظر إلى قدميه:

- خمستاشر.. وكنت أكبر أخواتي..

قالت كأنها ترفه عنه:

- أنا كمان باحس ساعات إني عجوزه.. مع إن بابا لسة عايش.. ولما بأحس إني عجوزة بامشي على رجليه.. وأفضل أمشي لغاية ما أتعب.. وساعة ما أتعب باحس إني صغرت ورجعت تاني لعمري..

ونظر إليهاكأنه لا يفهمها، وقال:

- إزاي !

قالت :

- أصل اللي بيحب المشي، إما أنه يكون عجوز، أو زعلان من حاجة.. وأنا لما أزعل أبقى زي العجايز.. وأفضل أمشي لغاية ماأتعب رجليه وده ينسيني زعلي.. ولما أنسى الزعل أرجع تاني صغيرة..

وارتفعت الدهشة في عينيه، وقال:

- أنت بتتكلمي كلام أكبر من سنك..

وابتسمت كأنها تتباهى بعقلها، وقالت:

- أنا مش صغيرة.. أنا عندي تسعتاشر سنة..

قال :

- إنما برضه أعقل من سنك.. ومن يوم ماشفتك عرفت إنك أعقل بنت في النادى.. كل البنات بيتنططوا.. ورايحين جايين يستعرضوا نفسهم.. وانتى دايما قاعدة مع.. مع صاحباتك.. بتتكلمى.. وكان نفسى دايما أسمع كلامك.. أسمع بتقولى إيه..

قالت وهى تنظر إليه:

- وأنا من يوم ماشفتك وأنا نفسى أعرف أنت زعلان من ايه.. كل ما أشوفك قاعد لوحدك، ولا ماشى لوحدك.. أقول يا ترى إيه اللى مزعله.

ولم يرد أحمد.. ظل يسير بجانبها ورأسه منكسة ينظر إلى قدميه..

ووقفت عن السير.. ووقف معها، ورفع رأسه إليها متسائلا، وقالت وهى تنظر إليه كأنها تتخيل جرحا فى قلبه، وتضمده بعينيها:

- إيه اللى مزعلك يا أحمد..

وابتسم أحمد ابتسامة مرتبكة، وقال:

- أنا .. أبدا.. مافيش حاجه مزعلانى..

قالت :

- مش ممكن .. أنت مش عايز تقول لى!

وعادت تسير، وعاد يسير بجانبها، وقال كأنه يحادث نفسه.

- يمكن مافيش حاجه مزعلانى.. أنا مش زعلان، إنما كمان مش مبسوط.. مش لاقى الحاجة اللى تبسطنى.. مش عارف.. مش عارف أعيش ازاى واتصرف ازاى.

ورفع رأسه والتفت إليها فجأة، وقابلت التفاتته وعيناها مليئتان بالحنان، كأنها تشفق عليه من نفسه.. واستطرد فى صوت متدفق كأنه قرر أن يخرج عن صمته:

- اسمعى .. لو واحد من شبان النادى، خلاكى قاعدة، وجه قعد معاكى من غير ما يعرفك.. تعملى إيه؟

قالت وهى لا تفهمه:

- احتقره .. وأسيب له الحتة اللى أنا قاعدة فيها وأمشى..

قال :

- ولو كان عايز يعرفك..

قالت :

- لازم يكون متأكد إنى أنا كمان عايزة أعرفه..

قال بسرعه:

- ويتأكد ازاى..

قالت وهى حائرة:

- فيه حاجات كتير تخلى الراجل يحس إذا كانت البنت عايزه تعرفه ولا لأ..

قال :

- يمكن إحساسه بيخدعه.. وأى واحد صفيق يمكن يقنع نفسه بأن أى بنت عايزة تعرفه..

وقالت شهيرة وهى فى حيره:

- قصدك تقول إيه..

قال وقد عاد ينكس رأسه وينظر إلى قدميه:

- قصدى أقول إن فيه حاجات كتير لانتى تعرفيها ولا أنا أعرفها.. أنا بقالى تلات شهور عايز أعرفك.. ومش عارف أعرفك ازاى.. فكرت فى مليون حيلة أعرفك بيها، لكن ماقدرتش.. لأنى ماكنتش واثق إنك عايزة تعرفينى، وكنتى لما تبصى لى يتهيألى أن إحساسى بيخدعنى.. وإنك بتتفرجى علىّ.. مجرد فرجة.. وحياتى كلها بالشكل ده.. فيه حاجات كتير مش عارف أوصل لها.. حاجات فى البيت.. وحاجات فى نفسى.. مش عارف.. محتار.. زهقان.. وانتى ساعدتينى على إنى أعرفك، إنما ماحدش بيساعدنى على إنى أعرف نفسى، وأعرف الدنيا اللى حواليه.

وسكت أحمد فجأة، كأنه اكتشف أنه تحدث كثيرا.. نعم.. لقد تحدث كثيرا.. إنه لم يتحدث كل هذا الحديث مع أحد إلا مع نفسه.. إن إحدى مشاكله أنه ليس له أحد يستطيع أن يتحدث إليه بما فى نفسه.. إنه لا يتحدث إلى أمه.. ولا إلى أخيه.. ولا إلى إحدى شقيقاته.. ولا إلى صديق.. لم يتحدث مثل هذا الحديث إلا إلى شهيرة.. كأنه وجد فيها الأم والأخت والصديقة.. ترى هل أخطأ بهذا الحديث.. وما ذنب شهيرة حتى يقول لها هذا الكلام كله.. لماذا لا يحادثها كما يحادث كل فتى فتاته عندما

يقابلها أول مرة.. عن السينما.. وعن الأسطوانات.. ويروى لها نكتة.. ويحاول أن يمسك بيدها؟ و..

وأحس بيد شهيرة وهى تضعها فوق ذراعه برفق، ورفع إليها رأسه والتقى بعينيها حانيتين تلقيان عليه ظلا هادئا مريحا وقالت كأنها تتنهد:

– من هنا ورايح زى ما ساعدتك على إنك تعرفنى، حاأساعدك فى كل حاجة.. وحابتدى من دلوقت..

وفتح عينيه متسائلا فى دهشة..

واستطردت وهى تبتسم:

– تانى مره ماتقولش إنى شجعتك على إنك تعرفنى.. ماحدش يقول لبنت كدة أبدا يا أحمد.. حتى لو كان صحيح..

قال مرتبكا كأنه طفل صغير:

– قصدى.. أنا كان بدى أقول ان.. وقاطعته وبين شفتيها ضحكة صغيرة:

– على كل حال أنا ماشجعتكش إلا بعد ما قعدت تبص لى شهرين.. وشفتك حيران.. يعنى انت اللى ابتديت الاول.

قال :

– ده صحيح .. أنا آسف..

قالت وهى تضحك:

– أنت عايز الحق.. احنا الاتنين شجعنا بعض..

واستمرا فى سيرهما.. وذراعه يهتز بجانب ذراعها.. وأحس برغبة جامحة تدفعه لأن يمسك بيدها.. أحس بكل إحساسه وكل وعيه ينسكب فى يده وفى أصابعه، وأحس أنه لن يستطيع أن يقول لشهيرة أكثر مما تستطيع يده أن تقوله لو لامست يدها.

ولامست يده يدها عفوا أثناء سيرهما.. وبلا إرادة منه أبعد يده عن يدها قبل أن يقبض عليها.. ثم عادت يداهما تتلامسان، وتفترقان، كحمامتين تتعرف أحداهما على الأخرى..

ثم قفز إلى ذهنه خاطر ثقيل..

تذكر مدحت.. مدحت خيرى..

هل أمسك مدحت يدها؟ إن مدحت لو كان مكانه الآن لأمسك بيدها قطعا.. وضغط على يدها.. وربما جذبها إليه وقبلها.. لماذا لا يكون كمدحت.. لماذا لا تكون له جرأته وانطلاقه؟

وبدأ يفكر جديا فى أن يتقمص شخصية مدحت.. سيمد يده إلى أن تتلامس مع يدها.. ثم يضغط عليها.. إنها لن تمانع.. مؤكد.. إنها لن تمانع.. أو على الأقل لن تغضب

وبدأ يمد يده فى الفضاء الضيق الذى يفصل بينهما.. ثم عاد وسحبها.. ثم مدها مرة ثانية.. وأبعدها.. وفى خلال ذلك يحتقن وجهه.. ويزداد احتقانا.

ومرا فى سيرهما بالشجرة الكبيرة المنتصبة فى ملعب الجولف وسمع شهيرة تقول له:

- أنا تعبت يا أحمد.. تعالى نقعد!

قال لها مبتسما وهو يبتلع ريقه ليرطب أحاسيسه:

- علشان تعرفى إنك مش عجوزة..

قالت ضاحكة:

- انت صدقت إنى عجوزة؟!

واتجهت إلى الشجرة، وجلست على قطعة من الجذور ناتئة فوق الأرض، وجلس أحمد بجانبها.. ومضت فترة قصيرة، وهما صامتان.. ثم قال أحمد كأن كلامه ينطلق رغما عنه تحت ضغط أفكاره.

- أنت تعرفى مدحت من زمان..

ونظرت إليه فى دهشة، كأنها فوجئت بالسؤال، وقالت:

- مش من زمان قوى.. أصله يبقى ابن عم صاحبتى مرفت

وقال وهو لا يبالى بمدحت:

- ده صاحبى قوي.. وشاب ناجح فى شغله..

وقالت وهى تضع يدها على الكتاب الذى يحمله معه:

- هو كمان بيشكر فيك قوى..

قال وهو لا ينظر إليها:

- أنا لعبت معاه شطرنج.. و..

قالت تقاطعه وهى تبتسم له كأنها ترجوه أن يغير موضوع حديثه:
- عارفه.. وغلبته..
ثم التقطت الكتاب من جانبه، وأخذت تقرأ غلافه، ثم قالت:
- أنت بيعجبك الدوس هكسلى..
قال :
- أحيانا .. وانتى؟
قالت :
- باسمع عنه بس.. عمرى ماقريت له حاجة..
قال :
- انتى بتقرى فرنساوى ولا انجليزى؟
قالت :
- الاتنين.. بس عمرى ما قريت فلسفة ولا سياسة..
قال :
- بتقرى قصص؟
قالت :
- بس ..
وأخذت تقلب فى صفحات الكتاب.. وصمت أحمد قليلا، ثم عاد يقول:
- أنا اللى مندهش له.. مدحت ما اتجوزش ليه لغاية دلوقت..
ورفعت رأسها عن الكتاب وقالت دون أن تبتسم:
- يظهر انك مهتم بمدحت قوى..
قال كأنه يزفر كلماته:
أنا فاكر أنه يهمك.
قالت وهى تبتسم كأنها تواسى مريضا:
- تفتكر إنى جيت أقابلك علشان نتكلم عن مدحت..
وأحس أحمد أنها توجه إليه لوما، فقال مدافعاً عن نفسه:
- على كل حال ده صديق مشترك بينى وبينك..
قالت فى هدوء:
- احنا الاتنين عارفين كتير عن مدحت.. إنما مش عارفين كتير عن بعض.. كلمنى عن نفسك..

وضم أحمد ركبتيه إلي صدره، ولف ذراعيه حولهما، وقال:
- كلميني انتي عن نفسك..
قالت ضاحكة:
- شوف يا سيدى.. عمرى زى ما قلت لك تسعتاشر سنة.. وبابا بيشتغل دكتور.. وبيقعد فى العزبة أكتر مابيقعد فى العيادة.. وعندى تلات أخوات كبار من أم تانية.. وأخ شقيق أصغر منى.. وماما لذيذه جداً.. واتعلمت فى الامريكان كولدج، وفى الفرنسسكان.. وبطلت مدرسة السنة دى.. وبتعلِّم تفصيل.. و.. وكفاية كدة.
وقال أحمد:
- يعنى ماكلمتنيش عن نفسك..
قالت :
- مش حاكلمك عنها.. لازم انت تعرفها بنفسك..
قال :
- انتى وعدتينى إنك تساعدينى..
قالت :
- حاساعدك على إنك تعرف نفسك.. وانت تساعدنى على إنى أعرف نفسى
قال مبتسما:
- اتفقنا..
وقفزت شهيرة واقفة، وناولته كتابه، وقالت فى مرح:
- ياللا بينا.. أنا اتأخرت قوى.. زمانهم مستنيني فى البيت على الغدا..
ووقف أحمد، وهو قريب منها جدا.. صدره يكاد يلامس صدرها.. ورفعت إليه وجهها وقد كساه ترقب.. وبين شفتيها ابتسامة حائرة.. وفى عينيها نظرة كأنها تنتظر منه شيئا.. كلمة.. لمسة.. إنه يحس أنها تنتظر منه شيئا.. ولكنه لا يستطيع أن يكفر فى شىء يأتى به.. لا يجرؤ.. لا يجرؤ حتى على أن يقول كلمة..
وتنهدت كأنها يئست.. ثم استدارت وسارت، وسار بجانبها.. ومر بهما شاب من أعضاء النادى، ولوح بيده من بعيد، وصاح:

- هاللو شهيرة..

وابتسمت شهيرة، ورفعت يدها تلوح له.. ثم اقترب منهما الشاب، فوقفت تصافحه، ووقف معها أحمد، وهو مرتبك.. رموشه ترتعش فوق عينيه.. وابتسامة بلهاء فوق شفتيه.. وقالت شهيرة تقدم إليه الشاب:

- شريف..

ثم نظرت إلى شريف قائلة تعرفه بأحمد:

- أحمد ..

وقال شريف فى بساطة وانطلاق وهو يمد يده لأحمد:

- إزيك يا أحمد ..

وحاول أحمد أن يقلده فى بساطته، ولكن الكلمات وقفت فى زوره، وقال فى صوت مرتعش:

- ازيك..

وقال شريف مخاطبا شهيرة:

- مش حاتروحى سينما النهارده..

وقالت شهيرة:

- لسة ما أعرفش .. اسأل أخويا..

وقال شريف:

- حابقى أسأله فى التليفون..

وأحمد واقف صامت.. لا يدرى هل من حقه أن يشترك فى الحديث، أو يظل صامتا.. وحياها شريف، وابتعد.. وسار أحمد بجانب شهيرة وهو لا يزال فى صمته، حائرا ماذا يقول، حائرا مع أحاسيسه..

وقالت شهيرة كأنها تطمئنه:

- ده صاحب أخويا..

وهز أحمد رأسه صامتا..

ووصلا إلى شرفة النادى، ووقفت تصافحه.. وعاد وجهها يكسوه الترقب، وفى عينيها نظرة كأنها تنتظر منه شيئا. ربماكانت تنتظر أن يحدد معها موعدا آخر.. أن يسألها متى سيراها مرة ثانية وأين؟ ولكنه لم يفعل شيئا.. صافحها بيد مرتخية.. ووقف كأبكم، وهو الآخر ينتظر منها أن تقول شيئا..

ونظرت إليه فى إشفاق. وأحس بأنها تراه على حقيقته.. إنها لا تكتفى بأن ترى وجهه الجاد، وقامته الطويلة، وصدره العريض.. إنها ترى داخله .. ترى قلقه وحيرته.. ثم قالت فى صوت رقيق ضعيف :

- ماتنساش إنى حاساعدك، وأنت حاتساعدنى..

وقال وهو يبتسم :

- مش حانسى..

وسحبت يدها من يده، ثم تركته وابتعدت عنه.. واستدار متجها إلى باب النادى.. ولم يحاول أن ينظر وراءها.. لم يحاول أن يتبعها بعينه.. خُيِّلَ إليه أن كل أعضاء النادى ينظرون إليه، ويرون حبه.. يرون سره.

وركب سيارة أجرة عائدا إلى منزله، وأفكاره ملتفة بعضها فوق بعض ككرة الخيط، لايستطيع أن يمسك بطرفها.. وقفزت أمامه صورة شريف وهو يحادث شهيرة.. وحاول أن يقنع نفسه بأن ليس هناك ما يسىء إليه أو يجرحه إذا كان شريف قد حادث شهيرة.. بل إن عقله مقتنع فعلا بأن من حق شريف أن يحادث شهيرة.. ولكن هناك شيئا فى داخله.. شىء غير عقله، لا يريد أن يقتنع.. إنه يحس كأن أباه وخاله، وجده وجد جده، كل هؤلاء قد انتصبوا فى صدره، ويرفضون أن يعترفوا لشريف بحقه فى محادثة حبيبته، ويرفضون أن يعترف لحبيبته بحقها فى محادثة شريف.

وأحس بأنه مقبل على زحام كبير.. زحام فيه شريف، وفيه صديقه مدحت، وفيه كل أعضاء النادى.. وزحام من أحاسيسه وأفكاره.. أحاسيس يناقض بعضها البعض، وأفكار تهدم كل منها الأخرى.. وخاف هذا الزحام.. وأحس بعبئه.. وأحس بأنه ضعيف.. ضعيف.. ضعيف عن مواجهة هذا الزحام.

●●●

ودخل بيته، واتجه إلى غرفة أمه والتقى بأخته ليلى فى البهو الخارجى، فقال يحييها فى اقتضاب دون أن ينظر إليها :

- ازيك يا ليلى..

ونظرت إليه ليلى فى دهشة لوجومه، وقالت وهى تهز كتفيها كأنها لا تريد أن تشغل نفسها به :

– الله يسلمك يا ابيه..

ودخل إلى أمــه، وهى جالســة كعادتهــا بجوار النــافذة، تطرز، وأشــعة الشمس تنسكب عليها، وانحنى يقبل يدها.. وأمسكت أمه بيده وشدته برفق ليجلس على «الشيزلونــج» القريب منها وقالت فى رقة :

أقعد يا أحمد.. عايزة آخد رأيك فى حاجة..

وجلس أحــمد وهو يزفر، كــأنه يلوم أمه لاخــتيــارها هذا الوقت بالذات لأخذ رأيه.

وألقت الأم قطعة القماش التى تطــرزها من يدها، وقالت وهى تعتدل فى جلستها كأنها مقبلة على حديث طويل :

– بأه أنت عــارف أن عــبـد الســلام بيــه بيــفــهــم فى المســائل الماليــة كويس.وكل ثروته دلوقت أسهم وسندات.. ومن مدة عشر سنين كان عنده عزبة ميــتين فدان باعهــا واشترى بالثمن كله أسهم.. تــصور أنه كسب من الأسهم قد ما كان بيكسب من العزبة عشر مرات.

ولوى أحمد شفــتيه اشمئزازا، وهو يسمع اسم عــبد السلام ثم قال فى برود :

– والله أنا ما أعرفش عنه حاجة.

وقالت الأم كأنها تلومه :

– ازاى ما تعرفش.. إنت مــاسمعتش خالك وهو بيــتكلم عليه.. ده خالك بيقول عليه إنه أحسن واحد يفهم فى الأسهم والسندات.. وأنت عارف خالك كل شغل المالية بتاع الحكومة فى ايديه..

وسكت أحمد ولم يرد.. والاشمئزاز لا يزال بين شفتيه.

واستطردت الأم تقول :

– المهم.. بأه أنا كنت دايما باشتكى لعبد السلام بيه من إيجار العمارة.. أنت عارف إنــه ايجار قديم كــل حاجة غليت فــى الدنيا، ولســه الايجار زى ماهو.. ومن مدة كــام يوم نصحنى عبد السلام إنى أبيع العــمارة واشترى بتمنها اســهم وسندات.. ووعدنى بأنه يشتريها لى بنفســه.. ويشترى نفس الأسهم والسندات اللى بيشتريها لنفسه.. فايه رأيك..

ونظر أحمد فى وجه أمه كأنه يحاول أن يكتشف فيها سرها، ثم قال بلا حماس :

- والله أنا ما أفهمش فى الأسهم والسندات.. ولا حضرتك تفهمى فيها..

وقالت الأم كأنها تتكلم عن صخرة النجاة:

- ما هو عبد السلام هو اللى حايشترى ويبيع..

وقال أحمد:

- على كل حال العمارة أضمن..

وقالت الأم:

- يعنى عاجبك يا أحمد اننا نفضل عايشين كدة على طول.. انتو بتكبروا ومصاريفكم بتزيد.. ولازم كمان يبقى عندنا قرشين كويسين.. يمكن نبيع العمارة دى، وبعد شوية نكسب من الأسهم، ونبنى عمارة أحسن منها، ونأجرها بايجار جديد..

وعاد أحمد ينظر فى وجه أمه، وخيل إليه أن هذا الكلام، ليس كلامها، إنما كلام عبدالسلام.

وقال فى فتور:

- وخالى رأيه ايه؟

قالت :

- إنت عارف خالك صاحب عبد السلام قوى.. إنما أنا قلت لازم آخد رأيك أنت قبل ما آخد رأى أخويا عزت..

وقال أحمد، وهو يقوم واقفا كأنه يهرب:

- طيب سيبنى أفكر شوية..

وقالت الأم كأنها تعاتبه لعدم ثقته فى عبدالسلام:

- ده عبد السلام بيه مطمنى قوى.. تصور أن أسهم الأسمنت بتدفع سبعة فى الماية.. وأسهم بنك القاهرة اللى كانت باربعه جنيه، بقيت باتناشر..

وقال أحمد :

- يا ماما دى مجازفة كبيرة.. حضرتك ماعندكيش إلا العمارة، ولازم نفكر كويس، ونسأل..

وقالت الأم وهى تتنهد:

- طيب يا حبيبى.. فكر على مهلك..

وخرج متجها إلى غرفته، وقالت أمه وراءه:

- الغدا جاهز يا أحمد..

وقال أحمد :

- حاضر .. بس أقلع الجاكتة..

ودخل غرفته، وهو يفكر فى مشكلته الجديدة.. مشكلة أخرى.. مشكلة تتعلق بها حياة العائلة..

هل تبيع أمه العمارة؟

لقد وعدها أن يفكر، وأن يسأل.. ولكنه يعلم أنه مهما أطال التفكير فلن يصل إلى رأى.. ويعلم أنه ليس له أحد يستطيع أن يسأله.. ليس له إلا خاله، وخاله صديق عبدالسلام، وهو لا يحب عبد السلام ولا يثق به.. إنه وحيد.. ليس له إلا شهيرة.

هل يسأل شهيرة فى بيع عمارة أمه؟

وابتسم ساخرا من نفسه.

١١

خرجت ليلى من البيت فى الساعة الحادية عشرة صباحا، وفى يدها نوتتها الموسيقية.

إنها تبدو أكثر جرأة، وأكثر نشاطا.. نظراتها ثابتة فى عينيها تتحدى بها الناس كلهم، وتنشبها فى وجه كل من يحاول أن يلومها على حبها لفتحى.. وخطواتها سريعة قوية كأنها قد عرفت طريقها جيدا، صممت على أن تسير فيه.. وابتسامة صغيرة ترقد بين شفتيها فى اطمئنان، كأنها بقايا قبلة حب.. وضفيرتها الذهبية تتأرجح فوق ظهرها.. ولكنها تبدو أيضا أكثر نحولا، ولون الورد قد بهت فوق وجنتيها.. كأن جرأتها ونشاطها قد امتصا دماءها.. كأن فى داخلها شيئا يأكل منها.. يأكل من أعصابها ومن لحمها.

وسارت فى شارع سليمان باشا.. وألقت نظرات سريعة على قطع الأثاث المعروضة فى نوافذ المحال التى مرت بها ثم اتجهت إلى العمارة التى يقع فيها المعهد.. وصعدت.. والتقت فى الصالة الخارجية بزميلها مصطفى يحمل كمانه تحت إبطه، وحياها من بعيد بهزة من رأسه.. لم يقبل عليها ليحادثها ويحاول أن يحدد معها موعدا، كعادته.. وهزت له رأسها، دون أن تأبه به.. وسارت فى الممر الذى يفصل بين حجرات الدراسة دون أن تلقى بالا إلى الأنغام المنبعثة من خلف الأبواب المغلقة.. ونقرت على الباب الثالث نقرة خفيفة، ثم فتحته، وقالت وهى تحاول أن تبدو مرحة مستبشرة :

– بونجور بروفسير.

ورفع الأستاذ العجوز رأسه إليها فى بطء، ثم تنهد كأنه مقبل على مهمة

شاقة، وقام من على مقعده، واقترب منها، وأنفاسه يمزقها مرض الربو الذى يعانيه.. ووضع يده على كتفها، وقال وهو يحاول أن يحتفظ لها بابتسامة كبيرة :

– بونجور ليلى.. ازيك النهاردة.

وحاولت ليلى أن تخطو نحو البيانو، لتفرد فوقه النوتة الموسيقية، وتبدأ الدرس.. ولكن الأستاذ ظل واضعا يده فوق كتفها كأنه يمنعها من أن تقترب من البيانو.. وقال فى صوت خفيض وكلماته ترتطم بأنفاسه الممزقة:

– أنا آسف يا ليلى.. أنا تعبان النهاردة، مش حاأقدر أحضر معاكى الدرس.

واتسعت عينا ليلى فى ذعر، وهى تنظر إليه كأنها لا تستطيع أن تصدقه.. واستطرد الأستاذ قائلا وهو لا يستطيع أن يرفع عينيه إلى وجهها:

– خدى الدرس النهاردة مع مدام ماروسكى.

وقالت ليلى وهى لا تزال تبحلق فيه :

– انت مش تعبان.. إنما مش عايز تدينى الدرس.. أنت مابتهتمش بى زى زمان.. أنا عارفة.. عارفة كل حاجة.

وقال الأستاذ وهو يتنهد مرة أخرى :

– آسف.. أنا ما أقدرش أهتم بتلميذة ما بتهتمش بنفسها.. وإنتى عارفة أن الدروس من اختصاص اساتذة المعهد.. إنما أنا بادى روح الموسيقى.. أنا باحاول أخللى التلميذ يحس بالموسيقى.. وعلشان يحس بيها لازم يكون احساسه كله معايا.. فى ايدى.. إنما.

وسكت الأستاذ.

ولمعت فى عينى ليلى طبقة من الدموع.. إنها تعرف ما يقصده استاذها.. ومنذ أربعة أسابيع.. منذ استأجر لها فتحى الشقة.. واستاذها يعلم أن احساسها لم يعد مع الموسيقى.. لقد شغل فتحى احساسها كله، ولم يعد للموسيقى مكان فى قلبها.. لم تعد الموسيقى سوى عذر تتحجج به أمام عائلتها للخروج وملاقاة فتحى.. ولم تعد تتذوق الموسيقى إلا فى الشقة الجديدة، وفتحى جالس بجانبها يعزف معها على البيانو.. وقد

تغيبت عدة مرات عن المعهد، لتذهب إلى الشقة.. وتأخرت عن موعد الدرس مرات أخرى.. وكانت تجلس أمام البيانو وعقلها سارح فى قطع الأثاث التى تنتقيها.. وفى لون الستائر.. وفى الصور التى ستعلقها على الجدران.. وكان يخيل إليها أن نقرات أصابعها فوق البيانو، هى دقات المسامير التى تعلق بها الستائر فوق النوافذ، والصور فوق الجدران.. ولم تكن تدرى أن ضربات الشاكوش فوق مسمار فى بيت حبها، يمكن أن تكون موسيقى.

وكانت تفيق من كل هذه الاحلام، على صرخات أستاذها وهو ينبهها إلى أخطائها، وإلى البرودة والجفاف اللذين ينبعثان من تحت أصابعها.. فتحاول أن تجمع احساسها وعقلها فى الموسيقى.. تحاول بكل إرادتها.. ولكن احساسها لا يلبث أن يشت وعقلها لا يلبث أن يغوص فى أحلام حبها.

وكانت تعلم أن تخلى الأستاذ عن مباشرة دروسها بنفسه، يعنى أنها لم تعد طالبة ممتازة.. وربما كان طلبة المعهد كلهم يعلمون أنها لم تعد ممتازة عليهم.. إنهم يتتبعون خطوات بعضهم البعض.. إن حياتهم كلها موسيقى.. ومن يخط خارج الموسيقى يخط خارج حياتهم.. وربما تصنتوا على عزف ليلى على البيانو اثناء الدرس، ولاحظوا أنها تعزف كأنها تمد أصابعها إلى البيانو من بعيد.. من دنيا أخرى غير دنياهم.. دنيا سماؤها ليست أنغاما، وأرضها ليست أنغاما.. وربما لاحظوا أنها لم تعد تشترك معهم فى مناقشاتهم الفنية التى لا تنتهى، إنها تتعجل الانتهاء من دروسها، لتجرى إلى الشقة.. فعلموا إنها لم تعد طالبة ممتازة.. لم تعد منهم.. وبدأوا يعاملونها كأنها غريبة عنهم.. وعيونهم ترثى لها، كأنهم يتمنون لها الشفاء.

وقالت ليلى وهى تحبس دموعها تحت جفنيها :

– يعنى مش ناوى تدينى الدرس.. يعنى أنا مابقتش نافعة !

وقال الأستاذ كأنه يهم بأن يبكى معها :

– مادام ماروسكى أستاذة كويسة.. وأنا حافضل مهتم بيكى.. أنا لسة عندى أمل كبير فيكى.

وقالت ليلى وهى تحنى رأسها فى يأس ذليل :

– مرسيه.

وأدارت ظهرها، وخرجت من الغرفة.. كأنها مطرودة من الجنة !

ولم تحاول أن تبحث عن مدام ماروسكى.. سارت فى خطوات مترنحة تجتاز الممر الذى يفصل بين الحجرات، والألحان تنبعث من خلف الأبواب المغلقة وتملأ أذنيها كأنها ضحكات عربيدة شامتة تسخر منها.. واصطدمت عند الباب، بزميلتها العمياء عائشة، داخلة مستندة على ذراع المرأة التى تقودها.

وقالت ليلى دون أن تتوقف عن سيرها، فى لهجة سريعة باردة:

- بونجور يا عيشة.

وحاولت أن تستمر فى سيرها، ولكن عائشة مدت يدها إلى مصدر الصوت، ولمست كتفيها، لتوقفها، ثم قالت فى صوت ملهوف :

- مالك ياليلى.. حصل ايه ؟

ونظرت ليلى إلى زميلتها فى دهشة.. كيف عرفت بحالها وهى عمياء؟ وخُيِّلَ إليها أن عائشة تستطيع أن ترى من خلف نظارتها السوداء أكثر مما يرى المبصرون.. خيِّل إليها أنها تراها كما لا يراها أحد.. ترى داخلها.. وقالت فى ارتباك :

- ولا حاجة.. بس مستعجلة.. عن اذنك !

وفلتت من أمام عائشة، ونزلت السلم.. والألحان الصاخبة لا تزال تملأ رأسها وتطن فى أذنيها.. ووسط الطنين تسائل نفسها : لماذا لا تستطيع أن تجمع بين حبها وفنها.. لقد حاولت كثيرا.. حاولت أن تجمع بين فتحى ودراسة الموسيقى.. ولعل الفن حبيب غيور لا يقبل أن يزاحمه حب آخر.. ولكن.. لماذا يستطيع فتحى أن يجمع بينها وبين فنه؟ بل إن حبه لها كان وقودا لفنه فارتفع فنه بحبها.. لمع.. أصبح أكثر حساسية وأكثر تعبيرا.. فلماذا لم يكن حبها هى أيضا دافعا لفنها؟

إنها تعلم..

إنها تحب فتحى أكثر مما تحب فنها..

وفتحى يحب فنه أكثر مما يحبها.

نعم.. هذه هى الحقيقة.. ويجب أن تواجهها. ويجب أن تعلم أن فتحى يوم يضطر إلى التضحية، فسيضحى بها فى سبيل فنه، أما هى فقد ضحت بفنها فى سبيل حبها.. فى سبيل فتحى.. لا أنها لم تضح.. لقد غلب حبها فنها، رغما عنها.

وانحرفت فى شارع شامبليون، ودخلت إلى العمارة.. وقام لها البواب واقفا.. لقد أصبح الآن يعرفها، وأصبحت لا تهاب مواجهته.. بل إنها اتفقت معه على أن يساعدها فى تنظيف الشقة، واحتاجت إليه مرارا ليشترى لها بعض اللوازم التى كانت فى حاجة إليها.

وصعدت إلى الدور السادس، دون أن يخفق قلبها.. لقد اصبحت لا تهاب الطريق إلى بيت حبها.

وخرجت من المصعد، وسمعت أنغاما فوق البيانو ترتل لحن فتحى الجديد، الذى أسماه «بيتى».. إنها تعرف وقع أصابع فتحى على الأرض، كما تعرف وقع أنفاسه بين شفتيها.

ووضعت المفتاح فى قفل الباب دون أن ترتعش يدها.

ودخلت، وأدارت عينيها بسرعة فى الشقة.. إن الشقة لم يزد عليها سوى مقعدين، هما كل ما استطاعت شراءهما بالثلاثين جنيها التى أعطاها لها فتحى.. ومن يومها لم يعطها مبلغا آخر، ولم تسأله أن يعطيها.. ومنفضة سجائر أخرى أخذتها من بيتها.. وعروسة صغيرة كانت لها منذ كانت طفلة، وكانت تحتفظ بها فى دولابها الخاص، وحملتها إلى الشقة.. كأنها لم يعد لها شىء خاص إلا فى هذه الشقة.. هنا، تحتفظ بطفولتها، وصباها، وشبابها.

وقال فتحى وهو جالس إلى البيانو يعزف، دون أن يلتفت إليها، وقد سمع صوت الباب يفتح :

- ليلى.. أنا خلصت اللحن. اسمعى !

واقتربت منه وهى تنظر إليه كأنها تشك فى حبه.. ومد لها خده لتقبله عليه، وهو لا يزال مستمرا فى العزف.

وقبلته على خده.

ولم يقبلها.. مستمرا فى العزف.

ولم تكن تستمع إلى اللحن.. لم تكن تسمع إلا الطنين الذى يملأ رأسها.. وظلت تنظر إليه كأنها تشك فى حبه.

ثم قالت فى صوت خافت :

- فتحى.

ولم يسمعها فتحى. إنه مستمر فى العزف.

ورفعت صوتها حتى طغى على صوت البيانو، وصاحت فى عصبية :

- فتحى.

والتفت إليها فتحى وفى عينيه الواسعتين دهشة وتساؤل.. واستطردت فى صوت خافت :

- بوسنى.

وقال كأنه لا يصدق أذنيه :

- ايه ؟!

- بوسنى.. بوسنى دلوقت.

ورفع أصابعه من فوق البيانو.. وقام ووقف قبالتها، وصدره ملتصق بصدرها، وشعاع هادىء ينسكب من عينيه فوق وجهها، ثم ضمها إلى صدره فى رفق، وقال فى حنان وهو يمسح خده بخدها :

- مالك يا ليلى..

ولم ترد.. إنها لا تريد أن تتكلم.. ولا تريد حنانا.. إنها تريد حبه.. كل حبه.. أعنف ما فيه من حب. ولن تكتفى بأن يمسح خده بخدها.

وأبعدت خدها عن خده.. ونظرت فى عينيه، وصدرها لا يزال ملتصقا بصدره، وذراعاه حول خصرها.. ورفعت يديها الصغيرتين واحتضنت بهما وجهه.. كل يد على خد.. وظلت تبحلق فيه كأنها تبحث عن مكان تنفذ منه إلى قلبه.. ثم القت شفتيها فوق شفتيه.. كل ما فى شفتيها فوق شفتيه.

وفوجىء.

واستسلم.

وشفتاه بين شفتيها.

وأنفاسه تكاد تزهق.

لم تكن قبلة طبيعية.. لم يكن يستطيع أن يتذوقها.. ولا ليلى.

وكفت عن شفتيه.. وابتعدت عنه، وهى تتخلص من ذراعيه اللتين تحيطان بخصرها، ثم ألقت بنفسها فوق المقعد، وأجهشت بالبكاء.

ووقف يمسح على رأسها بيده، وقال كأنه يبكى معها :

- حصل ايه ياليلى. قولى لى يا حبيبتى.

وقالت بين نشيجها :
- الأستاذ طردنى.. خلاص.. مابقتش نافعة.. مابقتش استاهل.
قال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة يواسيها بها :
- ولا يهمك.. يعنى مش عارفة الأستاذ.. كلها يومين ويرجع يديكى الدرس تانى.
قالت وهى لا تزال تبكى :
- انا مابقتش نافعة.. خلاص.. مش ممكن حالعب بيانو تانى.
وأسقط نفسه على الأرض جالسا على ركبتيه، ومد يده ورفع وجهها إليه، وأخذ ينظر إلى نهر الدموع الذى يجرى فوق وجنتيها.. ثم بدأ يشرب منه بشفتيه.. شرب النهر كله.. وفاض من عينيها نهر آخر.. شربه كله.. ثم ابعدت وجهها عن شفتيه وقالت وهى تنظر إليه بكل عينيها :
- فتحى.. أنت بتحبنى أكتر ولا الموسيقى ؟
وألقى نفسه جالسا على الأرض، كأن السؤال دفعه بعيدا عنها، وقال وهو يضحك ضحكة بلهاء :
- ايه اللى فكرك بالسؤال ده دلوقت ؟
قالت فى حدة وهى لا تزال تنظر فى عينيه :
- جاوبنى.
قال :
- والله مش عارف.. أنا عمرى ماسألت نفسى السؤال ده.
قالت :
- أدينى سألتك.. جاوب !
وصمت برهة كأنه يبحث عن جواب، ثم قال فى صوت كسول كأنه يتكلم وهو نائم :
- أنا ما بحبش الموسيقى.. عمرى ما حسيت إنى باحبها.. إنما حسيت أنها حتة منى.. زى قلبى.. زى دماغى.. وزى مناخيرى.. ومناخيرى كانت موجودة فى خلقتى قبل ما اتولد، وقبل ما أعرف أن اسمها مناخير.. والموسيقى برضه كانت موجودة فى نفسى قبل ما أعرفها.. وعرفتها قبل ما أعرف اتكلم.

قالت كأنها تغلق عليه الأبواب حتى لا يهرب من سؤالها !

- يعنى لو اضطريت انك تختار بيننا.. بينى وبين الفن.. تختار مين.. تضحى بمين ؟!

قال وهو لا يزال يتكلم بصوته الكسول :

- مافيش حاجة اسمها تضحية بالفن.. الفن غير قابل للتضحية.. الفن هو نفس الفنان.. وطول ما الفنان عايش يفضل فنه عايش معاه.. عايش جواه.. يمكن قصدك انى أضحى بشغلى.. ما الحنش ومالعبش بيانو.. ودى تضحية بتحصل كتير.. أيام ما كنت طالب فى الجامعة، وكنت عايز انجح فى الامتحان ضحيت بالبيانو والتلحين.. قفلت البيانو بالمفتاح، وأديت المفتاح لأمى.. إنما مش معنى كدة إنى ضحيت بفنى.. بعد الامتحان على طول كانت أول حاجة عملتها إنى فتحت البيانو.. الفن زى أنفاسى.. الواحد يقدر يكتم نفسه دقيقة، ودقيقتين، إنما بعد كدة ما يقدرش.. وكمان أقدر أكتم فنى شهر وشهرين، ويمكن سنة.. إنما بعد كدة اتخنق وأموت.

ونظرت إليه بعينين متسعتين، كأن منطقه فتح لها آفاقا جديدة لم تكن تراها.

واستطرد قائلا وهو يواجهها بعينين اشتد قلقهما كأنه يخاف عليها :

- وانتى كمان يا ليلى.. أوعى تصدقى إنك ضحيتى بفنك علشان خاطرى.. كل اللى حصل إنك انشغلت عن دروسك.. إنما فنك لسة زى ما هو.. لسة فى قلبك وأعصابك وتفكيرك.

وظلت تنظر إليه بعينيها المفتوحتين على آخرها.. صامتة.. ثم بدأت تحرك أصابعها فوق مسندى المقعد.. ثم شبكت أصابع يدها بعضها فى بعض، وأخذت تضغط عليها، كأنها تحبس دماء جديدة تتدفق فى أصابعها.

ثم فجأة قامت واقفة.. واتجهت إلى البيانو، وأخذت تنظر إلى مفاتيح الأنغام البيضاء والسوداء، وفى عينيها نوع من التحدى.. ثم جلست أمام البيانو، وفردت أصابعها العشرة فوق المفاتيح، وضغطت عليها بكل قوتها، فصدر صوت كأنه صرخة الحرب. ثم رفعت أصابعها وحركتها فى الهواء، ثم عادت ووضعتها فوق البيانو وبدأت تعزف لحنا لموزار.

كانت تعزف بكل احساسها.. بكل قواها.. كأنها تتحدى استاذها.. كأنها تلقنه درسا فى العزف.. وانساق اللحن من تحت أصابعها.. سلسا.. سريعا.. يبكى، ويضحك، ويهدأ، ويمرح.. كأنه مخلوق كامل ملىء بالحياة.. حياة تصنعها بأصابعها..

وفتحى جالس على الأرض ينظر إليها مبهورا.

إنه لم يسمعها أبدا تعزف بكل هذا الجمال.

لم يحس فيها من قبل بكل هذا الفن.

وانتهت ليلى من العزف.. ونظرت إليه وأنفاسها تتهدج كأن كل قطعة منها كانت تقفز مع أصابعها.. وبين شفتيها ابتسامة كبيرة كأنها اطمأنت على فنها.. وكأنها انتصرت على استاذها الذى طردها.. وفى عينيها تساؤل مرح، كأنها تسأله رأيه فى عزفها.

وأراد أن يصفق لها.. أراد أن يقول شيئا.. ولكنه لم يصفق، ولم يقل شيئا.. ظل ينظر إليها بعينيه المبهورتين، كأنه يرى فيها آلهة الفن.. ثم مد يده إليها فى صمت.. وهو لا يزال جالسا تحت قدميها على الأرض.. ووضعت يدها فى يده وهى لا تزال تبتسم ابتسامتها الكبيرة.. ثم شدها إليه، فسقطت بين احضانه وهى تصيح فى دلال :

– فتحى.

وقال وهو يضغطها إلى صدره :

– عرفتى إنك ما تقدريش تضحى بالفن !

وقبلته.. قبلات كثيرة متعددة طافت بها فوق أنحاء وجهه. وبين كل قبلة وقبلة ضحكة مرحة.. ثم دفعته حتى استلقى على الأرض فوق ظهره.. وسقطت فوقه.. ووجهها فوق وجهه.. وجسدها بعيد عن جسده.. وهما لا يزالان يضحكان.

وكفا عن الضحك فجأة.

واقتربت شفتاه.. واقتربت شفتاها كأنهما يحددان مكانا آخر للقائهما.

واقتربت شفتاه.. واقتربت شفتاها.. وضاعا فى قبلة.. هذه القبلة المتحررة، المنطلقة.. قبلة بلا خوف، وبلا حدود.. هذه القبلة التى عرفاها منذ أصبح لهما بيت.

ثم القت رأسها على ذراعه.. وأغمضت عينيها، فى استرخاء.. كأنها ارتوت ولم تعد فى حاجة إلى مزيد.. وهو ينظر إليها كأنه يشفق عليها من نفسه.. ويفرد ذراعه الأخرى فوق ظهرها ويضمها إلى صدره فى قسوة.. ثم يخفف من قسوته كأنه يرحمها.. ولا يرحم نفسه.

وفتحت عينيها فجأة، ونظرت فى ساعتها الصغيرة المعلقة فى معصمها، وصاحت :

- ياه.. الساعة بقت واحدة.

ثم قفزت واقفة.

ونظرت إليه وهو لا يزال مستلقيا على ظهره فوق الأرض. وقالت وابتسامة حانية بين شفتيها، كأنها تعتذر له :

- لازم أروح.. لازم أرجع البنسيون !

ولم يبتسم، ظل ينظر إليها وبريق عينيه القلقتين مسلط على عينيها.

وهمت أن تبتعد.

وقال فى نداء خافت :

- ليلى.

وعادت تنظر إليه وقالت :

- نعم.

وظل ينظر إليها بعينيه القلقتين برهة، ثم قال وهو يدير عنها رأسه :

- ولا حاجة.

وظلت تنظر إليه كأنها تفهم ما يعانيه.. ثم عادت واسقطت نفسها بجانبه جالسة على ركبتيها.. وانحنت تقبله فوق أعلى جبينه.. قبلة صامتة كأنها ترطب بها أعصابه.. ونظر إليها وهم أن يمد ذراعيه، ليجذبها إليه من جديد.. ولكنها فلتت منه، وقامت واقفة وهى تقول :

- كفاية يا فتحى.. لازم أروح !

وتركته.. ودخت إلى الحمام، ووقفت أمام المرآة التى اشترتها بنفسهاوعلقتها فوق الحوض.. وساوت خصلات شعرها، وأعادت تضفير ذيل ضفيرتها.. وشدت ثوبها فوق جسدها، ثم خرجت لتجد فتحى واقفا بجانب البيانو ينقر عليه بأصبع واحدة.. وقالت وهى تبتسم له متملقة :

- مش نازل.

قال وهو يدير لها ظهره :

- لأ.. حاقعد شوية.

وترددت قليلا، ثم قالت :

- طيب أنا نازلة، ومش حا اتأخر!!

والتفت إليها مبتسما، وقال :

- حاشوفك بعد الضهر..

قالت وهى تجذب نوتتها الموسيقية، وتحملها فى يدها :

- لأ.. مش حاتأخر عن بكرة الصبح.

وابتسم ابتسامة مسكينة.

وخرجت.

وعادت ليلى إلى البيت، وبين شفتيها ابتسامة صغيرة تخفى تحتها حديثا طويلا بينها وبين نفسها.. إنها تعلم ما يعانيه فتحى.. وتعلم ما يحتاج إليه.. إنها ليست صغيرة إلى الحد الذى تجهل فيه القمة التى يرتفع إليها الحب.. وهى تريد أن ترتفع معه إلى هذه القمة.. تريد أن تعطيه كل ما يحتاج إليه.. إنها أيضا تحتاج إلى ما يحتاج إليه.. ولكن هناك شيئا فى نفسها يبخل عليه وعليها.. يبخل على الحب بالوصول إلى القمة.. ربما كان الخوف، ربما كانت التقاليد، ربما كان الله.. إنها لا تدرى.. ولكنها تحس دائما بأنها مستعدة أن تعطى فتحى كل ما يريد وأكثر.. تعطيه كل شىء.. إنها مستعدة ولكنها لا تستطيع.. لا تستطيع.. مهما أعطته، فلا تستطيع أن تعطيه كل شىء.

وقد كان فتحى صبورا.. رقيقا.. لا يطالب بحقه.. ولا يجبرها على شىء.. وهى ترى آثار الحرمان على وجهه عقب كل قبلة يتبادلانها.. وترى المجهود العنيف الذى يبذله ليكبت صراخ اعصابه.. ولكنه رغم ذلك لا يتكلم.. ولا يثور.. كل ما يفعله أن يهرب من جسدها ومن جسده، إلى البيانو.. يعزف عليه كأنه يشكو إليه حرمانه.. ولكن الفنان لا يستطيع أن يغلب الرجل.. والألحان التى تقفز من تحت أصابعه لا تستطيع أن تمحو العذاب الذى يطل من وجه الرجل.

إن فتحي يستعين على حرمانه منها بفنه.. ولكن.. ربما كان يستعين عليها بشيء آخر.

زوجته !!

وانكمشت الابتسامة فوق شفتي ليلى.. وبدأت تتصور فتحي في أحضان زوجته.. إنه يقبل زوجته أكثر مما يقبلها.. يقبل زوجته قبلات بلا حدود.. قبلات أكثر وأعنف.. قبلات تحملها إلى القمة.. لا شيء يحول بينهما وبين القمة.. إن فتحي مع زوجته لا يعانى الكبت.. ولا يتعرض لعذاب.

وبدأ صدر ليلى يتهدج، وصورة فتحي وهو فى أحضان زوجته تتجسد فى خيالها.. ثم تتمادى فى خيالها، كأنها تتعمد تعذيب نفسها بهذه الصورة.. ثم تتساءل : أين مكانها من فتحي وزوجته؟ إن مكانها لا يتجاوز مكان الكأس الذى يتناوله الرجل قبل الغداء ليفتح شهيته.. والزوجة هى الغداء.. وهى الوجبة الكاملة الدسمة التى يتناولها فتحي.. ولابد أنه يسرع إلى زوجته عقب كل مقابلة بينهما.. يسرع إليها جائعا مفتوح الشهية.. وهى - هى ليلى - التى فتحت شهيته.

وأحست كأنها تهم بأن تصرخ.

لا.. إنها لن ترضى بمكانها هذا.. لن تكتفى بفتح شهية فتحي.. ستكون له وجبة كاملة.. ستشبعه حتى لا تبقى منه مكانا لامرأة أخرى.. ولو كانت هذه الأخرى، هى زوجته.

وذعرت ليلى من نفسها عندما وصل تفكيرها إلى هذا الحد.

لماذا تنزل بتفكيرها إلى هذا المستوى؟

إن الحب هو قمة العاطفة.. وقد وصلت فى عواطفها إلى القمة.. وفتحي وصل معها بعواطفه.. أنه يحبها.. كل الحب.. ولا يجمعهما إلا الحب.. حب راق صاف كالنور.. كالشمس.. كتنهدات الملائكة.. إنه حب أرقى من حبه لزوجته.. حب ليس له هدف إلا الحب.. حب ليس له متعة إلا متعة الحب ذاته.. حب يرتفع عن الزواج.. ويرتفع عن الجسد.

ورغم ذلك.. فهى جسد.. وفتحي جسد.. لماذا ياربى خلقتنا أجسادا؟

ودخلت ليلى إلى البيت وفوجئت بأمها جالسة فى البهو الخارجى على

غير عادتها، وكأنها فى انتظارها.
وابتسمت ليلى ابتسامة حائرة، وقالت وهى تحاول أن يبدو صوتها طبيعيا :
- مالك يا ماما.. ايه اللى مقعدك هنا ؟
وقامت الأم واقفة، ووجهها حازم حزما خطيرا قاسيا، وقالت فى صوت جاد :
- تعالى.. أنا عايزاكى.
وسارت أمام ابنتها، حتى دخلت إلى حجرتها، وجلست على مقعدها الذى يجاور النافذة.. وليلى واقفة أمامها فى ارتباك.. وقالت الأم، فى صوت باتر :
- اقعدى.
وجلست ليلى على «الشيزلونج» المواجه لأمها، دون أن تنطق بحرف.. وشىء يقنعها بأن عاصفة على وشك أن تهب :
وقالت الأم وهى تنظر إلى ابنتها فى امعان :
- كنتى فين ؟
وقالت ليلى، وهى تبتلع ريقها :
- ماحضرتك عارفة.. كنت فى المعهد.
وقالت الأم وهى تضغط على اسنانها كأنها تكتم صرخة :
- انتى كدابة.. انتى ماكنتيش فى المعهد.
واعتقدت ليلى أن أمها ربما تكون قد سألت عليها بالتليفون فى المعهد، ولم تجدها، فقالت ورموشها تضطرب فوق عينيها :
- أنا أصلى رحت المعهد لقيت الأستاذ مشغول نزلت رحت.. و..
وصاحت أمها فى حدة :
- ماتكدبيش.. الكدب مش حاينفعك.. اتكلمى الحق.. لازم تقوليلى على كل حاجة.. فاهمة يعنى ايه كل حاجة.
وقالت ليلى وهى تضغط على احدى يديها بالأخرى لتخفى ارتباكها :
- حاكدب ليه يا ماما.. ماتسيبينى بس أتكلم.
ونظرت الأم فى عينى ابنتها، وقالت ووجهها يزداد احتقانا :

- إنت بينك وبين الأستاذ فتحى ايه ؟
وفوجئت ليلى.. وشهقت.. وفضحتها شهقتها.. وقالت متلعثمة.
- فتحى.. ما.
وعادت الأم تصرخ :
- ماتخبيش عليّ.. أنا عارفة كل حاجة.
ونظرت ليلى إلى أمها، كأنها لا تصدق أنها تعرف سرها، ثم كأنها ضعفت أمام نظرات أمها، فانتفضت من جلستها فجأة.. وألقت نفسها فوق صدر الأم.. الصدر العريض.. كأنها تحتمى فيه من الكذب.. ومن الحيرة.. ومن نفسها.. وبدأت تبكى بكاء حادا، وهى تقول بين نشيجها :
- باحبه.. باحبه يا ماما !
وسكتت الأم، كأنها وصلت إلى آخر الطريق.. ووضعت كفها الحنون القوية فوق رأس ابنتها، ورفعت عينيها تنظر إلى السماء من خلال النافذة كأنها تسأل الله حكمته.. ثم قالت فى هدوء حزين :
- انتى مش عارفة انه متجوز ؟
وهزت ليلى رأسها، عدة مرات، تجيب بالايجاب، وهى لا تزال تبكى.
وعادت أمها تقول كأنها تندب حظ ابنتها :
- وعارفة أنه بيحب مراته ؟.
ورفعت ليلى رأسها وفى عينيها نظرات شرسة كأنها نمرة جريحة :
- لأ.. ما بيحبهاش.. بيحبنى أنا.. و..
وقاطعتها الأم كأنها ترحمها :
- مش مهم.. المهم أنه متجوز.. ازاى بس يا بنتى تحبى واحد متجوز.
وخفضت ليلى رأسها وقالت وهى لا تزال تبكى ووجهها مختبىء فى صدر أمها :
- وهوه كان بايدى يا ماما.
وقالت الأم :
- انتى عارفة اللى بتحب واحد متجوز بتعمل ايه.. بتخرب بيت.. بتهدم عيلة.
ورفعت ليلى رأسها وقالت فى غضب يرويه دمعها :

- أنا ماخربتش بيت حد.. أنا ما أخدتش حاجة من مراته.. ماقلتلوش تعالى اتجوزنى.

وقالت الأم وهى تتنهد :

- طيب يا ليلى.. اللى حصل خلاص حصل.. المهم من هنا ورايح مش حاتشوفيه، ولا حاتكلميه.

وقالت ليلى وعيناها تصرخان من الألم :

- ما أقدرش يا ماما.. ما أقدرش.

وقالت الأم وهى تحس بألم ابنتها :

- لازم تقدرى.. ولازم تستحملى.. انتى مش حاسة انتى بتعملى ايه.. مش عارفة انتى رايحة فين.. دى مش حاجة بسيطة يا ليلى.. دى جريمة.. محدش ممكن يسيبك تعملى فى نفسك كدة.. وربنا مش ممكن يرضى بكدة.

وقالت ليلى فى صوت محشرج :

- ربنا هو اللى خلانى أحبه.

وقالت الأم كأنها تلقى أمرا لا مناقشة فيه :

- ربنا ماقالش حبوا الرجالة المتجوزين.. وزى ما قلت لك.. من هنا ورايح مش حاتشوفيه.. ومش حاتروحى المعهد.. ومش حاتخرجى من البيت إلا معايا أو مع حد من أخواتك وهبت ليلى واقفة على قدميها، وصرخت :

- وماأروحش المعهد ليه.. مش عايزينى أتعلم.. عايزين تحبسونى!

وقالت الأم وهى تحاول أن تحتفظ بهدوئها :

- أنا مش باحبسك.. أنا باساعدك.. وتبقى تاخدى دروس البيانو فى البيت.. وحاقول لأخوكى إن دى رغبتك.. ولا عايزانى أقول له على كل حاجة.

وارتعدت ليلى عند ذكر أخيها.. وأحست أن أمها أقوى منها.. أحست أن حبها أصبح فى يد أمها، وأنها تخنقه.. تحاول أن تقتله.

وقالت فى توسل :

- طيب أروح أشوفه مرة واحدة بس.. علشان أقول له أنى مش حاشوفه تانى.. وحياتى عندك يا ماما..

وقالت الأم فى حزم باتر :

- لأ.

وقالت ليلى ودموعها تنهمر من جديد :

- وحياة أبيه أحمد.. مرة واحدة بس.. انتى متعرفيش أنا باحبه أد ايه، وهو بيحبنى أد ايه.

وعادت الأم تقول فى حزم :

- لأ.

وصرخت ليلى فى وجه أمها :

- انتى أصلك ماحبتيش.. ماكانش فيه على أيامكم حب.. لو كنتى عرفت الحب كنتى رحمتينى.. ماكنتيش عملتى فىّ كدة.

وابتسمت الام ابتسامة حزينة مسكينة كأنها ترثى ابنتها.. وتاهت عيناها برهة فى عالم بعيد.. عالم تعيش فيه ذكرى حبيسة.. ثم قالت فى صوت حالم :

- الحب كان على أيامنا زى ما هو على أيامكم.

ثم رفعت صوتها وقالت فى حدة :

- إنما حبك ده مش حب.. ده جريمة.. اتفضلى روحى أودتك، قبل ما تبتدى تقلى أدبك.

وجرت ليلى وهى تتعثر فى دموعها، ودخلت حجرتها، وأغلقت الباب وراءها، ثم انكفأت على وجهها فوق سريرها. وعادت تبكى، وتتنشج.. وتشد فى خصلات شعرها.. وجسدها كله يرتعش.. كأنها تحاول أن تتحرر من قيد ثقيل قيدوا به قلبها.

ثم هدأت فجأة.. ورفعت رأسها من فوق الوسادة، كأنما خطرت لها فكرة.

ستنتحر..

ستشرب صبغة اليود..

إن زجاجة صبغة اليود، موضوعة فى دولاب الأدوية المعلق فى الحمام.. ستشربها إلى آخرها.. وستسقط تتلوى من الألم.. وتصرخ.. وتسعفها أمها.. وينقلونها إلى المستشفى.. وستعلم أمها أنها لن تعيش دون أن ترى فتحى، فتسمح لها برؤياه.

لا.. لن تنتحر.
ستهرب.
ستقوم الآن، وتجمع ملابسها فى حقيبة.. وتذهب إلى هناك.. إلى بيتها.
ولكن..
يجب أن تتفق مع فتحى أولا.
وقامت من فوق الفراش.. وخرجت من الحجرة.. وبحثت عن التليفون..
إنه ليس فى الممر الذى يفصل بين الحجرات.. وليس فى البهو الخارجى..
لابد أنه فى حجرة أمها.
وخطت خطوات حازمة نحو حجرة أمها، وفى عينيها نظرات ثائرة متحدية.. ودخلت الحجرة.. وجالت بعينيها.. وأمها تنظر إليها فى هدوء.
ورأت التليفون موضوعا على الأرض بجانب قدمى أمها.. فتقدمت وهى ترتعش.. كل ما فيها يرتعش.. وكل ما فيها على وشك الانفجار.. كأنها قنبلة معبأة تنفجر بمجرد اللمس.. وانحنت والتقطت آلة التليفون، وحملتها بين يديها وخرجت بها وهى تجر وراءها السلك الطويل، وأمها تنظر وراءها دون أن تتكلم.
ودخلت إلى حجرتها والتليفون فى يدها.. وجلست فوق السرير، ثم رفعت السماعة، وأدارت رقما..
وسمعت صوت فتحى ينساب إلى اذنيها كسولا مليئا، وقالت فى لهفة :
- فتحى.. ماما عرفت كل حاجة.
وقال فتحى وقد صحا صوته كأنه ذعر :
- عرفت !! عرفت ايه ؟ عرفت ازاى.
وقالت ليلى ودموعها معلقة بين رموشها :
- ماما..
ولم تتم.. رفعت رأسها، ورأت أمها واقفة فى وسط الباب كالقدر المحتوم.
وبلا إرادة وضعت سماعة التليفون بسرعة.. وظلت تنظر إلى أمها بعينين اختلط فيهما الخوف والتحدى.. ودموع على وشك أن تنهمر.
وقالت أمها فى هدوء.
- روحى اغسلى وشك.. زمان اخواتك جايين !

١٢

• شهيرة •

وصاح فتحى فى التليفون بعد أن وضعت ليلى السماعة، وقد اشتد بريق القلق والذعر فى عينيه الواسعتين.

- آلو.. آلو.. آلو.

ثم وضع سماعة التليفون وهو شارد.. والتفت ووجد زوجته بجانبه، وبين شفتيها ابتسامة هادئة ثابتة. وقالت وهى تنظر فى وجهه كأنها تحاول أن تقرأه :

- مالها.. قالت لك ايه ؟

وقال فتحى فى دهشة :

- مين ؟

وقالت زوجته فى هدوء كأنها لا تقول شيئا جديدا :

- ليلى..

وفغر فتحى شفتيه.. وفغر عينيه.. وارتفع حاجباه حتى أعلى جبينه.. أصبح كتلة من الدهشة.. وسكت برهة، وزوجته لا تزال تنظر إليه.. نظراتها الثابتة، وابتسامتها الهادئة بين شفتيها.. وأحس أنه لن يستطيع أن ينكر أن ليلى هى التى كانت تحادثه فى التليفون.. أحس أن زوجته تعلم أكثر مما كان يعتقد.،. ثم قال وهو يدير وجهه عنها :

- دى كانت عايزة تيجى علشان تتمرن معايا.

وقالت الزوجة وهى تبذل مجهودا لتحتفظ بابتسامتها كأنها تستعين بها على اطفاء نارها :

- وكانت فين من زمان.. دى بقى لها شهر مابتجيش وما بتتمرنش معاك.

وقال فتحى وكلماته تتعثر فى كذبه :

- أنا عارف ياعواطف.. يمكن كانت بتتمرن فى المعهد.

وقالت عواطف وهى تبتسم ابتسامة أكبر :

- فتحى. ماتخبيش علىّ.. أنت كنت بتقابلها برة.

والتفت إليها فتحى فى حدة كأنها لدغته بلسانها، وقال صارخا :

- ايش عرفك.. ايه الكلام الفاضى اللى بتقوليه ده.. حاقابلها برة ليه.. بينى وبينها ايه ؟

وقالت وهى لا تزال هادئة، وفى عينيها نظرة حانية تنظر إلى طفل صغير لا يحسن الدفاع عن نفسه :

- أنا عارفة من زمان يا فتحى.. وكنت ساكتة.. وأحب أقولك إنى مابدورش وراك.. مابحاولش اعرف حاجة.. إنما كل حاجة بتجيلى لغاية عندى.. مرة لقيت شعرة صفراء على جاكتتك.. مش مرة واحدة بس، مرات كتير.. شعرة من لون شعر ليلى.. ومرة لقيت روج على كم قميصك اليمين.. روج خفيف زى اللى بتحطه ليلى.. ومرة شميت ريحة ليلى.. ومرة شميت ريحة بارفان.. كل ده بيجيلى لغاية عندى.. وأنا مايهمنيش أنك تعمل اللى انت عايزه.. ودى مش أول نوبة تمشى مع واحدة.. إنما يهمنى أنى أنا ماأعرفش.. أنى ماتجرحش.. وماتكونش أنت سبب تعاستى.

ونظر إليها فتحى وقلبه يتململ فى صدره.. إنه يتألم لأنه يعرف أنه يعذبها.. وهو لا يحتمل عذابها.. وأحس أنه يريد أن يأخذها بين ذراعيه، ويقبلها، ويعتذر لها، ويعدها الف وعد ألا يعود ويعذبها.. كم مرة وعدها، وكم مرة عاد وعذبها.. انه سافل إنه قاس.. ولكن ماذا يستطيع؟ إن هذه هى نفسه.. نفسه الشاردة التى لا يستطيع أن يحكمها أو يسيطر عليها.

وقاوم فتحى ضعفه أمام زوجته، وقال وهو يحاول أن يبدو ساخرا:

- كويس.. يعنى انتى مايهمكيش إنى أمشى مع واحدة تانية، كل اللى يهمك إنك ماتعرفيش.

قالت فى رقة دون أن تغضب:

- ماهو أنا لو ماعرفتش، تبقى كأنك ما عملتش حاجة.. إنما أحب أقول

لك إني ضروري حاأعرف.. أصل أنت كويس يا فتحي.. أنت مش لئيم ولا خبيث.. علشان كده ما بتعرفش تخبي.. وحتي لو خبيت حاأعرف باحساسي.

وقال فتحي وهو لا يزال يقاوم ضعفه :

– أحب أقولك إن احساسك المرة دي كان غلط.

وقالت وهي تبتسم كأنها تخاف عليه أن يغضب :

– طيب والشعر الأصفر.

قال وقد بدأ يحتد :

– أنا عارف.. ما كل يوم باقابل ستات أشكال والوان في المعهد، وفي الإذاعة، وفي الحفلات.. يمكن واحدة من دول كان شعرها أصفر، ووقعت على كتفي شعرة منها..

ونظرت إليه كأنها تلومه عل سوء دفاعه عن نفسه، وقالت :

– والناس اللي بيكلموني في التليفون، ويقولولي أخبارك.

قال في انزعاج :

– ناس !! مين هم دول ؟!

قالت :

– أنا عارفة.. ناس مابيقولوش اسمهم.. ساعات ستات وساعات رجالة.. وأحب أقولك أني بأقفل السكة في وشهم.

قال :

– طبعا تقفلي السكة بعد ما تسمعي كل كلامهم.

قالت في هدوء :

– مش دايما.

قال صارخا :

– يعني عاوزة تحاسبيني على كلام الناس.. مافيش فنان في الدنيا الناس مابتتكلمش عليه.. عبدالوهاب طلعوا عليه مليون اشاعة.. وفريد الاطرش كل يوم يخلقوا له فضيحة.. وأنا مش أقل منهم.. الواحد لازم يحمد ربنا على كلام الناس، وعلى الاشاعات والفضايح اللي بيطلعوها عليه.. لو كنت مش ناجح ماكانش حد اتكلم عليّ.. الفضايح والاشاعات

هى عنوان النجاح اليومين دول عمرك سمعتى نوبة فضيحة عن عبدالمتعال افندى الخضرى؟ طبعا لأ.. لأن عبدالمتعال افندى ده ما حدش حاسس بيه مش إنسان ناجح ومشهور.. ويمكن يكون مقطع السمكة وديلها، وعامل ميت فضيحة إنما ما حدش بيتكلم عليه ولا حد بيضرب تليفون لمراته..

وقالت عواطف دون أن تهتز لصراخه :

- طيب احلف بحياتى..

وعاد يصرخ بكل صوته :

- أحلف على ايه ؟

قالت :

- احلف انك ما بتقابلش ليلى..

قال فى تعجب كأنه يبحث أين ذهب صراخه :

- عواطف.. ماتخلنيش أتجنن.. أنا دماغى حايطق.. أنا النهاردة قعدت على البيانو أربع ساعات أصلح فى اللحن الجديد.. اعملى معروف ارحمينى.. بلاش السيرة دى دلوقت.

وتركها.. وخطا خطوات سريعة دون أن ينتظر ردها، ثم دخل إلى الغرفة الصغيرة، وجلس أمام البيانو كأنه يحتمى به من زوجته.. وأنفاسه تتهدج.. وعيناه الواسعتان قد اشتد لمعانهما، وتجمع فيهما بريق من القلق والثورة والسخط.. وفى رأسه زوبعة تتصاعد من صدره.. من أحاسيسه.

ولم يكن يفكر فى زوجته، ولا فى ليلى.. إنما كان يفكر فى نفسه وهو يكره نفسه عندما يضطر إلى الكذب.. والكذب يجعله يحس بأنه ليس إنسانا حرا.. ليس منطلقا.. إنه سجين.. سجين هذا البيت.. وسجين زوجته.. وسجين ليلى أيضا.. سجين عواطفه، مهما اتسعت هذه العواطف وتشعبت.. والكذب يجعله يحس بأن فى داخله شيئا يخجل منه.. شيئا لا يقره الناس.. شيئا يداريه ويخفيه كأنه عورة.. شيئا يتقزز منه.. ويثور على هذا الشىء.. وتدفعه ثورته إلى رغبة تتملكه ليحطم كل شىء حوله.. يحطم زوجته.. ويحطم ليلى.. ويحطم نفسه.. أو يهرب.. يهرب من هذه الدنيا.. ومن هذه القيود.. ومن الكذب.. يهرب إلى دنيا واسعة تنطلق فيها عواطفه بلا قضبان، وبلا حدود، وبلا مسئوليات، دنيا تعطى للفنان حقوقا

أكثر من حقوق الناس كلهم.. إن الفنان خالق.. إن الفنان مجنون يحاول أن يحاكى قدرة الله.. يحاول أن يخلق ألحانا كأصوات الطبيعية.. كصوت الماء يجرى فى الغدير.. كصوت النسيم بين الأغصان.. كصوت العاصفة.. أو يحاول أن يخلق تمثالا لا ينقصه إلى أن ينطق ليكون إنسانا.. أو يحاول أن يخلق قصة يحاكى بها قصص القدر التى يكتبها الله.. إنه مجنون هذا الإنسان الذى يحاول أن يخلق كما يخلق الله ويجب أن يعامل كمجنون.. وأن يعطيه الناس حقوق المجانين.. له نزوات المجانين وعواطف المجانين وشذوذ المجانين .. مجنون مطلق السراح، ليس للناس أن يحاسبوه، وليس لهم أن يلوموه.. لأن الناس فى حاجة إلى هذا المجنون لاسعادهم، ليصنع لهم فنا ينعمون به.

وأطلت عليه زوجته من الباب، ونظرت إليه مليا وهو مكفهر الوجه معقد الحاجبين، والقلق يشع من عينيه.. ثم اقتربت منه وبين شفتيها ابتسامتها الحلوة الطيبة، ووقفت بجانبه، وألقت ذراعها على كتفيه، ثم مدت يدها الأخرى وأخذت تعبث بخصلات شعره الخفيف المنحسر عن مقدمة رأسه، ثم قالت فى صوت رقيق :

– أنا متشكرة يا فتحى.

ونظر إليها فى تساؤل، وقال فى صوت تحشرجه ثورته المكبوته :

– متشكرة على ايه ؟

قالت :

– علشان مارضتش تحلف بحياتى كدب.. ولم يرد.. استدار بوجهه ناحية البيانو، وهو ينفض يدها من فوق رأسه، ثم فرد أصابعه العشرة فوق مفاتيح الأنغام، وخبط عليها بقوة، فصدر صوت ضخم كأنه هدير الموج فى بحر هائج.. ثم اخذ يعزف لحنا سريعاً صاخبا لشوبان.. كان يعزف فى عناد وفى قسوة كأنه يعاقب نفسه.. كأنه يعذب نفسه.

وقالت عواطف، وهى ترفع صوتها حتى يسمعه من خلال اللحن الذى يعزفه :

– فيه حاجة واحدة، وأنا متأكدة منها.

ولم يرد عليها فتحى، ظل مستمرا فى عزفه.. ووضعت عواطف كلتا

يديها فوق يديه حتى توقفهما عن العزف، وعادت تقول وقد خفت صوتها :

- بأقول لك فيه حاجة واحدة أنا متأكدة منها.

وقال فى برود :

- ايه ؟

قالت :

- انك بتحبنى !

ثم اتسعت ابتسامتها، وألقت بنفسها على صدره، وجلست فوق ركبتيه، واحتضنت رأسه وضمته إلى صدرها.

ولف ذراعيه حولها.

وأراح رأسه فوق الصدر الممتلىء بالحب.. وأحس كأنه وجد المكان الذى يهرب فيه من نفسه.. أحس أنه يريد أن يغمض عينيه وينام.. يرتاح.. يرتاح من نفسه.. ومن عواطفه الممزقة.

وقبلها.

قبلها فوق صدرها.. دون أن يرفع رأسه، كأنه كان يخشى إن رفع رأسه أن يصحو من النوم، ويرى نفسه.

وقالت عواطف والمرح يسرى فى صوتها :

- مش نقوم نتغدى.

وقال فى رجاء :

بلاش سيبينى أشتغل شوية.

ولم تعترض عواطف.. لقد عودته ألا تعترض على شىء يريده.. إنها تنتظره لتتناول معه طعام الإفطار عندما يحلو له أن يتناوله.. أحيانا فى السادسة صباحا، وأحيانا فى الحادية عشرة.. وتنتظره حتى يقرر متى يتناول طعام الغداء؟ أحيانا فى الواحدة، وأحيانا فى الخامسة.. وتنتظره فى المساء ليعود متى يريد.. المهم أن يعود.. ولم تكن تتعب من نوبات الأرق التى تصيبه.. كان يبقى نور حجرة نومها مضاء حتى الساعة الرابعة صباحا، وهو يقرأ، أو وهو يروح ويغدو فى الغرفة والقلق ينطلق من عينيه المجنونتين، وهى راقدة فى الفراش صامتة.. تغفو حينا، وتستيقظ حينا لتنظر إليه فى صمت وتعود وتغفو.. لم تكن تزعجها نزواته الكثيرة الشاذة..

عندما يضيق بنفسه ويبقى أياما حزينا مغموما.. وعندما تنطلق نفسه فيمرح فى صخب ويستبد به نوع من الغرور الذى يبلغ حد الوقاحة.. وعندما يثور فيصرخ كالمجانين ويحطم كوبا أو صحنا من صحون الطعام، ويبدو كحيوان شرس.

لقد أحبت فيه كل شيء.. أحبته كله، بكل مافيه من خير وشر، وكل مافيه من حلو ومر.. وربما لو لم يكن فيه هذا الشذوذ، لما أحبته.. كانت تجد فيه كل مالا تجده فى نفسها تجد فيه الفن وهى ليست فنانة.. ربما كان لها ذوق الفنانة، ولكنها لم تكن تستطيع أن تعبر عن فن، أو أن تخلق فنا.. وكانت تجد فيه ضعفا، وهى قوية.. وكانت تجد فيه قلق نفسه وحيرتها، وهى مستقرة النفس هادئة.. كان كل منهما يجد فى الآخر مالا يجده فى نفسه.. ولذلك عاش كل منهما للآخر كل هذا العمر الطويل.. ولم تشك يوما من شذوذه ولا من نزواته.. بل لم تشك ولم تهتز عندما كانت نزواته تستبد به إلى حد أن تلقيه فى أحضان امرأة أخرى.. كان كل ما يهمها أن تبقى هذه الأخرى مجرد نزوة.. وأن يبقى حبه كله لها هى.. كل ما تحرص عليه هو أن يحبها.. إنه ليس زوجها فحسب، إنه حبيبها.. وأكثر من ذلك إنه ابنها.. ولم يرزقها الله بأطفال.. فلم تحس بنقص.. فقد كان فتحى هو الطفل.. هو الابن.. هو فلذة الكبد.. ومهما عبث ابنها.. ومهما تمادى فى شقاوته.. فهو ابنها.. ابنها الوحيد المدلل، الذى تجد سعادتها فى تدليله.

وانسحبت عواطف من الغرفة، وعلى شفتيها ابتسامة من سعادتها واطمئنان قلبها.

وجلس فتحى ساهما.. ثم مد أصابعه السمراء الطويلة، وأخذ يعزف لحنا هادئا، كأنه يرطب به أعصابه.. كأنه يستعين به ليلقى ضوءا على عواطفه حتى يستطيع أن يفحصها، ويدرسها ويفهمها، ثم يسيطر عليها.

لماذا لا يخلص لزوجته ؟!

لقد حاول.. منذ تزوجها، وهو يحاول.. ولم يكن يحاول إيمانا منه بما يسميه الناس : اخلاصا.. إن هذا الاخلاص ليس فى نظره سوى نوع من النفاق.. النفاق الاجتماعى.. أو هو – على أحسن الفروض – نوع من

التنظيم لعمليات النسل. إن الاخلاص الحقيقى هو الاخلاص للنفس.. فإن الإنسان لن يستطيع أن يخلص لغيره إلا إذا أخلص لنفسه أولا.. فإذا كبت نفسه، وسجنها وراء قضبان المجتمع، فليس هذا اخلاصا إنه نوع من النفاق.. نوع من من الجبن.. نوع من التنظيم الجسدى الاجتماعى على حساب انطلاق الروح وصراحتها وطهرها.. إن الرجل الذى يكبت انطلاق روحه ويعود إلى زوجته وروحه مثقلة بخيال امرأة أخرى، هو أقل إخلاصاً من رجل يطلق روحه ويشبعها، ويعود إلى زوجته بروح خالصة لها.. روح ليست مقيدة وراء امرأة أخرى.

ورغم ذلك.

رغم ذلك حاول أن يخلص لزوجته كما يخلص الناس لزوجاتهم.. فقط ليجعلها سعيدا.. إنه يريد أن يسعدها.. وهذه اللحظات التى يحس فيها بأنه يعذبها، يتعذب فيها معها يتعذب عذابا أكبر من عذابها.. يحس بقلبه يختنق.. وضميره يصرخ.. يحس بأن حياته لم يعد لها جدوى.. لم يعد يستحق الحياة، مادام لا يستطيع أن يسعد زوجته.

ولكنه فشل دائما فى أن يظل مخلصا لها.

لماذا ؟

إنه يحبها.

وفى كل مرة يسائل نفسه عما إذا كان يحبها، يخفق قلبه، وتزغرد أعصابه، وتبتسم شفتاه.. كأن كل قطعة منه تحبها معه..إنه ليس مجرد حب.. إنه أكثر من حب.. إنه حياة.. حياته.. ولم تكن له حياة قبل أن يتزوج عواطف.. لم يستطع أن يحدد لحياته كيانا، ويرسم لها خطوطا، حتى لو كانت خطوطا مهزوزة، إلا بعد أن تزوجها.

وسرى اللحن ناعما من تحت الأصابع السمراء الطويلة، كأنه حفيف أجنحة الملائكة.. وأخذ فتحى يستعيد ذكرى زواجه بعواطف.. أحب ذكرياته إليه.. أنه يذكر كل ما حدث كأنه حدث اليوم، ويذكر كل كلمة كأنها قيلت الساعة.

كان أيامها طالبا فى السنة النهائية بكلية الحقوق.. وكان يدرس الموسيقى كهواية.. ولكنها هواية تشغل كل عقله، وكل قلبه، وكل أحلامه..

وعرفها فى حفلة عائلية أقيمت فى بيت زميل له.. وكان زملاؤه يدعونه إلى حفلاتهم ليعزف لهم على البيانو أو على العود.. وتعلقت عيناه بها.. بالرأس الصغير وشفتين مكتنزتين، وعينين مشروطتين، وهدوء عميق مريح يطل منهما، وقوام صغير متسق.. و.. لم يحس أنه يغازلها، إنما أحس بأنه يعرفها منذ زمن طويل.. منذ ولد.. ورأى فيها بيته، وأمه، وأباه، وأخوته.. وأقبل يحادثها، دون أن يرتبك.. ودون أن يحس بنوبة من نوبات شذوذ، ودون أن يحس أنه مدفوع إليها بنزوة.. وسألها عن رقم تليفونها كأنه يسأل عن حق له.. وأعطته الرقم فى سياق طبيعى كأنه لم يسألها شيئا ليس من حقه.

وانتهت الحفلة.

وجلس بجانب التليفون فى اليوم التالى ينتظر أن تحادثه.. ولكنه كان يشعر - شعورا جازما - بأن من حقه عليها أن تحادثه فى التليفون.

ولم تحادثه.. ومر اليوم الذى يليه وهو جالس بجانب التليفون، ولم تحادثه أيضا.. وفى اليوم الثالث انتابته ثورة ورفع سماعة التليفون واتصل بها.. ولم يتردد عندما سمع صوتها.. كأنه يعرف هذا الصوت طوال عمره.. وقال صارخا :

- ماتكلمتيش ليه ؟

وقالت فى دهشة :

- أنا ماوعدتكش إنى أتكلم.

وقال وهو لا يزال يصرخ :

- وهو لازم توعدينى علشان تتكلمى.

وضحكت.

وأفاق من ثورته وضحك معها.

وتحادثا.. كأن حديثهما لن ينتهى أبدا.

وعرفا الحب.. وعرف أن فيها أكثر مما فى أية فتاة أخرى.. فيها شىء يدفعه إلى احترامها.. احترام لم يشعر به نحو اية فتاة عرفها.. كان يحترمها، وكان يخاف عليها، وكان يهدأ أمامها كأن المجنون الذى يعيش فى صدره، يخشاها ويهرب من أمامها.. وكان يحدثها كثيرا عن نفسه..

أكثر مما تحدثه عن نفسها.. وكان حديثه عن نفسه كله خواطر وأحاسيس، لم يكن يقدر للحوادث التى تمر به اية قيمة حتى يتحدث عنها.. كان كل ماله قيمة فى نظره هى خواطره وأحاسيسه.. ولم تكن له مشكلة إلا مشكلته مع أبيه.. فأبوه لا يعترف بالموسيقى إلا كهواية، تشغل ابنه عن قرناء السوء، وعن التردد على الحانات والكباريهات.. لم يكن يؤمن بها كفن وحياة.. ولذلك أصر على أن تبقى دراسة فتحى للموسيقى فى حدود الهواية، وأصر على أن يلتحق بكلية الحقوق، ليعين فيما بعد فى سلك القضاء.

وكان يحدثها كثيرا عن مشكلته مع أبيه.. وكانت تهونها عليه، كأنها تحملها معه.. بل لقد حملت معه كل شئونه.. حملت معه لحظات ضعفه.. ولحظات نزواته، ولحظات مرضه.. أصبحت تعيش فى حياته كلها.

وأدى امتحان الليسانس.. وذهب معها ليطلعها على النتيجة.. وانتظرته فى جزيرة الشاى بحديقة الحيوان.. ودخل هو إلى مبنى الكلية.. ثم عاد إليها وهو مكفهر الوجه، والسخط يملأ عينيه.. ونظرت إليه فى لهفة وصاحت :

– مالك.. سقطت ؟

وقال كأنه ينعى نفسه لها :

– لأ.. نجحت !

وابتسمت عواطف وقالت :

– ومالك زعلان كده.. خضتنى !

وقال فتحى وصوته يعلن عن ثورته :

– إنتى عارفة نجاحى معناه ايه.. معناه انى بقيت موظف.. وكلها يومين وألبس طربوش ويطلع لى كرش.. معناه انى لازم أسيب الموسيقى.. خلاص مابقاش من قيمتى أنى أضرب بيانو، ولا ألحن، ولا أحضر حفلات.. يعنى انتهيت.

وقالت عواطف فى هدوء :

– ماتتوظفش.

ونظر إليها فتحى فى حدة، وقال :

– وأعمل ايه.. أقعد فى البيت وأبويا يصرف علىّ ؟!

وقالت عواطف دون أن يهتز لها رمش، كأنها تدله على طريق تعرفه جيدا :

- لأ.. تشتغل !

وقال وهو لا يزال محتدا :

- أشتغل ايه.. ما أنا حاشتغل موظف محترم أد الدنيا !

قالت :

- لأ.. اشتغل أى حاجة فيها موسيقى.. ألعب بيانو مع فرقة من الفرق.. دة الراجل اللى بيضرب بيانو فى الأوبرج ما يساويش ضفرك.. ولا أضرب عود فى فرقة عبد الوهاب ولا أم كلثوم.. ولا أمسك الطبلة لتحية كاريوكا.. المهم أنك تشتغل شغلة أنت عايزها.. أنت الى حاتشتغل مش باباك.

ونظر إليها فتحى وحاول أن يسخر منها، ولكن نظرته الساخرة ارتدت إليه. لقد رأى وجهها هادئا، ونظراتها ثابتة، كأنها لا تقول شيئا شاذا غريبا.. أحس أن الطريق الذى تتحدث عنه طريق سهل مطروق لم يكن يعرفه من قبل.. وأحس بالثقة فى نفسه.. إنه سيكافح ليكون موسيقارا.. وسينتصر.. سينتصر على إرادة والده.

وتركها وهو مصمم على أن يسير فى الطريق الذى أرشدته إليه.. وعاد إلى بيته ليبدأ سلسلة مشاكل لا تنتهى مع أبيه.. وكانت المشاكل تشتد أحيانا حتى يحس أنه قد فقد الثقة بنفسه، وأن أباه سينتصر عليه، فيذهب إليها ليتزود بجرعة من الثقة.. وكانت هى لا تفقد الثقة فيه أبدا.. ولم تكن تفكر له.. لم تكن تملى عليه إرادتها.. ولكنها فقط كانت تزوده بثقتها فيه، وفى فنه، وفى قوته.

وانقضى عام وهو يتخبط.. يفقد الثقة فى نفسه كلما اقترب من أبيه، ويستردها كلما اقترب منها.. وتنتابه نزوات تحيله إلى شبه مجنون.. يسكر ويعربد.. ويمزق فى نفسه.. ثم يهرع إليها ليرتمى فوق صدرها فيهدأ المجنون فى صدره.. ويفيق من سكره وعربدته، ويسترد نفسه.

ثم خرج من بيت أبيه.

عاش وحده.

ولم تعترض عواطف.. ولم تلمه.. إنها تتركه يختار طريق كفاحه، وتمده

بمزيد من الثقة.. وعاش فى بنسيون صغير فقير.. وهى ترعاه من بعيد.. ترعى حياته، وشئونه الخاصة وتضع يدها تحت ذراعه حتى لا يسقط صريع حلمه الذى يحاول أن يحققه.

وأحس أنه لم يعد يستطيع الاستغناء عنها.

إنه محتاج إليها فى كل لحظة من لحظاته.

لماذا لا يتزوجها ؟

لم يكن قبل هذه اللحظة بالذات قد فكر فى الزواج.. وتراءت له الفكرة كأنها نكتة يستطيع أن يقولها لعواطف، كى تضحك لها..

وأمسك بسماعة التليفون.. وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. واتصل بها.. ولم يكن من عادته أن يتصل بها فى هذه الساعة من الليل.. ولكنه كان مصمما على أن يحادثها.. كأن شعورا مجنونا يتملكه ليقول لها هذه النكتة التى خطرت له.. وكان مستعدا أن يرتكب اية حماقة ليتصل بها.. وظل جرس التليفون يدق طويلا.. ولو رد أبوها فسيضع السماعة، ويعيد الاتصال مرة ثانية.. لو رد أبوها فسيضع السماعة، ويعيد الاتصال مرة ثالثة.. إلى أن تعلم عواطف أنه هو الذى يحاول الاتصال بها، وأنه فى حاجة ملحة إليها فتتصل به، وإن لم تتصل به فسيذهب إلى بيتها، ويقتحمه، ويقول لها النكتة.

ولكن كانت عواطف هى التى ردت عليه من أول مرة، وقال لها بسرعة وبلا مقدمات :

- تتجوزينى ؟

وقالت فى هدوء كأنه لم يفاجئها :

- أيوه..

وقال وهو لا يزال يعتبرها نكتة :

- إمتى ؟

قالت دون أن تضحك :

- زى ما يعجبك.

قال كأنه يتحداها

- بكرة.

قالت :

– طيب.. بكرة يا فتحى !

كل هذا حدث فى ليلة واحدة.. فى ساعة.. فى أقل من ساعة.. فى عشر دقائق فقط، فكر فى الزواج، وعرضه عليها، وقبلت..

ولم يصدق نفسه.

إنه لا يعتقد أن هناك فتاة يمكن أن تثق فيه إلى حد أن تتزوجه.. إنها قد تحبه، ولكنها لا تتزوجه.. إن الزواج يحتاج إلى شىء آخر بجانب الحب.. يحتاج إلى الاحساس بالمسئولية، وإلى القدرة على الاستقرار.. وكل فتاة عرفته، عرفت فيه أنه لا يستطيع أن يحمل مسئولية وليست له قدرة على الاستقرار.. فتيات كثيرات انسقن معه فى نزوات أو أدعين حبه.. ولكن واحدة منهم لم تفكر فى زواجه.. لم تثق به إلى حد أن تتخذه زوجا.

وشعر بالخوف.. الخوف من ثقة عواطف فيه، ومن المسئولية التى تلقيها على كتفيه.. لقد حملته مسئولية شق طريقه ليصبح موسيقارا، وهى الآن تحمله مسئولية أن يصبح زوجا.. رب عائلة.. وأبا للأولاد.. لا.. إنه لا يصلح لحمل هذه المسئولية.. لابد أن عواطف قد اعتبرته سكرانا عندما عرض عليهاالزواج، ووافقته لمجرد أن تتحاشى نزوات سكره.. ولابد أنها ستأتى إليه فى الصباح، لتعفيه وتعفى نفسها من هذا العرض المجنون.

ولكن عواطف أتت إليه فى الصباح، وعلى وجهها زغرودة.. إنها مصممة على أن تتزوجه.. وهو ينظر فى عينيها ويستمع إلى حديثها، فيشعر أن الزواج أمر سهل.. لا مشكلة فيه، ولا مسئولية.. ويحس بالثقة فى نفسه كزوج، وكرب عائلة.. ورغم ذلك فقد رفض أن يذهب إلى أبيها ليخطبها منه.. وقال لها فى اصرار :

– أروح أقول له ايه.. أقول له إنى شاب أبوه طرده، ومش لاقى شغل.. وعايز أتجوز بنتك لأنى باحبها.

وحاولت أن تثنيه عن اصراره.. ولكنه صمم، أنه لا يستطيع أن يحتمل موقفه أمام أبيها.. قد يحتمل أى موقف إلا هذا الموقف.. وعاد يقول فى عناد :

– إذا كنتى عايزة تتجوزينى نتجوز دلوقت.. ماحدش له حاجة عندنا..

دى حياتك وحياتى، مش حياة أبوكى.
وقالت كأنها تتحداه :
- طيب.. نتجوز دلوقت.
ونظر إليها فى دهشة... وذهبا إلى المأذون وهو لا يزال غائباً فى دهشته.. يحس كأنه معلق بين السماء والأرض، لا يدرى أين يستقر؟
وتزوجا.
وعادت إلى بيت أبيها، وهى زوجة عذراء لا يعلم أحد بزواجها.
ولا يدرى ماذا فعلت فى بيت أبيها.. فقد أفاق من دهشته بعد قرانه، وعاد إلى حياته.. إلى موسيقاه.. دون أن يتغير فيه شىء.. إنه لا يزال كما هو حرا، طليقا، قلقا، مجنونا، كلما أحس أن ضعفه سيغلبه جرى إلى عواطف ليتزود منها بجرعة من الثقة.
إلى أن جاءته يوما- وقد مضى أكثر من شهرين على زواجهما وبين شفتيها ابتسامة هادئة، كأنها تتنهد فى راحة بعد أن اجتازت طريقا شاقا طويلا، وقالت فى فرحة :
- بابا عرف كل حاجة.
قال فى ارتياح :
- عرف ايه ؟
قالت :
- عرف أننا اتجوزنا..
وقال وقلبه يرتعد..
- وحايعمل ايه ؟
قالت فى بساطة :
- وافق.. وعايز يشوفك !
ولم يجد مفرا، وذهب وقابل أباها، واستقبله الأب وعلى شفتيه ابتسامة مغتصبة.. ربما وافق على زواج ابنته مضطرا حتى يدارى فضيحة، وربما وافق ايمانا منه بحق ابنته فى اختيار رجلها.. ولكنه وافق.
وبدأ كل شىء يتغير حول فتحى، وهو واقف كالمذهول.. استأجرت عواطف شقة صغيرة.. حجرة واحدة خصصتها للنوم. وصالة كبيرة

خصصتها للجلوس والاستقبال، وفى ركن منها وضعت مائدة الطعام.. وأثثتها بأثاث رخيص بسيط، ولكنه أنيق.. مرح.. كل قطعة منه تضحك للأخرى.. وهو لم يدفع شيئا.. لم يدفع مهرا، حتى قيمة المهر التى سجلها فى عقد قرانه، لم يدفعها.. فلم يكن معه شيء يدفعه.. ووالد عواطف كان ضنينا عليها، فهو فى قرارة نفسه لم يقر الزواج.. ولذلك اضطرت عواطف أن تكتفى بهذا الأثاث البسيط الرخيص.. ووضعت فى انتقائه كل شخصيتها، وكل ذوقها.. وخصصت الجزء الأكبر من المال الذى أعطاه لها أبوها، وأخوتها، لتشترى بيانو، وضعته فى صدر الصالة، ليبحث فوقه فتحى عن مستقبله.

وانتقل فتحى ليعيش مع عواطف.. زوجا وزوجة.. ومضت أيام قليلة، وهو يشعر أنه انتقل إلى الجنة.. كل شيء حوله مرتب نظيف فى متناول يده.. وعواطف بجانبه تغرقه فى حبها وحنانها.. وليس حوله ما يسمى مسئولية.. إنه ليس مسئولا عن شيء.. الجنيهات القليلة التى يكسبها من اشتراكه فى الفرق الموسيقية، يعطيها لها.. ولا يدرى كيف تنفقها؟ ولكنه يأكل، ويشرب، وفى جيبه دائما ما يكفى سجائره وانتقالاته.. وهو يجلس كل يوم إلى البيانو، ولكن لا شيء لامع يخرج من تحت أصابعه.. ربما شغلته السعادة عن فنه.

ثم..

ثم فجأة ثار.. تمرد على الجنة.. سخط على السعادة.. إن به حنينا إلى القلق.. إلى الحيرة.. إلى التشرد.. إلى صباح يقوم فيه فلا يجد موسى الحلاقة فى موضعه.. ولا يجد شيئاً يأكله.. أنه يريد حريته.. يريد أن يحطم هذه القضبان التى سجنته عواطف خلفها.. إنه يكره هذا الهدوء النفسى.. ويكره الزيارات العائلية.. ويكره أقارب زوجته وأخوتها الذين يزورونه كل مساء، ويتبادلون كلاما سخيفا سطحيا، لا شيء تحته. ثم يضحكون على نكت سخيفة.

إنه يريد أن ينطلق.

يريد أن يحطم.

وخرج من بيته كالمجنون.. وذهب يبحث عن حريته.. إنه يريد أن يصل

إلى أقصى حدود الحرية، حتى يقتنع بأنه لايزال حرا.. وأخذ من البيت كل ما فيه من نقود، وانطلق إلى مراتع الشباب.. وشرب كثيرا من الخمر.. ولم يكتف بالخمر.. إنه يريد امرأة.. اية امرأة.. ليزداد اقتناعا بأنه لا يزال حرا.. حرا إلى هذا الحد.. ووجد امرأة رخيصة، ألقى نفسه فى احضانها.. لم يعرف اسمها.. ولا شكلها.. فقط يريد أن يتحرر.. أن يتحرر من الفضيلة.. من الاستقرار.. من الهدوء.

وأفاق من أحضان المرأة الرخيصة.. وهو مبهور الأنفاس كأنه انتهى من قتل وحش يعيش فى صدره.. ثم اخذ يجوب الشوارع على قدميه فى الساعة الثالثة صباحا، وهو لا يدرى أين يذهب؟ لقد كانت فى رأسه مشروعات كثيرة فى أول الليل.. كان يفكر فى السفر إلى الاسكندرية.. وكان يفكر فى العودة إلى البنسيون الذى كان يقيم فيه قبل الزواج.. ولكن كل هذه المشروعات تبخرت.. لم يعد فى رأسه ولا فى صدره، إلا احساس ثقيل بالندم، وعينا عواطف تتحركان أمامه كأنها تتبعه أينما كان.. وكأنها تعرف كل ما يصنعه بنفسه.

وعاد إلى عواطف.

إنه يعود إليها دائما كلما تعب من ضعفه، ومن نزواته، ومن قلقه وتشرده.

ودخل البيت، وجلس أمام البيانو.. دون أن يحاول أن يدخل إلى عواطف فى حجرة النوم.. كان واثقا من أنها لو أطلت فى عينيه، فستعرف كل ما أرتكبه فى نزوته.. وأخذ يعزف طويلا.. أصبحت الساعة الخامسة صباحا، وهو لا يزال يعزف.. والألحان تتسلل من تحت أصابعه فى سلاسة.. وانفعال كأنها تنطلق بكل ما فى نفسه.. وكل أعصابه، وكل قلبه، وكل احساسه فوق البيانو.. لا يشعر ولا يحس بشىء من حوله.. نسى نفسه.. ونسى عواطف.. ونسى نزواته.. ولم يفق إلا عندما لمسته يد رقيقة، وانحنت عواطف تقبله فوق وجنته، وتقدم له فنجانا من القهوة، دون أن تتكلم.. دون أن تسأله أين كان طوال الليل.. كأن من حقه أن يغيب عنها طوال الليل؟ مادام يعود إليها.. ورفع إليها عينيه كأنه ابن يعتذر لأمه.. ثم احتضنها ودفن وجهه فى صدرها، وهو يتمنى أن يبكى.. لعل دموعه تغسل

خطيئته.. خطيئته فى حق الزوجة التى يحبها.

وأتم يومها أول لحن كامل فى حياته.

وأسمى اللحن : «ندم» !

كان أول لحن وضعه بعد زواجه، اسمه «ندم» !

ونجح اللحن.. نجح نجاحا لم يكن يتصوره.. أذاعته محطة الإذاعة، واشترته شركة الإسطوانات، وأخذته إحدى شركات السينما كمقدمة لأحد أفلامها.. وعرف اسم فتحى.. ونشرت المجلات صورته.. وكتبت تاريخ حياته.

ولم يكن يهم فتحى من كل هذا النجاح إلا أن يعطيه لزوجته.. هى التى نجحت.. وليس هو..

ومضت السنون بعد ذلك.. واطرد نجاحه.. وانتقلا إلى بيت أكبر.. وسعت عواطف حتى صالحته على أبيه.. ثم انتقلا بعد وفاة أبيه ليقيما فى بيت العائلة.. كل ذلك، وهو لا يتغير.. لا يزال الطفل الصغير المدلل الحائر مع نفسه.. ولا تزال نزواته تستبد به فيخرج هائما مجنونا.. وأعطاه النجاح فرصا أكبر للتفريج عن نزواته.. عرف كثيرات.. نساء وبنات.. من الوسط الفنى، ومن بنات العائلات اللاتى يتهافتن على المشاهير من الفنانين.. ولكنه كان دائما يعود إلى زوجته.. ليس له مكان آخر يعود إليه.

وكان أحيانا - كلما استبدت به احدى نزواته - يعتقد أنه شرير.. شرير لأنه يعذب زوجته.. لأنه لا يستطيع أن يخلص لها.. ولكن هذه النزوات ليس لها علاقة بزوجته.. إنه لا يهرب منها.. ولا يضيق بها.. لو كانت زوجته هى كل شىء لأخلص لها.. ولكن هناك بجانب زوجته، نفسه.. إن هذا الشذوذ، وهذه النزوات مبعثها نفسه.. لا زوجته.. ولو أنه تزوج أية فتاة أخرى لما تغير حاله.. لأن نفسه هى التى تدفعه.. هى التى تقلقه.. هى التى تعذبه وتعذب معه زوجته.. وهو ليس شريرا.. إن كل ما يشعر به عندما تنتابه نوبة من نوباته، وهو نوع من التحدى للمجتمع.. وكل إنسان يشعر بنوع من التحدى للمجتمع.. إن الإنسان يختلف عن الحيوان، بأن فى نفسه معركة دائمة بين فرديته، والمجتمع الذى يعيش فيه.. الحيوان ليس له كيان فردى، إنه ينساق بغريزته مع القطيع الكبير دون أن يتململ، ودون أن يشذ عنه..

ولكن الإنسان له كيان فردى.. وهو فى الوقت نفسه محتاج إلى المجتمع.. والمعركة الدائرة هى معركة بين حق الفرد وحق المجتمع.. معركة طابعها تحدى الفرد للمجتمع.. وكل فرد يتحدى المجتمع، وإن اختلف مظهر هذا التحدى.. هناك فرد يتحدى المجتمع بأن يسرق، أو أن يقتل خصمه، وفرد آخر يتحدى المجتمع بأن يقود سيارته على الجانب الأيسر من الطريق، ويخالف اشارات المرور، وفرد آخر يتحدى المجتمع بأن يرتدى زيا غريبا.. وزوجة تتحدى المجتمع فتتخذ لنفسها عشيقا، لا لأنها فى حاجة إلى عشيق، إنما فقط للتنفيس عن تحديها للمجتمع.. لتنفس عن المعركة الدائرة بين الفرد، والمجتمع.. وزوجة اخرى لا تتخذ لنفسها عشيقا، ولكنها تنفس عن تحديها للمجتمع، بأن تضرب خادمتها، وتعذبها، وتكويها بالنار.. أو بأن تفرط فى خلاعتها.. أو.. أو.. إننا كلنا نتساوى فى تحدينا للمجتمع.. كل ما هنالك أن الفرد عندما ينظر إلى تصرفات غيره ينظر إليها بعين المجتمع، وعندما ينظر إلى تصرفات نفسه ينظر بعين الفرد.. ولذلك فالفرد يلوم غيره إذا تحدى المجتمع، ولا يلوم نفسه رغم أنه هو الآخر يتحدى المجتمع.

وهذه المعركة الأبدية بين الفرد والمجتمع، والتى مظهرها تحدى الفرد للتقاليد وللمبادىء الخلقية التى وضعها المجتمع.. هذه المعركة تكون أعنف وأشد بالنسبة للفنان.. لأن احساس الفنان بفرديته، أضخم من احساس غيره.. إن الفن يقنع صاحبه بأن إنسان متميز عن المجتمع.. متميز بموهبته وقدرته على الخلق.. وهذا الاحساس يعزله عن المجتمع، ويرفعه عليه، فيصبح أكثر إمعانا فى تحديه.

وانساق فتحى مع خواطره.. إنه ليس شريرا.. إنه لا يؤذى أحدا.. إنه فقط يتحدى المجتمع.. يتحدى القيود المفروضة عليه، والتى تحتم عليه أن يعيش حياة عائلية رتيبة منظمة.. بل أنه لاحظ فى نفسه ظاهرة عجيبة.. فهذه النزوات التى تنتابه وتدفعه إلى امرأة أخرى، لا تنتابه إلا وزوجته فى البيت.. وقد حدث كثيرا أن سافرت زوجته إلى الاسكندرية وتركته وحيدا فى القاهرة.. وفى هذه الفترات التى تغيب فيها، لا يطيق امرأة أخرى. لا يحس بنزواته ولا شذوذه.. إنه يجلس هادئا، ويحس بنوع من الخوف

والحيرة.. الخوف من نفسه، ومن شذوذه، والحيرة مع كل ما حوله.. كأنه طفل صغير يهدأ وينكمش إذا ابتعدت أمه عنه، فإذا ما عادت إليه عاد إلى شقاوته وتهوره، وفى أعماقه احساس بأنه مهما تمادى فى الشقاوة والتهور، فلا خوف عليه مادامت أمه بجانبه، ترقبه، وتنتشله قبل أن يهلك نفسه.

ولكن هل علاقته بليلى مجرد نزوة.. ومجرد تحد للمجتمع؟

لقد كان يعتبر علاقاته بكل النساء اللاتى عرفهن، مجرد نزوات.. نزوة تستمر يوما أو أسبوعا أو شهرا، ثم يفيق منها.. ولكن ليلى شىء آخر.. إنها ليست نزوة.. إنها لم تنته فى شهر.. ولا شهرين.. ولا فى سنة.. وهو لا يريد منها ما كان يريده من النساء الأخريات.. إن عواطفه نحوها ليس فيها افتعال.. ليس فيها هذا الاستهتار. وهذه اللامبالاه.. إن فيها شيئا ثابتا مكينا يحس به فى صدره.

هل يحبها ؟

كيف يحبها وهو يحب زوجته ؟

لا يدرى.

إنه يحس أن زوجته هى الحياة..

وأن ليلى هى الفن.

إنه يجد فى زوجته كل ما لا يجده فى نفسه.. يجد فيها كل ما يحتاج إليه، ليعيش ويعمل، وينجح.

ويجد فى ليلى ما يجده فى نفسه.. يجد فيها الموهبة، ويجد فيها القلق، والحيرة، والشذوذ.. إنها قلقة مثله، شاذة مثله..

وتنبه فتحى وهو مستطرد فى ذكرياته وخواطره، إلى أنه يعزف لحن «بيتى» الذى وضعه يوم استأجر الشقة التى تضمه مع ليلى.

وتوقف عن العزف فجأة.. وخبط على مفاتيح البيانو، بأصابعه العشرة، كأنه يهدم البيت الذى بناه.. ثم انتفض واقفا، وخطا خطوات واسعة.. وخرج من الغرفة.. وخرج من البيت، دون أن يمر على زوجته.. وسار فى الطريق، وخطواته لا تزال واسعة، سريعة.. والحديث الطويل لا يزال يدور فى رأسه ويملأ صدره.

لماذا يربك حياته إلى هذا الحد.. لماذا يحاول أن يلتمس الاعذار لنفسه.. لماذا يضع نفسه فوق مستوى البشر، ويطالب لنفسه بحق ليس له؟ إنه لا يحب ليلى.. كل ما هنالك أنها دخلت حياته وهو فى السن الخطر.. إنه فى التاسعة والثلاثين، وهى فى الثامنة عشرة.. لقد جاءته كأنها تحمل إليه صباه، وشبابه.. فتعلق بهذا الصبا، وهذا الشباب.. واندفع معها فى تيارهما.. وقد كان سعيدا بعودة صباه وشبابه، لا بحبه لليلى.. ودفعه هذا الصبا والشباب المفتعلان إلى نشاطه الفنى، فسعد بانتاجه.. والفضل لها.. ليلى.. ولكنه لا يحبها.. ليس هذا هو الحب.. ليصارح نفسه بالحقيقة.. إن ما يحبه هو صباه وشبابه.. هو غروره الذى أثارته ليلى، فاقتنع بأنه لا يزال شابا.. ولكنه لا يحب ليلى.. ويجب أن يتركها.. يجب أن يضحى بغروره.. ويضحى بهذا الوهم الذى يعيش فيه.. الوهم الذى يصور له أنه لا يزال صبيا شابا.. يجب أن يتركها رحمة بها.. حتى لا يحطم حياتها على مذبح غروره وأنانيته وأوهامه.. سيتركها ويعيد الهدوء إلى حياتها، وحياته، وحياة زوجته.. سيتركها لأن هذا هو الحل الوحيد لكل هذا الارتباك الذى يعيش فيه.. سيتركها.

ووقع قدميه على الأرض يردد.. سأتركها.. سأتركها.

وسار طويلا.. ذاهلا.. عيناه الواسعتان يلمع بريقهما كأنهما عينا مجنون.. ثم وجد نفسه يقف أمام العمارة فى شارع شامبليون.. وصعد إلى الدور السادس.. وفتح باب الشقة.. ودخل.. وطاف بعينيه فوق الجدران الصامتة.. وخيل إليه أنه صمت تبلله الدموع.. صمت أشبه بالنشيج.

هل ذهبت ليلى.. ذهبت من حياته ؟

هل لن يراها ؟

الصبا.. والشباب.. والعينان الملونتان والحزينتان.. والضفيرة الذهبية.. والوجه النضر.. والحديث الذى لا ينتهى.. والقبلات.. والألحان.

لا.. لا.

إنه لا يطيق الحياة.

إنه لن ينقذ أحدا لو تركها.. سيحطم نفسه، ويحطم زوجته، ويحطم ليلى، لو تركها.

فلماذا يتركها ؟

إنها لم ترتكب جرما.

وهو لم يرتكب جرما.

لا.. لن يتركها.. لن يتركها.. إنها أكبر من الغرور. وأكبر من الأنانية، وأكبر من الصبا والشباب.. إنها نفسه.. إنها فنه.. إنها قلقه.. إنها حيرته.. إنها عمره كله تجمع فى إنسانة.

وخرج ملهوفا من الشقة.. ولم يستطع أن يقف فى انتظار المصعد، فنزل يعدو فوق السلم، ويقفز درجاته... وخرج إلى الشارع كالمجنون، يبحث عن تليفون..

سيحادثها، ويطمئنها إلى أنه لن يتركها.

ودخل دكان بقال على ناصية الشارع.. ورفع سماعة التليفون فى لهفة، وأدار الرقم.. وضغط السماعة على أذنه وهو يسمع صوت دقات الجرس فى بيت ليلى.

وأجابه صوت رجل.

لابد أنه أخو ليلى.. ربما كان أحمد أو ممدوح.

وظل رافعا السماعة برهة، ثم أعادها إلى مكانها وهو مذهول، كأنه اكتشف شيئا لم يكن يعرفه.

كأنه اكتشف أن ليلى لها أخ.

١٣

• الأم •

كان البيت يسوده الوجوم، ويجثم فوقه صمت ثقيل.. ولم يلحظ أحمد ولا ممدوح هذا الوجوم والصمت، وخرج كل منهما لتمضية سهرة المساء.. وتركا الأم جالسة فى غرفتها وحيدة.. وهى تزفر أنفاسها فى ضيق، وتفكر فى مشكلة ابنتها ليلى... وتبحث لها عن حل.. وهى تعلم أنه لا يكفى أن تسجن ابنتها وتراقبها حتى تنقذها من حب فتحى.. إن المشكلة ليست فى لقاء ليلى وفتحى.. ولكن المشكلة فى حبها له.. وهو حب يعيش فى داخلها سواء قابلته أو لم تقابله.. إن الحب يعيش فى السجن، كما يعيش فى الحرية.. بل إن السجن، قد يزيده تمكنا ونموا.. ثم انها لا تستطيع أن تسجن ابنتها أو تراقبها طوال العمر.. والحب يبقى طوال العمر.. وسينقضى شهر، وشهران، وتخف رقابتها على ابنتها.. فتعود إلى لقاء فتحى.

وتنهدت الأم، تنهيدة عميقة، كأنها تنفض عن قلبها وجومه.. ونظرت إلى السماء من خلال زجاج النافذة، لترى شريطا من ذكرياتها.

إن ابنتها تظن أنها لم تحب.. لقد قالت لها : إنه لم يكن على ايامها حب. لقد ظلمتها ابنتها.

إنها أحبت من وراء السجن.. ولكنه لم يكن سجنا من رقابة أهلها فحسب، وإنما كان سجنا من التقاليد والمبادىء التى ترسب فى أعماقها.

أحبت عبدالسلام.

وكانت فى السابعة عشرة من عمرها عندما رأته لأول مرة.. كانت جالسة فى حديقة قصرهم الكبير بشارع الفلكى، ومعها مربيتها السودانية.. عندما رأته يدخل وقد جاء لزيارة أخيها.. ونظرت إليه كأنها

ترى الشاطر حسن الذى طالما تخيلته فى طفولتها.. طويلا.. أسمر الوجه.. قوى القسمات.. عيناه واسعتان.. وشارب صغير فوق شفتيه.. ورآها وتوقفت خطواته برهة. ونظر إليها نظرة سريعة، وكادت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة.. ثم استمر فى طريقه إلى داخل القصر.

والتقطت نظرته بقلبها، ولمحت الابتسامة المختبئة وراء شفتيه، وظلت تتبعه بعينيها حتى غاب عنهما.. والتفتت إلى مربيتها تسألها :

- مين ده يا دادا صباح ؟

ونظرت إليها مربيتها فى حدة كأنها تلومها لأنها تسألها عن رجل، ثم قالت مزمجرة بلهجتها السودانية :

- إنت مالك.. بتسألى عنه ليه ؟

وقالت عنايات وهى ترشو مربيتها بابتسامة كبيرة.

- ياسلام يا دادا.. يعنى مش عايزانى أعرف مين بيدخل بيتنا.

ونظرت إليها مربيتها كأنها تحاول أن تثقب صدرها، ثم أرخت عينيها وقالت :

- ده سيدى عبدالسلام بيه.. ابن عبدالمجيد باشا وزير الزراعة.. صاحب سيدى عزت بيه قوى.

وقفزت ابتسامة كبيرة فوق شفتى عنايات.

وظلت مربيتها تنظر إليها فى إمعان.

ومن يومها وهى تنتظره فى حديقة القصر دائما.. وتمر أيام كثيرة ولا تراه.. ولكنها لا تيأس من انتظاره.. وبدأت عندما تراه، ترتبك، وتحمر وجنتاها، وتحس بقلبها يرتعش فى صدرها كأنه يهم بأن يطير إليه.. وبدأت نظرته إليها تبدو أكثر صراحة، وابتسامته تنطلق من خلف شفتيه.. ثم صارحت مربيتها بحبها.. إنه حب يملك كل خفقات قلبها.. وكل تفكيرها.. وكل يقظتها، ونومها.. ولم تستطع مربيتها أن تقاوم هذا الحب، فشاركت ربيبتها فى سرها.. ولم يعد لهما حديث إلا عن عبدالسلام.. وعرفت عنه كل شىء.. إنه فى الخامسة والعشرين من عمره.. طالب فى كلية الحقوق، ولكنه لا يهتم بدراسته.. وأمه وأبيه.. وأخوته.. وعائلته الكبيرة المنحدرة من الصعيد.. وقد سافر إلى عزبتهم يوم الخميس.. وعاد يوم السبت.. و.. و..

إلى أن جاءتها مربيتها يوما، وهى تلهث، وسلمتها خطابا.. إنه خطاب من عبدالسلام.. أول خطاب منه.. إنه يحبها.. ولا ينام.. ويتمنى ساعة لقاء.. وقرأت الخطاب عشرات المرات.. مئات المرات.. كانت تتنفس كلماته.. ولا ترى فى خيالها سوى حروفه.. وتنام وهو فى صدرها فوق قلبها.. ولكنها لم ترد عليه.. لا تدرى لماذا؟ ولكنها كانت مقتنعة بأنها لا ترد عليه.. إن البنات لا يكتبن خطابات للشبان.

وجاءها منه خطاب ثان.. إنه يرجوها أن ترد عليه.. كلمة واحدة حتى يطمئن.. ولم ترد عليه.. لا يزال جبل التقاليد يقف أمامها.. وخطاب ثالث.. وبدأ الجبل يهتز.. وقررت أن ترد عليه.

وابتسمت الأم، وهى تتذكر أول خطاب كتبته لعبد السلام.. لقد كتبته أكثر من ثلاثين مرة، وفى كل مرة تمزقه وتعود وتكتبه من جديد.. وكانت تكتبه فى الليل، بعد أن ينام كل من فى البيت، وتظل تنتقى كلماته حتى الصباح.. ثم يمر النهار وهى لا تزال تنتقى الكلمات فى خيالها، حتى يأتى الليل فتحاول أن تكتبها.. ثم تمزقها، وتعود تفكر فى انتقاء كلمات أخرى.

لقد كان هذا الخطاب أول مشكلة خطيرة فى حياتها تواجهها وحدها.. حتى لاحظت أمها امتقاع لونها من أثر السهر الطويل فعرضتها على طبيب.. ولم تكن تعانى شيئا إلا محاولة كتابة خطاب.

وتوالت الخطابات بينهما.. وكانت تكتب إليه دائما على ورق فى لون الورد الفاتح.. وكانت تحدد له مواعيد اللقاء.. لقاء من بعيد.. كانت تقول له أنها ستذهب مع عائلتها إلى مسرح رمسيس، فيذهب إلى هناك، وينتقى مقعدا، يظل يرقبها منه وترقبه فى نظرات مختلسة.. ولا يتعبان من اختلاس النظرات.. أو تقول له إنها ذاهبة مع أمها فى زيارة عائلية، فينتظرها فى سيارته عند منحنى الطريق.. حتى تمر أمامه فى سيارتها فيتبعها من بعيد.

هكذا كانا يلتقيان.. إلى أن جاءها يوما أخوها وأبلغها أن شقيقة عبدالسلام تريد زيارتها والتعرف إليها.. وخفق قلبها.. لقد اقتربت من أملها.. سيخطبها عبدالسلام.

وجاءت شقيقة عبدالسلام، واستقبلتها فى أبهى ثيابها، كأنها تعرض نفسها فى معرض الزواج، واستقبلتها معها أمها.. ثم انسحبت الأم،

وجلست الفتاتان وحدهما.. وقالت الشقيقة فى همس كأنها تبلغها سرا :

- ده أبيه عبدالسلام معجب بيكى جدا.. بيقول إنك أجمل واحدة شافها.

واحتقن وجه عنايات، ولم ترد.

صمتت صمتا حازما أحرج شقيقة عبدالسلام، وأشعرها بأنها خرجت عن حدودها.

ولم تدر عنايات لماذا صمتت هذا الصمت الحازم؟ لقد كان فيها شىء أقوى منها، ينتفض كلما طافت به ريح تمس التقاليد، أو تمس احترامها لنفسها.

وسكتت شقيقة عبدالسلام.. وربما انصرفت وقد حكمت على عنايات بالتزمت وثقل الدم.. ورغم ذلك فقد ردت لها عنايات الزيارة بصحبة مربيتها.. وحينما خرجت رأت عبدالسلام ينتظرها فى حديقة داره.. وأقبل عليها كأنه يهم بمصافحتها والتحدث إليها.. ولكنها أسرعت تتعثر فى حيائها وارتباكها، وأخفت نفسها داخل سيارتها.. وقلبها يلهث.. كل ما فيها يلهث.

لقد كان آخر ما تستطيع أن تصل إليه فى تحدى التقاليد، هو هذه الخطابات المتبادلة، ولقاء النظرات المختلسة.. وبعد ذلك، لا تستطيع.

وانقضت شهور.. وعنايات فى انتظار اليوم الموعود.. يوم يتقدم عبدالسلام لخطبتها.. وربما لم تكن هى وحدها التى تنتظر هذا اليوم.. كانت تنتظره معها مربيتها، بل إنها كانت تلمح ريح هذا الانتظار فى أحاديث أمها.

ثم.

ثم فجأة سافر عبدالسلام بصحبة أبيه إلى لندن.. وعاد الأب وحده.. وعرفت أن عبدالسلام قد التحق بجامعة اكسفورد وسيبقى فيها سنوات.

وتعذبت.

تعذبت عذابا كبيرا.. انكمش قلبها.. وظل ينكمش حتى مات.. ولم يبق فيه إلا تساؤلها.. لماذا لم يخطبها عبدالسلام.. لماذا.. لماذا.. ما هو السر ؟

وزوجوها بعد بضعة شهور لأب أولادها،، وهى لا تزال تتساءل : لماذا لم يخطبها عبدالسلام؟

وأقبلت على زوجها، بقلب ميت، وضمير حى.. إنها تعرف واجباتها جيدا نحو زوجها.. نحو أى رجل يمكن أن يكون زوجها.. وتعرف هذه الواجبات دون أن تحس بها.. تعرفها كأنها حفظتها صم من كتاب فى صدرها.

ولم تسعد بزوجها.

لم تسعد جسدا، ولا روحا.. إنها تعطيه حقه وتحاول أن تسعده به.. ولا تسأل عن حقها.. آلة معدة للزواج، تسير فى دقة وانتظام، دون أن تتعطل أو يصيبها خلل..

وكل ما كان يعتبر سرا فى حياتها، هو تتبعها لأنباء عبدالسلام.. لقد عاد بعد عام من سفره دون أن يتم دراسته.. ولكنه عاد انسانا آخر.. لقد أصبح متهورا.. مغرقا فى اللذه.. وكل يوم له فضيحة.. ونساء الطبقة الراقية يلتفون حوله.. ويرتمون عليه.. وهو يبعثر أمواله.. ومات أبوه، فأخذ يمزق ثروته تمزيقا.. والمجلات تنشر صورته.. وتتحدث عنه فى صفحات المجتمع.. إنه فتى مصر الأول، وأمل كل النساء.

ولكنه لم يتزوج.

وكانت عنايات تسمع بمغامراته مع بنات طبقتها، فتحس بوخز فى قلبها وكرامتها كوخز الدبابيس.. ولكن، كان يعزيها دائما أنه لم يتزوج.. لم يتزوج غيرها.. ولو أنه تزوج.. لمات كل ما بقى فيها من احساس بكيانها كإنسانة.

وهى لا تزال الزوجة التى تقوم بواجبها.. الآلة التى تدور بدقة ونظام.. وقد بدأت تشعر باحتقار لزوجها.. احتقاره لاحساسه بأنه من عائلة أقل من عائلتها، ومحاولته تغطية هذا النقص فى نفسه، بالاغراق فى المظاهر، ومحاولته الاستهانة بها، وأطلاق لسانه عليها.

وكان أولادها قد ملأوا عليها حياتها.. ومن أجل أولادها ابتلعت احتقارها لزوجها، حتى يشبوا فخورين به.. ولكن أولادها لم يشغلوها عن تساؤلها الذى لم يهفت أبدا.. لماذا لم يتزوجها عبدالسلام؟

مضى أكثر من خمسة وعشرين عاما وهى لا تزال تتساءل.. لا تزال تبحث عن السر.

ومات زوجها خلال ذلك.. مات وهى لا تزال فى السابعة والثلاثين من عمرها.. وتقدم أكثر من رجل ليتزوجها.. ولكنها رفضتهم جميعا.. رفضتهم دون أن تتساءل عن أسباب رفضها.. ثم جاءها ابن عمها يخطبها من اخيها.. وألح كثيرا.. وكان يتردد عليها فى البيت كابن عم، ويبذل لها ولأولادها خدماته.. وألح عليها أخوها كى تتزوجه.. وبدأت تتساءل : هل يجب أن تتزوج ؟

وقبل أن تجد الجواب.. جاء ابن عمها لزيارتهم، وانحنى يقبل ممدوح، فنفر منه وهرب من أمامه.. وبدأت تلاحظ أن أولادها كلهم ينفرون منه.. وأحمد بالذات يهرب منه، لا يكاد يراه حتى يختفى فى غرفته ويغلق على نفسه الباب.. هل عرف الأولاد أنه يريد أن يتزوجها؟ أم أنهم لم يعرفوا، ولكن فى الأولاد.. فى كل الأولاد.. حاسة سادسة تجعلهم يكشفون كل من يحاول أن يتزوج أمهم.

ورفضت أن تتزوج ابن عمها.. ليس من أجل أولادها فحسب، ولكن لأن تجربتها فى الزواج، لا تشجعها على أن تقدم على تجربة أخرى.. ثم أنها ليست فى حاجة إلى الزواج.

وعاشت لأولادها.

ليس فى حياتها من سر إلا أنها لا تزال تتبع أنباء عبدالسلام وتتساءل: لماذا لم يتزوجها ؟

إنه حبها الوحيد.

إنه الخفقة الوحيدة لقلبها.

إنه الذكرى الوحيدة فى حياتها، التى تبدد ركود عواطفها.

وبعد ثمانى سنوات من وفاة زوجها، عاد إليها عبدالسلام.

عاد كما دخل حياتها لأول مرة.. فى صحبة أخيها.

أنه عجوز الآن.. فى الثالثة والخمسين.. ولكنه لا يزال أنيقا.. وسيما.. حلو الشخصية.. وقد أنهكه قليلا الافراط فى حياته.. وخفف من اعتداده بنفسه إنه بدد معظم ثروته. وعندما نظرت فى عينيه، رأت نفس النظرة التى

التقطتها أول مرة، ورأت الابتسامة المختفية خلف شفتيه.

وخفق قلبها، كأنه أفاق من نومة أهل الكهف.

وأحست كأنها لا تزال صبية واقفة فى حديقة قصرهم الكبير بشارع الفلكى، ودماؤها تكسو وجنتيها بلون الورد.

لقد عاد إليها عبدالسلام.

عاد بعد هذا العمر الطويل.

عاد، وهو لم يتزوجها بعد.

عاد ليخطبها.

ولم يحدثها عن الزواج فى زيارته الأولى.. ولكنها تستطيع أن تلمح دعوة الزواج فى اختياره لمواضيع حديثة.. وفى كلمات متناثرة تكشف عن قلبه.. وهى تريد أن تسمعه يطلبها للزواج.. حتى لو لم تتزوجه.. فقط تريد أن يطلبها للزواج، كأنها تريد أن تسترد شيئا فقد منها.. ربما كرامتها المجروحة ربما أملها الضائع، ربما هزيمة قلبها.. تريد أن تشعر بالانتصار.. انتصار حبها الوحيد.

وتكررت زيارة عبدالسلام، وأخوها دائما معه.

ثم جاء يوما وقدم لها صندوقا كبيرا من الشيكولاتة.. ولم تكن أول هدية من هذه الهدايا الصغيرة، التى يحملها إليها.. وقال لها وهو يقدمها لها :

– الشيكولاتة دى لك انتى مش للأولاد.. لكى انتى بس.. إنتى اللى تفتحيها، وانتى اللى تاكليها كلها لوحدك..

وابتسمت.. اعتبرتها مداعبة.

وانصرف عبدالسلام مع أخيها.. وحملت صندوق الشيكولاتة ودخلت إلى غرفتها وفتحته.. واتسعت عيناها فى نظرة مبهورة.. فيها دهشة، وفيها فرحة، وفيها دموع.

ليس فى الصندوق شيكولاتة.

إن فيه مجموعة من الخطابات الوردية اللون، مربوطة فى شريط ازرق.. خطابات قديمة.. ولكنها لا تزال محتفظة بلونها.. لا تزال تنبض بالحياة..

ومع الخطابات ورقة مطوية، فتحتها، ورأت فيها خط عبدالسلام.. إنها لم تنس شكل حروفه.. وقد كتب لها جملة واحدة : «إنى لا أردها إليك.. إنى محتفظ بها فى قلبى».

وأغرورقت عيناها بالدموع.

وفتحت الخطاب الأول الذى كتبته له.. وقرأت تاريخه.. إنه نفس تاريخ اليوم منذ ستة وعشرين عاما.

لقد أهداها خطاباتها فى ذكرى أول خطاب كتبته له.

وانهمرت الدموع من عينيها.. ومسحتها بكم ثوبها، كأنها طفلة صغيرة.. ثم تنبهت إلى نفسها وقامت وأقفلت الباب، وعادت تقرأ خطاباتها.. ولم تكن تقرأها، كانت ترى من خلالها.. كانت ترى صباها.. وترى قصرهم الكبير فى شارع الفلكى.. وترى أمها وأباها.. وترى دادا صباح.. وترى سيارتهم البويك الكبيرة التى كانت تركبها.. وترى ثيابها التى كانت ترتديها.. وترى ضفيرتها التى كانت تتدلى فوق ظهرها.. وترى عبدالسلام فى شبابه.. وترى نظرته وابتسامته.. و.. ودموعها تنهمر فى صمت فوق وجنتيها.

لقد كان أكثر اخلاصا منها.. لقد احتفظت بخطاباتها، أما هى فقد أحرقت خطاباته بعد أن سافر إلى لندن.. وتزوجت.. ولكنه لم يتزوج.. ربما لم يتزوج حتى يظل محتفظا بهذه الخطابات.. حتى يظل محتفظا بحبها.. ولكن.. لماذا لم يتزوجها.. لماذا تركها وسافر.. لماذا ياربى ؟

واستمرت تقرأ خطاباتها الواحد بعد الآخر.. والدموع لا تكف عن عينيها.. ثم أمسكت بالخطاب الأخير.. إنه ليس فى لون الورد.. إنه خطاب ازرق.. والخط على الظرف ليس خطها.. إنه خط عبدالسلام.. والخطاب ليس باسمها.. إنه باسم والد عبدالسلام.. عبدالمجيد باشا والى.

وارتعشت يدها.

أحست أنها تقترب من السر، الذى حيرها ستة وعشرين عاما.

وفتحت الخطاب بيد مرتعشة، وقرأته بعينين مرتعشتين :

«والدى العزيز.

«أقبل يدك الكريمة، وأرجو أن تكون متمتعا بالصحة والعافية، وأطمئنك على أنى مجد فى دروسى وبإذن الله ستسمع عنى قريبا ما يسرك، وما يشملنى برضائك عنى .

«وبعد يا والدى العزيز.. فقد أبلغتنى شقيقتى أن الآنسة عنايات كريمة

رأفت باشا راجى، قد خطبت.. وقد كان أملى دائما أن أطلب منك أن تخطبها لى.. فهى فتاة كاملة ومثال للخلق الكريم والأصل العريق.. ولولا سفرنا المفاجىء لتمنيت عليك هذه الأمنية.. ووالدتى وشقيقتاى يعلمان منذ مدة برغبتى فى الزواج بها.. ولذلك فإنى استحلفك بكل عزيز لديك، وبحياتى وحياة شقيقتى أن تتقدم إلى والدها لتخطبها لى، وأن تبذل الجهد لتفسخ خطبتها التى أعلنت.. وبمجرد أن تأمرنى سأعود إلى مصر لنعقد القران، ثم نسافر أنا وهى - إذا وافق أهلها - إلى انجلترا لأكمل دراستى.. أو أن نعقد القران وننتظر إلى حين اتمام الدراسة.. أو أى شىء تراه يا والدى العزيز.. فـ..»

ولم تتم قراءة الخطاب.

سقطت فوق فراشها، تجهش بالبكاء، وهى تنتفض كأن دموعها تخنقها.

لقد أراد أن يتزوجها.

حاول أن يتزوجها.

ولكن ماذا حدث؟ ربما رفض أبوه أن يتدخل لفسخ خطبتها.. ربما أراد لابنه أن يتم تعليمه قبل أن يتزوج.. أو ربما رفض والدها - دون أن تعلم - أن ينكص عن وعده ويفسخ خطبتها.. أو..

المهم أنه أراد وحاول أن يتزوجها.

وعادت تجهش بالبكاء.

١٤ فبراير سنة ١٩٢١.

بعد تاريخ عقد قرانها بخمسة عشر يوما.

خمسة عشر يوما فقط.. وفاتها قطار الحب.. قطار السعادة.

ورفعت رأسها، ونظرت فى الخطاب مرة ثانية.. وقرأت تاريخه.

وحكم عليها أن تتعذب ستة وعشرين عاما مع رجل لا تحبه ولا تطيقه.. وحكم على عبدالسلام أن يعيش عزبا، وحيدا.. يمزق شبابه وأعصابه وثروته، بحثا عن السلوى.

وتذكرت كل يوم فى هذه الستة والعشرين عاما.. كلها أيام حرمان وجفاف.. جسد لا يحس، وقلب لا ينبض.. وأنفاس زوجها تملأ خياشيمها.. وتكاد تخنقها.. كل ذلك لأن خطاب عبدالسلام إلى أبيه قد تأخر خمسة عشر يوما.

وعادت تبكى.. وتشد شعرها، وتضرب الفراش بقدميها.. كأنها فتاة فى السابعة عشرة.. تبكى حظها.

وأذابت الدموع الآلة التى تدور بانتظام.. أحست أنها أصبحت انسانة.. قلبها يخفق.. ودماؤها نشطة فى عروقها.. كأنها استردت الحياة.

وتلقاها عبدالسلام فى التليفون، صباح اليوم التالى.. وأحست وهى فى الخامسة والأربعين، بارتباك وخفر فتاة الخامسة عشرة.

إنه يحاول أن يعيد كل ذكرياتهما.. وهى تبخل عليه وعلى نفسها بأن تنساق معه فى نهر الذكريات.. إن الجبل لا يزال يقف بينه وبينها.. جبل التقاليد والمبادىء التى غرستها فى صدرها أمها ومربيتها صباح.

وهو يريد أن يتزوجها.

إنه يطلبها من نفسها.. فتتردد، وتسوف.. فيطلبها من أخيها.. ولكنها لا تستطيع أن تبدى رأيا.

هل تستطيع أن تتزوجه بعد أن أصبحت فى الخامسة والأربعين، وهو فى الثالثة والخمسين.. ثم تسترد كل ما فاتها.. تعوض الحرمان والجفاف الذى عاشت فيه.

وأبناؤها ؟

إن الحاسة السادسة قد تحركت فيهم.. وأحسوا أن عبدالسلام يريد أن يأخذ منها أمهم.. فكرهوه ونفروا منه.. وقد حاول كثيرا أن يكسب حبهم.. وحاولت هى أكثر أن تجعلهم يرحبون به.. إنها دائما تحدثهم عنه، حديثا طيبا.. ودائما تطلعهم على مدى المساعدات التى يقدمها لها فى تدبير املاكها.

ولكن لا أمل.. إنه لا يكاد يدخل البيت، حتى يتفرقوا عنه.. ويقذفوه بنظرات كأنها الصفعات.

هل تفتح لهم صندوق ذكرياتها، وتقول لهم أن عبدالسلام هو حبها الوحيد فى حياتها.. لعلهم يفهمونها، ويرحمونها، ويسمحون لها بزواجه.

لا.. إنها لا تستطيع.

إن الأم فى نظر أبنائها، شىء أكبر من الحب.. أكبر من حب رجل وامرأة.. إن كل ابن لا يستطيع أن يتصور أمه تحب رجلاً وتجمعها به

ذكريات غرام، حتى لو كان هذا الرجل هو أباه .

وسكتت عنايات هانم على حبها.. من أجل أبنائها .

وليس بينها وبين عبد السلام، سوى أحاديث تليفونية متفرقة، تدور معظمها حول إدارة أملاكها، وشئون أولادها.. فقد عودته بحزمها أن يغلق صندوق الذكريات فى صدره.. ولا يفتحه إلا عندما يجدان طريقا للزواج.. وليس بينهما سوى هذه الزيارات المتباعدة التى يشترك فيها دائما أخوها وهى بين الحين والحين تحدث أولادها عنه، وترفع عينيها إلى ابنها أحمد، كأنها تتوسل إليه أن يكشف سرها.. ويعوضها عما فاتها من حبها .

●●●

واستردت الأم نظرتها الموجهة إلى السماء، وأفاقت من ذكرياتها، وهى تتنهد.. وتنهدها يحرق شفتيها.. ورغم ذلك فابنتها تعتقد أنها لم تحب.. وأنه لم يكن هناك حب على أيامها !!

وابتسمت ابتسامة ساخرة.. كأنها تسخر بها من كل بنات هذا الجيل.. ثم مسحت ابتسامتها، واحتدت النظرات فى عينيها.. وعادت تفكر فى مشكلة ليلى .

إنها لا تؤمن بأن ليلى تحب فتحى .

لابد أن ليلى واهمة .

مجرد وهم .

إن الحب أرقى من أن يخطىء.. أن الحب من طبيعته أن ينأى عن الجريمة.. وحب رجل متزوج، هو جريمة، وليس حبا .

ولكن من يدرى.. ربما كانت تحبه حقا .

وربما كان حظ ابنتها فى الحب كحظها.. حب كتب عليه ألا يواجه الناس.. ولكن هناك فرقاً بينها وبين ابنتها.. إنها لم تحب رجلا متزوجا.. ثم أنها قوية، وابنتها ليلى ضعيفة.. ضعيفة فى عواطفها.. ضعيفة امام نفسها.

وهى.. ما سر قوتها ؟

سر قوتها أنها تؤمن بمجموعة من المبادىء.. قد تكون مبادىء قاسية.. قد تكون مبادىء جافة تحرمها من متعة الحياة ولكن هذه المبادىء تحميها

من نفسها.. وتحدد أمامها الطريق بوضوح.. طريق السلامة.. طريق مشمس تستطيع أن ترى خلاله اين هى، وإلى أين تسير ؟
وسر ضعف ابنتها أنها لا تحتمى بمبادىء .. وربما كان الذنب ذنبها هى .. ذنبها كأم .. فهى لم تحاول أن تضع فى صدر ابنتها المبادئ التى نشأت عليها.. أو لم تستطع..

فالمبادئ ليست مجرد كلمات، إنها طريقة للحياة.. إن الدين لا يكتفى بأن يوصى الناس بالخير، بل يضع لهم طريقة حياتهم.. والتقاليد ليست مجرد وصايا، إنها أيضا طريقة للحياة.. المبادىء ليست فقط إيمانا، إنها مظهر.. ولكن.. هل كانت تستطيع أن تنشىء بناتها على نفس طريقة الحياة التى نشأت عليها.. هل كانت تستطيع أن تجبرهم على ألا يخرجوا من البيت إلا فى صحبة المربية أو فى صحبتها.. هل كانت تستطيع أن تحرمهن من الالتحاق بالجامعة.. هل كانت تستطيع أن تفرض عليهن ألا يحادثن رجلا غريبا.. هل.. هل ؟ إن الزمن تغير.. وقد احتارت كأم أمام تغير الزمن.. لم تستطع أن تلحق به.. لم تستطع أن تطبق عليه تقاليدها التى نشأت عليها.. ولم تستقر على تقاليد جديدة تواجه بها زمنا جديدا.. كل ما استطاعته أن اجتهدت.. طبقت ما وصل إليه ذكاؤها.. سمحت لبناتها بأن يلتحقن بالجامعة رغم أن أخاها لم يسمح لبناته بأن يلتحقن بها.. وهى ليست واثقة من أن أخاها على صواب، ولكنها أيضا ليست واثقة من أنها لم تخطىء فى القرار الذى اتخذته. لقد أدخلت بناتها الجامعة، وهى تجازف.. كأنها تلقى بهن وسط البحر ، ثم تركع على شاطىء وتبتهل إلى الله أن ينقذهن.

وليلى أكثرهن ضعفا فى عواطفها من أخواتها.. ربما لأنها أصغرهن.. وربما لأن أباها دللها كثيرا، ثم مات وهى صغيرة.. تركها وهى فى حاجة إلى حنانه الذى عودها عليه.. حنان لم تستطع هى كأم أن تعوضها عنه.. ولا استطاع أخواتها أن يعوضوها عنه.. فراحت تبحث عنه فى أوهامها.. ثم ألبست فتحى هذه الأوهام.. فأحبته.. أحبته لأنها وجدت فيه قطعة من أبيها.. قطعة من اهتمام أبيها بها.

إن الأم الذكية تستطيع أن تقدر كل ذلك.. وربما كانت على صواب فى تقديرها، وربما كانت على خطأ.

المهم.

كيف تحمى ابنتها من ضعفها ؟

وتنهدت الأم.. ثم اكتسى وجهها بلون الحزم.

ليس هناك إلا وسيلة واحدة لحماية ابنتها.

أن تتزوج.

إنها فى الثامنة عشرة.. ودراستها للموسيقى ليس لها مستقبل.. والزواج كان دائما حماية للبنات من ضعفهن.. إن الزواج هو الحصن الذى يضع فيه الأهل بناتهم، ليحتمين فيه من الزمن.

تتزوج من ؟

أى زوج لائق.. وقد تقدم لها أكثر من زوج منذ بلغت السادسة عشرة.. ولكن الأم كانت ترفضهم دون أن تناقشهم.. كانت ترفض مبدأ زواج ابنتها.. وكانت تأمل أن تنتظر إلى أن تنتهى أختها من دراستهما.. ثم تزوجها.. ولكن.. لقد تغير الآن كل شىء.. ويجب أن تتزوج ليلى..

ولكن ربما شقيت فى زواجها.

وأمها شقيت أيضا فى زواجها، ولكنها نجحت فيه.. نجحت فى تكوين عائلة وتنشئة أولادها.. وكان هذا النجاح تخفيفا لشقائها.. إن الزواج حياة، بكل ما فى الحياة من كد، وتعب، وعرق، ودموع.. إن الزواج عمل.. بناء.. والذين يبنون يشقون، ولا يسعدون إلا فى النهاية.. عندما يتم البناء.. وستشقى ليلى.. ربما.. ولكنها ستسعد، تمر بها الأيام، وتجد أولادها حولها، وتجد بناء عائلة قد اقامته بيديها.

وقامت الأم من جلستها، وقرارها الحاسم يملأ رأسها، وخرجت من غرفتها لتطوف بأنحاء البيت فى جولة كل مساء.

ووقفت أمام باب غرفة بناتها.. والباب مغلق.. وهى تعلم أن ليلى بداخلها.. وهمت أن تفتح الباب.. ولكنها عدلت.. وسارت إلى البهو الخارجى.. ثم دخلت إلى غرفة المكتب.. وكانت فيفى ونبيلة، جالستين، كل منهما على أحد طرفى المكتب.. وأمام كل منهما كتاب مفتوح.. وعلى

وجهيهما وجوم حزين.. وكانت الأم قد أطلعتهما على قصة أختيهما ليلى.. قصة حبها لفتحى.. وطلبت منهما أن يساعدها، على مراقبتها، وتخليصها من هذا الحب.

وقالت الأم دون أن تعلق على وجود ابنتيها :

- مش تقوموا تتعشوا يا بنات ؟

وقالت نبيلة :

- كمان شوية يا ماما.

وقالت فيفى والسخط يملأ وجهها :

- أنا مش حاتعشى..

وقالت الأم ترد عليها :

- لازم تتعشى.. صحتك أهم من المذاكرة.

ولم ترد فيفى.

وهمت الأم أن تنسحب من الغرفة، فقالت نبيلة كأنها تتوسل إليها :

- حقك تدخلى لليلى يا ماما.. دى مابطلتش عياط من الصبح.

وترددت الأم قليلا، ثم قالت وهى تحاول أن تخفى حنانها وقلبها الملتاع وراء لهجتها الجادة :

- خليها تعيط.. العياط يريحها.

وقالت نبيلة :

- حرام عليكى يا ماما.. مش كدة مرة واحدة.. لازم نكون معاها حنينين.. مانفهمهاش إنها مجرمة.. بعدين تعمل فى نفسها حاجة.

وقالت فيفى :

- دى عايزة قطع رقبتها.

وقالت نبيلة :

- لو كنتى حاسة باللى فى قلبها، ماكنتيش قلتى كدة..

وقالت الأم :

- بلاش السيرة دى.. ياتذاكروا، ياتقوموا تتعشوا.

وسكتت البنتان.. وكل منهما تحس بما فى قلب أمها من عذاب.

وخرجت الأم.. وسارت متجهة إلى غرفتها.. ومرت أمام غرفة البنات..

وعادت تقف أمام الباب المغلق.. ثم مدت يدها فى حزم كأنها تقطع ترددها، وأدارت أكرة الباب، ودخلت.

وكانت ليلى راقدة فوق سريرها، ووجهها مختبىء فى وسادتها.. وقالت الأم فى حنان :

- ليلى.. كفاية بأة يا حبيبتى.

قومى ياللا اغسلى وشك، واتعشى مع اخواتك.

واستدارت ليلى إلى أمها، وعيناها تبرقان فى ثورة، وقالت فى حدة :

- مش غاسلة وشى.. ومش حاتعشى.. تفتكرى لما حاغسل وشى حانسى اللى انا فيه.. ولا لما حاتعشى حياتى حاتنصلح.. إنتى نسيتى انتى قلتى لى ايه.. قلتى انى مجرمة.. خلاص، حاريحك من بنتك المجرمة.. مش حاتشوفوا وشى تانى.. حاموت نفسى.

وقالت الأم وهى تجذب أنفاسها من أعماقها، لتستعين بها على ابنتها :

- بلاش الكلام ده يا ليلى.. اللى حصل خلاص حصل.. المهم اللى جاى.. ماحدش حايجيب لك سيرة اللى فات.. المهم إنك ماتعمليش فى نفسك كدة.. شوفى عينيكى بقت حمر ازاى.

وقالت ليلى وهى تعود وتدفن رأسها فى وسادتها:

- ياريتنى اتعمى.

وصمتت الأم، كأنها تتمتم فى صدرها «بعد الشر».. ثم انحنت وقبلت ابنتها فوق رأسها.. وخرجت من الغرفة صامتة ودموع تكاد تنهمر من عينيها.. وأغلقت الباب من ورائها.

وسمعت فيفى ونبيلة صوت الباب وهو يقفل.. ونظرت احداهما إلى الأخرى فى صمت.. ثم طوت نبيلة كتابها فجأة، وهبت واقفة.. ورفعت فيفى إليها رأسها وقالت :

- رايحة فين ؟

وقالت نبيلة وهى تخرج من الغرفة :

- حاتمشى.

واتجهت إلى غرفة الطعام، ووقفت تنظر إلى أطباق الطعام المرصوصة فوق المائدة، وأحست أن معدتها تنقبض.. وتنقبض.. حتى تصبح كالبالونة

الفارغة من الهواء.. فخرجت بسرعة واتجهت إلى غرفتها.. ومدت يدها تفتح الباب، ووضعت ابتسامة فوق شفتيها.. ثم دخلت وهى تقول فى مرح :

- ست ياللى بتعيطى.. فاضل كام لتر.

ولم ترد عليها ليلى.. ووجهها مختبىء فى طيات وسادتها.. واقتربت منها نبيلة وقالت وهى تحاول أن تضحك :

- الحمد لله.. كنت فاكرة إنك بتعيطى.. أتاريكى نايمة وشبعانة نوم.. بأة ده حب ده.. نفسى فى شوية حب ينومونى.

وقالت ليلى وهى تدير رأسها الناحية الأخرى:

- ابعدى عنى.. من فضلك ماتكلمنيش.

وقالت نبيلة وهى لا تزال تدعى المرح :

- هو أنا حابعد عنك أبدا.. استنى لما ألبس قميص النوم وحاتلاقينى جنبك فى السرير.

ووقفت نبيلة أمام المرآة تخلع ثيابها، وترتدى قميص النوم، وهى تقول :

- تعرفى أنا اللى مجننى ايه.. انك قدرتى تخبى علىّ كل المدة دى.. بأه أنا اللى بقول لك على كل حاجة.. مافيش حاجة بينى وبين محمود ماتعرفيهاش.. تخبى علىّ.

وقالت ليلى بين دموعها :

- اصلى كنت عارفة لو قلت لك، حاتقولى لى ايه ؟

وقالت نبيلة :

- كنت حاأقول لك ايه ؟

قالت ليلى :

- كنتى حاتقولى انه متجوز.

وانتهت نبيلة من ارتداء قميص النوم، وقالت وهى تقفز فوق السرير، وتدخل تحت الغطاء بجانب أختها :

- أهى دى تزعل أكتر.. كونك تخبى علىّ مش حاجة.. أما كونه متجوز آهى دى حاجة كبيرة.

وقالت ليلى :

- أعمل ايه .. بختى كدة .. وأحب أقول لك إن لو ماما حبستنى زى

ما بتقول حاعمل أى حاجة.. حاهرب.. حاموت نفسى.. حانتحر.
وقالت نبيلة وهى تلف ذراعها حول ظهر أختها :
– خليكى عاقلة.. ماما لو حبستك يوم، ولا اتنين، مش حاتقدر تحبسك العمر كله.
وقالت ليلى كأنها تكمل حديثها دون أن تسمع حديث أختها :
– ولازم أشوفه بكرة.. لازم أقول له على كل اللى حصل.
وقالت نبيلة فى هدوء :
– أنا أقول له..
ورفعت ليلى رأسها وقالت وهى تنظر إلى أختها كأنها وجدت فيها قارب النجاة :
– صحيح والنبى يا بلبل.
وقالت نبيلة وهى تبتسم لأختها فى حنان :
– صحيح.. أصلى قررت بعد ما أتخرج أشتغل فى مصلحة البريد.
وابتسمت ليلى ابتسامة حزينة، ثم اعتدلت جالسة فوق السرير، وقالت فى اهتمام :
– تضربى له تليفون بكرة، وتخليه ييجى يقابلك، وقولى له إن...
وفتح الباب.. ودخلت فيفى.. وسكتت ليلى، وهى تنظر إلى نبيلة كأنها تستمهلها لفرصة أخرى.
وقالت فيفى وهى تحاول أن تبدو فى دور الأخت الكبرى.. وجهها متجهم، وصوتها حازم :
– مش تنامى بأه.
وقالت ليلى فى صوت ضعيف وهى تحاول أن تتجنب لسان أختها السليط.
– مش جاى لى نوم.
وقالت فيفى وهى تستدير ناحية دولابها وتبدأ فى خلع ثيابها وارتداء قميص النوم :
– احنا اللى مش حاييجى لنا نوم.. أنا، ونبيلة، وماما.. الغلطة اللى

غلطتها مش غلطتك لوحدك.. دى غلطتنا كلنا.. والمصيبة مش مصيبتك.. دى مصيبتنا كلنا.

وقالت ليلى فى حدة كأنها قررت أن تتحدى أختها :

- أنا ماغلطتش.. والمصيبة انتم اللى عاملينها.

والتفتت إليها فيفى فى حدة، وقالت كأنها تحاول أن تصفعها :

-واللى تحب واحد متجوز.. تبقى اسمها ايه دى..

وصرخت ليلى :

- ايه اللى متجوز.. متجوز.. ذنبه ايه إذا كان متجوز.. وذنبى ايه إذا كان متجوز.. ذنبنا ايه، فهمونى.. ايه الفرق بين أنى أحب واحد متجوز، ولا أحب واحد مايرضاش يتجوزنى.. ما نبيلة بتحب واحد وبقى له سنتين مش عايز يتجوزها.. وانتى بتحبى واحد ماحدش عارف حكايته، إنما لسة ماتجوزكيش.. أنا باحب واحد مش حاتجوزه لأن عنده عذر.. وإنتم بتحبوا شبان مش حايتجوزوكم، من غير عذر.. يبقى مين أحسن!

وانكمشت نبيلة بجانب أختها، وقد كسا الألم وجهها، كأنها تلقت سكينا فى قلبها.

وصرخت فيفى ترد على صراخ اختها :

أنا ما بحبش حد.. وأحب أقولك أن فيه واحد بيحبنى، وطلب يتجوزنى، وأنا رفضت.

وردت ليلى بسرعة وأنفاسها لا تزال تتهدج :

- شاطرة.

ثم التفتت إلى اختها نبيلة.. ورأت الألم على وجهها فخففت حدتها، وتنبهت إلى أنها جرحت أحساسها وعواطفها.

وقالت فى صوت خفيض :

- أنا آسفة يا بلبل.. ماكانش قصدى.. أصل فيفى كلامها زى...

وقاطعتها نبيلة وبين شفتيها ابتسامة مسكينة :

- مش مهم.. المهم دلوقت انتى.

وقالت فيفى وهى تخطو لترقد فى فراشها :

- لو كان بايدى.. كنت قطعت رقبتك.

وقالت نبيلة فى لهجة جادة :

- بس يا فيفى.. كفاية بأه.. خلينا ننام.

وعادت فيفى تقول كأنها تحادث نفسها :

- والراجل العجوز السافل.. يضحك على عقل البنت.. آدى اللى خدناه من البيانو.. ياما قلتلكم، إن البيانو ده حايخسر البنت.. ياما.

وعادت ليلى تصرخ :

- أنا ماخسرتش.. وأحب أقول لك إنه ما ضحكش علىّ.. إذا كان فيه حد ضحك على التانى.. أبقى أنا اللى ضحكت عليه.. أنا اللى حبيته قبل ما يحبنى.. وحافضل أحبه لغاية ما أموت.

ثم بدأت تبكى من جديد.

وصرخت نبيلة :

- فيفى.. اعملى معروف بلاش تتكلمى خالص.

ثم انحنت على ليلى وقالت فى حنان :

- خلاص يا ليلى.. يعنى مش عارفة فيفى ولسانها.

وساد الصمت بين البنات الثلاث.. صمت يمزقه نشيج ليلى.

وقامت نبيلة، ونزلت من فوق السرير، قائلة :

- تسمحوا أطفى النور.

ولم تنتظر أن تسمع ردا.. أطفأت النور.. وعادت ترقد بجانب أختها ليلى.

ولم يتكلم أحد.

وفى رأس كل منهن حديث، وضجيج.. ولم تكن هذه الأحاديث تدور حول ليلى.. إن فيفى تفكر فى الأستاذ أمين عبدالسيد.. لقد احتفظت بوعده لها.. إنه لم يعد يغازلها، ولم يعد يلاحقها.. سكت عنها.. وسكنت الضجة التى كانت تثار حولها بين طلبة كلية العلوم.. ورغم ذلك فهى ليست سعيدة.. إنها تشعر بحنين إلى مغازلته وملاحقته لها.. وتشعر بحنين إلى الضجة وإلى الاشاعات التى كانت تثور حولها. إنها تحس كأنها خسرت شيئا كبيرا.. خسرت عرشاً أقامه لها أمين عبدالسيد من حبه.. وتحس كأن زميلاتها شامتات فيها.. شامتات لأنها نزلت عن عرشها.. لأنها خسرت

حب أمين.. ولعلهن يقلن الآن عنها، أنها فتاة كقشرة جافة، قبيحة، لا يحتمل حبها رجل.. لماذا صدت أمين عنها.. لماذا تنازلت عن عرشها.. لماذا لا تكون كبقية البنات.. لها رجل يغازلها.. ويثير حولها الهمسات والاشاعات.. إنها تريد.. تريد.. ولكنها لا تستطيع.. شىء فى نفسها يحرمها من أن تكون بنتا كبقية البنات.. يحرمها من الانطلاق.. من السعادة.. من الحياة.. ولكن.. إنها لا تزال ترى الحب فى عينيه يطل من خلف زجاج نظارته السميكة.. وقد حاولت أن تعيده إليها.. نعم، إنها تعترف بينها وبين نفسها أنها حاولت.. لقد ابتسمت له مرات كثيرة.. ابتسامات حائرة مترددة، كانت تحتاج إلى كل شجاعتها لتضعها فوق شفتيها.. وذهبت بقدميها دون أن يستدعيها.. وأحست يومها أنها ترتكب خطيئة.. كأنها ذاهبة إليه فى موعد غرام.. وقد استقبلها استقبالا رسميا.. وعاملها كما يعامل كل استاذ احدى الطالبات.. ولكن الحب كان يطل من عينيه.. أنه لا يستطيع أن ينكر أنه لا يزال يحبها.. أو هى واهمة.. ربما لم يكن فى عينيه شىء، سوى أوهامها تنعكس فيهما.. ثم.. لو أنه يحبها، وعاد إلى مغازلتها، والالحاح عليها أن تتزوجه.. فهل تقبل؟ هل هى تحبه؟ أم أنها فقط تريد ملاحقته لها حتى ترضى غرورها.. حتى تعود إلى عرشها، وتعود من حولها الهمسات والاشاعات التى تقنعها بأنها فتاة مرغوبة.. فتاة يريدها رجل.

إنها حائرة.. وحيرتها تحرك عقدها النفسية.. تحرك إحساسها بأنها أقل أخواتا جمالا وأن لها اسما تكرهه.. مفيدة !

ونبيلة راقدة بجانب أختها، وفى قلبها نار.. إن حبيبها محمود لم يحدثها عن الزواج.. لقد طلبت منه ألا يحدثها عن الزواج إلا إذا بدأته هى بالحديث عنه.. ولكنها لا تدرى كيف تثبت له أنها تقبله زوجا فقيرا لا يملك سوى مرتب لا يزيد على خمسة عشر جنيها فى الشهر.. كيف تحرره من احساسه بفقره.. كيف تبث فى نفسه الشجاعة على اقتحام الحياة بجانبها؟.. زوجا وزوجة، يكافحان فى سبيل حياة أفضل.. وكيف تنسيه أنها من أسرة غنية.. وأنها من طبقة أرقى من طبقته.. إنها لا تدرى.. وهى نادمة لأنها طلبت من محمود ألا يحدثها عن الزواج.. إن حديثه كان

يكشف لها عن عقده، فكانت تستطيع أن تحلها له. ثم أنها نسيت أنها لن تستطيع أبدا أن تبدأه بالحديث عن الزواج.. إن كل البنات أعجز من أن يطلبن من الشبان الزواج.. قد يطلبن الحب.. وقد يبدأن بالمغازلة.. ولكنهن لا يجرؤن على طلب الزواج.. إنما الطلب يجب أن يأتى دائما من جانب الشاب.. لماذا؟ إنها لا تدرى.. وربما كان هذا هو السبب فى أن النساء يسمين : الجنس الضعيف.. لأنهن يضعفن عن المطالبة بالزواج صراحة.. وهى لا تزال تقابل محمود كل يوم.. لا تزال تسير معه طويلا على شاطىء النيل.. ويركبان الترام إلى الهرم.. ولكنها تحس أن الأيام تمر سراعا.. والامتحان يقترب.. وسينجح محمود ويتخرج فى الكلية،، ويعود إلى بلده، وقد يعين مدرسا فى احدى مدارس الارياف.. ولن تعود تقابله.. وقد يكتب إليها.. ولكنها لن تقابله كل يوم.. وقد يحاول أن ينسى حبها، فيتزوج واحدة من بنات بلدهم.. فلاحة تفرح به وتعتبره أغنى رجل فى الدنيا، كما يقول.. وأحست بأنها تحسد كل البنات الفلاحات.. لأنهن فقيرات.. ولأنهن يستطعن أن يتزوجن محمود، دون أن يشعرنه بنقصه.. بأنه فقير.

وتقلبت ليلى على جنبها لتواجه أختها نبيلة، وقالت فى صوت هامس خفيض وقد كفت عن النشيج :

- انتى نمتى يا بلبل ؟

- وقالت نبيلة هامسة مثلها :

- لأ.

وعادت ليلى تقول وهى تخفض صوتها أكثر :

- حاتقابلى فتحى، زى ما وعدتينى.

قالت نبيلة :

- ايوة.

وهمست ليلى :

- قولى له على كل اللى حصل.. وقولى له إنى ضرورى حلاقى طريقة أتصل بيه..

وهمست نبيلة :

- حاضر.

وعادت ليلى تهمس.

- بس إوعى تتخانقى معاه.

وهمست نبيلة :

- لا.

وصاحت فيفى من السرير الآخر :

- بتتوشوشوا على ايه ؟

وقالت نبيلة بسرعة :

- ولا حاجة.

وساد الصمت مرة أخرى.

وفجأة قالت ليلى كأنها تفكر بصوت مرتفع :

- أنا اللى محيرنى.. ماما عرفت ازاى ؟

وقالت فيفى :

- واحدة ضربت لها تليفون، وقالت لها على كل حاجة.

وقفزت ليلى جالسة فى فراشها، وقالت فى دهشة :

- واحدة!! مين؟!

وقالت فيفى كأنها تتعمد جرح أختها :

- لازم مراته.. طنط عواطف.

وقالت نبيلة بسرعة كأنها تحمى أختها :

- لو كانت طنط عواطف هى اللى اتكلمت، كانت ماما عرفت صوتها.

وقالت فيفى :

- أنا مش عارفة حانودى وشنا فين من طنط عواطف، دى لو كانت عرفت يبقى من حقها تدبحنا كلنا وتشنع علينا فى كل حتة.

ولم يرد عليها أحد.

وسقط رأس ليلى فوق وسادتها كأنما أغمى عليها..

وعاد الصمت.

وجاء صباح جديد.

ودبت الحياة فى البيت.. محمد السفرجى يعد مائدة الافطار.. وسفرجى أصغر منه يكنس البهو الخارجى.. والأم تطوف بالحجرات تلقى

أوامرها، وتطمئن إلى أن الحياة تسير.. وأبناؤها يتزاحمون بين الحمام وغرفهم.. وليلى لا تزال راقدة فى فراشها.

وأطل ممدوح على غرفة اخوته البنات، أنه دائما أول من ينتهى من ارتداء ثيابه.. وقال فى مرح :

- صباح الخير يا بنات.

وقالت نبيلة وهى تقف أمام المرآة تمشط شعرها :

- يسعد صباحك.

وقالت فيفى دون أن ترد عليه :

- اسمع يا ممدوح.. لما تبقى تيجى بالليل تبقى تسكت صوت الفسبا بتاعتك قبل ما تدخل البيت.. ده صوتها بيصحى الحتة كلها.

وابتسمت ليلى له ابتسامة ضعيفة.. وقالت فى صوت لا يكاد يسمع :

- صباح الخير.

ونظر ممدوح فى وجوه اخوته البنات، ولاحظ آثار السهر الطويل فى عيونهن المنفخة، وفى وجوههن المنهوكة.. وربما لاحظ آثار دموع.. ثم عاد يبتسم، وقال فى مرح :

- أنا لما باشوفكم باحمد ربنا على انكم اخواتى.. على الأقل ضامن انى مش حاتجوز واحدة منكم.

وابتسمت الثلاث.. ابتسامات لم تستطع لضعفها أن تبدد الجو الثقيل الذى يحيط بهن.. وقالت فيفى :

- وهو فيه واحدة ترضى تتجوزك.. كفاية عليك الفسبا.

وقالت ليلى فى حنان وهى تبتسم كأنها تخفى مصيبتها خلف ابتسامتها :

- انت لو ماكنتش أخويا، كنت اتجوزتك.

وقال ممدوح ضاحكا :

- أصلك خايبة.

وانسحب من الغرفة.. والبنات الثلاث ينظرن إليه، كأنهن يحسدنه.. يحسدنه لأنه ولد.. كأن الأولاد ليست لهم مشاكل.

والتقى ممدوح فى الممر الذى يفصل بين الحجرات، بأخيه أحمد

خارجا من غرفته وهو فى البيجامة.. وقال وهو لا يزال محتفظا بمرحه :

- صباح الخير يا أخويا.

وقال أحمد :

- انت اللى يشوفك بتقوم بدرى كده.. وتلبس بدرى.. يتهيأ له أنك طالب مجد جدا.

وقال ممدوح فى ثقة :

- أنا مجد صحيح.. بس ماتقدرش تقول علىّ طالب.

وقال أحمد يبتسم ساخرا :

- بقالك أد ايه مزوغ من الجامعة.

وقال ممدوح :

- كتير.. تعالى.. حاوريك حاجة أهم من الجامعة.

ثم جذب اخاه فى رفق، ودخل به إلى غرفته، ثم التقط من فوق مكتبه الصغير كتالوجا ملونا مما توزعه الشركات الأجنبية من إعلانات عن منتجاتها، ومرسوم على غلافه صورة آلة كبيرة.

وقال ممدوح، وهو يشير إلى صورة الآلة :

- تعرف دى ايه يا أحمد؟

وقال أحمد وهو يطل فى الصورة :

- ايه ؟

قال ممدوح كأنه يتحدث عن أجمل شىء فى الدنيا :

- دى مخرطة.. ده منجم ذهب.. ده المشروع الجديد.. مشروع بحق وحقيق.. كمان يومين حاأقول لك على كل حاجة.. إنما ابتدى حوش من دلوقت.

وأشاح أحمد بوجهه عن الصورة، وهو يقلب شفتيه استهجانا.. ثم التقط من فوق المكتب كتابا ضخما، وهزه أمام عينى ممدوح قائلا :

- تعرف ده اسمه ايه.. اسمه القانون المدنى.. ده المشروع الوحيد اللى لازم تنجح فيه.. وبعد ما تاخذ الليسانس ابقى فكر فى المشاريع بتاعتك زى ما يعجبك.

وظهرت خيبة الأمل على وجه ممدوح وقال كأنه يتنهد :

- لو كان على الليسانس.. ماليش نفس آخده.

ونظر إليه أحمد نظرة كبيرة.. وأدار له ظهره وخرج.. وممدوح ينظر وراءه نظرة رثاء.

ومر أحمد على اخوته البنات، يحييهن تحية الصباح، وينظر فى وجوههن كأنه يحاول أن يعرفهن أكثر.. ثم دخل على أمه فى غرفتها، وقال وهو واقف عند الباب :

- صباح الخير يا ماما.

وقالت الأم :

- صباح الخير يا حبيبى.. قبل ماتنزل ابقى فوت علىّ.

وقال :

- حاضر.

ثم انسحب إلى الحمام، وخرج إلى غرفته يرتدى ثيابه دون عجلة.. وسمع صوت «الفسبا» فى حديقة الدار، وقد أدارها ممدوح، وخرج بها.. ثم سمع صوت فيفى ونبيلة تخرجان.. وخيل إليه أن كلا من أخوته يخرج من البيت ويذهب إلى دنيا مجهولة.. دنيا لا يعرفها.. أنه لا يدرى أين يذهب ممدوح أو فيفى أو نبيلة؟ حتى لو كان يعلم أنهم يذهبون إلى الجامعة، وحتى لو كانوا يذهبون إليها فعلا.. فليس المهم هو المكان الذى يذهبون إليه، ولكن المهم هو الافكار التى يذهبون إليها.. الحياة التى يذهبون إليها.. وهو يجهل هذه الأفكار، وهذه الحياة..

وانتهى من ارتداء ثيابه.. ثم ذهب إلى أمه، وجلس أمامها على «الشيزلونج» وهى جالسة فى مقعدها تشرب فنجان القهوة.. وقالت وهى تحيطه بابتسامة كبيرة :

- سألت صاحبك على الأسهم والسندات ؟

وقال أحمد وهو يدارى كذبه بابتسامة مرتعشة :

- والله لسة ماردش علىّ.

وقالت الأم :

- أصل عبدالسلام بيه بيقول إن عنده مشترى كويس للعمارة.. وإنه يقدر يبيعها بستين الف جنيه.. إنما أنا مش عايزة أبيع إلا لما أعرف حاشترى ايه.

وقال أحمد وهو يتنحنح :

- بلاش نستعجل يا ماما.. وأنا اللى أعرفه أن الاسهم مش مضمونة اليومين دول.

وقالت الأم :

- ما أنا مش عايزة استعجل.. بس لازم نرسى على رأى.. وأنا مستنية رأيك..

وقال أحمد وهو يزفر.. كأن مجرد ابداء رأيه فى أى موضوع عبء ثقيل يزهق أنفاسه.

- حاضر.. حافوت على صاحبى وأسأله النهاردة.

ثم قام وخرج.. وهو يعلم أنه ليس له صديق يسأله..

وخلا البيت إلا من الأم وليلى.

وليلى لا تزال راقدة فى فراشها ساهمة.

وقامت الأم وذهبت إليها، وقالت وهى واقفة عند الباب :

- صباح الخير يا ليلى.

ورفعت ليلى عينيها إلى أمها، ثم عادت وخفضتهما، وهى تتمتم فى صوت ضعيف :

- صباح الخير.

وعادت الأم تقول :

- مش تقومى تغسلى وشك.. وتلبسى.

وقالت ليلى :

- حاضر.

وظلت الأم واقفة، وقالت كأنها مصممة على أن تغسل ابنتها وجهها :

- ياللا يا حبيبتى.. قومى.

وقامت ليلى فى استسلام.. وهى لا تزال ساهمة.. وذهبت إلى الحمام واغتسلت دون أن تحس بوقع الماء على وجهها.. ثم عادت ووقفت أمام المرآة ترتدى ثوبا بسيطا.. وتضفر شعرها.. وترى وجهها فى المرآة وسط ضباب كثيف.. ضباب يدور حول بعضه كدوامة تبتلعها.. ولكنها ليست خائفة من هذا الضباب.. إنها تحس فى داخل نفسها بجرأة عاصفة..

بتحد.. إنها مستعدة أن تتحدى كل هذا الضباب فتصل إلى حبيبها.

وعادت الأم وقالت وهى واقفة عند الباب :

- مش حاتفطرى.

وقالت ليلى وهى لا تنظر إليها :

- ماليش نفس.

وقالت الأم :

- معلهش.. أنا عملت لك ساندويتش جبنة.. واشربى معاه فنجال الشاى.

وقالت ليلى :

- حاضر.

وخرجت من غرفتها إلى غرفة المائدة.. إنها لا تريد أن تعارض أمها ولا تريد اليوم - على الأقل - أن تلح عليها لتسمح لها بالخروج.. إن رأسها يدور ليضع خطة أوسع من ذلك.. خطة كبيرة.. خطيرة.

ورشفت رشفتين من فنجال الشاى.. وقضمت لقمة من السندويتش.. ثم عادت إلى غرفتها، وأقفلت الباب وراءها.. وجلست على حافة السرير تفكر.. كل عصب من أعصابها يفكر.. كأن عشرات البنات يعشن فى داخلها ويفكرن معها.

ثم تعبت من التفكير، إنها تريد أن تسمع شيئا عن فتحى.. تحس كأنه غاب عنها سنينا، رغم أنها كانت معه أمس.. وقد وعدتها أختها نبيلة بأن تعود إليها بسرعة بعد أن تقابله.. ولكن نبيلة تأخرت.. وربما لن تستطيع أن تقابله.. ربما كانت تكذب عليها لمجرد أن تخفف عنها.

وقامت وفتحت دولابها، وأخرجت كيس نقودها الصغير، ثم اخرجت من الكيس مفتاح الشقة.. ونظرت إليه طويلا.. وابتسمت، كأنها احست أن فتحى بيدها.. أحست أنها بهذا المفتاح تستطيع أن تفتح كل الأبواب التى توصلها لفتحى.. واحتضنت المفتاح فى كفها.. وعادت تجلس على حافة السرير ساهمة.

ثم فجأة، قامت وأعادت المفتاح داخل الكيس.. وأعادت الكيس داخل الدولاب.. ثم خرجت من غرفتها تبحث عن التليفون.

أن التليفون فى غرفة أمها..

ودخلت إلى غرفة أمها، وقالت لها فى ثبات :

- أقدر أكلم صاحبتى عيشة فى التليفون، علشان أقول لها إنى مش حاروح المعهد النهاردة..

ونظرت إليها أمها نظرة نافذة، ثم قالت بعد برهة :

- كلميها.

وانحنت ليلى والتقطت التليفون الموضوع على الأرض بجانب قدمى أمها، وحملته وجلست على حافة فراش الأم.. فى الجانب الآخر من الغرفة.. ثم وضعته فوق ساقيها، بحيث لا تستطيع الأم أن ترى قرص الأرقام.

وأدارت رقما.

رقم بيت فتحى.

وسمعت صوته.

وقالت وهى ترفع صوتها حتى يطغى على صوت فتحى المنبعث من السماعة :

- آلو.. من فضلك أقدر أكلم عيشة.

وقال فتحى فى فرحة :

- ليلى.. انتى فين.. امبارح.

وقاطعته ليلى قائلة :

- قولى لها.. ليلى.

وقال فتحى :

- فيه حد جنبك ؟

وسكتت ليلى قليلا، ثم قالت :

- ازيك يا شوشو.. عاملة ايه.. متهيألى إنك مانمتيش.. طول الليل قاعدة تتمرنى.

وقال فتحى :

- ايه الحكاية يا ليلى.. أنا مش فاهم حاجة.

وعبثت ليلى فى شعرها، والتقطت من بين طياته مشبكا، أوقعته على

الأرض، ثم انحنت ترفعه، وقالت هامسة، وهى منحنية فوق الأرض، وظهرها لأمها :

- وطى صوتك شوية.

ثم رفعت صوتها وقالت :

- لا والله يا شوشو.. أصلى النهاردة مش حاأقدر أروح المعهد.. تعبانة شوية.. ابقى اعتذرى للأستاذ.

وقال فتحى هامسا :

- أنا لازم أشوفك.. بأى شكل.. لازم أشوفك.

وعادت ليلى تقول :

- مرسيه يا شوشو.. على كل حال حابقى أكلمك بعدين.. أوريفوار.

ووضعت سماعة التليفون.

وشدت نفسا عميقا من صدرها.

ثم قامت وأعادت التليفون إلى مكانه تحت قدمى أمها، دون أن تنظر إليها.

وخرجت من الغرفة.

وأمها تنظر إليها نظرات نافذة متعجبة.. والقرار الذى اتخذته يملأ رأسها.. يجب أن تتزوج ليلى.

١٤

خرج أحمد من البيت فى الساعة السابعة والنصف مساء وهو يرتدى أزهى ثيابه.. حلة زرقاء غامقة، وقميصا أبيض شفافا، ورباط عنق رماديا.. وقد اهتم أكثر من عادته بتصفيف شعره، وحلق ذقنه مرة ثانية، بعد أن كان قد حلقها فى الصباح..

وكان قد وقف أمام المرآة يعتنى بنفسه كل هذا الاعتناء، وهو يسائل نفسه : لماذا.. لماذا يهتم بنفسه أكثر من كل يوم؟ إنه مدعو لأول مرة إلى حفلة راقصة تقيمها شهيرة وشقيقها فى بيتها.. فهل هذا سبب كاف ليتزين أكثر من عادته.. لماذا؟ هل يحاول أن يخدع شهيرة ومدعويها.. هل الحلة الزرقاء تعطيه شخصية جديدة أكثر تأثيرا فى الناس؟ ولماذا اتفق الناس على أن يرتدوا الحلل الغامقة فى الليل، خصوصا فى الحفلات، ويرتدوا الحلل الفاتحة فى النهار؟.. وإذا كان هذا هو ما اتفق عليه الناس، فلماذا يخضع لما اتفقوا عليه؟ إن المجتمع لا يكتفى بأن يفرض على الأفراد المبادئ والقيم الخلقية، بل يفرض عليهم أيضا ذوقه.. يفرض عليهم ذوقه فى اختيار الثياب.. وذوقه فى انتقاء الطعام.. الأفراد فى مصر يشتهون طعاما غير الذى يشتهيه الأفراد فى السودان لأن ذوق المجتمع فى مصر يختلف عن ذوق المجتمع فى السودان..

إن المجتمع فى كل مكان ديكتاتور عنيد، طاغ، يحيل الأفراد إلى قطيع.. إلى مجموعة من طوابع البريد، كلها فى حجم واحد، ولون واحد، وصورة واحدة، وكل منها تحمل ختم المجتمع الذى تنتمى إليه.. وهو يريد أن يتحرر من المجتمع.. يريد أن يثور على هذا الديكتاتور العنيد.. فلماذا

لا يذهب إلى حفلة شهيرة وهو مرتد القميص والبنطلون مثلا.. بل، لماذا لا يذهب وهو مرتد البيجاما.. أليس هذا من حقه ؟!

وكان يحدث نفسه كل هذا الحديث، وهو مستمر فى الاعتناء بنفسه أمام المرآة، مدفوعا بقوة أكبر من منطقه، وأكبر من ثورته.. قوة المجتمع.

وانتهى من ارتداء الحلة الزرقاء، ونظر إلى نفسه فى المرآة.. إنه فعلا وجيه.. والحلة الزرقاء تبرز شبابه، وتضفى عليه ظلا أنيقا.. ربما كان المجتمع على حق عندما اختار الألوان الغامقة لقضاء السهرات.. وابتسم فى المرآة كأنه يهنئ نفسه.

ثم خرج من البيت فى خطوات قوية مرحة.. ولكنه ما كاد يخطو فى الشارع، حتى عاوده انقباض صدره.. وأحس بتفاهته.. أحس بالخوف من الحفلة التى سيذهب إليها.. الخوف من مواجهة الناس.. إنه سيكون هناك واحدا من كثيرين. كلهم يرتدون حللا زرقاء.. كلهم فى مثل اناقته ووجاهته.. لن يتميز عنهم فى شىء.. ولن يستطيع أن يلفت الانظار إليه.. لن يحس به أحد.. لن ينجح فى ابراز شخصيته.. إن النجاح فى الحفلات يحتاج إلى نوع من اللباقة، ونوع من الجرأة.. وهو يعلم أنه ليس لبقا، وليس جريئا.

وكانت شهيرة قد عرفته بشقيقها فى النادى، وعرفته بكثيرين من صديقاتها وأصدقائها.. عرفته بهم بلا تعمد، وفى مناسبات متفرقة.. وكان يحرج ويتضايق كلما قدمته إلى صديقة أو صديق.. كان يحس كأنها تلقى عليه أعباء جديدة، ثقيلة.. وكان يحس كلما اكتشف صديقة أو صديقا لشهيرة، أن الدنيا قد تعقدت حوله أكثر.. وأن شهيرة قد بعدت عنه خطوة.. بعدت وسط زحام كبير من الناس.. وكان يتمنى أن تخلو الدنيا إلا منهما.. هى وهو وحدهما تحت ظل الشجرة الكبيرة القائمة وسط ملعب الجولف. يتبادلان حديثهما الناعم الرقيق.. حديثا لا يجمعه موضوع، ولا ينساق لهدف.. حديث كخفقات القلب، ليس له هدف إلا استمرار الحياة.. حديث كالزهور البرية، لا أحد يزرعها، ولا أحد يختارها، ولكنها تنمو كالنجوم الملونة فوق القلوب الخصبة.

ورغم ذلك فقد كان عليه أن يحتمل المجتمع الذى يحيط بشهيرة.. إنه لا يستطيع أن يهرب من هذا المجتمع إلا إذا هرب من شهيرة.. وهو لا يريد

أن يهرب منها.. لقد أصبحت غذاء روحه.. أصبحت الشيء الوحيد الذى يحس أنه له.. له وحده.. إنه لا يملك أمه، ولا يملك أخوته.. ولكنه يملك شهيرة.. يملكها بروحه.. ولم تتعد هذه الملكية روحه.. إنه لم يأخذ منها شيئا منذ قابلها.. لم يقبلها.. بل لم يتصارحا بالحب.. ولم يفرض عليها حقا.. كانت قبلاتهما نظرات فى الهواء.. وحبهما حديثا يطويهما.. وحقه هو ما تعطيه له شهيرة.. هى التى تحادثه فى التليفون.. وهى التى تطلب منه أن يحادثها، وهى التى دعته مرتين للذهاب معها إلى السينما بصحبة شقيقها وشلة من أصدقائها وصديقاتها.. و.. والباقى كان يأخذه فى أحلامه.. فى خياله كان يضمها إلى صدره فى حلمه.. ويقبلها.. ويبوح لها بحبه.. ويعرض عليها الزواج.. كل ذلك فى الحلم.. فى الخيال.. فإذا ما التقى بها لم يبق من أحلامه وخياله سوى نظرات تخفق بحبه وبالأمل الكبير.

وكان يعلم أنه يترك نفسه ينقاد لشهيرة.. ويترك شخصيتها تسيطر عليه.. ولكنه لم يقاوم.. ولم يتمرد.. فهو يعلم أيضا أن شهيرة هى أول انسانة التقى بها وفهمته.. إنها لم تخدع بقامته الطويلة، وصدره العريض، وقناع الجد والوقار الذى يكسو به وجهه.. ولكنها اكتشفت قلقه، وحيرته، وتردده، ونفسه الضائعة.. فأخذت تعينه فى لمسات خفيفة، دون أن تبدو كأنها تعينه.. وهو فى حاجة إلى إعانتها.. فى حاجة لأن يجدها دائما بجانبه.

وتعوّد أن يجلس مع أصدقاء وصديقات شهيرة فى النادى، فقط عندما تكون جالسة معهم.. كأنه لا يستطيع أن يواجههم وحده.. وكان يجلس صامتا وقورا، لا يشترك فى أحاديثهم إلا بكلمات متفرقة.. وتعودوا منه هذا الصمت، واقتنعوا بوقاره الكاذب.. ولم ينفروا منه أو يكرهوه، بل قبلوه بينهم وأحبوه كإنسان طيب، لا يؤذى، ولا يضايق أحدا، حتى وإن لم يفدهم بشىء.. وكان يجلس بينهم وهو يخفى وراء صمته وقاره، احساسه بتفاهته، وعدم قدرته على مسايرتهم فى مرحهم وضحكاتهم.. وكان يحس بالضيق. كأنه يكرههم جميعا.. إنه يفضل أن يجلس بعيدا عنهم ويرقبهم كعادته، وكأنه يتفرج على دنيا غريبة ليست دنياه.. ولكنه عندما يجلس بينهم لا يستطيع أن يكتفى بالتفرج عليهم، لأنه يشعر بأنه مطالب بأكثر من

الفرجة.. مطالب بأن يشاركهم الحديث.. وأن يبادلهم النكات.. و.. أنهم جميعا بعيدون عنه.. ليس بينهم صديق.. حتى صديقة مدحت لم يعد صديقه منذ رآه ورأسه بجانب رأس شهيرة.. ولم يعد يعجب بجرأته ولباقته ونجاحه.. بل أصبح يغار منه.. يغار من جرأته ومن لباقته ونجاحه.. وكلما رآه وهو يجذب إليه اهتمام من حوله.. اهتمام البنات، واهتمام شهيرة، أحس بقلبه يتلوى فى صدره.. ويبتسم ابتسامة بلهاء سائلة، ليس لها معنى إلا أنه يحاول أن يدارى بها غيرته.

وكانت شهيرة وحدها هى التى تحس بضيق أحمد عندما يجلس بين صديقاتها وأصدقائها.. وكانت أحيانا تشفق عليه، فتنظر إليه وتبتسم فى حنان، وتقول فجأة :

– قوم نتمشى شوية يا أحمد !

وكان وجهه يحمر، كأنها كشفت سره، وكأنها فضحته أمام الناس.. ولكنه كان يقوم معها، ولا يكاد يبتعد عن الشلة، حتى يتنهد فى راحة كأنه يزفر دخانا ثقيلا يجثم على صدره.. ولكن شهيرة لم تكن تشفق عليه دائما، فكانت تضطره أغلب الأحيان أن يجلس مع شلتها، كأنها تدربه على أن يكون إنسانا اجتماعيا، وكأنها تروض نفسه الشاردة على مخالطة الناس.

وكل ما كان يعانيه أحمد من مخالطة أصدقاء شهيرة، لم يكن يقاس بما يعانيه أمام أخيها هشام.. إن هشام فى التاسعة عشرة من عمره.. فى عمر أخيه ممدوح.. رقيق منطلق كممدوح.. وقد عرفته به شهيرة عندما التقيا معه صدفة فى النادى.. ونظر أحمد فى عينى هشام نظرة خاطفة، كأنه كان ينتظر أن يراه غاضبا.. ثائرا.. لأنه رأى أخته فى صحبة شاب آخر.. وربما كان ينتظر أن يصفعه هشام أو يصفع أخته شهيرة أو يصرخ فى وجهها.. ولكن هشام لم يفعل شيئا من ذلك.. إنه يبتسم لأحمد ابتسامة خالصة صادقة كالنور.. ثم يحادث أخته فى لهجة طبيعية ليس فيها أثر للغضب أو للاحتداد، كأنه لا يأخذ عليها شيئا.. كأنها إنسانة كاملة من حقها أن تختار أصدقاءها وتقدمهم إلى عائلاتها.. الوحيد الذى ارتبك هو أحمد.. واشتد ارتباكه إلى حد أن ازدرد وجهه، وتلعثم فى كلامه.. ونظر إليه هشام

فى دهشة كأنه لا يفهم سببا لارتباكه وتلعثمه.

ويومها ترك أحمد شهيرة وهو يقارن بين نفسه، وبين أخيها هشام.. إن أحمد ثار وتعذب عندما رأى اخته نبيلة تسير ويدها فى يد شاب لا يعرفه، وقرر أن يخاصمها، وعاش معها فى بيت واحد وهو لا يحادثها. وكل ما يحاوله هو أن ينساها.. وهشام لم يثر عندما رأى أخته تحادث شابا غريبا.. بل صافح هذا الشاب ورحب به بابتسامة كبيرة.

أيهما أرقى عاطفة ؟!

أيهما على حق ؟!

إنه لا يدرى.. ولكنه عندما عاد إلى بيته يومها، ابتسم فى وجه اخته نبيلة، كأنه يهديها قطعة من الدنيا الجديدة التى اكتشفها فى نادى الجزيرة.

وظل أحمد لا يستطيع أن يحدد علاقته بهشام.. كان يحاول كثيرا أن يبدو أمامه طبيعيا، وأن يحس نحوه احساسا صافيا لا يشوبه الارتباك.. ولكن كان فى نفسه دائما احساس بأنه يعتدى على حق من حقوق هشام.. كأنه يسرق منه شيئا كأنه يخدعه.. ولم يكن يدرى ماذا سرق، ولا فيم يخدعه؟ إنه يحب أخته.. حبا نظيفا بريئا، لا يمكن أن يكون فيه اعتداء على حق، أو سرقة، أو خداع.. ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن يتخلص من هذا الاحساس.. لا يستطيع أن يتصور أن هشام لا يغضب إذا اكتشف أن هناك شابا يحب أخته.. كما ثار هو عندما اكتشف أن هناك شابا يحب نبيلة.

وسار أحمد حتى خرج إلى الشارع العمومى.. ووضع نفسه فى سيارة أجرة.. وأعطى السائق العنوان :

– شارع مظهر يا أسطى.. الزمالك !

ثم انكمش فى ركن السيارة، وإحساسه بالتفاهة يزداد دقيقة بعد دقيقة.

إنها المرة الأولى التى يدعى فيها إلى بيت شهيرة.. والمرة الأولى التى يدعى فيها إلى حفلة راقصة خاصة.. وهو يعرف كل المدعوين.. إنهم أصدقاء شهيرة وهشام من أعضاء النادى.. وأصدقاء وصديقات هشام ليسوا جميعا من أصدقاء شهيرة.. إنها تعرفهم.. ولكنهم ليسوا

أصدقاءها.. فهى تنأى بنفسها عن الكثيرين من بنات وشبان النادى، وعن الكثيرين من أصدقاء وصديقات أخيها هشام.

ووقفت السيارة أمام باب «فيلا» أنيقة فى شارع مظهر.. ونقد السائق أجره.. وكان سخيا معه فترك له باقى ورقة من ذات الخمسة والعشرين قرشا، ولكنه لم يشعر بسخائه.. كل ما أحس به أن أعصابه لا تستطيع أن تحتمل محاسبة السائق، أو انتظار أن يعيد له باقى النقود، فترك له الورقة ذات الخمسة والعشرين قرشا، ودخل.

وسار فى الحديقة.

ووقف أمام الباب، ومد يده وأصلح رباط عنقه، ثم ضغط بأصبعه على الجرس.. ثم تنبه إلى أنه أصلح وضع رباط عنقه.. لماذا؟ إنه ليس داخلا إلى مقابلة وزير، أو مقابلة رئيسه.. ومد يده مرة ثانية فى تحد، وشد رباط عنقه، وأماله إلى ناحية، ليبدو مهملا.. ثم فك أزرار سترته، حتى يبدو كأنه لا يتعمد الاعتناء بنفسه.

وفتح الباب خادم نوبى يرتدى زيا خاصا.. كالذى يرتديه الخدم فى الفنادق الكبرى.. سروالا أحمر واسعا، مطرزا بخيوط الذهب، وسترته حمراء مطرزة.. وعمامة بيضاء.

وخطا إلى الداخل.. ورأى شهيرة مقبلة عليه، وهى تصيح :

- كده تتأخر يا أحمد.. أنا مش موصياك تيجى الساعة سبعة.. دول كلهم جم.. أنت آخر واحد.

وابتسم أحمد، ولم يرد، وقد تعلقت عيناه بها فى نظرة مبهورة.. إنها جميلة.. لم يرها أبدا بهذا الجمال.. وثوبها أبيض، كثوب ملاك، معلق فى كتفيها بحمالتين رفيعتين، ويكشف عن ذراعيها، وعنقها، ومساحة كبيرة من ظهرها.

ووضعت شهيرة كلتا يديها فى يديه.. وقالت فى دلال وهى تنظر فى عينيه المبهورتين :

- حلوة ؟

وقال أحمد كأنه يتنهد :

- قوى !

وتركت يديه، ثم دارت حول نفسها أمامه تعرض عليه ثوبها، وقالت :

- عاجبك الفستان الجديد ؟

قال وهو يبتلع ريقه :

- قوى !!

قالت وهى تصلح له وضع رباط عنقه ثم تجذبه من يده :

- طيب تعال.. فيه جوة حلوين كتير، وفساتين تجنن!

وسار معها أحمد وهو يتلفت حوله.. إن الاثاث حوله فخم أنيق.. وأكثر من ذلك.. إنه أثاث حى، كل قطعة فيه تنطق بالحياة.. أما أثاث بيتهم فليس فيه حياة.. إنه أثاث يشعرك بأن رب البيت قد مات.. وكل قطعة منه تنطق بالذكرى.. ذكرى أشياء ذهبت.. أبوه الذى ذهب.. وعزهم الذى ذهب.. وتقاليدهم التى ذهبت.. أشياء ذهبت ولم تحل محلها أشياء جديدة.

ووجد نفسه فجأة فى بهو كبير مزدحم.. وجوه التقى بها فى النادى، ووجوه لم يلتق بها.. وكلها وجوه شابة، مرحة منطلقة.. وأنغام راقصة عنيفة تنطلق من «البيك آب» الكبير.. و «بار» صغير، أقيم فى الركن البعيد.. ووقفت خلفه جرمين.. والقى نظرة خاطفة على جرمين.. الفتاة الحلوة الصغيرة القد التى يحس كلما رآها أنه يريد أن يأكلها.. إنها لا تحرك عواطفه ولا تثير احترامه.. ليست كشهيرة.. ولكنه يريد كلما رآها - وهو لم يرها أبدا إلا من بعيد - أن يأكلها.

وشريف يرفع له يده ويصيح :

- هاى أحمد..

ورفع أحمد يده فى تردد، وتمتم فى صوت لم يسمعه أحد :

- هاى.

ثم عاد يتلفت حواليه وهو يسير بجانب شهيرة.. إن منى ترقص مع هشام.. وهو يضمها إلى صدره بعنف، كأنه يحاول أن يخبئها فى ثيابه - ونونت ترقص مع عمرو.. وزيزى ترقص مع فايد.. وعصام وخيرى وفايز ملتفون حول البار.. و.. و.. وصخب كبير.. وضجة.. وضحكات.. وكل من يراه منهم يحييه من بعيد، تحية منطلقة صارخة، ثم يعود إلى ما كان فيه من ضجيج.. وهو يبتسم ابتسامة ذاهلة، كأنه لا يصدقه عينيه.. لا يصدق

أن فى الدنيا كل هذا المرح، والضجيج.

وقالت شهيرة وهى تهز يده كأنها تنفض عنه ذهوله :

– أجيب لك ايه ؟

قال وقد عاد ينظر إليها كأنه قرر أن يستغنى بها عن كل ما حوله :

– أى حاجة.

قالت وهى تقلد لهجة الجرسونات :

– فيه لمون، وبرتقال، وكوكاكولا، وبيرة.. وأخويا مخبى قزازة ويسكى فى دولاب البار !

قال وهو يقلد لهجة الزبائن :

– واحد لمون.

وقالت شهيرة :

– لأ.. يا تاخد بيرة يا وسكى.

وقال ضاحكا :

– طيب واحد.

وقبل أن يتم كلامه جاء عصام وجذب شهيرة من يدها، وهو يقول مرحا:

– مش معقول يا شوشت تسيبينى من غير رقص.

ثم نظر إلى أحمد قائلا :

– تسمح يا أحمد.

ودون أن يتكلم أحمد ودون أن تبدى شهيرة رأيها، جذبها عصام ولف ذراعه حولها.. وأخذ يراقصها.. وأحمد واقف ينظر إليهما كالعبيط.. ثم تنبه فجأة ووجد نفسه وحيدا.. تائها.. وحيدا تائها وسط هذا الزحام.. وحيدا تائها لأن شهيرة ابتعدت عنه.

وسار يزحف بقدميه كأنه يبحث عن طريقه.. ثم انضم إلى شلة من البنات والأولاد ملتفين حول بعضهم البعض، ويتوسطهم مدحت.. انضم إليهم مترددا وهو لا يدرى كيف يحييهم؟ هل يقول «بونسوار».. أو «هاللو».. أو «هاى» أو «ازيكم»؟

وابتسموا جميعا فى وجهه قبل أن يحييهم، ثم عادوا بانتباههم كله

يستمعون لمدحت وهو يروى لهم تفاصيل رحلته الأخيرة إلى البحر الأحمر.. واستمع معهم فترة.. ثم بدأ يضيق بمدحت.. بدأت غيرته منه تتحرك.. إن مدحت يستطيع دائما أن يجد حكاية يرويها.. ويستطيع دائما أن يستحوذ على اهتمام من حوله.. وبدأت الغيرة تقبض قلب أحمد.. وقرر أن ينسحب من هذه الشلة، لعل انسحابه يقنعم بأن الحديث الذى يستمعون له حديث تافة.. لعل انسحابه يجرح احساس مدحت.

وانسحب دون أن يهتم أحد بانسحابه، ودون أن يتوقف مدحت عن حديثه.. وسار يزحف بقدميه، بين الوجوه الضاحكة والأجساد الراقصة.. ثم جلس على مقعد فى ركن من البهو موضوع بجانب مائدة مذهبة كبيرة.. وطاف بعينيه يبحث عن شهيرة.. إنها لا تزال ترقص، وعصام يحدثها حديثا طويلا.. كيف يجد هؤلاء الناس كل هذا الكلام الذى يقولونه؟ ولماذا ترقص شهيرة.. ما ضرورة الرقص.. ما أهميته.. ما متعته؟ إن هناك بنات كثيرات لا يرقصن.. أخوته البنات لا يرقصن، فلماذا لا تكون شهيرة مثلهن؟ ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن يعترض.. إن الرقص ليس عيبا.. إن ناسا كثيرين استوردوا الرقص من الخارج، وفرضوه على مصر.. ولأنهم ناس كثيرون.. لأنهم مجتمع.. لم يعد الرقص عيبا.. لو كان شخصا واحدا هو الذى استورده، لكان عيبا.. ولكنهم كثيرون.. مجتمع.. وهو نفسه يرقص كثيرا أمام المرآة بعد أن يغلق على نفسه الباب، كأنه يشب على أطراف أصابعه ليصل إلى مجتمع أرقى من مجتمع بيته.. مجتمع يرقص.

وأدار عينيه عن شهيرة، حتى يخفف من عذابه.. وطاف بهما حوله.. إن جرمين لا تزال واقفة خلف البار تشرب كأسا من الوسكى.. وزينب تشرب الوسكى أيضا.. وشريف أمامه كأس من البيرة.. و.. وفتيات كثيرات لا يشربن الخمر، ويكتفين بشرب الكوكاكولا وعصير الليمون والبرتقال.. ورغم ذلك فاللاتى يبحن لأنفسهن، شرب الخمر، واللاتى لا يبحنه لأنفسهن، كلهن يعشن فى مجتمع واحد... بل هن الآن فى بيت واحد، وفى حفلة واحدة.. فأيهن على صواب، وأيهن على خطأ؟ أين الفضيلة والخطيئة.. أين ما يجب، وما لا يجب؟ إنه لا يدرى.. وقد تعب رأسه.. وضاقت أنفاسه بالملل.. ولا يريد أن يدرى.. ولكن.. أين والد شهيرة،

وأمها؟ لعلهما تركا البيت للصغار ليقيموا فيه حفلتهم.. وربما كانا على حق في تركهما البيت.. فلا شيء يخافانه على ابنتهما ما دامت وسط هذا الزحام.. إن المهم أن يحاط الأولاد دائما بمجتمع.. لأن المجتمع من طبيعته أن يحمى أفراده من الخطيئة.. الخطيئة لا تقع أبدا إلا فى الخفاء.. فى السر.. أما ما يحدث فى العلن فلا يمكن أن يصل إلى الخطيئة..و..

وسمع أحمد صوتا يقول له :

- ازيك يا أحمد بيه.. قاعد لوحدك ليه ؟

ورفع رأسه ووجد أمامه طارق، أحد أفراد شلة النادى.

وقال أحمد وهو يبتسم، كأنه يرحب بطارق ليعينه على التخفيف من وحدته :

- قاعد باتفرج.

وقال طارق وكأسه فى يده :

- قول لى يا أحمد.. ايه رأيك فى قرارات مؤتمر باندونج.

ونظر إليه أحمد فى دهشة.. خُيِّلَ إليه أنه يسخر منه.. ماذا جاء بمؤتمر باندونج هنا.. وماذا يقصد بهذا السؤال؟ لعل طارق خدع فى مظهر الجد والوقار المرتسمين على وجهه، وظن أنه لا يستطيع أن يحدثه إلا عن مؤتمر باندونج.... ولاعن الافلام.. ولاعن الأغانى.. ولكن عن مؤتمر باندونج.

وابتسم أحمد كأنه يشفق على نفسه من رأى الناس فيه، وقال :

- أعتقد إنها قرارات مهمة جدا.. إنما المهم أن...

وقبل أن يتم، التفت طارق إلى الناحية الأخرى وصاح :

- نادية.

ثم عاد يلتفت إلى أحمد وقال بسرعة :

- عن اذنك.. دقيقة واحدة.

وجرى وراء نادية.. وأحمد ينظر إليه ساخطا.. واحساس ضخم بالفشل يطويه.. لقد فشل فى هذه الحفلة.. فشل حتى فى الحديث عن مؤتمر باندونج.. وقرر أن ينسحب.. سيخرج دون أن يحيى أحدا.. ودون أن يشعر به أحد.. إنهم لم يشعروا به وهو بينهم، ولن يشعروا به عندما يتركهم.

وهم بالقيام، عندما رأى شهيرة مقبلة عليه وابتسامتها تملأ وجهها.

والسعادة ترف حولها.. إنه لم يرها أبدا سعيدة إلى هذا الحد.. ربما كانت سعيدة بنجاح حفلتها.. إنها حفلة ناجحة بالنسبة لكل المدعوين ما عدا هو.. هو وحده الذى يشعر بفشل الحفلة.

وقالت شهيرة وكلماتها ترن كالضحكات :

- قاعد هنا ليه.. قوم ارقص.

قال وعيناه تشربان منها :

- انتى عارفة أنى مابعرفش أرقص.

قالت، وهى تجذبه من يده بقوة :

- قوم بس.

قال هامسا وهو يحاول أن يقاوم :

- أنا مابعرفش أرقص يا شهيرة.. بلاش فضايح.

قالت وهى تقلده فى همسة :

- حاأعلمك.

وانقاد لها، وهو يتصور أن كل الناس يرقبونه.

ولف ذراعه حولها وقال وهو لا يزال يهمس :

- طيب استنى لما تيجى اسطوانة تانجو.

قالت وهى لا تزال تهم :

- ما هى دى سلو روبا.. زى التانجو.

وأمسك بيدها.. واصطنت بكل اذنيه إلى الموسيقى ليضبط خطواته وفقا للنغم.. ولكن الموسيقى بدأت تختلط فى أذنيه حتى لم يعد فيه إلا هذه اليد.. لم يعد يحس برأسه، ولا بجسمه.. ولا بجسم شهيرة الملتصق به.. ولم يعد يستطيع أن يسيطر على ساقية.. فقط يده فى يدها.. وهو يحاول عبثا أن يخطو خطوات منتظمة.. ويحاول أن يستمع إلى الموسيقى بكل أذنيه.. وأحس بنفسه يرتعش من الداخل.. كأنه أصيب فجأة بالحمى.. وعرف أن وجهه الآن أصبح محتقنا.. وازداد احساسه بأن الناس ترقبه.. وتسخر منه.. ثم بدأت شهيرة تدفعه لتساعده على الخطو.. فخطا خطوات ثقيلة، كدبيب أقدام الفيل.

وأحس بياقة قميصه تضيق حول عنقه وتكاد تخنقه.. وأحس بحذائه

يضيق حول قدمه، ويؤلمه.. وأحس ببنطلونه يضيق حول خصره.. وأحس بقطرات من العرق تسيل تحت ثيابه.. وهو لا يستطيع أن يرفع عينيه فى وجوه الذين يرقصون حوله.. ولكنه يتسلل بنظراته إلى أقدامهم، ويرقب كيف يتحركون؟ كأنه يحاول أن يغش منهم خطواتهم.. ثم يحاول أن يركز ذهنه ليتذكر الخطوات التى كان يرقص بها أمام المرآة وهو وحده فى غرفته.. إنه يستطيع أن يرقص أمام الناس.

وقالت شهيرة وهى تلتصق به أكثر، حتى تستطيع أن تتبع خطواته المرتعشة التى لا تنسجم مع الموسيقى :

– ده أنت بترقص كويس.. أمال بتقول ما بتعرفش ليه.

قال وهو يلهث :

– طيب كفاية بأه.. كفاية رقص.

قالت فى إصرار :

– لأ.. لما تخلص الأسطوانة.

وعاد يحرك أقدامه، كدبيب أقدام الفيل.. وهو لا يحس بجسد شهيرة بين ذراعيه لأول مرة.. وفجأة صاحت شهيرة :

– أى.

وعرف أنه داس على قدمها.. وقال وقد اشتد ارتباكه :

– أنا آسف.. الحق عليكى، انتى اللى صممتى ترقصى.

قالت وهى تغتصب ابتسامة تدارى بها ألمها :

– ولا يهمك.. كل العيال بيدوسوا على رجلى.. وليلة ما يكون فيه حفلة، باطلع بعديها أحط رجلى فى مية سخنة ساعة ولا ساعتين.

قال فى توسل :

– كفاية بأه يا شهيرة.. أحسن بعد كدة مش حتلاقى رجليكى خالص.

قالت كأنها تتحدى نفسها :

– لأ.. ما يصحش تسيبنى قبل الأسطوانة ما تخلص.

وأعفاه القدر من الرقص، فانتهت الاسطوانة.. وأسقط ذراعه من حول جسد شهيرة.. وترك يدها.. وهو يتنهد كأنه قطع طريقا شاقا.. وأحس من فرط المجهود الذى بذله، بدوار فى رأسه.. دوار خفيف.. وشبه صداع..

وقالت شهيرة ضاحكة وهى تسحبه من يده ناحية البار :

- المرة الجاية لما ترقص معايا أبقى البس جزمة كاوتش.

وقال وهو يبتسم ووجهه لا يزال محتقنا :

- دى آخر مرة.. خلاص، حرمت.

قالت :

- أبدا.. أنا كل يوم حارقص معاك، لغاية ما تبقى أحسن واحد.

وقبل أن يصلا إلى البار، اختفت شهيرة من جانبه.. أخذها منه بقية المدعوين.. إنها صاحبة الحفلة وواجبها أن تجامل الجميع.

وعاد يحس كأنه تائه وسط الزحام .. وهز كتفيه كأنه يستلم لقدره.. وسار يزحف على قدميه متجها إلى البار.. ووقف مستندا إلى حافته، وهو ينظر إلى جرمين نظرات تائهة.. وكانت جرمين لا تزال واقفة خلف البار.. والكأس أمامها.. وحولها شلة من الشبان يتبادلون معها ضحكات صاخبة.. وحديثا تختلط فيه اللغة الفرنسية، بالإنجليزية، بالعربية.. ولا يصل منه إلى أذنى أحمد سوى ضجيج.. وفجأة اتجهت إليه جرمين بوجهها، ونظرت إليه وهى تحرك أصابعها فى الهواء حركات رشيقة، تدعوه بأن يقترب منها.

ونظر حوله ليتأكد أنها لا تدعو أحدا غيره.. ثم عاد ينظر إليها فى دهشة.. ووجهها الضاحك اللذيذ يملأ عينيه.. وهى لا تزال تشير إليه بأصبعها بأن يقترب منها.

واقترب منها.

وأشارت إليه أن يقترب أكثر.

ومال برأسه إليها، حتى كاد خده يلمس خدها.

ووضعت شفتيها فى أذنه، وهمست :

- فيه ويسكى !

ودغدغت همستها أذنه.. وانطلقت الدغدغة فى كل أعصابه.. وأحس بأنه فى حاجة فعلا إلى الويسكى.. إلى كثير من الويسكى.. لقد شرب الويسكى من قبل وأحس بالامتعاض، ولكن امتعاضه من الويسكى، أخف الآن من امتعاضه من نفسه.

وهز رأسه موافقا، وهو يبتسم ابتسامة خجولة.

ووضعت أمامه كأسا فارغة.. ثم أخرجت زجاجة الويسكى من دولاب فى أسفل البار، وصبت له فى كأسه، وهى تقول بلغتها العربية المكسرة، والكلمات تترنح فوق شفتيها السكرانتين :

– ماتقولش لحد.. أحسن القزازة قربت تخلص.

وقال أحمد وهو يمد يده إلى كأسه :

– حاضر.

وصاح عمرو وهو يخبط بيده على حافة البار :

– الزباين كترت.. عايزين قزازة كمان.

وعادت جرمين تهمس لأحمد من بين شفتيها السكرانتين :

– صودا.. ولا ميه.

قال وهو يهمس مثلها، دون أن يدرى سببا للهمس :

– صودا.

– قالت :

– ماتبقاش عبيط.

قال :

– طيب، ميه.

قالت :

– باأقولك ما تبقاش عبيط.

ونظر إليها فى دهشة، كأنه لم يعد يستطيع أن يفهمها.. واستطردت قائلة، كأنها تبلغه نبأ اكتشاف خطير :

– حط ثلج بس.

وهز رأسه موافقا دون أن يتكلم.

ودبت جرمين يدها الصغيرة، فى الجردل الفضى الأنيق الذى يحوى قطع الثلج، وأخرجت قطعتين بيدها ووضعتهما فى كأسه.

ورفع الكأس إلى شفتيه، وهو ينظر إليها من فوق حافته.. وعاوده إحساسه بأنه يريد أن يأكلها.. إنها شىء يؤكل.. وهى تبدو من بعيد كأنها فى الرابعة عشرة، ولكنها تبدو من قريب فى التاسعة عشرة.. ولكن، هل

هى سعيدة.. كل هذه الضحكات.. وكل هذا الخمر.. وكل هذا الانحلال.. هل كل هذا يؤلف السعادة؟ وارتشف من كأسه جرعة كبيرة، كأنه يحاول أن يجرب السعادة التى تمرح فيها جرمين.. وكوت الخمر حلقه.. فشهق، وانتابته نوبة من السعال.. وضحكت جرمين ضحكة كبيرة، وقالت :

– ده أنت لسة مبتدىء.

وأخذت تضربه على ظهره، حتى تساعده على نوبة السعال.. وقال :

– أصلى مش واخد على أنى أشرب سك.

وقالت :

– طيب اشرب كمان بسرعة، علشان تاخد عليه.

وارتشف جرعة أخرى.

وعادت جرمين تقول :

– انت بتروح النادى؟

وتعجبت كيف لم تره فى النادى، فى حين أنه يتبعها بعينيه هناك منذ أكثر من خمسة شهور.. وقال :

– ايوه.

قالت :

– تعرف انك لذيذ قوى.

ووضعت يدها تحت ذقنه، وأدارت رأسه، وهى تنظر إليه كأنها تقلب قطعة شهية من اللحم فى دكان الجزار :

– ورينى البروفيل بتاعك.

واستسلم لها.. ووجهه يحمر كالعذراء فى سوق العرسان.. وعادت تصرخ فى فرح :

– لذيذ موت.. قول لى نكتة..

وقال مرتبكا :

– ما أعرفش.. عمرى ما بأقدر أحفظ النكت.

قالت :

– أقول لك أنا نكتة.. كان فيه واحد...

وقبل أن تستطرد، دارت فى البيك أب أسطوانة جديدة، وصرخت جرمين بأعلى صوتها :

- تشاتشا.

ثم خرجت من خلف البار.. وطوحت حذاءها من قدميها فى الهواء.. وتوسطت حلقة الرقص.. وأخذت ترقص وحدها حافية القدمين.. ترقص فى حركات مثيرة، عنيفة، فى عنفها رشاقة.. كأن الشيطان يقرصها فى كل قطعة من جسدها.. ورفع أحمد كأسه إلى شفتيه وسكبه كله فى جوفه.. ثم لف حول البار، وأخرج زجاجة الويسكى من دولاب البار، وسكب لنفسه كأسا أخرى.. بينما عيون المدعوين كلهم معلقة فوق جسد جرمين، وهم يصفقون لها صفقات منتظمة مع النغم.

وعاد أحمد يرشف كأسه، ويبحلق فى جرمين.. رأسها الذى يهتز كأنها ترفض قبلة الشيطان.. وصدرها الأنيق الذى يتأرجح كأنها تقاوم يدا تكاد تمتد إليه.. وساقاها اللتان تمرحان كأنها تحاول أن تهرب من قيد ثقيل.. وهو يرشف كأسه، كأنه هو الآخر يقاوم الشيطان.. وفجأة تذكر شهيرة.. كأنه يريدها أن تنقذه من الشيطان.. ودار يبحث عنها بعينيه.. إنها واقفة بعيدا وسط شلة من المدعوين تصفق معهم لجرمين.. وعلى شفتيها ابتسامة واسعة رشيقة.. وقوامها منتصب.. ونظرتها ثابتة يبرق فيها مرح هادىء.. إنها محترمة.. إنها قوية.. إنها أقوى من الشيطان.

ورشف أحمد من كأسه.

وأحس بشفتيه تثقلان وتتهدلان.. ونظراته تسترخى وتترنح.

وانتهت جرمين من رقصتها.

وانتظر أن تعود إليه.

لقد قالت عنه إنه لذيذ.. لذيذ موت.. ولابد أن تعود إليه.. وأخذ يتبعها بعينيه.

ولكن.

لقد تعلقت بذراع عمرو، وشدته معها وخرجا إلى الشرفة، وهى لا تزال حافية القدمين..

لم تعد إليه.

وبسرعة لف حول البار، وأفرغ لنفسه كأسا ثالثة.. ووقف وحيدا.. لا أحد يقترب منه.. لا أحد يبتسم له.. كلهم مشغولون عنه.. وشهيرة أيضا مشغولة بمدعويها عنه.. إنه تافه.. تافة.. لا يثير اهتمام أحد.

ورشف رشفة من كأسه.. ثم حمله وسار نحو المقعد الموضوع بجانب المائدة المذهبة الكبيرة.. وإحساسه بالتفاهة يزداد.،. وفى رأسه أفكار مترنحة.. لابد أن يثير اهتمام كل المدعوين.. لابد أن يأتى بشىء يثير اهتمامهم.. شىء يشعرهم بأنه موجود بينهم.

وأحس كأن فى نفسه شخصين.. أحدهما سكران، والآخر صاح.. السكران يجادل الصاحى، ويحاول بأن يقنعه بأن يأتى بعمل جنونى يثير اهتمام المدعوين، والصاحى يرفض.. ويأبى.. ويحتج.. ويحاول أن يطرد السكران، ويصرخ فيه.. دعنى احتفظ باحترامى.. دعنى وشأنى.. دعنى.. دعنى..

ولكن السكران بدأ ينتصر.

وأحس أحمد بنفسه يقوم، ثم يحمل المقعد الذى كان يجلس عليه، ثم يضعه فوق المائدة المذهبة الكبيرة.

ثم أعتلى أحمد المائدة، وجلس على المقعد الذى وضعه فوقها.. ثم أخذ ينظر إلى المدعوين نظرات ثابتة.. وبين شفتيه ابتسامة بلهاء.

ولم ينتبه أحد من المدعوين إلى ما فعله أحمد، فى بادىء الأمر..

ولكن أحدهم لمحه فوقف أمامه دهشا، ثم ضحك ضحكة صارخة وهو يشير إليه.. وتنبه بقية المدعوين.. والتفوا حول أحمد وهو جالس كالملك العبيط فوق عرشه الذى صنعه لنفسه.. وأخذوا يضحكون.. ضحكات عالية صارخة.. البنات تضحك.. والأولاد يضحكون.. ضحك.. ضحك.. والضحك يرن فى أذنى السكران الذى يعربد فى صدر أحمد، كأنها صيحات النصر.. والشخص الآخر الصاحى يئن أنينا حزينا خافتا.

وأحمد لا يتكلم.. ولا يحول نظرته.. ولا تفتر ابتسامته البلهاء.

وشهيرة واقفة فى آخر صفوف المدعوين لا تضحك.. وفى عينيها نظرات يختلط فيها الهلع، والحيرة، والاشفاق، والخجل.

وتماسكت جرمين من نوبة الضحك التى انتابتها، ثم نزعت باقة الورد

من الزهرية، واعتلت المائدة المذهبة التى يجلس عليها أحمد.. وأخذت ترشق أعواد الورد فى ثيابه.. وردة فى عروة سترته، ووردة فى كل جيب من جيوبه.. ثم وردة فوق رأسه.. ثم.. ثم وضعت عودا من الورد بين أسنانه.

وأحمد صامت كالعبيط.. كل ما فيه ينطق بالبله.. والضحكات الصارخة لا تكف من حوله.

وصاحت جرمين :

- هات جردل الثلج يا عمرو.

وأسرع عمرو، وأحضر جردل الثلج، وناوله لها وهى لا تزال واقفة فوق المائدة بجانب أحمد.

وأفرغت جرمين الجردل بما فيه من ثلج وماء، ووضعته فوق رأس أحمد.. كالتاج.

واشتدت الضحكات الصارخة.

وأحمد لا يزال يبتسم ابتسامته البلهاء، وبين اسنانه عود الورد..

وشقت شهيرة صفوف مدعويها وفى عينيها نظرة غاضبة ثائرة، وصرخت فى حزم :

- انزلى يا جرمين :

وخفتت الضحكات أمام غضب شهيرة.. كموج تكسر على صخر.

ونزلت جرمين، وبين شفتيها بقايا ضحكاتها.

وقالت شهيرة فى لهجة آمرة، وهى تنظر فى وجه أحمد بكل عينيها فى حزم :

- تعالى يا أحمد.. انزل.

وفجأة تحرك أحمد.. ونزع عود الورد من بين أسنانه، وألق جردل الثلج من فوق رأسه.. ثم قفز من فوق المائدة، وهو يقول والكلمات سكرى بين شفتيه :

- تعالى انتى.

ثم جذبها من يدها، وجرى بها نحو الشرفة.. وشهيرة مستسلمة له فى

هلع.. وتنظر وراءها إلى مدعويها، كأنها ترجوهم ألا يتدخلوا بينها وبين أحمد.

ونظر المدعوون خلفهما وضحكات خافتة بين شفاههم.

وخرج بها أحمد إلى الشرفة.. وهو يجذبها وراءه بقوة.. قوة السكران الذى يعربد فى صدره.. ثم فجأة استدار لها، وأخذها بين أحضانه.. وقبلها فوق شفتيها.. قبلة ليس لها طعم إلا طعم العنف.. عنف السكران.

واستسلمت شهيرة، وهى تتألم.. والألم يكاد ينتزع الدموع من عينيها.

وفجأة أطلقها أحمد.. ابتعد عنها.

لقد أفاق.

مات السكران فى صدره، كأنما قتلته شفتا شهيرة.

ونكس أحمد رأسه، وقال فى صوت ضعيف خجول :

- أنا آسف.. أنا.

ولم يتم.. استدار لها.. وسار نحو سلم الشرفة المؤدى إلى الحديقة.. ونزل، وشهيرة تنظر خلفه، وأنفاسها لا تزال تلهث.. صدرها يتهدج.. والرعب لا يزال فى عينيها.

ثم هدأت قليلا، كأنها أفاقت هى الأخرى.. هدأ صدرها. وهدأت أنفاسها.. وهدأ الرعب فى عينيها.. ونظرت نظرة اشفاق.. كأنها تنظر إلى مريض.

ثم صاحت تستوقفه :

- أحمد.

ولم يقف أحمد، ولم يلتفت إليها.. وهو منكس الرأس، كأنه لن يرفعها أبدا.

وجرت وراءه، وصاحت مرة ثانية :

- أحمد.

ولم يرد.

وجرت حتى لحقت به، وأمسكته من ذراعه. واستوقفته، وقالت فى صوت خافت رقيق :

- أحمد.

ورفع رأسه.. رفع إليها عينيه.

ثم نكس رأسه، ونكس عينيه.

وظلت واقفة أمامه، ممسكة بذراعه كأنها تخشى أن تفقده.. صامتة، لا تدرى ماذا تقول؟

ثم فجأة شبت على أطراف أصابعها، وقبلته.. قبلته قبلة طويلة.. وشفتاه بين شفتيها لا تتحركان.

ثم ابتعدت عنه.

ودون أن تنظر إليه، استدارت له، وسات عائدة إلى الشرفة.. وبعد بضع خطوات، أخذت تجرى إلى داخل البيت.

وهو واقف منتصب بقامته الطويلة وصدره العريض، فى ظلام الحديقة. وصوت الألحان الراقصة والضحكات يأتى إليه من بعيد.. وفى عينيه نظرات حائرة متسائلة، تتضح بالألم.. وفى رأسه مطارق من حديد.

وسار فى الحديقة بخطى بطيئة مترنحة.

وخرج من البيت.

خرج وسار على قدميه فى الشارع الهادىء.. سار طويلا.. وكل شىء فيه ينزف.. عقله ينزف.. وقلبه ينزف.. وأنفاسه تنزف.. وكرامته تنزف.. والخجل يعصره.. الخجل من نفسه.. وآثار الويسكى لا تزال تكوى حلقه.. وتملأ رأسه بمطارق الحديد.. وقبلة شهيرة واقفة فوق شفتيه.. كأنه يراها بعينيه.. ولكنه لا يستطيع أن يفهمها.. لا يستطيع أن يفرح بها، أو يحزن لها، أو يتحسس لها طعما.. ليس الآن.. إنه الآن لا يستطيع أن يفهم شيئا. إنه تائه وسط احاسيسه السوداء.. تائه.. مترنح.. بائس.. وهو يريد أن يبكى.

أريد أن أبكى.

يارب أعنى على البكاء.

وهو يسير.. ويسير.. ووصل إلى بيته سائرا على قدميه.. وهو لا يزال يريد أن يبكى.. ودخل يحمل نزيف عقله وقلبه وكرامته.. ولمح فيفى ونبيلة جالستين فى غرفة المكتب يستذكران دروسهما.. وسمع نقرات ليلى على البيانو.. نقرات بطيئة حزينة.. وسار على اطراف أصابع، مختبئا فى ظلال

الضـوء الخـافت المنبعث من حـجرة المكتب.. أنه لا يريد أن يراه أحـد من أخوته وهو فى هذه الحال.

ودخل غرفته، وأغلق على نفسـه الباب.. وانكفأ على وجهه فوق فراشه، وهو بملابسه الكاملة.

يريد أن يبكى.

يارب ارحمنى، ودعنى أبكى.

ولكنه لا يبكى أبدا.. أنه لا يذكـر أنه بكى منذ كـان طفـلا.. إن دمـوعـه تنسكب كلها فى داخله، ولا تنسكب أبدا خارج عينيه.

وصوت نقرات ليلى على البيانو، يصل إليه كأنه صـوت دموع ثقيلة تقع على الأرض.

١٥

السـاعـة الـحـاديـة عـشـرة صـبـاحـا.. وليلى وأمـهـا كل منهما جالسة فى غرفتها، وقد خلا البيت إلا منهما.

وارتفع رنين جرس التليفون، منطلقا من غرفة الأم ليملأ أنحاء البيت.

وانتفضت حواس ليلى كلها.. والتفتت ناحية الرنين بعينيها وأذنيها.. ثم قامت من فوق فراشـهـا.. وسـارت على أطراف قدمـيـهـا الـحـافـيـتين، وفـتـحت باب غرفتها فى بطء، فتحة صغيرة أخذت تنصت من خلالها.

وسمعت صوت أمها تصيح فى التليفون :

- آلو.. آلو.. آلو.

ثم سمعتها تقول فى حدة :

- وبعدين بأه.

ثم تلقى سماعة التليفون إلى مكانها فى عنف.

وعرفت ليلى أنه لابد أن يكون فتحى.

وأغلقت باب غرفـتـهـا فى هدوء، وعـادت تجلس فوق فـراشـهـا وتغرق فى بحر أحزانها.

لقد مـضى اسبوع لم تر فيه فتحى.. ولم تسمع صـوته إلا مرتين، مرة عندما حادثته أمام أمها على أنه صديقتها عائشة.. ومرة منذ يومين عندما توسلت إلى أختـهـا نبيلة أن تطلبه لها فى التليفون.. فـأخذت نبيلة التليفون ودخلت به إلى غـرفـتـهـمـا.. واتصلت به، ثم أعطتـهـا السـمـاعـة، ووقـفت وراء البـاب لتـحـمى أختـهـا من دخول أحد عليـهـا وهى تحـادثه.. وقد ظنت ليلى يومها أنها ستتحدث طويلا، وظنت أن فتحى سينقذها من سجنها.. سيدلها

على الطريق الذى تصل منه إليه.. ولكنها لم تجد شيئا تقوله له.. تبخر من فوق لسانها كل ما كانت قد أعدته من حديث.. ولم يبق منها إلا دموع.. وفتحى أيضا لم يجد ما يقوله لها سوى كلمات ممزقة، لم تدر أكان يواسيها بها، أم كان يواسى بها نفسه.. كانا كلاهما ذاهلا مرتبكا، كأنهما واقفان حول فراش مريض فى حالة خطرة.. حبهما المريض.. ونبيلة واقفة عند الباب تهمس : «يالـلا بأه يا ليلى، زمان فيفى جاية».. وألقت سماعة التليفون وهى تائهة أكثر.. بائسة أكثر.. محطمة أكثر.

ونبيلة تحدثها دائما عن التضحية بحبها فى سبيل مصلحتها.. ومصلحتها هى أن تنظر إلى الأمام.. إلى بيت.. وإلى زوج.. وإلى عائلة.. وقد ذهبت نبيلة وقابلت فتحى، وعادت تقول لها : إنها اتفقت معه على أن مصلحتها هى الأهم.

مصلحتها ؟!

ما هى مصلحتها ؟!

ما هى مصلحة أى إنسان ؟!

إن مصلحة أى إنسان هى أن يكون سعيدا.. وهى سعيدة بحبها.. سعيدة مع فتحى.. فكيف تضحى بسعادتها.. لماذا.. فى سبيل ماذا؟ ماذا بعد السعادة، حتى يضحى الإنسان بها؟ !

ولكن أهلها لا يريدون سعادتها، أنهم يريدون سعادتهم هم.. يريدون أن تعطيهم الصورة التى تعجبهم حتى يعلقوها على صدورهم.. صورة الفتاة، التى تطيعهم حتى لو كان فى طاعتهم شقاؤها.. صورة الزوجة العاقلة، حتى لو كانت بائسة فى زواجها.. إنهم أنانيون.. إنهم قساة.. لا أحد منهم يحاول أن يفهمها، ويساعدها، ويحقق لها سعادتها.. أمها تعاملها على أنها طفلة مخدوعة.. وفيفى تعاملها على أنها مجرمة.. ونبيلة تعاملها على أنها مريضة.. وأخوها أحمد لا يحس بها.. وممدوح لا يهمه إلا أن يسخر منها.. وكلهم يسجنونها.. كلهم يحاولون خنق قلبها.. وهى تكرههم.. تكرههم جميعا.

وقفزت ليلى من فوق فراشها.. وأخذت ترتدى ثوب الخروج، وتضفر شعرها.. وفى صدرها ثورة عارمة.. وفى عينيها نظرات تحد. كأنها تتحدى

بها أشباحا ضخمة تنتصب حولها فى الهواء.. ثم خطفت كيس نقودها من الدولاب.. وفتحته، واطمأنت إلى ما فيه من نقود.. خمسون قرشا. وأخرجت مفتاح الشقة، واحتضنته فى يدها، ثم أعادته إلى الكيس.. وخرجت من غرفتها والكيس فى يدها، واتجهت إلى غرفة أمها، وأطلت عليها قائلة وهى تنظر إليها فى تحد :

- تسمحى لى أروح المعهد، علشان أشوف الدروس اللى فاتتنى.

ونظرت إليها أمها فى امعان، ثم قالت وهى تفتعل ابتسامة:

- بلاش دلوقت يا ليلى.. زمان أخواتك جايين.

وقالت ليلى وهى لا تزال تتحدى :

- لسة بدرى.. الساعة ماجتش اتناشر.

وقالت الأم، وهى لا تزال هادئة :

- على كل حال أنا حانزل أنا وانتى البلد بعد الضهر.. ونبقى نفوت على المعهد.

وابتسمت ليلى ابتسامة ساخرة، تستهين بها من عقلية أمها، ثم قالت :

- هوه السجن لسة ما خلصش.

وقالت الأم وهى تتنهد، كأنها تستعين بالصبر على بلواها :

- بلاش الكلام ده دلوقت يا ليلى.. روحى العبى شوية بيانو.. وبعد الظهر ننزل سوا.

وظلت ليلى تنظر فى وجه أمها بتحد، وبين شفتيها الابتسامة الساخرة المرة.

ثم قالت وهى تتقصع فى كلامها كأنها تتعمد إهانة أمها :

- حاضر.. من عينى دى، ومن عينى دى.. حاسمعك بيانو لما تقولى بس.

ثم خرجت من الغرفة، ووجهها محتقن، كأنها تحمل دماءها كلها فى رأسها.. ودخلت غرفتها وأغلقت الباب وراءها فى عنف.. كأنها توصده فى وجه أمها.. فى وجه كل من يحاول أن يسجنها.

وأخذت تروح وتغدو فى الغرفة.. وهى تقضم أظافرها بأسنانها.. والخطة تتسع فى رأسها.. خطة كبيرة.. وهى لم تعد تفكر فيمن حولها..

لا تفكر فى أمها ولا فى اخوتها.. بل لا تفكر فى نفسها.. إنها فقط تفكر فيما تريد.. وهى تريد فتحى.. تريد أن تراه.. الآن.. حالا.

وبحثت فى دولابها عن كيس كبير من الورق مما توضع فيه المشتروات.. ثم التقطت أحد قمصان نومها.. قميصا حريريا فى لون الورد، بلا أكمام.. ونشرته أمام عينيها، وفكرت قليلا، ثم اعادته إلى الدولاب.. وأخرجت قميصا آخر.. قميصا من الصوف.. أزرق فى لون السماء.. له اكمام طويلة.. ومقفول عند الرقبة.. ثم طوته، ووضعته داخل الكيس.. ثم بحثت عن «الروب دى شامبر» وطوته ووضعته هو الآخر داخل الكيس.. ثم تلفتت حواليها، كأنها تحاول أن تتذكر شيئا.. ثم خرجت من غرفتها، واتجهت إلى الحمام، وتعمدت أن تدب بقدميها على الأرض، حتى تسمع أمها وقع خطواتها.. والتقطت من الحمام فرشاة أسنانها، وأنبوبة معجون الأسنان.. ثم تعمدت أن تنظر قليلا.. وفتحت صنبور الماء حتى آخره، لتسمع أمها صوت تدفق الماء.. ثم أغلقت الصنبور.. وخرجت من الحمام وهى تخفى فى يديها فرشاة الأسنان وأنبوبة المعجون، ودخلت عرفتها، وأغلقت الباب وراءها، ووضعتهما - الفرشاة والمعجون - فى الكيس الكبير.. ثم التقطت منشفة وطوتها وحاولت أن تضعها فى الكيس، ولكن الكيس لم يتسع لها.. فهزت كتفيها، وألقت المنشفة فوق السرير، وقد قررت الاستغناء عنها.

ثم عادت تروح وتجىء فى الغرفة، وهى تقضم أظافرها بأسنانها.

إنها تعلم أن أم نجية عاملة «المساج»، ستأتى الآن، كعادتها صباح كل يوم اثنين.. وستدخل إلى غرفة أمها لتدلكها، وتغلق الباب وراءها بالمفتاح.. وفى هذه اللحظة.. ستخرج هى من البيت.

ستخرج إلى فتحى.

ولن تعود.

وظلت تنتظر وصول أم نجية.. وأنفاسها مبهورة.. وصهد ساخن يقع حول وجهها.. وضفيرتها حائرة بين يديها.. تشدها حينا.. وتفك عقدها حينا، ثم تعود وتربطها.. وقد توقف تفكيرها.. إنها لا ترى شيئا مما هى مقدمة عليه فقط ترى فتحى.. وترى خلاصها من سجنها.

ودق جرس الباب..
وانتفضت ليلى.
وخرجت من غرفتها.. وذهبت لتفتح الباب بنفسها.
ودخلت أم نجية، متشحة بملاءتها السوداء اللف، وقالت وهى تنظر إلى ليلى كأنها تهم بأن تطلق زغرودة :
- ازيك يا ست ليلى.. يا حلاوتك يا ست ليلى.. ده انتى كل يوم تحلوى عن يوم.. ياما نفسى احميكى ليلة دخلتك.
ولم تسمع ليلى شيئا مما تقوله أم نجية.. وتقدمتها إلى داخل البيت، ووقفت فى الممر الذى يفصل بين الحجرات، وقالت بصوت عال كأنها تريد أن تؤكد لأمها أنها لا زالت فى البيت :
- ماما.. ماما.. أم نجية جت.
وصاحت أمها من حجرتها :
- خليها تيجى.
وتقدمت أم نجية إلى غرفة الأم، وظلت ليلى واقفة ترقبها، حتى اختفت داخل الغرفة.. ثم رأت الباب يغلق وراءها.. وسمعت صوت المفتاح يدور فى القفل.
وأسرعت ليلى إلى غرفتها.. والتقطت الكيس الصغير وأخذت من دولابها المحلة الصغيرة الأنيقة، أصبع الروج، وايشارب ووضعت كل ذلك فى جيوب ثوبها، ثم حملت الكيس الكبير فى يدها.. ثم سارت على أطراف أصابعها إلى الباب الخارجى.. وفتحته فى هدوء.. وخرجت، وعادت وأغلقته فى هدوء.. وتركته قبل أن تنطبق ضلفتاه، حتى لا يسمع لانطباقهما صوت.. ونزلت السلم وهى لا تزال تسير على أطراف قدميها.. وانطلقت إلى الشارع، وعم عبدالله البواب ينظر إليها فى دهشة.. وغباء !
والتفتت ليلى ناحية بيت فتحى كأنها تبحث عنه.. ثم عادت تتطلع إلى نوافذ بيتهم كأنها تودعها الوداع الأخير.. وسارت فى خطا مسرعة ناحية الشارع العمومى.. تريد أن تجرى فلا تستطيع، وتريد أن تبطىء لتبدو مشيتها طبيعية، فلا تستطيع.. وشعور غريب يزحف على قلبها.. شعور كأنه الخوف.. شعور يمتص جرأتها وتحديها .. لماذا لا تفرح ؟ لماذا

لا تنطلق؟ لقد أصبحت حرة.. لقد هربت من السجن.. ولكن، لا.. إنها تشعر بالسجن أكثر.. إن قضباناً غليظة سوداء تنتصب حولها.. وفى داخلها.. إن الهارب من السجن، يشعر بالقيد، أكثر مما يشعر به السجين.

وركبت الأتوبيس، وهى ساهمة.. لا تريد أن تفكر.. تخشى إن فكرت أن يزداد خوفها.. ولم تشعر أن شابا صعد إلى الأتوبيس بعدها بمحطتين.. وجلس بجانبها رغم أن باقى المقاعد كانت خالية.. ولم تشعر به وهو يتسلل إليها بعينيه.. ويقترب منها.. ويقترب منها أكثر.. إن كتفه ملتصق بكتفها، وهى لا تشعر به.. ساهمة، تطل من نافذة الأتوبيس فى نظرات تائهة.. ولم تشعر به أيضا وهو يقرب ساقه من ساقها.. ثم وهو يلصق ساقه بساقها.. لم تشعر به إلا عندما تسلل بيده، ولمس ساقها.

وانتفضت.

والتفتت إليه فى حدة.

ثم قامت من جانبه وجلست على مقعد آخر، والشاب ينظر وراءها فى دهشة.. كأنه يسألها : لماذا انتظرت كل هذه المدة قبل أن تقوم من جانبه؟

وشعرت بمزيد من الخوف.

ونزلت من الأتوبيس فى ميدان التحرير.. وسارت فى شارع سليمان باشا، وهى لا ترى مما حولها شيئا..ولا ترى مما فى داخلها شيئا.. ثم انحرفت فى شارع الانتكخانة.. ودخلت إلى دكان بقال هناك، وأمسكت بالتليفون، وأدارت رقم فتحى.

وردت عليها زوجته عواطف.

إنها تعرف صوتها جيدا.

وارتعشت يدها، ثم ألقت بالسماعة إلى مكانها.

وخرجت من دكان البقال، وأخذت تطوف فى الشوارع المحيطة به فترة خمس دقائق.. عشر دقائق.. ربما أكثر.. ثم دخلت دكان بائع سجائر، وأمسكت بالتليفون وعادت تتصل بفتحى فى بيته.

وردت عليها زوجته أيضا.

وارتعشت يدها.. ولكنها ظلت محتفظة بالسماعة فوق أذنها.. لعل فتحى هناك، وسيخطف السماعة من يد زوجته ليرد عليها.. واستمعت إلى صوت

عواطف وهى تصيح «آلو.. آلو..» كأنها تصرخ فى وجهها.. ثم سمعت صوت السماعة تلقى.. كأنها تصرخ فى وجهها.. كأنه صوت رصاصة انطلقت فى صدرها.

وخرجت من دكان بائع السجائر.. مسكينة، حائرة، كأنها تحمل الهزيمة.. ثم برقت عيناها فجأة.. لماذا لا يكون فتحى فى الشقة.. شقتهما.. لقد تعودت أن تجده هناك، كلما أرادته.. إن بينها وبينه خيطا من الحب، يجذبه إليها، كلما كانت فى حاجة إليه.

وأسرعت الخطا إلى الشقة.

وهزت رأسها تحيى البواب، ولم يكلف البواب نفسه فيقوم واقفا، احتراما لها.

وصعدت إلى الدور السادس.. ووقفت أمام باب الشقة كأنها تنتظر أن تسمع صوت البيانو.. ثم أخرجت المفتاح من الكيس الصغير، وفتحت، ودخلت.

إنه ليس هنا.

ودارت بعينيها كأنها تبحث عنه فوق الجدران.

إن الشقة لم يزد عليها شىء.. البيانو والمقعدان اللذان اشترتهما.. وأعقاب سجائر كثيرة فى المنفضة الموضوعة فوق حافة البيانو. وتراب السجائر، وأعواد الثقاب، تملأ الأرض.. إن فتحى كان هنا.. واقتربت من المنفضة، ونظرت فيها.. إن أعقاب السجائر لا تزال جيدة.. لقد كان هنا منذ مدة قصيرة.. ربما ليلة أمس.. ربما هذا الصباح.. وابتسمت كأنها تحيى فتحى.. ثم القت الكيس الكبير الذى تحمله، فوق أحد المقعدين.. وحملت منفضة السجائر، وأفرغت ما فيها من أعقاب خارج باب المطبخ.. وغسلتها.. وأعادتها إلى مكانها فوق حافة البيانو.. ثم جاءت بالمكنسة التى اشترتها، وأخذت تكنس الأرض.. وهى تحاول أن تحتفظ بابتسامتها.. تحاول أن تقنع نفسها بأنها فى بيتها الذى لن تخرج منه..

وانتهت من كنس الحجرة.

وبدأت تتلفت حولها تبحث عن شىء تعمله.. إنها تريد أن تشغل نفسها بأى شىء، حتى لاتخلو إلى أفكارها.. حتى تهرب من أحاسيسها.

وفتحت الكيس الكبير، وأخرجت منه فرشاة الأسنان وأنبوبة المعجون، وذهبت بهما إلى الحمام، ووضعتهما فوق الحوض.. ثم غيرت رأيها.. وذهبت إلى المطبخ، وأتت بكوب زجاجي، وضعت فيه الفرشاة وأنبوبة المعجون، ووضعت الكوب فوق الحوض.. ونظرت إليه من بعيد، كأنها تنظر إلى تمثال جميل.. إلى زهرية ورد.. ثم التقطت من جيوب ثوبها المشط والمكحلة وأصبع الروج، وصفتهم فوق الحوض أيضا.

ثم عادت إلى الصالة الخارجية، وأخرجت قميص النوم، والروب دى شامبر.. وتلفتت حولها محتارة أين تضعهما؟ وخطرت لها فكرة.. فحملت أحد المقعدين، ووضعته فى الغرفة الخالية.. ثم فردت عليه قميص النوم والروب دى شامبر.. ونظرت إليهما من بعيد، وارتفعت قطرات من دمها إلى وجنتيها كأنها تنظر إلى ثوب زفافها.. وبقيت فى هذه الحجرة فترة.. إنها ستنام هنا.. ولكن، على أى شىء تنام.. على الأرض.. على المقعد.. لا.. ستضع المقعدين قبالة بعضهما، وتنام عليهما.. وتصنع من الروب دى شامبر وسادة تضعها تحت رأسها.. وفتحى !! أين ينام ؟!.. وارتجف قلبها، وارتفع مزيد من قطرات الدم إلى وجنتيها.. هل سينام معها.. فى الشقة؟ لا، إنها لا تريده أن ينام معها.. يجب أن يعود إلى بيته.. وستبقى وحيدة فى الليل.. ولكنها تخاف.. تخاف وحدتها فى الليل.. إنها منذ ولدت وهى لم تنم فى بيت وحدها بل لم تنم فى حجرة وحدها.

وسرت قشعريرة فى بدنها.

وخرجت من الغرفة كأنها تهرب من أفكارها.. والقت نفسها على المقعد الوحيد الذى بقى فى الصالة.

والساعة أصبحت الثانية بعد الظهر وفتحى لم يأت.

وجدت نفسها تفكر فجأة فى أمها.. ماذا تفعل الآن؟ لابد أنها اكتشفت هربها منذ أكثر من ساعة.. ولابد أنها جنت، وربما جلست تبكى فى انتظار أن تعود.. وأختاها فيفى ونبيلة.. هذا موعد عودتهما من الجامعة.. ولابد أن أمها قد أطلعتهما على نبأ هروبها.. وفيفى قد اطلقت لسانها السليط تلعنها.. ونبيلة تبكى ملتاعة.. وأخوها أحمد.. وارتعش قلبها عندما تذكرت أخاها أحمد.. ثم طمأنت نفسها.. لابد أن أمها قد كذبت عليه وقالت له: إنها

ذهبت إلى احدى صديقاتها.. أو قالت له أى شىء.. وممدوح.. إنه الآخر لن يعلم الآن.. سيكون أحمد وممدوح آخر من يعلمان بهربها.. وأمها وكل أخواتها سيتعذبون.. وهمت أن تبكى.. ولكن فجأة أنطلقت فيها روح التحدى.. لتتركهم يتعذبون.. ليتعذبوا قدر عذابها عندما سجنوها، حتى يتعلموا ألا يسجنوها مرة ثانية.

وقامت واقفة.. وأخذت تروح وتجيء فى الغرفة.. جلست أمام البيانو، وفتحته، وأخذت تعزف لحن «بيتى».. اللحن الذى وضعه فتحى عندما استأجر هذه الشقة لهما.. إنها تحس عندما تعزف هذا اللحن أنها تدعوه.. تحس أنه يسمعها أينما كان.. وعزفت اللحن بطيئا هادئا.. ثم عزفته مرة ثانية فى عنف.. ومرة ثالثة فى عنف أكثر.. ومرة رابعة.. وخامسة.. حتى أحست أن أصابعها تجمدت فوق مفاتيح البيانو.. وأنها فقدت أعصابها.. فخبطت على مفاتيح البيانو بكل قوتها، كأنها تحاول أن تحطمها.. وقامت واقفة.. ثم دخلت المطبخ.. وخرجت من المطبخ.. ودخلت الغرفة الأخرى.. ثم دخلت الحمام.. ووقفت تنظر إلى فرشاة الأسنان، وأنبوبة المعجون.. وابتسمت وهى تنظر إليهما.. كأنها ترى فيهما قطعة من جهازها.. قطعة خاصة.. ثم اكتسى وجهها بحمرة الخجل.. ومدت يدها فى خفر والتقطت فرشة الأسنان، ووضعت فوقها قطعة من المعجون.. وبدأت تغسل أسنانها وهى تنظر إلى المرآة المعلقة فوق الحوض.. وحمرة الخجل لا تزال تكسو وجهها. ولا تدرى لماذا غسلت أسنانها.. إنها لم تتعود أن تغسلها فى هذا الوقت.. ربما أرادت أن تشعر أنها فى بيتها، فهى لم تغسل أسنانها إلا فى بيتها.. ولكنها تحس باحساس غريب لا تحس به وهى تغسل أسنانها فى بيتها.. تحس بالخجل.. والخفر.. والارتباك.. كأنها تخلع قطعة من ثيابها أمام فتحى. كأنها تستحم، خارج بيتها.

وانتهت من غسل أسنانها.

ووقفت فترة تنظر إلى نفسها فى المرآة، وتعيد شد ضفيرتها.

وفتحى لم يأت.

وبحركة تلقائية، خرجت من الحمام بخطوات سريعة.. ثم خرجت من الشقة كلها.. ونزلت إلى الشارع.

ودخلت دكان البقال، وأمسكت بالتليفون وهى تبتهل إلى الله أن يرد عليها فتحى.

ولكن فتحى لم يرد.

ردت زوجته.

وألقت ليلى سماعة التليفون من يدها بسرعة.. كأنها تخشى أن تسبقها عواطف، فتلقى بسماعتها فى وجهها..

ووقفت فى دكان البقال تفكر.

إن فتحى ليس فى البيت.. إنه يرد على التليفون بنفسه عندما يكون فى البيت.. ربما كان فى معهد الموسيقى الشرقى.. وبحثت فى دفتر التليفون، حتى وجدت رقم معهد الموسيقى، وسألت عن فتحى هناك.. ولم تجده.. ربما كان فى محطة الاذاعة.. وبحثت فى الدفتر عن رقم تليفون محطة الإذاعة.. وسألت عنه.. إنه ليس هناك أيضا.

واكفهر وجهها.

أحست بوحدتها.

أحست أنها تائهة.. أحست كأن فتحى قد تخلى عنها.

وخرجت من دكان البقال.. إلى أين تذهب.. هل تعود إلى الشقة؟ واجتاحت قلبها موجة من الخوف.. لأول مرة تحس بالخوف من الذهاب إلى الشقة.. تخاف من وحدتها هناك.

وسارت فى خطوات زاحفة.. لا تدرى إلى أين؟ ثم فجأة تذكرت.. إنها يجب أن تأكل.. ولم تكن تشعر بالجوع.. بل إنها لن تستطيع أن تلقى شيئا فى معدتها.. ورغم ذلك فقد فرحت عندما تذكرت أنها يجب أن تأكل.. لقد وجدت فى الأكل شيئا تفعله.. كأنها وجدت فيه هدفا تسعى إليه.. وشدت قوامها، وأسرعت فى خطاها، وحاولت أن يبدو وجهها نشطا، كأنها تحاول أن تخدع نفسها.. تحاول أن تقنع نفسها بأنها ليست تائهة.. وسارت فى شارع سليمان باشا حتى آخره، وهى تنظر فى وجوه الناس الذين تمر بهم.. ولم تكن تخاف أن تلتقى بأحد من أفراد عائلتها.. ولكنها كانت تبحث فى وجوههم عن فتحى.

ودخلت محل «المامبو»، وقال للعامل :

- واحد ساندويتش سوسيس، من فضلك.
ثم غيرت رأيها بسرعة، وعادت تقول :
- واحد سوسيس، وواحد ديك، ولفهم لى فى ورقة.. إنها ستتناول طعامها فى الشقة.. إنها تستطيع بذلك أن تكسب وقتا إلى أن يأتى إليها فتحى.

وحملت اللفافة التى أعدها لها العامل. وعادت تجتاز شارع سليمان باشا مرة أخرى.. وهى تتعمد أن تبدو نشطة فى خطواتها ونظراتها، وكل شىء فى داخلها منهار.. وهى فى كل خطوة تحاول أن تقنع نفسها بأنها سعيدة.. إنها حرة.. إنها جريئة.. إنها ليست خائفة.. وكانت محاولاتها تنتهى بها إلى حد أن تنظر فى الوجوه التى تمر بها نظرات ثابتة، كأنها تحاول أن تشعرهم بأنها فتاة هاربة..

وصعدت إلى الشقة.

وعاودها الأمل بأن تجد فتحى.

ودخلت.

ولم تجده.

وشغلت نفسها بالاستعداد لتناول الطعام.. دخلت المطبخ.. وفكت اللفافة.. ووضعت قطعتى الساندويتش، وحبات المخلل، فى طبق صغير.. واحد من طبقين كانت قد اشترتهما.. ثم حملت الطبق، وخرجت إلى الصالة الخارجية، وجلست على المقعد، ووضعت الطبق فوق حجرها.. ثم أخذت تقضم قطع الساندويتش، دون أن تحس لها طعما.. ساهمة.. مسكينة.. حزينة.

لم تستطع أن تتم أكل قطعة الساندويتش الثانية، فحملت الطبق، وعادت إلى المطبخ.. وألقت ما فيه، ثم أخذت تغسله، فى حركة آلية.. وهى لا تحس بما تفعله.. ولا تحس بوقع الماء فوق يديها.

ثم عادت تجلس على المقعد الوحيد فى الصالة الخارجية.

والساعة الخامسة.

وفتحى لم يأت.

وأحست بالتعب.

التعب من نفسها.. التعب من انتظار فتحى.. ومن وحدتها.. ومن القلق.. والحيرة.. والخوف وهى تحس بأنها بعدت جدا عن أمها وأخوتها.. تحس بالوحشة إليهم اشتاقت إليهم.. وهى تريد أن تعود إليهم.. إلى بيتها.. إلى فراشها.. وتنام فى هدوء.. وتنام.. تنام طويلا.

والتعب يشتد.. تعب نفسها.. والدموع تتجمع تحت جفنيها.. ثم فجأة انهمرت الدموع.. بكت.. بكت فى صمت.. ثم استبد بها البكاء، فبدأت تنشج.. وتتمتم وسط نشيجها : «ماما.. يا حبيبتى يا ماما». ثم يرتفع نشيجها أكثر.. حتى يصبح صراخا مكتوما.. ويرتعش كيانها كله.. ثم تضرب مسند المقعد بقبضتها.. وتشد ضفيرتها بيدها فى قسوة كأنها تريد أن تنزعها من رأسها.. وتتمتم : «يا ربى.. ياربى.. ليه بس ياربى» !

وطال بكاؤها.

وكلما بكت أكثر، تمنت أكثر أن تعود.. أن تعود إلى أمها.. إلى الأمان.. إلى الهدوء.. حتى لو كان هدوء السجن.

ثم كفت عن البكاء.

ولكنها لن تعود.

إنها لن تستطيع أن تعود.

بعد كل هذا لا تستطيع العودة.. تخاف أن تعود.. وتخاف أن تبقى.. ولا تدرى من حالها شيئا.

إنها تريد فتحى.

تريده ليقنعها أن تعود.. أو ليقنعها أن تبقى.. ليطمئنها.. ليدلها على الطريق.

وقامت من مقعدها فجأة، وعادت تجرى إلى الشارع.. وآثار الدموع لا تزال فى عينيها الحمراوين، المورمتين.

ودخلت دكان البقال فى لهفة، ورفعت سماعة التليفون، وأدارت رقم بيت فتحى.

وسمعت صوت زوجته.. وترددت قليلاً.. ثم قالت فى صوت باك :

– أقدر أكلم فتحى يا طنط.

وقالت عواطف :

- مين.. ليلى.. مالك؟
وقالت ليلى فى توسل :
- مافيش حاجة.. أعملى معروف يا طنط.. خلينى أكلم فتحى.
وقالت عواطف فى حزم، كأنها تنبهها إلى خطأ وقعت فيه :
- الأستاذ فتحى مش موجود يا ليلى.
وقالت ليلى :
- ماتعرفيش راح فين.. ده أنا عايزاه ضرورى.. ضرورى خالص.
وقالت عواطف فى دهشة :
- فيه حاجة أقدر أقولها له لما ييجى.
وقالت ليلى فى يأس :
- لأ.. مرسيه.. كنت عايزة أسأله فى حاجة خاصة بالمعهد.
وقالت عواطف كأنها لا تصدقها :
- أول ما يرجع، حاأخليه يضرب لكم تليفون.
وصاحت ليلى بسرعة :
- لأ.. لأ.. أنا حابقى اتصل بيه.. بونسوار يا طنط.
ثم القت السماعة قبل أن تسمع رد تحيتها.
وخرجت، ووقفت أمام دكان البقال، وقد بدأت الدموع تتجمع فى عينيها من جديد.
أين تذهب؟
وخطت فى اتجاه محطة الأتوبيس لتعود إلى بيتها.
ثم عادت ووقفت.
واستدارت.
وسارت نحو الشقة.. ذليلة.. منكسرة.. تعبة.. ومنديلها الصغير فى يدها تلتقط به دموعها.
ودخلت العمارة، وصعدت إلى الشقة، وهى تكاد تسقط فى كل خطوة.. لا ترى شيئا مما حولها، ولا تحس إلا بقطرات الدمع فوق وجنتيها.. وفتحت باب الشقة بيد مرتعشة، ثم أوصدته وراءها، وألقت نفسها فوق

المقعد الوحيد فى الصالة الخارجية.. وألقت رأسها فوق كفيها.. وعادت تبكى فى صمت..

وفى رأسها زوبعة.. تسمع خلالها مناقشات حادة بينها وبين نفسها.. مناقشة بين اثنين.. أحدهما ضعيف يلح عليها أن تعود إلى بيتها.. إلى أمها.. والآخر عنيد يلح عليها أن تتمسك بخطتها.. أن تصر على الهرب.. وينشر فى قلبها زهور الأمل.. سيأتى فتحى الآن.. وسيواجهان عائلتها سويا.. وستقوم ضجة.. ضجة حول البطلة التى هربت فى سبيل الحب.. وينتصر الحب.. وتخضع عائلتها.. ويتركونها حرة.

ورفعت رأسها من وسط هذه المناقشات، فرأت الظلام يحيط بها.. ظلام ثقيل يتحرك حولها، كأنه دوامة سوداء.

وخافت.

ارتعدت من الخوف.. وانكمشت فى جلستها، ورفعت قدميها ووضعتهما فوق المقعد كأنها تخاف فئران الليل.

ثم استجمعت شجاعتها وقامت مرة واحدة، وأضاءت اللمبة الكهربائية الوحيدة فى الشقة.. ثم اندفعت نحو الباب، وضفيرتها ترتعش خلف ظهرها، وأغلقته بالمفتاح، وشدت فوقه الترباس.

وعادت تلف فى الحجرة، فى خطى بطيئة زاحفة، وقلبها واجف، ونظراتها ترتجف.. ثم جلست أمام البيانو، وأخذت تنقر على مفاتيح الأنغام بأصبع واحد.. نقرات ليس لها معنى، ولا تكون لحنا.. إنما فقط تريد بها أن تبدد الصمت من حولها.. وأحست أن هذه النقرات تزيد الصمت ثقلا.

ثم فجأة سمعت صوت مفتاح يدور فى القفل من الخارج.. وظنت أنها واهمة.. ولكن المفتاح عاد يدور فى القفل.. وارتفعت فوق الباب خبطات بدأت هادئة.. ثم أصبحت عنيفة.. وصوت يصيح :

– ليلى.. ليلى. افتحى يا ليلى !

وهمست كأنها فى حلم :

– فتحى.

ثم اندفعت نحو الباب، وأزاحت الترباس بيد يهزها الانفعال وفتحت، وهى تصيح كأنها طفلة عاد أبوها بعد غيبة طويلة :

- فتحى.. فتحى.
وألقت نفسها فوق صدره، وانهارت دموعها، وقالت وسط نشيجها :
- اتأخرت ليه يا فتحى.. اتأخرت ليه..
وفتحى يضمها إلى صدره.. ويربت على ظهرها فى حنان.. ووجهه حزين.. وقال هامسا :
- ماعرفتش إلا دلوقت يا ليلى.
ورفعت رأسها من فوق صدره، ونظرت إليه، ثم سقطت بشفتيها فوق خديه واخذت تقبله فى كل مكان من وجهه، وهى تتمتم :
- الحمد لله.. كنت فاكرة أنك مش حاتيجى.. تعرف أنا هنا من أمتى.. من الصبح.
ثم ابتعدت عنه، وقالت كأنها تتباهى أمامه بثوب جديد :
- فتحى.. أنا هربت.
ولم يرد فتحى.. ازداد وجهه تجهما، وعقد ما بين حاجبيه، ولمعت مقدمة رأسه الخالية من الشعر، كأنما ينعكس عليها وهج من نار.. ثم دفع الباب بيده فأغلقه، وابتعد عنها، وألقى بنفسه فوق المقعد، وأسند رأسه فوق يده.
ونظرت إليه ليلى فى دهشة.. وقالت وقد خفتت فرحتها، كأنه سكب فوقها ماء باردا :
- فتحى.. مالك مابتتكلمش.. با أقولك أنا هربت.
وقال فى صوت خفيض دون أن يرفع إليها عينيه :
- عارف.
قالت فى دهشة وعصبية أثارتها بروده :
- عارف ! عرفت منين !
قال وهو يتنهد كأنه يحمل جبلا فوق صدره :
- مامتك قالت لى.
ثم رفع رأسه إليها، واستطرد قائلا :
- عملتى كدة ليه يا ليلى ؟!
واحتدت النظرات فى عينى ليلى، وقالت فى غضب :

- مش عارف عملت كدة ليه.. بقالى من الصبح وأنا بادور عليك، ولسة حضرتك مش عارف أنا عملت كده ليه.. علشانك.. علشان باحبك.

وخفض عينيه وقال وهو يتنهد :

- وبعدين.. ناوية تعملى ايه ؟

قالت وهى تنظر إليه بكل عينيها :

- حاقعد هنا على طول.. حا أعمل اللى انت عايزه.

قال فى هدوء :

- أنا عايزك ترجعى البيت.

ونظرت إليه طويلا.. ثم قالت ساخرة :

- ده بيتى.. البيت اللى قصدك فيه اسمه البنسيون.. فاكر إنت اللى قلت كدة.

قال فى هدوء :

- ارجعى البنسيون.

وصرخت :

- إنت مابتحبنيش.. أنت مش عايزنى.. أنت مش عارف هم بيعملوا فىّ ايه.. بيحبسونى.. محرمين علىّ أشوفك ولا أكلمك فى التليفون... و...

وقال يقاطعها وهو لا يزال هادئا :

- لهم حق.. لازم تعرفى أننا غلطانين، وعذرنا فى غلطنا إننا بنحب بعض.. ولكن أهلك لو غلطوا معانا.. لو وافقوا على غلطنا، مايبقاش لهم عذر.

ونظرت إليه فى صمت.. طافت بعينيها فوق وجهه كأنها ترى فيه إنسانا جديدا.. ثم خطت فى ضعف، وألقت نفسها فوق مقعد البيانو.. وقالت فى صوت خافت :

- إنت ما بتحبنيش.

وقال بسرعة كأنه يصد كذبة كبيرة :

- أنا باحبك يا ليلى.. وإنت عارفة إنى باحبك.

قالت :

- لو كنت بتحبنى ماكنتش قلت: إن حبنا غلطة.. إننا غلطانين.

قال :

- حبنا مش غلط.. عمر ما كان الحب غلط.. إنما الغلط هو إننا نعذب الناس بحبنا.. نعذب مامتك.. وأخواتك.

قالت فى هدوء :

- ومراتك.

قال فى هدوء أيضا :

- ومراتى.

وانفجرت صارخة :

- تسمح تقول لى أنت عاقل كدة من أمتى.. ايه اللى حط عليك العقل ده كله.. ماكنتش بتقول لى الكلام ده من الأول ليه.

قال وصراخها يقطع فى أعصابه :

- أنا مش عاقل.. مصيبتى إنى مش عاقل ولا مجنون.. لا أنا محصل عقل ولا جنان.. والناس محتارة معايا، مش عارفة تعاملنى على إنى عاقل، ولا على إنى مجنون.. لو كنت عاقل كنت استريحت وريحت الناس.. ولو كنت مجنون كنت برضة استريحت و ريحت الناس.

ثم قام من على مقعده، واستطرد قائلا :

- انتى فاكرة انى مش عايزك تهربى.. بالعكس.. أنا من يوم ماحبيتك، وأنا أتمنى أنك تهربى.. وأهرب معاكى.. ونروح بلد تانية.. بلد مافيهاش حد يعرفنا ولا نعرف فيها حد.. ونعيش زى ما نكون.. فقرا.. جعانين.. واشتغل شيال، وارجع لك آخر النهار شايل رغيفين وحتة جبنة.. إنما.. إنما مش قادر أحقق أحلامى.. بيتهيألى وأنا بافكر التفكير ده إنى انانى.. إنى باحطمك علشان أتهنى بيكى.. أنا مش حاخسر حاجة لما تهربى، إنما انتى اللى حاتخسرى.. كل حاجة.

قالت :

- إنت مش عايز تحمل مسئوليتى.

قال :

- أنا عايز.. بس مش قادر.. الحاجة الوحيدة اللى لازم أعملها لك، مش قادر أعملها.

قالت :

- ايه هى الحاجة دى !

قال وهو ينكس رأسه :

- إنى أتجوزك.

وسكتت برهة.. ثم قالت كأنها تكذب على نفسها :

- أنا مطلبتش إنك تتجوزنى.. ولا أرضاش إنى أتجوزك.. أنا ما جبتش سيرة الجواز.

قال :

- عارف.

وقامت واقفة وهى تشيح عنه بوجهها، ثم دخلت الحمام، والتقطت فرشة الأسنان وأنبوبة المعجون، والمكحلة، وأصبع الروج، ووضعتهم فى جيبها، ثم عادت إلى الصالة متجهة إلى باب الشقة.. وصاح فتحى يستوقفها :

- رايحة فين ؟

قالت :

- مروحة.. رايحة بيتنا.

وضغطت على كلمة «بيتنا» كأنها تصفعه بها.

قال :

- وحاتقولى لهم ايه ؟

قالت فى هدوء ورموشها ثابتة فوق نظرتها :

- حا أقول لهم إنى جيت لك، وإنك طردتنى !

قال بسرعة :

- لأ.. قولى لهم إنك كنتى عند واحدة صاحبتك.

وابتسمت ساخرة، وقالت :

- خايف يعرفوا إنى كنت عندك.

وقال فى ثبات :

- هم عارفين أنك كنت عندى.. إنما ساعديهم على أنهم يكدبوا على نفسهم.. ماتبقيش قاسية عليهم.. انتى ماتعرفيش مامتك كانت حالتها ازاى وهى بتكلمنى.

وسكتت.

وتقدم ليفتح لها الباب ويخرج معها، وانحنى يحاول أن يقبلها، فأشاحت عنه، وقالت فى حدة :

- ابعد عنى.

وسكت.

وفتح الباب.. وخرجا سويا.. ونزلا إلى الشارع.. دون أن يتكلما.. ووجهها تائه فى سحابة من الغضب، والإحساس بالخيبة.

وقال عندما وصلا إلى الشارع :

- أظن ناخد تاكسى.

قالت :

- لأ.. حاروح لوحدى.

قال :

- لأ.. حاتروحى معايا.. ومش حاتروحى على طول.. لازم تفوتى على واحدة صاحبتك الأول، وتخليها تضرب لمامتك تليفون، تطمنها عليكى.

وقالت فى حدة والدموع تنبثق من عينيها :

- أنا باكرهك.. باكرهك.

وقبض على ذراعها بقوة، دون أن يرد عليها، وجذبها ناحية موقف سيارات الأجرة، ودفعها داخل إحدى السيارات، وقفز وراءها، وقال :

- نروح لمين !

وقالت وهى لا تنظر إليه :

- الساعة دلوقت بقت تسعة، وما أقدرش أروح لحد.. دى تبقى فضيحة تانية.

قال :

- مالكيش واحدة صاحبتك، تقدر تساعدك.

وقالت فى همس كأنها استسلمت لمنطقه :

- عيشة.. فى جاردن سيتى.

وتحركت بهما السيارة، ووصلا إلى بيت عائشة، وهما صامتان.. لم يتبادلا كلمة واحدة..

ونزلت أمام عمارة كبيرة، دون أن تلتفت إليه.. وظل يرقبها بعينين حزينتين حتى اختفت داخل العمارة.

وصعدت.

ووقفت أمام شقة صديقتها.. وساوت ثوبها، وشدت قامتها، ثم مدت أصبعها وضغطت على الجرس.. ثم فجأة تساءلت :

لماذا تطيعه.. لماذا تفعل كل ما يأمرها به.. لماذا لا تهرب إلى مكان آخر.. لماذا لا تذهب إلى بيتها مباشرة كما قررت.. لماذا تخضع لمنطقه.. هل لا تزال تحبه.. بعد كل هذا، هل تستطيع أن تحبه؟

وفتحت الباب، وأطلت منه السيدة الكبيرة التى تعودت أن تصحب عائشة إلى المعهد.. وقالت فى دهشة :

– ست ليلى !!

ثم سكتت كأن الدهشة قطعت لسانها.

وقالت ليلى فى توسل :

– وحياتك يا ست نعيمة.. اقدر اشوف عيشة.. اصلى عايزاها فى حاجة مهمة خالص.

وقالت نعيمة :

– اتفضلى يا بنتى. اتفضلى !!

وقادتها نعيمة بين قطع من الأثاث الهادىء الوقور.

وجلست ليلى مرتبكة، وهى تحاول أن تجمع تحت لسانها الكلمات التى تقولها لصديقتها.

وبعد برهة جاءت عائشة، ترتدى قميص نوم وفوقه روب دى شامبر.. وهى تسير فى خطوات ثابتة حرة، كأنها ليست عمياء..إنها تبدو هنا أقل عمى مما تبدو فى المعهد.. وقالت وهى تدخل :

– ليلى.. خير إنشا الله.. خضتينى.

وقامت ليلى وتقدمت منها تصافحها، قائلة :

– أنا آسفة يا عيشة اللى أزعجتك.. أصلى عايزاك فى حاجة مهمة خالص.. أنا فى ورطة كبيرة.. إنما كل اللى حاأقوله لك سر.. ما حدش يعرفه أبدا.. ولا طنط.

وظنت عائشة أن نعيمة دخلت وراءها، فالتفتت، وقالت :

- سيبينا لوحدنا يا نعيمة.

وسكتت ليلى، فلم تكن نعيمة قد جاءت مع عائشة.. وتنبهت عائشة إلى غلطتها بسرعة، فقالت :

- كنت فاكراها واقفة وراء الباب.

ثم سارت بخطوات ثابتة، وجلست على الأريكة، وقالت وهى تبتسم ابتسامة حلوة هادئة :

- تعالى اقعدى يا ليلى.. احكيلى.. ولكنها لم تستطع.. اخذت تنظر إلى صديقتها، وهى تتمنى أن تصبح عمياء مثلها.. أن تغمض عينيها ولا تفتحهما أبدا، وتستريح فى ظلامهما.. ثم فجأة أجهشت بالبكاء.. وقالت عائشة وهى تمد يدها وتمسك بيد صديقتها وتضغط عليها فى حنان :

- هو أول الحكاية عياط.

وقالت ليلى وسط دموعها :

- أنا هربت النهاردة من البيت.. ماما كانت حابسانى ومجنننانى.. طلع فى عقلى أهرب.. ومن الصبح لغاية دلوقت مايعرفوش أنا فين.

وقالت عائشة وهى تبتسم ابتسامة مرحة تحاول أن تهدىء بها ليلى :

- يا بختك.. ده أنا طول عمرى نفسى أهرب ولو ساعتين !

وقالت ليلى فى لهجة جادة بلا تفكير وهى تجفف دمعها :

- اوعى.. ده الهرب دمه تقيل قوى.. ده أنا كنت حاطق.. كنت تايهة وحيرانة، ومابطلتش عياط.. وبعدين قررت إنى ارجع تانى وعايزة أقول لهم إنى كنت عندك.

وسكتت عائشة قليلا، ثم قالت :

- ولما مامتك تسأل مامتى.

وقالت ليلى :

- مش حتسألها.. أصلها بتصدقك على طول.. وانتى دلوقت تضربى لها تليفون، وتقولى لها إنى اتغديت عندك، وقعدنا نتمرن على البيانو، وراجعة دلوقت.

وابتسمت عائشة، وقالت فى طيبة، تشوبها فرحة، كأنها تشترك فى مغامرة مثيرة.

- حاضر.

ثم صاحت :

- نعيمة.. يا نعيمة.

والتفتت إلى ليلى قائلة :

- لازم بتعمل لك شربات، ولا بتجيب لك كوكاكولا.

وجاءت نعمية بعد فترة، وقالت لها عائشة فى لهفة :

- هاتى التليفون.. قوام !

وخرجت نعيمة.. و الصديقتان صامتتان.. عائشة لا تحاول أن تسأل ليلى أين كانت منذ هربت من البيت؟ وليلى لا تقول شيئا.

وجاءت نعيمة بالتليفون، ووضعته بين يدى عائشة.

وأدارت عائشة أرقام القرص، بلا ارتباك، ثم قالت :

- أقدر أكلم طنط.. أنا عيشة !

ووضعت ليلى أذنها بجانب أذن عائشة فوق سماعة التليفون، وسمعت صوت أختها نبيلة، تصيح فى لهفة

- عيشة.. ماشفتيش ليلى.

وقالت عيشة فى هدوء :

- ما هى عندك من الصبح.. خللى طنط تكلمنى.

وأحست ليلى بقلبها يخفق عندما سمعت صوت نبيلة أحست بفرحة.. لم تكن تعرف أنها تحبها إلى هذا الحد.

ثم سمعت صوت أمها تقول فى التليفون بصوت حشرجة الانفعال :

- عيشة.. طمنينى يا حبيبتى.

وقالت عائشة :

- ازيك يا طنط.. كنت عايزة أقولك إن ليلى عندى من الصبح.. وراح علينا الوقت واحنا بنتمرن.. وحاترجع البيت حالا.. تحبى تكلميها.

وقالت الأم بعد تردد :

قوليلها ترجع قوام.. مرسيه يا عيشة.. الله يطمنك يا بنتى.

وارتجفت ليلى وهى تسمع صوت أمها.. أحست بخطئها ينتصب أمامها.. كبيرا.. مخيفا.. أحست كأنها مجرمة.

وقامت بعد أن وضعت عائشة السماعة، قائلة :

- أما أنزل بأه.. أدعى لى، ربنا يستر على اللى حايحصل لى.

وقالت عائشة :

- مش تشربى الكوكاكولا.

وقالت ليلى :

- لأ.. مرسيه يا عيشة.. مرسيه قوى.

وخرجت.

ووجدت فتحى لا يزال ينتظرها فى الشارع، داخل السيارة الأجرة.. ولم تقل له شيئا.. ولكنها أحست أنها لا تكرهه.. أحست كأنها تريد أن تشكره لأنه يعيدها إلى بيتها.. ثم سرح خيالها وهى تتأهب لمواجهة أهلها.

١٦

كانت عنايات هانم راقدة فوق سريرها منبطحة على وجهها، وجسدها العارى ملفوف فى ملاءة السرير، أم نجية تدلكها، وتقرص بكلتا يديها فى لحمها كأنها تحاول أن تنزع قطعا منه، وهى لا تكف عن الكلام ورواية أخبار البيوت التى تدخلها.. وعنايات هانم لا تستمع ولا تعلق بشىء، فلم يكن من عادتها أن تعلق على الأنباء التى تنقلها لها أم نجية، ولا كانت تسمح لأم نجية أن تلتقط شيئا من أنبائها حتى لا ترويها فى البيوت الأخرى.

وتأوهت عنايات هانم فى متعة متزنة، وقالت فى دلال ليس فيه شىء من المبالغة :

– بس بأه يا أم نجية.. تعبتينى.

وقالت أم نجية وهى مستمرة فى تدليكها :

– لسة يا ستى.. اشمعنى أنا ماتعبتش.. ده أنا متهيألى إنى باقلب فى صوابع زبدة.

وقالت عنايات هانم وهى تقوم من رقدتها :

– لأ.. كفاية كدة النهاردة.

ثم قامت من فوق السرير ملتفة بملاءة السرير، وارتدت قميص النوم، ومن فوقه الروب دى شامبر، وتركت أم نجية تجمع أدواتها، وتلتف فى ملاءتها السوداء.. وخرجت إلى الحمام، وهى تقول :

– مستنياكى يوم الاتنين الجاى.. ما تتأخريش.

وقالت أم نجية وهى تنظر إليها فى اعجاب كأنها تنظر إلى جسد من صنع يديها :

– حاضر يا ستى.. من عنية.

ودخلت عنايات هانم الحمام.

وخرجت بعد نصف ساعة، ووجهها يلمع، ووجنتاها موردتان.. ودخلت غرفتها، وارتدت ثوبها.. ثوباً كاملا.. فلم تتعود أن تجلس فى البيت إلا وهى مرتدية ثوبا كاملا.. ثم اخذت تتم زينتها أمام المرآة.. ثم.. ثم فجأة أحست بصمت غريب مريب يملأ البيت.. أحست كأن هناك شيئا ناقصا من البيت.. وحاولت أن تكذب نفسها.. ولكن قلبها يحدثها أن هناك شيئا ناقصا.. قلب الأم.. كأن فى صدرها جرسا يدق ينبهها إلى خطر.

وطافت بوجهها سحابة قاتمة، ولم تستطع أن تتم زينتها أمام المرآة.. وخرجت من غرفتها، واتجهت دون وعى منها إلى غرفة ليلى، وفتحتها وهى تقول فى صوت تحاول أن يبدو طبيعيا :

– ليلى.. يعنى ما سمعتنيش بيانو.

ولكن ليلى ليست فى غرفتها.

وطافت بعينيها فى الغرفة مرة ثانية، كأنها لم تصدق عينيها فى المرة الأولى.

ثم خرجت من الغرفة واتجهت فى خطوات مسرعة إلى غرفة المكتب.. وإلى الصالون.. وإلى البهو.. وفتحت غرفة أحمد.. وغرفة ممدوح.. ولكن ليلى ليست فى البيت.. ورفرفت قلبها كالفرخة الذبيحة، وصاحت تنادى السفرجى والهلع يمزق صوتها :

– محمد.. يا محمد.. فين ستك ليلى ؟

وقال السفرجى وهو واقف أمامها :

– ماشفتهاش يا ست هانم.

وكتمت عنايات هانم هلعها، وضغطت على أصابعها.. إنها فى حاجة إلى كل إرادتها، وكل حزمها، وكل ذكائها، وكل هدوئها.

وقالت للسفرجى فى صوت هادىء :

– طب روح انده لعم عبدالله.

وخرجت وراء السفرجى، لتستقبل عم عبدالله البواب فى الصالة الخارجية.. وعندما جاء.. قالت له وهى تنظر إليه بكل عينيها، كأنها تحذره أن يكذب عليها :

– ست ليلى خرجت إمتى ؟

وقال عبدالله وهو لا يفهم معنى السؤال :
- من مدة ساعة كده.. كنت لسة ما صلتش الضهر.
وقالت عنايات هانم فى حزم :
- طيب روح إنت.
وعادت إلى غرفتها.. والقت نفسها على المقعد الموضوع بجوار النافذة.. ولم تشعر بالخوف على ابنتها، ولكنها شعرت بالثورة عليها. بالغيظ.. تمنت لو رأتها أمامها لتمسكها من شعرها وتدق رأسها فى الأرض.. تضربها.. تقذف نارها فى وجهها.. هذه البنت المتمردة.. لقد خرجت من طاعتها.. تحدتها.. انتهى، لم يعد لها سلطة على بناتها.. ولابد أنها خرجت للقاء فتحى.. هذا الرجل الخسيس الذى يخدع فتاة صغيرة كابنتها.. ولكن فتحى لن ينتصر عليها.. ستوقفه عند حده.. ستحمى منه ابنتها.. ستستردها منه.. وستزوجها لشاب يستحقها.. وتقيم لها فرحا كبيرا.. لا ابتهاجاً بزواج ابنتها، ولكن ابتهاجا بانتصارها على فتحى.. على الدنيا التى تريد أن تغتصب منها ابنتها.
وليس أمامها الآن إلا أن تنتظر حتى تعود ليلى.
ولكن هل تعود ؟
وارتفعت نظرة الهلع مرة أخرى إلى عينى الأم.
ربما قررت أن تخرج، ولا تعود.. أن تهرب !
وغطت الأم وجهها بيديها، كأنها تحاول أن تخفى خيالها عن عينيها.. وأحست بثورتها تذوب، وغيظها يتبخر.. إنها الآن تحس بالخوف.. باللهفة.. بالجزع.. وقلبها يدق.. وأطرافها ترتعش.. وركبتاها تتخليان عنها كأنها لن تستطيع أن تقف على قدميها أبدا.
إنها تعرف ابنتها.. فتاة خيالية.. عاطفية.. عنيدة.. وقد يدفعها خيالها وعاطفتها وعنادها، إلى الهرب.. أو إلى...
لا.. إن ليلى لا تستطيع أن تفعل ذلك.. إنها لا تستطيع أن تقسو على أمها وأخوتها إلى هذا الحد.
هل أخطأت فى حق ابنتها عندما حرمتها من الخروج أو التحدث إلى فتحى ؟
لا.. إنها لم تخطىء.. كان هذا هو ما يحتمه عليها واجبها.. واجبها

كأم.. وليلى فتاة كبيرة، تستطيع أن تفهم.. وتستطيع أن تقدر واجب الأم.. وتحس بقلب الأم.

وأحست عنايات هانم كأنها تتوسل إلى ابنتها ليلى أن تفهمها.. وأن تعذرها.. وأن تعود إليها.

ثم وقفت على قدميها، وأطلت من النافذة، ونظرت إلى الطريق، تبحث عن ليلى بعينيها.. كأنها تنظر منها أن تستجيب لتوسلاتها.

ثم أخذت تلف فى الغرفة، وهى تضرب يدا بيد، وتضغط على شفتيها بأسنانها، كأنها تبحث عن ألم آخر ينسيها الألم الذى بدأ ينطلق فى صدرها.

وهى لا تزال تحادث نفسها.. كيف استطاعت ليلى أن تقسو عليها إلى هذا الحد.. كيف استطاعت أن تكون جريئة إلى هذا الحد؟

وعادت تتذكر نفسها عندما كانت فى سن ليلى، وكانت تحب عبدالسلام.. لقد أحبت حبا أكبر من حب ابنتها، ورغم ذلك لم تحاول الهرب.. لم تحاول أن تخرج عن طاعة أهلها.. لقد كان بجانب حبها حب أكبر.. حبها لأمها ولأهلها.. كان بجانب الحب شىء كأنه الخوف.. خوف كبير، فيه احترام، وفيه اقتناع.. تخاف أمها وأباها وأخاها.. ولكن.. هل كانت حقا تخاف أهلها.. ربما كان هناك خوف آخر.. خوف يثيره إيمانها بالدين، وبالتقاليد، وبمظاهر الشرف، وبما يسمى السمعة.. وجيل البنات الجديد لا يشعر بالخوف، لأنه لا يؤمن بشىء.. لا يؤمن بدين، ولا بتقاليد، ولا بمظهر معين من مظاهر الشرف .. لا يخاف شيئا.. ولا يحترم شيئا.. لا الأم، ولا الأب، ولا الأخ.

وعادت تشعر بالثورة على ابنتها، والغيظ منها.. ومن خلال ثورتها وغيظها، تتمنى أن تعود.. وتعد بأن تصفح.. فقط تعود إليها ابنتها.. وهى تتمتم مع أنفاسها : «يارب.. الستر يارب»!

والساعة الواحدة والنصف ولم تعد ليلى.

والساعة الثانية إلا الربع ولم تعد ليلى.

الثانية.. ولم تعد !

وجاءت فيفى ونبيلة معا من الجامعة.. ودخلتا البيت، وراعهما الصمت الذى يخيم على البيت.. وبحثتا عن ليلى.. ثم دخلتا غرفة أمهما.. وراعهما

أكثر اكفهرار وجهها ونظرات الجزع التى تطل من عينيها، وقالت نبيلة قبل أن تحيى أمها :

- فين ليلى يا ماما.

وسكتت الأم.. لم ترد.

وتقدمت فيفى تقبلها.. وقالت وهى تنظر إليها فى تعجب :

- مالك يا ماما.. حصل ايه ؟

وقالت الأم وهى تتنهد :

- ليلى خرجت من غير ما تقول لى..

ثم لم تستطع الأم أن تقاوم أكثر من ذلك، فطفرت الدموع من عينيها، كأنها تشهد ابنتيها على ما فعلته بها أختهما.

ووجمت البنتان برهة.

ثم تقدمت نبيلة من أمها ولفت ذراعها حول كتفها، وأخذت تربت عليها، قائلة :

- ما تزعليش نفسك يا ماما.. زمانها جاية.

وانطلقت فيفى قائلة فى حدة :

- لازم راحت تقابل سى فتحى زفت.

وقالت نبيلة :

- ما يمكن تكون راحت المعهد.

وقالت فيفى ساخطة :

- ولما هى رايحة المعهد، ما قالتتش لماما قبل ما تخرج ليه.

وقالت نبيلة تدافع عن أختها :

- علشان عارفة إن ماما ماكانتش حاترضى تسيبها تخرج.

وقالت الأم وهى تمسح دمعها بأصبعها :

- المهم إنها لسة ماجتش لغاية دلوقت.. أنا مش حاطمن إلا لما أشوفها قدامى.

وقالت فيفى :

- وزمان أبيه أحمد وممدوح جايين.. حانقول لهم ايه ؟

قالت نبيلة :

- نقول لهم إنها فى المعهد.. يعنى حانقول لهم ايه ؟

وسكتت فيفى وهى تلوى شفتيها.
وأخرجت نبيلة منديلها الصغير، وأعطتـه لأمها لتمسح به دموعها، وهى تقول :
- كفاية يا ماما.. زمانها جاية.
وقالت الأم، وهى تتنهد :
- مين عارف هى راحت فين.. ولا عملت فى نفسها إيه ؟
وقالت فيفى ساخرة :
- اطمئنى.. مـا عملتش فى نفسـها حاجة.. زمـانها جاية، ومعـاها ميت حجة، وعذر.
وارتفعت صوت أقدام خارج الغرفة، وصوت ممدوح يصيح فى مرح :
- الأكل.. عايزين ناكل.
وجفـفت الأم بقيـة دموعـها بسرعـة، واعتـدلت فى جلستـها، وأراحت قسمات وجهها، ثم نظرت نحو الباب تستعد لاستقبال ممدوح.
وأطل ممدوح من البـاب، ونظر إلى أمه وإلى أخـتيـه، وقال وابتـسامـة كبيرة تملأ وجهه :
- وإنتم عـاملين مـؤتمر نسائـى ولا إيه.. إيه رأيك يا مـاما لو رشـحت نفسك فى الانتخابات.. ولا أقول لكم.. فيفى هى اللى ترشح نفسها.. علشان هى اللى تنفع نايبة.
وقالت فيفى :
- يا دمك يا أخى.. دمك خفيف قوى.
وقال ممدوح ضاحكاً :
- مرسيه يا حضرة النايبة.
ثم التفت إلى أمه، وقال :
- مش حناكل يا ماما.
وقالت الأم فى هدوء مفتعل :
- زمان أخوك أحمد جاى.
وقال ممدوح :
- أمال فين ليلى.
وقالت نبيلة بسرعة :

- فى المعهد.. اتغدت ونزلت.
وقال ممدوح :
- يا بختها.. اتغدت !
وجاء أحمد.. ودخل اليهن، معقد الوجه، سارح العينين.. وانحنى يقبل يد أمه.. وقالت الأم وهى تشد وجهه إليها وتقبله فوق خده :
- ياللا يا حبيبى.. الغدا جاهز.. وأخوك ممدوح قاعد يزعق من الصبح.
واجتمعت العائلة حول مائدة الغداء.
وتلفت أحمد فى الوجوه التى تحيط به.. وربما لاحظ امتقاع وجه أمه، والنظرات الشاردة فى عينى نبيلة، والسخط المرتسم بين شفتى فيفى.. وسأل فى هدوء :
- فين ليلى؟
وقالت الأم وهى لا تنظر إليه :
- اتغدت، وراحت المعهد.
وقال أحمد وهو يلقى الطعام فى فمه دون أن يحس بطعمه.
- مش كانت بطلت المعهد، وحتاخد دروس فى البيت.
وتبادلت فيفى ونبيلة النظرات، ثم التفتتا إلى أمهما، كأنهما تستنجدان بها لتبحث عن جواب.
وقالت الأم وعيناها منكستان فى طبقها :
- ما هى راحت تشوف الدروس اللى فاتتها.
وتذكرت الأم أن هذا هو ما طلبته منها ليلى قبل أن تخرج.. طلبت منها أن تسمح لها بالذهاب إلى المعهد لتراجع ما فاتها من دروس.. ورفضت.. يا ليتها سمحت.. حتى لو لم تكن ليلى صادقة، وكانت تنوى الخروج لملاقاة حبيبها.. لو أنها سمحت لها بالخروج، فربما كانت قد عادت الآن ولما سببت لها كل هذا العذاب.
ولم يعلق أحمد بشىء.. عاد يلقى الطعام فى جوفه دون أن يحس به.. وعاد يشرد وراء همومه.. ويلعق جرحه الذى لم يندمل بعد.. الجرح الذى يشق كرامته وشخصيته منذ جعل من نفسه سخرية فى الحفلة التى دعته إليها شهيرة.. وكل ما يفعله من يومها هو أن يلعق جرحه.. وحيدا.. بعيدا عن كل الناس.. بعيدا عن شهيرة.. إنه لا يريد أن يراها.. وهو لم يذهب إلى

النادى حتى لا يلقاها أو يلقى أحدا من المدعوين.. ولم يبق فى البيت حتى لا تحادثه شهيرة فى التليفون.. لقد أصبح كأنه يخاف شهيرة.. يخاف هذه النظرة التى تملؤها بشفقتها كأنها تنظر إلى مريض.. إنه لا يريد شفقتها، ولا حنانها.. لا يريد شيئا إلا أن يتركوه يلعق جرحه فى هدوء.

ودق جرس التليفون.

وانتفضت آذان كل أفراد العائلة.

ونظرت الأم لابنتيها فى لهفة.. ربما كانت ليلى.. وانكمش وجه أحمد كأنه شعر فجأة بمغص.. وقفز ممدوح ليرد على التليفون.. وصاح أحمد وراءه :

– لو حد سأل علىّ.. قول له مش هنا !

وظلت العائلة متوترة الأعصاب إلى أن عاد ممدوح، وقال بلا مبالاه، وهو يمسك بالشوكة ويقذف فى فمه بكمية من الأرز :

– النمرة غلط.

ونكس الجميع رؤوسهم فوق أطباقهم.

وانتهت العائلة من تناول الغداء.. وقامت فيفى ونبيلة وراء أمهما ودخلتا معها إلى حجرتها.. ولحق ممدوح بأخيه أحمد ودخل وراءه إلى غرفته، وقال فى لهجة جادة وابتسامة ضيقة معلقة بين شفتيه :

– أنا عايز أكلمك فى موضوع مهم.

وقال أحمد يقاطعه وهو لا ينظر إليه :

– ماعنديش فلوس.. مفلس !

وقال ممدوح وهو لا يزال يبتسم :

– الدور ده مش عايز فلوس.. عايز حاجة أكبر من الفلوس.

ونظر إليه أحمد فى دهشة وقال :

– عايز ايه ؟

وقال ممدوح ضاحكا :

– فلوس برضة.. بس فلوس كبيرة.. حسبة ألفين جنيه.

ويحلق أحمد فى وجه أخيه بغباء، ثم قال :

– اسمع.. إذا كنت ناوى تهزر.. أنا مش رايق لك.

وقال ممدوح :

- ده مش هزار.. أنت فاكر المخرطة اللى كلمتك عنها.. أنا درستها كويس.. ودرست امكانياتها.. ولى واحد صاحبى اسمه الاسطى عفيفى مستعد يشاركنى فيها.. الدور ده أنا ماشى صح.. كل حاجة عامل حسابها كويس.. والالفين جنيه اللى حادفعهم حيبقوا اربعة فى سنة واحدة.

وقال أحمد :

- تسمح تفكر فى درسك شوية.. وبعد ما تنجح ابقى تعالى كلمنى.

وقال ممدوح فى لهجة جادة :

- ما هو ده النجاح يا أحمد.. بصراحة أنا ما بفكرش فى دروسى.. وإذا كنت عايز صراحة أكتر.. أنا ما بروحش الجامعة.

وقال أحمد فى توسل :

- ممدوح.. أنا تعبان وزهقان.. بلاش الموضوع ده دلوقت.. اعمل معروف بلاش.. خليه نتكلم فيه بعدين.

وقال ممدوح :

- أنا عايزك تساعدنى.

وقال أحمد :

- دلوقت مش حا أقدر أساعدك ولا حتى بكلمة.. بعدين !

وقال ممدوح :

- على كل حال أعملوا حسابكم على ألفين جنيه.

وخرج ممدوح من الغرفة، وأخوه ينظر وراءه فى دهشة كأنه ينظر وراء مجنون.

ثم أفاق من دهشته.. وجلس على حافة سريره، وعاد يفكر فى شهيرة.. وأذانه متجهة ناحية التليفون.. إنه يريدها أن تسأل عنه.. يريدها أن تسأل عنه ليهرب منها، ليرفض أن يرد عليها.. ولكنه يريد أن يطمئن إلى أنها تسأل عنه.

وساد البيت سكون حزين.

وربما لاحظت أحمد وممدوح أن أختيهما تلازمان أمهم فى غرفتها، أكثر من العادة.. ولكنهما لم يأبها.

ثم فجأة قرر أحمد أن يخرج من البيت، ليهرب من التليفون الذى ينتظره حتى لا يرد عليه.

وخرج وراءه ممدوح، ليذهب إلى ورشة الأسطى عفيفى.

وفيفى ونبيلة جالستان مع أمهما يخيم عليهن وجوم حزين والساعة الرابعة، ولم تعد ليلى.

- أنا خلاص مش قادرة أستحمل.. فيفى، أطلبى خالك فى التليفون.

وانتفضت نبيلة كأن ذكر خالها، قد ذكرها بالجحيم.

وقالت فى توسل :

- استنى شوية يا ماما.. قبل ما نقول لخالى ونعمل فضيحة.

وقالت الأم فى حدة :

- لا.. لو كانت ناوية ترجع كانت زمانها رجعت.. اطلبى خالك يا فيفى.

ومدت فيفى يدها إلى التليفون، ثم عادت وسحبتها، كأنها لا تجرؤ.

وعادت نبيلة تقول فى توسل :

- طيب نسأل عليها فى المعهد الأول.

وقالت فيفى :

- أحنا حانضحك على بعض يا نبيلة.

وقالت نبيلة :

- وماله يا ستى.. يمكن راحت هناك.. مين عارف.

وأمسكت نبيلة بالتليفون، وطلبت رقم المعهد، وسألت عن ليلى.. إنها ليست هناك.. ولم تذهب إلى هناك.. ولم يرها أحد هناك.

وقالت الأم بعصبية :

- با اقول لكم اطلبوا خالكم.

وقالت نبيلة كأنما خطرت لها فكرة :

- نطلب فتحى.. ونسأله.. يمكن يعرف هى فين ؟

وسكتت الأم كأن هذه الفكرة راودتها من قبل، ولم تجرؤ على تنفيذها، والبوح بها، تشبثاً بكرامتها.

وقالت فيفى فى حدة :

- احنا نكلم الراجل السافل ده.

وقالت نبيلة وهى تدير قرص التليفون :

- سافل.. سافل.. المهم أختنا.

ثم قالت فى التليفون عندما سمعت صوت زوجة فتحى ترد عليها :

– طنط.. أنا نبيلة.. ازيك يا طنط.. من فضلك أقدر أكلم الأستاذ فتحى.
وسمعت عواطف تقول :
– فتحى مش هنا يا نبيلة.. خرج من الصبح ولسة ماجاش.
وقالت نبيلة :
– ما تعرفيش راح فين.. ده احنا عايزينه ضرورى !
وقالت عواطف :
– خير.. فيه حاجة.
وقالت نبيلة فى تلعثم :
– أصل.. أصل.. أصل فيه جماعة قرايبنا عندهم فرح وعايزينه يكلم صباح علشان تعمل لهم تخفيض.. ما تعرفيش هو فين يا طنط.
وقالت عواطف :
– راح الفيوم عند واحد صاحبه.. زمانه راجع.. وأول ما يرجع حاأخليه يتصل بيكم..
وقالت نبيلة :
– مرسيه يا طنط.. أوريفوار.
ووضعت سماعة التليفون، وهى تقول ساهمة :
– مش فى البيت.
وقالت فيفى فى حدة :
– طبعا مش فى البيت.. تفتكرى إنها حاتهرب وتروح له البيت.
وقالت نبيلة وهى لا تزال ساهمة :
– راح الفيوم.
وقالت فيفى :
– تفتكرى إنها راحت معاه ؟!
وقالت الأم صارخة، وهى تقوم واقفة وتخطف التليفون من يد ابنتها :
– هاتى التليفون ده.
وأدارت رقم بيت أخيها عزت راجى، ثم قالت فى سماعة التليفون وهى تكاد تصرخ :
– أخويا.. أنا عايزاك حالا دلوقت.
وقال عزت راجى كأنه يتثاءب :

- حصل حاجة.

وقالت الأم فى صوت يخنقه الانفعال :

- أيوه حصل.. تعالى حالا.

ثم ألقت سماعة التليفون.. وألقت نفسها على المقعد.. وأجهشت بالبكاء.. بكاء حادا عصبيا.. تنحدر فيه الدموع فوق النشيج، كأنها تجتاز طريقا مليئا بالصخور.

واقتربت نبيلة منها وقالت وهى تهم بأن تضع ذراعها حولها :

- يا ماما.

ولم تتم.. بكت هى الأخرى.. جلست على الشيزلونج، وأخذت تنشج كنشيج أمها.. وجسدها يهتز كله، كأنها تعصره دمعا.

ونظرت فيفى إليهما وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بمظهر السخط فوق وجهها :

- ايه لزوم العياط دلوقت.. يعنى هو العياط حايرجع ليلى.. هى لو كانت عندها قلب كانت عملت كده.

ولم يرد عليها أحد.

وأخذت تنقل عينيها بين أمها وأختها.. ثم فجأة أجهشت بالبكاء، وجلست بجانب نبيلة، وأخذت منديلها الصغير من جيبها، وهى تقول :

- يارب أحنا كنا عملنا ايه علشان تنزل علينا الفضايح دى كلها.

والساعة الخامسة وليلى لم تعد.

والبيت فى مأتم، كأنها لن تعود أبدا.

وفى الساعة السادسة جاء الخال.. مرتديا أزهى حلله، وسلسلة ذهبية عريضة تتدلى فوق كرشه.. ورائحة عطر نفاذ تفوح من وجهه الحليق.. وكان يبتسم فى وقار.. لم ينزعج عندما استدعته شقيقته، فقد تعود منها أن تستدعيه كثيرا، وأن تجسم مشكلاتها الصغيرة بحيث تبدو كفضائح.. لم يكن ينتظر أكثر من أن يكون ممدوح قد طلب مزيدا من النقود..

أو أحمد عاد يفكر فى الاستقالة.. أو احدى البنات لها شكوى من الجامعة.

وخرجت الأم لتستقبله فى البهو الخارجى.

ونظر فى عينيها الحمراوين المورمتين من أثر الدموع، وأحس أن

المشكلة أكبر مما يتصور.. وسحب ابتسامته، وقال فى لهجة جادة :
- مالك حصل ايه ؟
وقالت الأم وهى تجلس على الأريكة العريضة، وتعود تبكى :
- ليلى خرجت من الصبح، ولسة ماجاتش.
وقال الخال :
- راحت فين؟
وقالت الأم :
- ما أعرفش.
وقال الخال بحدة :
- ماقالتش هى رايحة فين ؟
وقالت الأم :
- لأ.. خرجت من غير ما أشوفها وقال الخال بعد برهة :
- وتفتكرى تكون راحت فين ؟
قالت وقد ارتفع صوت نشيجها :
- ما أعرفش.. ما أعرفش.. دور لى عليها.. اسأل فى المستشفيات.. فى البوليس.. اعمل أى حاجة يا أخويا.
وسكت الخال فترة، ثم قال وهو يحاول أن يبدو هادئا :
- انتم اتخانقتم.. اتخانقتى معاها ؟
وتنهدت الأم فى صوت ضعيف كأنها تعتذر عن خطأ :
- أيوه.. منعتها من أنها تخرج لوحدها.
وقال الخال كأنه يستحث أخته على الكلام :
- ليه ؟
قالت :
- غلطانة.. أنا غلطانة.. كنت فاكرة أنى بأربيها.
وعاد الخال يسكت.. أحس أن أخته لا تريد أن تطلعه على كل شىء.. ثم قال كأنه يفاجىء أخته حتى تبهرها المفاجأة فتعترف :
- هى ليلى بتحب ؟
ونظرت إليه الأم بعينين واسعتين، ثم أرخت عينيها، وقالت فى ضعف :
- أيوه.. بتحب.. فاهمة إنها بتحب.

وقال الخال، وقد استراح قليلا :

- وعايزة تتجوز اللى بتحبه، مش كدة؟

وقالت الأم :

- لأ..

وقال الخال فى دهشة :

- ليه.. ازاى ده.

قالت الأم وهى تطأطىء رأسها :

- لأنه متجوز.

وصرخ الخال :

- متجوز.. ازاى تحب واحد متجوز.. أدى آخرتها.. أنا البنت دى طول عمرى خايف عليها.. وطول عمرى أقول لك لازم تجوزيها.. وحضرتك تعارضى، وتقولى لسة بدرى.. وآدى اللى حصل..

وقالت الأم وقد عادت تبكى :

- اعمل معروف يا أخويا.. دور لى عليها.. هاتهالى.. اعمل حركة.. اعمل أى حاجة.

وقال الخال فى صوت غليظ خافت، كأنه يصدر حكما :

- مافيش حاجة نقدر نعملها إلا أننا نستناها.

قالت الأم:

- ازاى ده.. نستناها لغاية إمتى ؟

قال :

- لغاية ما ترجع.. أنا مش مستعد أعمل فضيحة.. إنتى لك بنات.. وأنا لىّ بنات.. مافيش قدامنا إلا أننا ندارى فضيحتنا.. ونبلع الهم.. ونستنى.

وسكتت الأم، ودموعها لا تكف.

وقال الخال بعد فترة طويلة :

- البنت دى لازم تتجوز.. تتجوز بأسرع ما يمكن.. بلا موسيقى بلا هباب.. مافيش حاجة خسرتها إلا المزيكة.

وقالت الأم :

- أنا موافقة ياأخويا.. بس ترجع.

وقال الخال :

– السنة اللى فاتت طلبها عصام بدر الدين.. وقلنا له لسة صغيرة.. شاب ناجح صاحب شركة كبيرة ويسوى رقبتها.. ورفضناه علشان إخوتها اللى أكبر منها.. وعلشان حضرتك مدلعاها.. ولسة الشاب عايزها لغاية دلوقت.. من مدة أسبوعين قابلت والده. ورجع كلمنى فى الموضوع تانى.

ورددت الأم :

– أنا موافقة يا أخويا.. موافقة.. بس ترجع !

وعاد الخال يسكت طويلا، ثم قال :

– فين البنات أمال.

وقالت الأم :

– فى أودتهم.

قال :

عارفين اللى عملته أختهم ؟

قالت فى يأس :

– أيوه.

وسكت الخال وهو يزفر.

وبدأت الأم تنشج من جديد، ثم صاحت :

– أنا خلاص مش قادرة استنى.. مش قادرة استنى أكثر من كدة.. هات لى بنتى يا أخويا.. شوفها لى فين.. زمانها موتت نفسها.. يمكن تكون فى مستشفى.. يمكن.

ولم تتم.

مالت رقبتها فوق صدرها.. وسقطت بكل جسدها فوق الاريكة، وهى تتمتم :

– بنتى.. بنتى.

وأسرع إليها أخوها.. وهو يصيح :

– يا فيفى.. يا نبيلة.

وجاءت الأختان، والتفتا حول أمهما يدلكان يديها.. ويخلعان عنها حذاءها.. ثم جرت نبيلة وعادت تحمل زجاجة كولونيا، وتصب منها على وجه أمها.. ويديها.. وقدميها.

وهدأت الأم، كأنها عادت من غيبة طويلة.

وقالت نبيلة :

- قومى استريحى فى أودتك يا ماما.

وقالت الأم وهى تعتدل جالسة :

- لا، أنا حافضل قاعدة هنا لغاية ما ترجع ليلى.

وقال الخال :

- كويس كده اللى عملته أختكم فى أمكم.

ولم يرد عليه أحد.

وجلس الجميع صامتين.. كل منهم سارح فى خياله، يحاول أن يستعين به على الانتظار.. الخال يتخيل ما سيفعله غدا.. سيتصل لعزيز بدر الدين والد عصام، ويقول له : إنه فاتح أخته فى أمر الزواج، وإنها لا تمانع.. وهو يكره عزيز بدر الدين.. ولكن لاشك أنه يتشرف بمصاهرته.. وأخذ يعد فى ذهنه الكلام الذى سيقوله له.. ثم شط خياله مرة واحدة إلى السهرة التى كان مدعوا إليها الليلة، إنها سهرة خاصة فى بيت عبدالسلام.. وسهرات عبدالسلام كلها حلوة.. إنه يستطيع هناك أن يشرب من الويسكى قد ما يشتهى دون أن يخشى على مركزه أو على سمعته.. ويستطيع أن ينطلق فى مرحه.. وقد تأتى المطربة نورهان فتزداد السهرة طلاوة ومرحا.. ولكن.. ونظر فى ساعته.. هل يجب أن ينتظرها حتى تعود.. لماذا لا تعود هذه البنت، وترحمه، وترحمنا جميعا؟

وفيفى سارحة بخيالها وراء أختها ليلى.. إنها تتصورها فى أحضان فتحى.. أين؟ على شاطىء النيل.. ثم يختفى النيل من خيالها بسرعة، وتراهما فى سيارة واقفة على جانب شارع الهرم.. إنه يقبلها.. وترى شفتى أختها الصغيرتين، وشفتى فتحى الغليظتين القاتمتين.. ثم تحس كأن القبلة على شفتيها هى.. تراهما والقبلة تطول بهما.. ثم يختفى منظر السيارة كله من خيالها.. وتراهما فى بيت.. فى غرفة مظلمة.. إنه يحاول أن يخدع أختها.. إنه ذئب.. كل الرجال ذئاب.. وهو يقول لها كلاما حلوا.. ثم تتصوره يقدم لها قطعة من الشيكولاتة.. شيكولاته مسمومة.. وتغيب أختها عن الوعى.. إنه ذئب.. ويجرى خيالها وراء الذئاب.. تتخيل كل التفاصيل.. ويحمر وجهها.. وتتهدج أنفاسها.. وهى لا تزال مسترسلة فى خيالها.

ونبيلة أيضا تتخيل.. أنها تتخيل الأفكار التى تدور فى رأس أختها. لقد

هربت تحت ضغط عنادها.. ولابد أن هناك معركة بينها وبين هذا العناد.. وهى تفكر فى العودة منذ خرجت من البيت.. ولكنها تحتاج إلى وقت حتى تتغلب على عنادها.. ولابد أن فتحى يساعدها على التغلب على العناد.. إنه يحبها.. ولن يتركها تحطم نفسها.. إنه ليس سافلا.. إن أختها لا يمكن أن تحب إنسانا سافلا.. و...

والأم تجرى وراء خيالها.. إنها تتخيل ابنتها داخلة عليها..كيف تستقبلها.. ماذا تقول لها؟ ستضمها إلى صدرها وتقبلها، وتعتذر لها، وتعدها بألا تغضبها مرة ثانية.. لا.. ستضربها.. ستصرخ فى وجهها.. ستقول لها: إنها متمردة. مجنونة، قاسية.. ستقول لهاأن.. وفجأة ينتقل خيالها وترى ابنتها ترمى نفسها فى النيل من فوق كوبرى.. كوبرى قصر النيل.. لا.. ستختار كوبرى هادئا.. ويتلوى قلب الأم، وتكاد الدموع تعود إلى عينيها.. وتتصورها وقد سقطت تحت عجلات ترام وهى تسير مذهولة فى الطريق، ويرتفع فى صدر الأم صراخ حاد.. ثم ينتقل خيالها، وتتصورها مع فتحى.. سافرت معه إلى الفيوم.. ربما تزوجا هناك.. ربما لم يتزوجها.. و..

والساعة الثامنة، ولم تعد ليلى.

وقامت الأم فجأة، واتجهت إلى داخل البيت، وقامت وراءها نبيلة قائلة :

– رايحة فين يا ماما ؟

وقالت الأم فى صوت حزين كأنها كبرت خمسين عاما :

– رايحة أغسل وشى يا بنتى.

ولم تكد الأم تخطو فى الممر الذى يفصل بين الحجرات، حتى دق جرس التليفون الموضوع هناك، فالتقطت السماعة، وصاحت فى لهفة :

– آلو..

وسمعت صوتا هادئا مهذبا :

– مساء الخير.. أنا فتحى.. عنايات هانم ؟

وقالت الأم وهى تضع يدها على قلبها :

– فتحى.. الأستاذ فتحى.. فين ليلى ؟

وقال فتحى فى دهشة ولهفة :

– ليلى.. معرفش.. مالها ؟

وقالت الأم وهى لا تصدقه :
- اعمل معروف يا بنى.. طمنى اعمل معروف.. قول لى هى فين.
قال :
- أحلف لك يا هانم، إنى ماشفتهاش.. ورحمة أبويا ماشفتها.. هى خرجت إمتى.
قالت وهى تبكى :
- خرجت من الصبح، وماقالتش رايحة فين.
وسكت فتحى برهة، وقال :
- تأكدى إنى ماشفتهاش.. أنا كنت فى الفيوم ولسه جاى دلوقت، ومراتى قالت لى إنكم سألتم علىّ.. إنما اطمنى يا هانم.. أنا حادور عليها.. ولازم حاترجع البيت.
وسقطت يد الأم التى تحمل السماعة، فالتقطتها منها نبيلة، وقالت فى حزم وهى مبهورة الأنفاس :
- أستاذ فتحى.. قول لى ليلى فين، أنا نبيلة.
وقال فتحى :
- أنا عارف حتة يمكن تكون فيها.. حانزل دلوقت حالا أدور عليها.
وقال نبيلة :
- قول لها إن ماما حاتموت نفسها.. قول لها ما تخافش.. قول لها إن ما حدش حايكلمها بعد كدة.
وألقت السماعة.. ومدت يدها تسند أمها قبل أن تنهار، وتقع على الأرض.

●●●

والساعة التاسعة، ولم تعد ليلى.
وفجأة فتح الباب ودخل أحمد.. كان وجهه متعبا، وعيناه مسترخيتان من ثقل الملل والعذاب الذى يعانيه.. لقد طاف على قدميه منذ خرج فى الساعة الرابعة بعد الظهر، وهو تائه لا يدرى إلى أين يذهب، إلى أن اشتد به التعب فعاد إلى البيت قبل موعده المعتاد.
ورفعت إليه أمه عينين مذعورتين.. وشهقت فيفى عندما رأته يدخل.. ونكست نبيلة رأسها.. وتشاغل عنه خاله بمداعبة سلسلته الذهبية العريضة.

ونظر أحمد إليهم.. إلى وجه أمه الممتقع.. وإلى شفتى فيفى المزمومتين.. وإلى عينى نبيلة المرتبكتين.. وإلى خاله الذى يتشاغل عنه.. ثم انحنى قبل يد أمه.. وصافح خاله.. ثم عاد ينظر إلى وجوههم.. ولاحظ أنهم جميعا يتجنبون النظر فى عينيه.. وقال فى تردد :

- مالكم.. قاعدين كدة ليه ؟

ومرت برهة صمت، ثم قالت أمه فى صوت حزين كأنها تشفق عليه من الحقيقة :

- قاعدين مع خالك.

وسكت أحمد.. وتردد قليلا.. ثم تذكر أنه ليس من عادة خاله أن يأتى لزيارتهم ويبقى حتى هذه الساعة، إلا كلما حدث حادث للعائلة.. فعاد يطوف بعينيه فى الوجوه المنتشرة حوله، يحاول أن يستشف منها شيئا.. ثم خطا بضع خطوات نحو حجرته.. وفجأة استدار إليهم قائلا :

- أمال فين ليلى ؟

وسكت الجميع.. مرت فترة طويلة من الصمت.. ثم قالت نبيلة :

- لسة ماجاتش.. أصل عندها حفلة فى المعهد.

وقالت فيفى فى نفس الوقت :

- جت ونزلت دلوقت.. راحت عند...

ثم صمتت عندما تبينت أن كلامها يتعارض ما تقوله أختها.. وقال أحمد وهو ينقل عينيه بين أختيه :

- جت ونزلت، ولا لسة ماجتش.

ورفع صوته قليلا، واستطرد :

- أنتم مخبيين علىّ ايه.

وأحس أحمد عندما رفع صوته بأنه يفرّج عن كربه.. أحس أنه وجد شيئا ينسى فيه همومه.. فرفع صوته أكثر، وقال :

- بدى أعرف إنتم مخبيين عنى ايه.. ليلى راحت فين ؟

وقالت الأم وهى تتنهد ولا تنظر إليه :

- زمانها جاية يا أحمد.

وصرخ أحمد بأعلى صوته :

- إنتم بتكدبوا عليّ.. قولوا لى الحقيقة.. لازم أعرف أختى فين.. جرى لها إيه.

وقال خاله فى صوت وقور هادئ :

- أختك خرجت من الصبح ولسة مارجعتش.. خرجت من غير ما تقول لحد.. وماحدش عارف هى راحت فين.

وارتفع حاجبا أحمد فوق عينيه فى دهشة، وقال فى غباء :

- يعنى ايه ؟

وقال الخال وهو يتأفف من غباء ابن أخته :

- يعنى هربت!

وقال أحمد فى حدة :

- هربت !! ما يمكن حصل لها حادثة.. لازم نسأل عليها، فى المستشفيات وفى البوليس.. و..

وقاطعه الخال :

- نستنى شوية أحسن.. بدل مانعمل فضيحة.. يمكن ترجع.

وسكت أحمد، وهو يشعر بالغيظ من خاله.. لماذا يتعمد خاله أن يسفه آراءه دائما؟ لماذا يتعمد هذا الخال أن يبدو أذكى منه، وأعقل منه وأكبر منه؟ واشتد غيظه من خاله.. كرهه.. وأحس برغبة فى أن يتحداه.. أن يقول رأيا آخر ويتمسك به.. ولكنه لم يجد رأيا يقوله.. بل أنه لا يدرى كيف يتصل بالمستشفيات والبوليس؟

ونكس رأسه.

وخطا خطوات بطيئة إلى غرفته، وجلس على المقعد الموضوع بجانب الفراش يحادث نفسه.. لقد هربت ليلى.. لماذا هربت؟ لابد أنها تحب.. ولكن لماذا تهرب مع حبيبها؟ لماذا لا تدعوه إلى البيت؟ كما دعته شهيرة إلى بيتها.. ولكن أخوته لا يدعون أصدقاءهن إلى البيت.. لم يتعودن.. وتقاليد البيت لا تسمح لهن بدعوتهم.. التقاليد.. ما هى التقاليد؟ عقود قديمة غير مكتوبة بين مجموعة من الأفراد تحدد لهم تصرفاتهم.. والعقود التى ترتبط بها شهيرة، ليست كالعقود التى ترتبط بها أخوته البنات.. أى العقود أصح؟ إنه لا يدرى.. إنه يحس بأنه غريب فى مجتمع شهيرة.. ويحس بأنه غبى فى مجتمع أخوته البنات.

هربت ليلى.. ليلى الجميلة، الرقيقة العنيدة.. لماذا تهرب هذه المجنونة؟ إنها الآن مع حبيبها يقبلها.. وربما نام معها.. اعتدى عليها.. ولكن لماذا يسميه اعتداء.. إذا كانت قد هربت إليه، فلا يمكن أن يكون هناك اعتداء.. إنه اتفاق.. اتفاق على أن تمنحه جسدها.. جسد أخته.

وأحس كأن جسد أخته قطعة من جسده.. وأن هناك إنسانا غريبا يعتدى عليه.. وأحس بجرح كبير ينفتح فى صدره.. جرح تسيل منه كبرياؤه.. وشرفه.. وكرامته.. ولكن لماذا يتمنى جسد شهيرة.. ولا يسمح لأحد بأن يتمنى جسد اخته.. ولكن، لا.. هناك فرق.. إنه لم يفكر فى الهرب مع شهيرة.. إنه يحبها فى النور.. أمام كل الناس.. وكل ما يشتهيه فيها تسبقه فكرة الزواج.

إن فى حب أخته شيئا ناقصا.. وإلا لما هربت.. شيء يجب أن يحميها منه.

والساعة التاسعة والنصف، ولم تعد ليلى.

ودق جرس التليفون.

والتقطت نبيلة السماعة فى لهفة.

وكانت عائشة تبلغهم أن ليلى عندها.

واسترخت عضلات وجه الأم.. وتنهدت فى راحة.. وجلست وهى تحاول أن تقنع أخاها بأن ابنتها لم تهرب.. لقد قضت اليوم عند صديقتها.. وقالت كأنها تحاول أن تقنع أخاها بأن ابنتها لم تهرب :

- بس مش كانت تقول من الصبح.

وقالت نبيلة :

- أنا كنت متأكدة أن ليلى عند واحدة صاحبتها.

وقالت فيفى فى سخط، وهى تتعمد أن تخفض صوتها حتى لا يسمعها خالها :

- لا ياشيخة.. بأه تصدقى الكلام ده.

وقال الخال، وهو ينظر فى ساعته :

- المهم أننا اطمنا عليها.

●●●

ووقفت السيارة الأجرة عند أول شارع الاخشيد.. والتفتت ليلى إلى

فتحى.. ولم تقل شيئا.. ثم نزلت من السيارة، وعادت تلتفت إليه، وهو يقفل وراءها الباب، وقالت وهى تنظر إليه فى امتنان :

- مرسيه يا فتحى.. مرسيه قوى.

ولم يرد عليها فتحى.. وعيناه تضمانها فى هدوء..

وسارت ليلى نحو بيتها فى خطوات متعثرة، وقلبها يدق، وليس فى رأسها سوى الصورة التى تواجه بها عائلتها.

يجب أن تبدو طبيعية.. وأن تدخل عليهم مبتسمة فى شجاعة.. إنها كانت عند صديقتها.. وقد أخبرتهم صديقتها بنفسها أنها كانت عندها.. لا أحد يستطيع أن يكذبها.

ودخلت ليلى.

وفوجئت بأنوار البيت كلها مضاءة.

وفوجئت بالعيون المتطلعة إليها، كأنها إنسانة عجيبة آتية من عالم عجيب.

وفوجئت بخالها.. لم تكن تعلم أن المسألة بلغت من الخطورة إلى حد استدعاء خالها.

واستقبلوها فى صمت.

وارتعشت ابتسامتها تحت ضغط هذا الصمت الثقيل.. ثم قالت وصوتها يكاد ينزلق من بين شفتيها إلى داخل حلقها :

- بونسوار.

وهجمت عليها نبيلة، واحتضنتها.. وأخذت تبكى فوق كتفيها.. وهى تقول :

- كده يا ليلى.. تغيبى ده كله من غير ما تقولى انتى فين.

وقالت ليلى :

- كنت عند صاحبتى.

ثم أزاحت نبيلة عن صدرها، ونظرت إليها، قائلة :

- هيه حصلت العياط.

وأمها تنظر إليها، نظرة قوية صامتة.. وقد زالت لهفتها، وبدأت تتذكر عذابها الذى سببته لها ابنتها، وبدأ احساسها ينقلب إلى غيظ، وثورة مكبوته.

وتقدمت منها ليلى، وانحنت تحاول أن تمسك يدها لتقبلها.. فأبعدت الأم يدها عنها وقالت فى حزم باتر، وهى تنظر إليها بعينين ينطلقان بالنار :

- اتفضلى على أودتك.

وقالت ليلى :

- يا ماما.

وقالت الأم وقد ارتفع صوتها :

- باأقولك اتفضلى على أودتك.. مش عايزة كلام.. كفاية.. كفاية اللى شفته منك.

ووقفت أمامها ليلى برهة، كأنها تتحداها.. ألا يكفيها أنها عادت إليهم..

وهزت كتفيها، والتفتت إلى خالها، وقالت بلا مبالاه :

- ازيك يا خالى.

وقال الخال بصوت عال وهو يحاول أن يضبط أعصابه :

- اسمعى.. العمايل دى ماحدش عملها من بنات العيلة أبدا.. لازم تعرفى أن فيه لك رجالة يعرفوا يربوكى.. إذا كان أبوكى مات، أنا لسة مامتش.. ومن هنا ورايح، مش حاتخرجى، ولا تدخلى إلا باذن منى.. فاهمة.. فاهمة يا قليلة الأدب.

وسكتت ليلى وقد بدأت تفقد تماسكها.

وسمع أحمد وهو فى غرفته صوت خاله.. وكأنه أحس بأن خاله يتهمه بأنه ليس قادرا على تربية أخوته البنات.. يتهمه بأنه لا يستطيع أن يحمل مسئولية إخوته.. فانطلق خارجا من غرفته، ووقف أمام أخته، وكله يرتعش، وقال وهو ينظر إليها كأنه يطلق عليها رصاصا من عينيه :

- كنتى فين ؟

وقالت ليلى وهى تبتعد عنه خطوة، وقد بدأت تشعر بالخوف منه :

- كنت عند صاحبتى.

وفجأة.. رفع أحمد يده وصفع أخته بكل قوته.. ثم صفعة ثانية.. وثالثة.. وذراعاه تتحركان فى الهواء كأذرع طاحونة هوجاء، وهو يصرخ :

«صاحبتك يا مجرمة.. يامجرمة.. يا سافلة.. يا قليلة الأدب

وهجمت عليه فيفى ونبيلة وتعلقتا بذراعيه، وهما تصيحان :

«بس يا أبيه.. مش كدة ياآبيه.. كفاية.. كفاية».

وسقطت ليلى على الأرض وهى تصرخ.. وتبكى.. ولا تتكلم.
والأم تنظر فى فزع يشوبه بله.
وصرخ الخال صرخة آمرة :
- أحمد.. كفاية كدة.
ثم قام من على مقعده، وجذب إليه أحمد بقوة.. وهو لا يزال يرتعش.. وينظر إلى أخته الملقاة على الأرض، بعينين مجنونتين..
وانحنت نبيلة وفيفى، ترفعان أختهما من على الأرض، وتسيران بها نحو حجرتهن.. وقد كفت عن الصراخ.. وتبكى.. ولا تتكلم !
وتخلص أحمد من يدى خاله، ودخل غرفته، وأغلق الباب عليه.
والتفت الخال إلى الأم المذهولة، وقال وهو يربت على كتفيها :
- خلاص يا عنايات.. ماتزعليش نفسك.. وأنا بكرة من الصبح حاتصل ببدر الدين.. زى ما اتفقنا.. تصبحى على خير.
وهمست الأم كأنها تحادث نفسها :
- تصبح على خير.
وخرج الخال ليلحق بالحفلة التى يقيمها عبدالسلام!
وقامت الأم وهى تحمل آلاما فى قلبها، وآلاما فى مفاصلها.. ودخلت غرفتها.. وسقطت فوق فراشها.. كأنها لن تقوم أبدا.
ورقدت ليلى فوق سريرها، منكفئة على وجهها، تبكى.. وأختها نبيلة تخلع عنها حذاءها.. وأختها فيفى واقفة وسط الحجرة ويداها فى خصرها، تنظر إليها شذرا.
ورفعت ليلى رأسها، وقالت من بين دموعها :
- ازاى يضربنى.. أنا عمرى ماحد ضربنى.. بابا عمره ماضربنى.. ماحدش له ضرب علىّ فى البيت ده أبدا.
ثم أجهشت بالبكاء وهى تصيح :
- بابا.. يا حبيبى يا بابا.
وقالت نبيلة وهى تنزع عنها فردة حذائها الثانية :
- معلهش يا ليلى.. أعذريه.. انتى ماتعرفيش حالتنا كانت ايه.. كان متهيأ لنا إنك موتى نفسك.
وقالت ليلى باكية :

- يا ريتنى كنت موت نفسى واستريحت.
وقالت فيفى :
- ده كان حق آبيه أحمد قطم رقبتك.. انتى مش عارفة عملتى ايه يا بت انتى.. طبعا كنتى مع سى فتحى.. تسمحى تقولى لى عمل فيكى ايه سى زفت ده.
ورفعت ليلى رأسها، واعتدلت جالسة فوق السرير، ونظرت إلى أختها فى تحد، وقالت :
- تحبى تعرفى عمل إيه فتحى.. رجعنى لكم.. لو ماكانش هو.. ماكنتش رجعت ولا شفت خلقتكم تانى.. ياريته مارجعنى.
ورفعت ذراعيها إلى أعلى، لتخلع عنها أختها نبيلة ثوبها، وفجأة تذكرت وسط بكائها أنها نسيت قميص النوم والروب دى شامبر، فى شقة فتحى.. فسقطت فوق السرير مرة ثانية، وعادت تجهش بالبكاء.

١٧

خرجت نبيلة من كلية الآداب وهى تسير بجانب محمود.. والطلبة والطالبات ينظرون إليهما نظرات سريعة، ثم يعودون ويديرون عنهما عيونهم، بلا مبالاه، ولا تعليق.. كأن منظر نبيلة ومحمود وهما يسيران سويا أصبح منظرا قديما لا يثير الاهتمام، كمنظر ساعة الجامعة.. دائما فى مكانها، وعقاربها لا تفترق إلا لتلتقى.

وكانت نبيلة تسير فى خطوات بطيئة وقد حملت حقيبة كتبها تحت ذراعها وأسندتها على جانب خصرها، ورأسها منكس، تنظر إلى قدميها.. وعقلها شارد.. ومحمود يسير بجانبها مرحا.. حلته المكرمشة تترجرج فوق جسده ورباط عنقه الملتوى الرفيع كرباط الجزمة، يطير مع الهواء.. وحذاؤه الأصفر يبدو أكثر لمعانا كأنه يشارك صاحبه فى مرحه.. وكان محمود يتحدث كثيرا عن مسرحية هاملت التى تستعد فرقة التمثيل بالكلية لتمثيلها، ويقوم فيها بدور هاملت نفسه.. وكان وجهه القوى يفيض بالحماس يتحدث عن اعجاب مدرب الفرقة به، ويستبد به الحماس، فيردد مقاطع من المسرحية ويلوح بذراعيه فى حركات تمثيلية وهو يسير وسط الشارع.

وفجأة توقف عن حديث المسرحية، وقد وصلا إلى شارع الجيزة، وقال فى صوت آخر غير صوته الذى كان يتحدث به :

– أجيب لك لب أبيض ؟!

وانكمشت معدة نبيلة.. فهى لا تحب اللب الأبيض.. ولكنها هزت رأسها موافقة، فهى تعلم أن محمود يحب اللب الأبيض، ويعتبره احدى مفاخر

المدنية القاهرية، ويتباهى بقزقزته، كما تتباهى الفتاة المدللة بقزفزة المارون جلاسية.

وابتعد عنها محمود، وذهب واشترى قرطاسا من اللب الأبيض من بائع يقف بفرن متنقل أمام باب حديقة الحيوان.. ثم عاد إليها، وقال وهو يضع فى يدها كمية من اللب، ويحتفظ لنفسه ببقية القرطاس :

- ده لسه سخن !

واحتفظت نبيلة بحبات اللب فى يدها.. وبدأ محمود يقزقز اللب ويقذف بالقشر على أرض الطريق، وقد عاد يتحدث بحماس عن مسرحية هاملت.. ثم قطع حديثه فجأة والتفت إليها قائلا :

- مالك ؟

قالت دون أن تنظر إليه :

- ماليش.. كمل.. وبعدين عملت ايه فى الفصل الثانى.

وظلت عيناه مستقرتين على وجهها، وقال كأنه يختبرها :

- مابتكليش اللب ليه ؟

قالت وهى تتنهد فى ضيق :

- لما نقعد..

وقال فى لهجة ساخرة :

- آه صحيح.. عيب إن الواحد يقزقز لب فى الشارع.. أنا دايما أنسى الاتيكيت، أصلى فلاح.. أعمل ايه.. عندنا فى البلد بنمشى فى الشارع وكل واحد فى ايده حزمة فجل ولا حزمة كرات، ولا سريس، بيقزقز فيها.. إنما انتم، كل حاجة عندكم بالأصول.

ولم ترد عليه نبيلة.. كانت أعصابها فى تلك اللحظة، أضعف من أن تحتمل مناقشة بينها وبين محمود حول الفلاحين وأولاد الذوات.. هذه المناقشة التى تتردد دائما بينهما، ولا تنتهى أبدا إلى شىء.

وسكت محمود، وضم شفتيه الرفيعتين، وعقد ما بين حاجبيه وسار بجانبها، كأنهما زوج وزوجة فى طريقهما إلى المأذون لاشهار طلاقهما.

وضاقت بصمته، رغم أنها لم تكن تستمع إلى حديثه كله.. كان حديثه يصل إليها كالضجيج ولا تحاول أن تتبعه باهتمامها.. كان عقلها شاردا

وراء عدة مشاكل تختلط بعضها ببعض دون أن تستطيع أن تركزه فى مشكلة منها.. مشكلة أختها ليلى.. ومشكلة زواجها من محمود.. ومشاكل أمها وأخوتها.. مشكلة المستقبل كله.. وكان حديث محمود رغم أنها لا تستمع إليه كله، يؤنسها وسط هذه المشاكل.. يشعرها بأنها ليست وحيدة.. بأنها تستطيع أن تجد الطريق، ما دام محمود يتحدث إليها.

ونظرت إليه وهى تبتسم ابتسامة ضعيفة، ثم رفعت يدها تحمل اللب إلى شفتيها، وبدأت تقزقز وتقذف بالقشر وسط الشارع.. وقالت :

– شفت.. أهم أولاد الذوات كمان يقدروا يقزقزوا اللب فى الشارع.

وقال محمود وهو يبتسم ابتسامة صغيرة لا تكاد تظهر فوق فكه العريض:

– انتى لك حق يا نبيلة.. الواحد لما بيقزقز اللب فى الشارع بيبقى شكله وحش !

قالت وهى تضع حبة أخرى بين شفتيها :

– يعنى أنا دلوقت شكلى وحش.

قال وهو يحاول أن يبدد جو التوتر بينهم :

– انتى عمرك ما يبقى شكلك وحش.. يا سلام عليكى وانتى ماشية تمصى فى عود قصب.

وضحكت نبيلة.

وعاد محمود يتحدث عن المسرحية.

ووصلا إلى شاطىء النيل، وجلسا على السور الحجرى الذى يحد الشاطىء.. وبدأ محمود يقزقز اللب بسرعة أكبر.. على راحته.. ونبيلة تقزقز فى بطء.. ثم التفتت إليه قائلة :

– أنت حاتعمل ايه بعد ما تاخد الليسانس.

وفوجىء محمود بالسؤال، وكف عن قزقزة اللب.. وقال فى يأس :

– حاعمل أى حاجة.. مدرس.. موظف أرشيف.. اللى فيه القسمة. إنما ايه لازمته السؤال ده دلوقت.. ما سبق سألتينى وجاوبتك.

قالت :

– أنا عايزة أعرف أنت تتمنى تكون ايه ؟

قال :

- إنتى عارفة.

قالت :

- نسيت.. قول لى كمان.

وسبح محمود بعينيه فوق صفحة النهر، وقال كأنه يحلم

- اتمنى إنى أبقى مذيع.. زى طاهر أبو زيد.

ثم التفت إليها واستطرد وفى عينيه لمعان قوى :

- أنا لو اشتغلت مذيع حابقى أحسن من طاهر أبو زيد.. ومن فهمى عمر.. ومن أحمد فراج.. ومن أحسن واحد فى الإذاعة.. دول ما بيعرفوش يتكلموا.. ساعات يبقى متهيأ لى أحط أيدى فى الراديو، وأقطع لسانهم.

قالت وهى فرحة لحماسه :

- تعرف إنى أنا كمان قررت إنى أشتغل مذيعة بعدما أتخرج ونظر إليها نظرة غريبة.. كأنه يغار منها.. كأنه يتهمها بأنها تعتدى على حقه.. ثم سحب نظرته بسرعة، وقال وهو يدير عنها وجهه :

- انتى تقدرى تبقى مذيعة.. إنما أنا ما أقدرش !

قالت كأنها تلومه :

- ليه بأه.

قال :

- علشان انتى تقدرى تستنى لغاية ما تتعينى.. تستنى شهر.. شهرين.. سنة.. إنما أنا ماأقدرش.. لازم يوم ما اتخرج أتعين.. أتعين فى أى وظيفة.. إنشالله حتى أشتغل فاعل.. فاعل بالليسانس.. ماتنسيش إننا فقرا يا نبيلة.. والليسانس بالنسبة لى، ولأبويا، مش شهادة.. مش معناها إنى بقيت مثقف.. إنما الليسانس لقمة عيش.. معناه أن أبويا يوفر القرشين اللى بيصرفهم علىّ، ومعناه إنى أبتدى أرد له جمايله.. لازم أدفع له زى ما دفع لى.. أولاد الفقرا يا نبيلة مش زينة الحياة الدنيا.. ماهماش بالنسبة لآبائهم وأمهاتهم زينة.. دول مشاريع منتجة.. يعنى بدل الفلاح ما يزرع قيراط أرض، يقوم يخلف عيل.. القيراط بيجيب جنيه ولا اتنين فى الشهر، والعيل لما بيشتغل بيجيب أكتر من اتنين جنيه.. ولما يكون فلاح ميسور

شوية، يقوم يبخل على نفسه ويعلم ابنه علشان بعد ما يتعلم يجيب فلوس أكتر.. زى صاحب الشركة لما يوفر من ربحه علشان يشترى ماكينة جديدة.

واكتسى وجه نبيلة بالخيبة واليأس، وقالت كأنها تهم بالبكاء :

– افرض انك لقيت وظيفة فى بلد بعيدة.. تعمل ايه ؟

قال :

– إذا كان مافيش غيرها، لازم أقبلها.

قالت :

– وتسيبينى.. مش كدة ؟

قال :

– أنا عمرى ما حاسيبك يا نبيلة.

قالت :

– حاتبعت لى جوابات.. وتفضل تبعت لى جوابات لغاية ما تزهق من عيشتك، وتتجوز واحدة فلاحة من بلدكم.

قال فى صوت ممزق :

– أنا عمرى ما حاتجوز يا نبيلة.. اللى عايز اتجوزها مش قادر أتجوزها.

ونظرت إليه وفى عينيها تصميم، كأنها قررت أن تكشف كل أوراقها.. ألا تصبر أكثر مما صبرت.. وقالت فى صوت جاد :

– وماتتجوزهاش ليه ؟

قال :

– انتى قلتى إننا مش حانتكلم فى الموضوع ده.

قالت فى حدة :

– انا ماقلتش كدة.. أنا قلت إننا مش حانتكلم فى الموضوع ده إلا إذا ابتديت أنا أتكلم فيه.. وأنا عايزة أتكلم فيه دلوقت.. خلاص.. فاضل شهرين على الامتحان.. وتتخرج.

ولازم أعرف مصيرى ايه.

قال وهو يضغط على أعصابه ليبدو هادئا :

- اتكلمى.. عايزانى أعمل ايه ؟

قالت، وهى تلتقط يده وتحتفظ بها فى يدها :

- محمود.. لازم تعرف إنى مايهمنيش الجواز.. لو كنت عايزة أتجوز ماكانتش جات لى الجرأة إنى اكلمك.. إنما كل اللى يهمنى إننا نفضل مع بعض.. نعيش فقرا، نعيش أغنيا.. المهم إننا نعيش مع بعض.. ومافيش طريقة نقدر نعيش بيها مع بعض إلا إننا نتجوز.

قال وهو يبتسم فى مرارة :

- ومين يصرف علينا.

قالت فى حماس :

- انت حاتشتغل على الأقل بعشرين جنيه.. وأنا اشتغل شغلة بخمستاشر جنيه.. يبقوا خمسة وتلاتين جنيه.. يكفونا وزيادة.

قال فى مرارة :

- انتم عايشين فى بيتكم بخمسة وتلاتين جنيه ؟!

قالت فى حدة :

- مالكش دعوة ببيتنا.. وأنا ماليش دعوة ببيتكم. المهم بيتنا احنا الاتنين.

وسكتت برهة هدأت خلالها حدتها، ثم استطردت قائلة :

- تعرف أنا حبيتك ليه ؟

ورفع حاجبيه دهشة لجرأتها.. وسكت.. وعادت تقول :

- أنا نفسى ماكنتش عارفة أنا حبيتك ليه.. كنت فى الأول فاكرة إنى حبيتك علشان شكلك.. إنما ما صدقتش إنى ممكن أحب واحد علشان شكله.. قلت يمكن علشان أخلاقك.. لكن برضه مش كفاية الاخلاق.. وأخيرا عرفت أنا حبيتك ليه.. حبيتك لأنى باثق فيك.. باثق بانك تقدر تبقى حاجة كبيرة.. كبيرة قوى.. لما باشوفك بين الطلبة فى جمعية الأدب الانجليزى بيتهيألى إنك بتتكلم أحسن من الاستاذ.. وأوعى يتهيألك إنى راضية بفقرك.. أبداً.. أنا عارفة إنك مش حاتفضل فقير على طول.. حاتتعب سنة، ولا سنتين، وبعدين تبقى غنى.. وأنا مستعدة أتعب معاك لغاية ما تغتنى.. نتعب سوا ونغتنى سوا.. إنت مشروع ناجح يا محمود.. ناجح مية فى المية.

قال وهو يحس بالحرج لفرط الثقة التى تسبغها عليه نبيلة :
- متهيألك.
قالت :
- أبدا.. أنا متأكدة.. لو ماكنتش مشروع ناجح ما كنتش حبيتك.
قال :
- ما يمكن حبك هو اللى مصور لك إنى ممكن أكون إنسان ناجح.
قالت :
- لأ.. أنا وثقت فيك الأول، وبعدين حبيتك.
وسكت طويلا، ونبيلة تنظر إليه كأنها تنتظر كلمته.. ثم قال بعد تردد .
- على كل حال الكلام اللى بتقوليه ما ينفعش.. أولا انتى فى سنة تانية وقدامك سنتين على ما تتخرجى.
وقاطعته بسرعة :
- أخرج من الجامعة، وأتعلم تايبريتر.. واشتغل فى أى شركة.
قال فى هدوء كأنه يبحث مسألة حسابية :
- برضه ما ينفعش.. افرضى إنى اتعينت فى سوهاج، وانتى فى مصر.. يبقى نعيش مع بعض ازاى ؟
وسكتت كأن كل الطرق سدت فى وجهها.. ثم قالت فى حدة كأنما تستغيث :
- أهو نعيش زى ما نقدر نعيش.. مافيه مليون واحد وواحدة متجوزين، والراجل بيشتغل فى حتة والست فى حتة تانية.
وقال وهو لا يزال هادئا :
- كل اللى نقدر نعمله اننا نستنى نشوف الدنيا حاتعمل فينا ايه.. نستنى لغاية ما أشوف أنا حاعمل ايه.. ولغاية انتى ما تخلصى وتاخدى الليسانس.
ثم ابتسمت ابتسامة مسكينة يحاول أن يرفه بها عنها، وقال :
- أنا عايز أبويا يشوف ابنه متجوز واحدة واخدة الليسانس.. دى ما حصلتش فى بلدنا أبدا.. ولا فى مديرية الغربية كلها..
ولم تضحك.. ولم تبتسم.

وعاد إلى لهجته الجادة قائلا :

- كل اللى أقدر أوعدك بيه أنى مش حاتجوز إلا لما اتجوزك.. بعد سنة.... بعد اتنين.. بعد عشرة.. وأوعى تفتكرى أنى ما بافكرش فى اننا نتجوز.. أنا بافكر أكثر ما بتفكرى انتى.. وحكاية انى فقير وانتى غنية مش معناها إن حاييجى يوم أبطل أحبك.. صحيح إنها عملالى عقدة.. إنما العقدة دى بتخلينى أخاف عليكى.. أخاف إنك تسيبينى.. وإذاكنت بأقولك كلام يزعلك ولا يحرجك، فالكلام ده من خوفى عليكى.. من خوفى أن ييجى يوم تضيعى منى.

وضغط على يدها وقال وقلبه بين شفتيه :

- أنا باحبك يا نبيلة.. باحبك أد ما بكره فقرى.. حبك هوه الحاجة الوحيدة اللى مخليانى حاسس إنى مش أقل من غيرى.. حبك هو ثروتى الوحيدة.. أنا غنى.. غنى بحبك.

قالت تقاطعه :

- لو كنت بتحبنى ما كنتش فكرت تسيبنى لوحدى فى الجامعة بعد ماتتخرج.

قال وهو يتنهد :

- أنا عشت طول عمرى مستنى اليوم اللى حاخد فيه الليسانس.. ولما اليوم ده بيقرب باكرهه.. وكل ما يقرب أكتر أكرهه أكتر.. لو كنت أقدر أسقط، كنت سقطت.. أو كنت أقدر أرجع سنة تانية معاكى، كنت رجعت.. أنا حاتعذب أكتر منك بعد ما أتخرج.. ماتنسيش إنى فلاح، وحافضل أفكر فيكى بخيال الفلاح.. أشوفك وانتى بين الطلبة فى الجامعة وأفضل أسأل نفسى يا ترى مين عاكسها.. ياترى مين كلمها.. ياترى بتعمل ايه دلوقت.. أنا باغير عليكى وأنا جنبك، ايش حال لما أبعد عنك.. مؤكد حاتجنن.

وقالت وهى تضمه بعينيها :

- اخص عليك يا محمود.. يعنى مش واثق فىّ.

قال فى تأكيد :

- واثق فيكى.. إنما مش واثق فى عقليتى.. فى احساسى قالت وهى تبتسم له :

- اطمن.
ثم استطردت بسرعة :
- ولا أقولك، ما تتطمنش.. علشان تيجى تتأكد بنفسك ولا تاخدنى أعيش معاك.
وقال وهو يقبلها بعينيه :
- ياريت.. ياريت يا نبيلة.
وسكت.
وسكتت.
وطال بينهما السكوت.
وقرطاس اللب الأبيض لا يزال فى يده.. وحبات اللب الأبيض لا تزال فى قبضة يدها.. وقد كفا عن القزقزة.
وقالت وهى تتنهد :
- يعنى ما فيش فايدة.
قال :
- ماتقوليش كدة.. وأنا ماقلتش كدة.. أنا قلت إنه احسن اننا نستنى.
قالت فى تهكم مر كأنها ترثى لحالها :
- نستنى لامتى ؟!
ولم يرد عليها.
وقامت فجأة، وقالت :
- أنا مروحة.
قال :
- مش آجى أوصلك ؟
قالت :
- لأ.. عايزة أمشى لوحدى.
وتركته جالسا على سور كورنيش النيل.. وسارت فى خطى مسرعة، ودموع تتجمع تحت جفنيها، وتحرق عينيها.. ثم تنبهت إلى حبات اللب الأبيض التى فى يدها.. وقد رطبها العرق.. فرفعت حبة إلى شفتيها، وهى ساهمة، ثم نزعتها من بين شفتيها.. وهمت أن تلقى ما فى قبضتها من لب

فى الطريق، ولكنها توقفت.. كأنها أحست بأنها على وشك أن تهين شيئا عزيزا عليها.. وفتحت حقيبتها وأفرغت فيها حبات اللب الأبيض.. ثم أخرجت منها منديلا، وجففت به دمعة تجمعت فى زاوية عينها.

●●●

ودخلت نبيلة البيت وهى تخفى شرود عقلها، وجرح قلبها، تحت قناع من الهدوء، والاستسلام.

وفتحت باب غرفتها.. غرفة البنات.. ورأت أختها ليلى جالسة فوق سريرها، مستندة بظهرها إلى الحائط، وقد ضمت ركبتيها بذراعيها، ووجهها مكفهر، وفى عينيها نظرات حادة مليئة بالعناد والتحدى، تطلقها فى فضاء الغرفة، وشفتاها مكورتان غاضبتان كأنهما رأس سهم مشتعل بالنار، وشعرها الأصفر منثور فوق كتفيها كأنه شلال من دموع الذهب.

ونظرت إليها نبيلة برهة، ثم قالت وهى تحاول أن تبدو مرحة :

أعوذ بالله.. دى خلقة دى.

وقالت ليلى وهى لا تزال تطلق نظراتها فى فضاء الغرفة، دون أن تلتفت إلى أختها :

– سمعتى آخر الأخبار ؟

وقالت نبيلة، وهى تلقى بحقيبتها من يدها، وتنظر إلى وجهها فى المرآة:

– لأ.. لسة ماقرتش الجرنال !

وقالت ليلى دون أن تبتسم :

– حضرتهم عايزين يجوزونى.

والتفتت نبيلة إلى أختها لفتة سريعة ثم عادت تنظر إلى المرآة وقالت وهى مستمرة فى ادعاء المرح :

– ولقوا حد يرضى يتجوزك.

وفردت ليلى ركبتيها والتفتت إلى اختها بكل جسمها، وقالت فى حدة :

– دول مش عايزين يجوزونى.. عايزين يعاقبونى علشان هربت من البيت.. وأحب أقولك إنى مش حاتجوز.. مش حاتجوز حتى لو شنقونى.. ومستعدة أهرب من البيت مرة تانية.. والمرة دى مش حارجع.. ومش حاتلاقونى.. مش حاوريكم خلقتى تانى.

وابتعدت نبيلة عن المرآة وجلست على حافة السرير بجانب أختها، وقالت وعلى وجهها أمارات الجد :

-اهدى بس يا ليلى.. واحكى لى الحكاية من الأول.

وقالت ليلى، وقد بدأت عيناها تحتقنان كأنها تهم بأن تذرف دما بعد أن فرغت دموعها :

– جايبين لي واحد النهاردة.. واحد اسمه عصام بدر الدين.. خالى هو اللى جايبه، وماما موافقة.. وحضرته حايشرف النهاردة الساعة تمانية، وماما عايزانى أدخل أقعد معاه.

وخبطت ليلى قبضتها على مرتبة السرير، واستطردت صائحة :

– مش حاشوفه.. ومش حادخل الأودة اللى هو فيها.. إذا كانوا عايزين إنه يشوفنى يتفضل يشرف هنا.. فى الأودة دى.. ولا يبقوا يجرجرونى بالقوة ويدخلونى الصالون.

وتماسكت نبيلة حتى لاتنقاد إلى ثورة أختها، وقالت وهى تبتسم :

– انتى عبيطة.. يعنى حايخس عليكى ايه لما تقعدى معاه.. ده بيبقى شكلهم مسلى قوى.. زى ما تكونى فى جنينة الحيوانات وبتتفرجى على راجل قاعد فى قفص.

وقالت ليلى صارخة :

– راجل ولا قرد.. مش حاشوفه، ومش حاقعد معاه. وسكتت نبيلة برهة، ثم قالت :

– مش عصام ده اللى كنا بنشوفه على بلاج ميامى.

وقالت ليلى :

– ما أعرفش.

وعادت نبيلة تقول :

– وكان دايما لابس بدلة شارك سكين.. كل يوم بدلة مكوية.. إنما بيقولوا عليه أنه شاب ناجح، وأخلاقه كويسة.. وتعرفى أن شكله كويس.. مش بطال.

وقالت ليلى وقد عادت تصرخ :

– ماتجننيش يا نبيلة.. أنا مايهمنيش إذا كان شكله كويس ولا وحش..

يهمني إني ما بحبوش.. ويهمني إني مش عاوزة أتجوز.. مش.. عـ..ايزة.. مش عاايزة.. ياناس حرام عليكم.. عايزين تبهدلوني ليه بس.

وعادت نبيلة تضغط على أعصابها حتى لا تنهار أمام أختها، وقالت في هدوء :

– انتي عارفة انه طلبك السنة اللي فاتت.. ماما قالت لي.

وقالت ليلى :

– اشمعنى أنا اللي يطلبني.. ماطلبكيش انتي ليه.. ولا طلب فيفي.. انتم أكبر مني ولازم تتجوزوا قبل مني.

وقالت نبيلة وهي تضع ابتسامة كبيرة بين شفتيها :

– بيني وبينك.. أصل ذوقه وحش.

وسمعا نقرة على الباب، وأطل محمد السفرجي قائلاً :

– الست الكبيرة عايزاكي، ياست نبيلة.

والتفتت نبيلة إلى ليلى قائلة :

– عيطي شوية.. على بال ما أرجع لك.

ثم ما كادت تخرج من الغرفة، حتى تبخرت ابتسامتها من على شفتيها، وتجهم وجهها، وضاق صدرها بأنفاسها.. لماذا يزوجون ليلى رغم إرادتها؟ ولماذا يزوجونها في هذا الوقت بالذات قبل أن تشفى من حبها؟ ولكن.. من يدري.. ربما كان هذا هو العلاج الوحيد لليلى حتى تشفى من حبها.

هل ترضى هي أن تتزوج شخصا آخر غير محمود، لتشفى من حبه؟ لا.. إنها لا تستطيع أن تتصور نفسها زوجة لرجل آخر غير محمود.. لا تطيق.. لا تحتمل.. حتى ولو لم يتزوجها محمود.. ولكن حالة ليلى غير حالتها.. إن ليلى تحب حبا شاذا.. حبا بلا أمل.. لماذا؟ لماذا تعتبر حب ليلى حبا شاذا.؟ إن الحب لا يكون أبدا شاذا.. إن الظروف التي تحيط بالحب قد تختلف، ولكن الحب نفسه لا يختلف.. الحب هو الحب دائما.. ورغم ذلك فهي لا تستطيع أن تقنع نفسها بأن حب ليلى، كحبها هي لمحمود.. ربما لأننا كلنا يعتقد أن حالة كل منا تختلف عن حالة الآخرين.. ولأن كلا منا يعطي لنفسه حقوقا تختلف عن حقوق الآخرين.. وهي في

قرارة نفسها تتمنى أن تتزوج ليلى حتى لو تزوجت رغم إرادتها.. إن الزواج هو العلاج الذى يصفه المجتمع.. والمجتمع ليس «أنا» ولكنه الناس الآخرون بما فيهم أختها ليلى.

ودخلت نبيلة إلى أمها وهى حائرة، لا تستطيع أن تستقر على رأى فى موضوع أختها ليلى.. ونظرت إليها الأم كأنها تستغيث بها، وقالت :

– نبيلة.. أنا عارفة أن ليلى بتحبك وبتقتنع بكلامك.. فهميها إنها لازم تقابل الضيوف اللى جايين النهاردة.. كفاية فضايح.. أنا خلاص ما أقدرش استحمل أكتر من كدة.

وقالت نبيلة فى تردد :

– مش تفتكرى يا ماما أننا استعجلنا شوية.. ده مافاتش أسبوع من يوم ما خرجت من البيت وماكانتش ناوية ترجع.

وقالت الأم فى صوت عميق كأنها تصدر حكما نهائيا :

– ليلى مش زيك يا نبيلة.. ولا زى اختك فيفى.. وأنا ما أقدرش أفضل حابساها على طول، وأدى انتى شفتى لما حبستها عملت ايه.. مافيش طريقة إلا أنها تتجوز.. والنهاردة قبل بكرة.. وما تنسيش إن اللى جاى لها، شاب كويس كل بنت تتمناه.. أنا مابارميهاش.. لو ماكانش عصام شاب كويس، ماكنتش فكرت إنها تتجوزه.

وبدأت نبيلة تقتنع، ربما لأن خوفها على أختها يجعلها تتشبث بأى رأى ترى فيه ضمانا لمستقبلها.. وقالت بلا حدة :

– بس دى مش عايزة تشوفه.

وقالت الأم فى حزم :

– إذا ما شفتهوش بالذوق، حاتشوفه غصب عنها.. ده خالها مصمم، وحاييجى النهاردة بنفسه.

وقالت نبيلة :

– طيب نضرب تليفون للجماعة نخليهم يأجلوا زيارتهم لبكرة.. دى حتى ليلى عنيها حمر، وشكلها مش ممكن يكون شكل عرايس.

وقالت الأم كأنها اتخذت أخطر قرار فى حياتها :

– لأ احنا اتفقنا على النهاردة.. وخالك هو اللى حدد الميعاد وقالت نبيلة:

- أما أروح أقنعها..

وخرجت..

ووضعت ابتسامتها فوق شفتيها قبل أن تدخل على أختها ليلى.. ثم قالت ضاحكة :

- القائد العام مصمم.. والمدفع حايكون هنا الساعة السابعة.. وحايكون معمر على آخره.. المدفع ده يبقى خالك.

وقالت ليلى وهى تنظر أمامها ساهمة، كأنها تخاطب نفسها :

- أنا حاموت نفسى.

وقالت نبيلة ضاحكة وهى تضغط على قلبها حتى تخفى لوعته :

- خللى الحكاية دى لليلة الدخلة، علشان الجرائد تكتب.. عروس تنتحر فى ليلة زفافها.

وقالت ليلى وهى لا تزال ساهمة :

- أنتم بتكرهونى.. كلكم بتكرهونى.

واقتربت منها نبيلة، ووضعت يدها تحت ذقنها، ورفعت وجهها إليها لتنظر فى عينيها، وقالت :

- احنا ما بنكرهكيش يا ليلى.. احنا بندور على سعادتك.. وأنا مش ممكن أقتنع بحاجة إلا الحاجة اللى فيها سعادتك.. و...

وأزاحت ليلى يد نبيلة فى عنف، وصرخت فى وجهها :

- ابعدى عنى.. ماتكلمنيش.. انتى زيهم.. سيبينى.. سيبونى لوحدى.

ثم انكفأت على وجهها تبكى، وتردد :

- مش حاتجوز.. مش حاشوف حد.

وشعرها الاصفر يتنهد فوق ظهرها كأنه يربت عليها ليخفف من شقائها.

ودخلت فيفى عائدة من الجامعة، ونظرت إلى ليلى وهى تبكى ثم التفتت إلى نبيلة وقالت والسخط يطل من بين شفتيها :

- حصل ايه كمان ؟

وقالت نبيلة وهى تهز كتفيها بلا مبالاه :

- جاى لها عريس.

ووجمت فيفى برهة.. كأنها شكت بدبوس فى قلبها، تحاول أن تكتم ألمه.. ثم قالت :

- واللى ييجى لها عريس، تعيط ؟

وقالت نبيلة ساخرة :

- طبعا.. أمال تضحك!

وعادت فيفى تنظر إلى ليلى، وهى منكفئة على وجهها تبكى، ثم قالت وهى لا تستطيع أن تخفى رنة الحسد فى صوتها :

- لها حق تدلع.. ما دام بتعمل اللى هى عايزاه، وبعد كدة تلاقى رجالة ترضى تتجوزها.

ورفعت ليلى رأسها وقالت صارخة فى وجه فيفى :

- ماتتكلميش.. مش عايزة اسمع صوتك.. سيبونى لوحدى.. سيبونى لوحدى يا اخواتى.

وقالت فيفى فى صوت أعلى من صوت أختها :

- إذا كنتى مش عايزة تسمعى صوتى.. قومى اقعدى فى أوده تانية.. دى مش أودتك لوحدك.

وقالت نبيلة :

- أعذريها يا فيفى.. أصل العريس جاى النهاردة، وليلى مصممة إنها ما تقابلهوش.

وقالت فيفى فى امتعاض :

- أصلها ما تستهلش النعمة.. تحمد ربنا أن لسة فيه واحد يرضى يتجوزها.

وسمع البنات صوت أقدام أخيهن أحمد، وهو يدخل البيت ويتجه إلى غرفة الأم.. وصمتن.. لا يدرين لماذا؟ ولكنهن وجدن أنفسهن صامتات كأنهن ينتظرن نتيجة اجتماع خطير بين الأم والأخ.. وكان صمت لا يبدو خلاله إلا نشيج تحاول ليلى أن تكتمه.

وفجأة اقتحم أحمد غرفتهن كالزوبعة، ووقف بجانب سرير ليلى، وصاح بأعلى صوته :

- اسمعى يا بنت انتى.. فيه ضيوف حاييجوا يزورونا النهاردة.. ولازم تقابليهم.. فاهمة.

ورفعت ليلى رأسها، وانكمشت خائفة فى آخر السرير، ورفعت يدها دون تعمد منها، ووضعتها فوق خديها كأنها تذكرت صفعات أخيها لها.

ولم ترد.

ولم تنطق واحدة من أختيها.

وعاد أحمد يصرخ وصدره يتهدج وأنفاسه تتمزق فوق شفتيه :

- إذا كنتى مش عارفة مصلحتك.. احنا نعرفها.. وإذا حاولتى تعملى أى حاجة، حاتعرفى شغلك.. فاهمة.

ولم ترد ليلى.

ولم تنطق واحدة من أختيها.

وخرجت الزوبعة.

خرج أحمد ودخل غرفته، وضرب الباب بعنف فأغلقه وراءه.. وألقى بنفسه على المقعد الموضوع بجانب سريره، وصدره لا يزال يتهدج.. لقد أدى واجبه.. إن أخته يجب أن تتزوج.. وسيزوجها سواء أرادت أو لم ترد.. ولكنه يحس أنه ليس هو الشخص الذى يؤدى واجبه.. ليس هو الشخص المقتنع بأن أخته يجب أن تتزوج.. هناك شخصية أخرى داخل نفسه هى التى تملى عليه إرادتها.. شخصية أخرى هى التى جعلته يضرب أخته عندما هربت من البيت.. وجعلته يخاصمها بعد ذلك.. وجعلته الآن يثور فى وجهها ويصمم على أن تخرج أخته لتعرض نفسها على الرجل الذى يطلب زواجها.. شخصية أخرى.. ربما كانت شخصية خاله أو شخصية أبيه.. وهو.. ما رأيه هو فى كل ذلك..؟

إن قطعة من عقله لا تقره على تصرفاته.. وفى صدره شىء كالاحساس بالجرم.. الجرم فى حق أخته.. لماذا ضربها يوم هربت؟ لماذا لم يحاول أن يفهمها، ويفهم الظروف التى دفعتها للهرب؟ إن كل البنات يقعن فى الحب، ولكن ليس كل البنات يهربن من بيوتهن.. ولابد أن هناك ظروفاً أحاطت بأخته دفعتها إلى الهرب، وربما لو عرف هذه الظروف لاستطاع أن يساعدها بدل أن يضربها.. ثم لماذا يصمم الآن على أن يجبرها على

الزواج وعلى مقابلة الرجل الذى يريد أن يتزوجها؟ إن هذه الوسيلة فى عقد الزيجات أشبه بأسلوب بيع الرقيق.. كيف يجبر أخته على أن تعرض نفسها أمام رجل؟ وماذا يرى فيها هذا الرجل خلال هذه المقابلة القصيرة.. إنه يرى فقط جسدها.. كأنه يعرض جسد أخته.. كأنه يبيع جسد أخته.. ثم أنه يؤمن بالحب.. ويؤمن بأن الزواج لا يمكن أن يكون إلا ثمرة حب.. وهو نفسه لم يشغل نفسه بفتاة إلا الفتاة التى أحبها.. ولم يفكر فى الزواج إلا عندما أحب.. فكيف يحرم أخته من حق الحب؟ كيف يضطرها إلى زواج ليس فيه حب؟

ورغم هذا فالشخصيات الأخرى التى ترسب فى أعماقه هى التى تحكم تصرفاته.. إن هذه الشخصيات تسبق تفكيره، وتفرض عليه تفكيرها.. وتسبق إرادته، وتفرض عليه إرادتها.

وهو من خلال هذا التضارب والتناقض بين الشخصيات التى تعيش فى نفسه.. يحس باحساس خبيث يزحف فى داخله.. ثعبان أسود سام ينفث سمه فى منطقه.. إنه يحس كأنه يريد أن يتخلص من أخته.. أن يتخلص من مسئوليتها ويلقى بها على أول رجل يتقدم لحملها.. وهو يحاول أن يطرد هذا الاحساس.. أن ينكره.. أن يهرب منه.. ولكن الثعبان الأسود يزحف فى داخله، ويثير القشعريرة فى صدره، وينفث سمه فى تفكيره.. نعم. إنه يريد أن يتخلص من مسئولية اخته.. ولذلك فهو يرحب بتزويجها.

وهو يعلم من مسئوليته تجاه أخته، مجرد مسئولية نظرية.. بل إنه لم يشعر بأنه مسئول عنها إلا منذ أسبوع واحد.. منذ هربت من البيت.. واكتشف أنها تحب.. ثم عرف الشخص الذى تحبه.. لم يبلغه أحد عنه.. لم يقل له أحد اسمه.. ولكنه عرفه..جمع عدة كلمات متفرقة من بين شفاه أمه وأخوته، ودرس الظروف والحوادث التى تحيط بأخته.. إلى أن عرفه.. عرفه أنه فتحى.. هذا الفنان الذى كان يحبه ويقدره.. هو نفسه الذى استأثر بقلب أخته، وأربك حياتها، وضحى بمستقبلها فى سبيل أنانيته.

وقلبه وعقله يشتعلان بالنار كلما تذكر فتحى.. وقد احتار كيف يتصرف ازاءه.. لقد فكر أن يذهب إليه ويضربه انتقاما وفكر أن يستأجر عدداً من المجرمين ليقتلوه وفكر أن يذهب إلى زوجة فتحى ويطالبها بأن تحمى أخته

من زوجها... وفكر أيضا أن يذهب إلى فتحى ويحادثه فى هدوء، ويقنعه بأن يترك أخته فى حالها.

ولكن.

دائما، ولكن.

إن «لكن» هذه هى التى تتعبه، هى التى تهز شخصيته وتجعلها شخصية مائعة ضائعة.

ولكن.. بأى حق يضرب فتحى أو يقتله أو حتى يحادثه.. إنه لا يملك حقا على فتحى.. إنه لم يعتد على أخته.. لم يغتصب منها شيئا رغم إرادتها.. إن ليلى فتاة كبيرة، وإذا كانت قد أحبت فتحى، وأحبها فتحى، فليس فى الحب جريمة ولا اغتصاب.. إن الحب التقاء إرادتين وهو قد أحب شهيرة، وأخوها يعلم أنه يحبها.. لابد أنه يعلم.. ورغم ذلك فأخو شهيرة لم يضربه، ولم يحاول أن يقتله.. ما الفرق؟ الفرق الوحيد هو أن فتحى متزوج.. ولكن أخته تعلم أنه متزوج.. وفتحى لا يحاول أن ينكر أنه متزوج.. وليس فى حبهما خداع ولا غش.. و..

ويستمر أحمد فى مناقشة نفسه.

وقد يميل عقله إلى الاقتناع بأنه لا يملك حقا على فتحى.. ولكنه دائما يشعر بأنه ذليل كلما تذكر فتحى.. كأن فتحى يعايره بشىء.. كأن فتحى أقوى منه.. ويدفعه هذا الشعور إلى معاودة التفكير فى الانتقام من فتحى.. ولكنه لا ينتقم.. ليس لأنه جبان.. لا.. إن أحمد ليس جبانا.. كل ما هنالك أنه غير مقتنع بشعوره الذى يدفعه إلى الانتقام.. وتنتهى به هذه الحالة، إلى الاستسلام للشخصيات الأخرى التى ترسب فى أعماقه.. شخصية أبيه، وشخصية خاله، وشخصية أمه.. فيضرب أخته.. ويوافق على حبسها فى البيت.. ثم يوافق على تزويجها.. يوافق، ونفسه مشتتة، وقطعة من عقله غير مقتنعة بالموافقة.. بل أنه لا يوافق، ولكنه يستسلم.

وهو لا يزال جالسا فى مقعده وصدره يتهدج.

وعاد ممدوح إلى البيت.

وأطل على البنات الثلاث المجتمعات فى غرفتهن، ونظر فى وجوههن، ثم قال وابتسامة تملأ وجهه :

- البقية فى حياتكم.
وقالت نبيلة فى جزع :
- ايه ؟!
-وقال ممدوح :
- مـا هو الواحـد مش ممكن يشـوف وشـكم وانتـم بالشكل ده ويقـول بونجور.. ولا سعيدة.. لازم يقول البقية فى حياتكم.
وقالت فيفى :
-دمك تقيل.
ونظر مـمـدوح إلى ليلى وهى تبكى، ثم تقدم إليـهـا، وجلس بجـانبـهـا على الفراش، وقال مداعبا فى حنان :
- مين اللى مات النهاردة ؟
وقالت ليلى :
- أنا..
ثم أجهشت بالبكاء.
وقالت فيفى :
- أصل يا سـيدى جـاى لهـا عـريس.. وحضـرتـهـا بتدلع وقال مـمـدوح ضـاحكا :
- عـريس!! مـين الـفـدائى ده ؟! دى البلد لسـة مليـانة مـجـانين.. وانتى بتعيطى ليه.. ده لازم هو اللى يعيط !
وقالت ليلى وهى تتشنج :
- مش عايزة أتجوز يا ممدوح.. مش عـايزة.. وكلهم عـايزين يجوزونى بالعافية.. ما حدش فيهم عايز يفهمنى ولا يرحمنى.
واكتسى وجه ممدوح بتـأثر عميق، ومد ذراعه واحتضن أخته، وأخذ يمسح على شعرها بيده الأخرى.. وقال :
- ولا يهـمك.. إوعى تسـمـعى كـلامـهـم.. مـاتتـجـوزيش إلا لمـا تعـوزى تتجوزى.
ثم قام من فوق السرير، وقال وعلى وجهه أمارات الجد :
- أما أقوم أشوف ايه الحكاية.

وســار فى خطوات قــوية تنم عن ثورته، ثم دخل غــرفة أخــيــه أحمــد، ووقف قبالته قائلا :

- إيه حكاية ليلى يا أحمد..

- مالها.

وقال ممدوح :

- بتقول انكم عايزين تجوزوها غصب عنها.

وقال أحمد فى هدوء :

- هى مش عارفة مصلحتها.

وقال ممدوح :

- دى مش مصلحــة.. ده جواز.. يعنى راجل حــاتعيش مــعاه بوزها فى بوزه.. ومش ممكن نجبرها على أنها تعيش مع واحد غصب عنها.

وقال أحمد فى حدة كأنه يخاف أن يقتنع بكلام ممدوح :

- إنت مالكش دعوة بالموضوع ده.. إنت ما تعرفش أختك عملت إيه.

وقال ممدوح وقد بدأ صوته يرتفع :

- مهــما كانت عــملت.. برضه دى مش طريقــة.. إذا كانت بتــحب واحد ومش قادرة تتجوزه، يبقى مش معنى كــده إننا نجوزها واحد مابتحبوش.. مافيش بنات دلوقت بتتجــوز غصب عنها.. وإحنا مش همج.. مش فلاحين، ولا صعايدة.

وصرخ أحمد :

- إنت حاتمشى البيت على كيفك.. قلت لك مالكش دعوة بالموضوع ده.

وقال ممدوح محتداً :

- أنا حاروح أكلم أمى.

وقال أحمد :

- أمك موافقة.. وخالك موافق.. وكل اللى حــاتعمله، إنك حاتشعلل البيت زى عوايدك.. ورحــمة أبوك تخــرج منها وتتلم.. ومــا حدش حــايطلب منك حاجة.

وقال ممدوح وهو ينظر إلى أخيه كأنه يشفق عليه :

- إنت غلطان يا أحمــد.. كلكم غلطانين.. انتو مش عــارفين بتــعملوا إيه

فى ليلى.. وبكرة حاتندموا.. مش هى بس اللى حاتتعذب.. كلنا حانتعذب.

ولم يرد أحمد.. أدار ظهره لأخيه.

وقال ممدوح وهو يخرج :

- قول لماما إنى حاتغدى برة.

وخرج.

خرج من البيت كله.

وليلى لا تزال تبكى.. ونبيلة لا تزال معها فى الغرفة تتشاغل بترتيب كتبها.. وفيفى ذهبت إلى غرفة أمها.

وفجأة كفت ليلى عن البكاء.

وصمتت طويلا، تفكر.. ولم تكن تفكر فى حبيبها فتحى.. ولا فى الرجل الذى جاء يخطبها.. ولكنها كانت تفكر فى تحدى أهلها.. ستتحداهم جميعا.. لن يستطيعوا أن يعذبوها أكثر من عذابها.

واستمرت تفكر.

وارتفعت ابتسامة ماكرة إلى شفتيها.. مكر ساذج برىء.

ثم قالت فجأة :

- أنا حاقابله.

والتفتت إليها نبيلة، وقالت دهشة :

- حاتقابلى مين!

وقالت ليلى وهى تنظر أمامها كأنها ترى مستقبلها :

- العريس.. عصام.. وحاتجوزه كمان.. حاتجوزه عميانى.

وصاحت نبيلة فى فرح :

- صحيح يا ليلى.

وقالت ليلى :

- صحيح.. مستعدة أتجوزه من بكرة.

وسحبت نبيلة فرحتها، ونظرت إلى أختها فى تمعن، ثم قالت :

- إنما ايه اللى خلاكى تغيرى رأيك.

قالت :

- ولا حاجة.. مادام كلكم موافقين، يبقى لازم أنا اللى كنت غلطانة.. ثم أنا ايه اللى يخلينى أستحمل النكد ده كله، يبقى الجواز أحسن.

وقالت نبيلة :

- يعنى أروح أقول لماما إنك موافقة.

وقالت ليلى فى استهتار :

- آه.

وخرجت نبيلة.. وبقيت ليلى وحدها.. تفكر.. وبين شفتيها هذه الابتسامة الماكرة.. مكر ساذج برىء.

وجاءت الأم وبين شفتيها ابتسامة واسعة، وقالت وهى تحتضن ابنتها بعينيها :

- أيوه كده يا ليلى.. ريحتينى.. انتى فاكرة أنى أوافق على حاجة إلا إذا كنت متأكدة إنها فى مصلحتك.. وأنها تسعدك.

وقالت ليلى وهى تنظر إلى إمها :

- عارفة يا ماما.

وقالت الأم :

- طيب قومى يا حبيبتى اغسلى وشك، وياللا نتغدى.. وبعد الغدا نقعد نتكلم.

وقامت ليلى، وأختها فيفى تنظر وراءها، والسخط بين شفتيها.. وحاولت فيفى أن تبتسم، ولكن ابتسامتها سقطت منها.. إنها تشعر بنوع من الغيرة.. ولكن لا فائدة.. إنها تغار.. والحديث عن زواج ليلى يثير عقدتها التى تعانى منها طوال حياتها.. إن ليلى أجمل منها.. ولذلك فهى تستطيع أن تجد دائما زوجا.. عشرات الأزواج فى انتظارها.. حتى لو كانت تحب شخصا آخر.. حتى لو كانت قد هربت من البيت مرة.. حتى لو لاكت كل الألسنة سمعتها.. إنما دائما تستطيع أن تجد عريسا.. أما هى.. فيفى.. مفيدة.. فلا أحد يتقدم للزواج بها.. كل الرجال وهبوها للعلم.. ما عدا الأستاذ أمين عبدالسيد.. وحتى هذا يبدو أنه عدل عن التفكير فى الزواج بها.

وعادت ليلى من الحمام وهمست فى أذن أختها نبيلة :

- قولى لماما إنى لازم أروح للكوافير.. ما أقدرش أقابل الناس بالشكل ده.

●●●

وبعد الغداء ذهبت ليلى مع نبيلة إلى الحلاق.

وانتهى الحلاق من غسل شعرها، وشعر أختها، وجلستا على مقعدين متجاورين وقد وضعت كل منهما رأسها تحت المجفف الكهربائى، ثم فجأة

قامت ليلى وهى تقول لنبيلة :

– أما أقوم أكلم عيشة فى التليفون.

وقامت.

ونظرت اختها وراءها كأنها لا تصدقها.

وأمسكت ليلى بالتليفون الموضوع فى آخر صالون الحلاق، وأدارت رقم فتحى.

ورد عليها.

وقالت فى صوت هامس :

– فتحى.. أنا جاى لى عريس.

ولم يرد فتحى.

وعادت تقول له :

– ما بتردش ليه.

وقال فتحى :

– حارد أقول إيه يا ليلى.. مش عارف أقول إيه.

وقالت :

– على كل حال كنت عارفة إنك مش حاتعرف ترد.. أنا بس حبيت أقول لك.. باى باى.. حابقى أكلمك فى التليفون بعدين.

ووضعت السماعة مكانها.

وعادت تجلس بجانب أختها تحت المجفف الكهربائى.. وبين شفتيها ابتسامة صغيرة.. وفى قلبها ابتسامة أكبر.

ابتسامة النصر.

إنها تستطيع دائما أن تنتصر على أهلها.

١٨

□ خرج أحمد من البيت فى الصباح الباكر، وهو يحاول أن يبدو فى أحسن حالاته.. إن أخته ليلى ستعلن خطبتها هذا المساء إلى عصام بدر الدين.. ومن حقه أن يفرح.. وأن يحس باحساس الأخ الذى أدى واجبه.. ورغم ذلك فهو يشعر بأنه ليس صادقا فى فرحه، وليس صادقا فى احساسه بأنه أدى واجبه.. لا تزال قطعة من عقله غير مقتنعة بهذا الزواج.. وأحيانا يحس بأن هذه القطعة من عقله قد كبرت إلى حد أن أصبحت عقله كله. فيشعر كأنه ارتكب جريمة فى حق أخته.. كأنه أفسد حياتها كلها، ومستقبلها كله.

وقد مرت به حوادث الأسبوع الماضى منذ جاء عصام ليخطب أخته، مرت سريعة، أسرع من تفكيره.. ولم يكن ينتظر أن تمر بهذه السرعة.. كان يعتقد أن خطبة أخته مشكلة تستغرق أسابيع وشهورا.. كان يتمنى أن تحدث مشكلة.. أن يثور اعتراض.. حتى يفسد المشروع، أو على الأقل حتى يعاود التفكير فيه.. ولكن كل شىء مر فى هدوء.. كأنه القدر الذى كتب على أخته.. وهو بجانب خاله لا يستطيع أن يجد مجالا يتحرك فيه.. بل لا يستطيع أن يجد رأيا يقوله.. إن خاله يملأ المجال كله، ويغتصب لنفسه كل الآراء.. وهو لا يملك إلا الابتسلام.

ولم يسترح أحمد عندما رأى عصام لأول مرة.. أحس منذ رآه أنه لا يستحق أخته.. ورغم ذلك فلم يجد فيه شيئا يؤاخذ عليه.. أنه متعلم.. خريج كلية التجارة.. وهو غنى.. وهو ناجح.. وهو مهذب.. وهو أنيق.. إنه إنسان كامل إلى حد أن كماله لا يبدو طبيعيا.. كل شىء فيه مرسوم بالبرجل والمسطرة.. ابتسامته.. ولفتات وجهه الوسيم.. وساعته الذهبية

الموضوعة فوق كم قميصه.. ورباط عنقه المشبوك بدبوس ذهبى.. وشعره اللامع المصفوف كل شعره بجانب الأخرى.. وذقنه الحليقة الناعمة، وآثار البودرة منتثرة فوقها.. إنه إنسان يثير الغيظ أكثر مما يثير الاعجاب.. ويثير الشك أكثر مما يثير الاطمئنان.

ولكن ما أثار دهشة أحمد أكثر، هو موقف أخته ليلى.. إنها لم تعترض على شىء.. بل لم تحاول أن تتمنع كما تحاول أن تتمنع حين يتقدم لخطبتها شاب تعرفه.. بل لم تتظاهر حتى بالخفر والحياء.. لقد قابلت عصام بعينين مفتوحتين، فيهما جرأة تبلغ حد الوقاحة.. وبادلته الحديث كأنها تملى عليه إرادتها.. كأنها لا تحب إنسانا آخر.. كأن ليس فى حياتها مأساة.. كأنها تؤدى مهمة تتحداهم بها.. ثم وافقت على طول الخط.. وافقت على كل شىء اقرته أمها، وأقره خالها.. ولا يمكن أن يكون هذا هو ما تريده ليلى فعلا.. لابد أن وراء هذا التحدى شيئا آخر.. خطة وضعتها بينها وبين نفسها.. شىء لا يدريه، وخطة لا يستطيع أن يكتشفها.

ووسع أحمد من خطاه، وبين شفتيه ابتسامته التى يحاول أن يقنع بها نفسه إنه أدى واجبه.. ودخل إلى محل جروبى، وتناول افطاره بسرعة، ثم قام وسار على قدميه بخطواته السريعة حتى وصل إلى الوزارة.

ودخل على زملائه الموظفين، وحياهم فى صوت منطلق كأنه يحاول أن يقنعهم، ويقنع نفسه بأنه أكثر سعادة فى هذا الصباح منه فى كل صباح.

ورد زملاؤه التحية، وهم يتطلعون إليه كعادتهم يبحثون فيه عن شىء جديد، ثم قال له فريد أفندى ابراهيم وصوته ينطلق من أنفه :

- الريس بيسأل عليك من الصبح.. بعت لك الساعى مرتين.

وامتعض أحمد، وجلس إلى مكتبه، ثم ما لبث أن قام قائلا، كأنه يريد أن يتخلص من شىء يكرهه :

- أما أقوم أشوفه عايز ايه.

وخرج من الغرفة وهو يدق الأرض بقدميه.. كأنه يدوس بهما شيئاً ينبعث من نفسه ثم دخل على رئيسه وهو يبتسم له ابتسامة مائعة لا معنى لها.. وقام رئيس القلم بمجرد أن رآه، وخرج من وراء مكتبه مادا له كلتا يديه وهو يصيح :

- أحمد بيه.. أهلا.. أهلا.. يا صباح النور.. أنا مش عارف أشكرك ازاى.. مش عارف أرد جميلك ازاى.

وأطلت الدهشة من عينى أحمد، وقال متلعثما :

- يا أفندم و..

وقاطعه رئيس القلم وهو يشب أمامه بجسده الرفيع وصدره المطبق، قائلا :

- لا.. لا يا أحمد بيه.. سيبنى أشكرك الأول.. أنا لو فضلت أتكلم أسبوع بحاله مش حاوفيك حقك من الشكر.. صحيح إن الفضل لخالك عزت بيه.. إنما لولا أنت ما كانتش المسألة تمت.

وقال أحمد وهو لا يزال دهشا :

- مسألة ايه ؟

- طبعا أنت لسة ما تعرفش.. ماتعرفش أن حركة الترقيات صدرت.. الوزير مضاها امبارح بالليل الساعة حداشر ونص، فى البيت.. ويمكن تعلن النهاردة بعد ساعة ولا ساعتين.. إنما أنا عرفت تفاصيل الحركة من مصادرى الخاصة.. هنينى يا أحمد.. هنينى.. أنا أخذت الدرجة.. تقدر تعتبرنى دلوقت فى الدرجة الثالثة.

وقال أحمد فى ذهول :

- مبروك.

واكتسى وجه رئيس القلم بسحابة من الأسى المفتعل، وقال وهو يطاطىء رأسه فى حركة مفتعلة :

- إنما للأسف فرحتى ما تمتش.. اسمك ماظهرش فى الحركة.. متهيألى إن عزت بيه تعمد أن يظلمك لأنك ابن أخته.. أنا عارفه.. راجل صعب جدا.

وقال أحمد :

- على كل حال أنا لسة ما استحقش الدرجة.

وقال الرئيس فى حماس :

- ازاى ده.. أنت فاكر إن اللى بياخدوا الدرجة أحسن منك.. أبدا..

وأحب أؤكد لك إنى رشحتك للدرجة أكتر من مرة.. وفى كل مناسبة.. والتقارير اللى كتبتها عنك كانت تكفى أنك تاخد درجتين مش درجة واحدة.. وأرجوك إنك تصدقنى.. وتقدر تسأل خالك.. و...

وقال أحمد مقاطعا :

- - أنا متشكر.. متشكر جدا.. وألف مبروك.

ومد يده يصافح رئيسه، كأنه يريد أن يهرب منه.. أن يتخلص من هذا الموقف.

وأمسك رئيس القلم بيده، وقال وهو متشبث بها :

- مش ممكن.. لازم تكون أول واحد يشرب الشربات.

وقال أحمد، وابتسامته أضعف من أن تستقر بين شفتيه :

- معلهش.. نوبة تانية.. أصلى.. أصلى عندى شغل كتير !

وابتسم رئيس القلم ابتسامة خبيثة كأنه يعاتب أحمد لأنه يحاول أن يفهمه أن لديه عملا، فى حين أنه - بصفته رئيسه - أول من يعلم أن ليس لديه عمل.. وقال :

- طيب يا أستاذ أحمد.. بس اتأكد أنى مش ناسيك.. وإنى مش حاستريح إلا لما أرد لك جميلك.

وقال أحمد وهو يهز يد رئيسه فى حركة آلية :

- العفو.

وأدار له ظهره.. وخرج.

ولم يعد إلى مكتبه.. نزل إلى فناء الوزارة.. وهو يفكر فى رئيسه وفى الترقية التى نالها.. أنه لم يحادث خاله بشأن هذه الترقية.. والخطاب الطويل الذى كتبه رئيسه وأعطاه له ليسلمه لخاله.. لم يسلمه، بل مزقه.. معنى هذا أن رئيسه نال ترقيته بلا وساطة.. معناه إنه يستحق فعلا الترقية.. معناه أنه كان يستطيع أن يوفر على نفسه ذل السؤال، ويوفر على نفسه كل هذا النفاق.. وينال الترقية.. ولكن رئيسه لا يمكن أن يصدق أنه نال ترقيته بلا وساطة.. ولو ذهب إليه أحمد وأقسم له إنه لم يحادث خاله فى موضوع هذه الترقية، لما صدقه.. إنه لا يؤمن بأنه يستحق الترقية بلا

وساطة.. لا يؤمن بنفسه.. ولا بعمله.. كل الموظفين لا يؤمنون بأنفسهم، ولا بأعمالهم.. لا يؤمنون إلا بالوساطة.. والنفاق.. والتذلل.. ورغم ذلك فالعيب ليس فيهم، إنه فى الأداة التى تحركهم.. والتى تريد لهم أن يؤمنوا بالوساطة.. وأن ينافقوا.. ويتذللوا.. ويخنعوا.

وهز أحمد كتفيه وهو يسير فى الشارع بخطواته الواسعة السريعة، كأنه يحاول أن يقنع نفسه باللا مبالاه.. يقنع نفسه بأن فساد رئيسه، وفساد الحكومة، ليس من شأنه.. إن كل ذلك لا يزيد على صورة معلقة أمام عينيه.. يستطيع أن يرى ما فيها من تشويه ومن قبح، ولكنه لا يستطيع أن يحمل مسئوليتها.. فهو ليس راسمها.. لم يشترك فى رسمها.. وليس من شأنه أن يرسم.. أنه لا يستطيع أن يرسم.. كل ما يستطيعه أن يرى.. ويشمئز.

وزفر أنفاسه فى ملل وسأم.. أن أمامه يوما طويلا مملولا يقضيه فى الشارع إلى أن يحين موعد الاحتفال لإعلان خطبة شقيقته.. وهو لا يريد أن يعود إلى البيت قبل ذلك.. إنهم هناك يقلبون كل شىء رأسا على عقب، استعدادا للحفل، رغم أنه حفل صغير لم يدع إليه إلا العائلتان.. وهو لن يحتمل هذه الضجة التى تقيمها أمه فى البيت.. إنها ضجة لا مبرر لها إلا أنها منبعثة من صدر أمه.. من فرحتها.. أو من لهفتها.. من أعصابها المتوترة.

أين يذهب؟

ليس أمامه إلا أن يظل يجوب الشوارع سائرا على قدميه.. ثم يجلس فى مقهى.. ويفكر.. لا انه لن يفكر.. انه سيحاول أن ينسى.. ينسى شهيرة.. ومنذ خمسة عشر يوما وهو يحاول أن ينساها.. ولكن محاولته النسيان ليست سوى مزيد من التفكير فيها، وتذكير نفسه بها.. بكل لفتة من لفتاتها.. بكل كلمة من كلماتها.. بكل يوم.. بكل ساعة.. بكل دقيقة.. إن سر تعاسته أن ذكرياته معها لا تنتهى.. كل كلمة يتذكرها تقوده إلى لفتة أخرى.. وكل حادث يقوده إلى حادث آخر.. أشياء صغيرة.. صغيرة.. لم يكن يعتقد أنه يستطيع أن يتذكرها.. ولم يهتم بها فى حينها، ولم يكن

يعتقد أنها انطبعت فى أعماقه.. ولكن كل شىء ينطبع فى أعماقنا، دون أن ندرى.. ودون أن نتعمد الاحتفاظ به.. إلى أن تحين ساعة الألم.. ألم الذكرى.. فتقفز هذه الأشياء الصغيرة إلى السطح.. إلى عقولنا.. فنتذكرها.. كأنما آلامنا نار تصهر أعماقنا حتى تغلى بما فيها، وتتصاعد منها إلى رؤوسنا أبخرة تحمل هذه الأشياء الصغيرة، واللفتات العابرة.

ووصل إلى شارع ٢٦ يوليو، ودخل إلى مقهى «الشمس» واختار مائدة بعيدة منزوية، جلس إليها، وطلب من الجرسون فنجاناً من القهوة.. سادة!

وعادت الذكريات تهاجمه..

إنه لن يستطيع أبدا أن يهرب من هذه الذكريات.. لقد استطاع أن يهرب من شهيرة نفسها.. منذ خمسة عشرة يوما وهو لم يرها ولم يسمع صوتها.. هرب من النادى، وهرب من التليفون.. وقد حاولت ان تتصل به عدة مرات، وكان دائما يهرب.. ولكنه لا يستطيع أن يهرب من ذكرياته معها.. ولا يستطيع أن يهرب من أحساسه بالفشل معها.. احساسه بأنه أضعف من أن تكون له فتاة يحبها وتحبه.. احساسه باهتزاز شخصيته أمام شهيرة، وأمام العالم الذى تعيش فيه شهيرة.

وهجمت عليه ذكرى الحفلة التى دعته إليها شهيرة فى بيتها، عندما فقد توازنه وفقد تماسك شخصيته، وجعل من نفسه مسخا مهزئا يضحك عليه المدعوون أمام عينى شهيرة.

ذكرى كالسحابة السوداء الهائلة، تزحف فوقه وتطويه، وتدور به كالدوامة.. ويحس بنفسه يتمزق.. ويحس بكل ما فيه يبكى.. دموع فى قلبه، وفى رئتيه، وفى أمعائه.. دموع تنزف من كل مسام جسمه، ما عدا عينيه.

واستسلم لهذه الذكرى.

استسلم للعذاب.

وبدأ صدره يضيق، كأنه يتجمع للبكاء.

ثم فجأة انتفض من فوق مقعده، وألقى بورقة من ذات الخمسة قروش فوق المائدة، وترك فنجان القهوة دون أن يشربه، ثم خرج فى خطواته

الواسعة السريعة، كأنه يهرب.. يهرب. دائما يهرب.. إنه لا يستريح إلا حيث لا يكون.

واتجه إلى موقف سيارات الأجرة، وفتح باب احداهما فى عنف، كأنه يقتحم حصنا.. والقى جسده الكبير فى ركن منها، وصاح فى السائق كأنه يستغيث به :

- نادى الجزيرة يا أسطى.

سيذهب إلى النادى.. لا ليرى شهيرة.. ولكن لأن من حقه أن يذهب إلى النادى.. لماذا يحرم نفسه من حقه؟ لماذا يضعف إلى حد أن يتنازل عن حقوقه؟ إنه سيذهب.. ولن يلتفت إلى شهيرة.. ولن يحادثها.. وإذا جاءت وحادثته فسيقول لها ببساطة إنه آسف.. إنه مشغول.. وإنه يريد أن يبقى وحيدا.

وكان يقول لنفسه هذا الكلام، وهو يعلم أنه يذهب إلى النادى، لأنه يريد أن يلتقى بشهيرة، ويريد منها أن تحادثه، وأن تعيد إليه هدوء نفسه.

ولكن.

أية شخصية يلبسها ويدخل بها النادى ؟

شخصية الرجل الوقور، المشغول، المفكر.. سيدخل دون أن يلتفت حوله.. ودون أن يحيى أحدا.. ويسير فى أرض الملعب.. ولعل شهيرة تراه، فتأتى إليه.. ربما أصبحت يائسة منه، إلى حد أن استغنت عنه، وأخرجته من حياتها.

وشعر بقلبه يتلوى.. يد قاسية تعصره.

إذا لم تأت إليه شهيرة، فلن يستطيع أن يذهب إليها.. إنه يعرف نفسه.. إنه أضعف من أن يذهب إليها.. إنه ضعيف.. منطو.. خجول.. هذا الضعف والانطواء والخجل الذى يظنه البعض كبرا وتعاليا ووقارا.

ووقفت السيارة أمام باب النادى.

ولم يتجه إلى الملاعب ليسير على أرضها.. بل دخل إلى الشرفة المطلة على حمام السباحة.. وهو يسير مندفعا، كأنه فى طريقه ليغرق نفسه.. لينتحر.. ولم يلتفت إلى أحد.. ولم يحى أحدا.. سار متجها إلى الناحية

الأخرى من الشرفة التى تؤدى إلى الملاعب.

وسمع من خلفه صوتا ناعما يصيح به :

- أحمد.. أحمد. استنى.

إنه ليس صوت شهيرة.

والتفت خلفه فى حركة مفاجئة، وعيناه ثابتتان كأنه يتحدى بهما أشباحا فى الهواء.

إنها منى صديقة شهيرة.. ترتدى بنطلونا قصيرا وبلوزة زرقاء.. طويلة.. جميلة.. جمالها تحوطه دائما غلالة مغبرة كوردة بها عاصفة.. وجبينها العالى ينتفض فوقه عرق أزرق، كأنه آثار معركة نفسية هزم فيها عقلها وذكاؤها.. وهى تحاول أن تبدو دائماً طيبة القلب، ولكنها فشلت فى أن تضع الطيبة فى قلبها، فحملتها بين شفتيها.. وأحمد يشفق عليها، ولكنه لا يستريح لها.

وابتسم أحمد ابتسامة صغيرة، وهو يقول :

- ازيك يا منى.

وهم أن يمد يده ليصافحها، ولكنه عدل.. إن اللقاء بين شباب النادى لا يستدعى المصافحة، ربما كانت المصافحة بالعيون والابتسامات تغنى عن المصافحة بالأيدى.

وقالت منى وهى تنظر إليه كأنها تفحصه :

- إنت فين من زمان.. ما بتجيش النادى ليه ؟

وقال أحمد فى لهجة جادة :

- والله كنت مشغول.

وظلت منى تنظر إليه نظرتها الفاحصة، وقالت :

- ورايح فين دلوقت ؟

قال :

- حاتمشى شوية.

وفكرت منى برهة، ثم قالت :

- معاك تلاتة تعريفة ؟

وبحث أحمد فى جيوبه وأخرج ورقة من ذات الخمسة قروش وناولها لها وقال :

- اتفضلى.

واخذت الورقة قائلة :

- استنانى لغاية ما أتكلم فى التليفون وأديك الباقى.

قال :

- خلى الباقى معاكى لغاية ما نتقابل تانى.

قالت ضاحكة :

- لأ.. أنا أقدر أستحمل تلاتة تعريفة، إنما ما أقدرش استحمل شلن بحاله.. استنانى.. ولا تعالى معايا لغاية التليفون.. بعدين أهرب بالشلن كله!

وضحك أحمد ضحكة صغيرة.. وتردد قليلا.. ثم سار بجانبها.. ووقف ينتظرها خارج غرفة التليفون.

ودخلت منى إلى كابينة التليفون، ورفعت السماعة، وأدارت رقما، ثم قالت هامسة عندما سمعت صوت شهيرة :

- شهيرة.. أحمد هنا فى النادى.

وقالت شهيرة كأنها فوجئت :

- صحيح.. بقى له أد ايه.

وقالت منى وهى لا تزال تهمس فى حماس كأنها تقوم مع صديقتها بمغامرة.

- لسه جاى دلوقت.. وسبته واقف مستنينى قدام التليفون.

وقالت شهيرة :

- طيب أنا جاية حالا.. خليه مستنى بأية طريقة.. إوعى تسيبيه يمشى.. وماتقوليش له إنى جاية.. ماتجيبيش سيرتى خالص.

وقالت منى :

- بس تعالى قوام.. أحسن أنا ورايا ماتش اسكواش.

ووضعت السماعة.

وأخذت من عاملة التليفون باقى الخمسة قروس، ثم خرجت إلى أحمد قائلة وهى تضع النقود فى يده :

- عليك واحد كوكولا.

قال وهو يبتسم :

- ليه.

قالت :

- أولا لأنى مش لاقية حد أقعد معاه.. ثانيا لأنى ماأحبش المشى وإلا كنت اتمشيت معاك.. ثالثا لأنك بقالك كتير ماجتش النادى ولازم تدفع غرامة.

قال :

- بس...

وقالت تقاطعه :

- ماتخافش.. أنا اللى عازماك.. يبقى علىّ حق التليفون وحق اتنين كوكاكولا.

وجلسا على مائدة بجوار حوض السباحة.. وطلبا زجاجتين كوكاكولا.. ووضعت منى ساقيها العاريتين على مقعد آخر.. وفمها مكور فوق قطعة من الغاب الرفيع موضوع داخل الزجاجة تشفط بها الكوكاكولا.. وأحمد بجانبها صامت.. لا يتكلم إلا ليرد ردودا قصيرة على أسئلتها التى لا تنتهى.. ثم كأنها زهقت من كثرة ما وجهت إليه من أسئلة،فبدأت تروى له قصة فيلم شاهدته.

وفجأة رفع رأسه ورأى أمامه شهيرة.

وكان يبدو أنها ارتدت ثيابها على عجل.. «بلوزة» فى لون قشر البرتقال، و «جيب» ضيق من الصوف الأسود.. وليس على وجهها طلاء.. وشعرها ليس مستقرا فوق رأسها.

واعتدل فى جلسته، كأنه يواجه شخصا أكبر منه.

ونظرت إليه نظرة ثابتة يشوبها غضب رقيق، وقالت فى لهجة جادة دون أن تبتسم :

- تسمح تقوم تتمشى معايا شوية.

وقالت منى :

- وأنا حاقوم ألعب اسكواش.

ولم يتكلم أحمد.

قام من على مقعده، وسار بجانب شهيرة صامتا، وعيناه منكستان معلقتان ببوز حذائه.

- ولم تتكلم شهيرة.

سارت بجانبه صامتة، ويداها مشبكتان خلف ظهرها ورأسها منحن فوق صدرها كأنها تستعد لمناقشة عنيفة.

وظلا سائرين، وقلباهما يدقان على وقع خطواتهما، حتى وصلا إلى ملعب البولو.. ثم فجأة رفعت شهيرة رأسها، والتفتت إليه قائلة :

- إنت بتهرب منى ليه يا أحمد !

ولم يرفع أحمد رأسه.. لقد كان ينتظر منها هذا السؤال أو شيئا يشبه هذا السؤال.. وابتلع ريقه كأنه يبلل به الجفاف الذى يملأ حلقه، وقال فى صوت يحشرجه حبه :

- أنا ماباهربش.

وقالت شهيرة فى حدة كأنها على وشك البكاء :

- لأ.. إنت بتهرب.. ضربت لك تليفون أكثر من مرة، ماكنتش بالاقيك.. وكنت با آجى النادى كل يوم استناك، وإنت ماتجيش. ماكانش ممكن أعمل أكثر من كدة.. ماكانش ناقص إلا أنى أروح لك البيت ولا أروح لك فى مكتبك.

ولم يرد أحمد.

واستطردت شهيرة وهى لا تزال محتدة :

- إنت عارف أنا باعمل كدة ليه ؟

وقال أحمد دون أن يرفع رأسه :

- عارف.. علشان صعبت عليكى من يوم الحفلة.

وتوقفت شهيرة عن السيرة مرة واحدة ـ وقد وصلا إلى نهاية ملعب

البولو - وقالت وهى تنظر إليه غاضبة، محتدة، ورموشها ترتعش فوق عينيها :

- ماتقولش كدة يا أحمد.. أنت ما صعبتش عليّ.. عمرك ما صعبت عليّ.. إنت مش فاهمنى.. اللى مجننى إنك مش قادر تفهمنى.

وقال أحمد فى صوت خفيض وهو ينظر إليها :

- أنا مش فاهم نفسى.

وقالت شهيرة بسرعة كأنها تتحداه :

- أنا فاهماك.

ونظر إليها أحمد فى دهشة، كأنه يعجب كيف يستطيع إنسان أن يفهمه فى حين أنه لا يستطيع أن يفهم نفسه.. ثم أحنى رأسه، وظل صامتا برهة، ثم قال كأنه يحادث نفسه :

- تقدرى تقولى لى إيه اللى خلانى أعمل كدة فى الحفلة بتاعتك.. ايه اللى خلانى أحط الكرسى فوق الترابيزة، وأطلع أقعد عليه زى العبيط، وأضحك الناس عليّ.

وقالت شهيرة فى حماس كأنها تدافع عنه أمام نفسه :

- كنت سكران.. كل الشبان لما بيسكروا بيعملوا حاجات زى دى.

وابتسم أحمد ابتسامة ساخرة، وقال كأنه يهزأ من عقليتها :

- لأ.. ماكنتش سكران وبس.. كان فيه حاجة ثانية.. حاجة مش فاهمها.. حاجة أقوى منى.. كنت ساعتها متهيألى إنى تايه.. وإنى مش باين بين الناس .. إنى صغير، وإنى ضعيف، وإنى تافه.. ماكنتش قادر أخللى حد يهتم بى ولا يحس بوجودى.. وأكثر من كدة.. لما كنتى بتبعدى عنى وتسيبينى لوحدى، كنت باحس كأنى خايف من الناس.. خايف أغلط قدامهم.. خايف اتكلم كلمة غلط.. ولا أتصرف تصرف غلط.. وساعات الواحد لما يخاف من حاجة يقوم يندفع ناحيتها.. زى ما تفضلى تبصى فى النار ولا المية لغاية ماترمى نفسك فيها.. أنا كمان فضلت أبص للغلط.. وخايف من الغلط، لغاية ما عملت حاجة غلط.. هزأت نفسى، وضحكت الناس عليّ.

وسكت أحمد.. وتنهد من أعماقه، كأنه استراح بعد أن القى كل هذا الكلام من فوق صدره.. وهو لا يستطيع أن يتكلم هكذا.. ولا يستطيع أن يكشف عن نفسه، إلا أمام شهيرة.. ولا يهمه إذا كانت تفهمه أو لا تفهمه.. كل ما يعرفه أنها الوحيدة التى يستطيع أن يتكلم أمامها.. أن يطلعها على سر نفسيته المرتبكة.. ويرتاح.. أنه لا يحس بالراحة أبدا إلا عندما يفرغ ما فى صدره بين يدى شهيرة.

ونظرت إليه شهيرة كأنها أحبته أكثر.. ورن فى أذنها قوله :

«لما كنتى بتبعدى عنى كنت باحس كأنى خايف من الناس». إنها تعرف منذ رأته أنه فى حاجة إليها.. إنها لم تخدع بقامته الطويلة وصدره العريض ووجهه الجاد، لقد عرفت من النظرة الأولى أنه يخفى تحت مظهره هذا نفسية حائرة.. تائهة.. وروحا شفافة رقيقة كروح طفل.. إنه فى حاجة إليها.. وربما كان سر حبها له أنها تشعر بحاجته إليها.. إن فى حبها خيطا من حب الممرضة لمريضها، وخيطا من حب الأم لابنها.. ولكنها لا تدرى كيف تساعد مريضها؟ ولا كيف تساعد ابنها؟ ولا كيف تساعد رجلها؟ إنها حائرة فيه بين المريض، والطفل، والرجل.. تخاف أن تعامله كرجل، فتغضب الطفل، وتخاف أن تعامله كمريض، فيثور الرجل.

وابتسمت ابتسامة هادئة، وقالت وهى تدير عينيها عنه، وقد بدأت وجنتاها تتضرجان بلون الورد :

– فيه حاجة تانية حصلت ليلتها.. ياترى دى كمان كانت غلطة ؟

قال وهو واقف قبالتها يحفر الأرض ببوز حذائه وعيناه منكستان :

– حصل ايه ؟

قالت كأنها تلومه :

– مش فاكر ؟

قال وهو يحاول أن يهرب من حديثها :

– متهيألى أن كل حاجة عملتها ليلتها كانت غلط.

قالت وهى تنظر إليه وقد بدأت تحتد من جديد.

– حتى لما بوستنى.

وسكت.. ولم يتكلم.

وقالت وقد ارتعش صوتها كأنها على وشك البكاء :

- أنا ما أسمحش لك إنك تبوسنى غلط.. ماكنتش غلطان.. وماكنتش سكران.. إنت بوستنى لأنك عايز تبوسنى.. من يوم ما شفتنى وأنت عايز تبوسنى.

وقال كأنه مذنب يعترف :

- ماكانش لازم أبوسك بالشكل ده.

قالت :

- مايهمنيش.. المهم إنك بوستنى.. وأنا جريت وراك وبوستك علشان أأكد لك إنك مش سكران، وإنك ما عملتش حاجة غلط.. وكان لازم تضرب لى تليفون تانى يوم، وتيجى تشوفنى.. مش تهرب منى !

قال فى أسى :

- انتى بوستينى علشان صعبت عليكى.

ونظرت اليه برهة، ثم قالت فى صوت حازم، وفى لهجة تحد :

- أحمد.. بص لى !

ورفع عينيه إليها.. عينيان صافيتان.. فى صفائهما ارتباك، كعينى طفل تائه. وقالت فى صوت هادىء رصين كأنها تعلنه بقرار خطير :

- إنت مابتصعبش علىّ يا أحمد.. أنا باحبك.

ووجم.

اشتد ارتباكه.

أحس كأنه يواجه موقفا لا قبل له بمواجهته.. وأحس بشىء يدور فى رأسه بسرعة رهيبة.

كيف استطاعت شهيرة أن تحبه.. ماذا أحبت فيه؟ هل يمكن أن تحب فتاة كشهيرة شابا مثله؟ شاب فاشل.. منطوٍ.. حائر.. مشتت النفس والعقل.. لا.. لايمكن أن تكون صادقة فى حبها.. كل ما هنالك أنها طيبة القلب.. تشفق عليه.. وقد دفعتها طيبة قلبها إلى الاعتقاد بأن شفقتها حب.. لا يمكن أن يكون هذا هو الحب.. الحب الذى يفخر به الرجل الناجح.. إنه

ليس رجلا ناجحا،، فلا يستحق إلا الشفقة.. مجرد شفقة.. لو لم تكن مجرد شفقة لما استطاعت شهيرة أن تصارحه بها.. لما وجدت الجرأة لأن تصارحه.. إنه ليس الحب الذى صارحته به، إنه الشفقة.. إنها تريد أن تساعده وتسعده.. مجرد عمل إنسانى حميد.. وهى لا تعلم أنها جرحته عندما بدأته بمصارحته بالحب.. لقد اشعرته بضعفه.. أشعرته بعجزه عن تملكها، وعن السيطرة عليها.. لماذا لم تنتظر حتى يستكمل حبهما نماءه.. وحتى يجد نفسه.. ويجد القدرة على أن يعلنها بحبه.. لماذا تعامله كطفل؟ لماذا تعامله كأنه مريض؟ لماذا تساعده؟ إنه لا يريد مساعدتها.. يريد أن يشعر بأنه أقوى من أن تساعده.. يريد أن يجد نفسه بنفسه.. ويريد أن يجد طريقه إليها بنفسه.. مهما تعذب بحيرته.. فعذابه بحيرته، أرحم من عذابه بشفقتها.

وظل واقفا أمامها.. لا يبتسم، ولا يتحرك.. وجهه جامد محتقن بدمائه.. ونظرت شهيرة فى عينيه، ورأت اطيافا من حيرته، ومن عذابه.. وقالت فى يأس :

– إنت مش مصدقنى.. أنا عارفة.. إنت مش مصدقنى.

وقال وهو ساهم :

– نفسى أصدقك.. مش قادر.. مش قادر أصدق إلا أنى صعبت عليكى، وإنك بتشفقى علىّ.

وصرخت شهيرة وهى تدق الأرض بقدميها فى عصبية :

– إنت حاتجننى.. إنت حيرتنى.. إنت معذبنى.

ثم ألقت نفسها جالسة على حشيش الملعب، وانهمرت دموعها.. بكت.. وجسدها كله يرتعش.

والقى أحمد نفسه بجانبها.. وقال وهو ينظر إلى دموعها فى جزع يشوبه دهشة، كأنه لا يصدق أن كل هذه الدموع من أجله، كأنه لا يصدق أن شهيرة تتعذب بسببه.. وقال بسرعة من خلال انفاسه المبهورة، كأن غطاء قلبه انطلق فجأة فتصاعد كل ما فيه من دخان :

– شهيرة.. شهيرة.

وأشاحت بوجهها عنه، وسيل جديد من الدموع ينطلق فوق وجنتيها.

واستطرد أحمد كأنه يبتهل :

- أنا باحبك يا شهيرة.. إنتى عارفة إنى باحبك.. أنا عمرى ما حسيت بالحب إلا يوم ماحبيتك.. أنا ماكنتش باحب أبويا.. وعشت بين أمى وأخواتى كأنى غريب.. عمرى ما كان لى حد أكلمه ولا أشكيله.. ويوم ما حبيتك حسيت إنك أمى وأبويا وأخواتى.. حسيت إنك الناس كلهم.. مليتى علىّ الدنيا.. حسيت أنى لقيت الإنسانة اللى أقدر أكلمها وأقدر أشكيلها.. والكلام اللى سمعتيه منى عمرى ما باأقوله لحد، إلا لك.. أنت بس اللى باحكيلها عن نفسى.. وعنى حيرتى.. زى ما أكون با أدور على نفسى فيكى.

وسكت أحمد برهة ليلتقط انفاسه.. وهو يشعر بالدهشة من نفسه لأنه استطاع أن يقول كل هذا الكلام.

والتفتت إليه شهيرة ووجهها غارق فى الدموع، ومرت فوق شفتيها ابتسامة خفيفة كشعاع من الشمس يطل من وراء السحاب فى يوم مطير.

واستطرد أحمد، وهو لا ينظر إليهاوكأنه يحاول أن يجرب مرة أخرى قدرته على الكلام.

- إذا كنت مش مصدقة أنك بتحبينى، مش معنى كده أنى ماباحبكيش.. معناه إنى مش مصدق نفسى.. مش مصدق إنى استاهل حبك.. أنا انسان فاشل يا شهيرة.. فاشل فى كل حاجة.. فاشل مع نفسى، وفاشل مع الناس.. ومش ممكن أصدق إنك تحبى إنسان فاشل.

قالت وهى تشد منديله من جيب سترته وتجفف به دمعها :

- إنت مش فاشل معاى.. أنا اللى فاشلة معاك..

قال كأنه يهزأ من نفسه :

- الإنسان الناجح، كل الناس تنجح معاه.. اللى تحبه تنجح فى حبها، واللى يشتغل معاه ينجح فى شغله.. الفاشل كل الناس تفشل معاه.. اللى تحبه تفشل فى حبها.. واللى تتجوزه تفشل فى جوازها، واللى يشتغل معاه يفشل.

وسكتت شهيرة، وهى تنظر أمامها كأنها تبحث عن شىء فى الفضاء.

وسكت أحمد وهو ينزع خصل الحشيش من على الأرض، ينزع شيئا من نفسه.

وقالت شهيرة بعد صمت طويل.. وهى لا تزال تنظر ساهمة إلى الفضاء.

- تعرف إنت بتخلينى أحس بإيه ؟

ورفع إليها عينيه دهشا، وقال :

- بإيه ؟

قالت :

- بتخلينى أحس بأنى غبية.

واشتدت الدهشة فى عينيه.

واستطردت شهيرة قائلة :

- إنت بتحبنى.. وأنا باحبك.. ومعقدين الدنيا حوالينا.. ليه.. لازم لأنى غبية !

وقامت واقفة.

وقال وهو يقف معها :

- ما يمكن أنا اللى غبى ؟

قالت وهى تعيد منديله إلى جيب سترته :

- احنا الاتنين أغبيا.

قال وهو يسير بجانبها :

- الغباء مش فى العقل بس.. الغباء ساعات يبقى فى النفس.. فيه عقول غبية، وفيه نفوس غبية.. وأنا متهيألى إن عقلى مش غبى، إنما نفسى غبية.. علشان كدة مش قادرة تفهمينى.

قالت وهى لا تنظر إليه :

- فعلا.. أنا مش قادرة أفهمك.

وتقلص وجه أحمد كأنها صدمته.

ثم لم تلبث أن التفتت إليه، قائلة :

– اسمع يا أحمد.. أنا مش عاوزة منك إلا حاجة واحدة.. اوعدنى إنك مش حاتهرب منى تانى.. سواء فهمتك ولا مافهمتكش.. المهم إنى أشوفك.. وأفضل أشوفك لغاية ما ترسى على بر.. إنت ما تعرفش أنا حالتى بتبقى ازاى لما بتهرب منى.

قال فى أسى :

– أنا عمرى ماقدرت أهرب منك، ولا من نفسى.

قالت كأنها ضاقت بفلسفته :

– اوعدنى.

قال فى صوت خفيض :

– أوعدك.

وسارا صامتين فى اتجاه حمام السباحة.. وقالت شهيرة بعد فترة :

– إنت حاتروح البيت على طول ؟

قال :

– لأ.. مش حاتغدى فى البيت.. أصل أختى خطوبتها الليلة، وزمانهم شايلين البيت على رجل.

قالت فرحة، صادقة فى فرحها :

– مبروك.. أختك فيفى ؟

قال :

– لأ.. ليلى.. الصغيرة !

وسكتت شهيرة، كأنها اكتشفت فجأة أنه ليس من حقها أن تسأله عن أخوته، مادام لم يعرفها بهن، رغم أنها كانت دائما تبحث بخيالها عن عائلته.. كانت تتصور أمه، وأخوته البنات، تتصورهن دائما متزمتات يعشن فى عالم غير عالمها.. عالم بعيد، ليس فيه حفلات كالحفلات التى تتردد عليها.. وليس فيه دور للسينما ولا أسطوانات ولا رقص.. رغم أن أحمد قال لها أن اختيه طالبتان فى الجامعة، وإن أخته ليلى تدرس الموسيقى.. ولكنه كان لا يحدثها كثيرا عنهن، ولم تره أبدا بصحبتهن، كأنه يحاول أن يخفيهن عنها.. يحاول أن يبعدها عن عالمهن.

وقال أحمد فى تردد، والكلمات تتلعثم بين شفتيه :

- تقدرى تيجى معايا السينما من تلاتة لستة.

ثم استطرد كأنه يعتذر لها :

- أصلى مش عارف أروح فين ؟

وابتسمت شهيرة ابتسامة واسعة، إنها أول مرة يبدأها بدعوة للذهاب إلى السينما بصحبة بقية الشلة، ولكنها كانت دائما صاحبة الدعوة.. حتى فى المرات التى كان أحمد يدفع فيها ثمن التذاكر، كانت هى التى تبدأ بالدعوة.

وقالت فى مرح :

- تعالى ندور على أخويا.. ونعزمه معانا.

قال :

- يمكن مايرضاش ييجى.

قالت :

- عمر أخويا ما يرفض عزومة على السينما.

ووصلا إلى الشرفة المطلة على حمام السباحة.. واتجهت شهيرة نحو شلتها المجتمعة حول احدى الموائد، وأحمد يسير بجانبها وقد بدأ يعاوده ارتباكه وهو يقترب من الشلة.. أحس كأنه بدأ يبتعد عن العالم الذى يستريح فيه.. العالم الذى يضمه مع شهيرة وحدهما.

وصاح أعضاء الشلة يستقبلونهما.. هاى.. هاللو.. أهلا.. وهزت شهيرة يدها فى الهواء.. وقالت فى هدوء :

- هاى.

ثم جلست.

وابتسم أحمد ابتسامة مفتعلة، وقد اكتسى وجهه بأمارات الوقار التى يخفى تحتها ارتباكه، وقال :

- ازيكم.

ثم جلس بعيدا عن شهيرة، وهو يتسلل إلى صديقه مدحت.. إن شخصيته لا تزال تهتز كلما واجه مدحت.. لا يزال يغار منه.. من جرأته

ولباقته ونجاحه.. ولا يزال يقارن نفسه به، ويخرج من المقارنة خاسرا، حتى ليؤمن أن شهيرة لو فكرت فى الاختيار، فستختار مدحت.

والتفتت شهيرة إلى أخيها قائلة :

- تروح سينما من تلاتة لستة ؟

وقال أخوها بسرعة :

- أروح.

وانطلق أفراد الشلة واحدا بعد واحد يؤيدون فكرة الذهاب إلى السينما، ونظر أحمد إلى مدحت فى جزع ينتظر رأيه.. ثم استراح عندما قال مدحت:

- يا بختكم.. أنا عندى شغل.

وقالت شهيرة :

- أما أقوم أضرب لماما تليفون.. ونتغدى كلنا هنا، ونروح السينما.

وقامت شهيرة لتستأذن أمها فى الذهاب إلى السينما.

وعادت.. وطلب أفراد الشلة قطعا من الساندويتش، وزجاجات الكوكاكولا.. ثم قاموا إلى السينما.

ودفع أحمد ثمن التذاكر.. سبع تذاكر.

وجلس بجانب شهيرة.. لم يتعمد الجلوس بجانبها، ولكن أفراد الشلة من تلقاء أنفسهم تركوا له المقعد الذى يجاورها.. حتى أخوها، ترك له أخته.

وأطفئت الأنوار.

ولم يستطع أحمد أن يركز ذهنه فيما يعرض على الشاشة.. إن كل حواسه متجهة إلى شهيرة.. إنه يكاد يسمع أنفاسها.. ويكاد يشعر بحرارة ذراعها الذى يجاور ذراعه.. وحرارة ساقها الذى يجاور ساقه.

لماذا لا يمسك بيدها فى الظلام؟

وأحس بيده ثقيلة، لا يستطيع أن ينقلها من مكانها.. ثقيلة جدا.. وانتقل كل تفكيره، وكل احساسه، وكل قوله، إلى يده.. أصبح يفكر بيده، ولا يحس إلا بيده، وقواه متجمعة فى يده تحاول أن تنقلها من مكانها.

واستطاع أن ينقل يده.. ويتسلل بها.. وفى منتصف الطريق التقت يده بيد شهيرة.. وأمسك بها.. كأنه يستغيث بها.. وضغط عليها بقوة كأنه لن يتركها أبدا.

واستسلمت له يد شهيرة.

وارتاح.

وأحس براحة عجيبة، كأنه نام فى يدها.. وأحس أن كل قطعة من يده تقبل كل قطعة من يد شهيرة.. وأحس أن يد شهيرة قد فصلت خصيصا لتلتقى بيده.. طول أصابعها، ومقاس كفها.. إنه نفس الطول والمقاس الذى يكفى ليحتضنه بيده.. وأكثر من ذلك.. أحس أن يده قد تفاهمت مع يدها.. إن الأيدى تتفاهم أحيانا أسهل وأسرع مما تتفاهم العقول والنفوس.

ليس بينهما حديث إلا حديث يديهما.

حتى عندما أضيئت الأنوار فى فترة الاستراحة، لم يجدا شيئا يقولانه، إلا انتظار أن تطفأ الأنوار من جديد، حتى تسرع كل يد إلى الأخرى.

وانتهى العرض..

وخرجا وكل منهما تفيض به سعادة حلوة هادئة، تصبغ وجناتهما، وترتعش بها شفاههما.. واستغنيا بهذه السعادة عن كل شىء حتى عن النظر أحدهما إلى الآخر.

وأستأذن أحمد على باب السينما، ليلحق بالحفل الذى يقام بمناسبة خطوبة أخته.

ووضع نفسه فى سيارة أجرة.. وصدره ملىء بسعادته. ولم يكن يفكر فى شهيرة.. ولا فى خطوبة أخته ليلى، والأعباء الملقاة عليه فى استقبال المدعوين.. كان تفكيره متجمدا.. وكأنه يقبض باحساسه كله على سعادته، كأنه قابض على إناء زجاجى رقيق يخشى أن يقع منه وينكسر.

١٩

عاد أحمد إلى البيت..

ووقف ينظر حوله وبين شفتيه ابتسامة رقيقة.. إن كل شىء يلمع - الجدران والأرض وقطع الأثاث - لمعانا مرحا.. كأنما كل شىء يزغرد.. وباقات ورد كثيرة منتثرة فى كل مكان.. وفناجيل الشاى، وأصناف الحلوى والفطائر، قد صفت فى أناقة فى غرفة المائدة.. حتى وجه محمد السفرجي يلمع لمعانا مرحا.. واثنان آخران من السفرجية.. أحدهما سفرجى بيت خاله، والثانى لا يعرفه.. وفى البيت نشاط.. نشاط غريب، رغم أن أحدا لا يروح ولا يغدو.

وأخذ يطوف فى الحجرات الخارجية، وابتسامته تتسع شيئا فشيئا.. إنه سعيد.. لا يدرى أهو سعيد بخطبة أخته، أم سعيد بشهيرة.

وخرجت إليه أمه، وهى تسير فى خطوات نشطة، ووجهها مزدحم بأحاسيسها.. وعيناها تدوران حولها فى نشاط وذكاء، كأنهما تبحث عن شىء تخشى أن تكون قد نسيته.. والسعادة ترف حولها..

وقالت أمه عندما رأته، وهى مستمرة فى طريقها :

- انت جيت يا أحمد.. روح يا حبيبى غيَّر هدومك.. زمان خالك جاى.

وقال من خلال ابتسامته.

- حاضر.

ووقف مكانه يرقب أمه.. إنها تحرك زهرية الورد، ثم تعيدها إلى مكانها.. وتهم بأن تصف الشوك والسكاكين ثم تكتشف أنها مصفوفة، وتأمر السفرجية ثم تعود وتلقى أوامر تناقض أوامرها الأولى.. و..

وأحمد واقف يرقبها، وابتسامته تتسع.

وهم أن يخطو إلى غرفته، عندما فتح الباب الخارجى، ودخلت أخوته البنات الثلاث.

ووقف ينظر إليهن فى اعجاب.

لابد أنهن عائدات من عند الحلاق.

وهن جميلات.

أجمل الأخوات.. حتى أخته فيفى جميلة.

وليلى.. ونظر طويلا فى وجه ليلى.. هل هى سعيدة؟ إنها جميلة، أجمل من أى يوم رآها فيه.. وهى مشغولة.. إن وجهها نشط.. وعيناها تلمعان.. ولكن هل هى سعيدة؟

وتخطته أخوته البنات متجهات إلى غرفتهن.

وصاح وراءهن :

- ليلى.

والتفتت إليه ليلى قائلة فى عجلة :

- نعم يا أبيه.

واقترب منها صامتا.. ثم مد ذراعيه وجذبها إلى صدره. وقبلها فوق جبينها، وقال فى حنان :

- مبروك.

وقالت ليلى فى صوت خافت لا يبدو فيه فرح :

- الله يبارك فيك يا أبيه.

ثم انطلقت من أمامه كأنها تفر منه؟ ودخلت غرفتها، وفتحت دولابها، وأخرجت ثوبا واسعا فى لون سماء الصيف، من الأورجاندى.. وحملته بيدها وهو فوق الشماعة، وقالت لأختيها.

- أنا حاروح ألبس فى أودة ماما.

وقالت نبيلة :

- ماتلبسيش الفستان إلا لماآجى أساعدك.. أحسن تلخبطى شعرك !

ولم ترد عليها ليلى.

حملت ثوبها، ودخلت غرفة أمها، وأغلقت الباب وراءها.

والقت بالثوب فوق السرير، وفردت ذيله الواسع.. ثم ابتعدت خطوتين، وأخذت تنظر إليه دون أن تبتسم، كأنها تنظر إلى تصميم مشروع خطير.. ووجهها مزدحم بالأحاسيس.. أحاسيس متناقضة لا تستطيع هى نفسها أن تميز بعضها عن بعض.. التحدى.. الأسى.. الفرح.. القوة.. الضعف.. وابتسامة خلف شفتيها أضعف من أن تظهر نفسها.. ودموع خلف عينيها أضعف من أن تنهمر.. وبين كل هذه الأحاسيس، إحساس واحد يبدو أقوى من غيره.. إنها تحس أنها كبرت.. إنها انتقلت من عمر إلى عمر.. من عالم إلى عالم.. إنها منذ قبلت أن تعلن خطبتها إلى عصام بدر الدين وهى تعيش بعقل جديد.. ونفسية جديدة.. وتحس أنها بعدت كثيرا عن أمها، وعن أخوتها.. بعدت بعقلها ونفسيتها.. ليس معنى هذا أنها أصبحت تحبهم أقل، أو أصبحت تحبهم أكثر.. كل ما هنالك أنها بعدت عنهم.. كأنها سافرت.. كأنها أصبحت وحيدة.. أصبحت تحمل مسئولية نفسها بنفسها.. وهى مسئولية ضخمة تخاف منها أحيانا، حتى لتفكر فى أن تهرب منها.. ولكن شعور التحدى يعاودها.. التحدى لنصيبها من الحياة، ولأهلها الذين يجبرونها على الزواج.. فتقدم على تحمل المسئولية بجرأة وعناد.. مسئولية السير وحيدة فى الطريق الذى اختارته لنفسها.

حتى حبها لفتحى تغير طعمه فى قلبها.. أصبح حبا خطيرا.. وهى تشعر بخطورته.. أحيانا يرتجف قلبها خوفا من هذا الحب.. وأحيانا تحس بحبها كأنه أصبح معركة تخوضها.. معركة لا تحارب فيها أهلها وخطيبها فحسب، بل تحارب أناسا آخرين.. كثيرين.. كأنهم كل الناس.. وهم يبدون أمامها كالأشباح.. ولا تراهم بعينيها، ولكنها تحس بهم فى داخلها.. ليس الناس كلهم فحسب، إنها تحارب أيضا القدر الذى يصر على أن يأخذها من حبيبها، ويزوجها رجلا لا تحبه.

وقد قضت ليالى كثيرة وهى تتساءل: لماذا تصنع بنفسها كل هذا؟ لماذا تنقاد إلى هذه الأفكار التى تسيطر على رأسها، وتجعلها تتحدى قدرها؟ لماذا لا تستسلم وتنتهى؟ وهل حبها لفتحى يستحق كل هذه المخاطرة ؟ هل فتحى نفسه يستحق أن تمزق حياتها من أجله؟ لماذا

لم يتقدم لانقاذها؟ لماذا لم يفعل شيئا حتى لا يأخذوها منه؟ لماذا لا يحمل مسئوليتها؟ لماذا يتركها تحمل مسئولية حبهما وحدها؟

وهى تتعذب.. وتشد شعرها بيديها طول الليل.. وتشد معه جلد رأسها.. ثم تقوم فى الصباح لتبتسم أمام أمها وأخوتها، وتقنعهم أنها سعيدة بخطبتها لعصام بدر الدين.

وأحيانا تحاول أن تقنع نفسها بأنه ليس فيما انتوته شىء خطير.. ماذا لو تزوجت رجلا، وأحبت رجلا آخر؟ كل البنات يفعلن هذا.. كل البنات يجبرهن أهلهن على الزواج من شخص، وتجبرهن قلوبهن على أن يحببن شخصا آخر.. وفتحى نفسه يحبها وهو متزوج بأخرى. فلماذا لا تحبه وهى زوجة لآخر؟ إنهما بذلك يتعادلان.. يصبحان فى نفس الظروف.. نفس الحياة.. ربما استطاعت بذلك أن تفهمه أكثر، وأن يفهمها أكثر.

ولكن.

وترتفع فى خيالها صورة خطيبها عصام.. رقته المفتعلة وحركاته المرسومة.. ذقنه الناعمة، وآثار البودرة منتثرة فوقها.. ولفتاته الطرية كأنها لفتات فتاة غيرت رأيها فى آخر لحظة قبل أن تخرج من بيتها، وفضلت أن تكون رجلا.. وساعته الذهبية الموضوعة فوق كم قميصه.. والدبوس الذهبى الذى يشبك به رباط عنقه حتى لا يهتز، فتهتز أناقته.. إنه طرى.. طرى.. طرى فى شكله وفى أحاديثه وفى خلقه.. وشفتاه..شفتاه اللتان يتجمع فيهما دمه فيبدوان كأنه صبغهما بالروج.. إنه سيقبلها بهاتين الشفتين.. يوما ما سيقبلها.. ولن تستطيع أن ترفض قبلته.. لقد اتفق مع أهلها على أن يقبلها.. ودفع مقدما ثمن قبلاتها.. وسيأتى رجل معمم ويكتب عقد بيع قبلات الآنسة ليلى زهدى إلى الأستاذ عصام بدر الدين.

كيف تستطيع أن تحتمل هذه القبلات ؟!

وتجد نفسها رغما عنها تزم شفتيها وتخفيهما داخل فمها.. كأنها تهرب بهما من قبلته.. إن معدتها تنقلب.. وقشعريرة تسرى فى بدنها.. كأنها تحس بشىء لزج يزحف فوق شفتيها.

وليست قبلاته فحسب.. ولكن كل شىء.. كل شىء أصبح من حقه.. كل جسدها له.. تلقيه له كل مساء.

كيف تستطيع أن تحتمل كل هذا ؟

يارب.

كيف استطيع؟

كيف تستطيع أن تفصل جسدها عن روحها.. لتعطى لشخص جسدا بلا روح، وتعطى لآخر روحا بلا جسد؟

يارب...

ما هى حكمتك ؟

وكيف يتركها فتحى لشخص آخر يقبلها ويأخذ من جسدها.. ولكن فتحى نفسه يقبل أخرى ويعطى جسده لأخرى.. فلماذا لا تكون مثله؟ هل تستطيع.. أن تكون مثله؟

وهل الرجل يختلف عن المرأة.. هل كل منهما له نفس الأحاسيس؟

إنها لا تدرى.

كل ما تدريه أن أمامها عذابا كثيرا.. وهى لا تستطيع أن تهرب من هذا العذاب إلا بالتحدى.. تحدى أهلها، وتحدى قدرها.. إن حبها لفتحى لم يعد حبا خالصا، إنه حب مشرب بالتحدى.. إنها تفكر فى تحدى أهلها بقدر ما تحس بحب فتحى.. بل أحيانا يطغى احساسها بالتحدى على احساسها بالحب.

وهى لم تقابل فتحى منذ هربت من البيت.. مضى أكثر من أسبوعين لم تقابله خلالهما، ولم تحادثه فى التليفون إلا أحاديث عابرة مسروقة.. فقد كانت الخطة التى وضعتها تقضى بأنت تكسب ثقة أمها وأخوتها.. أن تقنعهم بأنها تخلت عن فتحى.. أفاقت من حبه.. وأنها سعيدة.. سعيدة بخطبتها إلى عصام.. وقد بدأت الخطة تنجح.. وكانت أحيانا ترى اطيافا من الشك فى تصرفاتها، تطفو على نظرات أمها.. فكانت تتعمد أن تزيل هذا الشك.. كانت تأخذ التليفون فى جرأة وتدخل به حجرتها، وتغلق الباب عليها.. إلى أن يتجمع الشك فى صدر أمها.. فتخرج إليها حاملة التليفون، قائلة :

- مرات خالى عايزة تكلمك يا ماما.

وتتأكد الأم أن ابنتها كانت تحادث ابنة خالها.. ويستريح شكها.

حتى فيفى ونبيلة بدأتا تؤمنان بأن ليلى قد قررت أن تتخلى عن فتحى، وأنها سعيدة بخطبتها.. كانت نبيلة تسألها :

- وحاتعملى ايه مع فتحى ؟

وتجيبها ليلى ضاحكة :

- ده كان لعب عيال.. خلاص يا بنتى احنا كبرنا وبقينا عرايس.

وقالت لها فيفى مرة خلال حديث :

- انتى فاكرة إن فتحى حايسيبك.. حايفضل وراكى لغاية ما يخرب عليكى.. إوعى تكونى اديتى له صورة، ولا كتبتى له جواب.

وصرخت ليلى فى وجهها بكل صوتها :

- احنا مش حانخلص من السيرة دى.. حاتفضلوا تعايرونى طول عمرى.. إنتى نسيتى إنى حاتخطب.. أبقى بااتخطب لواحد وتكلمينى عن واحد تانى.. مش ناقص إلا إنك تروحى لعصام وتقولى له على حكايتى.. إذا كان كدة ماتتعبيش نفسك، أنا حاأقوله.. مش ده اللى انتى عايزاه.

وامتلأ وجه فيفى بالجزع، وقالت كأنها تتوسل إلى أختها ألا تعترف لعصام :

- مش قصدى ياليلى.. أنا بس خفت إن.. خلاص ياستى. ماحدش حايجيب لك السيرة دى تانى.

ولم تنطق فيفى باسم فتحى مرة أخرى.. ولا نبيلة..

و...

وظلت ليلى تنظر إلى ثوبها الملقى فوق فراش أمها.. وعقلها سارح فى فتحى.. وقلبها يدق له.. كأنه طبلة يدق عليها رجل من سكان الغابة، وينادى بدقاتها حبيبته.. إنها تريد أن تراه.. تريد أن تراه الآن.. لعله يستطيع أن يشجعها.. وأن يعينها.. فى حفل خطبتها لعصام.

وانحنت تساوى الثوب بيديها، كأنها تربت عليه وتواسيه على نصيبه.. كأنها تعتذر له لأنه أعد لرجل غير حبيبها.

ثم خرجت من الغرفة، وعادت إلى غرفتها، والتقطت من دولابها القميص الداخلى.. والجيبيير.. وحذاءها الجديد والجيبون.. وأصبع الروج والمكحلة.. وأختاها مشغولتان بارتداء ثيابهما، وهى لا تلتفت إليهما.

وحملت كل ما التقطته وهمت أن تخرج من الغرفة.. وقالت لها نبيلة وهى تنحنى لتشد جوربها إلى أعلى ساقها :

- ما تكتريش الروج يا ليلى.. الروج التقيل ما بيلقش عليكى.

وابتسمت ليلى لتبدو سعيدة مرحة، وقالت :

- حاضر.

وقالت لها فيفى :

- تعالى يا ليلى اشبكى لى الستيان.

وقالت ليلى وهى لا تزال تبتسم :

- خللى نبيلة تشبكه لك.. أحسن أنا أتأخرت قوى.. أنا مالبستش حاجة.

وخرجت.. عادت بما تحمله إلى غرفة أمها، وأقفلت وراءها الباب، وألقت بما فى يديها فوق الشيزلونج.. ثم وقفت أمام المرآة تنظر إلى وجهها.. إنها جميلة.. أجمل من كل يوم.. وهى تبدو أكبر من كل يوم.. كأنها فى العشرين من عمرها.. وقد عقص الحلاق شعرها الذهبى بحيث رفع معظمه فوق رأسها.. كأنه وضع الشمس فوق مفرقيها.. وترك أشعة خافتة منها تتدلى فوق جبينها، وشعاعا عريضا يميل على جانب من رأسها ويتدلى خلف أذنيها حتى يصل إلى كتفيها.. وعيناها الملونتان وقد لمعت فوقهما، من شدة انفعالها، قطرات من الندى.. ووجنتاها المشدودتان.. وشفتاها الصغيرتان المكتنزتان.. إنها جميلة.. إنها تعلم أنها جميلة.. ولكن.. جميلة لمن ؟!

وبدأت تخلع ثيابها قبل أن تستطرد فى خيالها.. وأحاطت خصرها بالجيبيير، ومدت ذراعيها خلف ظهرها تضم مشابكه الكثيرة.. إنها تستطيع أن تفعل ذلك دون حاجة إلى مساعدة أحد.. كأنها تعودت أن تضن بجسدها أن يلمسه أحد.. ثم ارتدت القميص الداخلى.. ثم جلست على

الشيزلونج، ورفعت ساقها كشعاع من نور، وبدأت تلبس جوربها.. ثم الجورب الآخر.. ثم شبكت حافة الجوربين بالجرتيير الذى يتدلى من الجيبيير.. ثم مدت ساقيها أمامها.. وابتسمت كأنها تهنئهما على جمالهما.. ثم أمسكت بفردة حذائها، ونظرت إليها فى فرح صبيانى.. إنها المرة الأولى التى تلبس فيها حذاء طول كعبه سبعة سنتيمتر.. كانت من قبل لا يسمح لها إلا بالأحذية ذات الكعب الأمريكانى.. أربعة سنتيمتر فقط.. وضعت فردتى الحذاء فى قدميها.. ثم قامت واقفة.. وأحست بنفسها طويلة.. طويلة جدا.. وابتسمت لنفسها فى المرآة فرحة بطولها الجديد.. ثم أخذت تخطو، جيئة وذهابا.. وهى تتمايل فوق كعب حذائها العالى.. وبدأت تختار خطوتها بحيث تستطيع أن تسيطر على مقدار التمايل الذى تريد أن تبدو به.. خطوة بطيئة ضيقة، حتى يكون تمايلها هادئا محترما.. ولكنها فجأة أسرعت فى خطواتها، وتقصعت وقذفت بأردافها ذات اليمين واليسار وهى تنظر إلى المرآة محاولة تقليد خطوات مارلين منرو، وضحكت على نفسها ضحكة خافتة.. وأخرجت لسانها فى المرآة.. ثم عادت تخطو خطواتها البطيئة، وتتمايل تمايلها الهادىء.. وفتحت باب الغرفة، وصاحت دون أن تخرج منه :

– نبيلة.. نبيلة.. تعالى لبسينى الفستان.

وصاحت نبيلة من غرفتها :

– حاضر.. أنا جاية حالا.

وعادت ليلى تنظر إلى نفسها فى المرآة، وتخطو أمامها.

وجاءت نبيلة، وحملت الثوب من فوق الفراش، ونزعته من فوق الشماعة الصغيرة، ثم وضعت كلتا ذراعيها فى داخله، بحيث تفتح فتحة العنق إلى آخرها، ثم تقدمت إلى ليلى قائلة وهى تضحك :

– مالك طويلة وهبلة كدة.. حد يلبس الجزمة قبل ما يلبس الجيبون.

وقالت ليلى فى مرح :

– كنت باجربها.. أصلى أنا ماخدتش من الخطوبة إلا التالون العالى.

ثم أمسكت بالجيبون ووضعت نفسها فيه دون أن تخلع حذاءها.. ثم

الجيبون الثانى.. ثم وقفت أمام المرآة صامتة، وقد بدت على وجهها علامات الاهتمام.. كأنها تنتظر أن تهبط عليها بركة السماء.. ورفعت نبيلة ذراعيها وأسقطت الثوب الذى تحمله فوق رأس ليلى.

وقالت ليلى فى رجاء :

- حاسبى على شعرى يا بلبل.

وقالت نبيلة وهى تشد الثوب فوق يديها لتمرق منه رأس ليلى :

- ماتخافيش.

وانزلق الثوب فوق جسد ليلى.

ووقفت تعيد النظر إلى نفسها فى المرآة.. ولون الثوب الأزرق الفاتح ينعكس على بشرتها البيضاء.. فتبدو كملاك يسبح فى سماء الصيف.. وتذكرت فجأة فتحى.. إنها تريده أن يراها.. يراها فى هذا الثوب.. لو كانت ترتديه له لكانت الآن أجمل مما ترى نفسها فى المرآة.. ومرت على وجهها سحابة من الكدر.. إنها لن تراه.. لن ترى فتحى.

وابتعدت نبيلة خطوة لترى أختها، ولم تملك إلا أن تصيح :

- الله.. جنان عليكى.

ولم ترد ليلى.. كأن أختها نطقت بما فى نفسها.

ثم انحنت نبيلة تفرد ذيل الثوب فوق الجيبون.. ومدت ليلى يدها وشدت السوستة المعلقة فى جانب الثوب.

ودخلت الأم.

كانت قد انتهت من ارتداء ثوبها من مدة.. ثوب أسود من الساتان دوشيس، تتخلله خيوط فضية رفيعة لا تكاد تبدو من سواده.. وأكمامه طويلة، وصدره مقفول.. ووردة من القطيفة الحمراء الغامقة معلقة عند الخصر.

ووقفت مبهوتة تنظر إلى ابنتها. إنها هى.. هى منذ ثلاثين عاما عندما وقفت أمام مرآتها تستعد للقاء زوجها لأول مرة يوم إعلان خطبتها.. زوج لا تحبه.. شعرها الأصفر.. عيناها الملونتان.. وشفتاها.. وثوبها الأزرق الفاتح.. حتى هذه الخطوط المهزوزة التى تبدو على وجه ابنتها وتشوه

فرحتها.. إن ابنتها أيضا تخطب لرجل لا تحبه.

ومرت بالأم قشعريرة خافتة، كأنها تنبهت إلى أنها تعمدت أن تعد لابنتها نفس الحياة التى عاشتها.. حياة بلا حب.

ثم ابتسمت، كأنها تكذب هذا الخاطر الذى مر بها.. وتقدمت إلى دولابها الكبير الذى يغطى حائطا كاملا من الغرفة.. وفتحت ضلفة فيه، والتقطت منها مفتاحا صغيرا، وفتحت درجا صغيرا فى نفس الدولاب، وأخرجت منه علبة كبيرة من الصدف.. علبة مجوهراتها.. وأخرجت من العلبة الكبيرة، علبة أخري صغيرة من القطيفة الحمراء.. فتحتها.. وبرقت فيها ثلاثة خواتم، كل خاتم يحمل حجرا كبيرا من الماس.. ستة قراريط.

إن بناتها يعلمن سر هذه الخواتم الثلاث.

خاتمان منها احتفظت بهما أمهن من مصاغ زواجها، لتهديهما لكل من فيفى ونبيلة فى مناسبة زواجهما.. وعندما ولدت ليلى اشترت أمها حجرا ثالثا من الماس.. نفس الحجم.. ليكون لها فى يوم زواجها.. وفى علبة مصاغ الأم سوار من الماس، تعرف العائلة كلها، أنها محتفظة به ليكون شبكة لعروس أحمد.. وسوار آخر من الماس أيضا ليكون شبكة لعروس ممدوح.. وقد مرت على العائلة أزمات مالية كثيرة اضطرت الأم خلالها أن تبيع معظم ما ورثته من فدادين الأرض، واضطرت أن تستغنى عن كثير من مظاهر الثراء، واضطرت أن تؤجر الدور العلوى من البيت الذى يقيمون فيه.. ولكن الأم كانت تحرص دائما على ألا تفرط فى مصاغها.. لم يكن المصاغ بالنسبة لها مظهرا من مظاهر الثراء.. ولكن كان له فى نفسها معنى أعمق من ذلك.. كان مظهرا من مظاهر الأصل العريق.. كاسم عائلتها.. كالألقاب التى كان جدودها يحملونها.. وكان أشد ما تحرص عليه أن يكون لكل من بناتها يوم تتزوج خاتما من الماس انتقل إليها من عائلتها، حتى لو اشترى لها زوجها خاتما آخر.. المهم أن تتحلى البنت بقطعة من الماس توارثتها العائلة.. أمها.. وجدتها.. وجدة جدتها.. فهذا هو الأصل العريق.

وحملت الأم أحد الخواتم الثلاث، واتجهت به إلى ابنتها قائلة فى حنان:

- خدى البسى الخاتم بتاعك يا ليلى.
وسكتتت ليلى مبهورة، كأنها تتلقى مفتاح عالم جديد.
وسكتت نبيلة احتراما للخاتم، ثم قالت هامسة كأنها لا تؤمن بما تقوله :
- مش أحسن تلبسه فى كتب الكتاب.
وقالت الأم، وبين شفتيها ابتسامة تنضح بتأثيرها :
- وماتلبسوش النهاردة ليه ؟
ومدت ليلى يدها اليمنى لتضع فيها أمها الخاتم.. وقالت الأم وهى تضحك ضحكة صغيرة :
- دى الإيد اللى حاتلبسى فيها الدبلة.. هاتى ايدك التانية.
ومدت ليلى يدها اليسرى.. ووضعت الأم الخاتم فى أصبعها.. ثم جذبت ابنتها إليها، وضمتها إلى صدرها فى حنان، وقالت فى تأثر كأنها تكاد تبكى :
- مبروك يا بنتى.. ربنا يتمم بخير.
وقالت ليلى :
- حاسبى يا ماما الفستان.
ثم ابتعدت عن صدر أمها.. ورفعت يدها بالخاتم أمام عينيها، وأخذت تنظر إلى فص الماس وبين شفتيها ابتسامة كبيرة، كأنها ترى فيه ابتسامتها.. ثم مدت رأسها وقبلت أمها قبلة سريعة فوق خدها، وقالت :
- مرسيه يا ماما..ربنا يخليكى لىّ.
وقالت أمها وقلبها لا يزال ينبض بتأثرها :
- عقبال ما تلبسه بنتك.
واستدارت ليلى ناحية المرآة، وبدأت تخط خطوط الكحل حول عينيها، وهى تحس بثقل الخاتم فى اصبعها.. وثقله يزداد.. كأن هذا الخاتم يحملها مسئولية جديدة.
واستدارت الأم ناحية الدولاب لتعيد علبة مصاغها إلى مكانها.. وهى تشعر كأنها حزينة.. كأنها ودعت بنتا من بناتها.. ودعتها إلى الأبد.. وهى تحاول فى الوقت نفسه أن تفرح.. يجب أن تفرح.. إن ابنتها ستخطب

الليلة، وهى التى اختارت لها خطيبها بنفسها.. ويجب أن تفرح.. يجب.. وبدأت تحرك يديها فى عصبية، وتغلق الدرج، والدولاب بسرعة.. كأنها على عجل.. كأنها مشغولة جدا.. وهى ليست على عجل ولا مشغولة، ولكنها فقط تحاول أن تتشاغل عن أحاسيسها.. تتشاغل عن الحزن والفرح.

ودخلت فيفى صائحة :

– خالى ومرات خالى وبنات خالى جم.

ثم انصرفت بسرعة عائدة إلى الخارج.

وأعتدلت الأم فى وقفتها، كأنما ازيح الستار عن المسرح الذى ستبدو عليه، وقالت :

– أما أروح لهم.

ثم استطردت وهى عند الباب :

– مش تندهوا بنات خالكم يقفوا معاكم.

وقالت ليلى وقلم الكحل تحت جفنيها :

– لأ.. أنا مابعرفش ألبس، وحد واقف فى الأودة.

وقالت الأم :

– مايصحش يا ليلى.. دول بنات خالك ولازم يقفوا معاكى وانتى بتلبسى.. هوه انتى حتتخطبى كل يوم.. تعالى يا نبيلة معايا، اندهى لهم.

وكورت ليلى شفتيها فى غضب.

وخرجت نبيلة، وعادت بعد قليل ومعها بنتا خالها. احداهما فى الثامنة عشرة والثانية فى الرابعة عشرة.. والاثنتان شقراوان.. بياضهما كالح.. وشعرهما اصفر فاقع.. رفيعتان.. ممصوصتان.. رموشهما الشقر لا تظهر فى بياضهما.. كأن عيونهما بلا رموش.

وقالت كبراهن :

– مبروك يا ليلى.. الله.. فستانك حلو قوى.

وقالت ليلى بنوع من التعالى، كأنها فتاة كبيرة.. كأنها لم تعد فى سن ابنة خالها :

– عقبالك يا مرفت.

وقالت الصغرى :

- أنا نفسى أحط كحل زيك.

وقالت ليلى فى لهجتها المتعالية الهادئة :

- بكرة تكبرى، وتشبعى كحل.

وقالت نبيلة :

- مش حاتحطى التوال التل على كتفيك.

قالت ليلى، وهى تقرب وجهها من المرآة، لتصبغ شفتيها :

- حاضر.

وبنتا خالها تنظران إليها، فى حسد ساذج.. وبين شفتى كل منهما ابتسامة كبيرة بلهاء.

●●●

وبدأ المدعوون يتوافدون.. عدد قليل من المدعوين لا يزيد على خمسة عشر من أقارب العائلتين.. وأحمد وخاله والأم يستقبلونهم.. وفيفى ونبيلة لا تكفان عن الدخول إلى داخل البيت، ثم الخروج إلى الصالون.. بلا سبب.. فقط يخرجان ويدخلان.. وممدوح واقف بعيدا، وهو مرتد حلته الكاملة - وهى حالة نادرة - وبين شفتيه ابتسامة ساخرة، ولا يبذل مجهودا فى استقبال أحد. إنما هو فى مكانه لا يتحرك إلا إذا لمحه أحد وحياه فيرد له التحية.. وهو يحاول أن يسلى نفسه بأن يطلق على كل واحد نكتة أو تعليقا ساخرا يهمس به إلى نفسه.. شوف يا أخويا طنط عزيزة عاملة زى جمل المحمل ازاى.. و.. كان حق خالى يترقى اليومين دول، كرشه زاد حبتين.. و..و..

وجاء عصام بدر الدين، بصحبة أبيه، وأمه، وأخته، وزوج أخته. يرتدى حلة كحلية غامقة.. ورباط عنق رمادى مشبوك بدبوس فيه فص من الياقوت.. وقد ازدادت رقته وطراوته.. وذقنه الحليق ازداد لمعانا.. وشفتاه اللتان تتجمع فيهما دماؤه قد ازدادتا احمرارا.. ويبللهما بين الحين والحين بلسانه فى حركة عصبية غير إرادية.. وساعته الذهبية فوق كم قميصه.. ويخطو كأنه يرقص.

ومد أحمد له يده مصافحا، وقال وهو لا ينظر إليه :
أهلا عصام بيه.
وقال عصام :
- بونسوار يا أفندم.
وصاح الخال وهو مقبل عليه :
- أهلا بالعريس.
وقال ممدوح لنفسه :
- حقه يروح يقف فى فترينة شيكوريل.
ثم صافحه صامتا.

واصطف الجميع فوق مقاعد الصالون والبهو الخارجى.. ودون تعمد وجد النساء أنفسهن يجلسن فى ناحية، والرجال يجلسون فى ناحية أخرى.. وكل منهم معتدل فى جلسته وبين شفتيه ابتسامة، كأنهم على وشك أن تلتقط لهم صورة.. والسيدات ينظرن بعضهن لبعض، ويتكلمن.. والرجال يلتفتون كل منهم إلى الآخر، وكل منهم يحاول أن يجد كلاما يقوله.. ثم يتسلل بأذنيه إلى أحاديث السيدات كأنه يحاول أن يغش منهن موضوعا لكلامه.

والأم وفيفى يطوفان بالسيدات، يقدمان لهن قطعا من المارون جلاسيه فى علبة أنيقة من زجاج البكاراه.. وأحمد يطوف بعلبة فضية محملة بالسجائر، وهو يكتم أنفاسه فى صدره كأنه لو أطلقها فسينفجر فى وجوه المدعوين.. وممدوح واقف مكانه، وقد شبك ذراعيه فوق صدره، ينتظر أن تنتهى هذه المهزلة التى تمثل أمامه.

وهمست الأم فى اذن فيفى :
- روحى قولى لأختك تيجى بأه.

ودخلت فيفى لترى أختها لا تزال واقفة أمام المرآة.. لا تفعل شيئا.. فقط تنظر إلى وجهها، وتدور حول نفسها وبجانبها أختها نبيلة، وبنتا خالها.

ووقفت فيفى برهة تلتقط أنفاسها.. إن أختها جميلة.. لم تكن تعلم أنها

بهذا الجمال.. وقرط ماسى طويل يتدلى من أذنيها، ويحيط وجهها بشعاع منير، كأنه يسلط عليه الأضواء.. وعقد من اللؤلؤ فوق صدرها.. و.. وأحست فيفى بالغيرة.. غيرة طيبة.. إنها فرحة لأن أختها جميلة.. كل ما هنالك أنها تريد أن تكون جميلة مثلها.. وأن تخطب مثلها.

وقالت فيفى وهى تحاول أن تخفى غيرتها وراء لهجتها المرحة :

- كفاية مراية بأه.. الناس كلهم جم ومستنين يتشرفوا بحضرتك.

وقالت ليلى بلا اهتمام :

- آدينى جاية.

وسبقتها فيفى إلى الصالون.

وأطلقت ليلى نظرة أخيرة إلى المرآة.. وتذكرت فتحى.. وتمنت أن يراها وهى بكل هذا الجمال.

ثم خرجت من الغرفة تسير بخطوات ثابتة، وقد بدأ شعور التحدى يملأ صدرها.. نسيت فتحى، ونسيت خطيبها.. إنها لا تحس إلا بأنها تتحدى.. إنها ليست خجلة، ولا مرتبكة.. إنها تتحدى.. وعيناها ثابتتان.. وبين شفتيها نصف ابتسامة اختارتها لنفسها.

وخرجت إلى المدعوين.

ووقفوا جميعا لها مبهورين بالنظرة الأولى.. حتى خالها قام واقفا وقد اعترف بينه وبين نفسه بجمالها.. وطافت بهم ليلى تصافحهم واحدا واحدا.. وجذبها خالها وقبلها فوق جبينها.. وجذبتها أم خطيبها، وقبلتها فوق خدها.. ثم قالت وهى تنظر إليها فى امعان كأنها تبحث عن نقطة ضعف فيها تنفذ من خلالها :

- أهلا بعروسة ابنى.

وانحنى خطيبها عصام وقبل يدها.. وشدت يدها كأنها تخاف أن تلوثها الدماء المتجمعة فى شفتيه.. ثم عادت وتذكرت الدور الذى تقوم به، فتركت له يدها.. وأحست بوقع شفتيه.. لزجا.. باردا.. كالزيت.

وجلست بجانبه.

إنها ليست خجلة.. ولا مرتبكة.. ولكنها لا تطيق أن تنظر إليه.. وسقطت

عيناها فوق أصابعه.. لقد رأت هذه الأصابع منذ اليوم الأول الذى التقت فيه به.. أن أول ما تراه فى الناس أصابعهم.. وهى تعرف الناس بأصابعهم.. وهذه الأصابع قصيرة، وعريضة، لم يفلح المانيكير فى تجميلها.. اصابع بخيلة.. خبيثة.. طرية كقطع من ثعبان.

وابتلعت ريقها كأنها تخفى رعدتها من هذه الأصابع.. وقفزت إلى خيالها أصابع فتحى.. سمراء، طويلة، رفيعة.. أصابع فنان.. رقيقة، طيبة، كريمة.

ثم أدارت رأسها تتلفت إلى المدعويين كأنها تهرب من خيالها.

وبدأ الخدم يطوفون بأقداح الشاى، وأطباق الحلوى، والأم وفيفى ونبيلة يطفن معهم.

والحجرة تضج بالأحاديث.. أحاديث كثيرة.. مختلطة.. ليس لها هدف، ولا موضوع.. كلهم يتكلمون، وكلهم يستمعون.

ومال عليها عصام قائلاً فى صوت ناعم كأنه ينغم كل كلمة :

– أنا حجزت ترابيزة الليلة فى الأوبرج.

وقالت وهى تنظر إليه نظرة سريعة :

– يمكن أخويا أحمد مايرضاش يخرج الليلة.

وقال عصام وهو ينظر إليها كأنه يشرب من جمالها :

– أنا اتفقت معاه.. ومع طنط.

وقالت فى تعال كأنها تحتقره :

– اشمعنى الأوبرج.. بيعجبك الأوبرج ؟

قال بعد أن رشف من فنجان شاى يمسك به فى يديه :

– أصل فيه نمر.

وابتسمت ليلى ابتسامة ساخرة، وقالت :

– طيب.

ومالت عليها صديقتها درية وهى جالسة بجانبها من الناحية الأخرى، وقالت هامسة :

– خطيبك لذيذ قوى.

وقالت ليلى :

- اتفضلى.

- وقالت درية :

- ده شيك خالص.. مافيهش حاجة غلط.

وقالت ليلى :

- شدى حيلك وانتى تلاقى واحد أحسن منه.

وارتفع صوت الخال وهو يناقش والد عصام :

- أنا شخصيا شايف إن مشروع السد العالى ده، مشروع عظيم، ولازم يتم.. احنا الحقيقة بنجرى.. انما لازم نجرى.. و..

ثم قطع حديثه مرة واحدة، والتفت إلى عصام قائلا :

- جرى ايه يا عصام بيه.. فين الدبل.. انت مكسوف ولا ايه ؟

وارتعش فنجان الشاى فى يد عصام، واحمر وجهه.. ونظرت إليه ليلى.. نظرة ثابتة، جريئة، كأنها تتحداه أن يقدم لها الدبلة.

ووضع عصام فنجان الشاى، ثم وضع يده فى جيبه، وأخرج علبة صغيرة من القطيفة الحمراء.

وانقطعت كل الأحاديث فجأة، كأن يدا دارت على الأفواه ونزعت منها ألسنتها.. وتجمعت العيون كلها عند ليلى وعصام.

وفتح عصام العلبة.. وأخرج منها دبلتين من ذهب.

ثم أمسك بالدبلتين، وقد ازداد ارتباكه، وبلل شفتيه بلسانه.. ونظر فى اطارهما الداخلى، ليقرأ الأسماء المكتوبة عليهما، واختار الدبلة المكتوب عليها اسمه، وقربها من يد ليلى.

ومدت له ليلى يدها، وهى تنظر إليه بكل عينيها كأنها لا تزال تتحداه.

ووضع الدبلة فى أصبعها.

وأحست أن أصبعها يختنق.. كل شىء فيها يختنق.. قلبها.. حلقها.. وكادت تفقد احساسها بالتحدى.. إنها لن تستطيع.. لن تستطيع أن تعيش طوال حياتها، وأصبعها مخنوق.. إنها تريد أن تهرب.. أن تفر قبل أن يخنقوا أصبعها.

وتشبث عصام بيدها، وانحنى يقبلها .. ثم رفع رأسه وهو يبلل شفتيه بلسانه.

وتصاعدت الأصوات.. مبروك.. مبروك.. مبروك يا ليلى.. وأحاطت نبيلة كتف أختها بذراعها، وقالت فى حنان :

- ورينى دبلتك يا ليلى.

ومدت ليلى يدها، تعرض دبلتها على كل البنات والسيدات المتجمعات.

وعصام جالس بجانبها، وبين شفتيه ابتسامة عبيطة وقد انصرفت عنه الأنظار.. لم يعد إلا أمه تنظر إليه، ويده ممسكة بالدبلة الذهبية الباقية.. وهمَّ أن يضعها فى اصبعه.. فقالت له أمه كأنها تنهره :

- لأ.. خليها هى اللى تلبسها لك.

وصاحت أخت عصام وسط الضجيج الذى يحيط بليلى :

- ليلى.. ليلى.. لازم انتى اللى تلبسى عصام دبلته.

وسكت الضجيج حول ليلى، كأن الجميع يستعدون للفرجة على مشهد آخر.

والتفتت ليلى إلى عصام، وأخذت الدبلة الذهبية منه، ونظرت إليه نظرة كبيرة.. وشعرت لحظتها أنها تريد أن تقول له كل شىء.. أن تقول له إنه مخدوع فيها.. وأنها تحب رجلا آخر.. وأن الأفضل له أن يبتعد عنها، أن يعدل عن زواجه منها.

مر بها هذا الخاطر فى برهة سريعة.. وابتسامتها لا تزال بين شفتيها.

وبسرعة وضعت الدبلة فى اصبعه.. وافسحت لابتسامتها مكانا أوسع من شفتيها.

وانحنى عصام مرة أخرى يقبل يدها، ورفع رأسه ومسح شفتيه بلسانه، وقال فى صوت مختنق :

- مبروك.

وقالت :

- مرسيه.

ثم عادت تنظر إلى صديقتها والسيدات المتجمعات حولها.. وأم عصام

انكمشت ابتسامتها كأنها لا يعجبها الطريقة التى تعامل بها ليلى ابنها.

وأطلقت أم نجية زغرودة من داخل البيت.. وانتفض قلب ليلى.. أحست كأن الزغرودة، مسمار يدق فى قلبها.

وأقبلت عليها أمها تقبلها وتقول، والأسى فى عينيها :

- مبروك يا حبيبتى.

وقام خالها، وقبلها فوق جبينها وقال :

- مبروك يا بنتى.

ثم صافح عصام وشد على يده قائلا :

- مبروك.. مبروك يا عصام.

وتوالى الجميع يصافحون ويباركون.. ودارت صوان مصفوف عليها أكواب الشراب.. وارتفع صوت مرفت :

- قومى العبى بيانو يا ليلى.

وقالت ليلى :

- لا.. ده أنا العروسة.. واحدة فيكم هى اللى تلعب.

وقالت درية :

- ماحدش يستجرى يلعب بيانو قدامك.. حتى فى يوم فرحك.

وقالت أخت عصام :

- ده أنا سمعت إنك بروفيسيرة.

وتوالى الإلحاح على ليلى.. وقامت من مكانها.. وأحست وهى تقوم أنها ثقيلة.. ثقيلة جدا.. كأن فى داخلها قطعة من الحديد.. وجلست أمام البيانو.. وبدأت تحرك أصابعها.. إن أصابعها أيضا ثقيلة.. ثقيلة جدا.. ورفعت يديها، ونزعت خاتمها الماسى من أصبعها، ووضعته فوق حافة البيانو.. وعادت تحاول أن تعزف.. ولكن أصابعها لا تزال ثقيلة.. وأصبع منها ثقيل جدا.. إنه الاصبع الذى يحمل الدبلة.. إن الدبلة ثقيلة جدا، وتخنق أصبعها.. تحس كأنها تحمل فى أصبعها رجلا..رجلا ثقيلا.. يعض على أصبعها.

وعزفت لحنا لشوبان.. ثم فجأة قطعت اللحن.. وبدأت تعزف لحن «بيتى» الذى وضعه فتحى.

إن اللحن اصبح مشهورا، وكل الناس يعرفون أنه لحن فتحى.
وامتقع وجه الأم.. وتبادلت فيفى ونبيلة النظرات.. ونكس أحمد رأسه ونظر إلى بوز حذائه.. وعصام ينظر إلى خطيبته سعيدا بها.
واستمرت ليلى فى العزف.. بحماس وسرعة.. كأنها تحاول أن تستعين باللحن لتتخلص من هذا الثقيل الذى تشعر به.. لتتخلص من القيود التى يقيدونها بها.
وانتهت.
وصفقوا.
وأمها وأختاها ينظرن إليها والشك يملأ عيونهن.
ولم تبال بنظراتهن.
وبدأ المدعوون ينصرفون.
ودخلت ليلى إلى غرفتها.. وأطلت فى المرآة تساوى زينتها.. ثم اخذت الفراء الرينار ووضعته فوق كتفيها.. وخرجت من الغرفة.. ووقفت مترددة أمام التليفون الموضوع فى الممر ثم رفعت السماعة، وهى تقول :
- أما أشوف عيشة ماجتش ليه.
ولم يكن بجانبها أحد يسمعها، ولكنها تكلمت كأنها تكذب على نفسها.
وأدارت رقم فتحى.
وقالت عندما سمعت صوته :
- عيشة.. أنا مخصماكى.. ازاى متجيش فى خطوبتى وقال فتحى فى أسى :
- مبروك.
وقالت ليلى هامسة :
- استنانى بكرة جنب التليفون لغاية ما أكلمك.
ثم رفعت صوتها قائلة :
- على كل حال أنا مستعجلة دلوقت.رايحة الأوبرج.. حابقى اتخانق معاك بعدين.. بونسوار.
والقت سماعة التليفون، وهى تتلفت حولها.

●●●

وعادت ليلى من الأوبرج متعبة، كأنها موظف حكومة يعود من مكتبه بعد يوم شاق.. وفيفى ونبيلة تتضاحكان وتتحادثان عن المدعوين والمدعوات، وعما شاهداه فى الأوبرج.

والأم ساهرة فى انتظارهن.

ودخلت البنات الثلاث إلى أمهن، وبدأت فيفى ونبيلة ترويان من جديد حوادث اليوم.

وقالت ليلى :

- أنا هلكانة.. مش قادرة أقف على رجليه.. حاخش أنام وذهبت إلى غرفتها.

ولحقت بها أختها.. ووقف الثلاث يبدلن ثيابهن.. وقالت نبيلة وهى ترفع ثوبها فوق رأسها :

- إنما انتى بتعاملى عصام وحش خالص يا ليلى.. زى ما يكون خدامك.

وقالت ليلى بلا مبالاه :

- علشان يتعود من الأول.

وقالت فيفى والسخط فى شفتيها :

- الحق عليه.. أصله خرع.

وقالت نبيلة :

- والنبى ده طيب.

ولم ترد ليلى.

ودخلت فيفى ونبيلة فى نقاش حول عصام.. وليلى لا تشترك معها، كأنهما يتحادثان عن إنسان لا تعرفه ولا يهمها.. وأتمت خلع ثيابها، وارتدت ثياب النوم، ولفت شعرها بمنديل كبير حتى تحتفظ بتسريحته.. ورقدت فى فراشها، وهى لا تزال تحس بأنها ثقيلة.. وأثقل ما فيها اصبعها.. اصبعها الذى يحمل الدبلة، وبدأ كل إحساسها يتجمع فى أصبعها، وفى الدبلة.. وحاولت أن تتخلص من هذا الاحساس.. أن تنسى اصبعها، والدبلة المعلقة فيه.. ولكنها لم تستطع.. وأعصابها تتلوى تحت

جلدها.. وشىء يطبق على صدرها.. تريد أن تبكى فلا تستطيع.. تريد أن تصرخ فلا تستطيع.. وبحركة عصبية نزعت الدبلة من أصبعها.. ونظرت داخل اطارها.. وقرأت الاسم.. عصام.. ولوت شفتيها.. وسرحت فى الفضاء بعينين غاضبتين ملؤهما التحدى والانتقام.. الانتقام ممن؟.. من الذين زوجوها رغما عنها.. ومن الذى اقحم نفسه فى حياتها دون أن تحبه.. وهمت أن تعيد الدبلة إلى أصبعها.. ولكنها غيرت رأيها.. ودستها تحت الوسادة.. وانكفأت على وجهها تحاول النوم، وقالت لأختيها اللتين لا تزالان تتحادثان :

– تسمحوا تسكتوا بأه.. عايزة أنام.

وقالت فيفى فى لهجة ساخرة :

– حاضر يا مولاتى.. تسمحى جلالتك أطفى النور.. وانطفأ النور.

ونامت ليلى.. لم تنم.. إنما راحت فى شبه نوم، وشبه يقظة.. ورأسها مثقل بأعاصير.. لا تدرى أهى أحلام، أم أفكار.. أم صداع.

وقامت فى الصباح، متعبة، منهكة، ووجهها ممتقع، وعقلها شارد، لا تستطيع أن تتذكر به حوادث الأمس.. كأن كل شىء كان حلما.. مجرد حلم.

وقالت أختها نبيلة وهى واقفة فوق رأسها تنظر إلى أصبعها.

– فين دبلتك ؟!

وتنبهت ليلى، كأنها بدأت تتذكر، ومدت يدها تحت الوسادة، وأخرجت الدبلتين وقالت فى تكاسل :

– أهى..

وقالت نبيلة كأنها تحذرها من أمر خطير :

– إوعى تانى مرة تقلعيها من صباعك.. ده مش كويس.. شؤم !

وابتسمت ليلى ابتسامة صغيرة ساخرة، كأنها لا يهمها أن تتحمل مزيدا من الشؤم.. ووضعت الدبلة الذهبية فى اصبعها ثم نظرت إلى

ساعتها، وقالت وهى تقوم منتفضة من سريرها :

- ياه الساعة تسعة ونص.. ده أنا لازم اروح للخياطة.. عندى بروفة الفستان.

وقامت على عجل.. واغتسلت.. وهى تحس كأن الدبلة فى أصبعها تخدش وجهها.. ووقفت أمام المرآة ترتدى ثوبا جديدا للصباح.. وتعيد عقصة شعرها.. وتضع الكحل فى عينيها، وتصبغ شفتيها.. إنها تريد أن تبدو جميلة كما كانت بالأمس.. أجمل مما كانت بالأمس.. وقربت وجهها من المرآة، ونظرت إليها طويلا.. لا.. إنها ليست جميلة كالأمس.. لم يتغير شىء فى وجهها، ولا فى عقصة شعرها.. ولكن ملامح وجهها ليست مرتاحة.. هناك شىء مفقود فى جمالها.. الراحة.. الهدوء.. القناعة.. كأن الله يضيف شيئا من عنده كلما احتفلت فتاة بخطوبتها.. ثم يسحبه منها فى الصباح التالى.. إن فى وجهها نوعا من الخوف.. نوعا من التحفز لمغامرة.

وأمسكت حقيبة يدها، وفتحتها، وأخرجت كيس نقودها وفتحته، وأطلت فيه.. إن فيه المفتاح.. مفتاح الشقة.. شقتها هى وفتحى.

وأعادت الكيس إلى مكانه، وحملت حقيبتها، وذهبت إلى أمها قائلة :

- ماما.. أنا رايحة للخياطة، أعمل بروفة.

وقالت أمها فى بساطة :

- طيب يا حبيبتى.. بس ما تتأخريش.. عصام بيه حايتغدى معانا.

ووقفت ليلى برهة، مذهولة أمام البساطة التى سمحت بها أمها لها بالخروج.. إنها تثق فيها.. أو ربما أصبحت تعتبر نفسها غير مسئولة عنها بعد أن أعلنت خطبتها.. كأنها أدت واجبها وانتهت.. وتنبهت ليلى إلى أنها نالت بخطبتها نوعا من الحرية.. وستنال مزيدا من الحرية بعد زواجها.. إنها الآن فتاة كبيرة. والفتاة لا تكبر فى عينى أمها إلا بعد أن تعلن خطبتها.

وأقبلت على أمها تقبلها، وهى تقول :

- حاضر.. مش حاتأخر.

وخرجت.. مرت على غرفة الطعام، ورشفت رشفة شاى، وأكلت قطعة صغيرة من الخبز المقدد.. ثم خرجت من البيت.. وركبت سيارة أجرة.

إنها الآن فتاة مخطوبة، لا يصح أن تركب الأتوبيس.. ولا يهمها أن تدفع أجر السيارة، فقد أصبح من حقها أن تطلب من أمها مزيدا من النقود.

وانكمشت فى ركن السيارة، وعقلها سارح فى الخطة التى وضعتها.. وهى تعبث بأصابع يدها اليسرى، فى الدبلة المعلقة فى أصبع يدها اليمنى، كأنها تحاول أن تخفف من ثقلها.

ونزلت من السيارة فى ميدان مصطفى كامل.. وسارت بضع خطوات، ودخلت دكان «ليسكوفتش» الجواهرجى.. إنها أول مرة تدخل فيها هذا الدكان وصاحبه لا يعرفها.

وقالت للرجل وهى تنزع دبلة خطوبتها من يدها :

– من فضلك أقدر الاقى عندك دبلة زى دى.. زيها تمام.

وأمسك الرجل بالدبلة ونظر فيها، وقال :

– ايوه يا أفندم موجود.. عايزة دبلتين حضرتك ؟

قالت بسرعة، وهى تحاول أن تحتفظ بملامح صارمة على وجهها :

– لأ.. دبلة واحدة.. أصل أختى ضيعت دبلتها.

وقال الرجل فى دهشة :

– والمقاس يا افندم.

قالت :

– نفس المقاس.. أصل اختى صباعها أد صباعى.

ثم تنبهت إلى أنها ليست مكلفة بتبرير ما تطلبه أمام البائع.. فسكتت مرة واحدة.

وبحث البائع، حتى التقط دبلة مماثلة، ناولها لليلى.. ونظرت فيها، وقارنتها بالدبلة الأخرى، ثم أدخلتها فى أصبعها ثم أعادتها للبائع، قائلة فى حزم :

– من فضلك أكتب عليها.. فتحى.. ٤ ديسمبر ١٩٥٤.

فتحى.. حبيبها.

والتاريخ.. تاريخ أول مرة التقيا فى شقتهما.
وقال البائع :
- حاضر يا أفندم.
قالت :
- حاتغيب.
قال :
- ربع ساعة بس.
ووضعت ليلى الدبلة الأولى فى أصبعها أمام البائع، كأنها تطمئنه، وتعميه عن خطتها، ثم قالت :
- أقدر اتكلم فى التليفون.
ثم اتجهت إلى التليفون قبل أن تسمع رد البائع، وأدارت رقم فتحى.. ورد عليها.. وقالت فى لهجة جادة، كأنها مقدمة على مشروع خطير :
- أقدر أشوفك بعد ربع ساعة.. هناك.
وقال فتحى :
- بعد تلت ساعة.. على بال ما أوصل.
قالت :
- بس ما تتأخرش.. أنا مش حاأقدر أتأخر.
ووضعت سماعة التليفون.
ووقفت فى انتظار أن ينتهى البائع من اعداد الدبلة الجديدة.

٣٠

وانتهى البائع من أعداد الدبلة الجديدة، وأمسكت بها ليلى بيد مرتعشة كأنها تمسك بقلبها الخافق، وقرأت الاسم المحفور فى إطارها الداخلى.. فتحى.. وقرأت التاريخ.. ثم نقدت البائع الثمن دون مساومة، ودون أن تنظر إليه.. وقال البائع وهو يحاول أن يستعيد الدبلة من بين أصابعها :

- تحبى أحطها فى علبة ؟!

وقالت بسرعة كأنها تخاف إن أخذ منها الدبلة ألا يعيدها إليها :

- لأ.. مرسيه.

قال وهو يحاول أن ينظر فى عينيها ليكشف سرها :

- ألفها فى ورقة؟

قالت متعجلة :

- لأ.. مافيش لازمة.. مرسيه !

وخرجت وهى قابضة على الدبلة فى راحة يدها كأنها تقبض على حلم من أحلامها تخشى أن يفر منها.

وسارت فى الطريق.

ودون أن تتوقف عن سيرها.. ودون أن تنظر إلى يدها المرتعشة.. خلعت دبلة خطوبتها من أصبعها.. ووضعت فيه الدبلة الجديدة.. دبلة فتحى.. دبلة حبها.. وهى تنظر فى وجوه الناس حولها، كأنها تضللهم عما تفعله.

واحتارت ماذا تصنع بدبلة خطوبتها؟

هل ترميها فى الشارع ؟

هل ترميها فى صندوق المهملات المعلق فى فانوس النور ؟

هل تذهب إلى النيل، وتلقى بها فيه ؟

وتوقفت خطواتها برهة، وفتحت حقيبة يدها، ووضعت دبلة خطوبتها فى كيس النقود الصغير.. مع مفتاح الشقة.

وعادت تسير فى خطوات سريعة.

إنها تحس بالراحة.. كأنها استبدلت حذاء ضيقا يفرى أعصابها، بحذاء مريح.

أصبعها لم يعد ثقيلا ولا مخنوقا.. إنها تحس به خفيفا مرحا كأنها لفت عليه شعرة مسحورة من الحرير.. وتحس باسم فتحى منطبعا فوق جلد أصبعها كأنه قبلة من قبلاته يطبعها على يدها.

ولكنها قلقة.

إن فرحتها كقطعة سحاب تمر بها، ولا تستطيع أن تمسكها.

إنها تحس أنها تكذب على نفسها.. كل هذا الذى تفعله مجرد كذب.. إنه وهم تجمعه بيديها، كما تعودت أن تجمع الرمال فى طفولتها لتقيم بها بيتا على الشاطىء لا يلبث أن يذوب فى الموج.. إنها تفتعل حلما، ستصحو منه يوما ما.. وهذه الدبلة، دبلة كاذبة.. إنها لا تدل على شىء.. إن فتحى ليس خطيبها، ولن تتزوجه.. إن خطيبها هو عصام، وستتزوج عصام.. و.. ولكن...

إن الكذب أرحم بها من الحقيقة.. الوهم أرفق بها من الواقع.

وأسرعت فى خطواتها، وهى تدق الأرض بقدميها كأنها تحاول أن تهرب من هذا الشك فى نفسها، وهذا التردد فيما تفعله.. وعادت نظراتها تحتد، وصدرها يمتلىء بشعور التحدى اين الكذب، وأين الحقيقة فى حياتها.. أين الوهم، وأين الواقع؟ إن الحقيقة الوحيدة فى حياتها هى حبها.. حقيقة تشعر بها فى قلبها، وذاقتها بشفتيها وهى تقبل فتحى، ولمستها بيدها وهى تلمس فتحى.. حقيقة عاشت فى كل أيامها.. فى نهارها وليلها.. فى صحوها وأحلامها.. والكذب.. إن الكذب هو هذه الخطبة التى أجبروها عليها.. خطبتها لعصام.. إنه كذب رسمى، تعترف به الدولة فى وثيقة وسمية.

خداع يرتكبه أهلها إرضاء لانفسهم، وإرضاء للناس.. إنه وهم يحاولون أن يقنعوها به، ويحاولون إجبارها على أن تعيش فيه.

وزادت فى سرعة خطواتها، وهى تتحسس الدبلة التى تحيط بأصبعها، كأنها تخشى أن تسقط منها.

ووصلت إلى العمارة فى شارع شامبليون.

وابتسمت للبواب ابتسامة كبيرة، كأنها فى شوق إليه.

ودخلت فى المصعد.. وصعدت وهى تحس باحساس جديد كأنها فتاة أخرى، غير الفتاة التى تعودت أن تتردد على هذه العمارة.. إنها الآن فتاة كبيرة.. فتاة مخطوبة.. ما أكبر الفرق بين الفتاة.. والفتاة المخطوبة! فرق كبير.. إن احساسها يختلف.. وعقليتها تختلف.. ويخيل إليها أن شكلها أيضا يختلف عما كان عليه عندما لم تكن مخطوبة.

ووقفت أمام باب الشقة، وفتحت كيس نقودها الصغير.

ووقعت عيناها على الدبلة الملقاة فيه.. دبلة خطوبتها.. فأشاحت بوجهها عنها، كأنها تؤكد لنفسها أنها لا تعرف هذه الدبلة، ولم ترها من قبل، ولا تدرى سر وجودها فى كيس نقودها.

والتقطت المفتاح بيد مرتعشة.

وفتحت الباب.

ودخلت.. وأغلقت الباب، وأسندت ظهرها عليه وهى تتنهد.. كأنها وصلت بعد طول عناء.. كأنها أصبحت فى بيتها.

وطافت بعينيها حولها، وهى تبتسم فى حنان، كأنها تقبل دنياها.. تقبل البيانو.. والمقعد.. ومنفضة السجائر..و.. وأطلت من عينيها نظرة عتاب.. وأطلت شفتها السفلى من تحت شفتها العليا.. كأنها غاضبة.. غضبا رقيقا حنونا.. إن الحجرة متربة.. والمنفضة ممتلئة حتى آخرها بأعقاب السجائر.. وعيدان ثقاب ملقاة على الأرض.. وغطاء البيانو مرفوع.. لقد أهمل فتحى الشقة فى غيبتها.

وخطت فى الصالة، حتى وصلت إلى باب الغرفة الوحيدة، وفتحته.. وسقطت عيناها على قميص نومها، والروب دى شامبر، موضوعين فوق المقعد وسط الغرفة الخالية.. القميص والروب اللذان حملتهما معها يوم

حاولت الهروب من بيت أهلها واحتقن وجهها، ونكست عينيها فى خفر كأنها رأت ثوب زفافها.

وخرجت من الغرفة، وأغلقت الباب وراءها فى حرص، كأنها تغلقه على سرها.

وألقت حقيبة يدها فوق المقعد الموضوع فى الصالة، وحملت منفضة السجائر وذهبت بها إلى المطبخ، وألقت بما فيها من أعقاب، وغسلتها، ثم أعادتها إلى مكانها فوق حافة البيانو.

وانحنت تجمع عيدان الثقاب من على الأرض وتضعها فى كفها.. ثم قامت وألقت بما جمعته فى المنفضة.. ثم بدأت تتلفت نحو الباب فى انتظار فتحى.. ثم جلست أمام البيانو، وأخذت تعزف لحن «بيتى» كأنها تدعوه به إليها.

وبدأت تعزف اللحن مرة ثانية.. أسرع، وأعلى.. كأنها تناديه بصوت عال.

ودار مفتاح فى قفل الباب.

ودخل فتحى.

وكفت عن العزف.

والتفتت إليه فى لهفة.

إنه بادى النحول.. وجهه ممتقع.. وعيناه الواسعتان أشد قلقا. وشفتاه الغامقتان قد أغمق لونهما أكثر حتى كأنهما زرقاوان.

ووقف فتحى عند الباب صامتا.

وهى تنظر إليه صامتة.

وطال بينهما الصمت.

لا يقترب منها.

ولا تقترب منه.

كأن هناك شيئا يقف بينهما.. كأنها لم تعد من حقه.. وكأنه لم يعد من حقها.. وكأن كل الكلام لن يستطيع أن يقربهما.. كأنه ليس هناك كلام يمكن أن يجمعهما.

وابتسمت ابتسامة ضعيفة.

ثم قامت من على مقعدها، واقتربت منه، وهى لا تزال تنظر فى عينيه.
واقتربت أكثر.
وصدرها يتهدج.
وصدره يتهدج.
وعيناه القلقتان تبحثان فى وجهها، كأنه يبحث عن شىء تغير فيها.. شىء جديد..
ثم لم تحتمل مزيدا من الصمت. ألقت نفسها بين ذراعيه.
وضمها إليه فى حنان ويده ارتفعت لتمسح فوق شعرها.. وقالت كأنها تتنهد :
- فتحى.
ثم تركت قلبها يدق فوق قلبه.
وترك قلبه يدق فوق قلبها.
ثم قبلها فوق رأسها.
وقبلته فوق عنقه.
ثم قبلات.. قبلات كثيرة فى كل مكان تلتقطه شفتاه، وفى كل مكان تلتقطه شفتاها.. ثم اجتمعت القبلات كلها فى قبلة واحدة جمعت شفاههما.. قبلة طويلة.. كأنهما يشربان بعد عطش طويل.
وافترقا.
وجلست على مقعد البيانو، وهو تلتقط أنفاسها، وتساوى خصلات شعرها، وقد اكتسى وجهها بلون الورد..
وجلس على المقعد الآخر، وقال فى صوت خفيض، ورأسه ملقاه فوق صدره :
- مبروك.
ولم ترد عليه، كأنها لا تريد أن تسمعه، وقالت وهى تفتعل المرح كأن شيئا لم يجد على حياتها :
- كدة تسيب الشقة من غير تنظيف يا فتحى.. آجى ألاقيها معفرة وكلها تراب.. وقلت لك ميت مرة ماترميش الكبريت على الأرض.. آجى ألاقى الأرض مفروشة كبريت.

وقال فتحي دون أن يبتسم :

- ماكانتش تستحق تنظيف وانتي مش فيها.

وقالت كأنها تلومه :

- أنا فيها دايما.. ده بيتي.. نسيت.

قال وهو ينظر إليها بعينيه القلقتين :

- أنا ماكنتش مصدق.. ماكنتش مصدق إننا حانرجع نشوف بعض تاني.

قالت في تهكم وهي تنظر إلى أصابع البيانو :

- طبعا ماكانش يصح آجي أشوفك بعدما اتخطبت.. مش كدة!

قال :

- انتي معذورة يا ليلى.. انتي مش غلطانة.. ولا أنا غلطان ولا حد غلطان.. الظروف هي اللي غلطانة.. ظروفك، وظروفي، وظروف كل الناس.

وسكتت والابتسامة المتهكمة لا تزال بين شفتيها.

واستطرد فتحي قائلا :

- انتي ماتعرفيش حالتي كانت ازاي في اليومين اللي فاتوا.. كنت زي المجنون.. اعتقدت إني خلاص.. مش حاشوفك تاني.. وكنت باحاول انساكي.. وكل ما أحاول أكتر أفتكرك أكتر.. وماكنتش عارف أعمل ايه.. ساعات كنت بافكر اروح اقابل مامتك وأقول لها على كل حاجة.. أقول لها إني ما أقدرش أعيش من غيرك.. وساعات كنت أفكر أروح أقتل الراجل اللي حياخدك مني.. وساعات.. ساعات كنت أفكر إني أهرب بيكي، ونروح نتجوز.

والتفتت إليه ليلى لفتة سريعة عندما سمعت كلمة الزواج، ثم ارتدت نظراتها في يأس، وقالت :

- وماعملتش حاجة.. فكرت بس.

قال :

- ماكانش ممكن أعمل حاجة. إلا إني أضحي بنفسي.. استحمل العذاب لوحدي.. انتي تتجوزي وتسعدي وبعد شوية تخلفي أولاد وتنسيني.. وأنا أفضل لوحدي لغاية ما أتجنن.

قالت فى حدة :

- إنت عارف أنى ما أقدرش أكون سعيدة مع أى راجل تانى.. إنت عارف إنى باحبك.. وعارف أنى ما أقدرش أعيش من غيرك.. ورغم كدة سبتنى اتخطب لراجل تانى.

قال فى يأس :

- ماكانش ممكن أعمل حاجة.

قالت وهى لا تزال محتدة :

- كان ممكن تقف جنبى وتطلب منى أنى أرفض الخطوبة.

قال :

- ما أقدرش

قالت :

- ليه ؟

قال :

- لأنى ما أقدرش أخطبك.. ما أقدرش أحرمك من حاجة يقدر يديها لك غيرى، إلا إذا كنت أنا أقدر أديهالك.

قالت كأنها تهم بالبكاء :

- أنا ماكنتش عايزة أتخطب، لا لك، ولا لغيرك.

قال ورأسه منكس :

- حتى لو ماكنتيش عايزة.. كان لازم تتجوزى.. إذا ماكانش النهاردة يبقى بكرة.. ده مصيرك.

قالت فى حدة :

- علشان أبقى زيك، مش كدة.. إنت متجوز، وأنا متجوزة.. واحنا الاتنين بنحب بعض.. ومافيش حد أحسن من حد.

قال كأنه يؤنبها :

- أنا اتجوزت قبل ما أشوفك.. وقبل ما أحبك.

قالت صارخة وهى تدق على صندوق البيانو بقبضة يدها :

- وسبتنى أتجوز ليه.. عايزة أفهم.

قال فى هدوء :

- علشان احنا مش عايشين لوحدنا فى الدنيا.. الدنيا فيها أهلك، وفيها ناس كتير.. وكل دول مش ممكن يسيبونا لبعضنا.. الناس مابتعترفش بالحب.. الحب ده بتاعك وبتاعى.. ماحدش حاسس بيه إلا أنا وأنتى.. والناس ماتعرفش إلا الجواز.. كل اتنين لازم يتجوزوا بعض.

قالت وهى تهز كتفيها :

- أنا مايهمنيش الناس.. ولا أهلى.. لو كنت لقيتك واقف جنبى كنت ضحيت بأهلى وبالناس.

قال :

- وأنا كمان مايهمنيش الناس.. إنما يهمنى انتى.. يهمنى اللى ممكن يعمله الناس فيكى.

قالت فى استخفاف :

- حايعملوا ايه يعنى.

قال :

- انتى شفتى بيعملوا ايه.. أهلك بيحبسوكى.. وأخوكى بيضربك.. والناس بتتكلم عليكى.. وبيطردوكى من المجتمع.. و..

وقاطعته :

- يعنى لازم اتجوز علشان ارضى أهلى والناس، وأفضل معاك علشان ارضى نفسى.. مش كدة.

قال :

- لو قدرتى تستغنى عنى يبقى أحسن.

- ولو ما قدرتش ؟!

قال فى ألم :

- حا نتعذب إحنا الاتنين.

وسكتت فترة وأخذت تنقر على أصابع البيانو بأصبع واحد ثم التفتت إليه فجأة وقالت :

- أحب أقول لك إن أهلى ماجوزونيش علشان لازم اتجوز.. كان مفروض إنى ما تجوزش إلا بعد ما آخد الدبلوم.. إنما جوزونى علشان عرفوا إنى باحبك.. يعنى بيعاقبونى.. بيرمونى.. وعلشان كدة مش

حارضى.. مش حاسكت.. حاعمل اللى أنا عايزاه.
وقال فى صوت ضعيف كأنه غير مقتنع بما يقوله :
- أعذريهم.. فكرى بعقليتهم.
قالت :
- ما أقدرش ألغى عقلى بعقل ماما ولا عقل خالى.. وسكتت برهة، ثم استطردت وهى تضع ابتسامة خفيفة بين شفتيها :
- تحب تعرف اسم خطيبى.
قال وهو يدير عينيه عنها :
- عارفة.
قالت :
- لأ.. مش عارفة.
ثم خلعت الدبلة من أصبعها، وقذفتها إليه، وقالت، وهو يلتقط الدبلة فى ضيق :
- خد اقرأ اسمه.
قال وهو لا ينظر إليها :
- متهيألى أرميها من الشباك.
قالت وقد اتسعت ابتسامتها :
- قبل ما ترميها اقرأ الاسم المكتوب عليها.
ونظر فتحى فى الاطار الداخلى للدبلة وشفتاه متقلصتان كأنه يعانى ألما.. ثم.. ثم اتسعت عيناه.. وصاح فى دهشة :
- ايه ده؟
قالت وهى تقوم من على مقعدها، وتقترب منه، وابتسامتها تملأ وجهها، ووجنتاها ترتعشان :
- ده خطيبى.. فتحى.. تعرفه ؟!
ورفع إليها عينيه.. ثم احتضن جسدها المنتصب أمامه، وهو لا يزال جالسا على مقعده.. وقال كأنه يناديها :
- ليلى.. ليلى.
قالت وهى تمسح على رأسه بيدها فى حنان :

- ما أقدرش أشيل اسم راجل تانى.. كان متهيألى أن صباعى بيتخنق.. رحت عملت دبلة تانية وكتبت عليها اسم الراجل اللى أقدر أشيل اسمه.

ورفع رأسه إليها، والقلق يضج فى عينيه، كأنه تاه فى كل هذا الحب الذى تمنحه له.. وقال كأنه يتوسل إليها:

- إحنا بنضحك على نفسنا يا ليلى.. بنضحك على نفسنا. أنا مافكرتش فى الدبلة اللى حاتلبسيها يوم ما تتخطبى.. إنما فكرت إن فيه راجل تانى حايحط شفايفه على شفايفك.. حايلمسك.. حايكلمك.. حاتبقى بتاعته.

وأطلق جسدها المنتصب أمامه من بين ذراعيه.. ثم قام واقفا، وأخذ يروح ويجيىء أمامها، ويخبط قبضة يده براحة اليد الأخرى.. وقال :

- أنا اتعذبت كتير.. اتعذبت وأنا بأحس إنك ما بقتيش بتاعتى لوحدى. وأنا باشوف بخيالى راجل تانى بيبوسك.. كنت بادور فى الشوارع زى المجنون.. أحاول أسكر ما أقدرش.. أحاول اضحك ما أقدرش.. احاول اعيط ما أقدرش.. مافيش إلا العذاب.. عذاب.

وقالت كأنها تخفف عنه :

- مافيش حد لغاية النهاردة باسنى ولا لمسنى غيرك.

ولم يرد.. ظل يروح ويجيء فى الغرفة، وهو يخبط قبضة يده براحة يده الأخرى.. ثم فجأة وقعت عيناه على الدبلة التى تلتف حول أصبعه.. دبلة زواجه.. الدبلة التى تحمل اسم زوجته عواطف.. هل يستطيع أن يستبدل هذه الدبلة بدبلة أخرى تحمل اسم ليلى؟ وأحس بقلبه يغوص وينقبض للخاطر الذى يفكر فيه.. كأن قلبه يتمرد عليه.. إن هذه الدبلة.. دبلة زواجه.. أصبحت قطعة من أصبعه، إنه لا يستطيع أن يتصور أصبعه بدون هذه الدبلة.. ودون أن يكون مطبوعا عليها اسم عواطف.. كما لا يستطيع أن يتصور حياته دون أن تشاركه فيها عواطف.. ولكنه يحب ليلى.. يحب ليلى، ويحب عواطف.. ويخون ليلى، ويخون عواطف.. ويخون نفسه لأنه يمزقها بين ليلى وعواطف.. وبدأت الحيرة تنتابه من جديد.. الحيرة التى تقلق حياته، وتشرد نفسه.

وهرع وجلس على البيانو.. وبدأ يعزف فى عصبية.. كأنه يهرب.. كأنه يشق لنفسه بين الأنغام مخبأ يختبىء فيه.. وأصابعه الطويلة السمراء تقفز

فوق مفاتيح النغم، كأنها تقفز فوق قطع من جمر النار لا تطيق لمسها.

ووقفت ليلى خلفه برهة، ثم جلست على الأرض بجانب البيانو، وهى تنظر إليه بعينين ملؤهما الحب.. ثم قالت فى رقة :

- أنا ماسمعتش اللحن ده قبل كدة.

قال دون أن يلتفت إليها :

- ده لحن جديد.. حاسميه.. عذابى !

ثم كف عن العزف، والتفت إليها واستطرد قائلا :

- بقالى خمستاشر يوم باحاول أكمله، مش قادر.

قالت وهى تبتسم له فى دلال :

- غير اسمه وانت تعرف تكمله.. سميه.. حياتى.

وسكت فتحى.

وعيناه القلقتان تنظران فى عينيها.

وعيناها متعلقتان بعينيه.

عيناها فيهما دعوة.

وعيناه فيهما نداء.

إنهما يعرفان ما يريدان.

والدماء تتصاعد إلى وجنتيها، وتكسوهما بلون الشفق.. وأنفاسه تتردد فى عنف، كأن صدره لم يعد يسعها.. والقى نفسه بجانبها على الأرض.. كأنه يلقى إليها بحياته.. بكل ما فى حياته من عذاب، وحيرة، وقلق.

واستقبلت شفتيه فوق شفتيها.

وذراعاها حول عنقه تتعلقان به.

وذراعاه حول ظهرها يضمانها فى عنف.

إنها تقبله كما لم تقبله من قبل.

ولا تحذر.

لم يعد هناك ما تخاف عليه.. إن ما كانت تخاف عليه لم يعد ملكها.. أصبح ملكا لرجل آخر لا يهمها.

رجل خطبوها إليه.

●●●

وعادت ليلى إلى بيتها فى سيارة أجرة.. وحاولت طول الطريق أن تعيش فى الساعات التى قضتها مع فتحى.. أن تستعيد قبلاته، وكلماته، ولمساته.. ولكنها لم تستطع.. إن أمامها مهمة أخرى يجب أن تعد نفسها لها.. مهمة استقبال خطيبها.. رجل آخر يجب أن تعد نفسها لها.. أن تبتسم له.. وأن تحتمل نظراته..وأن تهتم بكلامه.. وأن تتركه يضغط على يدها.. ومن يدرى، لعله يحاول أن يقبلها.. فتستقبل على شفتيها، شفاها غير شفتى فتحى.

لا.. إنها لن تستطيع.

لن تستطيع أن تمنح شفتيها لرجلين.. وأن تقسم حياتها بين رجلين.. ثم أنه حرام.. إن الله سيعاقبها.. سينتقم منها.. ولكن.. أين الحرام.. حبها لفتحى.. أم زواجها من عصام ؟

وتحسست الدبلة الذهبية التى تحتضن أصبعها، والتى تحمل فى داخلها اسم فتحى.. دبلة حبها.

إن هذه الدبلة لم تخفف من عذابها.. لقد كانت تعتقد أنها عندما تستبدل دبلة خطيبها، بدبلة حبيبها، ستنجو.. ستنتصر.. ولكنها الآن تحس بأن هذه الدبلة تزيد من عذابها.. تشعر كأن فتحى سيكون معها وهى تلتقى بخطيبها.. سيكون معها وهى تنافق خطيبها، وهى تبتسم له، وهى تسمح له بتقبيلها.. سيكون معها وهى بين أحضان رجل آخر.. سيكون معها ليزيد أحساسها بالخيانة، والنفاق، والخديعة.

وعادت تتحسس الدبلة، كأنها تشكو لها.. كأنها تربت على رأس حبها الذى يعذبها كل هذا العذاب.

إنها لن تخلع هذه الدبلة.

ستظل محتفظة بها.

محتفظة بحبها.

إنها على الأقل، تستطيع بذلك أن تحس بأنها لم تستسلم.. لم تهزم.. لم تفقد حبها.

ووقفت السيارة أمام باب البيت، ودفعت للسائق أجره دون أن تنظر إليه.. وحيت عم عبدالله البواب ورأسها منكس.. وصعدت السلم فى

خطوات بطيئة مسترخية، كأنها امرأة عجوز.

لقد كانت تعود من لقاء فتحى مرحة، فرحة، والدنيا تزغرد من حولها، والنشاط يسرى فى أعصابها.. وكانت تقفز السلالم قفزا، كأنها لا تطيق أن تلمس الأرض فتحاول أن تطير.. ولكنها اليوم تذوق طعما جديدا للحب.. طعماً ثقيلاً.. حزينا.. كأنها تذوق طعم دموعها.. أن حبها لم يعد حلما تمرح فيه.. ولكنه أصبح الحياة نفسها، بكل ما فى الحياة من مشاكل، وقسوة، وظلم، وخداع.

واستقبلتها والدتها فى الصالة الخارجية قائلة فى لهجة ليس فيها لوم :

– انتى اتأخرت قوى يا ليلى.

وقالت ليلى بلا مبالاه كأنها تعرف أنه لم يعد من حق أمها أن تحاسبها:

– أصل البروفة كانت لسة ماخلصتش.. فضلت قاعدة مستنية.

وقالت أمها وهى تبتسم كأنها تشعرها بأنها صفحت عن تأخرها :

– طيب يا حبيبتى.. روحى غيرى فستانك قوام.. زمان عصام بيه جاى!

وانقبضت معدتها وهى تسمع اسم عصام، ثم قالت فى برود :

– حاضر.

ودخلت غرفتها، وكانت فيها أختاها فيفى ونبيلة، واستقبلتها نبيلة ضاحكة وهى تغنى :

– اتمخترى يا حلوة يا زينة، ياوردة.

وقاطعتها ليلى قائلة :

– والنبى اسكتى يا بلبل.. أنا مش رايقة لك.

وقالت فيفى وهى تنظر إليها والغيرة تطل من عينيها :

– طبعا يا ستى.. إنتى حاتروقى لحد منا أبدا.. كفاية عليكى خطيبك.

وقالت نبيلة :

– حد يتخطب امبارح.. ويبوز النهاردة !

وقالت فيفى :

– أصلها ماتستاهلش النعمة.

وقالت ليلى وهى تفتح دولابها :

– انتى اللى تستاهلى.

وصرخت فيفى فجأة وفى حدة، كأن اختها قرصت قلبها.

- طبعا أستاهل.. إنتى فاكرة إنك علشان اتخطبتى قبل منى، أبقى أنا ماأستاهلش.. أحب أقول لك إنى أقدر أتخطب النهاردة قبل بكرة.. مليون راجل يتمنى إنى اتنازل واتجوزه.. مش علشان انتى شعرك أصفر.

وتنبهت ليلى إلى أنها حركت عقدة أختها، فالتفتت إليها وقالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :

- أنا ماكنتش عايزة أتخطب قبل منك.. انتى عارفة انى اتخطبت غصب عنى.

وقالت فيفى وعيناها ممتلئتان بالغضب، وشفتاها ساخطتان :

- أنا مايهمنيش.. ما طلبتش منك إنك تستنينى لغاية ماأتخطب.. ولازم تعرفى إنى مش حاتجوز.. أنا حاشتغل.. لو كنت عايزة أتجوز كنت اتجوزت من زمان.

وقالت نبيلة، وهى تحاول أن تبدد بابتسامتها حدة أختها :

- ايه اللى فتح الموضوع ده دلوقت يا فيفى.. ما أنا كمان لسة ماأتخطبتش.. ونفسى أتخطب موت.. حتى لو خدت ميت ليسانس برضه عايزة أتخطب.

ثم التفتت إلى ليلى واستطردت :

- شفتى الورد اللى بعته عصام يا ليلى.

وقالت ليلى بلا مبالاه، وهى تبدل ثوبها :

- لأ.

واستطردت نبيلة :

- جنان.. متنقى وردة وردة.. وباين عليه منقيه بنفسه.. كل وردة بتضحك للتانية.

وفتح الباب وأطل منه رأس ممدوح، وصرخت ليلى وهى واقفة بقميصها الداخلى :

- ايه ده.. مش تبقى تخبط على الباب.

وقال ممدوح :

- طيب غمضى عنيكى علشان ماتشوفنيش.

وقالت ليلى وهى تختبىء خلف ضلفة الدولاب :

- دمك خفيف.

وقال ممدوح :

- قديمة.

ثم التفت إلى نبيلة قائلا :

- أخويا أحمد جه؟

وردت فيفى :

- قاعد فى أودته وواخد التليفون معاه.. حضرته يظهر بيحب اليومين دول.

وقال ممدوح :

- ياريت.. يمكن الحب يفك وشه شوية.

وقالت نبيلة :

- حقة يوم ما يتجوز أبيه أحمد.. الدنيا مش حاتساعى ماما.

وقال ممدوح :

- لو سمعتم زعيق بينى وبين أحمد ماحدش يتدخل.

ادعولى.

وانسحب من الغرفة بسرعة، وسار فى خطوات واسعة قوية، كأنه يعرف ما يريد ويصمم عليه، ثم فتح باب غرفة أحمد، دون أن ينقر عليه.. وبين شفتيه ابتسامة كبيرة.

وكان أحمد جالسا على مقعده، والتليفون فوق ركبتيه، والسماعة فوق أذنه.. ووجهه غارق فى فرحة كبيرة.

ورفع أحمد عينيه إلى أخيه ممدوح، ثم عاد وخفضهما، وكسا وجهه بأمارات الجد والوقار، وقال فى سماعة التليفون كأنه يخاطب رجلا :

- على كل حال أبقى أشوفك فى النادى الساعة أربعة.. مع السلامة !

ووضع سماعة التليفون، والتفت إلى أخيه قائلا :

- ازيك يا ممدوح.. إيه أخبارك؟؟

وقال ممدوح وهو يبتسم :

- حصل ؟

وقال أحمد فى دهشة :

- حصل ايه ؟

قال ممدوح :

- حب.

وقال أحمد وهو يدير عنه عينيه :

- لا أبدا.. ده واحد صاحبى.. إنت ايه أخبارك ؟

وخطا ممدوح داخل الغرفة، وجلس على حافة سرير أخيه. وقال فى لهجة جادة :

- اسمع يا أخويا.. دلوقت اختى ليلى اتخطبت، وأنا عارف إن جهازها حايتكلف كتير.. إنما قبل ما تبتدوا تجهزوها لازم تحوشولى الفين جنيه على جنب.

وقال أحمد فى دهشة :

- الفين جنيه بتوع ايه ؟

قال ممدوح :

- عايزهم.

وقال أحمد وهو يحاول أن يضغط على أعصابه :

- وأنا عايز عشرين الف.. يا ممدوح اعقل.. حانجيب لك الفين جنيه منين.. ثم إنه مش كفاية إنك تعوز الفين جنية علشان نديهم لك.

وقال ممدوح فى هدوء :

- أنا مش عايز أكلمك فى التفاصيل.. مش عايز أقول لك إحنا عندنا كام.. وماما محوشة كام.. إنما الى أعرفه إن ماما محوشة نصيبنا فى معاش أبويا.. علشان تديه لكل واحد منا يوم ما يتجوز.. وشايله لكل واحد فينا اسورة ألماظ علشان نشبك بيها العروسة.. أنا مش حاتجوز.. واكتر من كدة.. أنا مش حاكمل فى الجامعة.. الفلوس اللى كنتم حاتصرفوها علىّ فى الجامعة، حاخدهم دلوقت علشان أشتغل بيهم.

وقال أحمد فى تهكم :

- وعايزنى أوافقك على الكلام ده ؟

وقال ممدوح :

- يبقى أحس إنك توافق.. إنما أنا مصمم على الكلام اللى أنا عايزه.

وقال أحمد :

- مستقبلك يبدأ يوم ماتاخد الليسانس.

وقال ممدوح :

- مستقبلى كان لازم يبدأ من زمان.. أنا ما أقدرش أضيع من عمرى أكتر من كدة.. أنا مش عايز أبقى محامى، ولا موظف يبقى مافيش لازمة آخد الليسانس.. وفيه فرصة قدامى ما أقدرش أسيبها.

وسرح أحمد بعينيه.. هل يوافق أخاه على رأيه؟ قد يكون على حق.. إنه هو نفسه قد نال شهادة الليسانس، ولم يفعل بها شيئا، سوى أن قبل وظيفة حقيرة فى إدارة المعاشات.. فلماذا لا يترك أخاه يبحث عن مستقبل أحسن؟ وقد يوفق ويكون أسعد منه حظا.

وقال وهو لا يزال ساهما :

- فرصة ايه ؟

وقال ممدوح :

- حاشارك فى ورشة كبيرة.. وإنت عارف إنى غاوى ميكانيكا، وطول عمرى عايش فى ورش تصليح الأوتومبيلات.. الورشة دى حتكسب دهب.. أنا عملت حسبتها كويس.. ومستعد أقول لك على كل التفاصيل.. ولو نجح المشروع حابقى بعد عشر سنين صاحب مصنع كبير.. صدقنى.

وعاد أحمد يسرح بعينيه.. هل يستطيع أن يشجع أخاه على عدم اتمام دراسته؟ هل يصح أن يكون له أخ حامل توجيهية؟ أى غير متعلم.. وأحس أن عقلية خاله بدأت تسيطر عليه.. ولا يستطيع الفكاك منها.. ولا يستطيع أن يرد على منطقها.. وقال كأنه يتكلم من بعيد :

- على كل حال، المشروع ده يقدر يستنى لغاية ما تاخد الليسانس.. وبعدها تبقى تعمل اللى انت عايزه.

وقال ممدوح :

- الليسانس هو اللى يقدر يستنى.. إنما المشروع مايستناش.

وقال أحمد :

- طيب ماتعملش الاتنين سوا ليه ؟

وقال ممدوح كأنه يخدع أخاه :

- حاضر.. بس المهم إنى آخد الفلوس اليومين دول.

وسكت أحمد.

وعاد ممدوح يلح قائلا :

- ايه رأيك.

وقال أحمد كأنه يتجنب معركة بينه وبين أخيه :

- طيب سيبنى أكلم ماما الأول.

وقال ممدوح فى فرح :

- صحيح يا أحمد حاتكلمها.. بتتكلم بجد.

وقال أحمد كأنه يتخلص منه :

- أيوه.

وقام ممدوح وهو ينظر إلى أخيه فى امتنان، وخرج من الغرفة فى خطوات مرحة تكاد تكون خطوات راقصة.

واصطدم بأمه بمجرد خروجه، وقالت الأم فى لهجة خطيرة ساذجة :

- عصام بيه جه.

ثم تركته واندفعت فى خطوات سريعة نحو حجرة بناتها.. ونظر إليها ممدوح دهشا وقال وراءها :

- أهلا وسهلا.. يئانس ويشرف !

وفتحت الأم باب غرفة بناتها، وقالت فى لهفة :

- ليلى.. عصام جه.. ياللا بأه يا حبيبتى، ماتسيبيش الراجل ملطوع.

وقالت ليلى فى برود وهى تنظر فى مرآتها :

- آدينى جاية..

وظلت الأم واقفة فى انتظار ابنتها، ثم عادت تقول :

- كفاية كدة.. ياللا بأه.

وقالت فيفى وهى تنظر إلى أختها فى سخط :

- مش تستنى عليها لما تتزوق.

وقالت ليلى وهى تبتعد عن مرآتها :

- مش حاتزوق علشان يعجبك.

ثم خرجت تسير بجانب أمها نحو غرفة الصالون، وكانت قد غيرت ثوبها بثوب في لون السحاب الرمادى.. نصف كم.. مقفول عند الصدر.. وذيله مموج، بليسيه.. وقد غيرت تسريحة شعرها، فشدته إلى الوراء، ولفت ضفيرة خلف رأسها، فبدت أكبر سنا.. وأكثر هدوءا.

وقام عصام واقفا، وانحنى يقبل يدها.

وابتسمت ابتسامة كبيرة مفتعلة، وتلفتت حولها تبحث عن مقعد تجلس عليه.. فالتقت بعينى أمها، تنظران إليها شذرا كأنها تأمرها بأن تجلس بجانب خطيبها.. فجلست بجانبه على الأريكة.

وقالت الأم :

– عن اذنك يا عصام بيه، أما أروح أشوف البنات بيعملوا ايه.. احسن لو سبتهم مش حانتغدى ولا الساعة أربعة.

وقام عصام واقفا تحية للأم وهى خارجة، ثم جلس بجانب خطيبته، وقال وابتسامة مرسومة بدقة فوق شفتيه :

– الفستان ده حلو عليك قوى.

وقالت دون أن تنظر إليه :

– مرسيه.

قال :

– والتسريحة لايقة عليكى.. بس مكبراكى.

وقالت وهى تحاول أن تبتسم :

– ما أنا كبرت خلاص.. مش اتخطبت !

قال فى اهتمام كأنه يبدأ موضوعاً جادا :

– أنا النهاردة جات لى سفرية لألمانيا علشان أروح اشترى ماكينات للمصنع بتاعنا.. وقدرت أأجل السفر للصيف.. علشان نسافر سوا.

ولم تشعر بالفرحة.. لم يختلج قلبها.. أحست كأن هناك محاولة لاغتصابها.. لابعادها عن الدنيا.. وقالت وهى تتحسس الدبلة التى فى يدها، كأنها تخشى أن يكتشف خطيبها أنها ليست دبلته :

– أنت سافرت ألمانيا كتير.. مش كدة ؟

قال :

– تلات أربع مرات.

قالت فى حدة كأنها تلصق تهمة بخطيبها :

- وطبعا كان لك هناك مغامرات كتير.

ونظر إليها عصام دهشا، ثم قال وقد أحمر وجهه :

- اللى فات مات خلاص.. أنا بقيت إنسان جديد يا ليلى.

قالت وهى تفتعل الغضب :

- اللى فات مابيموتش.. بيبقى ذكريات.. وأنا مش عايزة أروح حتة لك فيها ذكريات.

وابتسم عصام كأنه سعيد بغيرتها عليه :

- أحلفلك إنى نسيت كل اللى فات.. اعتبرينى اتولدت من جديد.. وعلى كل حال الدور ده حانروح بلاد أنا مارحتهاش قبل كدة.. دسلدروف.. وهامبورج.

وقاطعته ليلى :

- وعرفت فى ألمانيا كام واحدة.

إنها تطرق هذا الموضوع فى إلحاح واصرار، كأنها تدافع عن نفسها.. كأنها تريد أن تقنع نفسها بأنه ليس خيرا منها.. بأنه هو الآخر يحب غيرها.. أو أحب غيرها.. وكان هذا الاقتناع يخفف من إحساسها بأنها تخدعه.. وكان - دون وعى منها - يجعلها تسبقه بالاتهام، كأنها تخشى أن يسبقها هو ويتهمها.. ثم كانت منساقة - بطبيعتها كامرأة - إلى ادعاء الغيرة عليه، حتى تقطع عليه سبيل الغيرة عليها.

وقال عصام وهو سعيد بغيرتها عليه :

- ده إنت غيورة قوى يا ليلى.

قالت وهى تهز كتفيها بلا مبالاه :

- أبدا.. حاغير من ايه.. كل الشبان كدة.

قال وهو يمد يده ويمسك بيدها :

- على كل حال أنا حاحكيلك على كل حاجة.. بعدين.

قالت ويدها تنتفض فى يده، كأنها تحترق :

- مش عايزة أعرف.

وعادت أمها ومعها فيفى ونبيلة.. وقام عصام يستقبلها.. وليلى تنظر إليه كأنها تكره فيه عادة الوقوف كلما دخل أحد أو خرج.

ثم جاء أحمد.

وممدوح.

ودار حديث نصف مفتعل، والنصف الآخر لا معنى له.. ثم قام الجميع إلى مائدة الغداء، وأشارت الأم إلى عصام ليجلس على يمينها فى المكان الذى تعودت أن تجلس فيه ليلى.. وجلست ليلى بجانبه على مقعد آخر.. وهى تحس بأنها لم تعد فى مكانها.

وقال ممدوح ضاحكا :

- الدبلة حلوة فى ايديكى قوى يا ليلى.. وورينى كدة !

ومدت له ليلى يدها وهى تثنى أصابعها حتى لا يستطيع أن يخلع منها الدبلة :

وقالت :

- اتفضل.. عقبال دبلتك.

قال ممدوح فى بساطة :

- اخلعيها.. نفسى أشوف المكتوب عليها.

وجذبت ليلى يدها بسرعة وفى حركة مفاجئة، وقالت وحمرة خفيفة تكسو وجهها :

- لأ.. ما أقدرش أقلعها.. مش كويس.. شؤم.

ونظر الجميع إليها كأنهم يوافقونها على رأيها.

والتفتت ليلى إلى عصام، وقالت وهى تبتسم، كأنها تحاول أن تتمادى فى خداعه :

- إوعى تخلع دبلتك من صباعك يا عصام.. يبقى كأنك خلعتنى.

وقال عصام والسعادة تملأ وجهه :

- أبدا.. ده حتى النهاردة وأنا باغسل وشى ماشيلتهاش من صباعى.. حاتفضل فى حتتها طول عمرى.

٢١

● أمين عبد السيد ●

كانت فيفى تمر بأزمة عصبية منذ أعلنت خطوبة أختها ليلى.. وقد حاولت كثيرا أن تخفى أزمتها.. وأن تسيطر على أعصابها.. أن تفرح.. وأن تبتسم.. وأن تشارك بقية العائلة فى الضجة التى يقيمونها حول ليلى.. ولكنها لم تستطع أن تنسى أنها الأخت الكبرى، وأن أختها الصغرى خطبت قبلها.. وقد كان الأمر يهون لو أن الخطاب كانوا يتزاحمون عليها، وهى ترفضهم، رغبة منها فى أن تتم تعليمها.. ولكن الخطاب لم يتزاحموا عليها.. لقد جاء خطاب كثيرون لليلى.. ونبيلة.. أما هى، فلم يفكر فى خطبتها إلا الأستاذ أمين عبدالسيد.. لماذا؟ لأنها أقل من أختيها جمالا.. لأنها أقلهما رقة ونعومة واهتماماً بأنوثتها.

ودارت فى رأسها خواطر كثيرة، لم تمر بها من قبل.. خواطر مندفعة مجنونة.. كانت تتصور نفسها وقد انطلقت تشجع الشبان على مغازلتها.. وتختار من بينهم واحدا.. فإن لم يعجبها اختارت شابا ثانيا.. وثالثا.. إلى أن تجد الشاب الذى تحبه، ويحبها.

ماذا يهمها؟

سمعتها !!

إن سمعة البنت لا تهم أحدا.. إن أختها ليلى كانت تحب رجلا وتخرج معه، وتهرب إليه، ورغم ذلك فلم ينقطع سيل الخطاب عنها.. ونبيلة.. وكل البنات.. كل بنت عرفت فى حياتها أكثر من شاب، ثم وجدت شابا تتزوجه.. ويبدو أن سمعة البنت ليست إلا ضجة تقام فى مجتمع محدود لا يسمعها الناس الذى يعيشون فى مجتمعات أخرى.. إن سمعة الفتاة قد تكون سيئة

داخل الجامعة، ولكن خارج الجامعة ليس لها سمعة على الاطلاق.. ولا يشينها شيء على الاطلاق.. والذى يتقدم إليها من خارج الجامعة، يتقدم وهو لا يعلم شيئا.. ويظل لا يعلم شيئا طول حياته.. كأن الزواج حاجز طبيعى يصد كلام الناس عن اذن الزوج.

ماذا يهمها اذن ؟!

الأخلاق !!

إن الأخلاق هى حجة العاجز.. إن الذى لا يسرق، ليس إنسانا يعجز عن السرقة.. وكذلك البنت التى لا تعرف شابا.. ليست فتاة كريمة الخلق، ولكنها فتاة عاجزة عن أن تعرف شابا.. ربما لأنها جبانة. ربما لأنها معقدة.. وهى تحس فى قرارة نفسها أن الأخلاق ليست هى التى تمنعها من معرفة الشبان.. ولكنها قيود تنطلق من نفسها.. قيود أقوى منها.. قيود تجعلها ساخطة دائما.. نافرة دائما.. وهى تريد أن تحطم هذه القيود.. تريد أن تتحرر.. أن تنطلق.. أن تصنع لنفسها دنيا مرحة.. مثيرة مليئة بالحياة.

وليسقط العلم.

لا تريد أن تتعلم.. لا تريد أن تنجح.. تريد أن تسقط فى الامتحان لأول مرة.. إن البنات اللاتى يسقطن فى الامتحان هن غالبا أسعد البنات فى حياتهن الخاصة.. وقد ظنت أنها تستطيع أن تتفوق على البنات بالعلم، ولكنها فى الواقع لم تتفوق إلا على الشبان.. لقد أصبحت مثلهم.. تذاكر، وتنجح وتتحدث عن مستقبلها العلمى.. ولو أرادت أن تتفوق على البنات فعلا، لكان يجب أن تتفوق بأنوثتها.. برقتها.. بعدد الشبان الذين يلاحقونها.

كانت هذه الخواطر تعصف بها، وتؤرقها، وتشد أعصابها وهى تحاول أن تبتسم لأختها ليلى، وأن تشارك فى الضجة التى تقام لخطبتها.

وكانت تعلم أنها لن تنقاد إلى هذه الخواطر.

إنها أقوى من الجنون.

أقوى من الانحلال.

وهذه الخواطر تنحسر من رأسها لتجد نفسها تفكر فى الاستاذ أمين

عبدالسيد.. إنه الشخص الوحيد فى حياتها الذى أحبها.. وأرادها.. وسلك إليها طريقا واضحا صريحا شريفا.. فأراد أن يتزوجها.

لماذا لا تتقبل حبه.. لماذا لا تقبل الزواج به؟لأنها لا تحبه.. ولكن أختها ليلى لا تحب خطيبها.. والحب ليس شرطا للزواج.. قد يأتى الحب بعد الزواج.. وحتى إن لم يأت فربما كان يكفى فى الزواج، مجرد الزواج.،. ولكنه ليس وسيما.. إن البنات لن يحسدنها عليه.. ولكنه معيد فى الجامعة.. ومرشح لبعثة فى أمريكا.. وينتظرها مستقبل كبير.. وهذا يكفى ليحسدها البنات عليه.. ولكنها صدته.. وقطعت آماله فيها.. ولكن الحب لا يزال فى عينيه.. إنه لا يزال فى انتظار أشارة منها ليتقدم إليها من جديد.. اشارة واحدة.. وقد حاولت من قبل أن تجعله يعاود ملاحقتها ولكنها لم تكن مخلصة فى محاولاتها.. كانت فقط تريد أن ترضى غرورها.. وستحاول من جديد.. ستحاول بإخلاص.. وستتزوجه.. ولن تكون أقل من أختها ليلى.. ربما تزوجت قبل أختها ليلى.. فهى الأخت الكبرى !

ووقفت فى الصباح أمام مرآتها تستعد للذهاب إلى الجامعة، واختارت أجمل ثياب الصباح.. ثوب من الصوف الأبيض، يرسم قوامها المتسق فى دقة، دون أن يفضحه.. إن قوامها أجمل من وجهها.. إنها تعلم ذلك.

وأهتمت أكثر من كل يوم بتصفيف شعرها الذى يميل إلى الخشونة.. ودخلت الحمام وهى تخفى فى يدها ملقاط الحواجب وأقفلت الباب عليها، وأخذت تساوى بالملقاط حاجبيها خفية عن أختيها.. ثم عادت إلى حجرتها، وأمسكت أصبع «الروج» وبدت تصبغ شفتيها بيد مرتعشة.

ونظرت إليها ليلى ونبيلة فى دهشة، ثم قالت نبيلة فى مرح :

– ايه ده كله.. انتى رايحة الجامعة ولا رايحة حفلة..

وقالت فيفى وبين شفتيها ابتسامة خجلة، وهى لا تزال تنظر إلى المرآة:

– أصلى خسرت من ساعة ما حطيت الروج يوم خطوبة ليلى.

ثم التفتت إلى نبيلة واستطردت فى عتاب :

– اشمعنى انتى بتحطى روج وانتى رايحة الكلية.. يعنى هما أقل منك.

وقالت نبيلة ضاحكة :

- لأ.. أنا كنت فاكراكى أحسن منى.

وعادت فيفى تنظر إلى المرآة، ثم قالت فى حدة :

- بلاش.. أحسن.

ثم بدأت تمسح الروج من فوق شفتيها بمنديلها.

وقالت ليلى فى حنان:

- ليه يا فيفى.. ده بيبقى حلو عليكى قوى.

وقالت فيفى وهى تحاول أن تخفى خجلها بحدتها :

- لأ.. مش عايزة أبقى حلوة.

وأتمت ارتداء ثيابها.. وخرجت دون أن تنتظر أختها نبيلة ليذهبا إلى الجامعة سويا كعادتها.. كأنها ذاهبة إلى مهمة يجب أن تقوم بها وحدها.. وظلت طول الطريق تضع الخطة التى ستستعيد بها الاستاذ أمين عبدالسيد، وتزن كل كلمة يمكن أن تقولها له.. كانت فتاة أخرى غير الفتاة التى تذهب إلى الجامعة كل يوم، ورأسها مشغول بعلم الحشرات والمعادلات الكيميائية.

ولم تلاحظ أنها وهى منساقة وراء تفكيرها الجديد، قد تغيرت مشيتها.. أصبحت خطواتها سريعة ضيقة كأنها تحاول أن تلحق بأفكارها.. خطوات يهتز لها جسدها كله فتبدو أكثر أنوثة.. وسقط تعبير السخط من بين شفتيها، وحل محله تعبير ساهم كأن شفتيها تحلمان معها.. ونظراتها لا تزال محتدة، ولكنه أحتداد من لون آخر.. إنه احتداد تحاول أن تخفى به خفرها من أفكارها، أكثر منه احتدادا يعبر عن نقمتها على الحياة وعلى الناس.

ووصلت إلى الجامعة.

وسارت فى الفناء الواسع فى طريقها إلى كلية العلوم.. وفجأة رفعت رأسها، وانتفضت أعصابها، وارتعشت رموشها فوق عينيها.

لقد رأت أمين عبدالسيد واقفا يحادث فتاة بجوار مبنى كلية الحقوق.

هل وجد أمين فتاة غيرها؟

حتى أمين يستطيع أن يجد فتاة غيرها!!

وسقطت كل أحلامها مرة واحدة من رأسها ومن قلبها.. وتراخت

خطواتها.. وامتلأ صدرها بإحساسها بكرامتها.. كرامتها الجريحة.. وامتلأ فمها بتعابير السخط والقرف.

لقد سبق أن رأت هذه الفتاة.. ولكنها لا تعرفها.. كل ما تعرفه عنها أنها طالبة فى كلية الحقوق.. هل كان أمين عبدالسيد يلاحقها كما يلاحق أى فتاة؟ وهل هو مستعد أن يتزوج أى فتاة.. بلا تمييز.. بلا حب.. بلا شىء يرضى غرورها؟

وأطلقت على الفتاة لمحة من عينيها.. لمحة قاسية.. إنها جميلة.. لا بأس بها.. وهى صغيرة.. أصغر منها.. والله عال.. حتى أمين عبدالسيد بشكله المنفر، وأنفاسه الكريهة، يستطيع أن يجد فتاة جميلة وصغيرة.

ودخلت إلى قاعة المحاضرات، وجلست فى مقعدها.. وبدأ الاستاذ يلقى محاضرته.. وهى لا تسمع شيئا.. لا تسمع إلا حديثا صاخبا يدور بينها وبين نفسها.. إنها لن تحادثه.. تحادث أمين.. ولن ترضى بحبه.. ولن تتزوجه.. ستبحث لنفسها عن شاب آخر.. إن كل عيبها أنها لم تحاول أن تبحث لنفسها عن شاب.. ربما كان يكفى أن يمتلىء صدر الفتاة برغبتها فى الحب، فتقفز هذه الرغبة إلى وجهها، وإلى عينيها بحيث يستطيع أن يقرأها كل الشبان، فيتزاحموا عليها..

وانتهت المحاضرة.

وخرجت واجمة.. وأخذت تنتقل طوال اليوم بين قاعة المحاضرات، وحجرات الدراسة.. وهى لا تزال تحادث نفسها.. وحديثها يختلف بين كل لحظة وأخرى.. فى كل لحظة منطق جديد، وقرار جديد.. لماذا تتنازل عن أمين عبدالسيد بهذه السرعة؟ ربما لم تكن هناك علاقة بينه وبين هذه الفتاة الأخرى.. وحتى لو كانت هناك علاقة، فلماذا لا تحاول أن تقطعها.. لماذا لا تدخل معركة تجرب فيها أنوثتها وذكاءها؟ ولكنها لا تحب أمين حتى تفعل من أجله كل ذلك.. ولو.. حتى لو لم تكن تحبه، فهو شىء تملكه، ولن تتنازل عنه لاخرى.

وكان عليها أن تذهب إلى معمل قسم الحشرات الذى يشرف عليه الأستاذ أمين عبدالسيد.. وجلست إلى مائدة المعمل، ووضعت عينها فوق عدسة الميكرسكوب، وهى لا ترى فيها شيئا.. لا ترى سوى القلق الذى

يملأ صدرها.. وبين كل فترة وأخرى ترفع عينيها وتتبع أمين وهو يطوف بالطلبة مرتديا معطفه الأبيض، ويقرب وجهه من وجوههم، بحكم عادته، ويطل عليهم بعينيه الجاحظتين من خلف زجاج نظارته السميكة.

وبدأ أمين يقترب منها.

وتشاغلت عنه بالنظر فى الميكرسكوب.. إلى أن أحست به واقفا بجانبها وسمعت صوته يقول لها :

- ازاى الحال يا آنسة فيفى.

ورفعت رأسها مرة واحدة حتى كاد وجهها يصطدم بوجهه وقالت بسرعة كأن كلامها ينطلق رغما منها :

- أقدر أشوفك فى المكتب بعد ما أخلص.

واتسعت عينا أمين دهشة، ورفع يده يعدل ذراع نظارته فوق اذنه، وقال وهو يقرب وجهه من وجهها :

- أيوه.. اتفضلى.

وقالت وهى تبتعد برأسها عنه حتى تهرب من أنفاسه :

- أصل المذكرات بتاعتى ناقصة.

وقال أمين :

- أنا تحت أمرك.

ثم ابتعد عنها.. وعادت تنظر فى الميكرسكوب.

وانتهى درس المعمل.

وخرجت إلى فناء الكلية، تحاول أن تقطع بعض الوقت.. دخلت إلى البوفيه وشربت زجاجة كازوزة.. ثم وقفت تحادث بعض زميلاتها.. حديثا مائعا لا طعم له.. ثم شدت نفسا عميقا من صدرها.. واتجهت إلى داخل مبنى الكلية.. ثم إلى مكتب الأستاذ أمين عبدالسيد.. ونقرت على الباب فى رقة.. وسمعت صوته الغليظ يصيح من الداخل :

- أدخل.

ودخلت وعلى شفتيها ابتسامة لا تدرى سببها، ربما كان من الأفضل ألا تبتسم.. ورغم ذلك ظلت محتفظة بابتسامتها.

وقام أمين واقفا وخرج من وراء مكتبه، وهو يمد لها يده، وقال وهو يقرب وجهه من وجهها :

- أهلا وسهلا.. اتفضلى.
وصافحها.. وأحست كأنه يضغط على يدها.. ضغطة خفيفة.. خفيفة جدا..ربما كانت ضغطة تصورتها بخيالها.
وجلست على المقعد بجوار المكتب، وابتسامتها لا تزال بين شفتيها.
وعاد أمين إلى مقعده، وقال :
- تعرفى يا آنسة فيفى أن دى أول مرة تدخلى مكتبى وانتى بتبتسمى.. دايما كنتى تدخلى مبوزة.
وقالت وهى تحس بالحرج كأنها ندمت على ابتسامتها :
- أصل الحقيقة أنا باطلب منك طلبات كتير.. وخايفة أنى أكون باضايقك.
قال فى حماس :
- إنتىَ عمرك ماضايقتينى.
قالت وهى ترخى جفنيها فوق عينيها.:
- متهيألى أنك زعلان منى.
قال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة، كأن رقتها أحيت كل آماله :
- أنا عمرى ما أزعل منك.. ماأقدرش.. حتى فى المرات اللى اختلفنا فيها، كنت بازعل من نفسى، مش منك.
ورفعت إليه عينيها، وقد ضاقت ابتسامتها، كأنها تتهمه بالنفاق.. ثم عادت وأرخت نظرتها، وقالت :
- أصل المذكرات بتاعتى كلها ناقصة.. جيت أراجعها إمبارح مافهمتش منها حاجة.. قلت يمكن تقدر تساعدنى على أنى أكملها.
وفتح درج مكتبه، وأخرج منها مجموعة من الكراسات، وقال وهو يقدمها لها :
- اتفضلى.. دى المذكرات بتاعتى.. كاتبها بخطى، وراسمها بايدى.. لو ذاكرتيها كويس حتطلعى الأولى، زى أنا ما كنت باطلع الأول.
وتناولت الكراسات من يده، قائلة :
- مرسيه.. بس دول عايزين شهر على بال ما أنقلهم.
قال :

- على مهلك.

ومرت بينهما فترة صمت طويلة.. تظاهرت خلالها بأنها تهم بالقيام، ثم قالت وهى لا تزال جالسة فى مقعدها :

- يا ترى موضوع البعثة بتاعتك خلص.

قال وقد بدأ وجهه كله يلمع بالفرحة :

- تقريبا.. و..

ولم يتم.. وعرفت لماذا لم يتم كلامه؟ لقد سبق أن طلبت منه ألا يحدثها عن موضوع بعثته، وألا يشركها فى أماله ومستقبله..

وقالت كأنها تحله من وعده، وقد بدأت الدماء تندفع إلى وجنتيها كأنها تكلف نفسها حرجا لا تطيقه :

- وحاتسافر لوحدك.

وانحنى فوق مكتبه، ونظر إليها بعينيه الجاحظتين خلف نظارته السميكة، ثم قال وهو يعدل ذراع نظارته فوق أذنه :

- ده يتوقف عليكى.

قالت وهى تفتعل ضحكة خافتة :

-علىّ أنا بس ؟!

قال وقد ارتفعت على وجهه سحابة من الغباء :

- مش فاهم.

قالت وهى لا تنظر إليه :

- على كل حال دى حاجة ما تهمنيش.. إنما أنا كنت دايما . فاكراك حاجة تانية غير بقية الشبان.

قال وقد اشتد غباؤه :

- أنا مش فاهم يا فيفى.. قصدك ايه.

قالت وهى تتعمد أن تضع فى لهجتها رنة من التهكم والسخرية :

- إنما ذوقك كويس.. أهنيك !

وقال أمين وقد بدأ يفقد أعصابه فى بحر غبائه :

- فيفى.. أرجوكى تكلمينى بصراحة.. عايزة تقولى ايه ؟

قالت :

- أبدا.. المسألة مش محتاجة لصراحة.. وعلى كل حال دى مسألة ماتهمنيش.. إنما يظهر أن بعض الطلبة شافوك بتكلم بنت فى كلية الحقوق.. حبيت أقول لك علشان تحاسب على سمعتك.

وانزاحت سحابة الغباء من على وجهه، وقال وهو يضحك ضحكة كبيرة:

- دى بنت أختى.. طول عمرها عايشة فى الزقازيق.. جت السنة دى بعد ما أخذت التوجيهية.. ودخلت كلية الحقوق وقاعدة مع عمتها.

ونظرت إليه فيفى وعيناها ممتلئتان بالشك وقالت وقد ضاعت ابتسامتها من فوق شفتيها :

- طيب والطلبة حايعرفوا منين إنها بنت أختك.

قال فى خبث كأنه اكتشف سر اهتمام فيفى :

- أقول لك.. أنا أعرفك بيها.. وانتى تعرفيها بالطلبة.

قالت وهى تهز كتفيها :

- أنا ماليش دعوة.

قال فى تودد :

- انتى مش بتقولى إنى خدمتك كتير.. يبقى من حقى أطلب منك إنك تعملى لى الخدمة دى.

وسكتت.

واستطرد وهو ينظر إليها، وقد بدأ لسانه يتعثر فى تردده.. وشىء كالعرق بدأ يلمع فوق جبهته وحول حافة نظارته :

- تحبى أعرفك بيها إمتى ؟

قالت فى صوت خافت

- زى ما أنت عايز.

قال :

- النهاردة الساعة خامسة.

قالت :

- مافيش مانع.

قال وضربات قلبه تقفز إلى لسانه :

- فين ؟
قالت :
- تتفضل عندى فى البيت.
قال كأنه يستعين بكل جرأته :
- لأ.. بلاش البيت دلوقت.. نتقابل برة أحسن.. والتفتت إليه فى حدة، وقالت كأنها أهينت :
- أنا متعودتش أقابل حد برة.. أنا عمرى ما قابلت حد برة.. أنا.. أنا..
وسكتت مرة واحدة كأنها تنبهت إلى أنها احتدت أكثر من اللازم، احتدادا قد يفسد خطتها.
وسكت أمين فترة، ثم قال وهو يتنهد :
- فيه كلام كتير لازم أقوله لك يا فيفى.. كلام نقوله لبعض.. مش حانخسر حاجة لما نقوله.. إنما ما أقدرش أقوله لك هنا.
قالت وهى تعجز عن السيطرة على صوتها :
- ليه ؟
قال وهو يستعين بالصبر :
- لأن ده مكتب شغل.. مكتب حشرات.. وعلم.. ومذكرات والكلام اللى عايز أقوله كلام خاص.. كلام ميهمش إلا اثنين.. أنا وانتى.
وسمعت رنة الاخلاص فى صوته..رنة كرنة الحب.. هل يمكن أن يكون أمين بوجهه المنفر، رقيقا إلى هذا الحد..
وقالت فى صوت خافت كأنها تحادث نفسها :
- إنت بتطلب منى إنى أقابلك برة.
قال فى هدوء :
- أيوه.
قالت فى احتداد خافت :
- ما أقدرش.
وشجعه صوتها الخافت.. فقام من وراء مكتبه، ووقف قبالتها، وقال فى صوت يحشرجه انفعاله :
- كل الناس بيتقابلوا يا فيفى.. اشمعنى احنا.. حانفضل تايهين عن

بعض لغاية إمتى.. ولغاية إمتى حانفضل نهرب من بعض.. أنا من حقى عليكى أنى أطلب منك تسمعى كلامى.. وإنتى من حقك تقبلى أو ترفضى.. إنما لازم تسمعى كلامى، بقالى سنة مش عارف أكلمك كلمتين على بعض.

قالت وهى ساهمة :

– إنما أنا ما أتعودتش أقابل حد.

قال :

– أنا عارف.. ولو كنتى متعودة على المقابلات، ماكنتش طلبت أقابلك.

وهبت واقفة فجأة وقالت بسرعة، كأنها اتخذت قرارا تخشى أن تعدل عنه :

– فين ؟

قال وقد اشرق وجهه بابتسامة كبيرة :

– تحبى نتقابل فى كازينو قصر النيل.

قالت :

– فين ده.

قال :

– اللى جنب الكوبرى على طول.

قالت :

– لأ.. ده بعيد علىّ.

قال فى ارتباك، كأنه لا يعرف فى القاهرة إلا هذا المكان :

– طيب كازينو الحمام.. اللى عند كوبرى عباس..

قالت :

– طيب.

ثم اندفعت نحو الباب دون أن تصافحه.. وخطا وراءها بسرعة وأنفاسه مبهورة، وقال كأنه يستوقفها ؟

– مااتفقناش، الساعة كام ؟

قالت دون أن تبتسم، وهى تلتفت إليه لفتة سريعة، ووجهها متجهم :

– قلنا الساعة خمسة.

قال فى استسلام كأنه يخشى لو نطق بكلمة أن تعدل عن رأيها :

- حاضر.

وفتحت الباب.. وانطلقت دون أن تحييه.. وظل يرقبها من مكانه، ووجهه محتقن، وأنفاسه مبهورة، ورموش عينيه ترتعش خلف زجاج نظارته.. ثم أغلق الباب فى هدوء.. وعاد إلى مكتبه فى خطوات بطيئة كأنه يخشى إن أسرع أن تسقط منه فرحته.. أن يسقط حلمه.. ورأى على المكتب كراسات المذكرات.. وابتسم.. إن فيفى نسيتها.. وحملها فى يده وهم أن يلحق بها ليعطيها لها.. ولكنه عاد وعدل وهو يبتسم ابتسامة كبيرة.. إنها لم تكن تريد هذه المذكرات.

●●●

وخرجت فيفى من الجامعة دون أن تمر على كلية الآداب لتصحب أختها نبيلة فى عودتها إلى البيت.. إنها تريد أن تكون وحيدة.. وحيدة مع أفكارها المشتتة.. مع أحاسيسها الممزقة.. إنها مقبلة على حدث كبير فى حياتها.. مقبلة على أول لقاء لها مع رجل.. أول لقاء.. وأول رجل.. ورغم ذلك فهى ليست فرحة.. وقلبها مقبوض.. وصدرها مقبوض.. وأعصابها مقبوضة.. إنها تحس أنها على موعد مع جراح ليجرى لها عملية المصران الأعور.

إن أول رجل فى حياتها، رجل لا تحبه.

وهى تحاول أن تضع هذه الحقيقة فى ذهنها، وأمام عينيها حتى تعرف طريقها على ضوئها.. ولكن الحقيقة تفر من ذهنها وسط أفكارها المرتبكة، وتهرب من أمام عينيها وسط غيوم أحاسيسها.. وتعود تصر على أن يكون لها رجل.. أى رجل.. وأن يتقدم لخطبتها.. حتى لا تكون أقل من أختها الصغرى.. حتى لا تتحمل كل هذا الاحساس بالنقص.

ودخلت البيت وهى تائهة، تخوض فى موج من أحاسيسها.. ولم تبحث عن أمها كعادتها، ودخلت إلى حجرتها مباشرة.. ووجدت أختها ليلى واقفة أمام دولابها تعلق ثوبا.. فلم تحيها.. والتفتت إليها ليلى قائلة :

- فين نبيلة وأمال ؟

وقالت فيفى فى صوت ضائع النبرات :

- ما أعرفش.

وعادت ليلى تطل داخل الدولاب، وهى تقول كأنها تحادث نفسها :

– أنا خلاص.. حاتجنن.. دى ما كانتش خطوبة.. كل ساعة تليفون.. وكل يوم غدا.. وعشا.. زى ما يكون اشترانى.. حاجة تطهق.

ورن كلامها فى رأس فيفى، كأنه دق المسامير، فالتفتت إليها قائلة فى حدة والسخط يملأ شفتيها :

– والنبى اسكتى.. بلاش دلع !

وقالت ليلى كأنها لم تكن تنتظر من أختها غير هذه الحدة :

ربنا ما يحكم عليكى بخطوبة زى خطوبتى.

وقالت فيفى وهى أشد احتدادا :

– أصلك ماتستهليش.. ما تتبطريش على النعمة.

ثم ألقت كتبها فوق السرير، وخرجت من الغرفة، وجلست مع أمها وأخوتها دون أن تسمع حديثهم.. ودون يلاحظوا صمتها.. ربما لأنهم يفضلون صمتها على تعليقاتها الساخطة.

إنها لن تذهب إلى الموعد.. لماذا تسير فى طريق، لا تريد أن تسير فيه؟ لا.. ستذهب.. يجب أن تختبر هذا الطريق.. يجب أن تكون كبقية البنات.

وهى حائرة.

وتمنت فى حيرتها لو وجدت رأيا بجانب رأيها.. لو وجدت قلبا يحيطها بحنانه، ويخرجها من ارتباكها.. تمنت لو سألت أختها نبيلة.. أو أمها.. أو ليلى.. ولكنها لا تستطيع.. لقد تمردت طول عمرها على حنانهن.. كانت دائما تتظاهر بأنها أقوى منهن، وأقوى من حنانهن، وليست فى حاجة إلى رأيهن.. ولن تستطيع الآن أن تبدو ضعيفة أمامهن.

يجب أن تحمل سرها وحيرتها وحدها.

لقد أصبح لها سر وحيرة.. كبقية البنات.. كل بنت لها سر، ولها حيرة.. فلماذا لا يكون لها هى أيضا سر وحيرة؟

ولكنها لا تستطيع أن تتباهى بسرها لا تستطيع أن تتباهى بأمين عبدالسيد.. حتى بينها وبين نفسها.

ودفعتها حيرتها وارتباكها إلى أن تقف أمام مرآتها فى الساعة الرابعة والنصف لتستعد لموعدها.

حاولت أن تختار أجمل ثيابها، ولكنها كانت تعرف أن الثوب الذى اختارته ليس أجملها.

حاولت أن تعتنى بزينتها، ولكنها لم تعتن بها، كانت أكثر اهمالا فى زينتها من كل يوم..

إنها تحس بنوع من التمرد.. التمرد على نفسها.. كأن ليس من كرامتها، ولا مقامها، أن تتزين لرجل.

وذهبت إلى أمها وقالت لها فى لهجة باترة لا تحتمل المناقضة :

- أنا رايحة الجامعة.

ونظرت إليها أمها وقالت فى هدوء :

- ومالك زعلانة كدة ليه ؟

وقالت فى نفس اللهجة الباترة :

- مش زعلانة.

ثم انسحبت من أمام أمها دون أن تحييها، وخرجت من البيت وهى أكثر ثورة على نفسها.. لماذا كذبت؟ إن أمها لم تكن لتسألها عن سبب خروجها، فهى تثق فيها.. إنهم يتركونها تدخل وتخرج دون أن يسألوها، كأى رجل.. كأنها أحمد أو ممدوح.. فلماذا كذبت؟

وسارت فى الشارع فى خطوات واسعة قوية.. ونظراتها محتدة، وشفتاها مزمومتان، كأنها ذاهبة إلى خناقة.

وعبرت كوبرى عباس، وانحرفت فى الشارع المحاذى لشاطىء النيل، ووقفت مترددة أمام كازينو الحمام. ثم شدت نفساً عميقا من صدرها.. ونزلت السلم المؤدى إلى الحديقة الواسعة التى تنتشر فيها الموائد.. ثم وقفت تدير عينيها فى الناس وهى لا تراهم.. وأحست أن عشرات العيون ملتفة حولها.. وأن كل الناس يعرفون سرها، حتى الجرسونات.. يعرفون أنها جاءت لتقابل رجلا وأحست أنها قد أهانت كرامتها بمجيئها.. وهمت أن تعود.. ولكنها وجدت أمين أمامها.. يمد يده إليها، ويبتسم ابتسامة كبيرة.. كبيرة جدا.. حتى خيل إليها أن نظارته بين شفتيه.

وقال أمين وفمه لا يزال مفتوحا حتى يسع ابتسامته :

- اتفضلى.. أهلا وسهلا.. تحبى تقعدى على البحر ولا جوه.

وقالت فى فتور :

- زى ما يعجبك.

قال وهو يخطو بها :
– أظن نقعد على البحر أحسن.. الجو جميل..
وجلسا حول مائدة مطلة على النيل، وهما صامتان، ورفع أمين ذراعيه وصفق بيديه مناديا الجرسون، وابتسامته الكبيرة تملأ وجهه.. ثم قال :
– تحبى تاخدى ايه ؟
قالت وقد القت بنظرتها فى الماء :
– ولا حاجة.
وقال أمين بحماس كأنه يدافع عن خطة وضعها :
ولا حاجة ازاى.. مش ممكن.. ده احنا لازم نعمل حفلة.. ده أسعد يوم فى حياتى.
قالت فى برود :
– شاى.
والتفت إلى الجرسون قائلا فى مباهاة :
– اتنين شاى.
ثم التفت إليها واستطرد :
– وتاخدى ايه مع الشاى.
– ولا حاجة.
قال :
– مستحيل.. لازم تاخدى حاجة.. جاتوه.. كيك..
ونظرت إليه فى قرف، وقالت :
– ولا حاجة.. أنا مش جاية علشان آكل.
وبلع أمين ريقه كأنه يبتلع حدتها، وقال للجرسون :
– وهات لنا شوية جاتوه، وكيك، وحلويات.
وانصرف الجرسون.
وأخذ أمين ينظر إليها بكل عينيه الجاحظتين، وقد هدأت ابتسامته.. ولكن فرحته لم تهدأ.. إنها تملأ وجهه وتغيم على زجاج نظارته.. وربما لم تكن كل فرحته سببها فيفى.. إنه فرح لأنها يجلس فى كازينو الحمام مع فتاة.. فتاة من عائلة.. وليست أى فتاة.. وفرح لأنه يستطيع أن يطلب الشاى لاثنين.. ويطلب جاتوه وكيك وحلويات.

وظل صامتا مكتفيا بفرحته.

وقالت فيفى وهى لا تزال تنظر فى الماء :

- كنت عايز تقول لى ايه.

قال :

- مش لما نقعد شوية.

قالت :

- لأ.. أنا مش حاأقدر أتأخر.

ونظر إليها أمين مليًا.. ثم اعتدل فى جلسته، ومد عنقه من ياقة قميصه، وتنحنح ثم قال كأنه يلقى خطابا طويلا سبق أن أعده :

- شوفى يا فيفى.. النهاردة أعتبره أسعد يوم فى حياتى.. ده اليوم اللى كنت بانتظره علشان أحقق أعز حلم من أحلامى اتحققت والحمد لله.. مش فاضل إلا الحلم ده.. من يوم ما كنت فى المدرسة الثانوية، وأنا عارف أنى حاخد التوجيهية بدرجة ممتاز.. وإنى حادخل كلية العلوم.. وإنى حاكون أول دفعتى.. وإنى حاتعين معيد فى الكلية.. وحاسافر فى بعثة.. كل ده اتحقق بفضل الله.. مش ناقصنى إلا حلمى الأخير.. وهو إنى ألاقى الفتاة اللى اتجوزها.

والتفتت إليه فيفى لفتة سريعة، ثم عادت تنظر إلى الماء.

واستطرد أمين قائلا ووجهه محتقن وكلماته ترتفع وتنخفض مع أنفاسه.

- أنا من يوم ماشفتك عرفت إنك انتى الوحيدة اللى عايز اتجوزها.. وفضلت مهتم بيكى سنة بحالها من غير ما تحسى.. وعرفت عنك كل حاجة.. عرفت إنك ما بتحبنيش، وعرفت إنك مابتحبيش حد تانى.

وقالت فيفى دون أن تنظر إليه :

- قصدك ايه.. يعنى كنت حاططنى تحت الاختبار.

قال :

- أنا سبق قلت لك إن الحياة زى الكيميا كلها اختبارات.. إنما الاختبار ده.. ماحدش حايحدد نتيجته إلا إنتى.. وعايزة أعرف رأيك.. ايه رأيك؟

وقالت فيفى دون أن تفرح :

- إذا كنت بتتكلم عن الجواز، أحب أقول إنى مش ناوية اتجوز.. انا حاخلص واشتغل.

قال وهو يبتسم كأنه كان ينتظر منها هذا الكلام :

- ما انتى حتخلصى وتشتغلى برضة.. تنجحى السنة دى وتسافر السنة الجاية أمريكا، وندخل الجامعة هناك، وتفضلى لغاية ما تبقى دكتورة، وأنا أكون بقيت دكتور كمان.

وسكتت فيفى وهى تائهة فى أفكارها لا تدرى ماذا تريد؟ وعاد أمين يقول كأنه يساعدها :

- تسمحى لى أروح أقابل أبوكى، ولا خالك.

ولم ترد فيفى، ظلت ساهمة.

وجاء الجرسون، ووضع امامهما معدات الشاى، وقطع الجاتوه والكيك.. وانشغل أمين بصب الشاى فى فنجانها وفنجانه.. ثم رفع الفنجان إلى شفتيه ورشف رشفة بصوت عال، انتفضت لها فيفى، ونظرت إليه نظرة كلها احتقار.. وقرف.

ولم يلتفت إليها أمين، كان منصرفا بكل اهتمامه إلى رشف الشاى.. بصوت عال مزعج.. ثم أقبل على قطع الجاتوه. ورفع احداها بالشوكة وقربها من عينه كأنه يفحصها تحت زجاج نظارته السميكة.. ثم قدمها لفيفى قائلا :

- دى شيكولاتة.. تحبى الشيكولاتة وابتسمت فيفى ابتسامة ضيقة باردة.

ووضع قطعة الجاتوه فى طبقها.. ثم رفع قطعة أخرى وقربها من عينه، ثم وضعها فى طبقه وأخذ يلتهمها فى فرح.. فى اقبال.. فى شهية.. كأنه عثر على أمنية كان يحلم بها.

وفيفى ممسكة بفنجان الشاى ترشف منه رشفات صغيرة بطيئة، وتنظر إليه من تحت جفنيها.. فى قرف.

ورفع أمين فنجانه ورشف رشفة بصوت عال.. مزعج.. منفر.

ولم تحتمل فيفى مزيدا من هذا الصوت، فوضعت فنجانها على المائدة، وقفزت واقفة، قائلة :

- أنا لازم أروح دلوقت.

ونظر إليها أمين فى دهشة، وهو لا يزال جالسا، كأن الدهشة أذهلته :

- ده انتى لسة ما كلتيش الجاتوه.

قالت :

- مرسيه.. ما أقدرش.

قال وهو ليس مذهولا :

- مايصحش.. ده خلاص اتحسب علينا.

قالت فى حزم :

- ما أقدرش.. لازم أروح.. أنا اتأخرت !

وهب واقفا وقال :

- ماقلتليش رأيك.. أقدر أقابل أخوكى.

قالت وهى تمد يدها إليه، وبين شفتيها ابتسامة صغيرة :

- اضرب له تليفون.. وحدد معاه ميعاد.

وانطلقت الفرحة فى وجهه وقال وهو يصافحها :

- أنا أسعد راجل فى الدنيا.. استنى لما آجى أوصلك.

قالت وهى تسحب يدها من يده :

- لأ.. خليك أنت.. مايصحش تخرج معايا.

وتركته، وهو واقف ينظر خلفه. وابتسامة بلهاء تملأ وجهه.

وسارت عائدة إلى بيتها.

إنها لا تستطيع أن تفكر.

لا تستطيع أن تحس.

فى رأسها شىء كالصداع.. وقلبها يدق بلا صوت، كجرس مخلوع اللسان.

ووصلت إلى البيت، ودخلت توا إلى أمها، ووقفت أمامها تقول كأنها تلقى إليه ببلاغ عسكرى.

- قولى لآبيه أحمد إن فيه واحد اسمه الأستاذ أمين عبدالسيد حاييجى يقابله.

وقالت الأم وهى تنظر إليها فى حنان تشوبه شفقة :

- حيقابله ليه.
قالت فى سرعة :
- علشان يخطبنى.. والأحسن يكون خالى موجود.
وقالت الأم :
- وانتى موافقة.
قالت فيفى وهى منتصبة :
- أيوه.
قالت الأم :
- مش ده اللى رفضتيه قبل كده.
قالت فيفى وهى لا تنظر إليها :
- أيوه.
قالت الأم فى عجب :
- وايه اللى حصل.. ايه اللى خلاكى غيرتى رأيك.
قالت :
- خلاص.. مادام مافيش إلا هو.. يبقى خلاص.
وقالت الأم فى جزع :
- حد يقول الكلام ده يا بنتى.. حد يتجوز بالطريقة دى.
ومين قالك إن مافيش إلا هو.. إنما الناس فاهمة انك مش حاتتجوزى إلا بعد ما تاخدى الدبلوم.
قالت فيفى فى حدة :
- أنا خلاص قبلته.. ده كويس، وله مستقبل.. كفاية إنه بيحبنى.. بيحبنى خالص.. بقى له سنة تاعب نفسه ورايا..
وجرت من أمام أمها.. ودخلت غرفتها.. واقفلت الباب وراءها.. والقت نفسها فوق السرير.
وبكت.

٢٢

خرج ممدوح فى الصباح، وقاد «الفسبا» وأخذ يرقص بها فى شوارع الجيزة، وعلى وجهه اشراقة كبيرة.. ثم سار فى شارع المدارس المؤدى إلى الجامعة، وهو يضغط على مفتاح البنزين إلى آخره، فيصدر صوتا كفرقعة البالونات.. ويضغط على الكلاكس باستمرار فيثير ضجة تملأ الشارع كله.. ثم ابتسم ابتسامة كبيرة عندما رأى أمامه زميلته أمينة وهى تسير فى ثوب منفوش فوق ثلاث جيبونات ، فتبدو من بعيد كالشمسية المقلوبة.

وقاد الفسبا نحوها بآخر سرعتها، ثم فرمل مرة واحدة عندما كادت العجلة الأمامية تلمس ثوبها،، وقفزت أمينة فوق الرصيف، صارخة، دون أن تلتفت إليه :

– ممدوح.. يا مجنون.. اصطبح عالصبح.. إنت عايز تموتنى !

ثم استدارت تنظر إليه وهو جالس فوق الفسبا، ووجهها تكسوه حمرة نصفها غضب، ونصفها فرحة.

وقال ممدوح وهو يبتسم لها وفى عينيه لمعة شبابه :

– إنتى مش بتقولى إنك بتحبينى موت.. حبيت أجرب حبك !

وقالت وهى تدق الأرض بقدمها :

– أنا ما باحبكش.. عمرى ما حبيتك.. ومش حاحبك. إنت ماتستاهلش حب.

وقال ممدوح وهو يمثل دور العاشق اليائس :

– اخص عليكى.. يخونك الجلاس اللى كلناه سوا.

وقالت أمينة وهى تهز كتفيها :

– أنت بتأكل جلاس مع كل واحدة.

وقال ممدوح وابتسامته ترقص فوق شفتيه :
- أبدا وحياتك.. انتى بس.. البنات التانية باكل معاهم ساندوتش فول.
قالت وهى لا تزال تفتعل الغضب :
- طيب تسمح تتهوى.. وتسيبنى فى حالى.
وقال ممدوح فى صوت جاد :
- أقدر أشوفك.
قالت وهى مستمرة فى افتعال الغضب :
- إمتى ؟
قال فى صوته الجاد :
- بعد سنتين
وصرخت كأنها أهينت :
- بايخ.. سخيف.. ابعد عنى.. ابعد عنى باقول لك.
قال دون أن يبتسم :
- افهمينى بس يا مونى.. أصلك مابترضيش تركبى الفسبا.. وبعد سنتين حاشترى عربية.. بعد سنتين حابقى مليونير.. مش حاشترى عربية وبس، إنما حاحط فى العربية عروسة.

وقالت أمينة فى غضب :
- أنا لا حاركب معاك عربية، ولا طيارة.. مش عايزة أشوفك.. سيبنى فى حالى أرجوك.

وابتسم ممدوح ابتسامة كبيرة، وفتح بنزين الفسبا على آخره، ثم انطلق بها وهو يقول :
- ماتنسيش.. بعد سنتين !

وابتسمت خلفه.. وعادت تسير كالشمسية المقلوبة، وهى لا تزال تتبعه بعينيها.. ورأته يقف بعيدا، ريثما يركب خلفه أحد زملائه، ثم ينطلق إلى الجامعة.

ونزل ممدوح من على الفسبا، وركنها تحت المظلة المخصصة للدراجات، ثم أقبل على زملائه وهو يسير بقامته الطويلة، وقد تعلق بنطلونه بأسفل خصره، فبدا كأنه بطل صغير من أبطال افلام رعاة البقر.

واستقبله زملاؤه مهللين، ثم قال عزوز ضاحكا :

- مشروعاتك ايه النهاردة يا ممدوح ؟
وقال ممدوح :
- مافيش.. خلاص، بطلت مشروعات.. مافيش إلا مشروع واحد فى دماغى، ماينفعكش.
- مشروع ايه؟
قال ممدوح :
- بكرة حاتعرفوه.
وقال خليل :
- إحنا بنفكر بعد ما نتخرج نعمل شركة محاماه.. ايه رأيك ؟
وقال ممدوح :
- أنا مش حاتخرج.
ونظر إليه زملاؤه فى دهشة، وقال فريد :
- مش حاتتخرج ازاى.. ده انت كل سنة بتنجح، وماشى زى القشاط.
وقال ممدوح :
- مش حاكمل.. حاخرج من الجامعة السنة دى، واشتغل والتفت الزملاء بعضهم لبعض، كأنهم يتساءلون عن سر المصيبة التى وقعت لزميلهم، والتى تمنعه من الاستمرار فى الدراسة، ثم قال عبده :
- بس خسارة يا ممدوح.
وقاطعه ممدوح :
- خسارة إنى أفضل فى الجامعة.
ودق جرس ابتداء المحاضرة وبدأوا يتفرقون، وقال فريد:
- مش داخل المحاضرة يا ممدوح.
وقال ممدوح ضاحكا :
- لا.. انت عارف انى ماليش فى المحاضرات.
وظل واقفا يرقب زملاءه وهم يختفون داخل بناء الكلية، كأنه يودعهم الوداع الأخير.. ثم ابتسم ابتسامة كبيرة، وسار بقامته الطويلة إلى حيث ترك الفسبا، وأدار الموتور، وجلس عليها، وانطلق بها، يرقص فى الشوارع إلى أن وصل إلى باب اللوق.. إلى ورشة الأسطى عفيفى.
ودخل الورشة الصغيرة وهو يصيح متهلل الوجه :

– صباح الخير يا أسطى عفيفى.
وقال عفيفى وهو يستقبله بابتسامة كبيرة :
– صباح النور يا سى ممدوح.. صباح الفل.
واختبأ ممدوح خلف سيارة داخل الورشة، وجذب بدلة زرقاء - عفريتة - معلقة فى مسمار مدقوق فى الحائط.. وبدأ يخلع سرواله وقميصه، ويرتدى البدلة الزرقاء.
وكان ممدوح خلال الشهور السابقة يتردد على ورشة الأسطى عفيفى بانتظام.. كل يوم.. يذهب فى الصباح، ثم يعود إلى منزله ليتناول غداءه، ثم يذهب إلى الورشة مرة ثانية ويبقى فيها حتى المساء وكان يعمل طوال الوقت بيديه، ويلتقط أسرار العمل من الأسطى عفيفى، ويتعرف على الزبائن ويكتسب ثقتهم.. وكان يحس أنه وجد عالمه.. وجد نفسه.. كان يقبل على العمل بشغف، وكل ما فيه نشط، ذهنه وعيناه، ويداه.. كان يحس أنه أصبح انسانا منتجا.. إنسان له قيمته.. وعندما تعلق بعمله الجديد كل هذا التعلق، اشترى بدلة زرقاء يرتديها لأول مرة قال له عفيفى ضاحكا :
– تعرف ياسى ممدوح.. برضه باين عليك من بتوع الجامعة.. البدلة ما بتغيرش الراجل.. الرك على الحشو.
ويومها قال ممدوح :
– ماتفكرنيش بالجامعة وحياة أبوك يا أسطى.. الجامعة مافيهاش إلا شوية عواطلية.
وقال عفيفى فى حماس :
– ماتقولش كده ياسى ممدوح.. ده العلم زينة.. ياريت أهلى كانوا قدروا يدخلونى الجامعة.
وقال ممدوح ضاحكا :
كان زمانك دلوقت موظف بعشرين جنيه.
وقال عفيفى :
– إنما برضة كان يبقى اسمى مثقف.. ليسانس.. يا حلاوة الليسانس.
وقد رحب الأسطى عفيفى باشتراك ممدوح معه فى العمل.. وعندما استمر فيه، حاول أن يخصص له أجرا.. ولم يكن عفيفى يستطيع أن يقدر أجراً لممدوح.. فهو لا يستطيع أن يعتبره عاملا كبقية العمال.. إنه لا يزال

يعتبره طالبا فى الجامعة، وابن عائلة كبيرة.. ولا يزال ينادية بـ «سى ممدوح» أو الأستاذ ممدوح.. وقد قال له يوما :

– والله أنا محتار ياسى ممدوح.. ونفسى أديلك حقك، بس مش عارف أقدرك.. متهيألى إن أى يومية مش ممكن تبقى قد المقام.

وقال ممدوح :

– ماتقولش كده يا أسطى.. أنا واخد حقى وزيادة.. كفاية انى باتعلم صنعة.. بدل ما أدور صايع فى الشوارع.

وقال الأسطى عفيفى :

– إنما برضه لازم يبقى لك نصيب.. ده إنت بتشتغل أوى.

وقد رفض ممدوح أن يتناول أجرا من الأسطى عفيفى.. وترك له الأسطى عفيفى الحرية فى أن يعمل كما يشاء.. وأن يقترح تنظيمات جديدة للورشة وينفذها.. وكان عفيفى يداخله أحيانا الشك فى ممدوح.. لماذا يتطوع بالعمل معه؟ ماذا يريد إذا لم يكن يريد أجرا؟ ربما يريد أن يلتقط سر الصنعة ثم يفتتح ورشة لحسابه ينافسه بها.. ولكن عفيفى كان يطرد هذه الشكوك بسرعة.. فهو يعلم أن أى عامل يشتغل عنده يمكنه أن يكبر إلى أن ينافسه، كما استطاع هو أن يكبر فى ورشة الخواجة كوستى ثم يفتح ورشة ويأخذ من كوستى زبائنه.. ثم أن ممدرح يميز الورشة عن باقى الورش.. فليس فى كل ورشة عامل من عائلة كبيرة ومن طلبة الجامعة.. وقد أتى ممدوح للورشة بزبائن جدد كلهم من أصدقائه.. وأكثر من ذلك، إن عفيفى يحب ممدوح، ويتباهى بصداقته، ولا يستطيع أن يضن عليه بشىء.. وهو معجب به أيضا.. معجب بذكائه، ورجولته، وروحه المرحة، وسرعة التقاطه لأسرار العمل.. وإن كان يعايره أحيانا بالطريقة التى يعمل بها.. إنه يمسك قطع الغيار بأصابعه، لا بيده كلها كما يفعل العمال.. ويرقد على الأرض تحت السيارة بحساب، ولا يلقى جسده كله كما يفعل بقية العمال.. وكان يقول له :

– عنك يا سى ممدوح.. الشغلة دى تقيلة عليك !

وكان ممدوح يغضب، ويصر على أن يقوم بالعمل كله.

ولكن كان أهم ما يهتم به ممدوح هو مشروع شراء المخرطة ولم يكن قد أبلغ الأسطى عفيفى برغبته فى أن يشاركه فيها.. ولكنه كان يحادثه

دائما فى تفاصيل المشروع.. وكان يطوف بوكلاء الشركات، ويعود إليه بصور مخارط جديدة، وبيانات جديدة.. وكان يزور المصانع والورش الكبيرة، ويعود يحكي للأسطى عفيفي ما رآه.

وانتهى ممدوح من ارتداء الحلة الزرقاء، وخرج من وراء السيارة، وقال للأسطى عفيفى :

– مش نركب سلوك الكهربا فى العربية دى يا أسطى.

وقال عفيفى وهو مشغول بفك قطعة من موتور السيارة :

– برضه كده يا سى ممدوح.. ده الزبون مستعجل عليها قوى.. امبارح فات علىّ فى البيت فى نص الليل.. تقولش أنا مبيت العربية معايا.

واقترب ممدوح من الأسطى عفيفى، وقال ووجهه متهلل :

– امبارح عرفت شركة توكيلات جديدة، إنما مستعدة تساعدنا للآخر.. يقدروا يجيبولك المخرطة ويركبوها، وماتدفعش إلا الفين جنيه.. والباقى تقسيط على خمس سنين.

وقال عفيفى :

– طيب، وحانجيب الألفين جنيه منين ؟

وقال ممدوح فى صوت جاد :

– إنت معاك كام يا أسطى ؟

والتفت إليه عفيفى بدهشة، ثم عاد ينظر إلى قطعة الموتور، وقال فى صوت خفيض :

– خمسميت جنيه، بما فيهم حتتين الصيغة بتوع الولية مراتى.

وسكت ممدوح قليلا، ثم قال :

– أنا مستعد أجيب الفين.

واهتزت قطعة الموتور فى يد الأسطى عفيفى، وقال وأنفاسه مبهورة :

– ازاى بأه..

وقال ممدوح :

– نشترى المخرطة شركة.. أنا أحط الفين، وأنت الخمسماية بتوعك.

وقال عفيفى وقد عقد ما بين حاجبيه :

– دى مسألة عايزة تفكير.

وقال ممدوح :

- أنا فكرت كتير يا أسطى.. ده أنا بقالى تلات أشهر مابفكرش إلا فى المخرطة.. وما باحلمش إلا بالمخرطة.

وسكت الأسطى عفيفى، وتشاغل باصلاح قطعة الموتور التى فى يده.. وطال سكوته، وبدأ ممدوح ينحنى فوق السيارة المعطلة ويصلح من أسلاكها.

وفجأة قال عفيفى :

- إنما دى تبقى شركة ازاى دى.. إذا كنت إنت حاتدفع الفين، وأنا خمسماية.. ده إنت تقدر تشتريها لوحدك.

وقال ممدوح :

- لوحدى ازاى.. ده تمنها خمستلاف جنيه.

وقال عفيفى :

- ما هو تدفع الألفين، والباقى تسدده من شغل الماكنة.

وتنبه ممدوح إلى ما يقصده الأسطى عفيفى، وقال بسرعة وذكاؤه يلمع فى عينيه :

- ما هو إنت مش حاتدفع الخمسميت جنيه بس.. الورشة بتاعتك كلها، حانقدر تسوى كام، وتدخل بقيمتها فى الشركة.

وانكمش وجه الأسطى عفيفى، كأنه اصابه جزع على ورشته وقال فى صوت خامل :

- دى برضه عايزة تفكير.

وقال ممدوح بحماس :

- وسواء دفعت كتير ولا شوية، فالمكسب بالنص.. الشركة كلها بالنص.

وانفرج وجه الأسطى عفيفى قليلا، كأنه استراح للعرض الجديد، ثم قال كأنه يريد أن يكشف كل ما فى نفس صديقه :

- إنما دى مش شغلتك يا سى ممدوح.. إنت لسة قدامك كتير على بال ما تتخرج من الجامعة.

وقال ممدوح فى حدة :

- جامعة ايه.. إنت عارف انى مايهمنيش الجامعة.. أنا عايز اشتغل باديه.. شغلة تجيب فلوس.. الدنيا اتغيرت دلوقت يا أسطى.. مابقتش

الجامعة هى كل حاجة.. وده مشروع مش عايز ليسانس.. عايز ناس يفهموا.. والبركة فيك.

وقال عفيفى وهو يهز رأسه :

– يمكن.

وقال ممدوح وهو أكثر احتدادا :

– يمكن ازاى.. يعنى عاجبك الأفندية اللى واخدين شهادات ومتلطعين على القهاوى.. أهو أنا أخويا خد الليانس.. عمل ايه بالليسانس.. اتوظف بخمستاشر جنيه.. وياريته بيروح الشغل.

وسكت عفيفى فترة، ثم قال :

– والألفين جنيه دول.. حاتجيبهم ازاى.

وقال ممدوح :

– أصل أنا لى شوية فلوس متحوشين.. وأخويا وعدنى إنه حايدينى المبلغ وقت ما أطلبه.

وبلع ممدوح ريقه، ليمسح كذبه، فإن أخاه لم يعده بأن يعطيه المبلغ، كل ما وعده به أن يحادث والدته بشأنه.

واستطرد ممدوح قائلا :

– ايه رأيك.

وقال عفيفى

– عايزة تفكير

وقال ممدوح :

– ما هو المشروع مش حاينفع إلا إذا دخلت فيه.. انت اللى تعرف تشغله.. إلا إذا كنت بأه مش عايز تشاركنى.

وقال عفيفى فى اخلاص :

– عيب يا سى ممدوح.. ماتقولش كدة.. ده أنا يشرفنى إنى اشاركك اعتبرنى شريكك من دلوقت.

وتهلل وجه ممدوح وصاح :

– كفك على كدة يا أسطى.

ووضع يده فى يد الأسطى عفيفى، ثم سحبها وقال كأنه يقرأ تقريرا أتم وضعه :

- يبقى معانا الفين وخمسميت جنيه.. الفين حطهم قسط المخرطة.. وخمسميت جنيه نستعملها مصاريف تشغيل.. ما هو لازم ندور على ورشة أكبر من دى.. و..

وابتسم الأسطى عفيفى قائلا :

- حيلك ياسى ممدوح.. خلينا نخلص الشغل اللى فى ايدينا الأول.

وانحنى ممدوح فوق أسلاك العربية المعطلة، وأخذ يصلح فيها، وهو لا يكف عن الحديث عن المشروع.. وعن المخرطة.. إنه يلقى بكل ما اختزنه فى رأسه من أحلام إلى الأسطى عفيفى.. ووجهه تضيئه فرحته.

وفى الساعة الثانية بعد الظهر، خلع البدلة الزرقاء، وارتدى بنطلونه وقميصه، وركب الفسبا.. وأدار الموتور، وانطلق بها فى صوت كالزوبعة يزف بها نفسه إلى حلمه الكبير.

وعاد إلى البيت.

وقفز السلالم.. كل أربع درجات فى خطوة واحدة.. ثم دخل فى خطوات واسعة.. وفتح باب حجرة أخيه، دون أن ينقر على بابها، كأنه يقتحمها، وقال وفرحته لا تزال تملأ وجهه :

- كلمت ماما يا أحمد.

ورفع أحمد رأسه من فوق جريدة الأهرام، وقال فى هدوء بارد :

- كلمتها عن إيه ؟

وذابت فرحة ممدوح من على وجهه، وقال والحنق يخنق صوته :

- عن الفلوس اللى طلبتها.. انت نسيت ولا ايه ؟

وقال أحمد فى برود :

- لأ.. مانستش.. إنما ماكلمتهاش.

وقال ممدوح :

- طيب أنا حاروح اكلمها.

وارتفع صوت أحمد :

- لأ.. ماتكلمهاش.. احنا اليومين دول فى موسم جواز.. أختك فيفى جاى لها عريس النهاردة.

وقال ممدوح فى دهشة :

- فيفى !!

وقال أحمد :

- أيوه.. فيفى.. مندهش ليه ؟

وقال ممدوح وهو يبتسم :

- لا.. ولا حاجة.. بس كنت فاكر إنها مش حاتتجوز إلا بعد ماتخلص الجامعة.

ثم سحب ابتسامته، وارتفع صوته فجأة، وقال :

- أنا مش مسئول عن فيفى.. أنا مسئول عن نفسى.. والفلوس دى عايزها حالا أنا حاروح أكلم أمى.

وقبل أن يسمع رد أخيه، انسحب من الغرفة، وأغلق الباب وراءه.

وسار إلى غرفة أمه، وثلاثة ارباع عقله مشغول بمشروع شراء المخرطة، والربع الباقى مشغول بزواج أخته فيفى.

ورأى أمه جالسة وحولها بناتها الثلاث. وعلى وجوههن ابتسامات مرحة، ما عدا فيفى فبين شفتيها شىء كالابتسامة، وشىء كالسخط.

وقال ممدوح وهو يحاول أن يبدو مرحا :

- ايه حكاية الجواز اللى نازل يرف على العيلة.

وقالت فيفى فى دلال :

- قوام لحقت تعرف.

وقال ممدوح :

- ودى حاجة تستخبى.. فيفى بحالها تتجوز وما أعرفش.. ومين بأه المأسوف على شبابه !

وقفزت نظرة غاضبة إلى عينى فيفى، وقالت الأم فى حنان :

- معيد فى كلية العلوم.

وقال ممدوح :

- لازم يبقى كدة.

وقالت فيفى فى حدة :

- قصدك ايه.

وقال ممدوح :

- ولا حاجة.

وقالت نبيلة :

- ده بكرة الكلية حتنقلب لما العيال يسمعوا الخبر.

وقالت ليلى :

- وحتسافر معاه أمريكا فى بعثة .

وقال ممدوح:

- وحانقعد من غير عكننة.. مستحيل.. لازم واحدة فيكم تتعلم العكننة، علشان بعد ماتسافر فيفى يفضل البيت ماشى زى ما هو.

وضحكت ليلى ونبيلة، وقالت فيفى وهى تصيح فى حدة :

- ماتطولش لسانك.. أحسن أنا مش طايقة.

وخرجت من الغرفة.

والتفت ممدوح إلى أمه وقال وهو يبتسم لها كأنه يرشوها بابتسامته :

- أنا عايزك فى كلمتين يا ماما.

وقالت الأم فى بساطة وهى تقوم من مقعدها :

- خليهم بعد الغدا.. أحسن إحنا اتأخرنا قوى.. قوموا يا بنات.. روحى اندهى لأخوكى أحمد ياليلى.

وسكت ممدوح.. وسار وراء أمه.

والتفت العائلة حول مائدة الغداء.. والحديث كله عن الرجل الذى ينتظرونه ليطلب يد فيفى.. وليلى تنظر إلى فيفى وتتساءل بينها وبين نفسها، هل هى سعيدة؟ إن السعادة لا تبدو عليها.. ولكنها يجب أن تكون سعيدة، فهى قد اختارت رجلها بنفسها.. إنها أحسن حظا منها.. لم يجبرها أحد على الزواج.. ولم تخطب لرجل لا تحبه.. ولا تحب رجلا آخر غير خطيبها.. ورغم ذلك فالسعادة لاتبدو على وجه فيفى.

ربما كانت السعادة شيئا آخر، غير الزواج.. وغير الرجل.. السعادة ليست الحياة.. ليست حالة دائمة.. ولكنها لحظات تمر.. ثم تختفى.. وفيفى الآن ليست فى لحظة سعادة ولكنها ـ رغم ذلك ـ تحسدها.. إنها على الأقل ليست مجبرة على الشقاء.

ونبيلة تتحدث وتبتسم، وعقلها مشغول بحبيبها محمود.. لم يبق إلا هى بين أختيها التى لم تخطب.. وحبيبها لا يريد أن يخطبها.. إن حديثه عن فقره لا ينتهى.. وهو لا يزال مصرا على أنه فقير، وعلى أنها غنية.. وأن الفقير لا يستطيع أن يتزوج الغنية.. وهى يائسة.. لا تعرف كيف تستطيع

أن تقنعه بالزواج.. لا تستطيع أن تنتصر على احساسه بفقره.. إن فقر محمود ليس في قدرته المالية، ولكنه احساس.. عقدة.. يخيل إليها أن محمود لو كسب مليون جنيه، فسيظل يحس بالفقر.. ويخاف أن يتزوجها.. كيف تنتصر على هذا الاحساس.. هذه العقدة؟ لتلحق بأختيها.. وتتزوج حبيبها.. أنها لا تدرى.

والأم يبدو وجهها هادئا طيبا.. ولكن في يدها رعشة خفيفة.. لقد سقطت منها الشوكة على الأرض.. وهي تزدرد الأكل ازدرادا دون أن تحس به.. إنها تحس أن عقد عائلتها بدأ ينفرط.. تحس أن الحمام بدأ يطير من عشها.. بالأمس كانت ليلى، واليوم فيفى، وغدا نبيلة، ثم أحمد وممدوح.. أنهم سيذهبون.. كل منهم إلى بيت آخر.. وإلى عائلة أخرى.. وستبقى هي وحدها.. لن تكون أما.. ولكن مجرد زائرة، تطوف على البيوت الجديدة تزورها الواحد بعد الآخر.. وهي تحس أنها تكبر.. احساس لم يكن يراودها من قبل.. وكلما خطبت واحدة من بناتها كبرت أكثر.. شاخت.. ستكون عجوزا وحيدة.. ويجب أن تفكر من الآن في حياة تتغلب بها على الوحدة، والشيخوخة.

وأحمد يأكل وهو سارح، يحاول أن يعد نفسه لمقابلة هذا الرجل الذى سيجىء ليخطب أخته.. ويقرر بينه وبين نفسه أن يحمل المسئولية بنفسه.. إنها مسئولية أخته، ولكنه يعود ويثور على نفسه.. لماذا يتكل على خاله؟ لماذا لا يحمل هذه المسئولية بنفسه؟ إنها مسئولية اخته، وهو أولى الناس بحملها.. ويبدأ يرسم لنفسه الصورة التى سيبدو بها أمام الضيف.. ويعد الكلام الذى سيقوله، كلمة كلمة.. ويشعر بصدره يضيق، كأنه مقبل على امتحان شاق، وينظر إلى أخته فيفى كأنه يلومها على هذا العبء الذى تلقيه عليه.

وممدوح جالس وكل أفكاره مع مشروعه.. وينظر من تحت أهدابه إلى أمه بين الحين والحين، كأنه يختبر مدى استعدادها لاجابة مطالبه.. أو كأنه يبحث فيها عن ثقب يتسلل منه إلى عقلها وقلبها.

وانتهت العائلة من تناول الغداء، وتفرق أفرادها في غرفهم.. وظل ممدوح يطوف وراء أمه بعينيه، حتى رآها تدخل غرفتها، فانتظر قليلا، ودخل غرفتها، وهو يبتسم.. وقال وابتسامته تتسع :

– أقدر أكلمك يا ماما.

وقالت الأم وهى تنظر فى وجه ابنها، تحاول أن تستقرىء منه موضوع حديثه :

- خير يا ممدوح.

وجلس ممدوح على الشيزلونج قريبا من أمه، وقال فى صوت هادىء، وهو يضغط احدى يديه بالأخرى :

- أنا ماكنتش عايز اكلمك فى الموضوع ده بنفسى.. طلبت من أخويا أحمد يكلمك.. إنما انتى عارفة أحمد، دايما يصهين.

وقالت الأم ضاحكة :

- أوعى تكون حاتتجوز إنت كمان.

وقال ممدوح :

- تقريبا.. حاجة كدة زى الجواز.

وقالت فى دهشة :

- ازاى بأه.

قال وهو يبتسم ابتسامة حائرة :

- إنتى عارفة يا ماما إنى مابقتش صغير.. يمكن أكون صغير فى عنيكى لأن الأبن مابيكبرش أبدا فى عين أمه.. إنما أنا كبرت، وكمان كام شهر حابقى عشرين سنة.. وأقدر دلوقت أعرف مستقبلى مش فى الجامعة.. طول عمرى بادور على مشروع.. على عمل.. أقدر أقوم بيه، وأبنى عليه مستقبلى.. وأخيرا لقيت مشروع، ومحتاج لمبلغ علشان ابتدى فيه..

وزمت الأم شفتيها كأنها اكتشفت أن حدسها كان فى محله وأن ممدوح لا يمكن أن يحادثها على انفراد إلا ليطلب منها نقودا.. وقالت وهى تتنهد :

- مبلغ أد ايه ؟

وقال ممدح وهو ينظر إليها ويبتسم :

مبلغ كبير شوية..

وقالت الأم فى زهق :

- يعنى كام؟ عشرة؟ عشرين؟

وقال ممدوح فى بساطة :

- الفين.. الفين جنيه.

وقالت الأم فى جزع :

- ياخبر.. الفين جنيه يا ممدوح ؟
- ده أصله مشروع كبير.. ورشة كبيرة.. مصنع.. وحاشترى آلات من برة.. ومعايا شريك طول عمره فى الشغلانة دى.. الألفين جنيه حايبقوا عشرة بعد سنتين.

وأغمضت الأم عينيها كأنها تحاول أن تدفن أعصابها فى الظلام، وقالت وهى تسيطر على نفسها حتى لا تنفجر :

- طيب يا ممدوح.. أنا موافقة.. أول ما تاخد الليسانس حاديلك اللى انت عايزه.

وقال ممدوح ووجهه جاد :

- أنا عايز المبلغ اليومين دول.. خسارة أضيع سنتين من عمرى لغاية ما آخد الليسانس.

وقالت الأم :

- يا ممدوح يا ابنى اعقل.. ماحدش يفكر التفكير ده ابدا.

وقال ممدوح :

- اسمعى يا ماما.. ماحدش حايقدر يخلينى فى الجامعة غصب عنى.. إنما أنا مستعد أفضل فيها، وآخذ الليسانس علشان خاطرك.. بس على شرط تدينى الفلوس من دلوقت علشان ابتدى المشروع.

وقالت الأم كأنها تتوسل :

- اعمل معروف يا بنى.. ريحنى.. أديك الفين جنيه ازاى وانت لسة طالب.. ماتنساش إن فيه بنتين من إخواتك حايتجوزوا، ولازم يتجهزوا قبل كل حاجة.. ولا عايز تاخد الفلوس وتسيب إخواتك من غير جهاز.

وقال ممدوح وقد بدأ وجهه يحتقن :

- أخواتى مش حايتجوزوا دلوقت.. وحتى لو اتجوزوا دلوقت، أنا عارف إن فيه عندنا فلوس تكفى الجهاز، وتكفى المشروع بتاعى.

وقالت الأم وقد ارتفع صوتها، وأعصابها بدأت تفلت منها :

- إنت ماتعرفش حاجة.. ايش عرفك انت باللى عندنا.

وقال ممدوح وهو يتنهد كأنه يطرد احتقان دمه من على وجهه :

- بلاش اللى عندنا.. انتى مش شايلة إسورة الماظ علشان تديها لعروستى يوم ما أتجوز.. أنا مش حاتجوز.. بيعى الإسورة بدل ما هى

مركونة فى الدولاب.. دى تجيب لوحدها الف جنيه.. وأنا أعرف أن كل واحد منا عنده بوليصة تأمين بألفين جنيه تقدرى تاخدى من البوليصة بتاعتى الف.. ونبقى حلينا الحكاية.

وقالت الأم وهى تكاد تصرخ :

- أنا لا حابيع ولا حاشترى.. أنا مسئولة عنك لغاية ماتخلص الجامعة، وبعد كدة ابقى خد الفلوس كلها.. وأعمل بيها اللى انت عايزه.. وقبل كدة أنا المسئولة.. وأنا مش ممكن أوافق على الكلام الفارغ بتاعك.

وقال ممدوح فى حدة :

- وأنا ما أقدرش كمان أضيع عمرى.. وأبقى شايف الفلوس مركونة قدامى، وأنا مش قادر أشغلها.

وقالت الأم :

- يا ممدوح اعقل.

وقال ممدوح وقد اشتد صراخه :

- هو ده العقل.. وأحب أقول لك، إنى إذا ماأخدتش الفلوس، حاخرج من الجامعة، وحاخرج من البيت، وحاروح اشتغل أى شغلة.

وقفزت الدموع إلى عينى الأم، وقالت وصوتها مخنوق :

- على كل حال استنى لما آخد رأى خالك، وبعدين نتكلم فى الموضوع.

وقال ممدوح وهو يهم بمغادرة الغرفة :

- أنا مش حاستنى حد.. وأنا عارف رأى خالى مقدما.

والفلوس حاخدها، حاخدها.

ثم خرج من الغرفة، وصفق الباب وراءه.

وخرج من البيت كله.

وانهمرت دموع الأم.

٢٣

وتنبهت الأم إلى أنها يجب أن تعد البيت لاستقبال خطيب فيفى.. فمسحت دموعها، وقامت ووقفت أمام المرآة تهز رموشها لتطرد من عينيها آثار البكاء.. ثم وضعت على وجهها قناعا من الهدوء والحزم القوى، كأنها لم تكن تبكى، وكأن ممدوح لم يمزق قلبها من ثوان.

وخرجت من غرفتها فى خطوات قوية كأنها تدوس بها أحزانها وفتحت باب غرفة بناتها، وقالت لفيفى :

- مش تروحى تسرحى شعرك عند الكوافير يافيفى ؟

والتفتت إليها فيفى فى حدة، وقالت فى عناد :

- لأ.. لزمته إيه.. علشان إيه.. أنا مش شايفة أى مناسبة علشان أروح عند الكوافير.

ولم تجادلها الأم، كأنها اخذت من ممدوح ما يكفى من جدال، وقالت :

- طيب.. بلاش يا حبيبتى !

والتفتت إلى نبيلة قائلة :

- اضربى تليفون لجروبى يا نبيلة، وأكدى عليه إن الجاتوه لازم يكون هنا الساعة خامسة.

وقالت نبيلة :

- حاضر.

واستطردت الأم وهى تنظر إلى ليلى.

- قلتى لعصام ييجى النهاردة..

وقالت ليلى فى إهمال :

- لا.
وقالت الأم :
- ليه يا بنتى.. ده خلاص بقى واحد من العيلة، وكان لازم يكون موجود فى مناسبة زى دى.
وقالت فيفى والسخط بين شفتيها.
- إنما أمين لسة مابقاش واحد من العيلة.. ومش ضرورى تلموا كل من هب ودب علشان يستقبل جنابه.
وقالت ليلى :
- يعنى خطيبى يبقى كل من هب ودب.. وسكتت فجأة كأنها دهشت عندما سمعت نفسها تدافع عن خطيبها.. عن رجل لا تحبه..
وقالت فيفى :
- أنا مش فاهمة انتم عاملين الدوشة دى كلها ليه.. واحد جاى يخطبنى. ايه اهميته.. ايه اللى حصل.. مستغربين قوى إن واحد جاى يخطبنى !!
ولم يرد عليها أحد.
وخرجت الأم لتطوف بحجرات البيت وتشرف على إعدادها. وخرجت نبيلة لتتصل بمحل جروبى فى التليفون.
وقالت ليلى لأختها فيفى بعد فترة، وهى مستلقية على سريرها :
- أنا لو كنت منك كنت رحت للكوافير.. دى الواحدة ما بتصدق تلاقى فرصة علشان تعمل شعرها.
وأجابت فيفى فى حدة :
- أنا مش زيك.. أنا مش زى بقية البنات.. مش منافقة ومش كدابة. اللى عايز ييجى يخطبنى، لازم يشوفنى زى ما أنا.. من غير كوافير ومن غير تواليت.
وقالت ليلى فى خبث كأنها تحاول أن تكشف سر اختها
- لازم ما بتحبهش.. لو كنت بتحبيه كان زمانك قاعدة تتزوقى من الصبح !
وانتفضت فيفى كأن سكينا غرز فى جنبها، وصرخت فى وجه اختها :

- يعنى إنتى كنت بتحبى خطيبك، علشان رحتى للكوافير يوم ماجه يخطبك.

وكتمت ليلى السكين فى قلبها، وقالت وهى تفتعل ابتسامة :

- لا.. بس أنا غاوية كوافير. وأتمنى أروح له كل يوم. ده أنا يوم ما أموت حاوصى إنهم يجيبوا لى الكوافير علشان أقابل ربنا وأنا علىّ القيمة.

وقالت فيفى :

- أنا علىّ القيمة من غير كوافير.

وقالت ليلى كأنها تثيرها :

- إنما بتحبيه ؟

وقالت فيفى وهى تدير رأسها :

- مالكيش دعوة.. الحب ده بتاع البنات الممرقعين اللى زيك !

وابتسمت ليلى وسكتت، ثم انكفأت على وجهها. وراحت تفكر فى فتحى.. لو كان فتحى خطيبها، هل كانت تتزين له أكثر مما تزينت لعصام.. ربما لا.. ربما اكتفت يومها أن تبدو أمامه بلا زينة.. حبها هو زينتها الوحيدة.. وربما كانت أختها فيفى تحب أمين، ولذلك فهى ليست فى حاجة لأن تتزين له.

وعادت نبيلة، وقالت وهى تدخل :

- الخواجة جروبى بيقول لك مبروك.

ولم ترد فيفى.

وقفزت نبيلة فوق فراشها واستطردت كأنها تحادث نفسها :

- يعنى مش فاضل فيكم إلا أنا.. بكرة فيفى تسافر أمريكا.. وست ليلى تروح بيت جوزها، وأفضل أنا لوحدى.

وقالت ليلى، وهى لا تزال منكفئة على وجهها :

- يا بختك..

وقالت فيفى ساخطة :

- كفاية عليكى سى محمود بتاعك.

وتنهدت نبيلة قائلة وصوتها ينضح بالأسى :

- بس يا خسارة مش قادر يخطبنى.. ويظهر إنه مش حايقدر طول عمره.

ورفعت ليلى رأسها وقالت بسرعة كأنها تحاول أن تنقذ أختها من خاطر ألم بها :

- ولو.. مادام بتحبيه إوعى تتجوزى حد تانى.. حتى لو استنتيه طول عمرك.

وقالت فيفى :

- إذا كان مش ناوى يتجوزك، لازم تسيبيه من دلوقت. وإلا تبقى قلة أدب وسفالة، منك ومنه.

وقالت ليلى وقد اعتدلت جالسة فوق سريرها :

- تسيبه ليه.. علشان تتجوز واحد ما بتحبوش وتفضل تتعذب طول حياتها.. انتى ماتعرفيش اللى بتتجوز واحد مابتحبوش بتبقى عايشة ازاى.. جهنم أرحم.. واسأليني أنا.

وقالت فيفى بسرعة :

- إنتى متجوزة واحد يسوى رقبتك.

وقالت ليلى فى حدة :

- أنا مستعدة أبيعه بشلن، وأتجوز واحد باحبه.

وقالت فيفى كأنها تتعمد إسالة دم أختها :

- أظن كنتى عايزة تتجوزى واحد زى فتحى.

وسكتت ليلى، وقد امتقع لونها، واغرورقت عيناها بالدموع وصرخت نبيلة :

- بس يا فيفى.. احنا اتفقنا مانجبش السيرة دى.

وساد الصمت بين الأخوات الثلاث.. صمت مضطرب أكثر ضجيجا من الكلام.

وقالت نبيلة بعد فترة، تحاول أن تبدد هذا الصمت :

- على كل حال اطمنوا، لو كنت أقدر اسيب محمود، كنت سبته من زمان..

وقالت فيفى :

- تسمحى تقولى لى مش قادر يتجوزك ليه ؟

وقالت نبيلة وهى تهز كتفيها بلا مبالاه :

- علشان ما يقدرش يفتح بيت.. فقير.

وقالت فيفى :

- دى حجة.. اللى عايز يتجوز مابيسألش.

ونزلت ليلى من فوق سريرها واتجهت إلى خارج الغرفة... ووجهها لا يزال ممتقعا، وعيناها مغرورقتان بالدموع.. وصاحت نبيلة وراءها بلهفة:

- على فين ؟

وقالت ليلى وهى مستمرة فى طريقها :

- حاكلم الخياطة فى التليفون.

وخرجت.. واتجهت إلى التليفون الموضوع فى الممر الذى يفصل بين الحجرات.. ورفعت السماعة بلا تردد، ودون أن تتلفت حولها.. وأدارت رقم فتحى.

وعندما سمعت صوته قالت فى صوت عال :

- آلو.. مدام راشيل.. بونجور.. أنا ليلى. ياترى بروفة الفستان حاتكون جاهزة امتى ؟!

ثم خفضت صوتها واستطردت هامسة :

- استنى بكرة جنب التليفون الساعة عشرة الصبح.. يمكن أقدر أشوفك !

ثم عادت ترفع صوتها قائلة :

- ضرورى يا مدام.. أحسن أنا مستعجلة على الفستان قوى.

وقال فتحى فى لهفة :

- انتى وحشانى موت.

وقالت هامسة.

- وإنت كمان.. بكرة حاأشوفك.. أوريفوار بأه.

ثم وضعت سماعة التليفون.

واسترد وجهها لونه الوردى.. وضاعت الدموع من عينيها.

وفى الساعة الخامسة والنصف كانت العائلة قد استعدت لاستقبال الزائر. وانتهى افرادها من ارتداء ثيابهم الكاملة.. وأحمد جالس فى غرفته يقرأ كتابا يحاول أن ينسى بين صفحاته عبء الساعات القادمة التى

سيقضيها مع الضيف.. والبنات فى غرفتهن كل منهن تتردد على مرآتها لتتأكد من زينتها، وفيفى قد ارتدت ثوبا رماديا بسيطا تعمدت أن تزيده بساطة حتى تخفى اهتمامها بهذا الرجل الذى جاء ليخطبها.. تخفيه عن نفسها.. وهى لا تزال تتساءل : هل أخطأت فى قبول خطبة أمين عبدالسيد.. هل تعجلت.. هل هى فعلا تريد أن يكون لها رجل فتثير نقاشا جديدا حادا بينها وبين أختيها؟ والأم فى غرفتها وحيدة تتم زينتها أمام مرآتها، ورأسها مثقل بمسئولياتها.. وممدوح لم يعد إلى البيت بعد.

وجاء الخال..

وجلس على مقعد فى الصالة الخارجية ووضع كرشه الضخم فوق ساقية، وصاح فى محمد السفرجى :

– اعمل فنجال قهوة يا ولد.

وجرى محمد السفرجى بين الغرف يعلن مجىء الخال، وصوته مبهور، وعيناه مفتوحتان، كأنه يعلن خبرا خطيرا.

وتلكأ أحمد فى الخروج لاستقبال خاله.. وتلكأت البنات أيضا.. وخرجت إليه الأم وقد اكتسى وجهها بسحابة قاتمة، وضاق فمها، واحتدت النظرات فى عينيها.

ونظر عزت إلى وجه أخته، وعرف أن لديها مشكلة من مشاكل عائلتها التى لا تنتهى.. إنها تستقبله دائما بهذا الوجه كلما أرادت أن تشكو له أحد ابنائها.. ولكنه تعمد أن يتجاهل سؤالها عن مشكلتها، وهم بالقيام من مقعده وهو يصافحها، ولكنه لم يقم، وقال وهو يضع ابتسامة فوق شفتيه :

– مبروك يا عنايات.. مافضلش عندك إلا نبيلة.

وقالت الأم دون أن تبتسم :

– الله يبارك فيك ياخويا.. عقبال مرفت.

وقال الخال كأنه يحاول أن يستدر ابتسامة من بين شفتى أخته :

– والله عجزنا ياعنايات.. البنات عجزونا.. بكرة يخلفوا وتبقى جدة.

وتنهدت عنايات ولم ترد.

وعاد الخال يقول بعد برهة :

– هيه.. وايه الأخبار ؟

وقالت عنايات كأنها وجدت المناسبة التى تنطلق فيها :

- اسمع يا أخويا.. أنا عايزاك تكلم ممدوح، وتعقله شوية.. الولد ده حايجننى.. خلاص مابقتش قادرة عليه.

وقال الخال :

- ايه.. عمل ايه كمان ؟

وقالت الأم كأنها تهم بالبكاء :

- عايز يسيب الجامعة.. ويفتح ورشة.

وارتفع حاجبا الخال كأنه ذعر وقال فى دهشة :

- يسيب الجامعة.. إزاى ده.. ده لازم اتجنن خالص.

وقالت الأم :

- وأكتر من كدة.. عايز فلوس علشان يفتح بيهم الورشة وقال الخال وهو يخبط بيديه على مسندى مقعده :

- والله عال.. أمال كنا بنعلمه ليه لما هو بتاع ورش.. أنا مش ممكن أسمح لواحد أنه يعر العيلة ويبهدل اسمى.. مش ناقص إلا إن ابن أخت عزت راجى يبقى عامل فى ورشة.. ده مستحيل.. الولد ده لازم يعقل.. وإذا ماعقلش بالذوق، يعقل بالعافية.

وقالت الأم وهى تتنهد :

- أهو شوف لك حل معاه.. أنا خلاص، طهقت.

وسمعا وقع أقدام على سلم الحديقة، وقامت الأم على عجل قائلة :

- أما أقوم أبعت لك أحمد.. ده يظهر الأستاذ أمين جه !

وخرجت من الصالة.

وقام الخال ودخل إلى حجرة الصالون، واستراح على مقعد فيها.. وبعد برهة دق جرس الباب وفتحه محمد السفرجى ودخل الأستاذ أمين عبدالسيد.. وكل شىء فيه لامع.. ذقنه.. وشعر رأسه.. وزجاج نظارته.. ورباط عنقه.. وحذاؤه.. وتحت إبطه علبة شيكولاتة كبيرة، مما يباع عند البقالين، عليها صورة كبيرة لاحدى ممثلات هوليوود.

وما كاد يخطو فى الصالة الخارجية، حتى خرج إليه أحمد يستقبله.. وصافحه الأستاذ أمين عبدالسيد، وهو يقرب وجهه منه، ويلفحه بأنفاسه :

- أحمد بيه.. مش كدة.. ازاى الصحة يا أفندم.

وقال أحمد وهو يبتعد برأسه إلى الوراء هربا من أنفاس الأستاذ أمين :

- أهلا وسهلا.. تشرفنا.

وقاده إلى حجرة الصالون.

وخلف الباب الذى يفصل بين الصالة الخارجية، والحجرات الداخلية، كانت تقف نبيلة، وليلى، تتطلعان إلى وجه أمين عبدالسيد، ثم تنظر أحداهما إلى الأخرى فى دهشة.

ووقف عزت «بيه» راجى فى وسط الحجرة وكرشه يتقدمه، كأنه الإله بوذا المبتسم.. وانحنى أمين عبدالسيد انحناءة كبيرة وهو يصافحه.. فهو يعلم أنه يصافح وكيل وزارة المالية.

وجلس عزت بيه على الأريكة، وأشار إلى أمين ليجلس بجانبه.

وجلس أمين على حافة الأريكة بجانب وكيل وزارة المالية.. واحتار أين يضع علبه الشيكولاتة؟ هم بأن يضعها بجانبه على الأريكة، ولكنه عدل.. وهم أن يضعها على المائدة المذهبة التى تتوسط الحجرة، ولكنه عدل.. ثم أخيرا قرر أن يحتفظ بها فوق ركبتيه.

وقال الخال :

- ازاى الحال عندكم فى الجامعة ؟

ورفع أمين رأسه وقرب وجهه من وجه عزت بيه، وقال :

- عال الحمد لله.. البركة فى سعادتك وفى الاعتمادات اللى بتوافق عليها وزارة المالية.

واندهش الخال من الحركة التى أتى بها أمين عندما قرب وجهه إليه.. ثم اكتشف سريعا أنها حركة عصبية أصبحت عادة فى أمين.. وأبعد رأسه عنه، وقال :

- أظن حضرتك فى الدرجة الرابعة دلوقت.

وقال أمين :

- فى الخامسة يا أفندم.. لسة ماخدتش الرابعة..

وقال الخال :

- لا.. شد حيلك.. لازم تاخد الرابعة قوام.

وابتسم أمين وقال كأن الخال يداعب أحلامه :

- بعد ما أرجع من البعثة، باذن الله حاخد الدرجة.

وأحمد ينظر بكل عينيه إلى أمين، ويبتسم بينه وبين نفسه. خُيِّلَ إليه أنه خير رجل يصلح لاخته فيفى.. بنظارته.. ووجهه الذى لا يتميز بالوسامة أنه على الأقل يستطيع أن يحتملها.. واستراح أحمد لأمين.. إن أمين لا يثير فيه عقده، ولا يكلفه أن يدعى أمامه شخصية معينة.. إنه يستطيع أن يبدو أمامه على حقيقته.. مرتاحا.. دون أن يكلف نفسه نفاقا.

ودار حديث تافه ممزق بين الثلاثة، إلى أن قال الخال وهو يحاول أن يشجع أمين على طرق الموضوع الذى جاء من أجله :

- وفيفى تبقى تلميذة عندك.. مش كدة.. أرجو أنها تكون تلميذة مجتهدة.

وتنحنح أمين وقال وقد أرخى عينيه الجاحظتين خلف زجاج نظارته :

- فيفى دخلت الكلية وأنا لسة طالب.. والواقع أنها من يوم مادخلت وأنا معجب بيها.. و...

وسكت أمين كأنه تنبه إلى غلطة، ثم استطرد :

- قصدى معجب بأخلاقها.. وتصرفاتها.. واجتهادها.. وأنا فى الواقع جاى أطلب من سيادتك ومن الأستاذ أحمد، يد الآنسة فيفى.

وارتفعت ابتسامة استخفاف على شفتى أحمد، كأنه يستخف بدوره فى هذا الموقف، مادام خاله موجودا.

وقال الخال :

- الواقع يا أستاذ أمين أنا سألت عنك كتير.. وعرفت إنك دايما ناجح، ودايما أول دفعتك، وأنا يشرفنى مصاهرتك.

وقال أمين بصوت خافت :

- ده أكبر نجاح نلته فى حياتى.. وقال الخال وهو يمد يده إليه ويصافحه :

- مبروك.

وصافحه أمين ثم قام من جلسته وهو يحمل علبة الشيكولاتة ومد يده إلى أحمد وهزها بقوة، وهو يقول :

- ده شرف كبير لى يا أستاذ أحمد.
وقال أحمد وعلى شفتيه ابتسامة :
- مبروك.
وقال الخال :
- روح انده لوالدتك وأخواتك يا أحمد، يسلموا على الأستاذ أمين !
وخرج أحمد.. وعاد بعد قليل تتقدمه والدته وأخوته الثلاثة.. ونظرت الأم إلى أمين وبين شفتيها نصف ابتسامة، وقالت :
- أهلا وسهلا !
والتفتت إلى ابنتها فيفى كأنها تلومها على ذوقها.
وصافحها أمين وهو مطاطئ رأسه.. ثم صافح نبيلة وليلى وهو مطاطئ رأسه أيضا، ثم رفع رأسه وقرب وجهه من وجه فيفى، وصافحها، ثم قدم لها علبة الشيكولاتة، فاخذتها منه فيفى فى امتعاض، ثم القتها على المائدة التى تتوسط الحجرة دون أن تنظر إليها، وهى تتمتم :
- مرسيه.
وجلس البنات الثلاث على أريكة واحدة، وهمست ليلى فى اذن فيفى :
- أقوم العب لك بيانو.
وقالت فيفي فى سخط :
- لا.. مافيش لازمة.. مافيش مناسبة.
وهمست نبيلة فى اذنها :
- تعرفى إنه باين عليه لطيف قوى.
وقالت فيفى فى همس محتد :
- انا مش مستنية رأيك.. مش عايزة مجاملات.
ودخل محمد السفرجى يحمل عربة صغيرة محملة بأدوات الشاى، وأطباق الجاتوه.. وقامت نبيلة وليلى تساعدانه فى تقديم الشاى.. ووقفت ليلى أمام الاستاذ أمين تقدم له طبق الجاتوه ليختار منه قطعة، وقام أمين واقفا وغرز الشوكة فى قطعة ورفعها إلى عينيه حتى كاد يلمس بها زجاج نظارته.. وامتعضت ليلى لهذه الحركة.. وجلس أمين يأكل قطعة الجاتوه فى اهتمام كأنه يأكلها بقلبه وعقله.. وليلى لا تزال تنظر إليه فى دهشة. وقدمت

له طبق الجاتوه ثانية.. فأخذ قطعة أخرى وأكلها بنفس اللهفة والاهتمام.

وعاد الحديث يدور تافها ممزقا.. وبدأ أمين يحس أنه واحد من العائلة.. ويتحدث في طلاقة.. عن الكلية.. وعن بعثته إلى أمريكا.. وعن عائلته.. كان أكثرهم كلاما.. وفيفي تنظر إليه، ثم تنظر إلى أختيها وأمها لترى وقع حديثه عليهن. وتتمنى أحيانا أن يسكت.. وتنساق حينا مع حديثه.. وقامت نبيلة وقدمت لامين قطعة جاتوة ثالثة، أخذها في لهفة.. ثم استخف بأمين الفرح، إلى حد أن نسى نفسه، فمال على اذن الخال هامسا:

- من جهة المهر أن مستعد إني...

ونظر إليه الخال نظرة فيها دهشة وفيها سخط على جرأته، وقال في صوت عال :

- بعدين.. بعدين.

وأحمر وجه أمين.. والتفتت البنات إحداهن إلى الأخرى يتساءلن بعيونهن عن الهمسة التي همس بها أمين.. ونظر أحمد إلى خاله كأنه يتلقى منه درسا لا يفهمه، في معاملة المتقدمين لخطوبة أخوته.

وقالت الأم كأنها تخفف من وقع الصدمة على أمين :

- وياترى فيفي تقدر تكمل دراستها في أمريكا.

وقال أمين وهو لا يزال يعاني احساسه بخطئه :

- طبعا يا أفندم.. هناك أحسن.. ودار الحديث مرة أخرى تافها ممزقا.. ثم استأذن أمين وقام وصافح الأم والاخوات الثلاث، وخرج معه الخال وأحمد يوصلانه حتى الباب وقال أمين هامسا مرتبكا :

- أحنا ماتكلمناش عن إمتى حنلبس الدبل ؟

وقال الخال وهو يربت على كتفه ويبتسم كأنه اكتشف سذاجته :

- ما احنا حانشوف بعض كتير يا أستاذ أمين ؟

وقبل أن يخرج أمين، دخل ممدوح من الباب.. غاضبا. مكفهر الوجه.. ووقف أمام الثلاثة كأنه فوجيء بهم، وقام أحمد يقدم إليه أمين :

- الأستاذ أمين عبدالسيد، معيد بكلية العلوم.

ثم استطرد وهو يقدم ممدوح إلى أمين :

- أخويا ممدوح.

وصافح ممدوح الأستاذ أمين، وقد اشرقت فى وجهه الغاضب ابتسامة صغيرة كشعاع من الشمس يطل من خلال سحابة كثيفة سوداء.

وقال أمين وهو يبتسم ابتسامة كبيرة كأنه بهر بشباب ممدوح، ووسامته، والذكاء الذى يطل من عينيه :

- مالناش حظ نقعد معاك النهاردة يا أستاذ ممدوح.

وقال ممدوح بثبات :

- فرصة تانية باذن الله.

وهم ممدوح أن يخطو متجها إلى غرفته، فصاح وراءه خاله :

- ممدوح.. استنانى.. عايزك.. وسار الخال مع أمين حتى الباب، وهو يحمل ابتسامته، وما كاد أمين يخرج حتى سقطت الابتسامة عن شفتى الخال، ثم التفت إلى ممدوح، الذى كان واقفا ويداه حول خصره، وبين شفتيه ابتسامة مرة ساخرة وقال :

- تعال يا ممدوح.

ودخل إلى غرفة المكتب.. الغرفة التى تعود أن ينفرد فيها بأفراد العائلة، فردا فردا، كلما أراد أن يلقى عليهم درسا.

وسار وراءه ممدوح، وهو يخطو خطوات بطيئة بساقيه الطويلتين، فيبدو كبطل صغير من أبطال أفلام رعاة البقر.

ووقف أحمد ينظر إليهما.. وهما يدخلان غرفة المكتب، إنه يعرف فيم يريد خاله أن يحادث ممدوح.. سيحادثه فى مشروع انشاء الورشة.. وأحس أحمد أنه يريد أن يناصر أخاه ضد خاله.. لماذا يحشر خاله نفسه فى كل شىء.. لماذا لا يترك ممدوح حرا يفكر فيما يريد؟ ثم أن ممدوح قد يكون على حق.. إن افتتاح ورشة أجدى عليه من وظيفة بخمسة عشر جنيها فى الشهر يعين فيها بعد أن ينال الليسانس.. واحس احمد بانه يريد أن يهجم على غرفة المكتب ويخطف ممدوح من يد خاله قبل أن يقضى على مستقبله.. قبل أن يجبره على أن يقبل وظيفة كما أجبره من قبل على قبول وظيفته الحقيرة فى إدارة المعاشات.

ولكنه لم يتحرك.

ظل ينظر إلى غرفة المكتب بعينين ساخطتين، ثم سار فى خطوات غاضبة ثائرة، ودخل غرفته.

وأغلق الخال باب غرفة المكتب، وجلس على المقعد الجلدى العريض، ومد ساقيه أمامه، ووضع فوقهما كرشه، ثم قال وهو يبتسم كأنه يحاول أن يخدع ممدوح بابتسامته :

- اقعد يا ممدوح.

وجلس ممدوح وهو يحاول أن يخفى استخفافه بعقلية خاله فيرخى جفونه فوق عينيه، ليبدو كابن مهذب مطيع.

وقال الخال فى صوت مفتعل الهدوء :

- ايه الحكاية اللى سمعتها من والدتك دى.. بتقول انك عايز تسيب الجامعة، وتفتح ورشة.. طبعا الكلام ده مش صحيح، إنما برضة ماكانش يصح تقوله لوالدتك، حتى لو كنت بتهزر.. دى بتزعل قوى.

وقال ممدوح، وهو يحاول أن يبدو هادئا كخاله، كأنه يتحداه.. كأنه يضع ارادته فى وجه إرادة خاله :

- والله يا خالى الكلام ده صحيح صحيح.. أنا فعلا عايز أسيب الجامعة وأفتح ورشة.

ونظر إليه الخال بعينين مفتوحتين غاضبتين كأنه يصفعه على وقاحته، ثم أخفى نظرته سريعا، وقال من بين أسنانه كأنه يستعين بكل إرادته حتى لا يفقد أعصابه :

- بأه الكلام ده صحيح.. كويس خالص.. إنما اشمعنى يعنى تفتح ورشة.. ماتفتح محل ساندوتش مثلا.. ولا دكان لمسح الجزم.. ولا تلم سبارس.

وطافت سحابة حمراء على وجه ممدوح، ولكنه تمالك نفسه سريعا، وقال :

- والله أنا طول عمرى غاوى ميكانيكا.. وحضرتك عارف إنى باصلح الفسبا بتاعتى بنفسى.. وبافهم كويس فى تصليح العربيات.. ولىّ واحد صاحبى اسمه الأسطى عفيفى عنده ورشة صغيرة، وبيكسب منها خمسين جنيه فى الشهر.. اتفقت معاه انى أشاركه، وتكبر الورشة، ونشترى مخارط

وآلات.. ودرست المشروع كويس.. جمعت كل البيانات.. مش ممكن حاكسب منه أقل من ميت جنيه فى الشهر.

وابتسم الخال ابتسامة ساخرة وقال :

– يعنى المسألة مسألة فلوس.. يعنى لو اديتك ميت جنيه فى الشهر، تعقل، وتبطل جنان وتلتفت لدروسك.

وقال ممدوح وهو يضم قبضتيه ويضغط عليهما حتى لا يثور :

– لا يا خالى.. المسألة مسألة مستقبل.. الميت جنيه، حايبقوا الف.. والورشة حاتبقى مصنع.

وقال الخال :

– العلم يعنى تاخد شهادة.. يعنى تاخد الليسانس.

وقال ممدوح :

– أنا مش غاوى آخد ليسانس.. أنا مش غاوى دراسة القانون.. الدراسة دى مش حاتفيدنى فى حياتى، ولا فى مستقبلى اللى اخترته.. ويوم ماعوز محامى ابقى اشتغل عندى محامى.. يوم ما أعوز مهندس ابقى اشتغل عندى مهندس.. فورد ماكانش واخد ليسانس.. روكفلر ماكانش واخد ليسانس. المهم إن الواحد يشتغل شغلة غاويها وفاهمها.

وقال الخال وهو ينظرإلى ممدوح فى غيظ :

– وحضرتك عاوز تبقى فورد.. مش كدة !

قال ممدوح فى ثبات :

– حا حاول.

وقال الخال :

يا ممدوح فوق لنفسك.. احنا فى مصر مش فى امريكا.

وقال ممدوح فى حماس :

– مصر مش أقل من أمريكا.. عبود ماعندوش ليسانس.. سيد ياسين بتاع مصانع القزاز ماعندوش ليسانس.. أبو رجيلة ماعندوش ليسانس.. كل دول ماكانش عندهم ليسانس، إنما كان عندهم جرأة، وكانوا غاويين شغلتهم.

وقال الخال وقد ارتفع صوته، وبدأ يفقد أعصابه :

– ده كلام عيال.. أنا ماعنديش وقت علشان أسمع الكلام الفارغ ده.. ولازم تعرف إن طول ما إحنا مسئولين عنك، لازم تمشى زى ما إحنا عايزين.. ومافيش حد فى العيلة طلع صايع ومش متعلم.. حاتطلع لمين قولى لى.. أبوك متعلم.. وأنا متعلم.. الكلام اللى بتقوله لوالدتك ده لازم تبطله.. فاهم.

وقال ممدوح فى هدوء :

– آسف يا خالى.. أنا مصمم.

وصرخ الخال :

– مصمم.. مصمم يعنى ايه.. اتفضل صمم زى ما أنت عايز، إنما مافيش ولا مليم.. مش ممكن أديلك فلوس علشان تروح تديها لصاحبك النصاب اللى ضحك عليك، وفهمك أنك تفتح ورشة معاه.

وامتقع وجه ممدوح وارتعشت شفتاه وهو يسمع خاله يصف الأسطى عفيفى بأنه نصاب.. أحس أن خاله قد جرحه فى أعز ما يملك.. صداقة الأسطى عفيفى.. وصرخ فى حدة :

– الأسطى عفيفى مش نصاب.. عفيفى راجل شريف.. شريف زيك وزى أبويا.. راجل بيشتغل بايده، وبيكسب بعرقه.

وصرخ الخال، صرخة مدوية، بدت فيها رنة أصله التركى :

– اخرس.. قليل الأدب ماتربتش.

قم قام وهو ينتفض، واستطرد قائلا :

– دى آخر مرة حاكلمك فيها.. بعد كدة مش عايز أسمع عنك أى حاجة... فاهم.. ولو زعلت والدتك، ولا فضلت ماشى فى الكلام الفاضى ده حاتعرف شغلك.. إنت ماتعرفش أنا أقدر أعمل ايه.. اقدر أحبس لك عفيفى بتاعك. وأقدر أحطك فى السجن.. السجن أشرف لك ولنا من إنك تمرمط اسم العيلة وتعرنا قدام الناس.

وخرج الخال وكرشه يرتعش فوق خطواته.. وصفق الباب الخارجى وراءه بشدة حتى كاد يحطم الواح الزجاج فيه.

وممدوح جالس فى مكانه مبهوتا.. ووجهه ممتقع.. وشفتاه ترتعشان.. كل ما فيه يرتعش.. عواطفه ترتعش.. أفكاره ترتعش.. يتصور فشل

مشروعه.. ويتصور ضياع مستقبله.. مستقبل راكد معتم.. ويتصور ضياع كلمته التى أعطاها للأسطى عفيفى.. وخجله منه.. سيعتقد الأسطى عفيفى أنه طفل.. أنه عيل.. ليست له كلمة ولا يستطيع أن يحتمل مسئولية كلامه.. لا.. لا.. لن يفشل المشروع.. ولن يضيع مستقبله.. ولن يخجل أمام الأسطى عفيفى.. سيصمم.. وسينتصر.. سينتصر.

وقام يسير بخطوات واسعة غاضبة.. وكله يرتعش.. وخصلة من شعره ترتعش فوق جبينه.. ودخل إلى غرفة أمه، وصرخ فى وجهها :

- انتى حضرتك بتسلطى علىّ خالى.. فاهمة إن خالى يقدر يبوظ مستقبلى، زى ماضيع مستقبل أخويا.. مش ممكن.

وامتلأت عينا الأم باللوعة، وقالت فى صوت خافت :

- اعقل يا ممدوح.. ربنا يهديك.

وصرخ ممدوح :

- إذا كنت فاكرة أنى مجنون، فأنا حافضل مجنون على طول.. مش حابطل جنان إلا لما آخد الألفين جنيه.

وقالت الأم فى كلمات مرتعشة :

- ماعنديش.. وإذا كان عندى مش حاديك.

وارتفع صوت ممدوح :

- أنا مابشحتش.. أنا باطالب بفلوسى.

وقالت الأم واللوعة تشتد فى عينيها :

- مالكش عندى فلوس.

وصرخ ممدوح :

- لأ.. لى عندك فلوس.. وحاأخدهم.. حاأخدهم بالذوق ولا بالعافية.. حاسرقهم.. حاكسر الدولاب.. وآخد الاسورة الميتة اللى جواه... يا عالم حد يبقى عنده إسورة ألماظ ولا يبعهاش ويشترى بثمنها مخرطة.

وهجم ممدوح على الدولاب، وحاول أن يفتحه، ووجده مقفلا بالمفتاح، فبدأ يحاول تحطيمه بيديه وكتفه.. وهو لا يزال يصرخ.. وأمه تصرخ.. ودخل أحمد، وصرخ.. صرخ هو الآخر :

- ايه اللى بتعمله ده يا ممدوح.

وصرخت الأم :

– الحقنى يا بنى يا أحمد.

وصرخ ممدوح فى وجه أخيه :

– ابعد عنى.. بأقولك أبعد عنى.. لازم اكسر الدولاب.. لازم آخد الاسورة.. الأسورة بتاعتى.. لازم.

وهجم أحمد على أخيه ممدوح، وشده من كتفه.. فدفعه ممدوح فى صدره.. وهو يصرخ :

– أنتم أغبيا.. كلكم أغبيا.. كلكم ضدى.. كلكم عايزين تضيعوا مستقبلى.. هاتوا الفلوس.. الفلوس بتاعتى.. الفلوس اللى بتضيعوها فى كلام فاضى.

ودخلت البنات الثلاث ووقفن منكمشات الواحدة بجانب الأخرى، وفى عيونهن جزع ورعب.

وصرخ أحمد :

– إنت اتجننت.. إنت مش فى وعيك.

وصرخ ممدوح :

– أنا اللى مجنون.. ولا اللى يقبل وظيفة فى إدارة المعاشات هو اللى يبقى مجنون.. وماما.. وخالى.. وكلكم.. كلكم مجانين.. و..

ورفع أحمد كفه فى الهواء وهوى بها على صدغ ممدوح.. وهو يصرخ :

– إنت قليل الأدب.

وانطلق شرر مخيف من عينى ممدوح وازداد وجهه امتقاعا.. وشفتاه ارتعاشا.. ورفع كفه هو الآخر فى الهواء.

ووقف أحمد يرتعش، وقد امتقع وجهه.. وتمنى أن يصفعه ممدوح.. أن يرد له الصفعة.. فهو لا يدرى بالضبط لماذا صفعه؟ ولم يكن يريد أن يصفعه.. لقد انطلقت الصفعة رغما عنه، تماما كما حدث عندما صفعه مرة وهو صغير.

وظل أحمد واقفا أمام أخيه لا يتحرك.. ولا يحاول أن يهرب من الكف المرفوعة فى الهواء.. كأنه فى انتظار الصفعة.. ويرحب بها.

ولكن كف ممدوح ظلت مشرعة فى الهواء.. ترتعش.. والشرر المخيف

ينطلق من عينيه.. ثم فجأة خفض كفه، دون أن يرد صفعة أخيه.. شيء في أعماقه منعه من أن يصفع أخاه الأكبر.. شيء أقوى منه.. وخطا خطوات واسعة خارج الغرفة.. والدماء تغلي في رأسه.. وعيناه غائمتان لا يرى ما أمامه.. وصهد لافح يلفه.. ويحرق أعصابه.. كل شيء فيه يحترق.. ورائحة كثيفة تملأ أنفه.. كأن الغضب عندما يشتد تصبح له رائحة.. وأمه تنظر وراءه وعيناها مملوءتان باللوعة، وبين شفتيها شهقة مكتومة.. وأخواته الثلاث ينظرن إليه جزعات ورموشهن تهتز فوق عيونهن.. وأحمد يجري وراءه بعينيه، وهو واقف منتصب وسط الغرفة ووجهه ممتقع وأنفاسه ترفع صدره وتخفضه.

وخرج ممدوح من البيت وهو لا يرى طريقه.

أنه لا يزال يفكر في أن يكسر الدولاب.. ويستطيع أن يرى في خياله الملتهب بنار الغضب، السوار الماسي الذي اشترته امه لتقدمه لعروسته يوم يتزوج.. سيبيع السوار ويشتري المخرطة.

واتجه إلى حيث ترك الفسبا.

إنه لا يرى الفسبا، ولكنه منقاد إليها.

وجلس فوقها.. وأدار الموتور بحركة تلقائية لم يحس بها.. وخيل إليه أن صوت الموتور، هو صوت مخرطة.. عشرات المخارط تدور.. وتملأ الورشة الكبيرة بالحياة والعمل.

وقاد الفسبا، وهو لا يرى طريقه.. والدنيا ظلام.. ظلام كثيف.. ومصابيح الشارع تلمع في الظلام.. تلمع لمعان فصوص السوار الماسي الموضوع في دولاب أمه.. إنه لا يرى شيئا إلا هذا السوار.. السوار يقترب من عينيه.. وفصوصه تكبر.. وتكبر.. والدماء مزدحمة في رأسه.. وعيناه شاردتان.. غاضبتان.. إن غضبه لم يعد مركزا علي شيء.. ولكنه غضب ضائع في أفكاره وأحلامه.

وخرج إلى الشارع العمومي.. وسمع ضجة بعيدة.. ضجة الورشة الكبيرة.. عشرات المخارط تدور.. والأسطى عفيفي يبتسم.. وجرس له صوت حاد يدق بإلحاح كأنه يصرخ.. إنه يكره صوت هذا الجرس.. وعشرات الأبواق تنفخ في أذنيه.. كأنها أبواق سيارات.. والضجة تشتد..

وتشتد.. وناس يصيحون.. وهو يقود الفسبا وسط ضجة المصنع الكبير.. ولا يرى شيئا سوى خياله المختلط بغضبه، والدماء الساخنة تملأ رأسه.. والأسطى عفيفى يبتسم.. والضجة.. الضجة.. ضجة المصنع الكبير.

وفجأة أحس بشىء يصطدم به.

آى..

إنه يتألم..

ألم حاد..

وشىء ثقيل يجثم على صدره، ويكاد يكتم أنفاسه..

وسائل ساخن يسيل من حوله.. ويغرق فيه... كأن حوله ثقوب كثيرة ينهمر منها نهر ساخن.. كثير من الأنهار الساخنة.

والدماء الساخنة تهرب من رأسه.

والضجة تبتعد.. وتبتعد.

والأسطى عفيفى يبتعد.. وهو لا يزال يبتسم.

وابتسم ممدوح لابتسامة الأسطى عفيفى.. ثم رأى أمه.. وأحمد.. وفيفى.. ونبيلة.. وليلى.. كلهم يبتسمون.. وهو يبتسم لهم.. إنه ليس غاضبا منهم.. لا شىء يستوجب الغضب.. واتسعت ابتسامته.. إنه يحبهم.. يحبهم جميعا.. سأعود.. سأعود إليكم.

آى..

إنه يتألم.. آى..

ثم..

ثم هدوء كبير..

وصمت.

لا شىء يسيل.. ولا ألم.. ولا ضجة.. ولا غضب.. وسكتت المخارط.. سكت المصنع الكبير.

وابتسامته فوق شفتيه.

٢٤

كان البيت يسوده صمت حزين بعد أن خرج منه ممدوح..

أحمد جالس فى غرفته مرتدياً ثيابه، يفكر فى الخروج من البيت هو الآخر، ولكنه لا يستطيع.. ويفكر أن يخلع ثيابه ويرتدى البيجاما، فلا يستطيع، كأن أحزانه التى تملأ صدره قد ثقلت به إلى حد لم يعد يستطيع أن يرفع نفسه من على مقعده.. وهو لا يزال يحس بأثر الصفعة التى صفعها لأخيه عالقة فى يده.. ويفرك يده بأصابعه بين الحين والحين كأنه يحاول أن يمسح هذا الأثر.. يحاول أن ينسى أنه صفع أخاه.. يحاول أن ينقل تفكيره وإحساسه إلى موضوع آخر.. إلى شهيرة.. أو إلى الرجل الذى جاء يخطب أخته فيفى.. أو.. ولكن الصفعة لا تزال عالقة بتفكيره وإحساسه، ويده.. ماذا يهم إذا كان قد صفع أخاه.. لماذا يحمل كل هذا الهم لأنه صفع أخاه ؟ إنه الأخ الأكبر وهو كبير العائلة.. ومن حقه أن يصفع أخاه الأصغر.. وأن يصفع كل أخواته البنات حتى لو لم يكن هناك داعٍ للصفع حتى لو كان قد أخطأ فى صفعته.. كل الإخوة الكبار يصفعون الإخوة الصغار.. فلماذا يحمل كل هذا الحزن، والإحساس بالذنب ؟

والأم جالسة فى غرفتها، ورأسها بين يديها، ودموع معلقة فوق رموشها.. وقلبها قد شفه الأسى حتى أصبح كورقة السيجارة، تعصف به حيرتها وتطيره فى صدرها.. وتضعف حينا فتقرر بينها وبين نفسها أن تعطى ممدوح ما يريد.. أن تبيع السوار الماسى وتسحب بوليصة التأمين، وتجمع مبلغ الألفين جنيه الذى يريده ابنها. ربما كان ممدوح على حق..

إنها نقوده ومن حقه أن يطلب بها، ويستغلها كما يشاء.. ولعله يهدأ بعد ذلك، ويستريح، وتستريح معه.. ولكنها لا تلبث أن تتمالك خيوط تفكيرها، وتتغلب على ضعف عاطفتها وتقدر واجبها كأم.. إن ممدوح لا يزال صغيرا.. مراهقا.. هذه الأحلام التى تداعبه هى أحلام مراهقين.. ويجب أن تحميه من أحلامه.. يجب أن تصر على أن يتم تعليمه الجامعى، أولا وقبل كل شيء.. قبل أن يضع يده فى نقوده، وقبل أن يكون حرا فى اختيار مستقبله.

والبنات فى غرفتهن، وقد خلعن ثيابهن وارتدين قمصان النوم.. وليلى جالسة فوق سريرها تضفر شعرها بأصابع مرتعشة.. ونبيلة تمشط شعرها أمام مرآتها.. وفيفى تعلق ثوبها داخل دولابها.. ووجوه الثلاث ممتقعة، وشفاههن مضمومة.. كل منهن تحاول أن تبدأ بالحديث، ولا تعرف من أين تبدأه؟ وأخيرا قالت فيفى ووجهها داخل الدولاب :

– يعنى سى ممدوح ماكانش يقدر يأجل الدوشة دى لبكرة.

وقالت ليلى وشفتاها ترتعشان :

– الحق مش عليه.. الحق على خالى، وهو اللى أخده فى أودة المكتب بعد أمين ما خرج.. وشوفى قال له ايه.. لازم كلام من اللى يطلع الروح.

وقالت نبيلة :

– الحقيقة ماكانش حق أبيه أحمد يضرب ممدوح.. ممدوح مابقاش صغير.

وقالت فيفى :

– يعنى كنتى عايزة يسيبه يكسر الدولاب.

وقالت ليلى :

– لو كان سابه كان بقى أحسن.

وارتفعت ضجة فى الشارع.. واصطنتت البنات إلى الضجة برهة.. ثم استطردت ليلى قائلة :

– ده لو ما كانش ممدوح عاقل، كان زمانه بيضارب مع أبيه أحمد لغاية دلوقت.

واقتربت الضجة من البيت.
واتجهت آذان البنات إلى الشارع.
وقالت فيفى :
– ايه الدوشة دى.
وقالت نبيلة وهى تحاول أن تبتسم :
– لازم ناس تانيين بيتخانقوا فى الشارع.. ماهو النهاردة يوم الخناق.. كل الناس لازم تتخانق.
وقالت فيفى فى تهكم :
– ده بمناسبة خطوبتى.
واقتربت الضجة أكثر.
أصبحت داخل حديقة البيت.
واتسعت عيون البنات فى ذعر، وازدادت وجوههن امتقاعا وانتصبت اذنا أحمد.. وهو جالس فى غرفته لا يستطيع حراكا.
ورفعت الأم رأسها من بين يديها.. وقلبها يضرب. ويضرب.. يضرب بقسوة حتى يكاد يحطم ضلوعها.. وخوف.. خوف كبير يملأ صدرها لا تدرى سببه..
وارتفع صوت عم عبدالله البواب فى الحديقة.. صوت أجش مبحوح كأنه يعلن الفناء :
– سى ممدوح.. سى ممدوح.
ثم خبطات عنيفة على باب البيت.
وصياح..
صياح كثير..
وجرى محمد السفرجى يفتح الباب.
وقفزت ليلى من فوق سريرها وخرجت من الغرفة.. ووقفت خلف الباب الذى يفصل بين حجرات النوم والصالة الخارجية.. ورأت ناسا كثيرين يدخلون.. بينهم واحد.. اتنين.. من شبان الحى، والباقون لا تعرفهم.. بعضهم يرتدون الجلاليب.. وبعضهم اطفال صغار حفاة.. وهم يحملون

شيئا.. يحملون شخصا.. وهى لا ترى من هذا الشخص إلا حذاءه.

إنها تعرف هذا الحذاء.

إنه حذاء ممدوح.

والناس الذين دخلوا يتكلمون.. كلهم يتكلمون.

وخرجت ليلى من خلف الباب، وهى بقميص النوم.. وعيناها متسعتان.. حتى لم يعد فى وجهها إلا عينان.. فيهما رعب.. وخوف.. ودهشة.. وصرخة متجمعة بين شفتيها لا تستطيع أن تطلقها.

ووضع الناس الشخص الذى يحملونه فوق الأريكة.

إنه ممدوح.

وجهه كتلة حمراء.. من الدم.. تشقها ابتسامة تكشف عن أسنانه.. ابتسامة فيها ألم.. كأنه يقول «آى» وهو يبتسم.. وكل شىء فيه ممزق.. ثيابه.. رأسه.. جسده.. ودم.. دم كثير.

وتعلقت عينا ليلى بجسد أخيها.. وأخذت تتراجع عنه.. وهى لا تزال تنظر إليه.. إنها خائفة.. خائفة.. والصرخة بين شفتيها لا تريد أن تنطلق، كأنها تعيش فى كابوس لا يستطيع صراخها أن يواتيها لينقذها منه.

ثم صرخت..

صرخت..

صراخا حادا مجنونا.. وهى لا تزال تتراجع بعيدا عن جسد أخيها.

ونبيلة قد خرجت.. ووقفت بجانب جسد أخيها كأنه كتلة من الهلع.. ثم صرخت :

- ممدوح.. ممدوح.. رد علىّ يا حبيبى.

ثم سقطت على الأرض بجانب قدميه.. وأخذت تقبل حذاءه.. وهى تردد:

- أخويا.. أخويا.

ودموعها تنسكب فوق الحذاء.. ولا تستطيع أن ترفع رأسها.. لتنظر إلى وجه أخيها.. إلى كتلة الدم.

وفيفى خرجت وهى تتمتم :

- ايه.. فيه ايه.. حصل ايه.

وناس يجيبونها، وهى لا تسمعهم، ثم التفتت إلى جسد أخيها، وصرخت :

- لأ.. لأ.. مش ممكن.. مستحيل.. أبدا.. لأ.. مش ممدوح.. مش ممدوح.. مش ممدوح.

والأم خرجت.. ووجهها قد ازداد بياضا حتى قفزت عروقها فوق جلدها.. وأخذت تنظر إلى الناس فى تساؤل وهلع.. وتبحث فى وجوههم كأنها تبحث بينهم عن ابنها ممدوح.. وشىء فى صدرها يحدثها أن ممدوح راقد فوق الأريكة.. ولكنها لا تستطيع أن تنظر إلى الأريكة.. يجب أن تنظر.. يجب.. لعل الهاتف الذى يحدثها يكذب عليها.. لعل ممدوح ليس راقدا فوق الأريكة.

والتفتت..

وارتعشت..

كل ما فيها يرتعش..

ورفعت يدها المرتعشة، ووضعتها فوق شفتيها المرتعشتين.. وأخذت تنظر إلى ابنها كأنها لا تعرفه.. كأنها لا تصدق عينيها.. هذه الكتلة الحمراء.. هذا الدم.. هو ابنها.

وصرخت.. صرخة حادة ترددت فى البيت كله.. كان البيت كله يصرخ معها.. الجدران.. والسقف، والأرض، وقطع الأثاث.

ثم سكتت صرختها مرة واحدة.

وسقطت فوق صدره.

واخذت تقبل وجهه.

تقبل الدم.

الدم فى شفتيها.

والدم فى يديها.

والدم فوق صدغيها.

وأحمد واقف وسط الغرفة مشدوها.. عيناه متحجرتان.. ووجهه داكن، يكاد يكون أسود.. وهو يتمتم بشفتيه كلاما خافتا، لا يسمعه أحد.

والناس واقفون، وعيونهم مليئة بالاستطلاع.. وبعضهم بدأ يبكى.. ولكنهم جميعا واقفون.

واقترب أحد شبان الحى من أحمد، ووضع كفه على كتفه. وقال :

- شد حيلك يا أحمد.. الحادثة حصلت عند أول الشارع.. وفكرت انى اجيبه هنا بدل ما يفضل هناك لغاية ما تيجى الإسعاف.

ولم يسمعه أحمد.

والتفت الشاب إلى الناس وقال لهم :

- اتفضلوا بأه يا جماعة.. عن اذنكم.

وخرج البعض من البيت، والبعض لا يزال واقفا يشاهد المأساة.. وعاد الشاب يقول، وهو يزيحهم بيديه :

- مايصحش يا أخوانا.. ياللا يا جماعة.

وخرج الناس كلهم.

والتفت الشاب إلى محمد السفرجى، قائلا :

- التليفون فين من فضلك.

ودخل وراء السفرجى ليتحدث فى التليفون.

وليلى سقطت جالسة على الأرض فى الركن البعيد من الصالة وهى لا تزال تنظر إلى جسد أخيها فى رعب.. وذهول.. كأنها جنت.. ونبيلة تمسح حذاء أخيها بدموعها.. وفيفى سقطت فوق مقعد تبكى.. والأم قد هدأت فوق صدر ابنها.. وقد كفت عن كل شىء.. عن الصراخ.. عن البكاء.. عن القبل.. كفت عن الحياة.. ووجهها ملتصق بكتلة الدم.. وأنفاسها تتردد بطيئة محشرجة.. وعيناها مغمضتان.

وأحمد لا يزال منتصبا وسط الغرفة، يبحلق فى جسد أخيه.. وهو لا يزال يتمتم بشفتين مرتعشتين.. وبدأ صوت تمتمته يرتفع :

- أنا.. أنا.. أنا.. أنا..

ثم صرخ بأعلى صوته :

- أنا اللى قتلته.. أنا اللى قتلته.. أنا اللى قتلته.

ثم انهار بجانب جسد أخيه، يبكى.. وبكاؤه يقتلع كل قطعة منه، ويهزه

هزا عنيفا، وهو يصيح فى كلمات مذبوحة :

– سـامـحنى يا أخـويا .. سـامـحنى يا مـمـدوح .. كل اللى أنت عـايزه يا ممدوح .. سامحنى .. سامحنى .. سامحنى .. ممدوح .. أخويا .

ثم انتفض واقفا، كالمارد المجنون، وصرخ :

– مش ممكن يسامحنى .. أنا اللى قتلته .. أنا اللى قتلته .. مش ممكن يسامحنى.

ثم خطا خطوات واسـعة، وأوقع فى طريقـه الآنيـة المحـملة بالزهور .. ودخل غرفته، وصفق الباب وراءه، وسقط على الأرض، وذراعاه معلقتان فوق حافة سريره .. وعاد يبكى .. بكاء حادا هستيريا يقتلع كل قطعة منه.

ورفعت نبيلة رأسها من فوق قدمى أخيها .. والتفتت خلال دموعها إلى أمـها، وهى منكفئـة فـوق صـدر ابنهـا .. ولاحظت هدوءها، وعـينيـهـا المغمضتين، وأنفاسها الثقيلة، المحشرجة .. فمدت يدها وهزتها هزا رقيقا وهى تناديها :

– ماما .. ماما .

ولم ترد الأم.

وهزتها نبيلة هزا عنيفا، وهى تصرخ :

– ماما .. ماما .

وسقطت الأم على الأرض ساكتة، كأن هزة ابنتها قد قتلتها .

وصرخت نبيلة مرة ثانية :

– ماما .. ماما .

ثم صاحت :

– تعالى يا فيفى شوفى ماما جرى لها ايه.

إنها فاقدة الوعى .. مغمى عليها .. ودم ابنها عالق بشفتيها، ويديها، وصدغيها .

وحاولت نبيلة وفيفى أن تتعاونا على حمل أمهما ليدخلاها إلى غرفتها، فلم يستطيعا حملها .

وقالت نبيلة فى لهفة :

- روحى هاتى قزازة الكولونيا.

واسرعت فيفى لتأتى بزجاجة الكولونيا، وأخذت نبيلة. تساوى الثوب فوق ساقى أمها، وتمسح الدم عن صدغيها وشفتيها بمنديلها.

وتحركت ليلى من مكانها.. وزحفت على يديها وركبتيها حتى اقتربت من جسد أخيها، واحتضنت ساقيه بذراعيها، وأخذت تبكى بكاء خافتا، وهى تهمس :

- ممدوح.. ممدوح.. حبيبى.. أخويا.. ممدوح.

وخرج الشاب الذى دخل يتكلم فى التليفون، ووقف ينظر إلى نبيلة، وهى منحنية بجانب أمها، وقال فى صوت حزين :

- أنا بلغت عزت بيه راجى.. فيه حاجة أقدر أعملها ؟

ورفعت نبيلة إليه عينيها الدامعتين، وقالت فى صوت خافت.

متشكرة.

ونظر إلى الأم، وقال :

- أطلب دكتور ؟

قالت نبيلة :

- متشكرة.. دلوقت تفوق.

وانحنى الشاب فوق الأم قائلا :

- النبض سليم ؟

وحاول أن يتحسس النبض، فقالت نبيلة فى حدة، كأنها تحمى أمها من أن تمسها يد غريب :

- من فضلك. سيبنا دلوقت.. إحنا متشكرين قوى.. وقال الشاب وهو يقوم واقفا :

- أنا حاستنى قدام البيت.. لو عزتم أى حاجة.. وخرج.

وجاءت فيفى بزجاجة الكولونيا.. وأخذت البنتان تدلكان أمهما وهما تبكيان.. وعندما فتحت الأم عينيها.. سقطت نبيلة على صدرها وأجهشت بالبكاء، وهى تقول :

- اعملى معروف يا ماما.. استحملى.. ما تسيبيناش لوحدنا.. احنا

مابقاش لنا إلا انتى.

وارتفع صوت ليلى خافتا :

- خلاص.. خلاص.. ممدوح خلاص.

وفيفى تبكى..

وتحاملت الأم على نفسها، واعتدلت جالسة على الأرض.. واحتضنت ابنتها، وبكت.

بكت كثيرا.

كأنها تستغيث بدموعها.

وجاء الخال.. وجاء صديقه عبدالسلام.. وجاء بعض الجيران.. رجال وجوههم حزينة.. ونساء ثيابهن سوداء.. ونقل جسد ممدوح إلى غرفته.. وامتلأ البيت بالحركة.. حركة صامتة حزينة.. والأضواء كلها مضاءة.. الأضواء التى استقبلت منذ ساعات خطيب فيفى.. تستقبل الآن المعزين.

وأحمد جالس فى غرفته.

جامد. لا يتحرك.. عيناه متحجرتان.. وجهه داكن لا يبكى.. غارق فى احساس جديد.. احساس يمزقه.. احساس بأنه قتل أخاه.

ودخل اليه خاله بعد فترة طويلة، وقال له :

- شد حيلك يا أحمد.

ولم يرد أحمد.. أدار عينيه ناحية خاله.. ثم لمعت عيناه لمعانا قويا مخيفا عندما سقطتا على وجهه.. لمعانا فيه تحد.. وفيه كراهية.. وفيه اتهام.. إن خاله هو الفاعل الأصلى.. هو الذى قتل أخاه.

وقال الخال وهو يفتعل الرقة، ويتعجب للنظرة التى تطل من عينى أحمد:

- مش تقوم تقعد مع الناس شوية.

وقال أحمد فى تحد :

- لأ.

قالها وهو يتحفز، كأنه على استعداد لأن يقتل خاله لو ناقشه.

وأحس الخال بالخوف من ابن اخته.

فقال وهو يتراجع :

- طيب بلاش.. خليك أنت.

وخرج من الغرفة سريعا، وأغلق الباب وراءه.

وبقى أحمد وحيدا.. جالسا على مقعده.. مفتح العينين. غارقا فى احساسه بالذنب.. احساسه بأنه قتل أخاه.

حتى الصباح.

ولم يعد يدرى ما يفعله.. إنه يتحرك كأنه فى حلم.. وهم يأخذونه ليغسل وجهه.. ويأخذونه ليرتدى ثيابه.. وهو يرى على صدره كرافتة سوداء.. إنه لم يكن يملك أبدا كرافتة سوداء.. ولا يدرى من أين أتت إليه هذه الكرافتة؟ وهم يأخذونه ليجلس على مقعد من الخيزران، فى حديقة الدار.. ويصافح ناسا كثيرين.. وفى داخل البيت نساء كثيرات.. كلهن متشحات بالسواد.. وبكاء.. وصراخا.. ثم يأخذونه فى سيارة ليقفوا به أمام سرادق كبير مقام فى ميدان التحرير.. لماذا ميدان التحرير؟ لا يدرى.. ولكن جانبا من عقله لا يزال واعيا.. إنه يعلم أن جثمان ممدوح سيشيع من هنا.. من ميدان التحرير.. لماذا اختاروا ميدان التحرير.. لابد أن خاله هو الذى قرر ذلك، استكمالا لمظاهر مركزه.. ولكنه لا يجب أن يخرج ممدوح من ميدان التحرير... إن أحدا لم يستشره.. واحدا لم يستشر ممدوح.. ربما كان ممدوح يفضل أن يخرج من بيته كعادته كل صباح.

وناس كثيرون يصافحونه.. زملاؤه فى الوزارة، واقاربه.. وشباب يحملون اكليلا كبيرا من الورد.. لابد أنهم زملاء ممدوح.. ناس كثيرون لا يعرفهم.. ورجل يرتدى بدلة العمال الزرقاء، يقف عند مدخل السرادق، لا يريد أن يدخل.. ويبكى.. يبكى بدموع صامتة.. ويهز رأسه بين الحين والحين، ويمصمص شفتيه.. ويرفع صوته ليقول « لا حول ولا قوة إلا بالله».. و.. وهو يرى كل هؤلاء من بعيد.. يراهم من خلال طبقة من الدموع تكسو عينيه ولا تريد أن تنهمر.. كأنه أشباح.. كأنه يحلم.

هل يعلم كل هؤلاء الناس..

هل يعلمون أنه هو الذى قتل أخاه؟

وأحس بنوع من الخوف.. الخوف من الناس.. وأخذ يصافحهم وهو يشد يده من كل يد يصافحها، كأنه يخشى أن تقبض عليه.

وأحس أن خاله واقف بجانبه.. فالتفت إليه، ولمعت عيناه هذا اللمعان القوى المخيف.. لمعان فيه تحد.. وفيه كراهية.. وفيه اتهام.

وجاء ممدوح محمولا على الأعناق، ملفوفا فى وشاح أبيض كشبابه.. كقلبه.. كضميره.. كابتسامته.

وارتفع نشيج الرجل الذى يقف على باب السرادق يرتدى بدلة العمال.

ومد الخال يده ولمس ذراع أحمد، فنزع أحمد ذراعه من يد خاله فى عنف وفى تمرد.

ثم سار على قدميه: يسنده اثنان لا يعرفهم.. أو ربما كان يعرفهم.. لا يدرى.. فهو لا يراهم.

سار فى الموكب الحزين الصامت.. وصوت الأقدام الزاحفة يملأ أذنيه، ورأسه، وصدره، كأنه نشيج الأرض.

وأوقفوه مرة ثانية.. وبدأ يصافح الناس من جديد.. إن يده لم تعد تحس بالأيدى التى تصافحها.. كأنه فقد حاسة اللمس.. وهو يرى الناس أبعد مما كان يراهم.. إنه لا يكاد يراهم.

وأركبوه سيارة.. سارت به.. وهو يرى امامه سيارة ممدوح.. وخيل إليه أنه يحاول أن يلحق بها.. يريد أن يصيح فى السائق يأمره بأن يسرع.. أسرع يا أسطى.. لنلحق بممدوح.. ولكن لا.. إنه لن يلحق به أبدا.

وخاله بجانبه.. إنه لا يريد أن يتركه أبدا.. كأنه يصر على أن يذكره بجريمته.. هذا القاتل.

ودخلوا به إلى المقبرة.

إنه يعلم أنها المقبرة

وجسد ممدوح ملفوف فى وشاح أبيض كشبابه.. كقلبه.. كضميره.. كابتسامته.. وهم ينزلون به إلى تحت.. إلى تحت الأرض.. وأحمد ساهم.. فاغر فاه.. كأنه دهش.. أين يذهبون بأخيه؟ لقد اختفى أخوه.. وأصوات مزعجة تقرأ آيات.. لعلها آيات القرآن.. وناس كثيرون يقفون فى الخارج..

سيصافحونه مرة أخرى.

وبدأوا يغلقون القبر.. وهم يدقون الأرض ليساووا فوقها التراب.. دقات ثقيلة، كثيرة.. وخيل إلى أحمد أن هذه الدقات فوق رأس أخيه ممدوح.. لا.. لا.. لا تدقوا فوق رأس أخي.. وصرخ بأعلى صوته :

- ابعدوا عن أخويا.. ماتدقوش فوق رأسه.. ابعدوا.. بطلوا خبط.

وعمال التربى لا يزالون يدقون الأرض.

وأحمد يحس أن هذه الدقات فوق رأس أخيه.. لا.. إنها دقات فوق رأسه.. رأسه هو.. وهجم على العمال يحاول أن يبعدهم عن القبر، وهو يصرخ :

- ماتدقوش.. ماتدقوش.

وأحاط به الناس، وأمسكوه من ذراعيه، ومن كتفه، وصوت أجش يقول له :

- كفاية يا أستاذ أحمد.. ماتعملش كدة.. استحمل امال.

وتنبه أحمد إلى ما يفعله.

وغرق فى نوبة بكاء حادة.

ثم جرى..

جرى بعيدا عن القبر.. ومر بين الناس دون أن يراهم.. وخرج من المقبرة كلها.. وشدته يد ودفعته إلى داخل سيارة.

ووجد نفسه فى البيت مرة ثانية.

ودخل غرفته، وحاولت أخته وزوجة خاله أن يدخلا معه، وقال لهما بهدوء :

- اعملوا معروف.. سيبونى لوحدى.

وخرجا.

واقفل على نفسه الباب.

وعاد يبكى.

والبيت قد خفت عنه ضجة المعزين.. وشمله هدوء حزين.. تتحرك فيه أشباح متشحة بالسواد.. وضوء باهت أشبه بالظلام.. كأن الشمس قد

اطفئت.. وأفراد العائلة يجرون بخيالهم إلى ما وراء الحياة.. إلى حيث انتقل ممدوح.. ثم تغلبهم الحياة فيعودون إليها، وتراود عقولهم مشاكلهم الخاصة.

إن فيفى تفكر حينا فى الأستاذ أمين عبدالسيد.. إنه انسان شؤم.. كل الناس سيقولون عنه إنه شؤم.. لقد مات أخوها فى نفس اليوم الذى جاء يزورهم لأول مرة ليخطبها.. لن يخطبها.. سترفض خطبته.. إنها تعسة.. بائسة الحظ.. حتى الرجل الذى قبلت أن تخطب إليه دون أن تحبه يجر عليها وعلى البيت كله الشؤم.. حظها التعس.. شقاؤها الأبدى.. ليس من حقها أبدا أن تكون كبقية البنات.. وأن يكون لها رجل كبقية البنات.. وتبكى فيفى.. وتتذكر أخاها ممدوح فيشتد بكاؤها، كأنها تستعين بذكراه لتبكى على نفسها.. وعلى حظها.

وليلى.. يراودها فى فترات متباعدة مصير خطبتها لعصام.. لابد أن يؤجل موعد القران بعد أن مات ممدوح.. يؤجل عاما على الأقل.. وهى تشعر بفرحة خبيثة لأن عقد قرانها سيؤجل.. وستطول مدة خطبتها.. ومن يدرى ماذا يمكن أن يحدث خلال هذه المدة.. ربما حدث ما يفسخ الخطبة.. ربما حدث معجزة تجعلها تتزوج فتحى. كأن تموت زوجته.. لماذا لم تمت زوجة فتحى بدلا من ممدوح؟ وليلى تنظر إلى الدبلة التى تحمل اسم فتحى، ثم تبكى.. تبكى بكاء حادا.. تبكى ممدوح، وتبكى معه حياتها.

ونبيلة تفيق من حزنها لحظات وتسائل نفسها.. هل كان محمود بين المعزين.. وهل من حقه أن يجىء ليعزى عائلتها رغم أنه ليس خطيبها.. وهل حزن لحزنها.. وهل بكى لبكائها؟ أم أن الحزن والبكاء ليسا من حقه أيضا مادام لم يخطبها.. وهل يخطبها بعد أن مات شقيقها؟ و.. وتعود تبكى.. تبكى ممدوح وتبكى حالها.

والأم قد فرغت دموعها.. إنها تجلس ساهمة.. وتتحرك ساهمة.. وكل شىء حولها يذكرها بممدوح.. أشياء صغيرة كثيرة تذكرها.. أشياء لم تكن تعتقد أنها احتفظت بها فى ذاكرتها.. كل يوم من أيام ممدوح منذ ولدته يضم ملايين الأشياء الصغيرة.. وكل هذه الأشياء تتزاحم فى خيالها،

وتهجم على قلبها، تكاد تفتته.. ووجه ممدوح كما شهدته آخر مرة يقفز أمام عينيها.. كتلة الدم.. وطعم دمه في شفتيها.. وتكاد تراه في يدها.. وفوق صدغيها.. وتهز رأسها في يأس، وتتمتم :

– الحق عليّ.. أنا اللى غلطانة.. أنا.. أنا.. يا ريتنى كنت اديتك الفلوس يا حبيبى.. يا ريتنى كنت سمعت كلامك.. يا ريتنى كنت مت قبلك يا ممدوح.. ليه كده يا ممدوح.. حرام عليك تعمل فىّ كده يا ابنى.. و..

ويسعفها نهر جديد من الدموع.. وتقوم تدور فى الغرف كأنها تهرب من نفسها.. من لوعتها.. ثم تتجه دون وعى إلى غرفة ممدوح.. وتدخلها.. وتغلق الباب وراءها.. كأنها لا تجد ما تهرب إليه إلا العذاب.

والأيام تمر.

وأحمد جالس فى غرفته وحيداً.. وقد يخرج من الغرفة حيناً وقد يأكل، وقد يسمع ناسا يخاطبونه، وقد يسمع نفسه يرد عليه.. ولكنه لا يحس بكل هذا.. إنه غارق دائماً فى إحساسه بالذنب.. إحساسه بأنه قتل أخاه.. وكتلة الدم تتراءى أمام عينيه.. وتعذبه يكاد يصرخ أحياناً.. ثم يستجمع كل إرادته ليحاول أن يتخلص من هذا الإحساس، فيلقى بالذنب على خاله.. إن خاله هو السبب.. هو المجرم.. هو الذى قتل ممدوح.. ويشعر برغبة فى الانتقام من خاله.. يريد أن يقتله.. أن يحيله إلى كتلة لزجة من الدم.. ويجز على أسنانه.. ويخبط على مسند المقعد بقبضته، كأن فى قبضته سكيناً يطعن به خاله.. يطعنه.. يطعنه.. ولكنه ليس خاله.. إنها عقلية خاله.. عقلية خالة هى التى قتلت ممدوح.. وهى عقلية تعيش فى أشخاص كثيرين، وقتلت أشخاصاً كثيرين كممدوح.. وأحس أحمد بأن هذه العقلية تعيش فى نفسه أيضا.. وأحس بأنه يريد أن يقتلها فى نفسه.. يريد أن يقتل شيئا يعيش فى صدره وفى رأسه.

رقم الإيداع ٥٨٩٤/٩٨
الترقيم الدولى
I. S. B. N
977 - 08 - 0741 - 9

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

طبع بمطابع أخبار اليوم